

الكشاف

عن

حَقَائِقُ غَوَامِضِ النَّزِيلِ وَعَيُونُ الْأَقَاوِيلِ
فِي وَجْهِ النَّاوِيلِ

لِلْعَلَّامَةِ جَارِ اللَّهِ أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مُحَمَّدٍ
(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تَحْقِيقٌ وَتَعْلِيلٌ وَدِرَاسَةٌ

السَّيِّحُ عَادِلُ أَحْمَدَ عَبْدِ الْمَوْجُودِ الشَّيِّحُ عَلِيُّ مُحَمَّدٍ مَعْوُضٍ

شَارَكَ فِي تَحْقِيقِهِ

الْأَسَازُ الدُّكْتُورُ فَتْحِي عِبْدُ الرَّحْمَنِ أَحْمَدُ حِمَارِي
أَسَازُ الْبَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ بَكْلِيَّةُ الْلُغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَامَعَةِ الْأَزْهَرِ

الْجِزَّةُ الثَّالِثَةُ

مَكْتَبَةُ الْعَبِيدِكُنْ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

الكشاف



سُورَةُ التَّوْبَةِ

مَدِينَةُ [إِلَّا الْآيَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ فَمَكِّيَّتَانِ]

وآيَاتُهَا ١٣٠ وَقِيلَ ١٢٩ [نَزَلَتْ بَعْدَ الْمَائِدَةِ]

لها عدة أسماء: براءة التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة/ ٢٨٣ب، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدة، سورة العذاب، لأنَّ فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشش من النفاق أي: تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث^(١) عنها، وتثيرها، وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم، وعن حذيفة - رضي الله عنه -: إنكم تسمونها سورة التوبة؛ وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه.

فإن قلت: هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟

قلت: سأل عن ذلك عبد الله بن عباس عثمان - رضي الله عنهما - فقال: إن رسول الله - ﷺ - كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية، قال: «أَجْعَلُهَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُذَكَّرُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا» وتوفي رسول الله - ﷺ - ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها^(٢)؛ فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين (٦٥٨)، وعن أبي كعب: إنما

٦٥٨ - أخرجه أبو داود (٢٠٨/١ - ٢٠٩) كتاب الصلاة: باب من جهر بها، حديث (٧٨٦ - ٧٨٧)، والترمذي (٢٧٢/٥): كتاب تفسير القرآن: باب: ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٨٦)، والنسائي في فضائل القرآن (٣٢)، وأحمد (٥٧/١) و٦٩ وابن أبي داود في «المصاحف» ص (٣٩)، والبيهقي في سننه الكبرى (٤٢/٢)، والحاكم في المستدرک (٢٣٢/٢) و٢٢١ (٣٣٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وابن جبان (٢٣٢/١) رقم (٤٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٥٢/٧ - ١٥٣) وعزاه الزيلعي في تخریج الکشاف (٤٨/٢) إلى إسحاق بن راهويه، وأبي يعلى الموصلي، والبخاري في مسانيدهم، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٧٥)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر والنحاس في ناسخه، وإلى أبي الشيخ وإلى ابن مردويه في تفسيره.

=

(١) قوله: «تبحث» لعله أي تبحث (ع).

(٢) قوله: «شبيهة بقصتها» هذا الضمير للأنفال، بدليل التشبيه، وإن لم يجر لها ذكر هنا. وعبرة الخازن ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت التوبة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها... إلخ (ع).

توهموا ذلك؛ لأنَّ في الأنفال: ذكر اليهود، وفي براءة: نبذ اليهود، وسئل ابن عيينة - رضي الله عنه - فقال: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والمحاربة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسْلَمْتُمْ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]، قيل: فإنَّ النبي - ﷺ - قد كتب إلى أهل الحرب: بسم الله الرحمن الرحيم، قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم؛ ألا تراه يقول: «سلام على من اتبع الهدى» (٦٥٩) فمن دعي إلى الله - عز وجل - فأجاب، ودعي^(١) إلى الجزية فأجاب، فقد اتبع الهدى، وأما النبذ، فإنما هو البراءة واللعنة، وأهل الحرب لا يسلم عليهم، ولا يقال: لا تفرق ولا تخف، ومترس^(٢)، ولا بأس: هذا أمان كله، وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة، كلتاها نزلت في القتال، تعدان السابعة من الطول^(٣)، وهي سبع وما بعدها المثنون، وهذا قول ظاهر؛ لأنهما معاً مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطول، وقد اختلف أصحاب رسول الله - ﷺ - فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة. وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لقول من قال: هما سورة واحدة.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ۖ فَسَيْحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾

قال الحافظ: أخرجه أصحاب السنن، وابن جبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبزار. من طريق يوسف بن مهران. ويزيد الفارسي. عن ابن عباس. قال: «سألت عثمان بن عفان، ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، فذكر الحديث بطوله سوى قوله: وكانتا تدعيان القرينتين، فلم يذكرها إلا إسحاق... انتهى.

٦٥٩ - أخرجه البخاري (٤٦/١): كتاب بدء الوحي حديث (٧)، ومسلم (٣٤٦/٦) - النووي) كتاب الجهاد والسير: باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوهُ إلى الإسلام، حديث (١٧٧٣ / ٧٤)، وأبو داود (٤ / ٣٣٥) كتاب الأدب: باب كيف يكتب إلى الذمي، حديث (٥١٣٦)، والترمذي (ح ٦٩ / ٥) كتاب الاستئذان: باب ما جاء كيف يكتب إلى أهل الشرك، حديث (٢٧١٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس عن أبي سفيان، فذكره.

قال الحافظ: هو في حديث ابن عباس الطويل عن أبي سفيان وهو متفق عليه. وفيه: فقرأ الكتاب: «فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى... الحديث. انتهى.

- (١) قوله: «ودعي» لعله: أو دعي (ع).
- (٢) قوله: «ومترس» بفتح الميم والتاء وسكون الراء: فارسي، معناه: أمان (ع).
- (٣) قوله: «من الطول» الطول - بكسر ففتح - بمعنى الطويلة. أفاده الصحاح. وعبرة غيره: الطوال.

﴿بَرَاءَةٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه براءة، و﴿مِنْ﴾: لا ابتداء الغاية، متعلق بمحذوف، وليس بصلة؛ كما في قولك: برئت من الدين، والمعنى: هذه براءة واصله من الله ورسوله، ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾: كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان، ويجوز أن يكون: (براءة): مبتدأ؛ لتخصيصها بصفقتها، والخبر: (إلى الذين عاهدتم)؛ كما تقول: رجل من بني تميم في الدار، وقرىء: (براءة): بالنصب، على: اسمعوا براءة، وقرأ أهل نجران: (من الله): بكسر النون، والوجه الفتح مع لام التعريف؛ لكثرة، والمعنى: أن الله ورسوله قد برثا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه^(١) منبوذ إليهم.

فإن قلت/ ٢٨٤أ: لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟

قلت: قد أذن الله في معاهدة المشركين أولاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله - ﷺ - وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد، أوجب الله - تعالى - النبد إليهم، فخطب المسلمون بما نجدد من ذلك، فقبل لهم: اعلموا أن الله ورسوله قد برثا مما عاهدتم به المشركين، وروي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب، فنكثوا إلا ناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبد العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤوا لا يتعرض لهم، وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فَإِذَا أَشْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ [التوبة: ٥]، وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد، فأمر رسول الله - ﷺ - أبا بكر - رضي الله عنه - على موسم سنة تسع، ثم أتبعه علياً - رضي الله عنه - راكب العضباء، ليقرأها على أهل الموسم، فقبل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر - رضي الله عنه -؟ فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما دنا عليّ سمع أبو بكر الرغاء، فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله - ﷺ - فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور، وروي أن أبا بكر لما كان ببعض الطريق، هبط جبريل - عليه السلام - فقال: يا محمد، لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك، فأرسل علياً، فرجع أبو بكر - رضي الله عنهما - إلى رسول الله -

(١) قال محمود معناه: «أن الله ورسوله قد برثا من العهد الذي عاهدتم به المشركين... إلخ» قال أحمد: ورواه ما ذكره سر آخر هو المرعي، والله أعلم. وذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النبد من المشركين، لا تحسن شرعاً. ألا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ لأمرء السرايا حيث يقول لهم: وإذا نزلت بحصن فطلبوا النزول على حكم الله فأنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أصادفت حكم الله فيهم أو لا؟ وإن طلبوا ذمة الله فأنزلهم على ذمتك، فلان تخفر ذمتك خير من أن تحفز ذمة الله. فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوقير ذمة الله مخافة أن تخفر وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوقير عهد الله وقد تحقق من المشركين النكث، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبوذ إلى الله أخرى وأجدر، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه، والله أعلم.

ﷺ - فقال: يا رسول الله، أشيء نزل من السماء، قال: نَعَمْ، فَبَسُرْتُ وَأَنْتَ عَلَى الْمَوْسِمِ، وَعَلَيَّ يُنَادِي بِالْأَيِّ». فلما كان قبل التروية، خطب أبو بكر - رضي الله عنه - وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي - رضي الله عنه - يوم النحر عند جمره العقبة، فقال: يا أيها الناس، إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية (٦٦٠)، وعن مجاهد - رضي الله عنه - ثلاث عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده، فقالوا: عند ذلك يا علي، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرمح وضرب بالسيف، وقيل: إنما أمر ألا يبلغ عنه إلا رجل منه، لأن العرب عاداتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر - رضي الله عنه - لجاز أن يقولوا: هذا

٦٦٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٥٠/٢) غريب، وفي سيرة ابن هشام بعضه في غزوة تبوك، وكذا في دلائل النبوة للبيهقي، وكذا في تفسير الطبري أ.هـ. وأخرجه ابن هشام في سيرته (٢٢٢/٤ - ٢٢٣ - ٢٢٤) رقم (١٩١١)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٢٩٣/٥ - ٢٩٥)، والطبري في تفسيره (٣٠٧/٦) رقم (١٦٣٩١) بسنده عن ابن إسحاق مرسلاً. وأخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (١٠٠/١) رقم (١٠٤)، ورواه أحمد في مسنده (٣/١) بهذا الإسناد من طريق وكيع بن الجراح، ثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن شريح، عن أبي بكر الصديق أن النبي ﷺ بعثه ببراءة إلى أهل مكة... فذكره، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٢٤١ - ٢٤٢)، وقال: في الصحيح بعضه - رواه أحمد ورجاله ثقات. قال الحافظ:

(قلت): هذا ملفق من مواضع. فصدره مذكور في مغازي ابن إسحاق. وقوله: «وهم بنو ضمرة وبنو كنانة أي الذين نكثوا إلا من استثنى منهم كما يفهم من ظاهره. وسيأتي بيان ذلك قريباً بعد أحاديث؛ وذلك أن العهد كان في سنة ست والنكت ونزولها والفتح في سنة ثمان؛ كما سيأتي بعد قليل: أن المدة التي بلا نكت كانت ثمانية عشر شهراً. فعلى هذا كان أول النكت. في شهر ربيع الآخر سنة ثمان هذا هو التحقيق في النقل، وأما قوله: «وكان الأمير بها أي في سنة ثمان على مكة وعلى الحج. فهذا ذكره الواقدي في المغازي. وأما قوله: «فأمر أبو بكر على موسم سنة تسع إلى آخره»، فهو في الصحيح من حديث أبي هريرة بمعناه.

وأما قوله: وأتبعه علياً فرواه أحمد، وأبو يعلى من رواية أبي إسحاق عن يزيد بن منيع عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - «أن النبي ﷺ بعثه ببراءة إلى أهل مكة. فذكر الحديث وفيه فسار ثلاثاً، ثم قال لعلي: الحقه ورد على أبا بكر وبلغها قال ففعل، فلما قدم أبو بكر بكى، وقال: يا رسول الله حدث في شيء؟ قال: ما حدث فيك إلا خير. لكنني أمرت أن لا يبلغ إلا أنا أو رجل مني»، وفي المستدرک من طريق جميع بن عمير: «أتيت ابن عمر فسألته عن علي فأنتهرنني، ثم قال: ألا أحدثك عن علي إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وعمر ببراءة إلى أهل مكة فانطلقا فإذا هما براكب فقالا: من هذا؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب، فقال: يا أبا بكر هات الكتاب، الحديث. وروى... انتهى.

خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود، فأزاحت علتهم بتولية ذلك عليًا - رضي الله عنه - .

فإن قلت: الأشهر الأربعة ما هي؟

قلت: عن الزهري - رضي الله عنه - أن براءة نزلت في شوال، فهي أربعة أشهر: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من شهر / ٢٨٤ ب ربيع الآخر، وكانت حرماً؛ لأنهم أومنوا فيها، وحرم قتلهم وقتالهم، أو على التغليب؛ لأن ذا الحجة والمحرم منها، وقيل: لعشر من ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأول؛ لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسء الذي كان فيهم، ثم صار في السنة الثانية من ذي الحجة.

فإن قلت: ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم، وقد صانها الله تعالى عن ذلك؟

قلت: قالوا: قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها، ﴿عَبْرَ مُعْجِزِ اللَّهِ﴾: لا تفوتونه وإن أمهلكم، وهو مخزيكم، أي: مذلکم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَصَيْتُمْ مُعْجِزَ اللَّهِ وَنَشِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣)

﴿وَأَذَانٌ﴾: ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها، ولا وجه لقول من قال: إنه معطوف على براءة، كما لا يقال: عمرو معطوف على زيد، في قولك: زيد قائم، وعمرو قاعد، و«الأذان»: بمعنى: الإيذان، وهو الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى: الإيمان والإعطاء.

فإن قلت: أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟

قلت: تلك إخبار بثبوت البراءة، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت.

فإن قلت: لم علقت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟

قلت: لأن البراءة: مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأما الأذان: فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث، ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: يوم عرفة، وقيل: يوم النحر؛ لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، من الطواف، والنحر، والحلق، والرمي، وعن علي - رضي الله عنه - : أن رجلاً أخذ بلجام دابته فقال:

ما الحج الأكبر؟ قال: يومك هذا، خل عن دابتي (٦٦١)، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: «هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» (٦٦٢) ووصف الحج بالأكبر؛ لأن العمرة تسمى الحج الأصغر، أو جعل الوقوف بعرفة هو الحج الأكبر؛ لأنه معظم واجباته؛ لأنه إذا فات فات الحج، وكذلك إن أريد به يوم النحر؛ لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج - فهو الحج الأكبر، وعن الحسن - رضي الله عنه -: سمي يوم الحج الأكبر؛ لاجتماع المسلمين والمشركين

٦٦١ - أخرجه الطبري في تفسيره (٣١٢/٦) رقم (١٦٤١٩)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٥١/٢) رقم (٥٢٢) إلى ابن أبي شيبة في مصنفه في الحج.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة والطبري من رواية شعبة عن الحاكم عن يحيى بن الجزار عن علي: «أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبابة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته، وسأله عن الحج الأكبر فقال: هو يومك هذا، خل سبيلها. انتهى.

٦٦٢ - أخرجه البخاري (٤٠٢/٤): كتاب الحج: باب الخطبة أيام منى، حديث (١٧٤٢)، وأطرافه في (٤٤٠٣ - ٦٠٤٣ - ٦١٦٦ - ٦٧٨٥ - ٦٨٦٨ - ٧٠٧٧)، وأبو داود (١٩٥/٢): كتاب الحج: باب يوم الحج الأكبر، حديث (١٩٤٥). وابن ماجه (١٠١٦/٢): كتاب المناسك: باب رمي الجمار أيام التشريق، حديث (٣٠٥٨)، والبيهقي (١٣٩/٥) في السنن الكبرى، والحاكم في المستدرک (٣٣١/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، وأكثر هذا المتن مخرج في الصحيحين إلا قوله: «إن يوم الحج الأكبر يوم النحر سنة»، فإن الأقاويل فيه عن الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - على خلاف بينهم فيه، فمنهم من قال: يوم عرفة، ومنهم من قال: يوم النحر، وابن سعد في «الطبقات الكبرى»: (١٤٠/٢)، والطبراني في «المعجم الصغير»: (٢/١١٩)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٢٧٤/٨) في ترجمة سعيد بن عبد العزيز، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٣١٥/٦) رقم (١٦٤٦١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣٨١/٣) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمر به.

وأخرجه الترمذي (٢٨٢/٣): كتاب الحج: باب ما جاء في يوم الحج الأكبر، حديث (٩٥٧) مرفوعاً عن علي به.

و(٢٨٢/٣) كتاب الحج باب ما جاء في يوم الحج الأكبر، حديث (٩٥٨) موقوفاً، وقال: وهذا أصح من الحديث الأول. و(٢٧٤/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة حديث (٣٠٨٨) مرفوعاً عن علي به، وحديث (٣٠٨٩) موقوفاً.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٥٣/٢) إلى أبي نعيم في تاريخ أصبهان. قال الحافظ:

أخرجه البخاري تعليقاً وأبو داود والحاكم من رواية هشام بن الغاز عن نافع عن ابن عمر مطولاً، ورواه الطبراني والطبري وأبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم مختصراً من طريق سعيد بن عبد العزيز عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما -: «أن رسول الله ﷺ رمى الجمرة يوم النحر. وقال: هذا يوم الحج الأكبر»، وفي الباب عن علي - رضي الله عنه، أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً. وعن ابن أبي أوفى عند الطبراني. وعن ابن مسعود في تاريخ أصبهان لأبي نعيم في ترجمة عمر بن هارون. انتهى.

فيه، وموافقته لأعياد أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم على قلب كل مؤمن وكافر، حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفاً، وقرئ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: بالكسر؛ لأنَّ الأذان في معنى القول، ﴿وَرَسُولِهِ﴾: عطف على المنوي في: ﴿بَرِيءٌ﴾، أو على محل: ﴿إِنْ﴾ المكسورة واسمها، وقرئ: بالنصب، عطفاً على اسم: ﴿إِنْ﴾، أو لأنَّ الواو بمعنى مع، أي: برىء معه منهم، وبالجَزَّ على الجوار، وقيل: على القسم؛ كقوله: لعمرك، ويحكى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأها، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله، فأنا منه برىء، فلببه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فعندها أمر عمر - رضي الله عنه - بتعلم العربية، (٦٦٣) ﴿فَإِنْ بُنِيتُمْ﴾: من الكفر والغدر، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: عن التوبة، أو ثبتم على التولي والإعراض / ٢٨٥ عن الإسلام، والوفاء، فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى، ولا فائتين أخذه وعقابه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤)

فإن قلت: مم استثنى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾؟^(١)

٦٦٣ - ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٣٨٣)، وعزاه إلى أبي بكر محمد بن القادح الأنباري في كتابه «الوقف والابتداء»، وابن عساكر في تاريخه عن أبي مليكة - رضي الله عنه - قال: قدم أعرابي في زمان عمر - رضي الله عنه - . . . فذكره.
قال الحافظ:

لم أجده بإسناده وذكره القرطبي في التذكرة عن ابن أبي مليكة قال: قدم أعرابي في زمن عمر فذكره أتم منه، وزاد في آخره: وأمر بأبي الأسود، فوضع النحو اهـ، والمشهور أن الذي أمر أبا الأسود بوضع النحو علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت مم هذا الاستثناء قلت وجهه أن يكون مستثنى . . . إلخ» قال أحمد: ويجوز أن يكون قوله فسيحوا خطاباً من الله تعالى للمشركين غير مضمّر قبله القول، ويكون الاستثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين لا الباقين على العهد، فأتوا إليهم أيها المسلمون عهدهم، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين في قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ إلى خطاب المشركين في قوله (فسيحوا) ثم الالتفات من التكلم إلى الغيبة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عِزٌّ مُّعِزٌّ لِلَّهِ﴾ وأن الله وأصله واعلموا أنكم غير معجزني وأنا، وفي هذا الالتفات بعد الالتفات الأول افتنان في أساليب البلاغة وتفخيم للشأن وتعظيم للأمر ثم يتلو هذا الالتفات العود إلى خطاب المسلمين بقوله: إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فأتوا، وكل هذا من حسنات الفصاحة وإنما بعث الزمخشري على تقدير القول قبل (فسيحوا) مراعاة أن يطابق قوله فأتوا، إذا المخاطب على هذا التقدير المسلمون أولاً وثانياً ولا يكون فيه شيء من الالتفاتات المبنية على التأويل الذي ذكرناه، وكلا الوجهين ممتاز بنوع من البلاغة وطرف من الفصاحة، والله أعلم.

قلت: وجهه أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢٤]؛ لأن الكلام خطاب للمسلمين، ومعناه: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فقولوا لهم: سيحوا، إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتوا إليهم عهدهم «والاستثناء» بمعنى: الاستدراك، وكأنه قيل: بعد أن أمروا في الناكثين، ولكن الذين لم ينكثوا فأتوا عليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفي كالغادر، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن قضية التقوى ألا يسوى بين القبيلين فاتقوا الله في ذلك، ﴿لَمْ يَنْقُضُوكُمْ شَيْئًا﴾: لم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم قط، ﴿وَلَمْ يَظْهَرُوا﴾: ولم يعاونوا، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: عدواً، كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله - ﷺ - وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله - ﷺ - فأنشد [من الرجز]:

لَاهُمْ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّداً جَلَفَ أَبِيْنَا وَأَبِيكَ الْأَثَلَدَا
إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ الْمُؤَكَّدَا
هُمْ بَيِّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجَّدَا وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجَّدَا^(١)

(١) إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ذمامك المؤكدا
وزعموا أن لست تنجي أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا في الحطيم هجدا وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا في فيلق كالبحر يجري مزيدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا إن شيم خطب وجهه تربدا

لعمرو بن سلام الخزاعي. لما خرج رسول الله ﷺ من مكة أعانت قريش بني بكر على حرب بني خزاعة، ففزع عمرو إليه بالمدينة وأنشده ذلك، فقال ﷺ: لا نصرت إن لم أنصركم. و«لاهم» أصله اللهم، خفف وأظهر في مقام الإضمار للدلالة على التعظيم والتهيج لما أراده. والحلف: العهد. والأتلد: الأقدم. والتفت إلى الخطاب للاستعطاف. وجعله كالأب لهم لمراعاته مصالحهم. وعطف بثمة للترتيب في الإخبار ونزع إليه كناية عن نقض العهد. و«الذمام» العهد. وقيل: جمع ذمة بمعنى العهد أيضاً. وروي «ميثاقل». وأذل، وأقل، بمعنى أذلاء قليلون، فليس مفيداً للزيادة. ويجوز أنه على بابهِ بالنظر لزعمهم، أي: أذل وأقل مما زعموا فيك وفي قومك. و«الحطيم» معروف، كانوا في الجاهلية يحلفون فيه فيحطم الكاذب. ويروى «بالأثير» والأثير: الطريق، وواحدة وتيرة. وهو هنا اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة. و«الهجدا» جمع هاجد، وهو المتيقظ من النوم للعبادة. و«العتيد» الحاضر، يقال: عتده تعتيداً، وأعتده إعتاداً: هياً وأحضره، فهو عتيد وأعتد. وفيه جعل اسم التفضيل بمعنى المفعول، فعله من عتد إذا حضر. والأصل أعده إعداداً فأبدلت الدال تاء، و«هداك الله» جملة اعتراضية دعائية. و«المدد» الزيادة: أي يأتوا زيادة لنا تعيننا على أعدائنا. وفي الإضافة إلى الله تهيج لهم. و«الفيلق» الجيش المزدحم المتكاثف. كالبحر في الكثرة وسرعة السير. و«المزبد» المخرج للرغوة من شدة السير والغليان. «يسمو» يعلو «صعداً» أي صعدوا. «إن شيم» أي رؤي. وروي بالمهملة: أي أحق، «تربدا» أي تغير وصار مغيراً كلون الرماد. =

فقال عليه الصلاة والسلام: «لَا تُصِرْتُ إِنْ لَمْ تُصِرْكُمْ» (٦٦٤) وقرئ: «لم ينقضوكم»، بالضاد معجمة، أي: لم ينقضوا عهدكم، ومعنى: ﴿فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ﴾: فأدّوه إليهم تماماً كاملاً، قال ابن عباس - رضي الله عنه -: بقي لحى من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فاتم إليهم عهدهم.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَعَدُّوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

انسلك الشهر؛ كقولك: انجرد الشهر، وسنة جرداء، و﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾: التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: الذين نقضوكم وظاهروا عليكم، ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾: من حل أو حرم، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: وأءسروهم، والأخيد: الأسير، ﴿وَأَخْصِرُوهُمْ﴾، وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام، ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: كل ممز ومجتاز^(١)،

٦٦٤ - أخرجه ابن هشام في سيرته (٤/١٠ و ١١) رقم (١٦٥٠ - ١٦٥٤ - ١٦٥٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/٥ - ٧)، وفي «السنن الكبرى»: (٩/٢٣٤)، والطبراني في معجمه الكبير (٩/٢٠) رقم (١٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٤٠٠ - ٤٠١). المغازي: باب فتح مكة رقم (٣٦٩٠٢) عن عكرمة مرسلاً، والطحطاوي في شرح معاني الآثار (٣/٣١٦)، ورواه ابن زنجويه في كتاب الأموال عن عكرمة مرسلاً، وذكر القصة والشعر، ورواه الواقدي في كتاب المغازي مطولاً، فذكر القصة والشعر مرسلاً عن جماعة كثيرة؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/٥٥ - ٥٦). قال الحافظ: أخرجه ابن إسحاق في المغازي والبيهقي في الدلائل من طريقه. قال: حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمصور بن مخزومة قالا: «كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية، فذكر القصة مطولة وفيها الشعر. وفيها، فنكثوا في الهدنة نحو سبعة أو ثمانية عشر شهراً. وروى الطبراني من طريق علي بن الحسين حدثني ميمونة بنت الحارث قالت: «كان بين النبي ﷺ وبين قريش، فذكرت القصة والشعر. وأوردها الواقدي في المغازي مطولاً من طرق ثم قال: حدثني عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبي أنس عن ابن عباس. قال: قام رسول الله ﷺ وهو يجز طرف رداءه ويقول: «يا عمرو لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي». انتهى.

= والغضب عند نزول المكروه أمانة الشجاعة. وهذا كان سبب فتح مكة.
ينظر تاج العروس: (وتر).

(١) قال محمود: «المرصد المجاز والممر... إلخ» قال أحمد: ويكون انتصابه دون جره من الاتساع؛ لأن المرصد ظرف مختص، والأصل قصور الفعل عن نسبه، ويكون مثل قوله في الاتساع [من المنسرح]:

= كما غسل الطريق الشعب

ترصدونهم به، وانتصابه على الظرف؛ كقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ مِمَّنْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]،
﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾: فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر، أو: فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم؛
كقوله [من البسيط]:

خَلَّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ^(١)

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: دعوهم وإتيان المسجد الحرام، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾: يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنُهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿أَحَدٌ﴾: مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد
استجارك ولا يرتفع بالابتداء؛ لأن «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره، والمعنى:
وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر، لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق،

= ويحتمل - والله أعلم - أن يكون مرصد مصدرًا؛ لأن صيغة اسم الزمان والمكان والمصدر من فعلة
واحدة، فعلى هذا يكون منصوباً نصباً أصلياً؛ لأن أقدوا في معنى ارسدوا، كأنه قيل: وارصدوهم
كل مرصد؛ إلا أن الظرفية يقويها قوله ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فيقتضيها قصد المطابقة بين ظرفي
المكان، والله أعلم.

(١) خل السبيل لمن يبني المنار به
قد خفت يا ابن التي ماتت منافقة
وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر
من خبت برزة ألا ينزل المطر

لجريه يهجو عمر بن لجأ التميمي. وروى: خل الطريق. ومنار الطريق: حدوده. يقول له: اترك
سبيل المعالي لمن يبني الأعلام فيه وقيم شعائره وبين حدوده. شبه الخصال الحميدة بالطريق
الجادة بجامع الوصول بكل إلى المراد وعدم الميل عن كل على سبيل التصريحية، وبناء المنار
ترشيح: والمراد به: إقامة الشعائر الجميلة وتحسين شأنها لتتبعها الناس. أو نصب دلائل على الكرم
لتهتدي إليه العفاة. وبرزة هي أم عمر، وقيل: الأرض الواسعة. وعليه فممن صرفه ضرورة، ولكن
البيت الثاني يؤيد ما قلنا، أي اخرج بأمك القبيحة إلى ما ألجأك إليه القدر الأزلي، وهو ما انطبعت
عليه من الخصال الخسيسة. والمراد بالأمر في الموضعين: بيان حاله التي هو عليها لا حقيقة
الأمر. ويحتمل أن الأول أمر بترك التفاخر، فتكون صورة الأمر للثاني للمشاكلة، أو بمعنى طلب
اعترافه بحال نفسه. وجعله النحويون من قبيل التحذير ومثلاً به لذكر عامل المحذر منه، وهو يزيد
على مجرد الأمر بالتخلية بأن بينه وبين ذلك السبيل منافرة حتى صح تحذيره منه. وخفت بضم
الثاء، ولكن فتحها أبلغ في الهجو. وتكرير اسم برزة للتأكيد والتعبير بها، أي أنها شؤم على الناس
يخاف منها الجذب.

ينظر ديوانه ٢١١/١، وشرح التصريح ١٩٥/٢، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٨٦، والكتاب ١/
٢٥٤، ولسان العرب (برز)، والمقاصد النحوية ٣٠٧/٤، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٧٨/٤،
والرد على النحاة ص ٧٥، وشرح الأشموني ٤٨١/٢، وشرح المفصل ٣٠/٢.

فاستأمنك لسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين^(١) ما بعثت له فأمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾: ويتدبره / ٢٨٥ ب ويطلع على حقيقة الأمر، ﴿ثُمَّ أُتِلَّغَهُ﴾: بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت، وعن الحسن - رضي الله عنه -: هي محكمة إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى علي - رضي الله عنه - فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتِّلْغَهُ مَا مِنْهُمْ ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) وعن السدي والضحاك - رضي الله عنهما -: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَفَاظِلُّوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿ذَلِكَ﴾: أي ذلك الأمر، يعني: الأمر بالإجارة في قوله: (فأجره)، ﴿ب﴾ سبب، ﴿أَنَّهُمْ﴾: قوم جهلة، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بد من إعطائهم الأمان، حتى يسمعو ويفهموا الحق.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ^(٤)

﴿كَيْفَ﴾: استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد؛ لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله - ﷺ - وهم أضداد وغرة صدورهم^(٢)، يعني: محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك، ولا تحدثوا به نفوسكم، ولا تفكروا في قتلهم، ثم استدرك ذلك بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم، ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: ولم يظهر منهم نكت كبنى كنانة وبني ضمرة، فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم، ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ﴾: على العهد، ﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾: على مثله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن التربص بهم من أعمال المتقين، ﴿كَيْفَ﴾: تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد^(٣)، وحذف الفعل؛ لكونه معلوماً؛ كما قال [من الطويل]:

(١) قوله: «وتبين» لعله «وتبين» عطفاً على يسمع (ع).

(٢) قوله: «وغرة صدورهم» أي ملتبة من الغيظ (ع).

(٣) قال محمود: «كيف تكرار لاستبعاد ثبات... إلخ» قال أحمد السر في تكرار كيف - والله أعلم - أنه لما ذكره أولاً لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله ولم يذكر إذ ذاك سبب البعد للغاية باستثناء الباقيين على العهد وطال الكلام. أعيدت «كيف» نظرية للذكر، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض، فلم يقصد مجرد التكرار. بل هذا السر الذي انطوى عليه، وقد تقدمت له أمثال، والله الموفق.

وَحَبَّرْتُمَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَقَلِيبٌ^(١)؟!

يريد: فكيف مات، أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾: حالهم أنهم، ﴿وإن يظهروا عَلَيْكُمْ﴾: بعد ما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق، لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم، ﴿لَا يَرْفُقُوا بِكُمْ إِلَّا﴾: لا يراعوا حلفاً، وقيل: قرابة؛ وأنشد لحسان - رضي الله عنه - [من الوافر]:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلُ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ^(٢)

وقيل: (إلا): إلهاً، وقرىء: «إيلاً»، بمعناه، وقيل: جبرئيل، وجبرئيل، من ذلك، وقيل: منه اشتق الال بمعنى القرابة، كما اشتقت الرحم من الرحمن، والوجه أن اشتقاق الإل بمعنى: الحلف؛ لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا، رفعوا به أصواتهم وشهروه، من الال وهو الجوار، وله أليل: أي: أنين، يرفع به صوته [من البسيط]:

... دَعَتْ أَلَيْهَا ...

إذا ولولت^(٣)، ثم قيل لكل عهد وميثاق: إل، وسميت به القرابة؛ لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق، ﴿يُرْضَوْنَكُمْ﴾: كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد، وإباء القلوب مخالفة ما فيها من

(١) لعمر أبي إن البعيد الذي مضى وإن الذي يأتي غداً لقريب

وخبرتماني أنما الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب

لكعب الغنوي في مرثية أخيه. و«الهضبة» الصخرة العظيمة. وجعل الخطاب لاثنتين على عادة العرب ولو لم يوجد. وإنما بالكسر على الحكاية. أو بالفتح على المفعولية: أي وأخبر شماني أن الموت والوباء في القرى فقط، فكيف تدعيان ذلك وقد مات أخي في هذه البرية. أو كيف مات أخي فيها. والقليب: البئر لأنه قلب ترابه من بطن الأرض إلى ظهرها. وهاتا: إشارة للبرية. ويجوز أنها للهضبة: أي وهذا قليب.

ينظر الكتاب (٤٨٧/٣)، المقتضب (٢٨٧/٢)، شرح المفصل لابن يعيش (١٣٦/٣)، الأصمعيات (٩٧)، البحر المحيط (١٣/٥)، الدر المصون (٤٤٦/٣).

(٢) لحسان بن ثابت. والإل - بالكسر - الحلف والعهد والقرابة. والسقب: حوار الناقة. والرأل: ولد النعام. يقول: وحياتك إن قرابتك من قریش بعيدة أو معدومة، كقرابة ولد الناقة من ولد النعام. ويروى: كأل السيف. والوجه أنه تحريف.

ينظر ديوانه (ص ١٠٥)، لسان العرب (أل)، ديوان الأدب (١٥٥/٤)، كتاب الجيم (٢٢٦/٣)، تاج العروس (أل)، بلا نسبة في مقياس اللغة ٢١/١، كتاب العين ٣٦١/٨، المخصص (٣/١٥١)، الدر المصون (٤٤٧/٣).

(٣) قوله: «ودعت أليها: إذا ولولت» في الصحاح: وأما قول الكميّ يمدح رجلاً:

وأنت ما أنت في غبراء مظلمة إذا دعت أليها الكاعب الفضل فيجوز أن يريد الألل، ثم ثنى كأنه يريد صوتاً يعد صوت. اهـ (ع).

الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾: متمرّدون خلعاء لا مروءة تزعمهم^(١)، ولا شمائل/ ٢٨٦ مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة، من التفادي عن الكذب والنكث، والتعفف عما يثلم العرض ويجرّ أحدىثة السوء.

﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْجِعُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿أَشْتَرُوا﴾: استبدلوا، ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: بالقرآن والإسلام، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: وهو اتباع الأهواء والشهوات، ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾: فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم، وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم، ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾: المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾: عن الكفر ونقض العهد، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾: فهم إخوانكم على حذف المبتدأ؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: ونبينها، وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم بعثاً وتحريضاً على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

﴿وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾: وثلبوه وعابوه، ﴿فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾: فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم؛ إشعاراً بأنهم إذ نكثوا في حال الشرك تمرّداً، وطغياناً، وطرحاً لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاروا إخواناً للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام، ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان، والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون في دين الله، ويقولون: ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر، وذوو الرياسة والتقدّم فيه، لا يشق كافر غبارهم، وقالوا: إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعنًا ظاهراً، جاز قتله؛ لأن العهد معقود معه على ألا يطعن، فإذا طعن، فقد نكث عهده وخرج من الذمة، ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾: جمع يمين، وقرئ:

(١) قوله: «لا مروءة تزعمهم» أي تكفهم. (اه صحاح (ع)).

لا إيمان لهم، أي: لا إسلام لهم، أو: لا يعطون الأمان بعد الردة والنكث، ولا سبيل إليه.

فإن قلت: كيف أثبت لهم الأيمان في قوله: ﴿وَإِنْ تَكْفَرُوا أَتَمَنَّاهُمْ﴾ ثم نفاه عنهم؟ قلت: أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال: لا إيمان لهم على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان؛ وبه استشهد أبو حنيفة - رحمه الله - على أن يمين الكافر لا تكون يميناً، وعند الشافعي - رحمه الله - يمينهم يمين، وقال: معناه أنهم لا يوفون بها؛ بدليل أنه وصفها بالنكث، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾: متعلق بقوله: ﴿فَقَلِّلُوا آيَمَةَ الْكُفَرِ﴾ أي: ليكون غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سبباً في انتهائهم عما هم عليه، وهذا من غاية كرمه، وفضله، وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد.

فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟

قلت: همزة بعدها همزة بين بين، أي: بين مخرج الهمزة والياء^(١)، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين؛ وأما التصريح بالياء، فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحق محرف^(٢).

﴿أَلَا تَقْلِيلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣)

﴿أَلَا تَقْلِيلُونَ﴾: دخلت الهمزة على: (لا تقاتلون)؛ تقريراً بانتفاء المقاتلة، ومعناه: الحض عليها/ ٢٨٦ب على سبيل المبالغة، ﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾: التي حلفوها في المعاهدة، ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾: من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة، حتى أذن الله -

(١) قوله: «بين مخرج الهمزة والياء»: لعله «مخرجي الهمزة والياء» (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «أئمة» بهزتين ثانيتهما مُسْهَلَةٌ بَيْنَ وَلَا أَلْفَ بَيْنَهُمَا. والكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر بتخفيفهما من غير إدخال ألف بينهما، وهشام كذلك إلا أن أَدْخَلَ بينهما ألفاً. هذا هو المشهور بين القراء السبعة. ونقل الشيخ عن نافع ومن معه، أنهم يُبَدِّلُونَ الثانية ياء صريحة، وأنه قد نُقِلَ عن نافع المدُّ بينهما، أي بين الهمزة والياء.

قال الشيخ: «وذلك دأبه في تلحين المقرئين، وكيف تكون لحناً، وقد قرأ بها رأس النخاعة البصريين، أبو عمرو بن العلاء، وقارئ أهل مكة ابن كثير، وقارئ أهل المدينة نافع؟». قلت: لا يُنْقَمُ على الزمخشري شيء فإنه إنما قال إنها غير مقبولة عند البصريين، ولا يلزم من ذلك أنه لا يقبلها، غاية ما في الباب، أنه نقل عن غيره. وأما التصريح بالياء، فإنه معذور فيه لأنه كما قَدْ مُتُّ لَكَ، إنما اشتهر بين القراء التسهيل بين بين لا الإبدال المحض، حتى إن الشاطبي جعل ذلك مذهباً للتحويين لا للقراء، فالزمخشري إنما اختار مذهب القراء لا مذهب النخاعة في هذه اللفظة. انتهى.

الدر المصون.

تعالى - له في الهجرة، فخرج بنفسه، ﴿وَهُمْ بَدَأُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: وهم الذين كانت منهم البداية بالمقاتلة؛ لأن رسول الله - ﷺ - جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحذاهم به، فعدلوا عن المعارضة؛ لعجزهم عنها إلى القتال، فهم البادئون بالقتال، والباديء أظلم، فما يمنعكم من أن تقتلوههم بمثله، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم؟ وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها، ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول، والبدء بالقتال من غير موجب، حقيق بالألأ تترك مصادمته، وأن يوبخ من فرط فيها، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ؟﴾ تقرير بالخشية منهم، وتوبيخ عليها، ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾: فتقاتلوا أعداءه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن قضية الإيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه؛ ولا يبالي بمن سواه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿فَتَلَوْتُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾
 ﴿وَيَذْهَبَ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥)

لما وبخهم الله على ترك القتال، جرّد لهم الأمر به فقال: ﴿فَتَلَوْتُمْ﴾، ووعدهم - ليثبت قلوبهم ويصح نياتهم - أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً، ويخزيهم أسراً، ويوليهم النصر والغلبة عليهم، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ﴾: طائفة^(١) من المؤمنين، وهم خزاعة، قال ابن عباس - رضي الله عنه -: هم بطون من اليمن وسبأ، قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فبعثوا إلى رسول الله - ﷺ - يشكون إليه، فقال: «أبشروا؛ فَإِنَّ الْفَرَجَ قَرِيبٌ» ﴿وَيَذْهَبَ غِيْظَ﴾: قلوبكم^(٢)؛ لما لقيتم منهم من المكروه، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها؛ فكان ذلك دليلاً على صدق رسول الله - ﷺ - وصحة نبوته، ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾: ابتداء كلام، وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك - أيضاً - فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم، وقرىء: «ويتوب» بالنصب بإضمار: «أن»، ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: يعلم ما سيكون، كما يعلم ما قد كان: ﴿حَكِيمٌ﴾، لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة.

﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا

(١) قوله: «ويشف صدور طائفة» هذا لفظ التلاوة، والأنسب ويشفي، عطفاً على «يعذبهم بأيديهم» لأنه من جملة الوعد (ع).

(٢) قوله: «ويذهب غيظ قلوبكم» التلاوة (غيظ قلوبهم) ولعل بعض الناسخين فهم أنه من البشرى، فغيره بلفظ الخطاب. والمتجه (غيظ قلوبهم) لما لقوا، ثم قوله (ويذهب) بالرفع عطفاً على يعذبهم بأيديكم؛ لأنه من جملة الوعد كما يشير إليه (ع).

رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿آز﴾: منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان، والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه، حتى يتبين الخلف منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة، أي: بطانة، من الذين يضادون رسول الله - ﷺ - والمؤمنين - رضوان الله عليهم - ﴿وَلَمَّا﴾ معناها: التوقع، وقد دلت على أن تبين ذلك، وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾: معطوف على جاهدوا، داخل في حيز الصلة؛ كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين / ٢٨٧ منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله، والوليجة: فعيلة من ولج، كالذخيلة من دخل، والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم؛ كقول القائل: ما علم الله مني ما قيل: في، يريد: ما وجد ذلك مني.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾: ما صح لهم وما استقام، ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ يعني: المسجد الحرام، لقوله: ﴿وَعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان: أحدهما: أن يراد المسجد الحرام؛ وإنما قيل: مساجد؛ لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد.

والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمرها، دخل تحت ذلك ألا يعمرها المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو أكد؛ لأن طريقته طريقة الكناية؛ كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك، و﴿شَاهِدِينَ﴾: حال من الواو في: (يعمرها)، والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم، وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة ويقولون: لا نظوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها، وقيل: هو قولهم: لييك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقيل: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر فعيروهم بالشرك، فطفق علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - يوبخ العباس بقتال رسول الله - ﷺ - وقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول، فقال العباس: تذكرون مساوينا، وتكتمون محاسننا، فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجراً: إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب

الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني؛ فنزلت، ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾: التي هي العمارة، والحجابة، والسقاية، وفك العناة، وإذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال^(١) الثابتة الصحيحة إذا تعقبها، فما ظنك بالمقارن، وإلى ذلك أشار في قوله: (شاهدين)؛ حيث جعله حالاً عنهم، ودل على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة؛ وذلك محال غير مستقيم.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾: وقرئ بالتوحيد، أي: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتداً بها، والعمارة تتناول رم ما استمر منها، وقمها وتنظيفها، وتنويرها بالمصابيح، وتعظيمها، واعتيادها للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم، بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها مما لم تبين له المساجد من أحاديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث، وعن النبي ﷺ -: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ الْمَسَاجِدَ فَيَقْعُدُونَ فِيهَا حَلَقًا»^(٢)، ذِكْرُهُمْ/ ٢٨٧ب الدنيا وَحُبُّ الدُّنْيَا، لَا تُجَالِسُوهُمْ؛ فَلَيْسَ اللَّهُ بِهِمْ حَاجَةً» (٦٦٥)، وفي

٦٦٥ - أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٥/١٠) رقم (١٠٤٥٢)، وابن جبان في المجروحين (١٩٩/١) في ترجمة بزيع، وابن عدي في الكامل (٤٩٣/٢).

كلهم من طريق بزيع أبي الخليل الخصاف عن الأعمش عن شقيق بن سلمة عن ابن مسعود فذكره. وبزيع قال ابن جبان: يأتي عن الثقات بأشياء موضوعة كأنه المعتمد لها. وذكره الهيثمي في الجمع (٢٧/٢)، ونسبه إلى الطبراني، وقال: فيه بزيع أبو الخليل ونُسب إلى الوضع. وللحديث شاهد آخر أخرجه ابن جبان (١٦٢/١٥ - ١٦٣) رقم (٦٧٦١) من طريق عيسى ابن يونس عن الأعمش عن شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود فذكره. وللحديث شاهد من طريق أنس بن مالك أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٢٣/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال الحافظ: أخرجه الطبراني من رواية أبي وائل عن ابن مسعود رفعه: «سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون المساجد حلقاً حلقاً، مناهم الدنيا لا تجالسوهم. فليس لله فيهم حاجة»، وفيه بزيع أبو الخليل راويه عن الأعمش عنه وهو متروك، وقال الدارقطني: إنه تفرد به، وفيه نظر. فقد أخرجه ابن جبان في صحيحه من طريق عيسى بن يونس عن الأعمش بلفظ: «سيكون في آخر الزمان قوم يكون حديثهم في مساجدهم ليس لله فيهم حاجة»، وفي الباب عن أنس رفعه: «يأتي على الناس زمان يتحلقون في مساجدهم، وليس همتهم إلا الدنيا لا تجالسوهم فليس لله فيهم =

(١) قال محمود: «إذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال... إلخ» قال أحمد: كلام صحيح إلا قوله: «إن

الكبيرة تهدم الأعمال، فإنه تفريع على قاعدة المعتزلة، والحق خلافها.

(٢) قوله: «فيقعدون فيها حلقاً» في نسخة: فيعدون. وفي أخرى: فيغدون. وليحرر (ع).

الحديث: «الْحَدِيثُ فِي الْمَسْجِدِ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ الْبَيْهَمَةُ الْحَشِيشَ» (٦٦٦) وقال عليه السلام: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ بَيْوتِي فِي أَرْضِي الْمَسَاجِدَ، وَإِنَّ رُؤُوسِي فِيهَا عُمَارُهَا، فَطُوبَى لِعَبْدٍ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ زَارَنِي فِي بَيْتِي، فَحَقَّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ» (٦٦٧) وعنه عليه السلام: «مَنْ أَلِفَ الْمَسْجِدَ أَلِفَهُ اللَّهُ» (٦٦٨)، وقال عليه السلام: «إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَغْتَاذُ الْمَسَاجِدَ، فَأَشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ» (٦٦٩)، وعن أنس - رضي الله عنه -: من

= حاجة»، أخرجه الحاكم من طريق الثوري عن عوف عن الحسن عنه. انتهى.

٦٦٦ - قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١٥٢/١) رقم (٣٩٦): لم أقف له على أصل. قال الحافظ: يأتي في لقمان.

٦٦٧ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٥٧/٢): غريب. هـ. وأخرجه الطبراني في معجمه (٢٥٣/٦) - (٢٥٤) رقم (٦١٣٩) من طريق يحيى بن إسحاق التستري عن عامر بن سيار وعن سعيد بن زُرَيْبٍ عن ثابت عن أبي عثمان عن سلمان، فذكره بنحوه.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤/٢) وقال: رواه الطبراني في الكبير وأحد إسناده رجاله رجال الصحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣٩٢/٣)، وعزاه إلى عبد الرزاق وابن جرير في تفسيريهما، وإلى البيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن ميمون الأودي - رضي الله عنه - قال: أخبرنا أصحاب رسول الله ﷺ ... فذكره.

قال الحافظ: لم أجد هكذا، وفي الطبراني: عن سلمان عن النبي ﷺ: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم زائره»، وروى عبد الرزاق ومن طريقه الطبري عن معمر عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون. قال: «وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها»، ومن هذا الوجه. أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد. انتهى.

٦٦٨ - أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»: (١٩٧/٧) رقم (٦٣٧٩)، وابن عدي في الكامل: (٤/١٤٧٠) من حديث عبد الله بن لهيعة، عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري فذكره.

ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٢٦/٢) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٥٨/٢): أعله ابن عدي في الكامل بابن لهيعة، ونقل ضعفه عن النسائي وابن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن سعيد وغيرهم، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣٩٢/٣).

قال الحافظ: أخرجه ابن عدي: والطبراني في الأوسط من رواية ابن لهيعة عن دراج بن الهيثم عن أبي سعيد به. انتهى.

٦٦٩ - أخرجه الثرمذي (١٢/٥) كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة حديث (٢٦١٧) وفي (٥/٢٧٧) كتاب التفسير: باب ومن سورة التوبة حديث (٣٠٩٣) وابن ماجه (٢٦٣/١) كتاب المساجد: باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة حديث (٨٠٢) وأحمد (٦٨/٣) والدارمي (٢٧٨/١) كتاب الصلاة: باب المحافظة على الصلوات، وابن خزيمة (٣٧٩/٢) رقم (١٥٠٢) وابن جبان (١٧٢١) والحاكم (٣٣٢/٢) والبيهقي (٦٦/٣) كتاب الصلاة باب فضل المساجد، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٢٧/٨) كلهم من طريق عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد =

أسرج في مسجد سراجاً، لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوءه (٦٧٠).

فإن قلت: هلا ذكر الإيمان برسول الله - ﷺ -؟

قلت: لما علم وشهر أن الإيمان بالله - تعالى - قرينته الإيمان بالرسول - ﷺ - لاشتغال كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة، وغيرها، عليهما مقتربين، مزدوجين، كأنهما شيء واحد، غير منفك أحدهما عن صاحبه، انطوى تحت ذكر الإيمان بالله - تعالى - الإيمان بالرسول - عليه السلام - وقيل: دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

= الخدري به .

وقال الثرمذي: حديث غريب حسن .
وصححه ابن خزيمة وابن جبان والحاكم والذهبي وأخرجه أحمد (٧٦/٣) وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص ٢٨٩) رقم (٩٢٣) عن الحسن بن موسى ثنا ابن لهيعة عن دراج به .
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٩١) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه .
وقال ابن عدّي: هو منكر وعبد الملك مجهول وأقره ابن الجوزي في «الموضوعات» .
- حديث ابن عباس:

أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٦٦) ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/١٤٤ - ١٤٥) من طريق سوار بن مصعب عن ثابت عن مقسم عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ «من أخلص الله تعالى أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه» .

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ قال أحمد ويحيى والنسائي: سوار بن مصعب متروك الحديث، وقال يحيى: ليس بثقة ولا يكتب حديثه . وقال أيضاً: وقد عمل جماعة من المتصوفة والمتهمدين على هذا الحديث الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوماً، وامتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه ويتناول الأشياء التي تتضاعف قيمتها على قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين فيهذي ويتخيل إليه أنه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحاً؛ فإن الإخلاص يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن فله العلم . اهـ .

قال الحافظ: أخرجه الثرمذي وابن ماجه . وابن جبان . والحاكم من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد . انتهى .

٦٧٠ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٩٣ - ٣٩٤)، وعزاه إلى سليم الرازي في الترغيب عن أنس - رضي الله عنه - قال فذكره، كما عزاه إلى الطبراني في مسند الشاميين عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فذكره بنحوه مرفوعاً إلى النبي ﷺ .
قال الحافظ:

رواه الحارث بن أسامة من رواية الحكم بن سلفة العبدي . عن أنس - رضي الله عنه - : «من أسرج في مسجد سراجاً لم يزل مرفوعاً»، ومن طريق الحارث أخرجه سليم الرازي في كتاب الترغيب، وفي الطبراني في مسند الشاميين من حديث علي بن أبي طالب رفعه . «من علق قنديلاً في مسجد صلى عليه سبعون ألف ملك .. الحديث بمعناه» . انتهى .

فإن قلت: كيف قيل: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، والمؤمن يخشى المحاذير، ولا يتمالك ألا يخشاها؟

قلت: هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وألاً يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران: أحدهما: حق الله، والآخر: حق نفسه، أن يخاف الله، فيؤثر حق الله على حق نفسه، وقيل: كانوا يخشون الأصنام، ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم، ﴿فَمَعَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾: تباعد للمشركين عن مواقف الاهتداء^(١)، وحسم لأطماعهم من الانتفاع^(٢)، بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها، وأملوا عاقبتها، بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى، اهتدأهم دائر بين عسى ولعل، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون وناثلون عند الله الحسنی، وفي هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦)

السقاية والعمارة: مصدران من سقى وعمر، كالصيانة والوقاية، ولا بد من مضاف محذوف تقديره: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾: أهل، ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾: وتصدقه قراءة ابن الزبير، وأبي وجزة السعدي^(٣) - وكان من القراء -: سقاة الحاج، وعمرة المسجد الحرام، والمعنى: إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين؛ وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوى بينهم، ويجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر، وروي أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج، وعمار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود: أنتم أفضل، وقيل: إن علياً - رضي الله عنه - قال للعباس: يا عم، ألا تهاجرون، ألا تلحقون برسول الله - ﷺ - فقال: أأست في أفضل من الهجرة: أسقي حاج بيت الله، وأعمر المسجد الحرام، فلما نزلت، قال العباس / ٢٨٨: ما أراني إلا تارك سقائتنا، فقال عليه السلام: «أَقِيمُوا عَلَى سِقَايَتِكُمْ؛ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرًا» (٦٧١).

٦٧١ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٦٨ - ٢٦٩) عن معمر عن الحسن فذكره.

(١) قال محمود: «في هذه الآية تبعيد للمشركين... إلخ» قال أحمد: وأكثرهم يقول إن «عسى» من الله واجبة بناء منهم على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين، والحق فيما قال الزمخشري، ولكن الخطاب مصروف إليهم أي فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوة، والعاقبة عند الله معلومة، والله عاقبة الأمور.

(٢) قوله: «من الانتفاع» لعله «في» كعبارة النسفي (ع).

(٣) قوله: «وأبي وجزة السعدي» في الصحاح: أنه شاعر ومحدث (ع).

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

هم ﴿أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾: من أهل السقاية والعمارة عندكم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: لا أنتم، والمختصون بالفوز دونكم، قرىء: (يبشرهم): بالتخفيف والتثقيب، وتنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: هي في المهاجرين خاصة (٦٧١ مكرر).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

وكان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر، ويصارم أقاربه الكفرة، ويقطع موالاتهم، فقالوا: يا رسول الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا، وذهبت تجارتنا، وهلكت أموالنا، وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين؛ فنزلت، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه، أو أبوه، أو أخوه، أو بعض أقاربه، فلا يلتفت إليه، ولا ينزله، ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك، وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا، ولحقوا بمكة، فنهى الله - تعالى - عن موالاتهم (٦٧٢)، وعن النبي - ﷺ -: «لا

= والثعلبي في تفسيره، والواحد في أسباب النزول؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٦٠/٢). قال الحافظ: ذكره الثعلبي عن الحسن بغير إسناد، لكن سنده إليه في أول الكتاب في تفسير عبد الرزاق عن معمر عن عمر، وهو ابن عبيد عن الحسن قال: «نزلت في علي والعباس، عثمان وشيبة تكلموا في ذلك. فقال العباس: ما أراني إلا تاركاً سقايته. فقال رسول الله ﷺ فذكره. انتهى. ٦٧١ - مكرر: أخرجه الثعلبي من رواية جوير عن الضحاك عنه.

٦٧٢ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٦٠/٢):

الأول: ذكره الثعلبي في تفسيره، عن جوير، عن الضحاك عن ابن عباس قال: «لما أمر الله تعالى المؤمنين بالهجرة، وكان قبل فتح مكة من آمن لا يتم إيمانه... إلى آخره».

الثاني: حكاه عن مقاتل قال: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام، ولحقوا بمكة، فنهاه الله تعالى عن ولايتهم، وسنده إليهما في أول كتابه.

قال الحافظ: ذكره الثعلبي أيضاً عن مقاتل، وسنده إليه في أول الكتاب. انتهى.

يَطْعَمُ أَحَدَكُمْ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ فِي اللَّهِ وَيَبْغُضَ فِي اللَّهِ: حَتَّى يُحِبَّ فِي اللَّهِ أُنْعَدَ النَّاسَ، وَيَبْغُضَ فِي اللَّهِ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ» (٦٧٣)، وقرىء: «عشيرتكم»، «وعشيرتكم»، وقرأ الحسن: وعشائركم ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ وعيد، عن ابن عباس: هو فتح مكة، وعن الحسن: هي عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه آية شديدة، لا ترى أشد منها؛ كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أروع الناس، وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله، والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء، والأبناء، والإخوان، والعشائر، والمال، والمساكن، وجميع حظوظ الدنيا، ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته، فلا يدري أي طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمُ مُدِيرِينَ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (٢٧) ﴿

٦٧٣ - قاله الزليعي في تخريج الكشاف: (٦١/٢): غريب.

وقال ابن حجر: لم أجده بهذا اللفظ.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٤/١) عن عمرو بن الحمق؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله... الحديث، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه رشدان وهو ضعيف، وأخرجه أبو داود (٢٢٠/٤): كتاب السنة: باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث (٤٦٨١)، والطبراني في معجمه (١٥٩/٨) رقم (٧٦١٣) و(٢٠٨/٨) رقم (٧٧٣٦) من طرق عن يحيى بن الحارث عن القاسم، عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله - فقد استكمل الإيمان... الحديث».

وقال الهيثمي (٩٥/١): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، ضعفه البخاري وأحمد وغيرهما، وقال أبو حاتم: محله الصدق.

وللحديث شاهد من طريق معاذ بن أنس عن النبي ﷺ نحوه سواء، أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده؛ كما في تخريج الكشاف للزليعي (٦١/٢).

قال الحافظ: لم أجده بهذا اللفظ، وفي الطبراني عن عمرو بن الحمق أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله، وفي إسناده رشد بن سعد. وهو ضعيف؛ وفي الباب عن أبي أمامة رواه أبو داود. وعن معاذ بن أنس رواه أبو يعلى وغيره. انتهى.

مواطن الحرب: مقاماتها، ومواقفها^(١)، قال [من الطويل]:

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلَايَ طُخْتُ كَمَا هَوَىٰ بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوَىٰ^(٢)

(١) قال محمود: «مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها... إلخ» قال أحمد: لا مانع - والله أعلم - من عطف الظرفين المكاني والزمني أحدهما على الآخر، كعطف أحد المفعولين على الآخر والفعل واحد، إذ يجوز أن تقول ضرب زيد عمرأ في المسجد ويوم الجمعة، كما تقول: ضربت زيدأ وعمرأ، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد غير الأول، هذا مع أنه لا بد من تغاير الفعلين الواقعيين بالمفعولين في الحقيقة، فإنك إذا قلت: أضرب زيدأ اليوم وعمرأ غداً. لم يشك في أن الضربين متغايران بتغاير الظرفين، ومع ذلك الفعل واحد في الصناعة. فعلى هذا يجوز في الآية. والله أعلم - بقاء كل واحد من الظرفين على حاله غير مؤول إلى الآخر، على أن الزمخشري أوجب تعدد الفعل وتقدير ناصب لظرف الزمان غير الفعل الأول. وإن كانا عنده جميعاً زمانين، لعله أن كثرتهم لم تكن ثابتة في جميع المواطن. يريد: ولو ذهبت إلى اتحاد الناصب للزم ذلك، وهذا غير لازم. ألا تراك لو قلت: أضرب زيدأ حين يقوم وحين يقعد، لكان الناصب للظرفين واحداً وهما متغايران، وإنما يمتنع عمل الفعل الواحد في ظرفي زمان مختلفين عند عدم العطف المتوسط بينهما، والله أعلم.

(٢) تكاشرنى كرهأ كأنك ناصح
لسانك ماذي وعينك علقم
فليت كفافاً كان خيرك كله
وكم موطن لولاي طحت كما هوى
جمعت وفحشاً غيبة ونميمة
وعينك تبدي أن صدرك لي دوي
وشرك مبسوط وخيرك منطوي
وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي
بأجرامه من قلة النيق منهوي
ثلاث خصال لست عنها بمرعوي

ليزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي. والمكاشرة: المضاحكة، واختارها في التعبير إشارة إلى أنها ليست مضاحكة حقيقة يوافقها القلب، وإنما هي إظهار الأسنان فقط أمامه ليريه أنه ناصح الرجل كمرض فسد قلبه، ودوي أي خالص المودة ودوي صدره أيضاً حقد، فهو دوي بالتخفيف كعمي، أو التشديد كغني، على فعل أو فاعل، وعلى التشديد فتخفيفه للوزن. و«المأذي» عسل النحل لأنه يمدى منها، وتسمى الخمرة مأذية لسهولتها. و«العلقم» الحنظل وكل شجر مر وكل شيء مر، أي لسانك كالعسل في حلاوة الكلام. وعينك كالعلقم في كراهية النفس ونفرتها عن كل، حيث تنظر لي نظر الحسود المغتاض، وشبه الشر والخير ببساطين على سبيل المكنية، والبسط والطي تخيل. واسم ليت ضمير الشأن أو ضمير المخاطب محذوفاً، وخيرك اسم كان، وكفافاً خيرها. وشرك عطف على خيرك. ويجوز أنه من باب التنازع عمن أجازة في الحروف، لأن «ليت» مقتضية للعمل في خيرك، و«كان» مقتضية للعمل فيه، فأعمل فيه الثاني وحذف ضميره من الأول، لأنه وإن كان عمدة، مشبهة للفضلة في نصبه، وكما أجاز حذفه الكوفيون في باب كان وباب ظن، نعلمه من مفسره، أي: فليت الحال والشأن كان خيرك كله وشرك، كفافاً: بالفتح، أي مغنياً كافياً لك عني، ولو كسر «كفافاً» على أنه مفاعلة من الكف لجاز، ويكون المصدر بمعنى اسم الفاعل، مبالغة: أي كافاً لك، أو منكفاً عني ما دام «مرتو» يرتوي الماء، أي: يستقيه، يعني دائماً، وكم: خبرية للتكثير، أي كثير من مواطن الحرب لولا وجودي لطحت بكسر الطاء وضمها من باب باع، وقال: أي هلكت فيها كما هوى منهو، أي سقط ساقط من قلة النيق. ويروى: قلة النيق، والمعنى واحد، أي: من رأس الجبل العالي، ومذهب سيبويه أن «لولا» حرف جر إذا وليها ضمير نصب. ومذهب =

وامتناعه من الصرف؛ لأنه جمع، وعلى صيغة لم يأت عليها واحد، والمواطن الكثيرة: وقعت بدر، وقریظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة.

فإن قلت: كيف عطف الزمان والمكان وهو: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ على المواطن؟

قلت: معناه وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين، ويجوز أن يراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين، على أنَّ الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمّر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أنَّ قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَكُمْ﴾: بدل من يوم حنين، فلو/ ٢٨٨ ب جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح؛ لأنَّ كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن^(١)، ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به، إلا إذا نصبت: «إذ» بإضمار: «اذكر»، وحنين: واد بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفاً، الذين حضروا فتح مكة، منضمّاً إليهم ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف، فيمن ضامهم من إمداد سائر العرب، فكان الجَمّ الغفير، فلما التقوا، قال رجل من المسلمين: لن تغلب اليوم من قلة، فسأت رسول الله - ﷺ - وقيل: قائلها رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - وقيل: أبو بكر - رضي الله عنه -^(٢) وذلك قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَكُمْ كَثَرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، فاقتتلوا قتالاً شديداً

= الأخفش أنه وضع ضمير النصب موضع ضمير الرفع على الابتداء، وأنكر المبرد وروده، وهو محجوج بهذا. وقال أبو علي الفارسي: الفعل ومطawعه قد يكونان لازمين معاً، كهوى وانهى، وغوى وانغوى، بدليل نحو هذا البيت. وحمله الجمهور على الضرورة. والقياس: هاو وغاو. وبعضهم على أنهما مطاوعان لأهديته وأغويته، لكن مطاوعه: انفعّل لأفعل شاذة، ولو قيل: انهوى مطاوع لهوى به لجاز. لكنه ليس قياسياً، ثم قال له: جمعت غيبة ونميمة وفحشا، فقدم المعطوف للضرورة. وجعله ابن جني مفعولاً معه، وأجاز تقديمه على مصاحبه ممسكاً بذلك، ويمكن أن يكون ضرورة أيضاً. وفيه إشارة من أول وهلة إلى إرادة التعدد والتكثير وثلاث خصال بدل مما قبله، ولست عنها: أي لست بمنزجر عنها، فقدم المعمول للاهتمام، والياء في القافية للإطلاق.

ينظر الكتاب (٣٧٤/٢)، المقرب (١٩٣/١)، شرح المفصل لابن يعيش (١١٨/٣)، الدر المصون (٤٥٧/٣).

(١) قوله: «لم تعجبهم في جميع تلك المواطن» إنما يلزم كون كثرتهم أعجبهم في جميعها. مع أنه خلاف الواقع لو جعل ﴿إِذْ أَعْجَبَكُمْ﴾ بدلاً من المواطن أيضاً، فتدبر (ع).

(٢) لم أجده بهذا السياق وقوله: إن رسول الله ﷺ قالها: قد ورد أنه قال «لن تغلب اثنا عشر ألفاً عن قلة» في حديث غير هذا. وأما هذا فإن كان المصنف وقع على شيء من ذلك فما كان قوله: «وأدركتهم كلمة الإعجاب بالكثرة ونزل عنهم... إلى آخره» بلائق. وأما قوله: «وقيل قالها أبو بكر» فلم أقف عليه وقوله: «ومن هوازن وثقيف وفي أربعة آلاف غلام مسح» والصواب أن هوازن وثقيفاً كانوا من المشركين والذي في مسلم من حديث العباس «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين - فذكرت القصة، وفيها تغير ونقص عما ساقه المصنف وليس فيها «فخذاً فخذاً» وإنما فيه «أن عباساً نادى أصحاب السمرة ونادى أصحاب الشجرة. قال فعطوا عطف البقرة على أولادها، وروى يونس =

وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة، وزلّ عنهم أن الله هو الناصر، لا كثرة الجنود، فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله - ﷺ - وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل، ليس معه إلا عمه العباس - رضي الله تعالى عنه - أخذ بلجام دابته، وأبو سفيان ابن الحارث ابن عمه، وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جأشه^(١) - ﷺ - وما هي إلا من آيات النبوة، وقال: يا رب، اتنني بما وعدتني، وقال - ﷺ - للعباس - وكان صيتاً: صيح بالناس، فَنَادِي الْأَنْصَارَ فَخُذُوا فَخُذُوا، ثُمَّ نَادِي: يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ، يَا أَصْحَابَ الْبَقَرَةِ ح، فَكَرُّوا عِنْقاً وَاحِداً^(٢)، وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله - ﷺ - إلى قتال المسلمين فقال: «هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوُطَيْسُ» ح، ثم أخذ كفّاً من تراب فرماه به، ثم قال: «أَنهَزِمُوا وَرَبَّ الْكَعْبَةِ فَأَنهَزِمُوا» قال العباس: لكأني أنظر إلى رسول الله - ﷺ - يركض خلفهم على بغلته (٦٧٤) ﴿يَمَّا رَحِبْتُ﴾ ما: مصدرية، والباء: بمعنى: مع، أي: مع رحبها^(٣)، وحقيقته ملتبسة برحبها، على أَنَّ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ؛ كَقَوْلِكَ: دخلت عليه بتياب السفر، أي: ملتبساً بها لم أحلها، تعني: مع ثياب السفر، والمعنى: لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه، ونجاتكم لفرط الرعب، فكأنها ضاقت عليكم، ﴿ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ﴾: ثم انهزمتهم، ﴿سَكِنْتَهُ﴾: رحمته التي سكنوا بها وآمنوا، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: الذين انهزموا، وقيل: هم الذين ثبتوا مع رسول الله - ﷺ - حين وقع الهرب، ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً﴾ يعني: الملائكة، وكانوا ثمانية آلاف، وقيل: خمسة آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالقتل والأسر، وسبي النساء والذري، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ أي: يسلم بعد ذلك ناس منهم، وروي أَنَّ نَاساً مِنْهُمْ جَاؤُوا فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى الْإِسْلَامِ، وقالوا: يا رسول الله، أنت / ٢٨٩ خير الناس، وأبَرَّ الناس، وقد سبي

٦٧٤ - أخرجه مسلم (٣٥٥/٦): كتاب الجهاد والسير: باب في غزوة حنين، حديث (١٧٧٥/٧٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٣٧/٥ - ١٣٨ - ١٣٩).

= بن بكر في زيادة المغازي عن أبي جعفر الرازي بن الربيع يعني ابن أنس «أن رجلاً قال يوم حنين: لن تغلب اليوم من قلة. فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله - وذكر الآية قال الربيع وكانوا اثني عشر ألفاً منهم ألفان من أهل مكة.

(١) قوله: «ورباطة جأشه» الجأش: رواع القلب عند الفزع. ورباط الجأش: من يربط نفسه عن الفرار لشجاعته (ع).

(٢) قوله: «عقاً واحداً» ويقال هم عتق إليك أي مائلون إليك كذا في الصحاح (ع).

(٣) قوله: «مع رحبها» في الصحاح «الرحب» بالضم: السعة (ع).

أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، قيل: سبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال: «إِنَّ عِنْدِي مَا تَرَوْنَ، إِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ، اخْتَارُوا: إِمَّا ذَرَارِيَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ، وَإِمَّا أَمْوَالَكُمْ» ح. قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ - فقال: «إِنَّ هَؤُلَاءِ جَاءُوا مُسْلِمِينَ، وَإِنَّا خَيْرُنَاهُمْ بَيْنَ الدَّرَارِيِّ وَالْأَمْوَالِ فَلَمْ يَغْدِلُوا بِالْأَحْسَابِ شَيْئاً، فَمَنْ كَانَ بِيَدِهِ شَيْءٌ وَطَابَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَرُدَّهُ فَشَأْنُهُ، وَمَنْ لَا فَلْيُعْطِنَا وَلْيَكُنْ قَرْضاً عَلَيْنَا حَتَّى نُصِيبَ شَيْئاً فَتُعْطِيَهُ مَكَانَهُ» ح قالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إِنِّي لَا أَذْري لَعَلَّ فِيكُمْ مَنْ لَا يَرْضَى، فَمُرُوا عُرَفَاءَكُمْ فَلْيَرْفَعُوا ذَلِكَ إِلَيْنَا» فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا (٦٧٥).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتِمَّا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ

النجس: مصدر، يقال: نجس نجساً، وقدر قدراً، ومعناه: ذوو نجس؛ لأنَّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: «من

٦٧٥ - أخرجه البخاري (٢٥٢/٥): كتاب الوكالة: باب إذا وهب شيئاً لوكيل أو شفيع قوم جاز، حديث (٢٣٠٧ - ٢٣٠٨) وأطرافهما في: (٢٥٣٩ - ٢٥٨٤ - ٢٦٠٧، ٣١٣١، ٤٣١٨، ٧١٧٦، ٢٥٤٠، ٢٥٨٥، ٢٦٠٨، ٣١٣٢، ٤٣١٩، ٧١٧٧) من طريق عروة عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة، فذكره.

وأخرجه أبو داود (٦٣/٣): كتاب الجهاد: باب في فداء الأسير بالمال، حديث (٢٦٩٤) مختصراً، والثَّسَنِي (٢٦٣/٦): كتاب الهبة: باب هبة المشاع، حديث (٣٦٩٠)، وأحمد (١٨٤/٢ - ٢١٨)، والطبراني في معجمه الكبير (٢٧٠/٥) رقم (٥٣٠٤)، وابن هشام في سيرته (١٤٤/٤ - ١٤٥) رقم (١٨٢٣ - ١٨٢٤ - ١٨٢٥) والبيهقي في الدلائل (١٩٤/٥ - ١٩٥).

كلهم من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، فذكره. وعبد الرزاق في مصنفه (٣٧٩/٥ - ٣٨٠ - ٣٨١) رقم (٩٧٤١) من طريق معمر عن الزهري عن كثير بن العباس بن عبد المطلب عن أبيه فذكره. وذكره الثعلبي عن أنس بلفظ المصنف من غير سند؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٦٥/٢).

قال الحافظ: ذكره الثعلبي بغير سند، وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق في المغازي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله، وذكرها البخاري من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان، ورواها الطبري وغيره من رواية زهير بن حرب، وفيه الشعر الذي أشده زهير. انتهى.

صافح مشركاً تَوْضُحاً»، وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين، وقرئ: «نَجَس»، بكسر النون وسكون الجيم، على تقدير حذف الموصوف، كأنه قيل: إنما المشركون جنس نجس، أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعاً لرجس، وهو تخفيف نجس، نحو: كبد، في كبد، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾: فلا يحجوا، ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، ﴿بِمَدْعَائِهِمْ هَكَذَا﴾: بعد حج عامهم هذا، وهو عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم؛ وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول عليّ - كرم الله وجهه - حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمنعون من دخول الحرم، والمسجد الحرام، وسائر المساجد عندهم، وعند الشافعي: يمنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره من المساجد، وعن عطاء - رضي الله عنه - أن المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين ألا يمكنوهم من دخوله، ونهي المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه^(١)، وقيل: المراد أن يمنعوا من تولي المسجد الحرام، والقيام بمصالحه، ويعزلوا عن ذلك، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِبَلَةَ﴾ أي: فقرأ بسبب منع المشركين من الحج، وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب، ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدراراً، فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم، وأسلم أهل تبالة وجرش^(٢)، فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به، / ٢٨٩ب فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال: من أين تأكلون؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغنائهم بالجزية، وقيل: بفتح البلاد والغنائم، وقرئ: عائلة، بمعنى المصدر كالعافية، أو حالاً عائلة، ومعنى قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: الله، إن أوجبت الحكمة إغناءكم، وكان مصلحة لكم في دينكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: بأحوالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب.

(١) قال محمود: «هذا النهي راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه» قال أحمد: وقد يستدل به من يقول: إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصاً بالمناهي، فإن ظاهر الآية توجه النهي إلى المشركين، إلا أنه بعيد، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا يتزجرون بهذا النهي، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أن المخاطب في الحقيقة المسلمين، تصدير الكلام بخطابهم في قوله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتضمنه نصاً بخطابهم بقوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِبَلَةَ﴾ وكثيراً ما يتوجه النهي على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت ثم ملازمة، كقوله: لا أرنيك ههنا، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، والله أعلم.

(٢) قوله: «وأكثر ميرهم... إلخ» المير: إطعام الطعام. ويقال: بلد باليمن. وجرش: موضع منه أيضاً. أفاده الصحاح (ع).

﴿قِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: بيان للذين مع ما في حيزه، نفى عنهم الإيمان بالله؛ لأن اليهود مثنية والنصارى مثلثة، وإيمانهم باليوم الآخر؛ لأنهم فيه على خلاف ما يجب، وتحريم ما حرم الله ورسوله؛ لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة، وعن أبي روق: لا يعملون بما في التوراة والإنجيل؛ وأن يدينوا دين الحق، وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل، وقيل: دين الله، يقال: فلان يدين بكذا، إذا اتخذ دينه ومعتقده، سميت جزية؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه، أي: يقضوه، أو لأنهم يجزون بها من من عليهم بالإعفاء عن القتل، ﴿عَنْ يَدٍ﴾: إما أن يراد يد المعطي أو الآخذ^(١)، فمعناه: على إرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد، أي: عن يد مؤاتية غير ممتنعة^(٢)؛ لأن من أبى وامتنع لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد؛ ولذلك قالوا: أعطى بيده، إذا انقاد وأصبح^(٣)؛ ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة، كما يقال: خلع ربة الطاعة عن عنقه، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة، لا مبعوثاً على يد أحد، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ، وأما على إرادة يد الآخذ، فمعناه: حتى يعطوها^(٤) عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم؛ لأن قبول الجزية منهم، وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: تؤخذ منهم على الصغار والذل، وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم، والمتسلم جالس، وأن يتلثل ثلثة^(٥)، ويؤخذ بتلبيبه، ويقال له: أذ الجزية، وإن كان يؤذيها ويزخ في قفاه، وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة، ولا يسقط به خراج الأرض، واختلف فيمن تضرب عليه، فعند أبي حنيفة: تضرب على كل كافر من ذمي، ومجوسي، وصابىء، وحربي، إلا على مشركي العرب وحدهم، روى الزهري أن رسول الله - ﷺ - صالح عبدة

- (١) قال محمود: «إما أن يراد يد المعطي أو الآخذ... إلخ» قال أحمد: فيكون كاليد في قوله عليه السلام «لا تبيعوا الذهب... إلى قوله إلا يدأ بيد».
- (٢) قوله: «أي عن يد مؤاتية غير ممتنعة» في الصحاح: آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة، إذا وافقته وطاعته. والعامة تقول: وآتيته (ع).
- (٣) قوله: «وأصبح» أي سهل بعد صعوبة. انتهى صحاح (ع).
- (٤) عاد كلامه قال: «وإن أريد به الآخذ فمعناه حتى يعطوها... إلخ» قال أحمد: وهذا الوجه أملاً بالفائدة، والله أعلم.
- (٥) قوله: «وأن يتلثل ثلثة» أي يززعع ويزلزل. وقوله: «يزخ» أي يدفع كما في الصحاح (ع).

الأوثان على الجزية، إلا من كان من العرب وقال لأهل مكة: «هَلْ لَكُمْ فِي كَلِمَةٍ إِذَا قُلْتُمُوهَا دَانَتْ لَكُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَأَدَّتْ إِلَيْكُمْ الْعَجَمُ الْجَزِيَّةُ» (٦٧٦) وعند الشافعي: لا تؤخذ من مشركي / ٢٩٠ العجم، والمأخوذ عند أبي حنيفة في أول كل سنة من الفقير الذي له كسب: اثنا عشر درهماً، ومن المتوسط في الغنى: ضعفها، ومن المكث: ضعف الضعف ثمانية وأربعون، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي: يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار، فقيراً كان أو غنياً، كان له كسب أو لم يكن.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَسَاءَ مَا يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾

﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر؛ كقوله: المسيح ابن الله، وعزير: اسم أعجمي، كعازر، وعيزار، وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه: امتنع صرفه، ومن نون، فقد جعله عربياً، وأما قول من قال: سقوط التنوين لالتقاء الساكنين؛ كقراءة من قرأ (أحد الله)، أو لأنّ الابن وقع وصفاً، والخبر محذوف، وهو معبودنا، فتمحل عنه مندوحة، وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة، وما هو بقول كلهم، عن ابن عباس - رضي الله عنه -: جاء رسول الله - ﷺ - سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا ذلك (٦٧٧)، وقيل: قاله فنحاص، وسبب هذا القول: أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى - عليه السلام - فرفع الله عنهم التوراة، ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير، وهو غلام يسيع في الأرض، فأتاه جبريل - عليه السلام -: فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم فحفظه التوراة، فأملأها عليهم عن ظهر لسانه، لا يخرم حرفاً، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه، والدليل على أن هذا القول

٦٧٦ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٧٢) عن معمر عن الزهري، أن النبي ﷺ صالح عبدة الأوثان على الجزية، إلا من كان من العرب منهم، وقبل الجزية من أهل البحرين، وكانوا مجوساً. قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (٢/ ٦٥) كأنه حديث مركب، فالأول: رواه عبد الرزاق في تفسيره. أ.هـ. وسكت الزيلعي عن الثاني.

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره: أخبرنا معمر عن الزهري بهذا، وزاد «وقيل: الجزية من البحرين وكان مجوساً». انتهى.

٦٧٧ - أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٣٥١ - ٣٥١) رقم (١٦٦٣٥ - ١٦٦٣٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤١٣ و ٤١٤)، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس به.

قال الحافظ: قلت: أورد المخرج منضمًا إلى الذي قبله، ولم يذكر من أخرجه، والصواب: أنه حديث آخر أخرجه. انتهى.

كان فيهم: أن الآية تليت عليهم، فما أنكروا ولا كذبوا، مع تهالكهم على التكذيب.

فإن قلت: كل قول يقال بالفم فما معنى قوله: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحتته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان؛ وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم، ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير.

والثاني: أن يراد بالقول المذهب؛ كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم؛ لأنه لا حجة معه، ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب؛ وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد، ﴿يضاهون﴾: لا بدّ فيه من حذف مضاف تقديره: يضاهي قولهم قولهم، ثم حذف المضاف، وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً، والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله - ﷺ - من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، يعني: أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله تعالى الله عنه - وقيل: الضمير للنصارى، أي: يضاهي قولهم: المسيح ابن الله، قول اليهود: عزيز ابن الله؛ لأنهم أقدم منهم، وقرئ: «يضاهون» بالهمز من قولهم: امرأة ضهيأ على فعيل، وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض وهمزتها^(١) مزيدة كما في عرقىء، ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: هم أحقأ بأن يقال/ ٢٩٠ ب لهم هذا؛ تعجباً من شناعة قولهم، كما يقال لقوم ركبوا شنعاء: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم، ﴿أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾: كيف يصرفون عن الحق؟

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١)

اتخاذهم أرباباً: أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي، وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما حلله، كما تطاع الأرباب في أوامرهم، ونحوه: تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده، بل كانوا يعبدون الجن، ﴿يَتَابَعَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مریم: ٤٤]، وعن عدي بن حاتم - رضي الله عنه -: انتهيت إلى رسول الله - ﷺ - وفي عنقي صليب من ذهب، فقال:

(١) قوله: «أنها لا تحيض وهمزتها مزيدة» هذا لا يناسب قوله: «على فعيل» فلعله «أو همزة... إلخ» (ع).

«الْيَسُوا يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتَحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ فَتُحِلُّونَهُ» ح؟ قلت: بلى، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» (٦٧٨) وعن فضيل - رضي الله عنه -: ما أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة، وأما المسيح فحين جعلوه ابناً لله، فقد أهلوه للعبادة؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾: أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح - عليه السلام -: أنه من يشرك بالله، فقد حرم الله عليه الجنة، ﴿سُبْحَنَكَ﴾: تنزيه له عن الإشراف به، واستبعاد له، ويجوز أن يكون الضمير في: (وما أمروا): للمتخذين أرباباً، أي: وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحده، فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم؟

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٣) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

مثل حالهم في طلبهم أن يظلموا نبوة محمد - ﷺ - بالكذب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراف أو الإضاءة، ليطفئه بنفخه ويطمسه، ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾: ليظهر الرسول - عليه السلام - ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: على أهل الأديان كلهم، أو ليظهر دين الحق على كل دين.

فإن قلت: كيف جاز، أبى الله إلا كذا، ولا يقال: كرهت أو أبغضت إلا زيدا^(١)؟

٦٧٨ - أخرجه الترمذي (٣٠٩٥).

وتفرد به دون أصحاب الستة.

وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب عن عطف بن أعين، وعطف ليس بالمعروف.

قال الحافظ: الواقدي من طريق عامر بن سعد عن عدي بن حاتم بهذا، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن عطاء بن يسار عن عدي بن حاتم، ورواه الترمذي من طريق مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم بهذا وأتم منه، إلا قوله: «فتلك عبادتهم»، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب عن عطف بن أعين، وعطف ليس بمعروف، وأخرجه ابن أبي شيبه والطبراني والطبري وأبو يعلى من هذا الوجه رواه البيهقي في المدخل كذلك، وزاد: «فتلك عبادتهم». انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاز أبى الله إلا كذا ولا يقال كرهت... إلخ» قال أحمد: ولا يقال على هذا إن الإباء عدم الإرادة. فكما صح الإيجاب بعد نفي الإرادة، فينبغي أن يصح بعدما هو في =

قلت: قد أجرى: «أبى» مجرى: «لم يرد»؛ ألا ترى كيف قوبل: «يريدون أن يطفئوا» بقوله: «وَيَأْتِيكَ اللَّهُ»، وكيف أوقع موقع، ولا يريد الله إلا أن: (يتم نوره).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٥﴾﴾

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ؛ ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله، وإما على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل؛ ومنه قوله [من الرجز]:
إِنَّ لَنَا أَخْمِرَةً عَجَافًا يَأْكُلْنَ كُلُّ لَيْلَةٍ إِكْافًا^(١)

يريد: علفاً يشتري بثمان إكاف، ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام، والتخفيف والمسامحة في الشرائع، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾: يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحرار والرهبان؛ للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل، وكنز الأموال، والضنُّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى؛ تغليظاً/ ٢٩١ أ، ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي منكم طيب ماله: سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم، وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز، وقيل: هي ثابتة؛ وإنما عنى بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة، وعن النبي - ﷺ -: «مَا أَدَّى زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ بَاطِنًا، وَمَا بَلَغَ أَنْ يُزَكِّيَ فَلَمْ يُزَكَّ فَهُوَ كَنْزٌ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا» (٦٧٩)،

٦٧٩ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٦٦/٢): غريب بهذا اللفظ.

وقد أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٨٣/٤) مرفوعاً بمعناه من حديث محمد بن كثير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ما أدى زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً تحت الأرض، وكل ما لا يؤدي زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً».

وقال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفاً.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٧/٣) عن ابن عمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ بنحو حديث =

= معناها مطلقاً، لأننا نقول لوجود حرف النفي أثر في تصحيح مجيء حرف الإيجاب بعد فلا يلزم ذلك، والله أعلم.

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول عند تفسير آية ١٧٦ من سورة البقرة فراجع إن شئت اهـ.

وعن عمر - رضي الله عنه - أنَّ رجلاً سأله عن أرض له باعها، فقال: أحرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك، قال: أليس بكنز؟ قال: ما أدى زكاته فليس بكنز (٦٨٠)، وعن عمر - رضي الله عنه -: كل ما أدت زكاته، فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤد زكاته، فهو الذي ذكر الله - تعالى - وإن كان على ظهر الأرض (٦٨١).

فإن قلت: فما تصنع بما روى سالم بن الجعد - رضي الله عنه - أنها لما نزلت، قال

= البيهقي، وقال الهيثمي: هو في الصحيح بنحوه، ولكنه موقوفاً على ابن عمر - رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سويد بن عبد العزيز وهو ضعيف.

وله شاهد من حديث أم سلمة:

أخرجه أبو داود (٩٥/٢): كتاب الزكاة: باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلبي، حديث (١٥٦٤) من طريق ثابت بن عجلان عن عطاء عن أم سلمة قالت: كنت ألبس أوصاحاً من ذهب، فقلت: يا رسول الله، أكنز هو؟ فقال: ما بلغ أن تؤدي زكاته فزكي - فليس بكنز.

قال الحافظ: أخرجه البيهقي من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «كل ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً، وكل ما لا يؤدي زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً». قال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، والمشهور عن سفيان بن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قوله. ورواه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عدي من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد الله بسنده مرفوعاً، ولفظه: «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدي زكاته فليس بكنز، وكل مال لا يؤدي زكاته وإن كان ظاهراً فهو كنز». قال ابن عدي: وفيه سويد وغيره يرويه موقوفاً والموقوف رواه عبد الرزاق عن عبيد الله العمري موقوفاً، والشافعي عن ابن عيينة: عن ابن عجلان عن نافع نحوه، وفي الباب عن أم سلمة قالت: «جئت ألبس أوصاحاً من ذهب، فقلت: يا رسول الله، أكنز هو؟ فقال: ما بلغ الذي يؤدي زكاته فليس بكنز» أخرجه أبو داود والحاكم. انتهى.

٦٨٠ - أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٨/٤) رقم (٧١٤٦) عن ابن جريج عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج عن بسر بن سعيد؛ أن رجلاً باع رجلاً حائطاً له... فذكره.

وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في الزكاة عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد أن عمر سأل رجلاً عن أرض باعها فقال له:.. الحديث؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٦٨/٢). قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق من طريق بشر بن سعيد؛ أن رجلاً باع حائطاً أو مالاً بمال عظيم، فقال له عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: أحسن موضع هذا المال - الحديث»، ورواه ابن أبي شيبة من طريق أخرى عن سعيد بن أبي سعيد أن عمر سأل رجلاً. فذكره. انتهى.

٦٨١ - أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٧/٤) رقم (٧١٤١) موقوفاً على ابن عمر من طريق عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر. وكذلك الشافعي في مسنده (٢٢٣/١) رقم (٦١٢) عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر، فذكر نحوه موقوفاً على ابن عمر.

والبيهقي في سننه الكبرى (٨٢/٤) عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر فذكر نحوه موقوفاً على ابن عمر، وقال البيهقي: هذا هو الصحيح موقوف، وكذلك رواه جماعة عن نافع، وجماعة عن عبد الله بن عمر وقد رواه سويد بن عبد العزيز وليس بالقوي عن عبد الله بن عمر مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أ.هـ وانظر الحديث قبل السابق.

والطبري في تفسيره (٣٥٧/٦ - ٣٥٨) رقم (١٦٦٦٤ - ١٦٦٦٥ - ١٦٦٦٦ - ١٦٦٦٧) من طرق =

رسول الله - ﷺ -: «تَبَا لِلذَّهَبِ تَبَا لِلْفِضَّةِ» ح قالها ثلاثاً، فقالوا له: أي مال نتخذ؟ قال: «لساناً ذاكرًا، وقلباً خاشعًا، وزوجةً تعين أحلكم على دينه» (٦٨٢)، وبقوله - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ تَرَكَ صَفْرَاءَ أَوْ بَيْضَاءَ كُويَ بِهَا» (٦٨٣)، وتوفي رجل فوجد في منزله

= عن ابن عمر موقوفاً عليه.

قال الحافظ: تقدم الكلام عليه. انتهى.

٦٨٢ - أخرجه الترمذي (٢٧٧/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٥) وابن ماجه (٥٩٦/١): كتاب النكاح: باب أفضل النساء، حديث (١٨٥٦)، وأحمد في مسنده: (٥/٢٧٨ - ٢٨٢) كلهم من طرق عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان به قال الترمذي: هذا حديث حسن. سألت محمد بن إسماعيل فقلت له: سالم بن أبي الجعد سمع من ثوبان؟ فقال: لا. فقلت له: ممن سمع من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: سمع من جابر بن عبد الله وأنس بن مالك، وذكر غير واحد من أصحاب النبي ﷺ أ.هـ.

وأخرجه الطبري في تفسيره عن ثوبان (٣٥٩/٦) رقم (١٦٦٧٧) وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٦٩/٢) إلى الطبراني في معجميه الأوسط والصغير؛ كما عزاه إلى الواحدي في أسباب النزول. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٧٣/٢) فلم يذكر فيه ثوبان، وكذلك الطبري في تفسيره (٦/٣٥٩) رقم (١٦٦٧٦ - ١٦٦٧٨) عن سالم بن أبي الجعد عن عمر به.

قال الحافظ: كذا ذكره مرسلاً. وهو معروف من رواية سالم بن ثوبان أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط من طريق موثّل بن إسماعيل عن الثوري عن الأعمش ومنصور وعمر بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان بهذا، ورواه الترمذي وأحمد في الزهد من رواية إسرائيل عن منصور ومده به، وليس فيه: «تَبَا لِلذَّهَبِ تَبَا لِلْفِضَّةِ، بل فيه: فقال بعض أصحابه: «لو علمنا أي المال خير فنتخذه» قال البخاري وغيره: سالم لم يسمع من ثوبان، ورواه ابن ماجه وأحمد وأبو نعيم في الحلية من رواية عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم عن ثوبان قال: «لما نزلت قالوا: فأَي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك فأوضح على بعيره فأدرك النبي ﷺ وأنا في أثره فقال: يا رسول الله أي المال نتخذ؟ الحديث»، وفي الباب عن علي أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن سبرة عنه، وعن بريدة أخرجه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه. وعن بعض الصحابة أخرجه أحمد من رواية سعيد عن سالم بن عطية عن عبد الله بن عطية عن عبد الله بن أبي الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال: «تَبَا لِلذَّهَبِ تَبَا لِلْفِضَّةِ»، فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر، فقال: يا رسول الله. فذكر نحوه. انتهى.

٦٨٣ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٧١/٢): روى من حديث أبي ذر، ومن حديث أبي أمامة أ.هـ. فحديث أبي ذر:

أخرجه الطبري في تفسيره: (٣٥٩/٦)، رقم (١٦٦٧٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/٤٢٠)، والبخاري في تاريخه الوسط وابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/٧٢).

أما حديث أبي أمامة:

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٦٨/٨) رقم (٧٦٣٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١٢٨)، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه بقية وهو مدلس.

دينار، فقال رسول الله - ﷺ -: «كَيْتَ»، وتوفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال «كَيْتَانِ» (٦٨٤).

قلت: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة، فأما بعد فرض الزكاة، فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه، ويؤذي عنه ما أوجب عليه فيه، ثم يعاقبه، ولقد كان كثير من الصحابة كـ «عبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وعبيد الله» - رضي الله عنهم - يقتنون الأموال، ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية؛ لأن

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/٤٢٠)، وعزاه إلى ابن مردويه في تفسيره.
قال الحافظ:

أخرجه البخاري في التاريخ والطبري وابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد الواحد الثقفي عن أبي النجب الشامي: «كان نعل سيف أبي هريرة من فضة، فنهاه عنه أبو ذر، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها» وفي الباب عن أبي أمامة، أخرجه الطبراني بلفظ: «ما من عبد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا كوي بها»، وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبراني في مسند الشاميين من رواية أوطاة بن المنذر عن ابن عامر عنه، بلفظ: «ما من أحد يترك صفراء أو بيضاء من ذهب أو فضة إلا جعل صفائح ثم كوي بها». انتهى.

٦٨٤ - أخرجه أحمد (٥/٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٥٨)، والطبراني في معجمه (٨/١٤٨) رقم (٧٥٧٣ - ٧٥٧٤)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٧٤)، والطبري في تفسيره (٦/٣٥٩) رقم (١٦٦٧٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/١٢٨) و (١٠/٢٤٣)؛ كلهم من طرق عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة به.

قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٤٣): رواه أحمد بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح غير شهر ابن حوشب وقد وثق أ. هـ ولم ينسبه الهيثمي إلى الطبراني.

وقال في: (٣/١٢٨): رواه الطبراني في الكبير، وبعض طرقه رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب وهو ثقة وفيه كلام.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/٣١٠) برقم (٨٠٠٨) عن شعبة عن عبد الرحمن بن العدا عن أبي أمامة به، وله شاهد من حديث ابن مسعود:

أخرجه أحمد (١/٤٠٥ و ٤١٢ و ٤١٥ و ٤٢١)، وأبو يعلى (٨/٤١٥ - ٤١٦) رقم (٤٩٩٧) من طرق عن عاصم عن زر بن حبیش عن ابن مسعود به، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٤٣)، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة وقد وثق.

وأخرجه أحمد (١/٤٥٧)، وأبو يعلى: (٨/٤٥١ - ٤٥٢) رقم (٥٠٣٧)، وابن جبان (٨/٥٤) رقم (٣٢٦٣)؛ كلهم من طرق عن حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود به.

وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/٢٤٣)، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه عاصم بن بهدلة، وقد وثقه غير واحد، وبقيّة رجاله رجال الصحيح.

قال الحافظ: أخرجه أحمد، وابن أبي شيبه، وأبو يعلى، والطبراني، والطبري من طريق شهر بن حوشب عن أبي أمامة بلفظ مروءة في الموضعين. ورواه ابن جبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بالشرط الثاني. انتهى.

الإعراض اختيار للأفضل، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا، والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه، ولكل شيء حد، وما روي عن علي - رضي الله عنه - : أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما زاد فهو كنز (٦٨٥): كلام في الأفضل.

فإن قلت: لم قيل: ولا ينفقونها، وقد ذكر شيثان؟

قلت: ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ؛ لأن كل واحد منهما جملة وافية، وعدة كثيرة، ودنانير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، وقيل: ذهب به إلى الكنوز، وقيل: إلى الأموال، وقيل: معناه: ولا ينفقونها والذهب^(١)؛ كما أن معنى قوله [من الطويل]:

..... فَإِنِّي وَقَّيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ^(٢)
وقيار كذلك.

فإن قلت: لم خصاً بالذكر من بين سائر الأموال؟

قلت: لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء، ولا يكتزهما إلا من فضل عن حاجته، ومن كثر عنده حتى يكتزهما، لم يعدم سائر أجناس المال، فكان ذكر كنزهما دليلاً على ما سواهما.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿يُحْمَى عَلَيْهَا﴾؟ وهلا قيل: تحمى، من قولك: حمى الميسم^(٣) وأحميته، ولا تقول: أحميت على الحديد؟

قلت: / ٢٩١ ب معناه أن النار تحمى عليها، أي: توقد ذات حمى وحر شديد، من قوله: (نار حامية)، ولو قيل: يوم تحمى، لم يعط هذا المعنى.

فإن قلت: فإذا كان الإحماء للنار، فلم ذكر الفعل؟

قلت: لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله: يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت

٦٨٥ - أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٩/٤) رقم (٧١٥٠)، والطبري في تفسيره: (٣٥٨/٦) رقم (١٦٦٧٢ - ١٦٦٧٣).

وذكره الثعلبي والبغوي في تفسيريهما؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٧٣/٢).

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق والطبري بإسناده الحاضر، عن علي - رضي الله عنه - قبل بحديثين. انتهى.

(١) قوله: «والذهب» لعله «والذهب كذلك» (ع).

(٢) تقدم.

(٣) قال محمود: «إن قلت: هلا قيل تحمى، كما يقال: حمى الميسم وأحميته... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الفصل دقائق إعراب يشوب حسنهما إعراب، والله الموفق.

النار قيل: يحمى عليها؛ لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة، قلت: رفع إلى الأمير، وعن ابن عامر أنه قرأ: «تحمى»، بالتاء، وقرأ أبو حيو: «فيكوى» بالياء.

فإن قلت: لم خصت هذه الأعضاء؟

قلت: لأنهم لم يطلبوا بأموالهم - حيث لم ينفقوها في سبيل الله - إلا الأغراض الدنيوية، من وجاهة عند الناس، وتقدم، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم؛ كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله - ﷺ -: «ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ» (٦٨٦)، وقيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم وإياه مجلس زوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، وقيل: معناه يكون على الجهات الأربع مقاديمهم، وماخيرهم، وجنوبهم، ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾: على إرادة القول، وقوله: ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: كنزتموه لتنتفع به نفوسكم، وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم، ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، وقرئ: «تكنزون»، بضم النون، أي: وبال المال الذي كنتم تكنزونه، أو: وبال كونكم كانزين.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٢١)

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: فيما أثبتته، وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصواباً، وقيل: في

٦٨٦ - أخرجه مسلم (٩٨/٤): كتاب الزكاة: باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث (١٠٠٦/٥٣)، وابن ماجه (٢٩٩/١): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، حديث (٩٢٧) من حديث أبي ذر، فذكره.

وأخرجه البخاري (٣٧٨/٢): كتاب الآذان: باب الذكر بعد الصلاة، حديث (٨٤٣) وطره في (٦٣٢٩) من حديث أبي هريرة به.

وأخرجه أبو داود (٨٢/٢) كتاب الصلاة: باب التسبيح بالحصى من حديث أبي هريرة وأبي ذر معاً.

قال الحافظ: أخرجه مسلم من طريق أبي الأسود عن أبي ذر: «أن أناساً من أصحاب النبي ﷺ: قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور كلما فصلوا - الحديث. انتهى.

اللوح، ﴿أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾: ثلاثة سرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد فرد، وهو رجب، ومنه قوله - عليه السلام - في خطبته في حجة الوداع: «أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (٦٨٧) السنة اثنا عشر شهراً: منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، والمعنى: رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه، وعاد الحج في ذي الحجة، وبطل النسب الذي كان في الجاهلية، وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر - رضي الله عنه - قبلها في ذي القعدة، ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾ يعني: أن تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثته منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم، ويحرمون القتال فيها، حتى لو لقي الرجل قاتل/ ٢٩٢ أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجباً: الأصم ومنصل السنة، حتى أحدث النسب فغيروا، ﴿فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ﴾: في الحرم، ﴿لَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، وعن عطاء: تالله، ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا، وما نسخت، وعن عطاء الخراساني - رضي الله عنه -: حلت القتال في الأشهر الحرم براءة من الله ورسوله؛ وقيل: معناه: لا تأثموا فيهن، بياناً لعظم حرمتهم، كما عظم أشهر الحج

٦٨٧ - أخرجه البخاري (١٩٠/١) كتاب العلم: باب قول النبي ﷺ «رب مبلغ أوعى من سامع» حديث (٦٧)، (٢٤٠/١) كتاب العلم: باب لبيلغ العلم الشاهد الغائب حديث (١٠٥) (٦٧٠/٤) كتاب الحج: باب الخطبة أيام منى حديث (١٧٤١)، (٣٣٨/٦) كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في سبع أرضين حديث (٣١٩٧)، (٧١١/٧) كتاب المغازي: باب حجة الوداع حديث (٤٤٠٦)، (١٠/١٠) كتاب الأصاحي: باب الأضحى يوم النحر حديث (٥٥٥٠)، (٢٩/١٣) كتاب الفتن: باب قول النبي ﷺ «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» حديث (٧٠٧٨)، (٤٣٣/١٣) - (٤٣٤) كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة) حديث (٧٤٤٧).

ومسلم (١٣٠٥/٣ - ١٣٠٧) كتاب القسامة: باب تغليظ تحريم الدماء حديث (٢٩)، (٣١، ٣٠/١٦٧٩) وأبو داود (٥٩٩/١) كتاب المناسك: باب الأشهر الحرم حديث (١٩٤٨) وابن ماجه مختصراً (٨٥/١) المقدمة: باب من بلغ علماً حديث (٢٣٣) وأحمد (٣٧/٥)، (٤٥، ٤٩) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٨٣٣) والبيهقي (١٤٠/٥) كتاب الحج: باب الخطبة يوم النحر، كلهم من طريق محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه مرفوعاً.

تنبيه: سقط من إسناده ابن الجارود أبي بكره ولعله سهو من طابع أو ناسخ مرفوع محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكره قال: خطبنا رسول الله ﷺ.

وعبد الرحمن ليس هو القاتل وليست له صحبة.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي بكره وفي الباب عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أخرجه الطبري من رواية موسى بن عبيدة عن صدقة بن يسار عنه بلفظ المصنف، وهو ضعيف. وعن ابن عباس أخرجه ابن مردويه. انتهى.

بقوله تعالى: ﴿مَنْ فَرَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ . . . الآية [البقرة: ١٩٧]، وإن كان ذلك محرماً في سائر الشهور، ﴿كَأَنَّهُ﴾: حال من الفاعل أو المفعول، ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: ناصر لهم، حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطُّوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُرُبَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٧)

والنسيء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر؛ وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون، شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر؛ وذلك قوله تعالى: ﴿لِيُوَاطُّوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا العدة التي هي الأربعة، ولا يخالفوها، وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين، وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر؛ ليتسع لهم الوقت؛ ولذلك قال عز وعلا: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ يعني: من غير زيادة زادوها، والضمير في: يحلونه، ويحرمونه للنسيء، أي: إذا أحلوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً، رجعوا فحرموه في العام القابل، وروي أنه حدث ذلك في كنانة؛ لأنهم كانوا فقراء يحاولون إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته: إِنَّ أَلْهَلْتَكُمْ قَدْ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْمَحْرَمَ فَأَحْلُوهُ، ثم يقوم في القابل فيقول: إِنَّ أَلْهَلْتَكُمْ قَدْ حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ الْمَحْرَمَ فَحَرِّمُوهُ، جعل النسيء زيادة في الكفر؛ لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً، فزادتهم رجساً إلى رجسهم، كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقرئ: (يضل): على البناء للمفعول، و(يضل): بفتح الياء والضاد، و(يضل): على أن الفعل لله - عز وجل - وقرأ الزهري: «ليوطئوا» بالتشديد والنسيء: مصدر نسأه إذا أخره، يقال: نسأه، نسأه، ونساء، ونسيئاً؛ كقولك: مسأه، مسأاً، ومسأساً، ومسيساً، وقرئ بهن جميعاً، وقرئ: «النسيء»، بوزن الندى، و«النسيء» بوزن النهي، وهما تخفيف النسيء والنسء.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؟

قلت: معناه فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها/ ٢٩٢ ب، ﴿زُرُبَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾: خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يُلطف بهم بل يخذلهم، وقرئ:

«زين لهم سوء أعمالهم»، على البناء للفاعل، وهو الله، - عز وجل -.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْثَلُثْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ
أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا
قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ
مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٠﴾ أَنْفِرُوا
خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿أَتَأْثَلُثْتُمْ﴾: تناقلتم، وبه قرأ الأعمش، أي: تباطأتم وتقاعثتم، وضمن معنى الميل
والإخلاد فعدى بإلى، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاق السفر ومتاعه؛
ونحوه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم
ودياركم، وقرئ: «أناقلتم»؟ على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ.

فإن قلت: فما العامل في: «إذا»، وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه^(١)؟

قلت: ما دلّ عليه قوله: (أناقلتم)، أو ما في: (مالككم) من معنى الفعل، كأنه قيل: ما
تصنعون إذا قيل لكم كما تعمله في الحال إذا قلت: مالك قائماً، وكان ذلك في غزوة
تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف، استنفروا في وقت عسرة وقحط وقبط مع
بعد الشقة وكثرة العدو، فشق عليهم، وقيل: ما خرج رسول الله - ﷺ - في غزوة إلا ورى
عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك (٦٨٨)؛ ليستعدّ الناس تمام العدة، ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي:

٦٨٨ - أخرجه البخاري (٤٥٢/٨): كتاب المغازي: باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل
﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، حديث (٤٤١٨)، ومسلم (١٠٠/٩ - النووي): كتاب التوبة: باب
حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث (٢٧٦٩/٥٣)، والترمذي (٢٨١/٥): كتاب تفسير
القرآن: باب ومن سورة التوبة حديث (٣١٠٢) مختصراً عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن
أبيه فذكره.

(١) قوله: «وحرف الاستفهام» لعله: وأحرف الاستفهام، بدليل قوله: «مانعة». وقوله: «أن يعمل فيه»
لعله: أن يعمل فيه «أناقلتم».

بدل الآخرة؛ كقوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِئَةً﴾ [الزخرف: ٦٠]، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: في جنب الآخرة، ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾: سخط عظيم على المتأقلين^(١)؛ حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه، لا يقدر تشاقلهم فيها شيئاً، وقيل: الضمير للرسول، أي: ولا تضروه؛ لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة، وقيل: يريد بقوله: (قوما غيركم): أهل اليمن، وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن التخصيص.

فإن قلت: كيف يكون قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ جواباً للشرط؟

قلت: فيه وجهان.

أحدهما: إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد، فدلّ بقوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ على أنه ينصره في المستقبل، كما نصره في ذلك الوقت.

والثاني: أنه أوجب له النصره وجعله منصوراً في ذلك الوقت، فلن يخذل من بعده، وأسند الإخراج إلى الكفار، كما أسند إليهم في قوله: ﴿مِنْ قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: ١٣]؛ لأنهم حين هموا بإخراجه، أذن الله له في الخروج، فكأنهم أخرجوه، ﴿ثَانِيَيْنِ﴾: أحد اثنين؛ كقوله: ﴿ثَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٤]، وهما رسول الله - ﷺ - وأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يروى أن جبريل - عليه السلام - لما أمره بالخروج، قال: من يخرج معي؟ قال: أبو بكر، وانتصابه على الحال، وقرئ: «ثاني اثنين»، بالسكون، و﴿إِذْ هُمَا﴾: بدل من إذ أخرجه، والغار: ثقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمين مكة/ ١٢٩٣ على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: بدل ثان، قيل: طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر - رضي الله عنه - على رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم - فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «مَا ظَنُّكَ بِأَتَيْنِ اللَّهَ تَالِيَهُمَا» (٦٨٩)، وقيل: لما دخلا الغار، بعث الله - تعالى - حمايتين فباضتا في

= قال الحافظ: متفق عليه من حديث كعب بن مالك. انتهى.

٦٨٩ - قال ابن حجر: لم أجده هكذا. أ. هـ. والحديث أخرجه البخاري (٣٥٥/٧): كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة رضي الله عنه، =

(١) قال محمود: «في هذه الآية سخط عظيم على المتأقلين حيث أوعدهم عذاباً أليماً... إلخ» قال أحمد: ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول أن الضمير في قوله (إلا تنصروه) عقيب ذلك عائد إليه اتفاقاً، والله أعلم.

أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه (٦٩٠)، وقال رسول الله - ﷺ -: «اللَّهُمَّ، أَعْمِ أَبْصَارَهُمْ» (٦٩١)، فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفتنون، وقد أخذ الله بأبصارهم عنه، وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر - رضي الله عنه - فقد كفر؛ لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة، ﴿سَكِنَتْهُ﴾: ما ألقى في قلبه من الأمانة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه، والجنود: الملائكة يوم بدر، والأحزاب وحنين، وكلمة الذين كفروا: دعوتهم إلى الكفر، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾: دعوته إلى الإسلام، وقرىء: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾: بالنصب، والرفع أوجه، و﴿هي﴾: فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو، وأنها المختصة به دون سائر الكلم، ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: خفافاً في النفور لنشاطكم له، وثقلاً عنه لمشقة عليكم، أو خفافاً؛ لقلة عيالكُم وأذيالكُم، وثقلاً؛ لكثرتها، أو خفافاً

 = حديث (٣٦٥٣)، وطرفاه في (٣٩٢٢، ٤٦٦٣)، ومسلم (١٦٠/٨ - النووي): كتاب فضائل الصحابة - رضي الله تعالى عنهم -، باب من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، حديث (٢٣٨١/١)، والترمذي (٢٧٨/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٦)، كلهم من طريق همام عن ثابت عن أنس عن أبي بكر به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما يعرف من حديث همام تفرد به، وقد روى هذا الحديث جبان بن هلال، وغير واحد عن همام نحو هذا.

قال الحافظ: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: «نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار. فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا. فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. انتهى.

٦٩٠ - أخرجه البزار (٢٩٩/٢ - ٣٠٠) رقم (١٧٤١).

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٥/٦ - ٥٦) وقال: رواه البزار والطبراني، وفيه جماعة لم أعرفهم.

وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٧٧/١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤٨١/٢ - ٤٨٢)، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص (٢٣٤).

كلهم من طريق أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله سبحانه وتعالى شجرة فنبت على وجه الغار... الحديث.

وله شاهد من حديث ابن عباس:

أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٨٩/٥) رقم (٩٧٤٣).

قال الحافظ: أخرجه البزار من طريق عوف بن عمرو عن أبي مصعب المكي: سمعت أنس بن مالك وغيره: «أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله تعالى صخرة فثبتت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر العنكبوت فنسجت في وجهه فسترته. وأمر حَمَامَتَيْنِ وحشيتين فوقفتا بقم الغار... الحديث» انتهى.

٦٩١ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٧٧/٢): قوله - عليه السلام - : «اللهم أعم أبصارهم»، لم أجده. وقال ابن حجر: لم أجده. انتهى.

من السلاح وثقلاً منه، أو ركبناً ومشاة، أو شباباً وشيوخاً، أو مهازيل وسماناً، أو صحاحاً ومراضاً، وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله - ﷺ -: أعلني أن أنفر؟ قال: نعم، حتى نزل قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧] [٦٩٢]، وعن ابن عباس: نسخت بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ [التوبة: ٩١] وعن صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك، فرجع حاجبيه، وقال: يابن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقلاً، إلا أنه من يحبه الله يبتله، وعن الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾: إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢)

العرض: ما عرض لك من منافع الدنيا، يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر؛ أي: لو كان ما دعوا إليه غنماً قريباً سهلاً المنال، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: وسطاً مقارباً، ﴿الشُّقَّةُ﴾: المسافة الشاقة الشاقة، وقرأ عيسى بن عمر: «بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ»، بكسر العين والشين؛ ومنه قوله [من الطويل]:

يَقُولُونَ لَا تَبْعُدْ وَهُمْ يَذِفُونَهُ وَلَا بُغْدَ إِلَّا مَا تُوَارِي الصَّفَائِحَ^(١)

﴿يَاللَّهُ﴾: متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم، والقول مراد في الوجهين، أي: سيحلفون، يعني: المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتردين يقولون/ ٢٩٣ بـ بالله، ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾: أو سيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا، وقوله:

٦٩٢ - تقدم تخريجه برقم (٤٥٨).

(١) يقال «بعد» ككرم وتعب، ومصدرهما: البعد بفتحين، ويضم فسكون. وقد اشتهر باب تعب في معنى الهلاك، ولا تبعد - بالفتح - كلمة جارية على لسانهم عند المصيبة، دالة على تناهي الجزع، ولا بعد: معناه لا بعد إلا بعد ما تواريه الصفائح. أو لا ذو بعد إلا ما تواريه. أو لا بعيد إلا ما تواريه، على أن المصدر بمعنى الوصف. واستعمل «ما» في العاقل، لأن المراد بها الوصف. أو المراد بها الأجسام والأشباح مجردة عن الإدراكات والأرواح. والصفائح: أحجار عراض يسقف بها القبر، أي البعيد، حقيقته هو ما يستره القبر، كناية عن موته. ينظر البيت في الدر المنصور ١٠٣/٤.

(لخرجنا): سدّ مسدّ جوابي القسم ولو جميعاً، والإخبار بما سوف يكون بعد القبول من حلفهم واعتذارهم، وقد كان من جملة المعجزات، ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدة، أو استطاعة الأبدان، كأنهم تمارضوا، وقرىء: لو استطعنا، بضم الواو تشبيهاً لها بواو الجمع في قوله: ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ [الجمعة: ٧]، ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: إما أن يكون، بدلاً من سيحلفون، أو حالاً بمعنى: مهلكين، والمعنى: أنهم يوقعونها في الهلاك يحلفهم الكاذب، وما يحلفون عليه من التخلف، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: (لخرجنا) أي: لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا، وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة، وجاء به على لفظ الغائب؛ لأنه مخبر عنهم؛ ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديداً، يقال: حلف بالله ليفعلن ولأفعلن، فالغيبة على حكم الإخبار، والتكلم على الحكاية.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣)

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾: كناية عن الجناية؛ لأنّ العفو رادف لها^(١)، ومعناه: أخطأت وبش ما فعلت^(٢)، و﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾: بيان لما كنى عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنت بالاذن ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾: من صدق في عذره ممن كذب فيه، وقيل: شيان فعلهما رسول الله - ﷺ - ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى فعاتبه الله، تعالى.

﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِالْمُنْفِقِينَ﴾ (٤٤)

﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ﴾: ليس من عادة المؤمنين^(٣) أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان

(١) قال محمود: «هذا كناية عن الجناية، لأنّ العفو رادف لها... إلخ» قال أحمد رحمه الله: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين: إما أن لا يكون هو المراد. وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، وخصوصاً في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام. ولقد أحسن من قال هذه الآية: إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء: لم أذنت لهم؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا الأدب يجب احتذائه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) قوله: «ومعناه أخطأت وبش ما فعلت» خاطب الله رسوله خطاب الرقة والرأفة، وفسره المصنف بخطاب الغلظة والقسوة، وشتان ما بينهما.

(٣) عاد كلامه: قال: وقوله ﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ - إلى قوله - إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ لَا

الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي أبداً، ولنجاهد أبداً معه بأموالنا وأنفسنا، ومعنى: ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ في أن يجاهدوا، أو كراهة أن يجاهدوا، ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُتَّقِينَ﴾: شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين، وعدة لهم بأجل الثواب.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَغْوِيَكُمُ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ يعني: المنافقين، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً، ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾: عبارة عن التحير؛ لأن التردد ديدن المتحير، كما أن الثبات والاستقرار ديدن المستبصر، قرئ: «عُدَّة»، بمعنى: «عُدَّتُهُ»؛ فعل بالعُدَّة ما فعل بالعُدَّة مَنْ قَالَ: [الطويل] وَأَخْلَفُوكَ عِدَّ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا^(١)

من حذف تاء التأنيث، وتعويض المضاف إليه منها، وقرئ: «عُدَّة»، بكسر العين بغير إضافة، وعده بإضافة.

فإن قلت: كيف موقع حرف الاستدراك؟

قلت: لما كان قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾: معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو، قيل: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾، كأنه قيل: ما خرجوا، ولكن تشبثوا عن الخروج؛ لكرهه انبعاثهم؛ كما تقول: ما أحسن إلي زيد، ولكن أساء إلي، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾:

= يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... الآية قال: معناه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا... إلخ قال أحمد: وهذا الأدب يجب أن يقتضى مطلقاً، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدي إليه معروفاً، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاماً؛ فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمانة التكلف والتكره، وصلوات الله على خليله وسلامه لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه، إنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم، فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلعة الجميلة والآداب الجليلة، فقال تعالى ﴿فَرَأَى إِلَهُهُ فَجَاءَ بِعِثْلٍ سِمِينٍ﴾ ﴿٦٦﴾ أي ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به، والمهم بامر ضيفه بمرأى منه ربما يعد كالمستأذن له في الضيافة، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة وأولو الفتوة، وأشد من الاستئذان في الخروج للجهاد ونصرة الدين التثاقل عن المبادرة إليه بعد الحضيض عليه والمنادة، وأسوأ أحوال المتثاقل - وقد دعي الناس إلى الغزاة - أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق نعوذ بالله من التعرف لسطخه.

(١) تقدم.

فكسلهم، وخذلهم، وضعف رغبتهم في الانبعاث / ١٢٩٤، ﴿وَقِيلَ أَفَعُدُّوا﴾: جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود، وقيل: هو قول الشيطان بالوسوسة، وقيل: هو قولهم لأنفسهم، وقيل: هو إذن رسول الله - ﷺ - لهم في القعود.

فإن قلت: كيف جاز أن يوقع الله - تعالى - في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة، وتعالى الله عن إلهام القبيح^(١)؟

قلت: خروجهم كان مفسدة؛ لقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة.

فإن قلت: فلم خطأ رسول الله - ﷺ - في الإذن لهم فيما هو مصلحة؟

قلت: لأن إذن رسول الله - ﷺ - لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القبول بإعلام الله تعالى؛ ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه، فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجاوز في قبولها، فمن ثم أتاه العتاب، ويجوز أن يكون في ترك رسول الله - ﷺ - الإذن لهم مع تثبيط الله إياهم مصلحة أخرى، فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة، وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا، وكان قعودهم بغير إذن من رسول الله - ﷺ - قامت عليهم الحجة، ولم تبق لهم معذرة، ولقد تدارك الله ذلك؛ حيث هتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وشهد عليهم بالنفاق، وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(٢)؟

قلت: هو ذم لهم وتعجيز، وإلحاق بالنساء، والصبيان، والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت، وهم القاعدون، والخالفون، والخوالف، ويبينه قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]. ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾: جنس من الاستثناء المنقطع في شيء

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاز أن يوقع الله في نفوسهم كراهة الخروج للغزو... إلخ» قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه مبني على قاعدتين فاسدتين: إيجاب مراعاة المصالح على الله تعالى، والتحسين والتقيح. وقد تكرر بطلان ذلك فاحذره. واعلم أن معتقد أهل السنة أن الله تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم، لأنه أراد شقاوتهم، وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم؛ إذ الأمر ليس شرطاً في نفوذ المشيئة، والله الموفق.

(٢) عاد كلامه: قال: «فإن قلت فما معنى قوله مع القاعدين... إلخ» قال أحمد: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيده بسطاً فنقول: لو قيل اقعّدوا مقتصرأ عليه، لم يفد سوى أمرهم بالقعود، وكذلك: كونوا مع القاعدين، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد، الموسومين بهذه السمة، إلا من عبارة الآية، ولعن الله فرعون: لقد بالغ في نועد موسى عليه السلام بقوله: لأجعلنك من المسجونين، ولم يقل: لأجعلنك مسجوناً، لمثل هذه النكتة من المبالغة.

كما يقولون؛ لأن الاستثناء المنقطع هو: أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه؛ كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر، وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء، فكان استثناء متصلاً؛ لأن الخبال بعض أعم العام، كأنه قيل: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً، والخبال، الفساد والشر، ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾: ولسعوا بينكم بالتضريب^(١)، والتمايم، وإفساد ذات البين؛ يقال: وضع البعير وضعا إذا أسرع وأضعته أنا، والمعنى: ولأوضع ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالتمايم؛ لأن الراكب أسرع من الماشي، وقرأ ابن الزبير - رضي الله عنه -: «ولأرقصوا»، من رقصت الناقة رقصاً إذا أسرع وأرقصتها؛ قال [من الكامل]:

وَالرَّاقِصَاتُ إِلَى مِئَى فَأَلْغَبْنَ^(٢)

وقرىء: «ولأوفضوا».

فإن قلت: كيف خط في المصحف: «ولا أوضعوا»، بزيادة ألف؟

قلت: كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً، وفتحها ألفاً/ ٢٩٤ ب أخرى، ونحو: أولاً أذبحنه، ﴿يَبْعُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾: يحاولون أن يفتنوكم، بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نياتكم في مغزاكم، ﴿وَيَكُفُّ سَعَتُونَ لَكُمْ﴾ أي: نمامون، يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم، ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ﴾ أي: العنت، ونصب الغوائل، والسعي في تشتيت شملك، وتفريق أصحابك عنك، كما فعل عبد الله بن أبي يوم أحد، حين انصرف بمن معه، وعن ابن جريج - رضي الله عنه -: وقفوا لرسول الله - ﷺ - على الثانية ليلة العقبة، وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: من قبل غزوة تبوك، ﴿وَقَبَلُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: ودبروا لك الحيل والمكايد، ودوروا الآراء في إبطال أمرك، وقرىء: «وقلبوا» بالتخفيف، ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾: وهو تأييدك ونصرك، ﴿وَوَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: وغلب دينه وعلا شرعه.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكُولُ أَذْنَ لِي وَلَا تَقِيَّتِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ

لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

﴿أَشَدَّنْ لِي﴾: في القعود، ﴿وَلَا تَقِيَّتِي﴾: ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم، بآلاً تأذن

(١) قوله: «بالتضريب» أي بالإغراء (ع).

(٢) ينظر البحر المحيط (٥/٥٠)، اللسان «غيب»؛ معجم البلدان (٤/١٨٦) «الغيب»، وبلا نسبة في مقاييس اللغة (٢/٦٠)، وتاج العروس (غيب)، الدر المصون (٣/٤٧٠).

لي؛ فإنني إن تخلفت بغير إذنك، أثمت، وقيل: ولا تلقني في الهلكة؛ فإنني إذا خرجت معك، هلك مالي، وعيالي، وقيل: قال الجد بن قيس: قد علمت الأنصار أنني مستهتر بالنساء^(١)، فلا تفتني بنات الأصفر، يعني: نساء الروم؛ ولكني أعينك بمال فاتركني، وقرئ: «ولا تفتني»، من أفتنه، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: إن الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلف، وفي مصحف أبي - رضي الله عنه -: «سقط»؛ لأن: «من» موحد اللفظ لمجموع المعنى، ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني: أنها تحيط بهم يوم القيامة، أو هي محيطة بهم الآن؛ لأن أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾: في بعض الغزوات، ﴿حَسَنَةٌ﴾: ظفر وغنيمة، ﴿سُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾: نكبة وشدة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك، و﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ أي: أمرنا الذي نحن متسمون به، من الحذر، واليقظ، والعمل بالحزم، ﴿مِنْ قَبْلٍ﴾: من قبل ما وقع، وتولوا عن مقام التحدث بذلك، والاجتماع له إلى أهاليهم، ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾: مسرورون، وقيل: تولوا: أعرضوا عن رسول الله - ﷺ -.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾

قرأ ابن مسعود - رضي الله عنه -: «قل هل يصيبنا»، وقرأ طلحة - رضي الله عنه -: «هل يصيبنا»، بتشديد الياء، ووجهه أن يكون: «يفعل»، لا «يفعل»؛ لأنه من بنات الواو؛ كقولهم: الصواب، وصاب السهم يصوب، ومصاب^(٢)، في جمع مصيبة، فحق: «يفعل»، منه: «يصوب»؛ ألا ترى إلى قولهم: صوب رأيه، إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب، ومن قوله^(٣): أسهمي الصائبات والصيب، واللام في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾؛ مفيدة معنى الاختصاص؛ كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به بآياته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة؛ ألا ترى / ٢٩٥ إلى قوله: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾

(١) قوله: «إني مستهتر» أي مولع لا أبالي بما يقال في شأني انتهى (ع).

(٢) قوله: «ومصاب» في الصحاح: أجمعت العرب على همز المصائب، وأصله الواو كأنهم شبهوا الأصلي بالزائد، ويجمع أيضاً على مصاب، وهو الأصل (ع).

(٣) قوله: «ومن قوله» لعله: ومنه. أو لعله: ومنها. وفي الصحاح: صاب السهم القرطاس يصيبه صيباً لغة في أصابه (ع).

أي: الذي يتولانا ونتولاه؛ «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم»، [محمد: ١١]، «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»: وحق المؤمنين ألا يتوكلوا على غير الله، فليفعلوا ما هو حقهم.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: إلا إحدى العاقبتين، اللتين كل واحدة منهما هي حسن العواقب، وهما: النصر، والشهادة، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾: إحدى السواتين^(١)، من العواقب، إما: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ وهو قارعة من السماء، كما نزلت على عاد وثمود، ﴿أو﴾: بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾: بنا ما ذكرنا من عواقبنا، ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾: ما هو عاقبتكم، فلا بد أن يلقي كلنا ما يتربصه لا يتجاوز.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُّقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾
﴿أَنْفِقُوا﴾: يعني في سبيل الله، ووجوه البر، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: نصب على الحال، أي: طائعين أو مكرهين.

فإن قلت: كيف أمرهم بالإففاق ثم قال: ﴿لَّنْ يُّقْبَلَ مِنْكُمْ﴾؟

قلت: هو أمر في معنى الخبر^(٢)؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ

(١) قوله: «إحدى السواتين» لعله: السأوين (ع).

(٢) قلنا: «الأمر» بحث قرآني وقف عنده علماء الفقه والبيان، وأخذوا منه الفقه واجبه ومندوبه والمباح منه، أما البيانون فقد أخذوا منه صورته ومعناه ومراميه في أساليب القرآن، ولهذا ساقف مع المفسر العلامة في صورة الأمر كله ليتجلى لنا مقاصد الأمر في كتاب الله بحسب ما بين المفسر العلامة، وسأسير في المبحث بهذا الترتيب:

١ - تعريف الأمر عند البلاغيين هكذا: هو: «طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء» وقد أفاد الزمخشري بقوله: «طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه» بأنه قد يدل الأمر بطريق المقام على معان أخرى، وقد استطاع المفسر العلامة استنباط ما استطاع بفكره الثاقب من خلال دراسة مقامات الأمر في القرآن الكريم.

٢ - من هذه المعاني التي أوردها العلامة ما يأتي:

التهكم: كقوله - سبحانه - ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] فهذا الطلب «وادعو» من الشهداء الجمادات دليل على غاية التهكم بهم.

التبكيك: وقد ورد في قوله - تعالى - ﴿أَلْيَغْوِي بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] فهذا طلب مع علمه بعجزهم تبكيكنا لهم.

الرَّحْمَنُ مَذًّا ﴿[مريم: ٧٥]، ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً؛ ونحوه قوله تعالى:

الاستهزاء: كما في قوله - تعالى - ﴿قُلْ فَأَدْرَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]. والمعنى: إن كنتم رجالاً فادفعوا أسباب الموت عنكم.

طلب الثبات: كقوله - تعالى - ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فالعبادة من المؤمنين حاصلة فطلبها دليل على أن المراد: اثبتوا وزيدوا.

الإباحة: كما ورد في قوله - تعالى - ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] فقد كان محظوراً أيام الإحرام، فإذا حل المحرم أباح الله له الاصطياد.

الحيرة والاضطراب في حال الشدة: كقوله - تعالى - ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] فهم قد يشربوا من طلب الماء لكنهم من حيرتهم يطلبون كما يفعل المضطر، فهو يطلب ما لا طلب فيه له.

الاستعجال: كما في قوله - عز شأنه - ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُّكَ﴾ فهذا استعجال منهم للعذاب.

الدعاء: كقوله - سبحانه - ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْطِكُمْ﴾ فهذا دعاء عليهم بالهلاك من الغيظ [والآية من آل عمران: ١١٩].

ومن الدعاء بالواقع لا محالة تضرعاً وتذللاً لله ما جاء في قوله - تعالى - ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ عَائِتٌ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] فهذا الدعاء: «ليضلوا» - «اطمس» - «واشدد» من باب الخضوع لله رب العالمين لأن ذلك دافع لا محالة بهم، وقد أبدع الزمخشري في بيان هذا المعنى عند شرحه للآية.

الترغيب في الأمور به، وهذا يتحقق في مقام يأتي فيه النهي عن نقيضه أولاً، ثم يأتي الأمر لزيادة الترغيب والبعث عليه، وهذا واضح عند قوله - سبحانه -:

﴿وَلَا تَنْفُسُوا الْكِبَالَ وَالْمِيزَانَ إِنَّ أَرْسَكُمْ يَحْيِي وَإِنَّ أَخَاكُمْ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ تُحْشَرُ أَوْفُوا الْكِبَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٧٤ - ٨٥] وهذا البيان أفاده الزمخشري في موضعه.

٣ - قد يأتي الأمر بصورة الخبر لسر بلاغي يراد كما في قوله - تعالى -: ﴿يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٦] ومعناه: قاتلوا في سبيل الله والسر وراء هذا الخبر المقيد للأمر أن الله - سبحانه - أراد أن يلفت المسلم إلى أنه قد امتثل فصار خيراً أخبر عنه بهذه الصورة، وهذا ما تراه في قوله - تعالى - أيضاً -: ﴿وَيُحْذِرُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ﴾ [الصف: ١١].

٤ - وقد تعكس هذه الطريقة فيكون النظم بصورة الأمر، والمراد الخبر بحسب السياق والقرائن وذلك أيضاً لسر يراد في المعنى المقصود ومن ذلك:

الإشارة إلى التسوية بين فعل المأمور به وعدمه، وفيه دليل على نهاية السخط أو الرضا فالأول كقوله - تعالى - ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ وهي الآية التي صورتها في هذا المبحث، والمعنى فيه خير وهو: لن يتقبل منكم الإنفاق طائعين أو مكرهين، وهذا المعنى - أيضاً - يلاحظ عند قول الله - سبحانه - ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

والثاني: وهو ما يدل على غاية الرضا كقول كثير عزة [من الطويل]:

أسيثي بنا أو أحسني لا ملومة... ..

فالإساءة والإحسان متساويان فهو في غاية الرضوان، وقد بين هذا الزمخشري عند الآية.

وقد تأتي هذه الطريقة من باب إهانة المأمور، وأنه لا يلتفت إلى فعله كقوله - تعالى -: ﴿قُلْ عَائِثُ

بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ١٠٧]. فالمعنى أنهم لا شأن لهم وأن خيراً منهم قد آمنوا وصدقوا =

= وعملوا صالحاً وهم العلماء...

ويأتي الأمر لإفادة أنه حتم واجب لا شيء غيره كما في قوله - تعالى -: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جِزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢] ومعناه: فيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً جزاء لهم بأفعالهم.

٥ - وقد يعبر القرآن عن حدث وقع بصيغة الأمر لمغزى كما في قوله - تعالى -: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَمَّاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] والمغزى فيه: الدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله وإرادته، وهذا خارج عن العادة كأنهم أمروا فامتثلوا.

٦ - قد يفيد الأمر التعظيم والتشريف وهذا إذا كان الأمر يفيد العموم كما قوله - تعالى -: ﴿وَيَبْرَأَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [البقرة: ٢٥] فالخطاب يجوز فيه أن يكون لرسول الله - صلوات الله عليه - وأن يكون لكل أحد يشير تشريفاً وتفضيلاً، وهذا من الطرق العجيبة في الأمر.

٧ - من خصائص الأمر أن يقع عقبه ما يحث عليه ويدعو إليه، وقد أورد العلامة الزمخشري هذا المعنى عند قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْهُ...﴾ فكأنه أراد لعباده أن يتقوه من باب أنه خلقهم بقدرته، وأمرهم بيده، وأن يتقوه في الحقوق التي بينهم لأنهم شجرة واحدة، وهذا ما أوردته العلامة المفسر وبينه.

٨ - هناك معانٍ للأمر أفادها المفسرون ومنها:

التكوين والتمثيل ويسمى «التسخير» ومعناه أنه أمر تكويني لا امتناع فيه كقوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وهذا ما لحظه الزمخشري كما في التعليق «٥» إلا أن الشوكاني - رحمه الله - أضاف شيئاً آخر وهو «الحث والتشجيع لما أمر الله لأن الأمر في كل الشؤون لله وحده لا شريك له.

الثبات والإقامة: وقد لمح المفسرون هذا في قوله - تعالى -: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد - ﷺ: ١٩] وقد مر هذا المعنى لكن أثرنّا ذكره لأن المفسرين قد داروا هذا الأمر ولهم فيه كلام، ولكن المعنى الذي ذكرت هو الواضح البين.

التعجيز: وهذا معنى يراه المفسرون عند قوله - سبحانه -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] ومعناه: لن تستطيعوا.

التواضع وحسن الأدب: وقد فهم الشوكاني هذا المعنى عند قوله - تعالى -: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] ولهذا قال: «أمره الله - سبحانه - بخلع نعليه؛ لأن ذلك أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب».

هذا، والمعاني في كتاب الله - سبحانه - وفيرة، ومن تأمل الأمر القرآني في جميع آيات الكتاب مع مراعاة ملابسات الآيات وقرائن السياقات، والمقامات يرى من الأسرار والفتوحات الشيء الوفير، وفي هذا القدر المتواضع إشارة وكفاية، ومن أراد الغاية فعليه بمراجعة كلام أولي النهى من المحققين مفسرين وبلاغيين، والله من وراء القصد.

ينظر شروح التلخيص ٣٠٨/٢، ٣٠٩ وما بعدها، والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٦٨ وما بعدها، علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني فتحي حجازي ٦٤٠/٢، وما بعدها، والنفس ٨٤/١، وفتح القدير للشوكاني ٣٨٨/٢، مفاتيح الغيب للرازي ١١٨/٨، وروح المعاني للآلوسي ٢٦٥/١، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٢١/١، ٣٢٥/٤، الإيضاح للقزويني ٨٨/٣ وما بعدها، والمطول لسعد الدين التفتازاني ٢٣٩ وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي ١٥٢.

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ^(١)
 أي: لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك - أسأت إلينا أم أحسنت.

فإن قلت: متى يجوز نحو هذا؟
 قلت: إذا دلّ الكلام عليه، كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً وغفر له.
 فإن قلت: لم فعل ذلك؟
 قلت: لنكتة فيه، وهي أنّ كثيراً كأنه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوة محبتي لك، وعامليني بالإساءة، والإحسان، وانظري هل بتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة؟ وفي معناه قول القائل [من الطويل]:
 أَخُوكَ الَّذِي إِنْ قُمْتَ بِالسَّيْفِ عَامِداً لِيَتَضَرَّبَهُ لَمْ يَسْتَفِثْكَ فِي الْوُدِّ^(٢)
 وكذلك المعنى: أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه؟

فإن قلت: ما الغرض في نفي التقبل؟ أهو ترك رسول الله - ﷺ - تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول عند الله - تعالى - ذاهباً هباء لا ثواب له؟
 قلت: يحتمل الأمرين جميعاً، وقوله: ﴿طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا﴾ معناه: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين، وسمي الإلزام إكراهاً؛ لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق

(١) أسئني بنا أو أحسنني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت
 لكثير صاحب عزة، يقول: امتحيني في المحبة، وعامليني بالإساءة والإحسان، وانظري هل يتغير حالي، وافعلي ما يجبرك زوجك عليه من شتمي، كما يأتي في كلامه، ولا تتحرجي عنه فإنه مثل إحسانك، ولهذا ذكر الإحسان والمعنى: لا لوم ولا بغض، سواء أسأت أو أحسنت، فالأمر بمعنى الخير، ثم التفت وقال: ليست عزة ملومة عندنا ولا مبغضة إن تبغضت، أي تكلفت البغض لنا وأظهرته. ويجوز أن المعنى: لا ملومة أنت ولا مقلية، فالالتفات في قوله: «إن تبغضت؟ فقط. ينظر ديوانه (١٠١)، أمالي ابن الشجري (٤٩/١)، التهذيب، اللسان (حسن)، الدر المصون (٣/٤٧٢).

(٢) أخوك الذي إن قمت بالسيف عامداً لتضربه لم يستفثك في الود
 ولو جئت تبغي كفه لتبينها تبادر إشفاقاً عليك من الرد
 يرى أنه في الود وإن مقصر على أنه قد زاد فيه عن الجهد
 روي يستفثك «بالشين بدل التاء. والمعنى متقارب. والسين والتاء للعد، أي لم يعدك خائناً مضراً. وتبينها تقطعها. والإشفاق: الخوف. والواني: المتواني. يقول: إن أخاك الصدوق هو الذي لو قصدته بالمكراه لم يعدها غشا منك في المودة، بل يبادرك بكل ما طلبته خوفاً عليك من أذى المنع، يظن أو يعتقد أنه مقصر في الود، مع أنه جاوز فيه الحد، وتكلف غير طاقته. ينظر الدر المصون (٣/٤٧٢).

شاقاً عليهم كالإكراه، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم؛ لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم، وروي أنها نزلت في الجذ بن قيس؛ حين تخلف عن غزوة تبوك، وقال لرسول الله - ﷺ -: هذا مالي أعينك به فاتركني، ﴿إِنَّكُمْ﴾: تعليل لرد إنفاقهم، والمراد بالفسق: التمرد والعتو.

﴿وَمَا مَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥١)

﴿يَأْتُهُمْ﴾: فاعل منع، «وهم»، و«أن تقبل»: مفعولاه / ٢٩٥ب، وقرئ: «أن تقبل»، بالتاء والياء على البناء للمفعول، ونفقاتهم، ونفقتهم، على الجمع والتوحيد، وقرأ السلمي: «أن يقبل منهم نفقاتهم»، على أن الفعل لله - عز وجل - ﴿كُسَالَى﴾: بالضم والفتح، جمع كسلان؛ نحو: سكارى، وغيارى، في جمع سكران، وغيران؛ وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً، ولا يخشون بتركها عقاباً فهي ثقيلة عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥]، وقرأت في بعض الأخبار أن رسول الله - ﷺ - كره للمؤمن أن يقول: «كسلت»، كأنه ذهب إلى هذه الآية؛ فإن الكسل من صفات المنافقين، فما ينبغي أن يسند المؤمن إلى نفسه (٦٩٣).

فإن قلت: الكراهية خلاف الطوعية، وقد جعلهم الله - تعالى - طائعين في قوله: ﴿طَوَّعًا﴾ ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون.

قلت: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله - ﷺ - أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذلك إلا عن كراهية واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥)

الإعجاب بالشيء: أن يسر به سرور راض به متعجب من حسنه، والمعنى: فلا تستحسن، ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ﴾ [طه: ١٣١]، فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب، بأن عرضة للتغنى والسبي، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم.

٦٩٣ - تقدم في أواخر البقرة.

فإن قلت: إن صح تعليق التعذيب^(١) بإرادة الله تعالى، فما بال زهوق أنفسهم ﴿وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾؟

قلت: المراد: الاستدراج بالنعم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، كأنه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون، ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأٌ أَوْ مَغْرَبٌ أَوْ مُدْخَلٌ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿لمنكم﴾ لمن: جملة المسلمين، ﴿يَفْرُقُونَ﴾: يخافون القتل، وما يفعل بالمشردين، فيتظاهرون بالإسلام تقية، ﴿مَلْجَأٌ﴾: مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل، أو قلعة، أو جزيرة، ﴿أَوْ مَغْرَبٌ﴾: أو غيرانا، وقرىء بضم الميم، من أغار الرجل وغار، إذا دخل الغور، وقيل: هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا، يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم، ويجوز أن يكون من: أغار الثعلب، إذا أسرع، بمعنى: مهارب، ومفاز، ﴿أَوْ مُدْخَلٌ﴾: أو نفقاً يندسون فيه وينجحرون، وهو مفتعل من الدخول، وقرىء: «مدخلاً» من دخل، «ومدخلاً» من أدخل: مكاناً يدخلون فيه أنفسهم، وقرأ أبي بن كعب - رضي الله عنه -: «متدخلاً»، وقرىء: «لو ألوأ إليه» لالتجؤوا إليه ﴿يَجْمَحُونَ﴾: يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء، من الفرس الجموح، وهو الذي إذا حمل لم يردّه اللجام، وقرأ أنس - رضي الله عنه -: «يجمزون»، فسئل؟ فقال: يجمعحون ويجمزون ويشتدون^(٢) واحد.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ

يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿يَلْمِزُكَ﴾: يعيبك / ٢٩٦ في قسمة الصدقات ويطعن عليك، قيل: هم المؤلفه قلوبهم، وقيل: هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله - ﷺ - يقسم غنائم حنين، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه وسلامه: «وَيْلَكَ إِنْ لَمْ أُعْطِلْ فَمَنْ يَعْطِلُ» (٦٩٤) وقيل: هو أبو الجواظ، من المنافقين، قال: ألا ترون إلى صاحبكم!

٦٩٤ - أخرجه البخاري (٢٩٥/١٤ - ٢٩٦): كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك =

(١) قوله: «فإن قلت إن صح تعليق... إلخ» مبني على أنه تعالى لا يريد الشر؛ وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة: أنه يريد كالحير (ع).

(٢) قوله: «ويجمزون ويشتدون» فيقال: جمز بالجيم يجمز بالكسر: أسرع، وحمز بالحاء يحمز بضمها: اشتد اهـ صحاح فتدبر (ع).

إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم، وهو يزعم أنه يعدل، فقال رسول الله - ﷺ -: «لَا أَبَا لَكَ أَمَا كَانَ مُوسَى رَاعِيًا، أَمَا كَانَ دَاوُدُ رَاعِيًا» فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام: «أَخَذَرُوا هَذَا وَأَصْحَابَهُ؛ فَإِنَّهُمْ مُنَافِقُونَ» ح (٦٩٥)، وقرئ: «يلمذك» بالضم، و«يلمذك» و«يلامذك»، التثقيب والبناء على المفاعلة؛ مبالغة في اللمز، ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين وما فيه صلاح أهل؛ لأن رسول الله - ﷺ - استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه، وإذا للمفاجأة، أي: وإن لم يعطوا منها فاجزؤا للسخط.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٥٩)

جواب «لو»: محذوف تقديره: ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم، والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم، وإن قل نصيبهم، وقالوا كفانا فضل الله وصنعه، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى، فيؤتينا رسول الله - ﷺ - أكثر مما آتانا اليوم، ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ﴾: في أن يغنمنا ويحولنا فضله لراغبون.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٠)

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾: قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها، لا يتجاوزها إلى غيرها؛ كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم؛ ونحوه

== قتال الخوارج للتألف، ولئلا ينفر الناس عنه، حديث (٦٩٣٣)، ومسلم (١٧٣/٤ - ١٧٤ - النووي): كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث (١٠٦٤/١٤٨).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي سعيد، واللفظ للبخاري؛ ولهما: «إذا جاء ذو الحويصرة»، وهو المحفوظ. انتهى.

٦٩٥ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٧٩/٢): غريب.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

(١) قال محمود: «هذا قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها إلخ» قال أحمد: وهو مذهب مالك رضي الله عنه، والقول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار اللام بالتملك كما ذهب إليه الشافعي لا يساعده السياق فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً فهذا هو الغرض الذي سبقت له فلا اقتضاء فيها لما سواه والله أعلم.

قولك: إنما الخلافة لقريش، تريد: لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها، وأن تصرف إلى بعضها، وعليه مذهب أبي حنيفة - رضي الله عنه - وعن حذيفة، وابن عباس، وغيرهما، من الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزأك، وعن سعيد بن جبير - رضي الله عنه -: لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعفين فجبرتهم بها كان أحب إليّ، وعند الشافعي - رضي الله عنه -: لا بدّ من صرفها إلى الأصناف الثمانية، وعن عكرمة - رضي الله عنه -: أنها تفرّق في الأصناف الثمانية، وعن الزهري أنه كتب لعمر بن عبد العزيز تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية، ﴿وَالْمَكْمِلِينَ عَلَيْهَا﴾: السعاة الذين يقبضونها، ﴿وَالْمَوْلَفَةَ فَلُوْهُمْ﴾: أشرف من العرب كان رسول الله - ﷺ - يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة، «والرقاب»: المكاتبون يعانون منها، وقيل: الأسارى، وقيل: تبتاع الرقاب فتعتق، ﴿وَالْفَكْرَمِينَ﴾: الذين ركبهم الديون، ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب، وقيل الذين تحملوا الحملات فتداينوا فيها وغرموا، ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم، ﴿وَأَيْنِ السَّبِيلِ﴾: المسافرين المنقطع عن ماله فهو/ ٢٩٦ ب فقير؛ حيث هو غني حيث ماله، ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: في معنى المصدر المؤكد؛ لأنّ قوله: «إنما الصدقات للفقراء»، معناه: فرض الله الصدقات لهم، وقرئ: «فريضة» بالرفع على: تلك فريضة.

فإن قلت: لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة^(١)؟

- (١) عاد كلامه: قال: «فإن قلت لم عدل عن اللام إلى في في الأربعة الأخيرة... إلخ» قال أحمد: وثم سر آخر هو أظهر وأقرب وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام لائقاً بهم. وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم. ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذمهم لالهم. وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك. وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً، وعطفه على المجرور باللام ممكن، ولكنه على القريب منه أقرب والله أعلم. وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الاستدلال لمالك على أن الغرض بيان المصرف، واللام لذلك لام الملك، فيقول: متعلق الجار الواقع خبراً عن الصدقات محذوف، فيتعين تقديره، فأما أن يكون التقدير: إنما الصدقات مصروفة للفقراء، كقول مالك: أو مملوكة للفقراء، كقول الشافعي؛ لكن الأول متعين، لأنه تقدير يكتفى به في الحرفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي معاً، فيصح أن تقول: هذا الشيء مصروف في كذا وكذا، بخلاف تقديره مملوكة، فإنه إنما يلتزم مع اللام، وعند الانتهاء إلى «في» يحتاج إلى تقدير =

قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأن «في» اللوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة؛ وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير «في» في قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾: فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين.

فإن قلت: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعف ذكر المنافقين ومكايدهم؟

قلت: دل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم؛ حسماً لأطماعهم، وإشعاراً باستيجابهم الحرمان، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم ومالها؟ وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها، صلوات الله عليه وسلامه؟

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٦)

الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع^(١)، ويقبل قول كل أحد، سمي بالجراحة التي هي آلة السماع؛ كأن جملته أذن سامعة؛ ونظيره قولهم للريثة^(٢): عين، وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه (هو أذن)، وأذن خير؛ كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن، ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك؛ ودل عليه قراءة حمزة: (ورحمة) بالجر عطفاً عليه، أي: هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله، ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخالص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أي: أظهر الإيمان أيها المنافقون؛ حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين؛ مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم، لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه، لا أنه فسر بما هو مدح له وثناء

= مصروفة ليلتزم بها، فتقديره من اللام عام التعلق، شامل الصحة، متعين، والله الموفق.

(١) قال محمود: «الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع... سمي الرجل بالجراحة التي هي آلة السماع... إلخ» قال أحمد: لا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه لأنه في الأول إطماع لهم بالموافقة، ثم كر على طمعهم بالحسم وأعقبهم في تنقصه باليأس منه؛ ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء: القول بالموجب، لأن في أوله إطماعاً للخصم بالتسليم، ثم بتا للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الأطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه، والله الموفق.

(٢) قوله: «للريثة» في الصحاح: الرتبة الطليعة (ع).

عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة، وقيل: إن جماعة منهم ذمّوه - صلوات الله عليه وسلامه - وبلغه ذلك، فاشتغلت قلوبهم، فقال بعضهم: لا عليكم؛ فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذربنا - أيضاً - فيرضى، فقيل: هو أذن خير لكم، وقرئ: «أذن/ ٢٩٧ خير لكم»، على أن أذن خبر مبتدأ محذوف، وخير كذلك، أي: هو أذن هو خير لكم، يعني: إن كان كما تقولون فهو خير لكم؛ لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم^(١)، وقرأ نافع بتخفيف الذال.

فإن قلت: لم عدي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين باللام؟ قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به، فعدي بالباء، وقصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقوه؛ لكونهم صادقين عنده، فعدي باللام؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، ما أنبأه^(٢) عن الباء؛ ونحوه: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذِلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿ءَأَمْسُرُ لَمْ قَبْلَ أَنَّ ءَادَّكَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١].

فإن قلت: ما وجه قراءة ابن أبي عبيدة: «ورحمة» بالنصب؟ قلت: هي علة معللها محذوف تقديره: ورحة لكم يأذن لكم؛ فحذف لأن قوله: ﴿أَذْنُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يدل عليه.

﴿يَعْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢)

﴿لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾: الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن، أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أَرْضَيْتُمْ الله ورسوله بالطاعة والوفاق، وإنما وحد الضمير؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله - ﷺ - فكأننا في حكم مرضي واحد؛ كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني، أو: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك.

﴿لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِّدِ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ

(١) قوله: «على سوء دخلتكم» أي مذمتكم. وفي الصحاح أن دخلة الرجل بالضم: باطن أمره اهـ، ولعلها غلبت في المذمة (ع).

(٢) قوله: «ما أنبأه عن الباء ونحوه» أي: ما أبعد (ع).

الْحِزْبُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

المحاذة مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق، ﴿فَأَنبَأَهُ﴾: على حذف الخبر، أي: فحق أن له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، وقيل: معناه: فله، وأن: تكرير؛ لأن في قوله: ﴿أَنَّهُ﴾: تأكيداً، ويجوز أن يكون: (فأن له): معطوفاً على أنه، على أن جواب: (من) محذوف تقديره: ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له ^(١) نار جهنم، وقرئ: «ألم تعلموا» بالتاء.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ ﴿١٤﴾

كانوا يستهزئون بالإسلام وأهله، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم؛ حتى قال بعضهم: الله، لا أرانا إلا شر خلق الله، لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة، وألاً ينزل فينا شيء يفضحنا، والضمير في: «عليهم» وتنبيههم للمؤمنين، «وفي قلوبهم»: للمنافقين، وصح ذلك، لأن المعنى يقود إليه، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معنهم، فهي نازلة عليهم، ومعنى: «تنبيههم بما في قلوبهم»، كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني: أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها، وقيل: معنى يحذر: الأمر بالحذر، أي: ليحذر المنافقون.

فإن قلت: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تَنْزَلَ/ ٢٩٧ ب عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾، فما معنى قوله: ﴿مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾؟

قلت: معناه: محصل مبرز إنزال السورة، أو أن الله مظهر ما كنتم تحذرونه، أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٦﴾

بيننا رسول الله - ﷺ - يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسرون بين يديه،

(١) قال السمين الحلبي: وقد رد الشيخ على الزمخشري قوله بأنهم نصوا على أنه إذا حذف جواب الشرط لزم أن يكون فعل الشرط ماضياً أو مضارعاً مقروناً بـ «لم». والجواب على قوله محذوف، وفعل الشرط مضارع غير مقترن بـ «لم»، وأيضاً فإننا نجد الكلام تاماً بدون هذا الذي قدره. وقد نُقل عن سيبويه أنه قال: «الثانية بدل من الأولى»، وهذا لا يصح عن سيبويه فإنه ضعيف أو ممتنع. انتهى. الدر المصون.

فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه - عليه السلام - على ذلك، فقال: «أُخْبِسُوا عَلَيَّ الرُّكْبَ»، فأتاهم فقال: قلتُم كذا وكذا، فقالوا: يا نبي الله، لا، والله، ما كنا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب؛ ليقصر بعضنا على بعض السفر (٦٩٦) ﴿أَبَالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾: لم يعبأ باعتذارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه موجود منهم، حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء؛ حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير؛ وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾: لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة؛ فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سرهم، ﴿فَدَكَّرْتُمْ﴾: قد ظهر كفركم باستهزائكم، ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: بعد إظهاركم الإيمان، ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾: بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق، ﴿نَعَذَّبَ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: مصرين على النفاق غير تائبين منه، أو: إن نعف عن طائفة منكم، لم يؤذوا رسول الله - ﷺ - ولم يستهزؤا فلم نعذبهم في العاجل، نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذيين لرسول الله - ﷺ - مستهزئين، وقرأ مجاهد: «إن تعف عن طائفة» على البناء للمفعول مع التأنيث، والوجه التذكير؛ لأن المسند إليه الظرف، كما تقول: سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة؛ ولكنه ذهب إلى المعنى، كأنه قيل: إن ترحم طائف فأنث لذلك وهو غريب، والجيد قراءة العامة: «إن يعف عن طائفة»، بالتذكير، وتعذب طائفة، بالتأنيث، وقرئ: «إن يعف عن طائفة يعذب طائفة»، على البناء للفاعل، وهو الله - عز وجل -.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أريد به: نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، وتقرير قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾، بالكفر

٦٩٦ - أخرجه الطبري في تفسيره: (٤٠٩/٦) رقم (١٦٩٣٠ و ١٦٩٣١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٥٦/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ؛ كلهم عن قتادة به. قال الحافظ: ذكره الواحدي عن قتادة بغير سند، ووصله الطبري. انتهى.

والمعاصي، ﴿وَيَهْوَتْ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾: عن الإيمان والطاعات، ﴿وَيَقْضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شحاً بالمبار، والصدقات، والإنفاق في سبيل الله، ﴿سُئِلَ اللَّهُ﴾: أغفلوا ذكره، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: فتركهم من رحمته وفضله، ﴿هُمْ أَلْفَيْتُونَ﴾: هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم / ٢٩٨ بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم، وإذ كره رسول الله - ﷺ - للمسلم أن يقول: كسلت (٦٩٧)؛ لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: (كسالى)، فما ظنك بالفسق؟ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مقدّرين الخلود، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾: دلالة على عظم عذابها، وأنه لا شيء أبلغ منه، وأنه بحيث لا يزداد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأهانهم من التعذيب، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين، كما عظم أهل الجنة، وألحقهم بالملائكة^(١) المكرمين، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار، مقيم دائم كعذاب النار، ويجوز أن يريد: ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن؛ خوفاً من المسلمين، وما يحذرونه أبداً من الفضيحة، ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا نَفْسًا وَأُولَدُوا فَاسْتَغْنَوْا خَلَقْنَاهُمْ فَاَسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ خَلَقْنَاهُمْ وَخَضَعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الكاف محلها رفع على: أنتم مثل الذين من قبلكم، أو نصب على: فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعتم وخضعتكم كما استمتعوا وخاضوا؛ ونحوه قول النمر [من السريع]:

كَالْيَوْمِ مَطْلُوباً وَلَا طَلَباً^(٢)

٦٩٧ - قال الحافظ: تقدم تخريجه في أواخر سورة البقرة. انتهى.

(١) قوله: «وألحقهم بالملائكة» مبني على مذهب المعتزلة، من تفضيل الملك على البشر (ع).

(٢) حتى إذا الكلاب قال لها كالـيوم مـطلـوباً ولا طـلباً

لأوس بن حجر. وقيل: للنمرين تولب، وفيه حذف لا يستقيم إلا به، أي قال لها: لم أنظر كالـيوم مـطلـوباً، والضمير لكلبة الصيد. والكلاب: معلم الكلاب أو الصياد بها، أي ليس المطلوب والطلب في هذا اليوم مثلها في غيره بل أعظم، ولعل المراد بالطلب الطالب، ثم يحتمل أن هذا مقول =

بإضمار «لم أر»، وقوله: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾: تفسير لتشبيههم بهم، وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلاق: النصيب، وهو ما خلق للإنسان، أي: قدر من خير، كما قيل له: «قسم»؛ لأنه قسم، ونصيب؛ لأنه نصب، أي: أثبت، والخوض: الدخول في الباطل واللهو، ﴿كَالَّذِي خَاصُوا﴾: كالفوج الذي خاضوا، وكالخوض الذي خاضوه. فإن قلت أنى فائدة في قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ مغن عنه كما أغنى قوله: ﴿كَالَّذِي خَاصُوا﴾ على أن يقال: وخاضوا فخصتم كالذي خاضوا؟

قلت: فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهاثم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة، وأن يخس أمر الاستمتاع، ويهجن أمر الرضى به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون، كان يقتل بغير جرم، ويعذب، ويعسف، وأنت تفعل مثل فعله، وأما: ﴿وَحَضَّتُمْ كَالَّذِي خَاصُوا﴾: فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن باستناده إليه عن تلك المقدمة، ﴿حَضَّتْ أَعْمَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: نقيض قوله: ﴿وَمَا يَنْتَهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَلِلَّهِ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢].

﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧١)

﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾: وأهل مدين، وهم قوم شعيب، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: مدائن قوم لوط، وقيل: قريات قوم لوط، وهود، وصالح، / ٢٩٨ ب واثفاكهن: انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: فما صح منه أن يظلمهم، وهو حكيم، لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم؛ حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧٦) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

= القول، ويحتمل أنه جواب إذا ومقول القول محذوف، إشارة إلى سرعتها: أي قال لها: اذهبي مثلاً.

ينظر ديوانه (٣)، شرح المفصل (١/ ١٢٥)، أمالي الشجري (١/ ٣٦١)، أمالي المرتضى (٢/ ٧٣)، بلا نسبة من أمالي ابن الحاجب (ص ٤٤٠)، الدر المصون (٣/ ٤٨٢).

فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتِ عَدْنُ وَرِضْوَانُ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: في مقابلة قوله في المنافقين، (بعضهم من بعض) ﴿سَيَرَهُمْ﴾
 اللَّهُ: السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في
 قولك: سأنتقم منك يوماً، تعني: أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ
 الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ﴿٥﴾ [الضحى: ٥]. ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
 أَجْرُهُمْ﴾ [النساء: ١٧٣]. ﴿عَزِيزٌ﴾: غالب على كل شيء قادر عليه، فهو يقدر على الثواب
 والعقاب، ﴿حَكِيمٌ﴾: واضح كلاً موضعاً على حسب الاستحقاق، ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ﴾:
 عن الحسن: قصوراً من اللؤلؤ، والياقوت الأحمر، والزبرجد، و(عدن): علم؛ بدليل
 قوله: ﴿جَنَّتِ عَدْنُ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [مريم: ٦١] ويدل عليه ما روى أبو الدرداء - رضي الله
 عنه - عن رسول الله - ﷺ - «عَدْنُ دَارِ اللَّهِ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، لَا
 يَسْكُنُهَا غَيْرُ ثَلَاثَةٍ: النَّبِيُّونَ، وَالصُّدِّيْقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: طُوبَى لِمَنْ دَخَلَ»
 (٦٩٨) وقيل: هي مدينة في الجنة، وقيل: نهر جناته على حافاته، ﴿وَرِضْوَانُ مِنَ اللَّهِ
 أَكْبَرُ﴾: وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله؛ لأنَّ رضاه هو سبب كل فوز
 وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب؛ ولأن
 العبد إذا علم أن مولاه راض عنه، فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتنهأ له
 برضاه، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه، ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وسمعت بعض
 أولي الهمة البعيدة والنفس الممرة^(١) من مشايخنا يقول: لا تطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى
 شيء مما وعد الله في دار الكرامة، كما تطمح وتنازع إلى رضاه عني، وأن أحشر في زمرة
 المهدبين المرضيين عنده، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما وعد الله، أو إلى الرضوان: أي هو
 ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً، وروي: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ لِأَهْلِ

٦٩٨ - أخرجه الطبري في «تفسيره»: (٤١٧/٦) رقم (١٦٩٥٩)، والبزار في مسنده، والدارقطني في كتابه
 المؤلف والمختلف؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٧٩/٢) رقم (٥٥٥)؛ كما عزاه الزيلعي إلى
 ابن مردويه في تفسيره (٨٠/٢).

قال الحافظ: أخرجه البزار من طريق زياد بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد
 عنه، وقال: لا نعلمه إلا من هذا الوجه، وزيادة لا يعلم، وروى عنه غير الليث وأخرجه الطبراني
 والدارقطني في المؤلف وابن مردويه من هذا الوجه. انتهى.

(١) قوله: «والنفس الممرة» أي القوة الشديدة العقل، من المرة بالكسر، وهي القوة وثدة العقل، كما
 في الصحاح (ع).

الْجَنَّةَ هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُلْغُطْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أُدْخِلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا» (٦٩٩).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَنِسَ

الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

﴿جِهْدِ الْكُفَّارِ﴾: بالسيف، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾: بالحجة^(١)، ﴿وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ﴾: في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، عن ابن مسعود: «إن لم يستطع بيده فبلسانه/ ٢٩٩، فإن لم يستطع فليكهف في وجهه^(٢)، فإن لم يستطع فبقلمه (٧٠٠)، يريد الكراهة، والبغضاء، والتبرأ منه، وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو بَيْتَالٍ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَبْتَلَوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أقام رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم، منهم الجلاس بن سويد، فقال الجلاس: والله، لئن كان

٦٩٩ - أخرجه البخاري (٢٣٤/١٣): كتاب الرقاق باب: صفة الجنة والنار، حديث (٦٥٤٩)، ومسلم (١٨٤/٩ - النووي): كتاب الجنة. وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، فلا يسخط عليهم أبداً، حديث (٢٨٢٩/٩) والترمذي (٦٨٩/٤)، كتاب صفة الجنة، حديث (٢٥٥٥).

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي سعيد. انتهى.

٧٠٠ - أخرجه الطبري في «تفسيره»: (٤١٩/٦) رقم (١٦٩٧٦)، وابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٨١/٢). وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٦٢/٣) بنحوه. كلهم عن ابن مسعود به.

قال الحافظ: أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمرو بن أبي جندب عنه. انتهى.

(١) قال محمود: «معناه جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة... إلخ» قال أحمد: والحمد لله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظنا عليه أحياناً، والله الموفق.

(٢) قوله: «فليكهف في وجهه» في الصحاح «اكفه الرجل» إذا عبس (ع).

ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم، وهم ساداتنا وأشرافنا، فنحن شر من الحمير، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلال: أجل، والله إنَّ محمداً لصادق، وأنت شر من الحمار، وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده، فقال: «اللهم، أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب، وتكذيب الصادق»^(١)؛ فنزلت، ﴿يَخْفَوْنَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾: فقال الجلاس: يا رسول الله، لقد عرض الله عليّ التوبة، والله لقد قلته وصدق عامر، فتاب الجلاس، وحسنت توبته (٧٠١)، ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾: وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام، ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾: وهو الفتك برسول الله - ﷺ - وذلك عند مرجعه من تبوك: تواتر خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا (٧٠٢) وقيل:

٧٠١ - أخرجه ابن هشام في سيرته (١٤٧/٢ - ١٤٨) رقم (٥٦٤).

وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٧٧/٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٨١/٥ - ٢٨٢ - ٢٨٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤٦/١٠ - ٤٧) رقم (١٨٣٠٣)، والطبري في تفسيره: (٤٢١/٦) رقم (١٦٩٨٢ - ١٦٩٨٣ - ١٦٩٨٤).

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٦٣/٣)، وذكره الثعلبي ثم البغوي في تفسيريهما؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٨٢/٢).

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند لكن سنده إليه أول الكتاب. وروى ابن سعد وعبد الرزاق والطبري من رواية هشام بن عروة عن أبيه قال: كانت أم عمير بنت سعيد عند الجلاس بن سويد. فقال الجلاس بن سويد في غزوة تبوك: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير. فقال له عامر بن قيس الأنصاري، وهو ابن عمه - فذكره. وكذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي ليس فيه، كانت أم عمير إلى آخره، بل أوله في قصة تبوك إلى أن قال: وقال الجلاس حين سمع ما أنزل الله في المنافقين. انتهى.

٧٠٢ - أخرجه أحمد في مسنده: (٤٥٣/٥)، من طريق يزيد بن هارون عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل به.

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٦٠/٥ - ٢٦١) من طريق محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البخري عن حذيفة بن اليمان.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١١٥/١)، وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات. وأخرجه البزار بنحوه (٣٥٧/٢) من طريق محمد بن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة به.

=

(١) قوله: «تصديق الكاذب وتكذيب الصادق» لعله تصديق الصادق وتكذيب الكاذب. ويمكن أنه جعل نفسه كاذباً، والجلال صادقاً، لأنه مقتضى ظاهر الحلف (ع).

هَمَّ المنافقون بقتل عامر؛ لردّه على الجلاس، وقيل: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي، وإن لم يرض رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾: وما أنكروا وما عابوا، ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ﴾؛ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله - ﷺ - المدينة في ضنك من العيش، لا يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم، وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله - ﷺ - بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى، ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾: هي الآية التي تاب عندها الجلاس، ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: بالقتل والنار.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْفِرُوا مِنْكُمْ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَهْدَهُمْ فِي أَنْ لَا يُعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ وَأَنْ لَا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ فَيَذَرُوكَ خَلْفَهُمْ ۚ فَقَالُوا إِنَّا عَاهَدُوا بِمَا عَاهَدْتَكُمْ رَبَّنَا فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اسْمَهُمْ فَعَقَبَهُمُ اللَّهُ فَقَالُوا إِنَّا عَاهَدُوا بِمَا عَاهَدْتُمْ رَبَّنَا ۚ فَنَاقَهُمْ كَلِمَتُ رَبِّهِمْ فِي أَنْ يَتُوبُوا عَلَيْهِمْ ۚ﴾

روي أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله - ﷺ -: «يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ» فراجعته، وقال: والذي بعثك بالحق، لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً فممت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله - ﷺ - فقيل: كثر ماله / ٢٩٩ ب حتى لا يسعه واد، قال: «يَا وَبِحُثَّةٍ» فبعث رسول الله - ﷺ - مصدقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرا

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٦٥/٣). قال الحافظ:

أخرجه أحمد من حديث أبي الطفيل قال: «لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً ينادي: لا يأخذن العقبة أحد، فإن رسول الله ﷺ يسير وحده، فكان النبي ﷺ يسير وحذيفة رضي الله عنه يقود به، وعمار - رضي الله عنه - يسوق به. فأقبل رهط مثلثين على الرواحل حتى غشوا النبي ﷺ، فرجع عمار فضرب وجوه الرواحل. فقال النبي ﷺ لحذيفة: قد قد - فلحقه عمار فقال: سق سق حتى أناخ. فقال لعمار: هل تعرف القوم فقال: لا، كانوا مثلثين. وقد عرفت علما الرواحل. فقال: أتدري ما أرادوا برسول الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: أرادوا أن يمكروا برسول الله فطرحوه من العقبة. فلما كان بعد ذلك وقع بين عمار - رضي الله عنه - وبين رجل منهم شيء مما يكون بين الناس. فقال: أنشدكم الله، كم أصحاب العقبة الذين أرادوا أن يمكروا برسول الله ﷺ. فقال: ترى أنهم أربعة عشر، فإن كنت فيهم فهم خمسة عشر، ومن هذا الوجه رواه الطبراني والبزار، وقال: روي من طريق عن حذيفة وهذا أحسنها وأصلحها إسناداً. ورواه ابن إسحاق في المغازي، ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن حذيفة بن اليمان قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به. وعمار - رضي الله عنه - يسوق الناقة حتى إذا كنا بالعقبة، وإذا اثني عشر ركباً قد اعترضوه فيها قال: فأنتهت إلى رسول الله ﷺ فصرخ بهم؛ فولوا مدبرين. انتهى.

بثعلبة، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله - ﷺ - الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: ارجعا حتى أرى رأيي، فلما رجعا، قال لهما رسول الله - ﷺ - قبل أن يكلماه: يا ويح ثعلبة، مرتين؛ فنزلت، فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال: إن الله معني أن أقبل منك، فجعل التراب على رأسه، فقال: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني، فقبض رسول الله - ﷺ - فجاء بها إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فلم يقبلها، وجاء بها إلى عمر - رضي الله عنه - في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان - رضي الله عنه - (٧٠٣) وقرىء: ﴿لَنَصَدَّقَنَّهُ وَلَنَكُونَنَّ﴾: بالنون الخفيفة فيهما، ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: قال ابن عباس - رضي الله عنه -: يريد الحج، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: عن الحسن وقتادة - رضي الله عنهما -: أَنَّ الضمير: للبخل، يعني: فأورثهم البخل، ﴿فَنَاقًا﴾: متمكناً، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ لأنه كان سبباً فيه وداعياً إليه، والظاهر أن الضمير لله - عز وجل - والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا^(١)، وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصديق، والصلاح، وكونهم كاذبين، ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق، وقرىء: «يكذبون»، بالتشديد، و«ألم تعلموا»، بالتاء عن علي - رضي الله عنه -.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨)

٧٠٣ - أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (٢٨٩: ٢٩٢)، وفي «شعب الإيمان»: (٧٩/٤ - ٨٠) رقم (٤٣٥٧)، وأخرجه الطبراني كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤/٧ - ٣٥).
والواحد في «تفسيره الوسيط»: (٥١٣/٢ - ٥١٤)، والطبري في «تفسيره»: (٤٢٥/٦ - ٤٢٦) رقم (١٧٠٠٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٦٧/٣) وعزاه إلى الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال، وابن منده والباوردي وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن مردويه وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - فذكره.
قال البيهقي في شعب الإيمان (٨٠/٤):

وفي إسناد هذا الحديث نظر، وهو مشهور فيما بين أهل التفسير والله أعلم.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥/٧):

فيه علي بن يزيد الألهماني وهو متروك.

وقال ابن حجر العسقلاني في تخريجه لأحاديث الكشف أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم والطبري وابن مردويه؛ كلهم من طريق علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أمامة. وهذا إسناد ضعيف جداً. فقال السهيلي عن ابن إسحاق ثعلبة بن حاطب قمر البدرين. وعن ابن إسحاق أيضاً في المنافقين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه. فلعلهما اثنان. انتهى.

(١) قوله: «والمعنى فخذلهم حتى نافقوا» فسر بذلك على مذهب المعتزلة، من أنه تعالى لا يخلق الشر (ع).

﴿يَرْهَهُمْ وَيَجْزِلُهُمْ﴾: ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه، وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، تسمية الصدقة جزية وتدبير منعها.

﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ﴾: محله النصب أو الرفع على الذم، ويجوز أن يكون في محل الجز بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم، وقرئ: «يَلْمُزُونَ»، بالضم، ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾: المتطوعين المتبرعين، روي أن رسول الله - ﷺ - حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقيل: بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي، فقال له رسول الله - ﷺ -: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أُعْطِيتَ وَفِيمَا أَمْسَكْتَ» فبارك الله له، حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً، وتصدق عاصم بن عددي بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري - رضي الله عنه - بصاع من تمر، فقال: بت ليلتي أجز بالجربير^(١) على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع، فأمره رسول الله - ﷺ - أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يذكر بنفسه / ٣٠٠ أليعطي من الصدقات (٧٠٤)؛

٧٠٤ - أخرجه البزار من طريقين؛ كما في «مجمع الزوائد»: (٣٥/٧) عن أبي سلمة وعن أبي هريرة به. وأخرجه الطبراني عن أبي عقيل؛ كما في مجمع الزوائد (٣٥/٧ - ٣٦)، فذكره. ومن طريق أبي عقيل أخرجه الطبري في تفسيره (٤٣٢/٦) رقم (٢٧٠٢٩). وعبد الرزاق في تفسيره: (٢٨٣/٢)، والطبري في تفسيره (٤٣١/٦) رقم (١٧٠٢٤)، والواحدي في تفسيره: (٥١٤/٢)؛ كلهم من طريق قتادة به. وأخرجه الطبري في تفسيره (٤٣٠/٦) رقم (١٧٠١٨ - ١٧٠١٩) من طريق ابن عباس به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٦٩/٣) عن أبي هريرة، وعزاه إلى البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه.

كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور». (٤٧٠/٣) عن أبي عقيل، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والبخاري والطبراني في معجمه، وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة؛ كما ذكره السيوطي في «الدر»: (٤٧٠/٣) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥/٧) فيما رواه عن أبي سلمة وعن أبي هريرة: رواه البزار من طريقين إحداهما متصلة عن أبي هريرة، والأخرى عن أبي سلمة مرسلة، قال: ولم نسمع أحداً أسنده من حديث عمر بن أبي سلمة إلا طالوت بن عباد، وفيه عمر بن أبي سلمة وثقه :

(١) قوله: «بالجربير» وهو حبل البعير. ويروى: أجز بالجربير الماء كذبهان من أجز. (ع)

فنزلت، ﴿إِلَّا جُهِدْهُمْ﴾: إلا طاقتهم، قرىء: بالفتح والضم، ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ كقوله: الله يستهزئ بهم في أنه خبر غير دعاء؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله - ﷺ - وكان رجلاً صالحاً - أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل؛ فنزلت، فقال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ رَخَّصَ لِي فَسَأْزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ» (٧٠٥)؛ فنزلت، «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ»: وقد

= العجلي وأبو خيثمة وابن حبان، وضعفه شعبة وغيره، وبقي رجالهما ثقات. أ.هـ.

كما قال الهيثمي (٣٦/٧) فيما رواه عن أبي عقيل: رواه الطبراني ورجاله ثقات، إلا أن خالد بن يسار لم أجد من وثقه ولا جرحه. أ.هـ.
قال الحافظ:

أخرجه ابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - الْآيَةَ﴾ قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية. من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر. فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بن عوف بما جاء به إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع. ومن طريق عطية العوفي. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى الناس، فنادى فيهم: أن اجتمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم، وجاء رجل بصاع من تمر. فقال: يا رسول الله بت ليلتي أجز بالجرير - الحديث. وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف، فأربعة آلاف لي، وأربعة آلاف أقرضها ربي فذكره». وقال عبد الرزاق في تفسيره أخبرنا معمر عن قتادة قال: تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله. وكان له ثمانية آلاف دينار. فتصدق بأربعة آلاف دينار. فقال أناس من المنافقين: إن عبد الرحمن لعظيم الرياء. فقال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾، وكان لرجل من الأنصار صاعان من تمر. فجاء بأحدهما. فقال أناس من المنافقين: إن كان الله لغنيا عن صاع هذا. فقال الله عز وجل: ﴿إِلَّا جُهِدْهُمْ﴾، وروى البزار من رواية عمر بن أبي مسلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً، فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف درهم؛ ألفان أقرضها ربي وألفان لعيالي - الحديث»، وفيه: «وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، أخرجه عن طلوت بن عباد عن أبي عوانة عنه، وقال: تفرد طلوت بوصله ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة، ومن طريقه ابن مردويه، وفي المغازي بأربعة آلاف، وقام عاصم بن عدي فتصدق بمائة وسق من تمر فآلفاه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل انتهى، وقصة أبي عقيل أخرجهما إبراهيم الحربي والطبراني والطبري من رواية خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه قال: «بت أجز بالجرير على ظهري على صاعين من تمر - الحديث»، وفي إسناده موسى بن عبدة وهو ضعيف، قلت: قصة أبي عقيل أخرجهما البخاري من حديث أبي مسعود الأنصاري باختصار، وفيه: «جاء إنسان آخر بأكثر من ذلك» وفي رواية: بشيء كثير. انتهى.

٧٠٥ - قال ابن حجر: لم أجد بهذا السياق، وأصله في المتفق عليه عن ابن عمر - رضي الله عنهما -

ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر^(١)، كأنه قيل: لن يغفر الله لهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، وذكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير؛ قال علي بن أبي طالب، عليه السلام [من الرجز]:

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاصِي ابْنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي^(٢)

= أ. هـ. والحديث أخرجه البخاري (٢٣٢/٩).

كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، حديث (٤٦٧٠)، ومسلم (١٧٦/٨ - النووي): كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل عمر - رضي الله عنه -، حديث (٢٤٠٠/٢٥)، عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر، فذكره. قال الحافظ: لم أجده بهذا السياق وأصله في المتفق عليه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه»، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام يصلي عليه فأخذ عمر - رضي الله عنه - بثوبه فقال: أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه، فقال: إنما خيرني فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم... الآية﴾، وسأزيده على السبعين فصلى عليه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ فتركت الصلاة عليهم. لفظ مسلم. انتهى.

(١) قال محمود: «قد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر... إلخ» قال أحمد: وما يدعيه الزمخشري في هذا وأمثاله من محذوف هو المقصود بالأمر وهذا واقع موقعه، كقول كثير عزة «أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة» كأنه يقول لها: امتحني محلك عندي وقوة محيتي لك، وعامليني بالإساءة والإحسان، وانظري هل يتفاوت حالتي معك مسيئة أو محسنة؟ وكذلك معنى الآية ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار وتركه؟ وهل يتفاوت الحالان أو لا؟ قال أحمد: وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾.

(٢) لأصبحن العاصي ابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي

مستحقبين حلق الدلاص قد جنبوا الخيل مع القلاص

آساد محل حين لا مناص

لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في عمرو بن العاص. وصبحه: سقاها الصبوح وقت الصباح. ويروي «لأصبحن» من الصحبة ولعله تحريف. شبه إنالة المكروه بإنالة المحبوب على سبيل التهكم، فهو استعارة تصريحية تهكمية. ويجوز أنه شبه الفرسان لإيتائهم صباحاً بالصبوح على سبيل المكنية التهكمية. ولأصبحن: تخيل. وسبعين ألفاً: مفعول ثان. والمراد به الكثرة. والعاقدين: جمع عاقد، والمراد: نواصي خيلهم أو أطراف عمائمهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم. وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والإشاعة في القتال. والحقاب: ما تلفه المرأة على وسطها، ويطلق على ذات وسطها. والحقية: خرج صغير خلف الراكب. والحلق - بالكسر -: جمع حلقة. والدلاص: الدرع الملساء المضببة، يوصف به الواحد والجمع. فالمعنى: أنهم لابسو الدروع. أو لا شيء في حقائبهم غيرها. والقلاص فتيات الإبل: أي جمعوا بين النوعين، وجعلهم كآساد =

فإن قلت: كيف خفي على رسول الله - ﷺ - وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام^(١) وتمثيلاته، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار، كيف وقد تلاه بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِإِلَهِهِمْ وَرُسُلِهِمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: «قَدْ رَخَّصَ لِي رَبِّي فَسَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ» ح.

قلت: لم يخف عليه ذلك؛ ولكنه خيل بما قال؛ إظهاراً لغاية رحمته، ورأفته على من بعث إليه؛ كقول إبراهيم، عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وفي إظهار النبي - ﷺ - الرأفة والرحمة: لطف لأتمته، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١)

﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾: الذين استأذنوا رسول الله - ﷺ - من المنافقين، فأذن لهم، وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم، ونفاقهم والشيطان، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: بعودهم عن الغزو، ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾: خلفه، يقال: أقام خلاف الحي، بمعنى: بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم؛ وتشهد له قراءة أبي حيوبة: خلف رسول الله، وقيل: هو بمعنى المخالفة؛ لأنهم خالفوه؛ حيث قعدوا ونهض، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال، أي: قعدوا لمخالفته أو مخالفين له، ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾: تعريض بالمؤمنين، وبتحملهم المشاق العظام، لوجه الله تعالى، وبما فعلوا من بذل أموالهم، وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض، وكره ذلك المنافقون، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان؟ ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾: استجهال لهم؛ لأن من تصون من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون في مشقة

= المحل، أي الجذب؛ ليفيد أنهم جياع وعطاش إلى لحوم الأعداء ودمائهم، وحق اسم «لا» أن يبنى على الفتح، فيجوز أنه كسره للقافية. والأوجه أنه الاسم بمعنى غير كما في الصحاح، أو حين غير مناص، أو بني على الكسر لنية الإضافة. وشبهه بنزال، أو هو مجرور بمن الاستغرافية مقدرة كما مر في «ولات أوان» ويجوز - على بعد - أن يكون في الكلام مضاف محذوف، أي لا حين ولا وقت مناص، أي تأخر عن الحرب، ويمكن أن «لا» زائدة بين المتضايين، كما في «بئر لا حور سري» أي حين مناص الفرسان وفرارهم.

ينظر ديوانه ص (١١٥)؛ وبلا نسبة في المقتضب (٢/ ٢٠٠).

(١) عاد كلامه: قال: «فإن قلت كيف خفي على رسول الله ﷺ وهو أفصح من نطق بالضاد... إلخ» قال أحمد: وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار ولم يصححه، وتغالي قوم في قبوله حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم.

الأبد، كان أجهل من كل جاهل؛ لبعضهم [من الطويل]:

مَسْرَةُ أَحْقَابٍ تَلْقَيْتُ بَعْدَهَا مَسَاءَ يَوْمٍ أَزِيهَا شَبَهُ الصَّابِ
فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَى مَسْرَةَ سَاعَةٍ وَرَاءَ تَقْضِيهَا مَسَاءَ أَحْقَابٍ^(١)

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢)

معناه: فسيضحكون قليلاً، ويبكون كثيراً، ﴿جَزَاءً﴾ / ٣٠٠ ب: إلا أنه أخرج على لفظ الأمر؛ للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره، يروى أن أهل النفاق يبتكون في النار عمر الدنيا، لا يرقاً لهم دمع ولا يكتحلون بنوم.

﴿فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَنِّلُوا

مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (٨٣)

وإنما قال: ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾؛ لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، أو اعتذر بعذر صحيح، وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة: المنافقين منهم؛ ﴿فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ﴾ يعني: إلى غزوة بعد غزوة تبوك، و﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هي الخروج إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق، بخلاف غيرهم من المتخلفين، ﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾: قد مرّ تفسيره؛ قرأ مالك بن دينار - رحمه الله -: مع الخلفين، على قصر الخالفين؛

فإن قلت: (مرة) نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها، وهو دال على واحدة من المرات؟

قلت: أكثر اللغتين: هند أكبر النساء، وهي أكبرهن، ثم إن قولك: هي كبرى امرأة، لا تكاد تعثر عليه، ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة، وآخر مرة، وعن قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَانُوا وَهُمْ

فَلَيَسْفُوتَ﴾ (٨٤) وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥)

(١) للزمخشري. و«الأحقاب» الأزمان الكثيرة المتتابعة، جمع حقب بالضم بمعنى الدهر. و«الأري» العسل. و«الشبه» المثل. و«الصاب» نبت مر الطعام. وقيل: هو الحنظل يقول إن مسرة أزمان كثيرة ترى بعدها مساء يوم واحد، حالها الشبيه بالعسل هو في الحقيقة شبيه بالحنظل، فكيف الحال بعكس ذلك؟

ينظر التفسير الكبير ١٦/١٤٩، ١٥٠، والبحر المحيط ٥/٧٩، والدر المصون ٣/٤٨٨.

روي أَنَّ رسول الله - ﷺ - كان يقوم على قبور المنافقين، ويدعو لهم، فلما مرض - رأس النفاق - عبد الله بن أبيّ بعث إليه ليأتيه، فلما دخل عليه، قال: أهلكك حب اليهود، فقال: يا رسول الله، بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني^(١) (٧٠٦)، وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده، ويصلي عليه، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته، فسأله عن اسمه، فقال: أنت عبد الله بن عبد الله، الحجاب اسم شيطان (٧٠٧)، فلما هم بالصلاة عليه، قال له عمر: أتصلي على عدوّ الله؟ فنزلت (٧٠٨) وقيل: أراد أن يصلي عليه فجذبه جبريل (٧٠٩).

- ٧٠٦ - أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٤١/١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٨٥/٥) من طريق ابن إسحاق عن الزهري عن عروة بن الزبير عن أسامة بن زيد به.
- قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
- وزاد البيهقي في رواية أخرى عن الواقدي (٢٨٥/٥ - ٢٨٦) ثم قال: يا رسول الله، ليس هذا بحين عتاب هو الموت فإذا مت فاحضر غسلي... الحديث.
- ٧٠٧ - قوله ﷺ «الحجاب اسم شيطان» أخرجه الطبري في تفسيره (٤٣٤/٦) رقم (١٧٠٣٩)، و (٤٣٥/٦) رقم (١٧٠٤٤)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤٠٨/٣، ٤٠٩) رقم (٢٢٦).
- ٧٠٨ - قول عمر: «أتصلي على عدوّ الله» فقد تقدم تخريجه قبل ذلك بحديثين.
- قال الحافظ: لم أجده هكذا، فأما أوله وهو: «كان يقوم... إلى آخره». وأما قصة عبد الله: ففي الجائز من المستدرک من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال: «دخل رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي ليعوده في مرضه الذي مات فيه. فلما عرف فيه الموت قال له: أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود، فقال: قد أبغضتهم. فما نفعه، فلما مات أتاه ابنه فقال: قد مات فأعطني قميصك أكفنه فيه، فترع - عليه الصلاة والسلام - قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله: «بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني»، فزاده الطبراني من طريق معمر عن قتادة قال: «أرسل عبد الله بن أبي وهو مريض إلى النبي ﷺ، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: أهلكك حب يهود. قال: يا رسول الله، أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنبني، وسأله قميصه أن يكفن فيه، فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه، ونفث في جلده ودلاه في قبره، فأنزل فقال: «ليس هذا بحين عتاب. هو الموت، فإن مت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفن فيه فأعطاه ثم قال: وصل علي واستغفر لي»، وفي رواية له فقال له ابنه - وكان يقال له: الحجاب، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله يا رسول الله: أعطه قميصك الذي يلي جلدك» وأما قوله: «الحجاب اسم شيطان» فرواه ابن سعد والطبري من طريق عروة وغيره قال: «لما قفل عبد الله بن أبي انطلق ابنه فقال: إن أبي احتضر، وأحب أن تشهد وتصلي عليه، فقال له النبي ﷺ: ما اسمك؟ قال: الحجاب بن عبد الله قال: بلى، أنت عبد الله، إن الحجاب اسم شيطان، قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وصلى عليه، وأما قول عمر فقد قدمنا أنه في الصحيحين. انتهى.
- ٧٠٩ - حديث جبريل أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (١٤٤/٧ - ١٤٥) رقم (٤١١٢). والطبري في تفسيره (٤٣٩/٦ - ٤٤٠) رقم (١٧٠٦٨) من طريق يزيد الرقاشي عن أنس به، وذكره الهيثمي في

(١) قوله: «لا تؤنبني» أي تعنفني باللوم.

فإن قلت: كيف جازت له تكرمة المنافق، وتكفينه في قميصه؟

قلت: كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له؛ وذلك أن العباس - رضي الله عنه - عم رسول الله - ﷺ - لما أخذ أسيراً ببدر لم يجدوا له قميصاً، وكان رجلاً طوالاً^(١)، فكساه عبد الله قميصه (٧١٠) وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأذن لمحمد^(٢) ولكننا نأذن لك، فقال: لا، إن لي في رسول الله أسوة حسنة (٧١١) فشكر رسول الله - ﷺ - له ذلك، وإجابة له إلى مسألته إياه، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلاً، وكان يتوفر على دواعي المروءة، ويعمل بعبادات الكرام، وإكراماً لابنه الرجل الصالح، فقد روي أنه قال له: أسألك أن تكفينه في بعض قمصانك، وأن تقوم على قبره، لا يشمت به الأعداء (٧١٢)، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان، وليكون/ ٣٠١ إلباسه إياه لطفاً لغيره، فقد روي أنه قيل له: لم وجهت إليه

= مجمع الزوائد (٤٥/٣): وقال: رواه أبو يعلى، وفيه يزيد الرقاشي وفيه كلام وقد وثق.

قال الحافظ: أخرجه أبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي عن أنس «أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي، فأخذ جبريل بثوبه. وقال: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» ويزيد ضعيف. انتهى.

٧١٠ - أخرجه البخاري (٢٥١/٦): كتاب الجهاد والسير: باب الكسوة للأسارى، حديث (٣٠٠٨)، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٣٣٠/٣ - ٣٣١) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وهو وهم منه - رحمه الله. قال الحافظ:

أخرجه البخاري من رواية عمرو بن دينار سمع جابراً «لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ قميصاً. فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه. قال ابن عتبة كانت له عند النبي ﷺ يد فأحب أن يكافئه. ورواه الحاكم في المستدرك من حديث جابر، وأدرج فيه الكلام الأخير. انتهى.

٧١١ - أخرجه الواقدي في المغازي؛ كما في «تخريج الكشاف» للحافظ ابن حجر.

قال الحافظ: أخرجه الواقدي في المغازي: حدثنا جابر بن سليم عن صفوان بن عثمان «قال: كانت قریش يوم الحديبية أرسلت إلى عبد الله بن أبي: إن أحببت أن تدخل فتطوف فافعل. وإبنة جالس عنده. فقال له إبنة: يا أبت اذكر الله أن تطوف بالبيت قبل رسول الله ﷺ فأبى ابن أبي، وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ فبلغ رسول الله ﷺ كلامه فسر. انتهى.

٧١٢ - قال ابن حجر: لم أجده وأصل سؤال إبنة في الصحيح كما تقدم. انتهى.

(١) قوله: «وكان رجلاً طوالاً» في الصحاح: الطوال - بالضم: الطويل (ع).

(٢) قوله: «إنا لا نأذن لمحمد» أي في دخوله مكة (ع).

بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إِنَّ قَمِيصِي لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنِّي أُؤْمِلُ فِي اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ كَثِيرٌ بِهَذَا السَّبَبِ» (٧١٣). فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله - ﷺ - (٧١٤) وكذلك ترحمه، واستغفاره، كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف؛ لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك، دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتماً عليه.

فإن قلت: فكيف جازت الصلاة عليه؟

قلت: لم يتقدم نهي عن الصلاة عليهم، وكانوا يجرون مجرى المسلمين؛ لظاهر إيمانهم، لما في ذلك من المصلحة، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: ما أدري ما هذه الصلاة، إلا أنني أعلم أن رسول الله - ﷺ - لا يخادع (٧١٥) ﴿مَاتَ﴾: صفة لأحد؛ وإنما قيل: مات، وماتوا بلفظ الماضي - والمعنى على الاستقبال - على تقدير الكون والوجود؛ لأنه كائن موجود لا محالة، ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾: تعليل للنهي، وقد أعيد قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾؛ لأنَّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه، ويتخلص إليه؛ وإنما أعيد هذا المعنى؛ لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا

٧١٣ - قال ابن حجر: لم أره هكذا. اهـ. وأصله ما أخرجه الطبري من رواية معمر عن قتادة (٤٤٠/٦) رقم (١٧٠٧٣) قال: ذكر لنا النبي ﷺ كله في ذلك. فقال: «وما يغني عنه قميصي من الله، وإنني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه».

قال الحافظ:

لم أره هكذا، وأصله أخرجه الطبري من رواية معمر عن قتادة قال ذكر لنا أن النبي ﷺ كله في ذلك. فقال: وما يغني عنه قميصي من الله، وإنني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه. انتهى.

٧١٤ - قال ابن حجر:

لم أره هكذا إلا في مرسل قتادة الذي قبله. انتهى.

٧١٥ - أخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث سنيد بن داود كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/٩٣).

قال الحافظ:

أخرجه سعيد بن داود في تفسيره من طريقه. قال حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني الحكم بن أبان سمع عكرمة عن عباس قال «لما مرض عبد الله بن أبي مرضه الذي مات فيه قال للنبي ﷺ امنن علي فكفني في قميصك وصل علي قال: فكفته في قميصه وصلى عليه. قال ابن عباس: والله ما أدري ما هذه الصلاة كانت: فالله أعلم، وما خادع محمداً إنسان قط». انتهى.

ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاقِعِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها في قوله: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه، وقيل هي براءة؛ لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد، ﴿أَن ءَامَنُوا﴾: هي أن المفسرة، ﴿أُولُوا الطَّلَاقِ﴾: ذوو الفضل والسعة، من طال عليه طولاً ﴿مَعَ الْفَاقِعِينَ﴾: مع الذين لهم علة وعذر في التخلف، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾: ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والهلاك، ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ﴾ أي: إن تخلف هؤلاء فقد نهى^(١) إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً؛ كقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام: ٨٩]، ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: ٣٨]. ﴿الْخَيْرَاتُ﴾: تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ، وقيل: الحور؛ لقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ [الرحمن: ٧٠].

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٠﴾

﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾: من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجذ، وحقيقته أنه يوهم أن له عذراً فيما يفعل؛ ولا عذر له، أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز في العربية كسر العين؛ لالتقاء الساكنين، وضمها لإتباع الميم، ولكن لم تثبت بهما قراءة، وهم الذين يعتذرون بالباطل؛ كقوله: يعتذرون إليك / ٣٠١ ب إذا رجعت إليهم، وقرئ: «المعذرون»، بالتخفيف، وهو الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه، قيل: هم أسد، وغطفان، قالوا: إن لنا عيالاً، وإن بنا جهداً فائذن لنا في التخلف، وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طي على أهاليها ومواشيها، فقال - ﷺ -: «سَيُغْنِيَنِي اللَّهُ عَنْكُمْ» ح وعن مجاهد: نفر من غفار، اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى، وعن قتادة: اعتذروا بالكذب، وقرئ: «المُعَذِّرُونَ» بتشديد العين والذال، من تعذر بمعنى: اعتذر، وهذا غير صحيح؛ لأن التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد، في المطوعين، وأزكى وأصدق، وقيل: أريد المتعذرون بالصحة، وبه

(١) قوله: «فقد نهى» أي نهض، كما في الصحاح (ع).

فسر المعذرون والمعذرون، على قراءة ابن عباس - رضي الله عنه -: الذين لم يفرطوا في العذر، ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: هم منافقوا الأعراب الذين لم يجيؤوا ولم يعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان، وقرأ أبي: «كذبوا»، بالتشديد، ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب، ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُوتُ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوثَ مَا يَنْفُوتُ﴾ (٩٢)

﴿الضَّعَفَاءِ﴾: الهرمي والزمني، والذين لا يجدون: الفقراء، وقيل: هم مزينة، وجهينة، وبنو عذرة، والنصح لله ورسوله: الإيمان بهما، وطاعتهما في السر والعلن، وتوليئهما؛ والحب والبغض فيهما، كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه، ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾: على المعذورين الناصحين، ومعنى: لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم، ولا طريق للعاتب عليهم، ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ﴾: حال من الكاف في: (أتوك)، وقد قبله مضمر؛ كما قيل في قوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: إذا ما أتوك قائلاً لا أجد، ﴿تَوَلَّوْا﴾: ولقد حصر الله المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدموا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها، وقيل: «المستحملون»: أبو موسى الأشعري وأصحابه، وقيل: البكاؤون، وهم ستة نفر من الأنصار، ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾: كقولك: تفيض دمعاً، وهو أبلغ من يفيض دمعها؛ لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض، و«من»: للبيان؛ كقولك: أفديك من رجل، ومحل الجار والمجرور نصب على التمييز، ﴿أَلَّا يَحْدُوثَ﴾: لئلا يجدوا، ومحل نصب على أنه مفعول له، وناصبه المفعول له الذي هو حزناً.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣) يَسْتَأْذِنُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤)

فإن قلت: ﴿رضوا﴾ ما موقعه؟

قلت: هو استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة، والضعة، والانتظام في جملة الخوالف، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أن السبب في استذنانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم.

فإن قلت: فهل يجوز/ ٣٠٢ أن يكون قوله: ﴿قُلْتُ لَا أَحَدٌ﴾ استئنافاً مثله، كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا، فقيل: ما لهم تولوا باكين؟ فقيل: قلت: لا أحد ما أحملكم عليه، إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاغتراض، ﴿قُلْتُ﴾: نعم ويحسن، ﴿أَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾: علة للنهي عن الاعتذار؛ لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال^(١)، وقوله: ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أخبارِكُمْ﴾: علة لانتفاء تصديقهم؛ لأن الله - عز وجل - إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾: أنيبون أم تثبتون على كفركم، ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ﴾: إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية، فيجازيكم على حسب ذلك.

﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّبُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥)

﴿لِيُغَرِّبُوا عَنْهُمْ﴾: فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾: فأعطوهم طلبتهم، ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾: لتعليل لترك معاببتهم، يعني: أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم؛ إنما يعاتب الأديب ذو البشرة، والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه، ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء: فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم، ﴿وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني: وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم.

﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٩٦)

﴿لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾: أي: غرضهم في الحلف بالله طلب رضاهم لينفعهم ذلك في دنياهم، ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾: فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساططاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها، وقيل: إنما قيل ذلك لثلاث يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم، قيل: هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلاً منافقين فقال النبي - ﷺ - حين قدم المدينة: «لَا تُجَالِسُوهُمْ وَلَا

(١) قوله: «وجب عليه الإخلال» أي الترك. يقال: أخل الرجل بمركزه، إذا تركه (ع).

تَكَلَّمُوهُمْ» وقيل: جاء عبد الله بن أبي يحلف ألا يتخلف عنه أبداً.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧)

﴿الْأَعْرَابُ﴾: أهل البدو، ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾: من أهل الحضرة؛ لجفائهم، وقسوتهم، وتوحشهم، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة، ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾، وأحقّ بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام، ومنه قوله - ﷺ -: «إِنَّ الْجَفَاءَ وَالْقَسْوَةَ فِي الْفُتَادِينَ»^(١) (٧١٦) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر، ﴿حَكِيمٌ﴾: فيما يصيب به مسيئهم، ومحسنهم، ومخطئهم، ومصيبهم من عقابه وثوابه.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُودِ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذْخُلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٩)

﴿مَغْرَمًا﴾: غرامة وخسراناً، والغرامة: ما ينفقه الرجل وليس يلزمه؛ لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله - عزّ وجلّ - وابتغاء المشوبة عنده، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُودِ الدَّوَابِّ﴾: دوائر الزمان. دوله وعقبه^(٢)، لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة،

٧١٦ - أخرجه البخاري (٤٣٤/٨): كتاب المغازي: باب قدوم الأشعرين وأهل اليمن، حديث (٤٣٨٧)، ومسلم (٣٠٥/١ - النووي): كتاب الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، حديث (٥١/٨١).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري في أثناء حديث فيه «وإن الجفاء وغلظ القلوب في الفُتَادِينَ عند أصول أذنان الإبل» كذا للبخاري ولمسلم «إن القسوة وغلظ القلوب». انتهى.

(١) قوله: «والقسوة في الفُتَادِينَ» الفُتَادِينَ: هم الذين تعلقوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم. ورجل فداد: شديد الفديد، وهو الصوت: أفاده الصحاح (ع).

(٢) قال أحمد: «دوائر الزمان: دوله، وعقبه لتذهب غلبتكم عليه... إلخ» قال أحمد: وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء لحال المدعو عليهم ولقولهم، وذلك أن الذي نسب إليهم تربص الدوائر مطلقاً والذي دعى عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوأ الدوائر لا على الإطلاق، والله الموفق.

٣٠٢ / ب ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾: دعاء معترض، دعى عليهم بنحو ما دعوا به؛ كقوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقرىء: «السَّوْء» بالضم، وهو العذاب، كما قيل له سيئة، «والسَّوْء» بالفتح، وهو ذمٌ للدائرة؛ كقولك: رجل سوء، في نقيض قولك: رجل صدق؛ لأن من دارت عليه ذام لها، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: بما يضمرون، وقيل: هم أعراب أسد، وغطفان، وتميم، ﴿فَرُيِّنَتْ﴾: مفعول ثانٍ ليتخذ، والمعنى: أن ما ينفقه سبب لحصول القربات عند الله ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾؛ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم؛ كقوله: «اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» (٧١٧) وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قربات وصلوات، ﴿آلِ أَبِي أَوْفَى﴾: شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد، من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف، مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه؛ وكذلك: ﴿سَيِّدِ الْعَالَمِينَ﴾، وما في السنين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان^(١) إذا خلصت النية من صاحبها، وقرىء: (قربة): بضم الراء، وقيل: هم عبد الله، وذو البجادين، ورهطه.

٧١٧ - أخرجه البخاري (٤٢٣/٤) كتاب الزكاة: باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة حديث (١٤٩٧) ومسلم (٥٦/٢) كتاب الزكاة باب الدعاء لمن أتى بصدقته حديث (١٠٧٨/١٧٦) وأبو داود (١/٤٩٩) كتاب الزكاة: باب دعاء المصدق لأهل الصدقة حديث (١٥٩٠) والنسائي (٣١/٥) كتاب الزكاة: باب صلاة الإمام على صاحب الصدقة رقم (٢٤٥٩) وابن ماجه (٥٧٢/١) كتاب الزكاة باب ما يقال عند إخراج الزكاة حديث (١٧٩٦) وأحمد (٤/٣٥٣، ٣٥٤، ٣٨١، ٣٨٢) والطحاوي (١٧٦/١ - منحة) رقم (٨٣٣) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/١٦٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٩٦/٥) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/٢٣٥) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٣٦١) والطبراني في «الكبير» (١٠/١٨) رقم (١١) والبيهقي (٤/١٥٧) كتاب الزكاة والبيهقي في «شرح السنة» (٣/٣١٤ - بتحقيقنا) كلهم من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى قال كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: اللهم صل عليهم فاتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل عليه فأثنى أبو أوفى بصدقة. فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى» انتهى.

(١) قال محمود: «ما أدل هذا الكلام على أن الصدقة من الله بمكان... إلخ» قال أحمد: وللقدريّة كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، وأنه مخلد في النار وإن كان موحدًا، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي رسم به المنافق هو الذي يوسم به الموحد، حتى يكون استحقاقهما للخلود واحدًا. فاحذره، والله أعلم.

﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣٣)

﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾: هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: الذين شهدوا بدرًا، وعن الشعبي: من بايع بالحديبية، وهي بيعة الرضوان ما بين الهجرتين، ﴿و﴾ من ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾: أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن، وقرأ عمر - رضي الله عنه -: «والأنصار» بالرفع عطفًا على السابقون (٧١٨)، وعن عمر أنه كان يرى أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ بغير واو صفة للأنصار، حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: ائتوني بأبي، فقال: تصديق ذلك في أول الجمعة، (وآخرين منهم): وأوسط الحشر، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] وآخر الأنفال، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وروي أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو، فقال: من أقرأك؟ قال: أبي، فدعاه فقال: أقرأني رسول الله - ﷺ - وإنك لتبيع القرظ بالبقيع، قال: صدقت، وإن شئت قلت: شهدنا وغبتم، ونصرنا وخذلتم، وأوينا وطررتم، ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا (٧١٩)، وارتفع السابقون بالابتداء، وخبره: ﴿رَضِيَ اللَّهُ

٧١٨ - قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

لم أره هكذا. انتهى.

٧١٩ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٩٦/٢):

رواه الطبري بنقص يسير من طريقين. أ. هـ. وقال ابن حجر:

لم أره هكذا. أ. هـ.

والحديث أخرجه الطبري في تفسيره (٤٥٥/٦) رقم (١٧١٣١) من طريق أبي أحمد عن أبي معشر عن محمد بن كعب فذكره. و(٤٥٥/٦) رقم (١٧١٣٢) من طريق الحسن بن عطية عن أبي معشر عن محمد بن كعب فذكره. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٨٣/٣) وعزاه إلى أبي الشيخ. وأخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث حبيب بن الشهيد عن عمرو بن عامر عن عمر بن الخطاب نحوه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٩٦/٢).

قال الحافظ: لم أره هكذا، وفي الطبري من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب قال: «مر عمر ابن الخطاب برجل يقرأ: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار»، فأخذ عمر بيده. وقال: من أقرأك هذا؟ قال: أبي بن كعب فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاء عمر: قال أنت أقرأت هذا هذه الآية؟ قال: نعم، وسمعتها من رسول الله ﷺ قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رقعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبي: تصديق ذلك في أول سورة الجمعة وفي سورة الحشر وفي الأنفال، فذكرها. وروى ابن مردويه من طريق حبيب بن الشهيد عن عمرو بن عامر عن عمر بن الخطاب: «فذكر نحوه وفيه: فقال أبي: لقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وأنت تبيع الجبط، فقال عمر: نعم إذن. انتهى.

عَنْهُمْ، ومعناه: رضي عنهم لأعمالهم، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾: لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدينية/ ٣٠٣، وفي مصاحف أهل مكة: تجري من تحتها، وهي قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف: تحتها، بغير «من».

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١١)

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ﴾ يعني: حول بلدتكم وهي المدينة، ﴿الْمُنْفِقُونَ﴾: وهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، كانوا نازلين حولها، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾: عطف على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم، ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على أن ﴿مَرَدُوا﴾: صفة موصوف محذوف؛ كقوله [من الوافر]:

أَنَا أَبْنُ جَلًّا.....

وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ، أو صفة لـ «منافقون»، فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره، ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾: تمهروا فيه، من مرن فلان عمله، ومرد عليه: إذا درب به وضرى، حتى لان عليه ومهر فيه، ودلّ على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أي يخفون عليك مع فطنتك^(١)، وشهامتك، وصدق

(١) أنا ابن جلا وطلاع الشنايا متى أضع العمامة تعرفوني وماذا تبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حد الأربعين؟

لسحيم بن وثيل الرياحي، كان عبداً حبشياً، فاتهم ببنت مولاه. فقتله. وقيل للمثقب العبدى، ونسب البيت الأول للعرجي. وجلا: صفة لمحذوف، أي ابن رجل جلاً واتضح أمره بالشجاعة، فالفعل لازم. أو جلاغة الحرب وكشف همها، فهو متعدد، وحذف المنعوت هنا ضرورة، لأنه لا يطرد إلا إذا صلح النعت لمباشرة العامل، أو كان المنعوت بعض اسم مجرور بمن، أو في كما مر، وإضافة «طلاع» لما بعده لفظية، فلا تفيد تعريفاً. وتوسيط الواو بين النعوت لتوكيد ربطها بالمنعوت. والثنايا: العقبات الصعبة. استعارها لعظام الأمور على سبيل التصريح، والطلوع ترشيح «متى أضع» بيضة الحرب على رأسي «تعرفوني» كناية عن نزول الحرب فتثبت شجاعته. وروي «تدري» بدل «تبتغي» وهو افتعال من الدراية، أي: ماذا تستعلم الشعراء مني، والحال أنني جاوزت حد الأربعين سنة، وكسر نون الجمع لغة. ويجوز أنه جر بالكسر على لغة من يعربه كالحين. ينظر الكتاب (٢٠٧/٣)، مجالس ثعلب (١٧٦/١)، الأصمعيات (٢٨٣/١)، شرح المفصل لابن يعيش (٦١/١)، المغني (١٦٠/١)، الهمع (٣٠/١)، الأشموني (٢٦٠/٣)، التصريح (٢٢١/٢)، الدر المصون (٤٩٨/٣).

(٢) قال محمود: «معناه أنه مع شهامتك وفطنتك وصدق فراستك يخفون حالهم عليك... إلخ» قال أحمد: وكان قوله تعالى ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام =

فراستك، لفرط تنوّقهم^(١) في تحامي ما يشكك في أمرهم، ثم قال: ﴿تَعَنَّ عَلَمُهُمْ﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله، ولا يطلع على سرهم غيره؛ لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطاناً، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين، لا تشك معه في إيمانهم؛ وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به، فلهم فيه اليد الطولى، ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قيل: هما: القتل، وعذاب القبر، وقيل: الفضيحة، وعذاب القبر، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنهم اختلفوا في هاتين المراتين، فقال: قام رسول الله - ﷺ^(٢) - خطيباً يوم الجمعة فقال: «أَخْرِجْ يَا فَلَانُ؛ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ، أَخْرِجْ يَا فَلَانُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ» (٧٢٠) فأخرج ناساً وفضحهم؛ فهذا العذاب الأول، والثاني عذاب القبر، وعن الحسن: أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم، ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: إلى عذاب النار.

﴿وَأَخْرَجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بنس ما فعلوا متذممين نادمين، وكانوا ثلاثة، أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعه بن حزام^(٣)، وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم أوثقوا

٧٢٠ - أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٤١/١ - ٤٤٢) رقم (٧٩٦).

وذكره الهيثمي في الزوائد (٣٧/٧) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقري وهو ضعيف».

وأخرجه الطبري في تفسيره (٤٥٧/٦) رقم (١٧١٣٧) وابن مردويه والثعلبي في تفسيريهما كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٩٧/٢).

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٨٦/٣)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فذكره.

قال الحافظ: أخرجه الطبري وابن مردويه والطبراني في الأوسط من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس بهذا إلى قوله: «وفضحهم»، وزاد: «لم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم عمر فاختبأ منهم، ثم دخل المسجد فقال له رجل: يا عمر أبشر، فقد فضح الله المنافقين اليوم. فهذا العذاب الأول، والعذاب الثاني عذاب القبر». انتهى.

= لما لهم من الخبرة في النفاق والضراوة به والله أعلم.

(١) قوله: «لفرط تنوّقهم» أي تأنفهم. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «فقال قام رسول الله ﷺ» أن القائل هو ابن عباس (ع).

(٣) قوله: «روي أن الذين اعترفوا بذنوبهم كانوا ثلاثة: أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة، ووديعه بن حزام» لم أجده.

أنفسهم: بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك، فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله - ﷺ - فدخل المسجد فصلّى ركعتين - وكانت عادته - ﷺ - كلما قدم من سفر - فرآهم موثقين، فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا ألاّ يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله - ﷺ - هو الذي يحلهم، فقال: وأنا أقسم ألاّ أحلهم حتى أؤمر فيهم؛ فنزلت، فأطلقهم وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلفتنا/ ٣٠٣ ب عنك فتصدق بها وطهرنا، فقال: «مَا أُمِرْتُ أَنْ أَخَذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئاً؛ فنزلت: خذ من أموالهم (٧٢١) ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾: خروجاً إلى الجهاد، ﴿وَأَخْرَجَ سَيِّئًا﴾: تخلفاً عنه، عن الحسن وعن الكلبي: التوبة والإثم.

فإن قلت: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به^(١)؟

قلت: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؛ لأنّ المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر؛ كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد: خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطاً، واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما؛ كأنك قلت: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء، ويجوز أن يكون من قولهم: بعت الشاة شاة ودرهماً، بمعنى: شاة بدرهم.

٧٢١ - أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة (٥/ ٢٧١ - ٢٧٢) من طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فذكره.

وأخرجه ابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف؛ والزيلعي (٢/ ٩٨).

قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم - الآية﴾ كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع النبي ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد - الحديث. انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به... إلخ» قال أحمد: والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن فالمصرح به في هذا الكلام أن الماء المخلوط واللبن مخلوط به، والمدلول عليه لزوماً لا تصريحاً كون الماء مخلوطاً به واللبن مخلوطاً، وإذا قلت: خلطت الماء واللبن، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً. وأما ما خلط به كل واحد منهما فغير مصرح به، بل من اللازم أن كل واحد منهما مخلوط به. ويحتمل أن يكون قرينة أو غيره، فقول الزمخشري: «إن قولك خلطت الماء واللبن يفيد ما يفيد مع الباء وزيادة» ليس كذلك، فالظاهر في الآية - والله أعلم - أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل، كأنه قيل: عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط فعبر عنهما معاً به، والله أعلم.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وما ذكرت توبتهم؟

قلت: إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة، فقد ذكرت توبتهم.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ﴿١١٣﴾﴾

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: صفة لصدقة، وقرئ: تطهرهم، من أطهره بمعنى طهره، وتطهرهم، بالجزم جواباً للأمر، ولم يقرأ: (وتزكّيهم)، إلا بإثبات الياء، والتاء في (تطهرهم) للخطاب أو لغيبة المؤنث، والتزكية: مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنة أن يدعو المصدق لصاحب الصدقة^(١) إذا أخذها، وعن الشافعي - رحمه الله -: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: أجرك الله فيما أعطيت، وجعله طهوراً، وبارك لك فيما أبقيت، وقرئ: «إِنَّ صَلَاتَكَ»، على التوحيد^(٢)، ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾: يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم، ﴿عَلِيمٌ﴾: بما في ضمائرهم، والغم من الندم لما فرط منهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾﴾

قرئ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾: بالياء والتاء، وفيه وجهان.

أحدهما: أن يراد المتوب عليهم، يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم، ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾: إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو للتخصيص والتأكيد، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين.

وقيل: معنى التخصيص في هو: أن ذلك ليس إلى رسول الله - ﷺ - إنما الله سبحانه، والذي يقبل التوبة ويردها، فاقصدوه بها ووجهوها إليه.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُدُّوا إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيْتَنُكُمْ

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾﴾

(١) قوله: «يدعو المصدق لصاحب الصدقة» المصدق اسم فاعل: الذي يأخذ الصدقات، أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «وقرئ إن صلاتك على التوحيد» بدل قراءة صلاتك على الجمع (ع).

﴿وَقُلْ﴾: لهؤلاء التائبين، ﴿اعْمَلُوا﴾؛ فإن عملكم لا يخفى - خيراً كان أو شراً - على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم.

والثاني: أن يراد غير التائبين؛ ترغيباً لهم في التوبة، فقد روي أنهم لما تيب عليهم، قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمرس معنا/ ٣٠٤أ، لا يكلمون، ولا يجالسون، فما لهم فنزلت.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَتِ﴾؟

قلت: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل (٧٢٢)، والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها، وقوله: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾: وعيد لهم، وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

﴿وَأَخْرَجَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٦١)

قرئ: «مرجون، ومرجؤون» من أرحيته، وأرجأته: إذا أخرته، ومنه المرجئة، يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾: إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: إن تابوا، وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن

٧٢٢ - أخرجه الطبراني في الكبير (١١٤/٩) رقم (٨٥٧١)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٨٧)، من طريق سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن قتادة المازني عن عبد الله بن مسعود به.

وله شاهد من حديث فضالة بن عبيد:

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨١/٤) من طريق ثور عن وهب بن منبه عن كعب عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه فذكره.

وله شاهد أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمين، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل؛ كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله».

أخرجه البخاري (٢٤/٣): كتاب الزكاة: باب لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب؛ لقوله تعالى: ﴿قُولُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٍ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، حديث (١٤١٠) وطره في (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠٦/٤ - ١٠٧ - النووي) كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة عن الكسب الطيب وتربيتها، حديث (١٠١٤/٦٣)، والترمذي (٤٠/٣): كتاب الزكاة: باب ما جاء في فضل الصدقة، حديث (٦٦١)، والنسائي (٥٧/٥): كتاب الزكاة: باب الصدقة من غلول، وابن ماجه (٥٩٠/١): كتاب الزكاة: باب فضل الصدقة، حديث (١٨٤٢). من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق والطبراني من طريق عبد الله بن قتادة المحاربي عنه. وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه... الحديث. انتهى.

الربيع: أمر رسول الله - ﷺ - أصحابه ألاّ يسلموا عليهم، ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شدّ أنفسهم على السواري، وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أنّ أحداً لا ينظر إليهم، فوضوا أمرهم إلى الله تعالى، وأخلصوا نياتهم، ونصحت توبتهم، فرحمهم الله (٧٢٣). ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: وفي قراءة عبد الله: «غفور رحيم»، وإما للعباد، أي: خافوا عليهم^(١) العذاب، وأرجوا لهم الرحمة.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَاراً وَكُفَرُوا وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ مَسْجِداً يُتُوبُونَ إِلَيْهِ﴾

في مصاحف أهل المدينة والشام: «الذين اتخذوا» بغير واو؛ لأنها قصة على حيالها، وفي سائرهما بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم، روي أنّ بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله - ﷺ - أن يأتيهم، فاتاهم، فصلّى فيه، فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله - ﷺ - يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام؛ ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم، وهو الذي سماه رسول الله - ﷺ - الفاسق، وقال لرسول الله - ﷺ - يوم أحد: «لَا أَجِدُ قَوْماً يُقَاتِلُونَكَ إِلَّا قَاتِلَتُكَ مَعَهُمْ». فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن، خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين، أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح؛ فإنّي ذاهب إلى قيصر، وآت بجند ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجداً بجانب مسجد قباء، وقالوا للنبي - ﷺ -: «بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن يصلي لنا فيه، وتدعونا بالبركة، فقال - ﷺ -: «إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالٍ شُغْلٍ، وَإِذَا قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ - صَلَّى فِيهِ»، فلما قفل من غزوة تبوك، سألوه إتيان المسجد؛ فنزلت عليه، فدعا بمالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشي قاتل حمزة، فقال لهم: «انْطَلِقُوا

٧٢٣ - قال ابن حجر:

لم أجده بهذا السياق. والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك. أ.هـ. والحدّث تقدّم تخريجه.

(١) قوله: «وإما للعباد أي خافوا عليهم» عبارة النسفي: وإما للشك وهو راجع إلى العباد (ع).

إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ / ٣٠٤ أَبْ أَهْلُهُ فَأَهْدِمُوهُ وَأَخْرِقُوهُ» ح ففعلوا، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين (٧٢٤)، ﴿ضَرَارًا﴾: مضاربة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة، ﴿وَكُفْرًا﴾: وتقوية للنفاق، ﴿وَتَقَرُّبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتصص^(١) بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم، ﴿وَارْصَادًا﴾: وإعداداً، (ل) أجل، ﴿لِمَنْ حَارَبَكَ اللَّهُ

٧٢٤ - قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق، إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح؛ فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبى ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبُني مسجد الضرار، وكان في غزوة تبوك، فبينهما تسع سنين. أ.هـ.

أخرجه الطبري في تفسيره (٤٦٩/٦) رقم (١٧٢٠٠) مراسلاً من طريق ابن إسحاق من رواية الزهري ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٥٩/٥ - ٢٦٠) من طريق ابن إسحاق، وقال: وذكر محمد بن إسحاق في الأوراق التي لم أجد سماعاً فيها من كتاب المغازي عن ثقة من بني عمرو بن عوف. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٤٩٥/٣) من طريق أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري - رضي الله عنه -، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن مردويه.

وأخرجه ابن هشام في سيرته (٢٠٢/٤) رقم (١٨٩١) من طريق ابن إسحاق به. وذكره الثعلبي بلفظ المصنف بتمامه من غير سند ولا راو، وذكره الواحدى في أسباب النزول وعزاه للمفسرين؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٠١/٢).

كما عزاه الزيلعي لابن مردويه في تفسيره.

وانظر: تخريج الكشاف للزيلعي (١٠١/٢ - ١٠٢).

قال الحافظ: قوله «وإما للعباد أي خافوا عليهم

لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبى ﷺ بقباء أول ما هاجر وبُني مسجد الضرار وكان في غزوة تبوك فبينهما تسع سنين لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفي عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال فيهم عرج جد عبد الله بن حنيف ووديعه بن حزام ومشجع بن حارثة فبنوا مسجداً - الحديث من قوله «فبنوا مسجداً إلى مسجد قباء إلى آخره» ذكره ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه عن الزهري ويزيد بن رومان وغيرهما قالوا: أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه وهو متجهز لغزوة تبوك - الحديث» ولم يذكر في الذين أرسلوا إلى هدمه سوى مالك بن الدخشم ومعن بن عدي لم يذكر وحشياً قاتل حمزة وعامر ابن السكن ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق قال: ذكر الزهري عن ابن أكيمة اللبشي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري فذكر نحوه.

وأما كونهم بنوه بسبب أبي عامر فرواه ابن مردويه من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه.

(١) قوله: «فيغتصص» أي يمتلئ اهـ (ع).

وَرَسُولُهُ: وهو الراهب: أعدوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله - ﷺ - وقيل: كل مسجد بني مباهاة، أو رياء، وسمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار، وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه؛ فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار، أو رياء، أو سمعة، فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضراراً، وعن عطاء: لما فتح الله - تعالى - الأمصار على يد عمر - رضي الله عنه - أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وألاً يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه.

فإن قلت: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، ما محله من الإعراب؟

قلت: محله: النصب على الاختصاص؛ كقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾، وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، معناه: وفيمن وصفنا الذين اتخذوا؛ كقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨].

فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿من قَبْلُ﴾؟

قلت: باتخذوا، أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾: ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿إِلَّا﴾: الخصلة ﴿الْحُسْنِ﴾، أو: الإرادة الحسنی، وهي: الصلاة، وذكر الله، والتوسعة على المصلين، ﴿لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ قيل: هو مسجد قباء، أسسه رسول الله - ﷺ - وصلى فيه أيام مقامه بقاء، وهي: يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وخرج يوم الجمعة، وهو أولى؛ لأن الموازنة بين مسجدي قباء أوقع، وقيل: هو مسجد رسول الله - ﷺ - بالمدينة، وعن أبي سعيد الخدري: سألت رسول الله - ﷺ - عن المسجد الذي أسس على التقوى؟ فأخذ حصباء فضرب بها الأرض، وقال: «هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ» (٧٢٥). ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: من أول يوم من أيام وجوده، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ قيل: لما نزلت، مشى رسول الله - ﷺ - ومعه المهاجرون، حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال: «أُمُومِنُونَ أَنْتُمْ؟» فَسَكَتَ الْقَوْمُ، ثُمَّ أَعَادَهَا، فَقَالَ عُمَرُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ - ﷺ -: أَتَرْضَوْنَ بِالْقَضَاءِ / ٩٣٠٥؟» قَالُوا نَعَمْ، قَالَ: أَتَضِيرُونَ عَلَى الْبَلَاءِ؟

٧٢٥ - أخرجه مسلم (١٨١/٥ - النووي): كتاب الحج: باب لا تشد الرحال إلا في ثلاثة مساجد، حديث (١٣٩٨ / ٥١٤)، والترمذي (٢٨٠/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٩) من طريق عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه به. وينحو معناه مختصراً أخرجه النسائي (٣٦/٢) كتاب المساجد: باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى من طريق ابن أبي سعيد الخدري عن أبيه فذكره. قال الحافظ: رواه مسلم بلفظه. انتهى.

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَشْكُرُونَ فِي الرَّخَاءِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ - ﷺ -: مُؤْمِنُونَ وَرَبُّ الْكَفْبَةِ، فَجَلَسَ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فَمَا الَّذِي تَصْنَعُونَ عِنْدَ الْوُضُوءِ وَعِنْدَ الْغَائِطِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَتَّبِعُ الْغَائِطَ الْأَخْجَارَ الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ نَتَّبِعُ الْأَخْجَارَ الْمَاءِ، فَتَلَّا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ (٧٢٦) وقرىء: «أَنْ يَتَطَهَّرُوا»، بالإدغام، وقيل: هو عام في التطهر من النجاسات كلها، وقيل: كانوا لا ينامون الليل على الجنابة، ويتبعون الماء أثر البول، وعن الحسن: هو التطهر من الذنوب بالتوبة، وقيل: يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة للذنوبهم، فحموا عن آخرهم.

فإن قلت: ما معنى المحبتين؟

قلت: محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه، ويحرصون عليه، حرص المحب للشيء المشتبه له على إثارة، ومحبة الله - تعالى - إياهم: أنه يرضى عنهم، ويحسن إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١١٩)

قرىء: «أسس بنيانه»، «وأسس بنيانه»، على البناء للفاعل والمفعول، «وأسس بنيانه»، جمع أساس، على الإضافة، «وأساس بنيانه»، بالفتح والكسر: جمع أس، «وأساس بنيانه» على أفعال، جمع أس - أيضاً - وأس بنيانه، والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه^(١) على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه، ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ﴾: أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد، وأرعاها، وأقلها بقاء، وهو الباطل، والنفاق الذي مثله مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾: في قلة الثبات والاستمسك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى.

٧٢٦ - قال ابن حجر: وكأنه ملفق من حديثين.

ذكر المخرج أولهما من الطبراني في الأوسط قال: حدثنا الهيثم بن خلف الدوري بسنده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «دخل رسول الله ﷺ على عمر ومعه أناس، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا ثلاث مرات، فقال عمر - رضي الله عنه - يا رسول الله، تؤمن بما أتيتنا به ونحمد الله في الرخاء، ونصبر في البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة» انتهى، وهذا فيه من المخالفة بين السياقين ما لا يخفى، وأما الثاني، فروى ابن مردويه من طريق ابن عباس بنحوه. أ.هـ.

والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (١٩٤/١٠) حديث (٩٤٢٣).

(١) قوله: «فمن أسس بنيان دينه» هذا كما في الحديث «بني الإسلام على خمس» (ع).

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾؟

قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل، قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ «الانهيار» الذي هو للجرف؛ وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها؛ والشفاء: الحرف والشفير، وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً، «والهارة»: الهائر، وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط، ووزنه: فعل، قصر عن فاعل، كخلف من خالف، ونظيره: شاك وصات، في شائك وصائت، وألفه ليست بألف فاعل؛ إنما هي عينه، وأصله هور، وشوك، وصوت، ولا ترى أبليغ من هذا الكلام، ولا أدلّ على حقيقة الباطل؛ وكنه أمره، وقرئ: «جرف»، بسكون الراء.

فإن قلت: فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر: «على تقوى من الله»، بالتثنية؟

قلت: قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث، كترى فيمن نون، ألحقها بجعفر، وفي مصحف أبي: «فانهارت به قواعده»، وقيل: حفرت بقعة من مسجد الضرار/ ٣٠٥ ب فرؤي الدخان يخرج منه، وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلّم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمهم في مسجدهم، فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تعجل عليّ، فوالله، لقد صليت بهم، والله يعلم أنني لا أعلم ما أضمرُوا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فعذره، وصدّقه، وأمره بالصلاة بقومه.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١١٠)

﴿رِيبَةً﴾: شكاً في الدين ونفاقاً، وكان القوم منافقين؛ وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم؛ كما قال عز وجل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْجَمْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ فلما هدمه رسول الله - ﷺ - ازدادوا - لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم - تصميماً على النفاق ومقتاً للإسلام، فمعنى قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: لا يزال هدمه سبب شك، ونفاق زائد على شكهم، ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحل أثره، ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: قطعاً وتفرق أجزاء، فحينئذ يسلمون عنه، وأما ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع^(١)؛ تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز

(١) قوله: «فيجوز أن يكون ذكر التقطيع» على قراءة (تقطع) بالتشديد، مبنيًا للمفعول (ع).

أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار .

وقرىء : يقطع ، بالياء ، «وتقطع» ، بالتخفيف ، «وتقطع» ، بفتح التاء ، بمعنى : تتقطع ، وتقطع قلوبهم ، على أن الخطاب للرسول ، أي : إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم ، وقرأ الحسن : «إلى أن» ، وفي قراءة عبد الله : «ولو قطعت قلوبهم» ، وعن طلحة : «ولو قطعت قلوبهم» على خطاب الرسول أو كل مخاطب ، وقيل : معناه : إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروى^(١) ، وروي : تاجرهم فأعلى لهم الثمن ، وعن عمر - رضي الله عنه - فجعل لهم الصفقتين جميعاً ، وعن الحسن : أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها ، وروي أن الأنصار حين بايعوه على العقبة ، قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : اشترط لربي : أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي : أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، قال : فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال : لكم الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا نقيلاً ولا نستقيلاً (٧٢٧) ، ومر برسول الله - ﷺ - أعرابي وهو يقرؤها فقال : كلام من؟ قال : كلام الله ، قال : بيع والله مريح ، لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو فاستشهد (٧٢٨) ، ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ : فيه معنى

٧٢٧ - أخرجه الطبري في تفسيره : (٤٨٢/٦) رقم (١٧٢٨٤) .

والواحد في تفسيره : (٥٢٦/٢) ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» : (٥٠١/٣) .

قال الحافظ : أخرجه الطبري من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي ، وغيره قال : «لما بايعت الأنصار ليلة العقبة فذكره . انتهى .

٧٢٨ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٠٥/٢) : ذكره الثعلبي عن الحسن ، قال : مر أعرابي بالنبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...﴾ إلى آخرها فقال : كلام من هذا؟ قال : «كلام الله» ، قال : بيع والله مريح... إلى آخره ، وسنده إلى الحسن في أول كتابه .

قال الحافظ : ذكره الثعلبي هكذا بلا سند عن البصري مرسلأ ، لكن سنده إلى الحسن البصري أول =

(١) قوله : «في سبيله بالشروى» كالجذوى . في الصحاح والوشاح هي المثل . والظن أنها هنا اسم للاستبراء .

الأمر؛ كقوله: ﴿وَتُحْمَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] / ٣٠٦ وقرئ: «فيقتلون ويقتلون» على بناء الأول للفاعل، والثاني للمفعول، وعلى العكس، ﴿وَعَدَا﴾: مصدر مؤكد، أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبتته ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، كما أثبتته في القرآن، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾؛ لأنَّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ؟

﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْسِرُونَ الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُسْتَغْفِرُونَ وَالْهَامِلُونَ﴾
عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾

﴿التَّائِبُونَ﴾: رفع على المدح، أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين؛ ويدل عليه قراءة عبد الله وأبي - رضي الله عنهما -: «التائبين»، بالياء إلى: «والحافظين»، نصباً على المدح، ويجوز أن يكون جرّاً صفة للمؤمنين، وجوز الزجاج أن يكون مبتدأ، خبره محذوف، أي التائبون العابدون من أهل الجنة - أيضاً - وإن لم يجاهدوا كقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ [النساء: ٩٥] وقيل: هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره العابدون، وما بعده خبر بعد خبر، أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال، وعن الحسن: هم الذين تابوا من الشرك، وتبرؤوا من النفاق؛ و﴿الْعَمِيدُونَ﴾: الذين عبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة، وحرصوا عليها، و﴿السَّاجِدُونَ﴾: الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه.

﴿مَا كَانَتْ لِلنَّيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٤﴾

= كتابه. قلت: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق أبي شيبة عن عطاء الخراساني عن جابر: «نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد: ﴿إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى﴾، فكبر الناس في المسجد، فأقبل رجل من الأنصار. فقال: أنزلت هذه الآية؟ فقال: نعم. فقال بيع رابع. لا نقبل ولا نستقبل»، وأخرجه عبد بن حميد: حدثنا إبراهيم هو ابن عبد الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة: «لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى...﴾ قال رجل من الأنصار: يا لها بيعة، ما أربحها. والله لا نقبل ولا نستقبل»، وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب وغيره قالوا: قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: «اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقبل ولا نستقبل». انتهى.

قيل: قال - ﷺ - لعمه أبي طالب: «أَنْتَ أَغْظَمُ النَّاسِ عَلَيَّ حَقًّا، وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي يَدًا، فَقُلْ كَلِمَةً تَجِبُ لَكَ بِهَا شَفَاعَتِي، فَأَبِي، فَقَالَ: لَا أَرَاكَ أَسْتَغْفِرُ لَكَ مَا لَمْ أَنُفَعْ عَنْهُ فَنَزَلَتْ. (٧٢٩)

وقيل: لما افتتح مكة، سأل أي أبويه أحدث به عهداً؟ فقيل: أملك أمانة، فزار قبرها بالأبواء، ثم قام مستعبراً فقال: إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمِّي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي؛ فنزلت، وهذا أصح؛ لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزل بالمدينة، وقيل: استغفر لأبيه، وقيل: قال المسلمون: ما يَمْنَعُنَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ لِأَبَائِنَا، وذوي قرابتنا، وقد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد يستغفر لعمه، ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ﴾: ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ لأنهم ماتوا على الشرك.

﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

قرأ طلحة: «ما استغفر إبراهيم لأبيه»، وعنه: «وما يستغفر إبراهيم»؛ على حكاية الحال الماضية، ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي: وعدها إبراهيم أباه، وهو قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحة: ٤]، ويدل عليه قراءة الحسن وحمام الراوية: «وعدها أباه».

فإن قلت: كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار/ ٣٠٦ ب للكافر غير جائز حتى وعده؟

قلت: يجوز أن يظن أنه ما دام يرجي منه الإيمان، جاز الاستغفار له، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي؛ لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر؛ ألا ترى إلى قوله - عليه السلام - لعمه: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُفَعْ عَنْهُ» ح وعن الحسن: قيل لرسول الله

٧٢٩ - أخرجه البخاري (٥٨٦/٣ - ٥٨٧): كتاب الجنائز: باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠)، وأطرافه في: ٣٨٨٤، ٤٦٧٥ - ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم (٢٤٤/١ - ٢٤٥ - النووي) كتاب الإيمان: باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ما لم يشرع في النزع، وهو الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار للمشركين، والدليل على أن من مات على الشرك، فهو في أصحاب الجحيم، ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل، حديث (٢٤/٣٩)، والحاكم في المستدرک (٣٣٦/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهذا وهم من الحاكم، فالحديث أخرجه البخاري ومسلم.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه في حديث، وعقل الحاكم فاستدركه. انتهى.

- ﷺ: - إن فلاناً يستغفر لأبائه المشركين، فقال: «وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ لَهُمْ» (٧٣٠) فترلت وعن علي - رضي الله عنه -: رأيت رجلاً يستغفر لأبويه، وهما: مشركان، فقلت له، فقال: أليس قد استغفر إبراهيم (٧٣١).

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾؟

قلت: معناه: فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن وأنه يموت كافراً وانقطع رجاؤه عنه، قطع استغفاره؛ فهو كقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، ﴿لَاؤَاهُ﴾: فعال، من أوه كلال من اللؤلؤ، وهو الذي يكسر التأوه، ومعناه: أنه لفرط رحمته، وورقته، وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر، ويستغفر له، مع شكاسته عليه^(١)، وقوله: «لأرجمنك».

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّىٰ بَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيَىٰ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

يعني: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضالاً، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب، وأما قبل العلم والبيان، فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل

٧٣٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٠٦/٢): غريب، وذكره الثعلبي عن قتادة لا عن الحسن. وقال ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٧٣١ - أخرجه الترمذي (٢٨١/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣١٠١)، والنسائي (٩١/٤): كتاب الجنائز: باب النهي عن الاستغفار للمشركين، وأحمد في مسنده: (١/٩٩ - ١٣٠ - ١٣١)، والحاكم في المستدرک (٣٣٥/٢)، وأبو يعلى في مسنده: (٢٨٠/١) رقم (٣٣٥)، و(٤٥٨/١) رقم (٦١٩)، والطبري في تفسيره: (٤٩٠/٦) رقم (١٧٣٤٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٠٥/٣)، وعزاه إلى الطيالسي وابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والضياء في المختارة عن علي به. قال الحافظ: أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار من طريق أبي الخليل عن علي قال: «سمعت رجلاً يستغفر لأبويه - الحديث» انتهى.

(١) قوله: «مع شكاسته عليه» أي صعوبته. وفي الصحاح: رجل شكس - بالتسكين - أي صعب الخلق (ع).

التحريم؛ وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه، وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها، وهي: أَنَّ المَهْدِيَّ للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال، والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل^(١) كالصدق^(٢) في الخبر، وردّ الودعة فغير موقوف على التوقيف.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

﴿تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾؛ كقوله: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وهو بحث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح، وقيل: معناه: تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه؛ كقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣]. ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾: في وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق، كما استعملت الغداة والعشية واليوم [من الطويل]:

غَدَاةٌ طَفَّتْ عَلَمَاءُ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ / ٣٠٧ (٣)

(١) قال محمود: «فأما ما يدرك حظره بالعقل... إلخ» قال أحمد: هذا تفريع على قاعدة التحسين والتفقيح، وأن العقل حاكم، والشرع كاشف لما غمض عليه، تابع لمقتضاه. وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير ما موضع، والله الموفق.

(٢) قوله: «فأما ما يعلم بالعقل كالصدق» مبني على مذهب المعتزلة أن الحكم يعلم بالعقل وعند أهل السنة لا حكم قبل الشرع (ع).

(٣) غداة طفت علماء بكر بن وائل وعاجت صدور الخيل شطر تميم المراد بالغداة مطلق الزمن ليناسب المدح. طفت - بالفاء - علت وارتفعت. ويروى بالغين، والمراد: العلو أيضاً. وعلماء: أصله على الماء، والمراد: ارتفع قدرهم في العز والمجد وانخفض غيرهم، كما يرتفع الشيء على وجه الماء ويرسب الآخر. أو المعنى: أنهم طغوا بالغين على أطنى شيء كالماء، فالماء طاغ على الناس وهم طاغون عليه. وفيه دلالة على الشجاعة. وبكر بن وائل: اسم أبي قبيلة سميت هي باسمه. والوائل: أصله السابق الملتجئ. وعاجت: أي أمالت صدور خيلها. وإيقاع الموج على الصدور، لأن السير والتحول من جهة إلى أخرى يظهران بها. وشطر: أي جهة قبيلة تميم.

البيت لقطري بن الفجاءة ينظر ديوانه ص (١٧٤)، الوساطة (٤٥٠)، ابن الشجري ٩٧/١، البحر ١١٠/٥، معاني الفراء ٣٧٧/٢، شرح شواهد الشافية ٤٩٨، أسرار العربية ص (٤٢٩)، شرح المفصل ١٥٤/١٠، ١٥٥، الحماسة ٢٢١/١، الدر المصون ٥٠٩/٣.

[ومن الطويل]:

وَكُنَّا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءٍ شَحْمَةً عَشِيَّةً قَارَعْنَا جُذَامَ وَحْمِيرًا^(١)

[ومن الطويل]:

إِذَا جَاءَ يَوْمًا وَارِثِي يَبْتَغِي الْغَنَى يَجِدُ جُمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلَأَى وَلَا صِفْرٍ^(٢)

(١)

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة

عشية قارعنا جذام وحميرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه

ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

لزفر بن الحرث الكلابي من التابعين شهد وقعة صفين وغيرها. ويقال في المثل: ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء ثمرة فما هنا تلميح له. والمراد بالعشية: مطلق الزمن لا آخر النهار فقط، لدلالة المقام على ذلك. والمقارعة: المضاربة بالرمح والسيوف. ويروى: ليالي لا قينا. وجذام: اسم قبيلة سميت به، وهي من اليمن كانت تنزل جبال حسمى، يقال: هي أول ما انحسر عنه الطوفان لارتفاعها. وحمير: أبو قبيلة أيضاً سميت باسمه. ويروى: جذاماً، بالتنوين للضرورة. والنبع: شجر تتخذ منه الرماح. يقول: كنا ظننا أنهم ضعفاء نظفر بهم كغيرهم. فقلوه: «كل بيضاء شحمة» استعارة تمثيلية لذلك. وعشية: نصب بحسبنا، فلما التقت الرماح بيننا أبت أن تكسر. وشبهها بما يصح منه الإباء على طريق الكناية. وأبت تخيل، ويعد ذلك فهو كناية عن قوة القبيلتين وعدم انخذاهما. وقيل: إنه يصفهما بالكرم وحسن القرى. فيكون الكلام كله بما فيه من المجاز والكناية، منقول من هيئة التقاء الصفوف في الحرب إلى هيئة التقاء الضيفان مع المضيف وعدم عجزه عن قراهم على طريق التمثيل، لكن العشية على حقيقتها. ومع توجيهنا له بذلك، يبعده قوله: «حسبنا كل بيضاء شحمة» وهو قول من لم يقف على بقية القصيدة، فإنها مصرحة بأن المعنى محاربتهم إياهم ومكافأتهم لهم.

ينظر الحماسة ١/١٥٥، المغني ٢/٦٣٦، العيني ٢/٣٨٢، التصريح ١/٢٤٩، شرح الألفية لابن الناظم ١٩٧. المقاصد النحوية ٢/٣٨٢، أوضح المسالك ٢/٤٣، الدر المصون ٣/٥٠٩.

(٢)

إذا جاء يوماً وارثي يبتغي الغنى

يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر

يجد فرساً مثل العنان وصارماً

حساماً إذا ما هز لم يرض بالهبر

وأسمر خطياً كأن كعوبه

نوى القسب قد أربى ذراعاً على العشر

لحاتم الطائي. والمراد باليوم: مطلق الزمن، بخلاف النهار فإنه خاص بالمحدود الطرفين، وهكذا غالب استعمال العرب، والمراد بالغنى: التركة، لأنها سببه. وجمع الكف - بالضم -: الكف المقبوضة، فهو من إضافة الصفة للموصوف. والملأى: الممتلئة. وصفر الرجل - بالكسر - وأصفر فهو مصفر: افتقر. والصفر - بالضم، وقيل بالكسر -: الخالي. والصارم: السيف القاطع. وحسم الشيء: قطعه بالحسام الشديد القطع. ويطلق على الحديد الحد. والهبر: قطع بضعة كثيرة من اللحم. والسمرة: لون بين البياض والأدمة. والخط: موضع تنسب له الرماح الجيدة. والكعب: ما بين العقدتين. والقسب: نوع من الثمر صلب النوى. وربا الشيء وأربى: زاد، وقد تقلب باؤه ميماً، كما روي: قد أرمى. وذراعاً: تمييز، أي زاد ذراعاً على العشر الأذرع، فيكون مقداره أحد عشر ذراعاً، والجملة وصف لأسمر. ويحتمل أنها حال من النوى، أي: زاد النوى حال كونه مقدار ذراع على العشر من النوى، فذراعاً حال في ضمن الحال وإذا أشبهت كعوبه النوى في هذه الحالة، فكل ذراع منه يزيد على عشرة كعوب. ويجوز أن ذراعاً تمييز محول عن الفاعل، أي: زاد كل =

والعسرة: حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر: يعتقب العسرة على بعير واحد، وفي عسرة من الزاد: تزودوا التمر المدود، والشعير المسوس، والإهالة الزنخة^(١)، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وفي عسرة من الماء، حتى نحروا الإبل، واعتصروا فروثها، وفي شدة زمان، من حمارة القبط، ومن الجذب، والقحط، والضيقة الشديدة، ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾: عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه، وفي «كاد»: ضمير الشأن، وشبهه سيويه بقولهم: ليس خلق الله مثله، وقرئ: «يزيغ»، بالياء، وفي قراءة عبد الله: «من بعد ما زاعت قلوب فريق منهم»، يريد المتخلفين من المؤمنين، كأبي لبابة وأمثاله، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: تكرير للتوكيد، ويجوز أن يكون الضمير للفريق: تاب عليهم لكيدودتهم.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِمَتَّوْبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

﴿الثَّلَاثَةُ﴾: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ومعنى: ﴿خَلَفُوا﴾: خلفوا عن الغزو، وقيل: عن أبي لبابة وأصحابه؛ حيث تيب عليهم بعدهم، وقرئ: (خلفوا) أي: خلفوا الغازين بالمدينة، أو فسدوا من الخالفة وخلفو الفم^(٢)، وقرأ جعفر الصادق - رضي الله عنه -: «خالفوا»، وقرأ الأعمش: «وعلى الثلاثة المخلفين»، ﴿بِمَا رَحَّبَتْ﴾: برحبها، أي: مع سعتها، وهو مثل للحيرة في أمرهم؛ كأنهم لا يجدون فيها

= ذراع من هذا الأسمر على عشرة كعوب. يقول: إذا طلب وارثي تركتي يجد أشياء حقيقة بأن يقبض عليها بالكف حرصاً عليها، فقوله: «جمع كف» كناية عن ذلك غير ممثلة عند من يحب المال، وغير خالية عند ملاقي الأبطال، ويجد الثاني بدل من الأول. وشبه فرسه بالعنان في الضمور والمكانة إذا هز أي حرك، كناية عن الضرب به، وشبه بمن يصح منه الرضا على طريق الكناية ولم يرض تخييل: أي يجد فرساً ضامراً وسيفاً قاطعاً ورمحاً طويلاً أو صلباً. وجزم المضارع في جواب إذا وهو قليل.

ينظر الديوان (٤٦).

ينظر البحر ١١١/٥، الدر المصون ٥٠٩/٣.

(١) قوله: «والإهالة الزنخة، أي الدهن المنتن. وحمارة القبط بتشديد الراء شدة حره اهـ من الصحاح (ع).

(٢) قوله: «أو فسدوا من الخالفة وخلفو الفم» الخالفة: الذي لا خير فيه. وخلفو الفم: تغيره: اهـ من الصحاح (ع).

مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه، ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم، ﴿وَطَنُوا﴾: وعلموا، ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ﴾: سخط، ﴿اللَّهِ إِلَّا﴾: إلى استغفاره، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾: ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرتة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم ويشتوا، وليتوبوا - أيضاً - فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة، علماً منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة، روي أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله - ﷺ - منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به، عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم، فقال: يا حائطاه، ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله، ولم يكن لآخر إلا أهله، فقال: يا أهلاه، ما بطأني ولا خلفني إلا الضنّ بك لا جرم، والله لأكابدن المفاوز حتى ألحق برسول الله، فركب ولحق به، ولم يكن لآخر إلا نفسه لا أهل ولا مال، فقال: يا نفس، ما خلفني إلا حب الحياة لك، والله، لأكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله، فتأبط زاده ولحق به، قال الحسن: كذلك / ٣٠٧ ب والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصبر عليها، وعن أبي ذر الغفاري: أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله - ﷺ - ماشياً، فقال رسول الله - ﷺ - لما رأى سواده: «كُنْ أَبَا ذَرٍّ، فَقَالَ النَّاسُ: هُوَ ذَاكَ، فَقَالَ: رَجِمَ اللَّهُ أَبَا ذَرٍّ، يَمْشِي وَخَدَهُ، وَيَمُوتُ وَخَدَهُ، وَيُبْعَثُ وَخَدَهُ» (٧٣٢)، وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه، وكانت له امرأة حسناء، فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب، والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله - ﷺ - في الضحّ والريح، ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومَرَّ كالريح، فمدّ رسول الله - ﷺ - طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يزهاه السراب، فقال: كن أبا خيثمة فكانه، ففرح به رسول الله - ﷺ - واستغفر له (٧٣٣)، ومنهم من بقي لم يلحق به، منهم الثلاثة، قال كعب: لما قفل

٧٣٢ - أخرجه الحاكم في المستدرک: (٥٠/٣ - ٥١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والبيهقي في دلائل النبوة: (٢٢١/٥ - ٢٢٢)، وابن هشام في سيرته (١٩٣/٤) رقم (١٨٧٩). كلهم عن ابن إسحاق عن بريدة عن ابن كعب عن ابن مسعود به.

أخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم، والبيهقي في الدلائل، قال: حدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن مسعود قال: «لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل لا يزال الرجل يتخلف - فذكره مطولاً» انتهى.

٧٣٣ - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٢٢/٥ - ٢٢٣)، وابن هشام في سيرته (١٨٧/٤ - ١٨٨) رقم (١٨٧٠).

قال الحافظ:

أخرجه ابن سعد بهذا بغير سند، وذكره الواقدي في المغازي: حدثنا محمد بن رفاعة بن ثعلبة بن =

رسول الله ﷺ - سلمت عليه فردّ علي كالمغضب بعد ما ذكرني وقال: «أَنتَ شِغْرِي مَا خَلَفَ كَغَبًا؟ فَقِيلَ لَهُ: مَا خَلَفَهُ إِلَّا حُسْنُ بُرْذِيهِ وَالنَّظَرُ فِي عَطْفِيهِ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ، مَا أَعْلَمُ إِلَّا فَضْلًا وَإِسْلَامًا» ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة، فتنكر لنا الناس، ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة، أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا ببدء من ذروة سلع^(١): أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً، وكنت كما وصفني ربي، ﴿صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وتتابعت البشارة، فلبست ثوبي، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ - فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني، وقال: لتهنك توبة الله عليك، فلن أنساها لطلحة، وقال رسول الله ﷺ - وهو يستنير استنارة القمر: «أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتُكَ أُمُّكَ» ثم تلا علينا الآية (٧٣٤)، وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح؟ فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه؛ كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ

أبي مالك عن أبيه عن جده قال: سألت زيد بن ثابت عن غزوة تبوك. فذكر القصة الطويلة، وفيه: وكان أبو خيثمة ويسمى عبد الله بن خيثمة - السالمي رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ عشرة أيام، حتى دخل على امرأتين له في يوم حار - فذكره وأخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي من طريقه قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم: «أن أبا خيثمة سالم - فذكره. وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق إبراهيم بن سعد بن خيثمة حدثنا أبي عن أبيه قال: تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى مضى رسول الله ﷺ فدخلت حائطاً - فذكر الحديث نحوه»، وفي الصحيحين في حديث كعب بن مالك الطويل: «فلما بلغ تبوك قال النبي ﷺ: ما فعل كعب بن مالك فذكر الحديث وفيه: فبينما هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب. فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة. انتهى.

٧٣٤ - تقدم تخريجه.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث عبد الله بن كعب بن مالك مطولاً، وقال فيه: فقال رجل من بني سلمة حبسه برداه فقال معاذ بن جبل: بشما قلت - الحديث» قال المخرج: الوهم فيه من المصنف. وأخرجه أحمد وفيه: فقال رجل من قومي: يا رسول الله، فلقه برداه والنظر من عطفه» وأفاد الواقدي في المغازي: أن الذي قال ذلك عبد الله بن قيس. انتهى.

(١) قوله: «من ذروة سلع» سلع هو جبل بالمدينة اهـ من الصحاح (ع).

الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا
كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وقرئ: «من الصادقين» وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً
وعملاً، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: ﴿رَجُلٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقيل: هم الثلاثة، أي: كونوا مثل هؤلاء في
صدقهم وثباتهم، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب،
أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار، ووافقوهم وانتظموا في جملةهم، واصدقوا مثل
صدقهم، وقيل: لمن تخلف / ٣٠٨ من الطلقاء عن غزوة تبوك، وعن ابن مسعود - رضي
الله عنه -: ولا يصلح الكذب في جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه،
اقرؤوا إن شئتم: «وكونوا مع الصادقين» (٧٣٥) فهل فيها من رخصة؟ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ
نَفْسٍ﴾: أمروا بأن يصحبوه على اليأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط
واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس عند الله
وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر
الأنفس أن تنهات (١) فيما تعرضت له، ولا يكثر لها أصحابها، ولا يقيموا لها وزناً،

٧٣٥ - أخرجه الحاكم في المستدرک (١/١٢٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين،
وإنما تواترت الروايات بتوفيق أكثر هذه الكلمات، فإن صح سنده؛ فإنه صحيح على شرطهما. أ. هـ
وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٠١) رقم (٤٧٨٧) كلاهما من طريق أبي إسحاق عن أبي
الأحوص عن عبد الله بن مسعود به.

وأخرجه الواحدي في تفسيره (٢/٥٣٣)، والطبري في تفسيره (٦/٥٠٩ - ٥١٠) رقم (١٧٤٧٠)؛
كلاهما من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود موقوفاً ولم يرفعه،
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/٥١٧) وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبه وابن
المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وأبي الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود به.
وأخرجه الثعلبي في تفسيره، وإسحاق بن راهويه في مسنده؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/١١٢).

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من رواية وهب بن جرير عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة
عن أبيه، موقوفاً، وكذا أخرجه إسحاق في مسنده عن وهب، ورواه البيهقي في الشعب مختصراً.
ورواه الحاكم مرفوعاً، من رواية أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رفعه: «لا يصلح الكذب من
جد ولا هزل، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجزه». انتهى.

(١) قوله: «تنهات» أي تساقط (ع).

وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربثوا^(١) بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهيج لمتابعته بأنفة وحمية، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما دل عليه قوله: «ما كان لهم أن يتخلفوا»، من وجوب مشايعته؛ كأنه قيل ذلك الوجوب، (ب) سبب: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَصِيبُهُمْ﴾: شيء من عطش، ولا تعب، ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفاً يغيظهم ويضيق صدورهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا﴾: ولا يرزؤونهم شيئاً بقتل، أو أسر، أو غنيمة، أو هزيمة، أو غير ذلك، ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾: واستوجبوا الثواب، ونيل الزلفى عند الله؛ وذلك مما يوجب المشايعة، ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة، لا الوطء بالأقدام والحوافر؛ كقوله - عليه السلام -: «آخِرُ وَطْأَةٍ وَطْأَتِهَا اللَّهُ بوج»^(٢) (٧٣٦)، والموطىء إمّا مصدر كالمورد، وإمّا مكان، فإن كان مكاناً فمعنى يغيظ الكفار: يغيظهم وطؤه، والنيل - أيضاً - يجوز أن يكون مصدرأً مؤكداً، وأن يكون بمعنى المنيل، ويقال: نال منه إذا رزاه ونقصه، وهو عام في كل ما يسوؤهم وينكبههم ويلحق بهم ضرراً، وفيه دليل على أن من قصد خيراً، كان سعيه فيه مشكوراً من قيام، ووقعود، ومشى، وكلام، وغير ذلك، وكذلك الشر، وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أن

٧٣٦ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (١١٣/٢): روي من حديث يعلى بن مرة، ومن حديث خولة: أ.هـ أما حديث يعلى بن مرة:

فأخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٤)، والطبراني في الكبير (٢٧٥/٢٢) رقم (٧٠٤) عن يعلى بن مرة به.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٧/١٠) وقال: رواه أحمد والطبراني، إلا أنه قال: آخر وطأة وطنها رب العالمين. ورجالهما ثقات.

وأما حديث خولة: فأخرجه الترمذي (٣١٧/٤): كتاب البر والصلة: باب ما جاء في حب الولد، حديث (١٩١٠)، ولم يذكر الترمذي فيه الوطأة، وقال: لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً من خولة.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٧/١٠) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات إلا أن عمر بن عبد العزيز لا أعلم له سماعاً من خولة.

قال الحافظ: أخرجه أحمد وابن سعد والطبراني والبيهقي في الأسماء من حديث يعلى بن مرة الثقفي في أثناء حديث، وأخرجه إسحاق والبيهقي أيضاً والطبراني من رواية عمر بن عبد العزيز قال: زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم. انتهى.

(١) قوله: «يربثوا» أي يرتفعوا. اهـ من الصحاح (ع).

(٢) قوله: «بوج» هي بلد بالطائف اهـ صحاح (ع).

المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة؛ لأن وطء ديارهم مما يغیظهم وينكي فيهم، ولقد أسهم النبي - ﷺ - لابني عامر، وقد قدما بعد تقضي الحرب (٧٣٧)، وأمد أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - المهاجر بن أبي أمية، وزیاد بن أبي لبيد بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس، فلهقوا بعد ما فتحوا فأسهم لهم (٧٣٨)، عند الشافعي: لا يشارك المدد الغانمين / ٣٠٨ ب، وقرأ عبيد بن عمير: «ظماء» بالمد، يقال: ظمى ظمى وظماء وظماء، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾: ولو تمرة، ولو علاقة سوط ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان - رضي الله عنه - في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: أرضاً في ذهابهم ومجيئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل، وهو في الأصل: «فاعل» من ودی إذا سال، ومنه الودي، وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض، يقولون: لا تصل في وادي غيرك، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمُ﴾: ذلك من الإنفاق وقطع الوادي، ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح، وقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾: متعلق بكتب، أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَسْفَرَّوهَا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١١٢)

اللام: لتأكيد النفي، ومعناه أن نفير الكافة عن اوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن^(١).

٧٣٧ - والحديث أخرجه البخاري (٣٦٥/٦ - ٣٦٦): كتاب فرض الخمس: باب: ومن الدليل على أن الخمس لنواب المسلمين...، حديث (٣١٣٦) وأطرافه في (٣٨٧٦، ٤٢٣٠، ٤٢٣٣)، ومسلم (٣٠٢/٨ - ٣٠٣ - النووي): كتاب فضائل الصحابة: باب: من فضائل جعفر بن أبي طالب، وأسماء بنت عيسى وأهل سفيتهم - رضي الله عنهم - حديث (١٦٩/٢٥٠٢). قال ابن حجر: لم أره هكذا، وقد عزاه الطيبي لأبي داود والترمذي، وفي الصحيحين عن أبي موسى: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم... الحديث. أ.هـ. وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (١١٤/٢):

وذهل الطيبي فعزاه لأبي داود والترمذي فقط. أ.هـ.

٧٣٨ - أخرجه ابن أبي شيبه؛ كما في «تخريج الكشاف» لابن حجر:

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبه حدثنا عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب: «أن أبا بكر بعث عكرمة بن أبي جهل ممدداً للمهاجرين أبي أمية، وزیاد بن أسد. فانتهاوا إلى القوم وقد فتح عليهم. قال: فأشركهم في الغنيمة» رواه الواقدي في المغازي: حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم عن عقبة عن الحرث بن فضيل قال: لما جاء كتاب زياد بن لبيد - فذكر نحوه انتهى.

(١) قال محمود: «معناه أن نفير الكافة لطلب العلم غير ممكن... إلخ». قال أحمد: قوله ﴿وَمَا كَانَتْ =

وفيه أنه لو صح وأمكن ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب، لوجوب التفقه على الكافة، ولأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾: فحين لم يمكن نفير الكافة، ولم يكن مصلحة، فهلا نفر، ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي: من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير، ﴿لَيَسْفَفَهُوا فِي الدِّينِ﴾: ليتكلفوا الفقاها فيه، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها، ﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾: وليجعلوا غرضهم ومرمى همّهم في التفقه: إنذار قومهم، وإرشادهم، والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤمنونها من المقاصد الركيكة، من التصدّر، والترؤس، والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم، ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشو داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم^(١) إذا لمح بصره مدرسة لآخر، أو شردمة جثوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم؛ فما أبعد هؤلاء من قوله عزّ وجل: ﴿لَا يُبْدُونَ عُلُوقَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾: إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحاً، ووجه آخر، وهو: أنّ رسول الله - ﷺ - كان إذا بعث بعثاً - بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد - استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمرؤ أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلال بالسيف، وقوله: ﴿لَيَسْفَفَهُوا﴾: الضمير فيه: للفرق الباقية بعد الطواف، النافرة من بينهم، ﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾: ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما/ ١٣٠٩ حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم، وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَدِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ

= الثَّوَمُونَ لَيَسْفَرُوا كَأَفَّةٍ﴾ على التفسير الأول: أمر لا نهى. وعلى الثاني: خبر والمراد به النهي، لأنه في الأول راجع إلى تنفير أهل البوادي إلى المدينة للتفقه، وهذا لو أمكن الجميع فعله لكان جائزاً أو واجباً، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية. وأما في الثاني فلأن المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين وكان ذلك ممكناً بل واقعاً، فنهوا عن إطراح التفقه بالكلية وأمرؤ به أمر كفاية والله أعلم. قال أحمد: ولا أجد في تأخري عن حضور الغزاة عذراً إلا صرف الهمة لتحذير هذا المصنف، فإني تفقّعت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكاييد أهل البدع والأهواء، وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه بلغنا الله الخير، ووفقنا لما يرضيه، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

(١) قوله: «وانقلاب حماليق أحدهم» الحماليق: هي ما يسوده الكحل من باطن الجفن. وقيل: ما غطته الأجفان من بياض المقلة. اهـ من الصحاح (ع).

﴿اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣)

﴿يُلَاقِيكُمْ﴾: يقربون منكم، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم^(١)، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب؛ ونظيره: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، وقد حارب رسول الله - ﷺ - قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشام، وقيل: هم قريظة، والنضير، وفدك، وخيبر، وقيل: الروم؛ لأنهم كانوا يسكنون الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى، وعن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه سئل عن قتال الديلم؟ فقال: عليك بالروم، وقرىء: (غلظة) بالحركات الثلاث، فالغلظة كالشدّة، والغلظة كالضغطة، والغلظة كالسخطة، ونحوه، ﴿وَأَغْلَطْ عَلَيْهِمْ﴾ (التحریم: ٩)، ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ (آل عمران: ١٣٩)، وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال وشدّة العداوة، والعنف في القتل والأسر، ومنه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ (النور: ٢). ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدوه.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٣٤) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٣٥)

﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ﴾: فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾: السورة، ﴿إِيمَانًا﴾: إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين، واعتقادهم زيادة الإيمان: بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به، وأيكم: مرفوع بالابتداء، وقرأ عبيد بن عمير: «أيكم»، بالفتح على إضمار فعل يفسره، (زادته): تقديره: «أيكم زادت زادته هذه إيماناً»، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾؛ لأنها أزيد لليقين والثبات، وأثلج للصدر، أو: «فزادتهم عملاً»، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان؛ لأنّ الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾: كفراً مضموماً إلى كفرهم؛ لأنهم كلما جدّدوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقاً، ازداد كفرهم، واستحكم، وتضاعف عقابهم.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ

(١) قال أحمد: «القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم... إلخ» قال أحمد: يتعين القتال على أحد فريقين: إما من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه، ثم على من قرب منهم حتى يكتفوا. وإما من عينهم الإمام لذلك وإن بعدت بهم الدار. وإذا أوجب الله على هذه الأمة القتال وإزعاج العدو من دياره وإخراجه من قراره، فوجوبه وقد نزل العدو بدار الإسلام أجدر.

يَذْكُرُونَ ﴿١٧٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ آحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٧٧﴾

قرىء: «أو لا يرون»، بالياء والتاء، ﴿يَنْتَوِرُونَ﴾: يبتلون بالمرض، والقحط، وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون، ولا يتوبون عن نفاقهم، ولا يذكرون، ولا يعتبرون، ولا ينظرون في أمرهم، أو يبتلون في الجهاد مع رسول الله - ﷺ - ويعاينون أمره، وما ينزل الله عليه من نصرته، وتأييده، أو يفتنهم الشيطان، فيكذبون، وينقضون العهد مع رسول الله - ﷺ - فيقتلهم وينكل بهم، ثم لا ينزجرون، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي^(١)، وسخرية به قائلين: ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ آحَدٍ﴾ من المسلمين لننصرف؛ فإننا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك، فنخاف الافضاح بينهم، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لوإذا يقولون: هل يراكم من أحد، وقيل: معناه: إذا ما أنزلت سورة في عيب المناقين/ ٣٠٩ ب ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾: لا يتدبرون حتى يفقهوا.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿١٧٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧٩﴾

﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾: من جنسكم، ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، ثم ذكر مايتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد عليه شاق - لكونه بعضاً منكم - عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه، والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: منكم ومن غيركم، ﴿رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾، وقرىء: «من

(١) قال محمود: «معناه تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي... إلخ» قال أحمد: يحتمل الدعاء كما فسر. ويحتمل الإخبار بأن الله صرف قلوبهم أي منعها من تلقي الحق بالقبول، ولكن الزمخشري يفر من جعله خبراً لأن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده، بناء على قاعدة الصلاح والأصلح، ولا يزال يؤول الظاهر إذا اقتضى ذلك كما مر له في قوله ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلما احتملت هذه الآية الدعاء والخبر على حد سواء، تعين عنده جعلها دعاء، ثم في هذا الدعاء مناسبة الفعل الصادر منهم وهو الانصراف، كقوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) وكقوله ﴿وَيَرْبِصَنَّ بِكُمْ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ ذَايَرَةٌ مَسْئُومَةٌ﴾.

أنفسكم»، أي: من أشرفكم وأفضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله - ﷺ - وفاطمة، وعائشة - رضي الله عنهما - وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله - ﷺ - في قوله: ﴿رَءُوكَ رَجِمْ﴾، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك، فاستعن، وفوض إليه؛ فهو كافيك معرّتهم^(١)، ولا يضرونك، وهو ناصرك عليهم، وقرىء: (العظيم): بالرفع، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: العرش لا يقدر أحد قدره، وعن أبي بن كعب: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

عن رسول الله - ﷺ -: «مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْقُرْآنُ إِلَّا آيَةً آيَةً وَحَرْفًا حَرْفًا، مَا خَلَا سُورَةً بَرَاءَةً وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ؛ فَإِنَّهُمَا أَنْزَلْتَا عَلَيَّ وَمَعَهُمَا سَبْعُونَ أَلْفَ صَفٍّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ» (٧٣٩).

٧٣٩ - تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة، وينظر حديث رقم (٣٤٦). قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من حديث عائشة بإسناد واه. انتهى.

(١) قوله: «فهو كافيك معرّتهم» المعرة: الإثم، كذا في الصحاح (ع).

سُورَةُ يُوسُفَ

مَكِّيَّةٌ، [إِلَّا الْآيَاتِ ٤٠ وَ ٩٤ وَ ٩٥ وَ ٩٦ فَمَدَنِيَّةٌ]

وَهِيَ مِائَةٌ وَتِسْعُ آيَاتٍ [نَزَلَتْ بَعْدَ الْإِسْرَاءِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾

﴿الرَّ﴾: تعديد للحروف على طريق التحدي، و﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾: إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة، و﴿الْحَكِيمِ﴾: ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها، ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثة؛ قال الأعشى [من الكامل]:
وَعَرِيبَةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةً قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ: مَنْ ذَا قَالَهَا؟^(١)
الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه، و﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾: اسم كان، وعجبا؛ خبرها، وقرأ ابن مسعود: عجب، فجعله اسماً وهو نكرة و﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾: خبراً وهو معرفة؛ كقوله [من الوافر]:

يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ.....

(١) للأعشى. أي: ورب قصيدة غريبة حكيمة ناطقة بالحكمة دالة عليها، أو حكيم قائلها، فهو من الإسناد للسبب، لأنها سبب في وصف قائلها بالحكمة. قد قلتها ليتعجب الناس ويقولوا من هذا الشاعر البليغ الذي قالها. وذا: اسم إشارة في لغة الحجاز، واسم موصول في لغة طيء، وهي أقرب هنا، فجملة «قالها» صلة الموصول.
ينظر: ديوانه (٧)، القرطبي (٣٠٥/٨)، الهمع (٨٤/١)، الدرر (٥٩/١).

(٢) كأن سبيثة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غرض من التفاح هصره اجتناء
لحسان بن ثابت قبل تحريم الخمر. والسلافة: أول ما يسيل من ماء العنب. ويروى «سبيثة» أي مشتراة: يقال: سبأ الخمر كنصر، إذا اشتراها. ويروى خبيثة: أي مصونة في الخابية. وبيت رأس: =

والأجود أن تكون «كان»: تامة، وأن أوحينا بدلاً من عجب.

فإن قلت: فما معنى اللام في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك: أكان عند الناس عجباً؟

قلت: معناه: أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم^(١)، دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون/ ٣١٠: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار، ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُونَ مُمْطَيِّينَ لَنُرْسِلَنَّ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٥]، وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب - أيضاً - لأن الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار؛ لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوة، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبا: ٣٧]، والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى، فكيف يكون عجباً؟ إنما العجب العجيب، والمنكر في العقول: تعطيل الجزاء، ﴿أَنَّا نُنْذِرُ النَّاسَ﴾: أن: هي المفسرة؛ لأن الإحياء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه أنذر الناس، على معنى: أن الشأن قولنا أنذر الناس، و﴿أَنَّا لَهُمْ﴾: الباء معه محذوف، ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ

= قرية بالشام. وقيل المراد بالرأس الرئيس، وشرابها أطيّب من غيره، و«مزاجها» خبر يكون مع أنه معرفة. و«عسل» اسمها مع أنه نكرة، وكان القياس العكس فقلب للضرورة. وجوزّه ابن مالك في معمول «كان» و«إن» فلا قلب. وقال الفارسي: إن انتصاب مزاجها على الظرفية المجازية. وروي برفع الكلمات الثلاث، على أن اسم كان ضمير الشأن. وقول ابن السيد: بزيادة «كان» هنا: غير مرض؛ لأن زيادة المضارع لا ترتكب إلا عند الضرورة، ويروى بنصب العسل فقط، فهو خبر ورفع ماء. بتقدير: وخالطها ماء. وجملة الكون صفة سلافة. وعلى أنيابها: خبر «كأن» المشددة. والمزاج: ما يمزج به غيره. والمراد بالأنياب: الشفر كله. والغض: الطري الرطب. والهصر: عطف الغصن وإمالته إليك من غير إبانة لتجني ثمره. والتهصير: مبالغة فيه. وروي «الجناء» بدل «الاجتناء». وهو بالقصر مصدر. لكن مد هنا ضرورة. وإسناد التهصير إلى ذلك مجاز عقلي، من باب الإسناد للسبب. وإيقاعه على التفاح على تقدير مضاف، أي: هصر غصنه. ويروى: أو طعم غصن، فلا تجوز في تهصيره. لكن إضافة طعم إليه على تقدير مضاف. أي طعم ثمر غصن. شبه ريقها بالخمير الجيدة وطعمه بطعم تفاح ميل غصته الجاني ليجتنيه، إشارة إلى أنه مجني الآن لم يمض عليه شيء من الزمان، وتلويحاً لتشبيهه محبوبته بالأغصان في الرقة واللين والميلان.

ينظر: ديوانه (٥٩)، والكتاب (٢٣/١)، والمغني (٥٠٥)، والهمع (١١٩/١)، والدرر (٨٨/١).

(١) قوله: «من أفناء رجالهم» في الصحاح: يقال هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم ممن هو (ع).

رَبِّهِمْ ﴿١﴾ أي: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة^(١).

فإن قلت: لم سميت السابقة قدماً؟

قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تعطى باليد، وباعاً؛ لأن صاحبها يبيع بها، ف قيل: لفلان قدم في الخير، وإضافته إلى صدق؛ دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق، ﴿إِنَّ هَذَا﴾: إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿لَسِحْرٌ﴾: ومن قرأ: «لساحر»؛ فهذا إشارة إلى رسول الله - ﷺ - وهو دليل عجزهم واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً، وفي قراءة أبي: «ما هذا إلا سحر».

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّكُمْ تَبْدُونَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿يُدِيرُ﴾: يقضي، ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحري للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها؛ لئلا يلقاه ما يكره آخرأ، و﴿الْأَمْرُ﴾: أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش.

فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟

قلت: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه، وملكه بخلق السموات والأرض، مع بسطتها واتساعها في وقت يسير، وبالاتواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة؛ لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره؛ وكذلك قوله: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: دليل على العزة والكبرياء؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ١٨]، و﴿ذَلِكُمْ﴾: إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي: ذلك العظيم^(٢) الموصوف بما وصف به هو ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: وحده/ ٣١٠ب، ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فإن أدنى التفكير والنظر بنبهكم على الخطأ فيما

(١) قال محمود: «أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة... إلخ» قال أحمد: ولم يرد في سابقة السوء تسميتها قدماً، إما لأن المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطرداً ولكن غلب العرف على قصرها كما يغلب في الحقيقة، والله أعلم.

(٢) قوله: «ذلك العظيم» لعله ذلكم (ع).

أنتم عليه، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقاءه، ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: مصدر مؤكد لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد؛ لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٦]، ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: استئناف، معناه: التعليل لوجوب المرجع إليه، وهو: أَنَّ الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم، وقرئ: «أنه يبدؤ الخلق»، بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله، أي: وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه، وقرئ: وعد الله، على لفظ الفعل، «ويبدئ»، من أبدأ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً، أي: حق حقاً بدأ الخلق؛ كقوله [من الطويل]:

أَحَقُّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ جَائِئِيَا وَلَا ذَاهِبًا إِلَّا عَلَيَّ رَقِيبٌ^(١)
وقرئ: حق أنه يبدؤ الخلق؛ كقولك: حق أن زيداً منطلق، ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، وهو متعلق بيجزي، والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم، أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا، ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً؛ لأنَّ الشرك ظلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والعصاة: ظلام أنفسهم، وهذا أوجه؛ لمقابلة قوله: ﴿يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

الباء في ﴿ضِيَاءً﴾: منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها، وقرئ: «ضاء» بهمزتين بينهما ألف على القلب، بتقديم اللام على العين، كما قيل في عاق: «عقا»، والضياء أقوى من النور، ﴿وَقَدَرُ﴾: وقدر القمر، والمعنى: وقدر مسيره، ﴿مَنَازِلَ﴾: أو قدره ذا منازل؛ كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. ﴿وَالْحِسَابَ﴾: وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي، ﴿ذلك﴾: إشارة إلى المذكور، أي: ما خلقه إلا ملتبساً بالحق

(١) أحقا عباد الله أن لست جائئياً ولا ذاهباً إلا علي رقيب
ولا زائراً فرداً ولا في جماعة من الناس إلا قيل: أنت مريب

لعبد الله بن المدينة الخثعمي. وقيل: لقيس بن الملوح. قال المزموقي: أحقا انتصب عند سبويه على الظرفية، كأنه قال: أفي الحق ذلك، لأنهم كثيرا ما يقولون: أفي الحق كذا. وعند المبرد على المفعولية المطلقة، أي أحق ذلك حقاً، لأنه مصدر، وعباد الله: منادى. وروي: أن لست وارداً ولا صادراً. والمعنى واحد. والرقيب: المانع من لقاء الحبيب. ويجوز أن يراد به ما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي مناظر حاضر أو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾. ينظر: ديوانه ص (١٠٣)، وشرح ديوان الحماسة للمزموقي ص (١٣٦٤)، وشرح الأشموني (٢/ ٣٠٢)، والبحر (٥/ ١٢٤)، والطبري (١٥/ ٢١).

الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً، وقرئ: «يفصل»، بالياء.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦)

خص المتقين؛ لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) ﴿أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨)

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: لا يتوقعونه أصلاً، ولا يخطرונה ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم، المذهلة بالذات وحب العاجل عن التفتن للحقائق، أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: من الآخرة، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي؛ كقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨]. ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾: وسكنوا فيها سكون من لا يزجج عنها، فبنوا شديداً، وأملوا بعيداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٩) ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَأٰخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة^(١) على سلوك السبيل المؤدي إلى / ٣١١ الثواب؛ ولذلك جعل: ﴿تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: بياناً له وتفسيراً؛ لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، ومنه الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُورَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ، فَيَكُونُ لَهُ نُورٌ وَقَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْكَافِرُ إِذَا خَرَجَ مِنْ

(١) قال محمود: «معناه يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة... إلخ» قال أحمد: هو يقرر بذلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح، وأن من لم يعمل مخلصاً في النار كالكاfer، وأنه له ذلك وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان، فقال ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وقول الزمخشري «أن المراد إضافة العمل» لا ينتهز عن حيز الدعوى، فإن الله لم يعلل بغير الإيمان وإن جرى لغيره ذكر أو لا فلا يلزم إجراؤه ثانياً ولا محوج إليه. وشبهته أن الإيمان المجهول سبب مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ الصلاح قيماً في التسبب، وهو ممنوع؛ فإن الضمير إنما يعود على الذوات لا باعتبار الصفات وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال وأشكال، والله الموفق.

قَبْرِهِ صُورَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ» (٧٤٠).

فإن قلت: فلقد دلت هذه الآية على أنَّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية، والتوفيق، والنور ويوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح، والإيمان الذي لم يقرب بالعمل الصالح، فصاحبه لا توفيق له ولا نور، قلت: الأمر كذلك؛ ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها بين الإيمان والعمل، كأنه قال: إنَّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم، أي: بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح، وهو بين واضح لا شبهة فيه، ﴿دَعَوْهُمْ﴾: دعاؤهم؛ لأن «اللهم»: نداء لله، ومعناه: اللهم، إنا نسبحك؛ كقول القانت في دعاء القنوت: اللهم، إياك نعبد ولك نصلي ونسجد، ويجوز أن يراد بالدعاء: العبادة، ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: على معنى أنَّ لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة؛ إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ آيَاتٍ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَاهُمْ﴾: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح، ﴿أَنْ﴾: يقولوا: ﴿أَلْحَسَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ومعنى: ﴿وَنَحْنُ فِيهَا سَلَمٌ﴾: أنَّ بعضهم يحيي بعضاً بالسلام، وقيل: هي تحية الملائكة إياهم، إضافة للمصدر إلى المفعول، وقيل: تحية الله لهم، «وأن» هي المخففة من الثقيلة، وأصله: «أنه الحمد لله»، على أن الضمير للشأن؛ كقوله [من البسيط]:

..... أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَخْفَى وَيَشْتَعِلُ^(١)

٧٤٠ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١٧/٧) رقم (٣٤٦٣٢)، من طريق أبي خالد الأحمر عن عمرو ابن قيس عن عطية عن ابن عمر موقوفاً. وأخرجه الطبري في تفسيره (٥٣٤/٦) رقم (١٧٥٧٣)، من طريق بشر عن يزيد عن سعيد عن قتادة مرفوعاً. ومن طريق الطبري ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٣٨/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة به. ونقله الثعلبي عن مجاهد ومقاتل عن النبي ﷺ، وسنده إليهما في أول كتابه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١١٩/٢).

قال الحافظ: أخرجه الطبري من طريق سعيد عن قتادة قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أخرج من قبره - فذكره»، وروى ابن أبي شيبة من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن ابن عمر قال: «يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره عمله في أحسن صورة. فذكر نحوه بتمامه - انتهى».

(١) وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول
في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يخفى وينتعل
للأعشى ميمون بن قيس. والханوت: محل البيع والشراء. والمراد: محل بيع الطعام والشراب. =

وقرىء: «أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ»، بالتشديد، ونصب الحمد.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)

أصله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾: تعجيله لهم الخير، فوضع ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾: موضع تعجيله لهم الخير^(١)؛ إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد: أهل مكة، وقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء، يعني: ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه، ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾: لأميتوا وأهلكوا، وقرىء: «لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ»، على البناء للفاعل، وهو الله - عز وجل - وتنصره قراءة عبد الله: «لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ».

فإن قلت: فكيف اتصل به قوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾/ ٣١١ ب وما معناه؟

قلت: قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ﴾: متضمن معنى نفي التعجيل؛ كأنه قيل: ولا نعجل

= يتبعني شاو: أي غلام يشوي اللحم. مثل: أي مسرع. شلول: خفيف في العمل: شلشل: بالضم، أي ماض في الخدمة وقضاء الحوائج: شول - ككتف - خفيف في العمل. وقيل: مخرج اللحم من القدر. في فنية: أي حال كوني مع فتیان كسيوف الهند في إنفاذ العزائم في المكارم. أو في بياض الوجوه وتهللها. والأول أنسب بقوله: قد علموا أنه، أي الحال والشأن. هالك وفان كل حاف: غير لابس للنعل، ومتنعل: لابس له، وهما كناية عن الفقير والغني، وإذا استويا في الغنى فلا معنى للبلل الذي لا يوجب البقاء. ويجوز أنهما كناية عن جميع الناس مبالغة في التعميم. ينظر ديوانه ص ١٠٩، والأزهية ص ٦٤، والإنصاف ص ١٩٩، وتخليص الشواهد ص ٣٨٢، وخزانة الأدب ٤٢٦/٥، ٣٩٠/٨، ٣٩٣/١٠، ٣٥٣/١١، ٣٥٤، والدرر ١٩٤/٢، وشرح أبيات سيبويه ٧٦/٢، والكتاب ١٣٧/٢، ٧٤/٣، ١٦٤، ٤٥٤، والمحتسب ٣٠٨/١، ومغني اللبيب ١/ ٣١٤، والمقاصد النحوية ٢٨٧/٢، والمنصف ١٢٩/٣، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٣٩١/١٠، ورصف المباني ص ١١٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٧١/٨، والمقتضب ٩/٣، وجمع الهوامع ١٤٢/١.

(١) قال محمود: «فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً أو مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة. والنحاة غايته أن يقولوا في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أُنْتَكِرُ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٢) أنه أجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة. أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره: نبت نباتاً، ولا يزيدون على ذلك، وإذا راجع الفطن قريحته وناجى فكرته، هل قرن المصدر في كتاب الله بغير فعله لفائدة أو لا - تسور بلفظ النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها، فالفائدة - والله أعلم - في اقتران قوله (نباتاً) بقوله (أنبتكم) التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور، وسرعة إمضاء حكمها حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم أي إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتماً فكان أحد الأمرين عين الآخر قرن به والله أعلم.

لهم الشر، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: فتمهلهم، ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم؛ إلزاماً للحجة عليهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢)

﴿لِجَنبَيْهِ﴾: في موضع الحال؛ بدليل عطف الحاليين عليه، أي: دعانا مضطجعا، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾.

فإن قلت: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟

قلت: معناه: أن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها - إن كان منبطحاً عاجز النهض^(١) متخاذل النوء^(٢)، أو كان قاعداً لا يقدر على القيام، أو كان قائماً لا يطيق المشي والمضطرب - إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة^(٣) بتمامها، ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود، ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء؛ لأن الإنسان للجنس، ﴿مَرَّ﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر، ونسي حال الجهد، أو مرّ عن موقف الإبتهاال والتضرع لا يرجع إليه، كأنه لا عهد له به، ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾: كأنه لم يدعنا، خفف وحذف ضمير الشأن؛ قال [من الهزج]:

كَأَن تَذِيَاهُ حُمَّانٍ^(٤)

(١) قوله: «عاجز النهض» نهض نهضاً ونهوضاً: قام (ع).

(٢) قوله: «متخاذل النوء» في الصحاح: ناء ينوء نوءاً إذا نهض بجهد ومشقة (ع).

(٣) قوله: «والمسحة» في الصحاح: وعلى فلان مسحة من جمال (ع).

(٤) ونحر مشرق اللون كأن ثدياه حقان

أي: ورب نحر. ويروى بالرفع عطفاً على شيء تقدم، أي ولها. والنحر: موضع القلادة من الصدر. ويروى: وصدر مشرق، أي أبيض مضيء. ويروى: وصدر مشرق النحر. ويروى: ووجه مشرق اللون، وكان مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وقال أبو حيان: لا حاجة للإضمار عند الإهمال. وروي: كأن ثدييه بالإعمال مع التخفيف وهو قليل. وإضافة الثديين لضمير النحر للملاسة ولضمير الوجه على تقدير مضاف أي: ثديا صاحبتة. والحقان: ثنية حق وهو ما يعمل من العاج ونحوه، يوضع فيه أعز الأشياء. وقيل ثنية حقة، وحذفت منه التاء. ينظر الإنصاف ١/١٩٧، وأوضح المسالك ١/٣٧٨، ولسان العرب (أنن)، والكتاب ٢/١٣٥، وخزانة الأدب ١٠/٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٤، والدرر ٢/١٩٩، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/٨٢، وشرح التصريح ١/١٣٤، وشرح شذور الذهب ص ٣٦٩، وتخليص الشواهد =

﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذلك التزيين، ﴿زَيْنَ لِلْمُتَرَفِّينَ﴾: زين الشيطان بوسوسته أو الله بخذلانه وتخليته، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾
 كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿لَمَّا﴾: ظرف لأهلكنا، والواو في ﴿وَجَاءَهُمْ﴾: للحال، أي: ظلموا بالتكذيب، وقد جاءتهم رسلهم بالحجج، والشواهد على صدقهم وهي المعجزات، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾: يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا؛ وأن يكون اعتراضاً، واللام لتأكيد النفي، يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً؛ تأكيداً لنفي إيمانهم، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعد منهم، والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن أُلزموا الحجة ببعثة الرسل، ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذلك الجزاء، يعني: الإهلاك، ﴿نَجْزِي﴾: كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله - ﷺ - وقرئ: «يجزي»، بالياء، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾: الخطاب للذين بعث إليهم محمد - ﷺ - أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا، ﴿لِنَنْظُرَ﴾: أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم، و﴿كَيْفَ﴾: في محل النصب بتعملون لا ينتظر؛ لأن معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدم عليه عامله.

فإن قلت: كيف جاز النظر على الله - تعالى - وفيه معنى المقابلة^(١)؟

قلت: هو مستعار للعلم المحقق، الذي هو العلم بالشيء/ ٣١٢ موجوداً شبه بنظر الناظر، وعيان المعاین في تحقيقه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

= ص ٣٨٩، والجني الداني ص ٥٧٥، وشرح ابن عقيل ص ١٩٧، وشرح قطر الندى ص ١٥٨، وشرح الأشموني ١٤٧/١، والمقاصد النحوية ٣٠٥/٢، والمنصف ١٢٠٨/٣، وجمع الهوامع ١/١٤٣، والدر المصون ٣٩٠/٢.

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاز النظر على الله تعالى... إلخ» قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هذين النزعتين عقيدة طائفة من القدريّة، يقولون: إن الله لا يرى ولا يُرى، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وتقدم إبطال دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة والجسمية فلا نعيده، والله الموفق.

عَصِيَّتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

غاضهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالوا: ﴿أَنْتَ يَقْرَأُكَ﴾: آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك تتبعك، ﴿أَوْ بَدَلُهُ﴾: بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها، فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة، وأما الإتيان بقرآن آخر، فغير مقدور عليه للإنسان، ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾: ما ينبغي لي وما يحل؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ يَلْقَائِي نَفْسِي﴾: من قبل نفسي، وقرئ: بفتح التاء من غير^(١) أن يأمرني بذلك ربي، ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُؤْتِي إِلَهَ﴾: لا آتي ولا أذر شيئاً من نحو ذلك، إلا متبعاً لوحي الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بدلت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس إليّ تبديل ولا نسخ، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾: بالتبديل والنسخ من عند نفسي: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. فإن قلت: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: ﴿أَنْتَ يَقْرَأُكَ غَيْرَ هَذَا؟﴾

قلت: بلى، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: لو نشاء لقلنا مثل هذا، ويقولون: افترى على الله كذباً، فينسبونهُ إلى الرسول، ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله، مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصاحتها وبلغائها إذا عجزوا عنه، كان الواحد منهم أعجز.

فإن قلت: لعلهم أرادوا: «أنت بقرآن غير هذا أو بدله»، من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته، وأراد بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾: ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبدله. قلت: يرده قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾.

فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت: الكيد والمكر، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنت قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال، وأنه إن وجد منه تبديل، فإما أن يهلكه الله فينجو منه، أو لا يهلكه فيسخره منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافتراءه على الله.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيَّكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

(١) قوله: «من غير» لعله «أي من غير» (ع).

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجبياً خارجاً عن العادات، وهو: أن يخرج رجل أُمي لم يتعلم، ولم يستمع، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً، يبهر كل كلام فصيح، ويعلو على كل منشور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ/ ٣١٢ ب بين طهرانيكم^(١) أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسرارهِ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به، ﴿وَلَا أُذَرِّكُمْ بِهِ﴾: ولا أعلمكم به على لساني، وقرأ الحسن: «ولا أدراتكم به»، على لغة من يقول: أعطاته وأرضاته، في معنى: أعطيته وأرضيته؛ وتعضده قراءة ابن عباس: «ولا أنذرتكم به»، ورواه الفراء «ولا أدراتكم به»، وبالهمز، وفيه وجهان:

أحدهما: أن تقلب الألف همزة، كما قيل: لبأت بالحج، ورثأت الميت وحلأت^(٢) السويق؛ وذلك لأنَّ الألف والهمزة من واد واحد؛ ألا ترى أنَّ الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة.

والثاني: أن يكون من درأته إذا دفعته، وأدراته إذا جعلته دارئاً، والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤوني بالجدال وتكذبونني، وعن ابن كثير: «ولأدراكم به»، بلام الابتداء؛ لإثبات الإدراء، ومعناه: لو شاء الله، ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري؛ ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة، ورآني لها أهلاً دون سائر الناس، ﴿فَكَذَّبْتُ بِكُمْ عُمْراً﴾، وقرىء: (عمراً) بالسكون، يعني: فقد أقمت فيما بينكم يافعاً وكهلاً، فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم: «أنت بقرآن غير هذا» من إضافة الافتراء إليه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ﴾

﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: يحتمل أن يريد: افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافوه إليه من الافتراء.

(١) قوله: «ظهرانيكم» في الصحاح: ظهرانهم - بفتح النون (ع).

(٢) قوله: «وحلأت» أي جعلته حلوأ (ع).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشَاءُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾: الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضرر، وقيل: إن عبدوها لم تنفعهم، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة، معاقباً على المعصية، وكان أهل الطائف: يعبدون اللات، وأهل مكة: العزى، ومناة، وهبل، وأسافا، ونائلة، ﴿و﴾: كانوا ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: وعن النضر بن الحارث: إذا كان يوم القيامة، شفعت لي اللات والعزى، ﴿أَتَشَاءُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ﴾: أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات، لم يكن شيئاً؛ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه، فكان خبراً ليس له مخبر عنه.

فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟

قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأن الذي أنبؤوا به باطل غير منطوق تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل / ٣١٣ بما لا يعلمه، وقرئ: «أتنبئون»، بالتخفيف، وقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: تأكيد لنفيه؛ لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم، ﴿تُشْرِكُونَ﴾: قرئ بالتاء والياء، وما: موصولة أو مصدرية، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩) ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠)

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم؛ وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل، وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾: وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة، ﴿لَفُتِي بَيْنَهُمْ﴾: عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير؛ لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب، وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا﴾: أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وكانوا

لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة، التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر، بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط، حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه؛ وذلك لفرط عنادهم، وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغي؛ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به، يعني؛ أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو، ﴿فَأَنْتَظِرُوا﴾: نزول ما اقترحتموه، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾: لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي عَائِيَانَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾

سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم، طفقوا يطعنون في آيات الله، ويعادون رسول الله - ﷺ - ويكيدونه؛ و«إذا» الأولى: للشرط، والآخرة: جوابها، وهي للمفاجأة، والمكر: إخفاء الكيد وطيه، من الجارية المذكورة المطوية الخلق، ومعنى ﴿مَسْتَهْمٍ﴾: خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم.

فإن قلت: ما وصفهم بسرعة المكر، فكيف صح قوله: ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؟

قلت: بلى، دلت على ذلك كلمة المفاجأة؛ كأنه قال: وإذا رحمتهم من بعد ضراء فاجؤوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رءوسهم من مس الضراء، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم، والمعنى: أن الله - تعالى - دبر عقابكم، وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾: إعلام بأن ما تظنون خافياً مطوياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم، وقرئ: «يمكرون»، بالتاء والياء، وقيل: مكرهم قولهم سقيناً بنوء كذا، وعن أبي هريرة: «إن الله ليصبح/ ٣١٣ ب القوم بالنعمة ويمسيهم بها، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا» (٧٤١).

٧٤١ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١١/٦٦٢): هكذا رواه المصنف موقوفاً، وهو مرفوع، رواه إسحاق بن راهويه في مسنده، والطبري في تفسيره في سورة الواقعة، ومن طريق الطبري رواه الثعلبي؛ كلهم من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة، أو ليمسيهم بها، فيصبح قوم بها كافرين، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» أ. هـ. والحديث أخرجه الطبري (١١/٦٦٢) رقم (٣٣٥٦١).

﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْحِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِسَمِ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قرأ زيد بن ثابت: «ينشركم»، ومثله قوله: ﴿فَأَنْشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر^(١)، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟

قلت: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد «حتى» بما في حيزها، كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه

= قال الحافظ:

أخرجه إسحاق والطبري: والثعلبي من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم، اليماني عن أبي سلمة عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة أو ليمسيهم بها، فيصبح بها قوم كافرون، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» قال محمد: فذكرت الحديث لسعيد بن المسيب فقال: ونحن سمعناه من أبي هريرة. ولمسلم من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريقين بها كافرين، يقولون: الكوكب وبالكوكب مطرنا». انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جعل الكون في الفلك غاية... إلخ» قال أحمد: وهذه أيضاً من نكته التي لا يكتنه حسننها، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها، وذلك عند قوله تعالى ﴿وَأَنْتَلُوا إِلَيْنَا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ وقد استدلل الزمخشري بها لأبي حنيفة في أن الصغير يتلى قبل البلوغ بأن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه، خلافاً لمالك، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ قال الزمخشري: ووجه الاستدلال أن الله تعالى جعل البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغنياً به. واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف بأن المجمعول غاية هو حملة ما في حيز «حتى» من البلوغ مقروناً بإيناس الرشد، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل والآخر بعد، فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء. ويوضح ذلك هذه الآية، فإنه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها، مضافاً إلى ما ذكر معه. ونحن نعلم أن كونهم في الفلك - وذلك أحد ما جعل غاية - متقدم على التسيير وإن كان المجموع واقعاً، كوقوع الحادثة بجملتها بعد الكون في الفلك والله أعلم. وإنما بسطت القول ههنا لفواته ثم، فجدد بما مضى عهداً.

الحادثة، وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج، والظن للهلاك^(١)، والدعاء بالإنجاء.

فإن قلت: ما جواب «إذا»؟ قلت: جاءتها، فإن قلت: فدعوا؟ قلت: بدل من ظنوا؛ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به، فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح، فإن قلت: ما وجه قراءة أم الدرداء: «في الفلكي»، بزيادة ياء النسب؟ قلت: قيل: هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري، ويجوز أن يراد به اللج والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه، والضمير في ﴿جَرَيْنِ﴾: للفلك؛ لأنه جمع فلك كالأسد، في فعل أخى فعل^(٢)، وفي قراءة أم الدرداء: «للفلك»، أيضاً؛ لأن الفلكي يدل عليه، ﴿جَاءَتْهَا﴾: جاءت الريح الطيبة، أي: تلقتها، وقيل: الضمير للفلك، ﴿وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾: من جميع أمكنة الموج، ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أهلكوا جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الهلاك، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾: من غير إشاراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه، ﴿لَنْ أُنَجِّيَنَّا﴾: على إرادة القول، أو لأن: (دعوا): من جملة القول، ﴿يَبْعَثُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: يفسدون فيها، ويعبثون متراقين في ذلك، ممعنين فيه، من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يَعْتَرِ الْحَقُّ﴾، والبغي لا يكون بحق؟

قلت: بلى، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة، وهدم دورهم، وإحراق زروعهم، وقطع أشجارهم، (٧٤٢) كما فعل رسول الله - ﷺ - ببني قريظة، قرىء: «متاع

٧٤٢ - أخرجه البخاري (٦٧/٨): كتاب المغازي: باب حديث بني النضير، حديث (٤٠٢٨)، ومسلم (٣٣٤/٦ - النووي): كتاب الجهاد والسير: باب إجلاء اليهود من الحجاز، حديث (١٧٦٦/٦٢) وأبو داود (١٥٧/٣): كتاب الخراج والإمارة والفيء، حديث (٣٠٠٥). كلهم من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر به. قال الحافظ: متفق على معناه من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - انتهى.

- (١) قوله: «والظن للهلاك» عبارة النسفي: بالهلاك (ع).
 (٢) قوله: «كالأسد في فعل» أي كما جاء «فعل» بالضم في «فعل» بفتحين، كأسد في أسد، جاز مجيء «فعل» بالضم في فعل «بالضم» كفلك في فلك، وذلك لأن «فعلاً بفتحين» و«فعلاً بالضم أخوان، لأنهما يشتركان في الشيء الواحد، كالعرب والعرب والعجم والعجم، والرهب والرهب. فما جاز في أحدهما لا يمنع في الآخر، وقد جاز «فعل» بالضم في «فعل» بالفتح، فليجز «فعل» بالضم في «فعل» بالضم، لأنهما أخوات. كذا في الصحاح، فتأمله.

الحياة الدنيا»، بالنصب.

فإن قلت: ما الفرق بين القراءتين؟

قلت: إذا رفعت كان المتاع خبراً للمبتدأ الذي هو: (بغيتكم)، و﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾: صلته؛ كقوله: ﴿فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ﴾ [القصاص: ٧٦]، ومعناه: إنما بغيتكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم، يعني: بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها، وإذا نصبت: ف﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ خبر غير صلة، معناه: إنما بغيتكم وبال على أنفسكم، و﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: في موضع المصدر المؤكد، كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون الرفع على: هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام، وعن النبي - ﷺ - أنه قال: «لَا تَمَكُزْ وَلَا تُعِنْ مَا كِرَاً، وَلَا تَبْغِ وَلَا تُعِنْ بَاغِيَا، وَلَا تُنْكِثْ وَلَا تُعِنْ نَاكِثًا» (٧٤٣)، وكان يتلوها، وعنه عليه الصلاة والسلام: «أَسْرَعَ الْخَيْرِ ثَوَابًا صَلََةُ الرَّجِمِ، وَأَعْجَلَ الشَّرِّ عِقَابًا الْبَغْيُ وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ» (٧٤٤) وروى: «ثُثْنَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا: الْبَغْيُ،

٧٤٣ - أخرجه ابن المبارك في كتابه «الزهد والرقائق» (ص ٢٥٢) رقم (٧٢٥)، من طريق يونس بن يزيد عن الزهري مرسلًا قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تمكر ولا تُعِنْ مَآكِرًا؛ فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، ولا تبغ ولا تُعِنْ بَاغِيَا؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، ولا تنكث ولا تُعِنْ نَاكِثًا فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

وأخرج الحاكم بعضه في مستدركه (٣٣٨/٢) عن عبيدة بن عبد الرحمن الغطفاني سمعت أبي يحدث عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تعن باغياً، فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾».

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه أ.هـ. وعن الحاكم أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٥/٥) رقم (٦٦٧١).

ومن طريق ابن المبارك رواه الثعلبي في تفسيره في سورة فاطر؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٢١/٢).

قال الحافظ:

أخرجه ابن المبارك في الزهد: أخبرنا يونس بن يزيد عن الزهري: قال «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تمكر ولا تعن مآكراً، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولا تبغ ولا تعن باغياً فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾؛ ولا تنكث ولا تعن ناكثاً، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، وفي مستدرك الحاكم بعضه من حديث أبي بكره مرفوعاً: «لا تبغ ولا تعن باغياً فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾» انتهى.

٧٤٤ - أخرجه ابن ماجه (١٤٠٨/٢): كتاب الزهد: باب البغي، حديث (٤٢١٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٠/٨ - ١١) رقم (٤٥١١٢) كلاهما من طريق معاوية بن إسحاق عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين به.

وله شاهد من حديث أبي بكره:

أخرجه أبو داود (٢٧٦/٤): كتاب الأدب: باب في النهي عن البغي، حديث (٤٩٠٢)، والترمذي =

وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» (٧٤٥)، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - : «لو بغى جبل على جبل
لذلك الباغي» (٧٤٦)، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه [من البسيط]:

= (٦٦٤/٤ - ٦٦٥): كتاب صفة القيامة، حديث (٢٥١١)، وابن ماجه (١٤٠٨/٢): كتاب الزهد:
باب البغي، حديث (٤٢١١)، والحاكم في المستدرک (٣٥٦/٢) و(١٦٢/٤ - ١٦٣)، وقال
الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه اهـ. والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٨) برقم (٦٧)؛
كلهم من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بكرة به.

وأخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده»، والثعلبي في تفسيره كلاهما عن مكحول به؛ كما في
تخريج الكشاف للزيلعي (١٢٢/٢).
قال الحافظ:

أخرجه إسحاق في مسنده عن جرير عن برد بن بسار عن مكحول رفعه: وأعجل الخير قراباً صلة
الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة، تدع الديار بلاقع، ولأبي يعلى من حديث عائشة
بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رفعته، «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم. وأسر الشر عقوبة البغي». انتهى.

٧٤٥ - أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٥٩١)، وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢٢/٢)،
وعزاه إلى إسحاق بن راهويه، والطبراني في معجمه.
قال الحافظ:

أخرجه إسحاق في مسنده، والطبراني من حديث عبد الله بن أبي بكرة عن أبيه. والبخاري في
الأدب المفرد من رواية بكار بن عبد العزيز عن أبيه عن جده رفعه: «كل الذنوب يؤخر الله منها ما
شاء إلى يوم القيامة إلا البغي وعقوق الوالدين، فإنه يعجل لصاحبه في الدنيا قبل الموت». انتهى.

٧٤٦ - أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٢٩١/٥) رقم (٦٦٩٣) عن الأصم عن محمد بن إسحاق
قال: «لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهم دكاً».

قال البيهقي: تابعه فطر عن أبي يحيى القتات. وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (٢/)
٧٧٧ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: لو بغى جبل على جبل لخر الجبل الذي بغى
عليه.

قال ابن عدي: هذا حديث باطل عن ابن أبي ذئب لم يروه غير إسماعيل، وكان يحدث عن الثقات
بالبواطيل، وقال ابن جبان: كان يروي الموضوعات من الثقات لا يحل الرواية عنه. أ.هـ.
وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية أيضاً (٧٧٧/٢) عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس
عن النبي ﷺ أنه قال: لو بغى جبل على جبل لجعله الله دكاً.
قال أبو حاتم: كتبت عنه نحو خمس مائة حديث كلها موضوعة، ولعله قد وضع على الأئمة أكثر
من ثلاثة آلاف حديث.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٤/٣) وعزاه إلى ابن مردويه عن كل من ابن عباس وابن
عمر - رضي الله عنهما - .

وأخرجه ابن المبارك في كتاب «البر والصلة»؛ والبخاري في الأدب المفرد؛ كما في تخريج
الكشاف للزيلعي (١٢٣/٢) عن ابن عباس موقوفاً.
قال الحافظ:

أخرجه البخاري في الأدب حدثنا أبو نعيم حدثنا قطر بن خليفة عن أبي يحيى القتات: سمعت =

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَضْرَعَةٌ فَارْزُقْ فَخَيْرُ فَعَالِ الْمَرْءِ أَغْدَلُهُ
 فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ لَأَنْدَكَ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ^(١)
 وعن محمد بن كعب: «ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر»، قال
 الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
 وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَنْتَهَى
 أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها بعد
 الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التفت وتكاثف، وزين الأرض
 بخضرته ورفيفه^(٢)، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾: فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً، ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ
 زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾: كلام فصيح: جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس، إذا
 أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتسبتها وتزينت بغيرها من ألوان الزين، وأصل:
 (ازَّيَّنَتْ): تزينت، فأدغم، وبالأصل قرأ عبد الله، وقرئ: «وازيَّنت»، أي: أفعلت، من
 غير إعلال الفعل كأغيلت، أي: صارت ذات زينة، «وازيَّنت»، بوزن ابياضت، ﴿قَدِرُوا
 عَلَيْهَا﴾: متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها، رافعون لغلتها، ﴿أَنْتَهَى أَمْرُنَا﴾: وهو
 ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم، ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: فجعلنا
 زرعها، ﴿حَصِيدًا﴾: شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ﴾:

 = مجاهداً عن ابن عباس - رضي الله عنهما - موقوفاً. ورواه ابن المبارك في الزهد عن قطر عن يحيى
 عن مجاهد مرسلأ. ورواه البيهقي في الشعب من طريق الأعمش عن أبي يحيى القتات عن مجاهد
 عن ابن عباس. ورواه ابن مردويه عن أنس - رضي الله عنه - أخرجه ابن جبان في الضعفاء في
 ترجمة أحمد بن الفضل. وقال: إنه كان يضع الحديث. انتهى.

(١) كان المأمون بن الرشيد يتمثل بهما في بغي أخيه عليه، وكرر لفظ البغي تنفيراً عنه، وشبهه
 بالمصرعة لأن صاحبه يرتبك فيه في العاقبة وربما هلك، وربع يربع، إذا لم يتجاوز قدر نفسه.
 فاربع: أي الزم قدرك واعدل في فعلك. والفعال - بالفتح -: غالب في فعل الخير. والمراد هنا
 مطلق الفعل، أي: فخير عمل المرء أقومه، فلو بغي جبل على جبل يوماً من الأيام لعوقب واندك
 منه أعاليه. ويلزم منه اندكاك أسافله. وهذا عقد قول ابن عباس رضي الله عنهما: لو بغي جبل على
 جبل لدك الباغي.

(٢) قوله: «ورفيفه» أي يرمقه وتلاؤه. وشجر رفيف: إذا تددت أوراقه، كذا في الصحاح (ع).

كَأَن لَّمْ يَغْنِ زَرْعُهَا، أَي: لَمْ يَنْبِتْ^(١) عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ لَا بَدَّ مِنْهُ، وَإِلَّا لَمْ يَسْتَقِمِ الْمَعْنَى، وَقَرَأَ الْحَسَنُ: «كَأَن لَّمْ يَغْنِ»، بِالْيَاءِ عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ لِلْمُضَافِ الْمَحذُوفِ، الَّذِي هُوَ الزَّرْعُ، وَعَنْ مِرْوَانَ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى الْمُنْبِرِ: «كَأَن لَمْ تَتَغْنِ بِالْأَمْسِ»؛ مِنْ قَوْلِ الْأَعَشَى [مَنْ الْمُتَقَارِبُ]:

..... طَوِيلَ الشَّوَاءِ طَوِيلَ التَّغْنِ^(٢)

وَالْأَمْسِ: مِثْلُ فِي الْوَقْتِ الْقَرِيبِ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: كَأَن لَمْ تَغْنِ أَنْفَاءً.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَافِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿دَارِ السَّلَافِ﴾: الْجَنَّةُ، أَضَافَهَا إِلَى اسْمِهِ؛ تَعْظِيماً لَهَا، وَقِيلَ: السَّلَامُ: السَّلَامَةُ؛ لِأَنَّ أَهْلَهَا سَالِمُونَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهِ، وَقِيلَ: لَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَهُمْ، وَتَسْلِيمَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا ﴿٢٦﴾﴾ [الْوَاقِعَةُ ٢٦]، ﴿وَيَهْدِي﴾: وَيُوقِفُ، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾: وَهُمْ الَّذِينَ عَلِمَ أَنَّ اللَّطْفَ يَجْدِي عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ مَشِيئَتَهُ تَابِعَةٌ لِحُكْمَتِهِ، وَمَعْنَاهُ: يَدْعُو الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَلَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الْمَهْدِيُونَ.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿الْحُسْنَى﴾: الْمَثُوبَةُ الْحَسَنَى، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: وَمَا يَزِيدُ عَلَى الْمَثُوبَةِ وَهِيَ التَّفْضِيلُ؛

(١) قوله: «أَي لَمْ يَنْبِت» لعله لم يثبت. وفي الصحاح: غني بالمكان أي أقام، وغني أي عاش.

(٢) وكنت امرأ زمنأ بالعراق طویل الشواء طویل التغن

فأنبئت قيساً ولم آته على نأيه ساد أهل اليمن

فجئتكَ مرتاداً ما أخبروا ولولا الذي خبروا لم ترون

للأعشى، يستمنح قيس بن معد يكرب ويقول: وكنت رجلاً طویل الشواء في العراق، طویل التغني فيه دهرأ طویلأ، فزمنأ: ظرف. ويجوز قراءته: زمنأ، كحذر: أي هرم. والشواء: الإقامة. وغني بالمكان يغني، كرضى يرضى: أقام ومكث. وقد يقال: تغني تغنيأ كترضى ترضىأ، إذا تمكث وتلبث. فالتغني - بالتشديد -: مصدر حذف لأمه عند الوقف وإن كان حذفها قليلاً فأنبئت قيساً والحال أني لم أجنه: مع أنه ناء أي بعيد عني، أي مع بعده ساد أهل اليمن بجوده وكرمه على أهل الأرض، فجملة «ساد» في محل المفعول الثاني، ثم بعد ما قدم المدح التفت إلى خطابه بقوله: فجئتكَ مرتاداً ومتعرفاً ومتطلباً لما أخبروا به من كرمك وجودك، وإضافة مرتاد للموصول لا تفيد التعريف؛ لأنها إضافة الوصف لمعموله لفظياً، فصح وقوعه حالاً، ولولا الذي خبروني به لم تنظرني عندك ولم أجى إليك. وروي: ولم أبله، من بلاء يبلوه إذا اختبره. وروي خبر أهل اليمن أي أنبئته والحال أني لو أختبره أفضل أهل اليمن، فجئتكَ مختبراً لحالك. ينظر: ديوانه ص (٢٥).

ويدل/ ٣١٤ ب عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨]، وعن علي - رضي الله عنه -: «الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «الحسنى»: الحسنة، والزيادة: عشر أمثالها، وعن الحسن - رضي الله عنه -: «عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف»، وعن مجاهد - رضي الله عنه -: «الزيادة: مغفرة من الله ورضوان»، وعن يزيد بن شجرة: «الزيادة: أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطرکم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم، وزعمت المشبهة والمجبرة^(١) أن الزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى -^(٢) وجاءت بحديث مرقوع^(٣): «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ تُودُوا: أَنْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ، مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئاً هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ» (٧٤٧) ﴿وَلَا يَرَهُوْا﴾

٧٤٧ - أخرجه مسلم (١٩/٢ - ٢٠ - النووي): كتاب الإيمان: باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى حديث (٢٩٧/١٨) والترمذي (٦٨٧/٤): كتاب صفة الجنة: باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى، حديث (٢٥٥٢)، وقال: هذا حديث إنما أسنده حماد بن سلمة ورفعه، وابن ماجه (٦٧/١) المقدمة، حديث (١٨٧).

كلهم من طريق ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ به.
قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٢٤/٢):

والعجب أن الترمذي لما روى هذا الحديث في كتابه، لم يحسنه ولم يصححه ولا قال: وفي الباب عن أحد من الصحابة، وإنما قال: هكذا رفعه حماد بن سلمة، وقد رواه سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قوله، لم يذكر فيه عن صهيب، عن النبي ﷺ أ.هـ.

(١) قوله: «وزعمت المشبهة والمجبرة» يريد أهل السنة القائلين بجواز رؤيته تعالى ووقوعها في الآخرة، خلاف المعتزلة في ذلك (ع).

(٢) ذكر محمود في الزيادة تفاسير كثيرة، ثم قال: «وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى... إلخ». قال أحمد: نسبة تفسير الزيادة برؤية الله تعالى إلى زعم أهل السنة الملقين عنده بالمشبهة والمجبرة: مرور على ديدنه المعروف في التكذيب بما لم يحط به علماً، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة، والحديث المروي فيه مدون في الصحاح متفق على صحته، وقد جعل أهل السنة جاؤوا به من عند أنفسهم، ومن قبل قال المصرون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، حملاً له على أنه جاء به من عنده، فلا أهل السنة إذا أسوة بصاحبها، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، فابتلاء الحق بالباطل قديم، والله الموفق. وإن في قوله تعالى على أثر ذلك ﴿وَلَا يَرَهُوْاْ وَهُمْ قَرَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ﴾ مصداقاً لصحة هذا التفسير، فإن فيه تنبيهاً على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى فجدير بهم ألا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب، عكس المحرومين المحجوبين فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد. نسأل الله الكفاية. فأولئك يغشى وجوههم أنوار المشاهدة، وهؤلاء يغشى وجوههم كقطع الليل المظلم، منهم شقي وسعيد.

(٣) قوله: «بحديث مرقوع بالقاف، أي مفتري، كذا قيل. وهو في مقابلة المرفوع بالفاء، أي المضاف إلى النبي ﷺ».

وَجُوهَهُمْ: لا يغشاهما، ﴿قَرَّ﴾: غبرة فيها سواد، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾: ولا أثر هوان وكسوف بال، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إذكاراً بما ينقذهم منه برحمته؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تَرَهَّقَهَا قَرَّةٌ﴾ [عبس: ٤١]، ﴿وَتَرَهَّقَهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَتَرَهَّقَهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧)

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا﴾، وكيف يتلاءم؟

قلت: لا يخلو، إما أن يكون: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾: معطوفاً على قوله: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾؛ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، وإما: أن يقدر: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزداد عليها، وهذا أوجه من الأول؛ لأن في الأول عطفاً على عاملين، وإن كان الأخفش يجيزه، وفي هذا دليل على أن المراد بالزيادة الفضل؛ لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله، وقرئ: «يرهقهم ذلة»، بالياء، ﴿مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي: لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه، ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، ﴿مُظْلِمًا﴾: حال من الله، ومن قرأ (قطعا) بالسكون من قوله: (بقطع من الليل)، جعله صفة له؛ وتعضده قراءة أبي بن كعب: «كانما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم».

فإن قلت: إذا جعلت مظلماً حالاً من الليل، فما العامل فيه؟

قلت: لا يخلو إما أن يكون: (أغشيت) من قبل إن (من الليل): صفة لقوله: (قطعا)، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وأما: أن يكون معنى الفعل في: (من الليل)^(١).

قال الحافظ:

قال الطيبي: قوله «مرفوع» هو عنده بالقاف، أي مرقع معدي. وهو عند أهل السنة بالقاف اهـ. وقد أخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. ورواه الترمذي وقال: كذا رفعه حماد بن سلمة. وقد رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قوله. انتهى. وفي الباب عن أبي موسى مرفوعاً أخرجه الطبراني في مسند الشاميين. وللطبري. وعن ابن عمر وأنس أخرجهما ابن مردويه بإسنادين ضعيفين. وعن أبي بكر الصديق أخرجه إسحاق في مسنده من رواية عامر بن سعد عنه. وعن ابن عباس وعلى أخرجهما ابن مردويه أيضاً. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «أما الوجه الأول فهو بعيد، لأن الأصل أن يكون العامل في =

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨)

﴿مَكَانَكُمْ﴾: الزموا مكانكم، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم^(١)، و﴿أَنْتُمْ﴾: أكد به الضمير في مكانكم؛ لسدّه مسدّ قوله: الزموا، ﴿وَشُرَكَائُكُمْ﴾: عطف عليه، وقرئ: (وشركاءكم) على أنّ الواو بمعنى: مع، والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل؛ ﴿فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ﴾: ففرّقنا بينهم، وقطعنا أقرانهم، والوصل^(٢) التي كانت بينهم في الدنيا، أو: فباعدنا بينهم بعد/ ٣١٥ الجمع بينهم في الموقف، وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم؛

= الحال هو العامل في ذي الحال، والعامل في «مِنَ اللَّيْلِ» هو الاستقرار «وَأَغْشَيْتُ» عامل في قوله: «قِطْعًا» الموصوف بقوله: «مِنَ اللَّيْلِ» فاختلفا، فلذلك كان الوجه الأخير قطعاً مستقرة من الليل أو كائنة من الليل في حال إظلامه. قُلْتُ: ولا يَغْنِي الزمخشري بقوله: إنّ العامل «أَغْشَيْتُ» إلا أنّ الموصوف وهو قِطْعًا معمول لـ «أَغْشَيْتُ»، والعامل في الموصوف هو عامل في الصفة، والصفة هي «مِنَ اللَّيْلِ» فهي معمول لـ «أَغْشَيْتُ»، وهي صاحبة الحال، والعامل في الحال هو العامل في ذي الحال فجاء من ذلك أن العامل في الحال هو العامل في صاحبها بهذه الطريقة، ويجوز أن يكون «قِطْعًا» جمع: قِطْعَةٍ أي: اسم جنس فيجوز حينئذٍ وصفه بالتذكير نحو «نَخْلٌ مُنْقَعِرٌ»، والثانيث نحو: «نَخْلٌ حَاقِيَةٌ»، وأما قراءة الباقرين فقال مكّي وغيره: «إِنْ مُظْلِمًا». حال من «اللَّيْلِ» فقط، ولا يجوز أن يكون صفة لـ «قِطْعًا» ولا حالاً منه، ولا من الضمير في «مِنَ اللَّيْلِ»، لأنه كان يجب أن يُقَالَ فيه: مُظْلِمَةٌ قُلْتُ: يعنون أن الموصوف حينئذٍ جمع، وكذا صاحب الحال، فتجب المطابقة، وأجاز بعضهم ما منعه هؤلاء وقالوا: جاز ذلك، لأنه في معنى الكثير، وهذا فيه تَعَسُّفٌ، وقرأ أبي: «تَغَشَّى وَجُوهَهُمْ قِطْعٌ» بالرفع «مُظْلِمٌ» وقرأ ابن أبي عبيدة كذلك، إلا أنه فتح الطاء وإذا جعلت «مُظْلِمًا» نعتاً لـ «قِطْعًا» فتكون قد قدمت النعت غير الصريح على الصريح، قال ابن عطية: فإذا كان نعتاً يعني: «مُظْلِمًا» نعتاً لـ «قِطْعٌ» فكان حقه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيء بعد هذا وتقدير الجملة: قطعاً استقر من الليل مظلماً على نحو قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾. انتهى. الدر المصون.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وتقديره له بـ «الزموا» ليس بجيد، إذ لو كان كذلك لتعدى كما يتعدى ما ناب هذا عنه، فإنّ اسم الفعل يعامل معاملة مسماه، ولذلك لما قدروا «عَلَيْكَ» بمعنى: الزم عدوه تعديته نحو: «عَلَيْكَ زَيْدًا» وعند الحوفي: «مَكَانَكُمْ» نصب بإضمار فعل، أي: «الزموا مكانكم أو اثبتوا». قُلْتُ: فالزمخشري قد سبق بهذا التفسير، والعذر لمن فسره بذلك أنه قصد تفسير المعنى، وكذلك فسره أبو البقاء فقال: «مَكَانَكُمْ» ظرف مبني لوقوعه موقع الأمر، أي: «الزموا». وهذا الذي ذكره من كونه مبنيًا فيه خلاف للنحويين منهم من ذهب إلى ما ذكر، ومنهم من ذهب إلى أنها حركة إعراب، وهذان الوجهان مبنيان على خلاف في أسماء الأفعال هل لها محل من الإعراب أو لا؟ فإن قُلْنَا: لها محل كانت حركات الظرف حركات إعراب، وإن قُلْنَا لا موضع لها كانت حركات بناء، انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «أقرانهم» مفردة «قرن» بالتحريك وهو حبل يقرن به البعيران، كما في الصحاح. قوله: «والوصل» مفردة «وصلة» أي اتصال وذريعة، كما في الصحاح أيضاً (ع).

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴿[غافر: ٧٣، ٧٤]. وقرئ: فزايلا بينهم؛ كقولك: صاعر خذه وصعره، وكالمتة وكلمته، ﴿مَا كُنْتُمْ إِذَا تَعْبُدُونَ﴾: إنما كنتم تعبدون الشياطين؛ حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعتموهم.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿إِنْ كُنَّا﴾: هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وهم: الملائكة، والمسيح، ومن عبده من دون الله من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله - عز وجل - تشافهم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم، ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المقام وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان، ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾: تختبر وتذوق، ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾: من العمل فتعرف كيف هو، أقبيح أم حسن؛ أنافع أم ضار، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ليكتنه حاله؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّرَّارُ﴾ (١) [الطارق: ٩]، وعن عاصم: «نبلو كل نفس»، بالنون ونصب كل، أي نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل، فنعرف حالها بمعرفة حال عملها؛ إن كان حسناً فهي سعيدة، وإن كان سيئاً فهي شقية، والمعنى: نعمل بها فعل الخبر؛ كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ احْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء، وهو العذاب: كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، وقرئ: «اتلوا»، أي: تتبع ما أسلفت؛ لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر، ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾: ربهم الصادق ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو: الذي يتولى حسابهم وثوابهم، العدل الذي لا يظلم أحداً، وقرئ: «الحق»، بالفتح على تأكيد قوله: ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾؛ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أو على المدح؛ كقولك: الحمد لله أهل الحمد، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله، أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون الكذب وشفاعة الآلهة.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَقُولُ لَا نَحْنُ الْمَعْنِيَّةِ﴾ (٢١) وَمَنْ يَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَمَنْ يَحْيِي الْمَيِّتَ مِنَ الْأَمْيَاتِ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَقُولُ لَا نَحْنُ الْمَعْنِيَّةِ ﴿٢٢﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَحَقَّقُوا الْغُرُوبَ فَكَانَ الْغُرُوبُ يَوْمَ يَصْعَدُ الْفُلُ عَلَى الْخُرُوبِ ﴿٢٣﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: يرزقكم منهما جميعاً^(١)، لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيخس عليكم نعمته ويوسع رحمته، ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ﴾: من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويها عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميها ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيها أدنى شيء بكلاءته وحفظه، ﴿وَمَنْ يَدِيرُ الْأَشْرَءُ﴾: ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه / ٣١٥ ب فيما أنتم بصده من الضلال، ﴿فَذَلِكُمْ﴾: إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله، ﴿رَبُّكُمْ أَلْحَقُ﴾: الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر، ﴿فَمَاذَا بَدَأَ الْحَقُّ إِلَّا الصُّلْبَ﴾: يعني: أن الحق والضلal، لا واسطة بينهما؛ فمن تخطى الحق، وقع في الضلال، ﴿فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ﴾: عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء، ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذلك الحق، ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق؛ فكذاك حقت كلمة ربك، ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾: أي: تمرّدوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، و﴿أَنْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بدل من الكلمة، أي: حق عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان، وأن إيمانهم غير كائن، أو: أراد بالكلمة: العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون تعليل، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَبَّعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فإن قلت: كيف قيل لهم: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾، وهم غير معترفين بالإعادة؟

قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن رفعه دافع كان مكابراً؛ راداً للظاهر البين، الذي لا مدخل للشبهة فيه؛ دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لنبية - ﷺ -: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾،

(١) قال محمود: «معناه أي من يرزقكم منهما جميعاً... إلخ» قال أحمد: وهذه الآية كافية لوجوه القدرة الزاعمين أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا ﴿فَأَنْتُمْ تَسْمَعُ الْقَوْلَ وَكُنْتُمْ أَكْثَرُ الْأَقْبَالِ﴾.

فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب، يعني: أنه لا يدعهم لجاههم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلّم عنهم، يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين، ويقال: هدى نفسه بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشترى؛ ومنه قوله: ﴿أَمَّنْ لَا يَهْدِي﴾^(١)، وقرئ: «لا يهدي» بفتح الهاء وكسرهما مع تشديد الدال، والأصل: «يهتدي»، فأدغم، وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت؛ لالتقاء الساكنين، وقد كسرت الياء؛ لاتباع ما بعدها، وقرئ: «إلا أن يهدي» من هداه وهذا للمبالغة، ومنه قولهم: تهدي، ومعناه: أن الله وحده هو الذي يهدي للحق، بما ركب في المكلفين من العقول، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وبما لطف بهم، ووقفهم، وألهمهم؛ وأخطر ببالهم، ووقفهم على الشرائع؛ فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد من أشرفهم كـ «الملائكة، والمسيح، وعزير»، يهدي إلى الحق مثل هداية الله، ثم قال: أفيمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع، أم الذي لا يهدي، أي: لا يهتدي بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه: أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه، ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾: إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه، ﴿فَأَلْكَرُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: بالباطل؛ حيث تزعمون/ ٣١٦ أ أنهم أنداداً لله.

﴿وَمَا يَنْبِغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٢٦)

﴿وَمَا يَنْبِغُ أَكْثَرُهُمْ﴾: في إقرارهم بالله، ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾؛ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم، ﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾: في معرفة الله، ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾: وهو العلم، ﴿شَيْئًا﴾، وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة، وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والمراد بالأكثر: الجميع، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء، وقرئ: «تفعلون»، بالتاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٢٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ

(١) قوله ﴿أَمَّنْ لَا يَهْدِي﴾ من قولهم: هدى بنفسه. أم من لا يهدي، كيرمي. وقوله: بفتح الهاء... إلخ: بقيت القراءة بكسرهما مع التشديد، وقد أشار إليها بقوله: «أو كسرت» والقراءة كيرمي لحمزة وعلي. وبالفتح مع التشديد للمكي والشامي. وبالكسر معه لعاصم. والأصل: يهتدي. وهي قراءة عبد الله، أفاده النسفي (ع).

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾: افتراء، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ﴾: كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وهو: ما تقدمه من الكتب المنزلة؛ لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر: ٣١]، وقرئ: «ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب»، على: ولكن هو تصديق وتفصيل، ومعنى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾: وما صُحِّحَ وما استقام، وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾: وتبين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، من قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟

قلت: هو داخل في حيز الاستدراك؛ كأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الرب كائناً من رب العالمين، ويجوز أن يراد: ولكن كان تصديقاً من رب العالمين، وتفصيلاً منه لا رب في ذلك، فيكون: (من رب العالمين): متعلقاً بتصديق وتفصيل، أو يكون: (لا رب فيه): اعتراضاً، كما تقول: زيد لا شك فيه كريم، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: بل يقولون اختلقه، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم، أو إنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان ﴿قُلْ﴾: إن كان الأمر كما تزعمون، ﴿فَأْتُوا﴾: أنتم على وجه الافتراء، ﴿بِسُورَةِ مِثْلِهِ﴾: فأنتم مثلي في العربية والفصاحة، ومعنى: (بسورة مثله) أي: شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، وقرئ: «بسورة مثله»، على الإضافة، أي: بسورة كتاب مثله، ﴿وَادْعُوا﴾: من دون الله، ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ﴾: من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله، يعني: أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره، فلا تستعينوه وحده، ثم استعينوا بكل من دونه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أنه افتراء، ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾: بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، وفاجؤوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه، ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه؛ وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم؛ وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ على التقليد من الحشوية، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه - وإن كانت أضوا من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة - أنكرها ما في أول وهلة، / ٣١٦ ب واشماز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب.

فإن قلت: ما معنى التوقع في قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ﴾؟

قلت: معناه: أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل^(١)؛ تقليدا للآباء، وكذبوه بعد التدبر؛ تمرداً وعناداً، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع؛ ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه، وإعجازه لما كرّر عليهم التحدي، ورازوا قواهم^(٢) في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التكذيب، ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا، وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون، ويجوز أن يكون معنى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُهُ﴾: ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب، أي: عاقبته، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يُّؤْمِنُ بِهِ﴾: يصدق به في نفسه، ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب، ومنهم: من يشك فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصر، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾: بالمعاندين، أو المصيرين.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنِّي عَمِلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١)

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾: وإن تموا على تكذيبك^(٣)، ويشت من إجابتهم، فترا منهم وخلهم فقد أعذرت؛ كقوله تعالى: ﴿إِن عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٤٣)

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾^(٤): معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن،

(١) قال محمود: «معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل... إلخ» قال أحمد: وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يوهم عذراً ما للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تحسم أذارهم ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(٢) قوله: «ورازوا قواهم» أي جربوها وخبروها. أفاده الصحاح (ع).

(٣) قوله: «وإن تموا على تكذيبك» أي مضوا عليه ولم يرجعوا عنه. أفاده الصحاح (ع).

(٤) يقول - سبحانه - ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾... نقول: هذا الأسلوب وهو حديث الاستفهام من

وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك، ويعاينون أدلة

= أقوى الأساليب الإنشائية الواردة في القرآن الحكيم، ولذا وجب في هذه التعليقات أن نحدد مسارات تكون منارات للسالكين، وإرشادات للباحثين، فنقول وبالله التوفيق:

١ - تعريف الاستفهام عند اللغويين: هو طلب الفهم، أي معرفتك الشيء بالقلب، أو فهمه الأمر، وفهمه إياه، وجعله يفهمه، واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فافهمته، وفهمته تفهيماً. «وهذا كله من لسان العرب ونحوه مادة: فهم».

وأما في الاصطلاح فكما قال السعد في مطوله: «وهو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع النسبة بين الشئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور».

وبالمقارنة بين المعنيين نلاحظ اتصالاً وثيقاً.

وقد وزع البلاغيون الأدوات على النحو التالي:

١ - ما يكون للتصور والتصديق وهو «الهمزة» وحدها.

٢ - ما يكون للتصديق فقط وهو «هل» وحدها.

٣ - ما يكون للتصور فقط وهو «تسع أدوات على التوالي: من، ما، أي، كم، متى، أين، أنى، أيا، كيف».

وسنذكر المعاني الواردة في القرآن الكريم بهذه الأدوات مع ملاحظة أن الاستفهام الحقيقي لم يقع إلا حكاية عن العباد، وأما ما ورد عن الله مباشرة فله معانٍ تستطيع أن تكشف عنها بطريق المقام، ورعاية مدارج الأساليب، وسأضع لهذه المعاني رؤوساً تكون باباً يلج منه الدارسون، والباحثون.

٢ - المعنى الحقيقي: وقد رأينا هذا المعنى مع «هل» في قوله - تعالى -:

﴿إِذْ قَالَ الْهَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢].

فهذا الاستفهام تراه على طريق طلب الفهم وهو المعنى الاصطلاحي لأنه حكاية - عن الحوارين وما أرادوه من نبيهم عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وفي الآية كلام طويل وأخذ ورد، ولكل وجهة هو موليها، ومن أراد الغاية فعليه بأسفار العلوم في البلاغة والتفسير، وهاك بعضها:

«المطول للسعد ٢٢٦، الإيضاح للقزويني بتحقيق خفاجي عليه ٥٨/٣، وعقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي مع شرح المرشدي عليه ١٧٤/١، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٣٠٠/٣، والفتوحات الإلهية للجمل على الجلالين ٥٤٢/١، وحاشية الصاري على الجلالين ٢٧٤/١، وفتح القدير للشوكاني ١٧/٤، وتفسير أبي السعود ٤٩٧/٢ وما بعدها».

٣ - المعاني المجازية تتوالد هذه المعاني مفرعة على المعنى الحقيقي بمعونة المقام، وقرائن الأحوال، ومتبعات التراكم يقول السكاكي - رحمه الله - تعالى -: «واعلم أن هذه الكلمات كثيراً ما يتولد منها أمثال ما سبق - أي من كلامه - بمعونة قرائن الأحوال، فيقال: ما هنا؟، ومن هذا؟ المجرد الاستخفاف والتحقيق، وما لي؟ للتعجب وسأحاول بقدر جهدي أن أفق مع هذه المعاني على النحو التالي:

التقدير وهو: حمل المخاطب على الإقرار والإذعان بمضمون الجملة وإلجائه إلى ذلك» وهذا تحديد السعد، وهو التعريف اللغوي - أيضاً -.

ويأتي هذا المعنى مع: الهمزة، هل، من، ما، أي، كيف والأمثلة على التوالي: يقول - سبحانه - =

الصدق، وأعلام النبوة، ولكنهم لا يصدقون، ثم قال: أطمع أنك تقدر على إسماع

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ أَتَى اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] يقول - عز شأنه - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْكَلْبِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَدَأَ مُوسَى إِذْ قَالَ يَا لَهْمُ ابْثْنَا لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ أَنْ تَقْتُلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ نَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِنَا قُلْنَا كَيْبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فهذا الاستفهام - هل عسيتم - لتقرير ما هو متوقع عنده، والإشعار بأنه كائن واعتنى بذلك المعنى بواسطة الشرط كما أفاده الشوكاني - رحمه الله - ويقول - جل جلاله - ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦] فهذا النظم القرآني فيه أمر لرسول الله ﷺ أن يقررهم بمن رب السموات والأرض، فسكتوا حذراً من الإلزام فكان الجواب من رسول الله - عليه الصلاة والسلام - نيابة عنهم: الله.

ويقول - عز من قائل - ﴿وَمَا تِلْكَ بِسْمِيتِكَ يَمْشُونَ﴾ [طه: ١٧]. والقصد من السؤال: تقرير هذا الشأن ليقول: هي عصاي حتى إذا حدثت المعجزة بعد التثبيت منها نبه إلى حاله الجديد، وأنه أصبح رسول الله.

ويقول - سبحانه -: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ أَكْفَرُ ۚ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ ۚ مِنْ تُلْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ﴾ [عيسى: ١٧، ١٨، ١٩] والمغزى في هذا الاستفهام: التقرير ليعضد له، وليعبده حق عبادته. ويقول - جل جلاله - ﴿وَلَنْ يُكْفَرُوا لَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ۚ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۚ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۚ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢، ٤٣، ٤٤] فهذا الختام بطريق الاستفهام يحمل معنى. التقرير وهو معاني أخرى كالتسليية لرسول الله - ﷺ - والعظة، والوعد والوعيد.

وفي هذه الآيات ونظائرها مباحث قوية منشورة في كتب التفسير «ينظر فتح القدير ١/ ٢٦٤، ٢/ ١١٧، ٥/ ٨٧، ٣/ ٣٥٧، ٧٤، ٣٦، ٥/ ٣٨٤، ٤٥٨، ٤٥٦، تفسير ابن كثير ١/ ٣٠٠، النسفي ٢/ ١٢، الشهاب على البيضاوي ٢/ ٣٢٨، الرازي ٦/ ١٨٤».

الإنكار: وهو الجحود، وقد عرفه البلاغيون بأنه الأمر الذي ينفيه المتكلم، فإذا سمع قول الله - سبحانه -: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] علم أن معناها: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان في الثواب، ففي هذا النفي إنكار أن يكون جزاء الإحسان غير الإحسان. ومع هذا النفي والإنكار ترى معاني أخرى تلمح من خلال المقام، والدارس لها تلوح له المعاني التي يتبناها المقام ولا يتم بدونها القصد من الكلام.

وقد ورد هذا المعنى مع الأدوات الآتية:

الهمزة - هل - من - ما - كيف - متى والأمثلة لها من القرآن هكذا:

١ - قال - تعالى -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] «وأم هذه منقطعة، وفيها معنى الهمزة التي للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده، وفي الآية كلام للمفسرين يراجع في محله.

ومع هذا المعنى تراهم يذكرون المعاني الدائرة في فلكه كالاستيعاد، والتسليية لرسول الله ﷺ والثبات، والوعد والوعيد...

٢ - ويقول - سبحانه -: ﴿إِذْ تُفِيدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ حتى قوله - تعالى - ﴿هَلْ لَنَا مِنْ أَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٣، ١٥٤] والتقدير: ما لنا شيء من الأمر، وبهذا ترى الإنكار واضحاً في قولهم الذي أخبر به رب العالمين الخبير بما في نفوسهم، وعلى هذا =

الصم، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا

هذا الإنكار. وقد جعله «أي الاستفهام» استرشاديا من الحاضرين جمع من المفسرين وعلى رأسهم العلامة الألوسي في روح المعاني.

وبعضهم جعله استفهاماً حقيقياً بدليل أن الجواب بالإثبات حيث جاء على هذا النحو «قل إن الأمر كله لله» وترى هذا لأبي حيان، ورده الألوسي بأنه خلاف الظاهر، والجواب المذكور إثبات للنصر على أتم وجه وأبلغه.

ومع هذا الإنكار تشم رائحة «التمني» ولا مانع من جمع المعاني إذا تحملها النظم، والقرآن حمال أوجه.

٣ - ويقول - سبحانه - ﴿هَاتِنَا هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّدُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩].

والأداة «من» أفادت «الإنكار» في الأسلوبين ومعه «التوبيخ» لهؤلاء المجادلين عن غيرهم بالباطل في الدنيا، فمن ذا الذي يدافع عنهم يوم يقوم الأَشهاد؟ وهذا ما فهمه الشوكاني وتستطيع مراجعة معاني هذه الأدوات «الهمزة - هل - من» في المراجع الآتية:

فتح القدير للشوكاني ٥١١/١، ٣٩١/١، ٤٨٥/٢، ٤٨٦، ومختار الصحاح مادة (نكر) واللسان: مادة (هلل)، ومغني اللبيب لابن هشام وحاشية الأمير عليه ٢٧/٢، والمطول للسعد ٢٣٨، وروح المعاني للألوسي ١٠٣/٢، ١٠٤، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٢٩٩/٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٨٢/٣.

٤ - ويقول - عز وجل - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا دُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

فهذا الاستفهام بطريق «ما» للإنكار بمعنى ما المانع لكم من أكل ما سميت عليه وقد أحله الله لكم؟، فالإنكار ينصب على عدم الأكل مما ذبح ذبحاً شرعياً، وقد فصل الله ما هو محرم منها ما عدا حال الاضطرار فإن الأخذ بأخف الضررين واجب مشروع، وذلك فضل الله الكريم على عباده الضعفاء.

وقد أكد الإنكار بالجملة الحالية ﴿وَفَذَّ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ .

ووقد جعل العلامة القرطبي في تفسيره هذا الاستفهام للتقرير، وليس بظاهر، فما ذكره الشوكاني عن كونه للإنكار أحكم، وهذا ما وافق عليه كثير من المفسرين، وأضاف أبو حيان أن يفيد أمراً آخر وهو «التوبيخ» على عدم الأكل من الحلال.

وخلاصة ما في الآية: أن الاستهزاء للإنكار وهو التوبيخ وقد يفيد التقرير وغيره مما يتحملة المقام. وقد جاء الإنكار يتضمن النهي في قوله - عز شأنه -:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ يَوْمِنَا أَوْ نَهَاكُمْ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠] فهذا الإنكار المفاد من الآية يحمل معنى «لا تستعجلوه فإنه آت» وهو نهى.

٥ - ويقول - سبحانه - : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتُونَكَ فَأَيُّ كَيْفٍ لِّلْإِنكَارِ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم مِّنْ إِلَهِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] فهذا الاستفهام المصور بالأداة «كيف» للإنكار والتعجب، لأن الله - جلّت حكمته - قد أحياهم من عدم وأنعم عليهم بعد عذم، وأماتهم في نهاية آجالهم، ثم يحييهم للحساب والجزاء فكيف يكفرون بعد كل هذا؟، فهذا كله يفيد: الإنكار والتعجب، ومعه التوبيخ، والاستبعاد، وفي الآية مبالغة، بحسب المقام.

٦ - وهذا إنكار بالأداة «متى» في قول الله - سبحانه - :

وقع في صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر،

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] ومقام الآية للإنكار، لأن القائلين هم الكفار الذين إذا هددهم رسول الله ﷺ بنزول العذاب يقولون: متى هذا الوعد؟ إنكاراً واستيعاداً وقدحاً في نبوة النبي - صلوات الله وسلامه عليه -.

وفي هذا الاستفهام مع ما سبق: استعجال للوعيد، واستهزاء بهم، وقيل إنه على سبيل التكذيب لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليه -.

وخلاصة هذا كله: إن الاستفهام يفيد الإنكار ولا مانع من تحمل معاني أخرى تتبع من المقام وتدور في فلك الإنكار، ومن يراجع الاستفهام في كتاب الله مع الغوص في بحار معانيه يؤتيه الله - سبحانه - فتحاً عجيلاً.

ينظر فتح القدير ١٥٦/٢، ٤٥١، ٥٩/١، ٤٤٩/٢، ٤٤١/١، والنسفي ٣٠/٢، ٣١، ٣٨/١، وحاشية الشهاب على البياضوي ١١٩/٤، وروح المعاني للالوسي ١٤/٨، ١٢٩/١٠، ١٣١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٥٩٣/٤، والبحر المحيط لأبي حيان ٢١١/٤ ومفاتيح الغيب للرازي ٣٧٦/٨.

التوبيخ والتهكم:

يقال: وبخ فلان فلاناً: هدده ولامه وأنه كما يفهم من اللغة وهو المقصود بلاغة ويقال: تهكم به: استهزأ به، وبهذا يكون التوبيخ والتهكم متقاربين في المعنى، ولهذا نرى التعبير بهما في المباحث البلاغية فيقال - كما هو عند المفسرين، هذا توبيخ لهم وتهكم بهم. وهذا المعنى ينتشر في القرآن الكريم انتشاراً واسعاً حتى رأى المفسرون أنه أوسع المعاني انتشاراً في أساليب الإنشاء؛ ذلك أنه يعالج النفوس المريضة، ويهذب الطبائع الغليظة وهذا ما يناسب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد استعمل في هذا المقصود مجموعة من أدوات الاستفهام، ودخل فيه من أساليب الإنشاء الأخرى الأمر، والنهي، والنداء.

أما أدوات الاستفهام التي استعملت للتوبيخ والتهكم فهاك عن التوالي بعد الهمزة: هل، من، ما، كم، كيف، متى، أين، أيان. فلم يسقط من أدوات الاستفهام إلا «أنى» التي معناها: كيف أو من أين، فقد سقطت لفظاً لا معنى، وهذا المفهوم في هذا المعنى يفيد أن هذا المقصد له تأثيره التام على النفوس وطب القلوب في كثير من المقامات.

هذا، ونظراً لاتساع هذا البحث سأورد مثلاً من كثير من الآيات لكل أداة على الترتيب السابق. فالتوبيخ بالهمزة لقوله - تعالى -: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكْتُبُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] وقد بين العلماء في الآية أن الاستفهام للتوبيخ ومعه التعجب والإنكار، والتقريب مع المبالغة وإن كان الباحث يرى التقرير غير ظاهر خلافاً لبنية المعاني التي يتسع لها المقام والكلام. وقد يأتي مع التوبيخ التعجيز كقوله - سبحانه -:

﴿أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنْقُؤَا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص: ١٠] ففي الحديث معهم توبيخ على ما يقولون وتعجيز لهم بما طلب منهم ولا يستطيعون.

أما التوبيخ بهل فتراه في قول الله - سبحانه -:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَنصِرُكَ وَالْكَافِرِينَ وَلَآتُكُمُ الْأَلْسَابُ وَالْأَزْلَمُ بِحَسِّنِ عَلَى السَّيْلَيْنِ فَاجْزَبُوا لَكُمْ تَقُولُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ النَّبِيُّ أَنْ يُوقِيَ بَيْنَكُمْ الْفِتْنَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْقَمَرِ وَالْمَيْمَرِ وَبِذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْفَلَاوَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ ﴿١٢﴾

[المائدة: ٩٠ - ٩١] فقلوه - جلست حكمته - «فهل أنتم منتهون» يفيد الزجر البالغ بالاستفهام ليس =

واتحسب انك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلى العمي - وهو فقد البصر - فقد

= التوبيخ، ولهذا قال سيدنا عمر - رضي الله عنه - لما سمع هذه الآية: «انتهينا» وقد رأى المفسرون بعد البحث المتأنى في الآية هذه المعاني:

١ - إفادة الأمر والمعنى: انتهوا.

٢ - المبادرة إلى الانتهاء وسرعة التنفيذ.

٣ - التقريع والتوبيخ.

٤ - الزجر والتحذير مع تحريك العقل لفهم هذا الأمر.

ومن أراد المزيد فعليه بالمراجع الآية:

«ينظر النسفي ٣٠١/١، حاشية الشهاب على البيضاوي ٢/٢٨٠، الفتوحات الإلهية للجمل ١/٥٢٣، روح المعاني للآلوسي ١٧/٧، حاشية الصاوي على الجلالين ١/٢٦٤، ٢٦٥، مفاتيح الغيب للرازي ٦/١٢٩، وما بعدها، لسان العرب مادة (وبخ - حكم) وفتح القدير للشوكاني ٢/٧٤. والتوبيخ بمن كما في قوله - سبحانه -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْكَيْفِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

فهذا الاستفهام «بمن» يفيد: التقريع والتوبيخ، ويرى بعض الأعلام ومنهم أبو السعود أنه يفيد الإنكار عليهم لهذا الدعاء للأصنام وأن أحداً يساويهم في هذا الضلال ولا مانع من المعاني البلاغية التي تتحملها الآية فالقرآن حمال أوجه، ولا تراحم بين الأسرار وقد يرى في آية أخرى معنى التعريض، وهذا واضح عند قوله - تعالى -:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَرَ شَهَادَةً عِندَ رَبِّهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] فهذا الاستفهام بحسب توجيه الخطاب يتحمل المعاني الآتية:

١ - ذم أهل الكتاب لأنهم كتموا حال الأنبياء، ودعوا لما هو مخالف لهم.

٢ - توبيخهم على كتمانهم صفة خاتم النبيين.

٣ - لو توجه هذا الكلام للمسلمين لكان تقريراً لهم إذا كتموا هذه الشهادة، وفيه تعريض بأهل الكتاب.

والتوبيخ بما في قوله - سبحانه - يحدثنا عن بني إسرائيل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزُومُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فِيمَ تَقْتُلُونَ أَلَيَّاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] فهذا الاستفهام الخاتم للآية تذييل يفيد معاني كثيرة، وخلاصتها كما هو مشهور في كلام العلماء: أن الاستفهام يفيد: التوبيخ، والتهديد، والتكذيب في ادعاء قولهم: «نؤمن».

وقد يأتي مع التوبيخ: التعجيب والتشنيع كما في ختام الآية:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنْجِيَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

ويأتي التوبيخ بأي الاستفهامية في قوله - تعالى -:

﴿أَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَيِّئْ حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ومع التوبيخ البين معانٍ أخرى لحظها العلماء وهي: التعريض، والوعد، والوعيد ويأتي التوبيخ بكم كقوله - تعالى -:

﴿سَلِّ بِحَقِّ إِسْرَافِكَ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ يُنْفِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَمَذَلَّةً لَهُمْ فَزَعَوْا مِنْهَا فَهَارًا﴾ [البقرة: ٢١١].

البصيرة؛ لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس

= فهذا الاستفهام «بكم» الاستفهامية تفيد: التقرير والتوبيخ مع التقرير، ويصح أن تكون خبرية لإفادة التكثير في الآيات فإذا لم يؤمنوا مع كثرتها كان ذلك دليلاً على شدة كفرهم، وهذا توبيخ لهم - أيضاً - من هذا السبيل.

«ينظر فتح القدير ١٤/٥، ١٤٨/١، ١١٣، ٤٤٥/٢، ٢٧٢/٢، ١١٧/٥، ٢١٢/١، والنسفي ٤/١٤٠، ٨٨/٢، ١٠٥/١، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤/١٩٥، ٣٨٣/٧، ٢٦١/٣، ٢٦٢، روح المعاني للآلوسي ١/٢٣٤، ٣٢٥، ١٢٩/٩، ٩٩/٢، حاشية الشهاب ٢/٢٠٥، والجامع لأحكام القرآن ١/٥٢٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٢/١٢٦».

ويأتي التوبيخ بكيفية كقوله - تعالى -:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۖ﴾ [النساء: ٤١] والتوبيخ للكفار لأنه في يوم القيامة لا يجد هؤلاء شهاداً لهم مع وجود شهداء للمؤمنين، ولهذا المعنى بكى رسول الله ﷺ حينما سمع الآية من سيدنا عبد الله بن مسعود وقد بحث المفسرون بذوقهم هذا الاستفهام، ولكل وجهة، وجملة ما حصلته منهم أن هذا الاستفهام بمعونة المقام يفيد: التوبيخ، والتفخيم، والتهويل، والتبشير لرسول الله - صلوات الله عليه وسلامه - كما أن فيه وعداً للمؤمنين، ووعيداً للكافرين.

ويأتي التوبيخ بمعنى الاستفهامية كقوله - سبحانه -:

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا تَرْتَدُّوا أَوْ لَمَعُونا خَلَقًا جَدِيدًا ۖ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿ثَلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَبِيبًا ۖ﴾ [الآيات إلى قوله - سبحانه - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٩، ٥٠، ٥١] وهو استهزاء منهم وسخرية، وفيه إنكار وتعجب واستبعاد، ولكل مقام معنى يناسبه.

ونرى هذا المعنى مع «أين» كقوله - تعالى -:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۖ﴾ [الأنعام: ٢٢] ووجه التوبيخ أن معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال أو حاضرة ولكنهم لا يتفكرون بها فوجودها كالعدم. وقد لمح الزمخشري في الآية معنى التحسير لأن المقام فيه خزي لهم، وهذا التحسير يتولد من التوبيخ، وبهذا يفيد الاستفهام: التوبيخ ويدور معه التحسير.

ويأتي هذا المغزي مع «أيان» في قوله - تعالى -:

﴿قِيلَ الْفَرَّسُونَ ۖ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَرَرٍ سَاهُونَ ۖ﴾ ﴿١١﴾ ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ يَوْمِ الْآزِفِ ۖ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١، ١٢] فهذا الاستفهام للاستهزاء والتكذيب ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة المصنفات الباحثة في معاني القرآن ككتب التفسير والبلاغة خصوصاً التي تعنى باستخراج درر كتاب الله الحكيم ومن أهمها هذه المراجع:

«فتح القدير للشوكاني ١/٤٦٧، ٨٤/٣، ٨٥، ١٠٧/٢، ٨٤/٥، وينظر روح المعاني للآلوسي ففيه كفاية وغناء ٥/٣٣، ٣٤، ٩٢/١٥، ١٢١/٧، ١٢٢، والنسفي ١/٢٢٦، ٣١٧/٢، ٧/٢، وسنن الترمذي مراجعة: عبد الرحمن عثمان ٤/٣٠٤، ٣٠٥، ففيه أبواب تفسير القرآن. ومفاتيح الغيب للرازي ٥/٢١٧، ١١/١٠، ١٢، ٢٥٧/٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/١٨٦٢، ١٨٦٣، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٤/٣٩ والإيضاح للقرطبي مع حواشي ٣/٧٣ وما بعدها، والمطول للسعد ٢٣٥ وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي ١٥٠ وما بعدها، والبلاغة القرآنية لمحمد أبي موسى ٣٥٦ وما بعدها، وعقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي متناً وشرحاً ومعه شرح المرشد ١/١٨٥ وما بعدها».

التفخيم: أي تفخيم المستفهم عنه كذا جاء قوله - تعالى - ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبا: ١] والمعنى =

فيه: عن أي شيء يتساءلون؟ أي هو أمر عظيم له حظره، وقد بين المفسر هذا شافياً.

الاستيعاد: وهذا ما لمح المفسرون في قوله - سبحانه - حكاية عن زوجة نبي الله إبراهيم - عليه السلام - إذ قالت: ﴿يَتَوَلَّى إِلَهُدَّ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وهو استيعاد من جهة العادة التي طبع الله الناس عليها، ولهذا أنكرت الملائكة عليها تعجبها «أتعجبين من أمر الله».

المبالغة في طلب الفعل والحض عليه: وقد أورد هذا المعنى الزمخشري عند قوله - تعالى - ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ وقد بينت ما في الآية أنفاً.

التعبير: وهذا ما ورد في قوله - تعالى - ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] لأنهم أهل كتاب وعلم فكيف يبغون هذا الحكم؟.

التمعجب: وهذا ما يلح في قوله - سبحانه - ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِدُّهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] لأنه قد أوضح الله لهم الحكم في التوراة فكيف يبغون تحكيمك؟ إفادة إن المستفهم عن أمره مشهور ذائع كما في قوله - تعالى - ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] وفيه تشويق إلى سماع هذا النبأ.

الاستبطاء: وهذا ما لمح العلماء في قوله - تعالى - حكاية - عن اجتماع سحرة فرعون والناس معهم ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ ﴿لَمَّا نَفَخُ الْسَّحَرَةَ إِنَّ كَافِرًا مِمَّنْ أَتَيْنَا﴾ [الشعراء: ٣٩، ٤٠] فهذا الاستفهام فيه استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم وحثهم على المسارعة.

لفت المسؤول إلى المسؤول ليتبينه تمهيداً للإحداث أمر عظيم فيه كما في قوله - سبحانه - لنبه موسى عليه السلام - ﴿وَمَا يَلْكُ بِسَمِيكَ يَتُوسَى﴾ [طه: ١٧] فالقصد إلى بيان عظمة المولى - عز وجل - في هذه العصا وهي خشبة يابسة من قلبها حية بقدرته جل وعلا -، وهذا ما يفعله السحرة، لكن شتان بين قدرة القادر، وفعل الساحر العاجز. وهناك معانٍ أخرى في حاجة إلى فحص كلام المولى في مقاماته المختلفة، ومن أراد المراجعة فعليه بالمصنفات التي جمعت الاستفهام في القرآن الكريم، وفي ذلك رسائل جامعية في جامعة الأزهر وسواها.

وبعد أن بينت بعض المعاني المجازية أقول: هل أشار الزمخشري إلى وجه تحصيل هذه المعاني من أدوات الاستفهام؟ وكيف دلت هذه الأدوات عليها؟ بطريق الحقيقة أم بالمجاز أم بطريق أنها من مستتبات التراكيب؟

والحقيقة أننا لا نجد جواباً شافياً عند الزمخشري، وقد تعسف المتأخرون في العلاقات بين الاستفهام بأداته والمعنى المراد كما بيناه.

والعلامة الزمخشري كان دائماً يقصد إلى المعنى المراد ولا يلتفت إلى وجه الاستعمال.

«راجع البلاغة القرآنية د. محمد أبو موسى ٣٥٦ وما بعدها» كما تنظر المراجع السابقة بصفحاتها. هذا ما كان من أمر الاستفهام في معناه الحقيقي وما يرمز إليه من معانٍ مجازية جاءت من طبيعة المقام ومستتبات التراكيب، وفيما سرده إشارة لما أراد الغاية والهداية، وفي المراجعات فوائد ومهمات، أما جواب الاستفهام فقد ركزه العلامة أبو موسى في مصنفه البلاغة القرآنية بصورة لطيفة موجزة مغنية، وخلاصة ذلك في النقاط الآتية:

١ - يأتي الجواب غير مباشر لملاحظة دقيقة كالزيادة والتعميم عما يتطلبه السؤال في مقام الابتهاج والافتخار، وهذا ما لاحظته الزمخشري عند قوله - سبحانه -:

﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوِيهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَصْنَامًا فُتِلْ لَمَّا عَصَيْنَا﴾ [الشعراء: ٧٠، ٧١] وكان

يكفي في الجواب: أصناماً كما جاء الجواب في قوله - تعالى -:

ويتظنن^(١)، وأما العمى مع الحق فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول، وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ... أَفَأَنْتَ﴾^(٢): دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله - عز وجل - بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوب العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل، إلا هو وحده.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال/ ٣١٧ الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب؛ ويجوز: أن يكون وعيداً للمكذبين، يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه.

﴿وَسْتَأَلُونَكَ مَاذَا يُقُولُ قُلِ الْغَوْ﴾ [البقرة: ٢١٩] ولكن المولى القدير الخبير أتى بما تكنه صدورهم وعبرت عنهم أفواههم.

٢ - وقد يأتي الجواب مؤكداً على أحد معاني السؤال تاركاً سواء كما في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ يَمُوسَى﴾^(٤) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَتَرَىٰ وَعَصَيْتَ لِإِلَهِكَ رَبِّكَ لِرَبِّكَ لِرَبِّكَ ﴿٨٤﴾ طه: ٨٣، ٨٤] فالسؤال عن سبب العجلة وجوابه بنحو، طلب زيادة.

رضاك - مثلاً -، ولكن الجواب جاء بهذا النظم لبيان العذر والعلة، وأنه لم يوجد منه تقدم كبير وإنما هو كتقدم رأس الوفد، ثم جاء جواب السؤال ﴿وَعَصَيْتَ لِإِلَهِكَ رَبِّكَ لِرَبِّكَ﴾.

٣ - وقد يكون في الجواب تهديد لينطبق على ما في السؤال من إنكار، ويلحظ هذا في قوله - سبحانه - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥) قُلْ لَّكَ يَمَآذُ يَوْمَ ﴿سبأ: ٢٩، ٣٠﴾ فهم منكرون البعث متهمون بقولهم هذا، فلا أن يكون الجواب قويا واقعاً لباطلهم.

٤ - وقد يكون الجواب غير ما في السؤال، لأن السؤال عن شيء واضح مشهور، ثم يبنى على هذا الجواب كلام يوجبه المقام، ولهذا يكون ذكر الكلام بهذا الطريق توكيد لجواب السؤال وتقرير له ويتضح هذا في قوله - تعالى -:

﴿أَتَمْلِكُونَ أَنْتَ كَلِمَةً مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] والجواب العادي لهذا السؤال: مرسل، ولكنهم جعلوا هذا الجواب معلوماً لا يحتاج إلى بيان وإنما الكلام الذي يجب أن يعلموه هو: إنا آمننا به، ولهذا جاء جواب الكثرة عليهم «إنا بالذي آمنتم به كافرون» فوضعوا «آمنتم به» موضع «أُرسل به» لأنهم حولوا البيان إلى ما يجب. هذا ما كان من أمر الجواب للسؤال القرآني وأسراره، والمدقق يلاحظ أنماطاً بلاغية عجيبة؛ لأن الذي نظم آيات القرآن هو العليم بأسرار النفوس، الخبير بما تنطوي عليه الصدور، ونحن بتوفيق الله لنا نصل إلى بعض هذه المعاني، فالقرآن لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق على كثرة التزداد، وصدق رب العالمين إذ يقول فينا:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]

«يراجع البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د. محمد أبو موسى ٣٦٦ وما بعدها».

(١) قوله: «ويتظنن» أي يعمل ظنه. أفاده الصحاح (ع).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾: يستقربون وقت لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبور؛ لهول ما يرون، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾: يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً؛ وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم؛ لشدة الأمر عليهم.

فإن قلت: (كأن لم يلبسوا)، و(يتعارفون)، كيف موقعهما؟

قلت أما الأولى: فحال من «هم»، أي: يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، وأما الثانية: فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة؛ لقوله: «كأن لم يلبسوا إلا ساعة»؛ لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً ﴿قَدْ خَسِرَ﴾: على إرادة القول، أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله - تعالى - على خسرانهم، والمعنى: أنهم وضعوا في تجارتهم^(١) وبيعهم الإيمان بالكفر، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم!

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

﴿فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾: جواب نتوفينك، وجواب نرينك محذوف، كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة.

فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟

قلت: ذكرت الشهادة، والمراد: مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقرأ ابن أبي عبيدة: «ثم»، بالفتح، أي: هنالك، ويجوز أن يراد: أن الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة؛ حين ينطق جلودهم، وألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، شاهدة عليهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧)

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾: يبعث إليهم؛ لينبهم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق، ﴿فَإِذَا جَاءَ﴾: هم ﴿رَسُولُهُمْ﴾: بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: بين النبي ومكذبيه، ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، فأنجى الرسول وعذب المكذبون؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، أو لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا

(١) قوله: «وضعوا في تجارتهم» في الصحاح: وضع الرجل في تجارته وأوضع - على ما لم يسم فاعله - وضعاً فيهما، أي خسر (ع).

بِالْيَتِّينَ وَالشَّهَادَةِ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴿الزمر: ٦٩﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾: استعجال لما وعدوا من العذاب استبعاداً له، ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا﴾: من مرض أو فقر، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: من صحة أو غنى، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: استثناء منقطع: أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يعني: أن عذابكم له أجل مضروب عند الله، وحدّ محدود من الزمان، ﴿إِذَا جَاءَ﴾: ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة، فلا تستعجلوا، وقرأ ابن سيرين / ٣١٧ ب: «إذا جاء أجالهم».

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُكُمْ بَيْتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ أَلَمْ تَكُنْ مِنْكُمْ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

﴿بَيْتًا﴾: نصب على الظرف، بمعنى وقت بيات.

فإن قلت: هلا قيل: ليلاً أو نهاراً؟

قلت: لأنه أريد: إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون، كما يبيت العدو المباغت، والبيات بمعنى: التبييت، كالسلام بمعنى: التسليم، وكذلك قوله: ﴿نَهَارًا﴾ معناه: في وقت أنتم فيه مشغولون بطلب المعاش والكسب؛ ونحوه: ﴿بَيْتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]، الضمير في ﴿مِنْهُ﴾: للعذاب، والمعنى: أن العذاب كله مكروه مَرَّ المذاق موجب للنفار، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه: التعجب؛ كأنه قيل: أي شيء هول شديد^(١) يستعجلون منه، ويجب أن تكون «من»: للبيان في هذا الوجه، وقيل: الضمير في (منه): لله تعالى.

فإن قلت: بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط؟

قلت: تعلق بأرأيتم؛ لأنّ المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون، وجواب الشرط محذوف، وهو: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه.

(١) قوله: «أي شيء هول شديد» لعله أي شيء أتى هولاً شديداً.

فإن قلت: فهلا قيل: ماذا تستعجلون منه^(١)؟

قلت: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجماع؛ لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أبطأ، فضلاً أن يستعجله، ويجوز أن يكون: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾: جواباً للشرط؛ كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثم تتعلق الجملة بأرأيتم، وأن يكون: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمَنْتُمْ بِهِ﴾ جواب الشرط، و﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾: اعتراضاً، والمعنى: إن أتاكم عذابه أمنتكم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم، كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ [الأعراف: ٩٨]. ﴿الآن﴾: على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: الآن أمنتكم به، ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: وقد كنتم به تكذبون؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار، وقرئ: «الآن»، بحذف الهمزة التي بعد اللام، وإلقاء حركتها على اللام، ثم قيل للذين ظلموا: عطف على «قيل» المضممر قبل «الآن».

﴿وَيَسْتَنْبِثُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿ويستنبثونك﴾: ويستخبرونك فيقولون، ﴿أحقُّ هو﴾: وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء، وقرأ الأعمش: «ألحق هو»، وهو أدخل في الاستهزاء؛ لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل؛ وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحق، والضمير للعذاب الموعود، و﴿إي﴾ بمعنى: «نعم» في القسم خاصة، كما كان «هل» بمعنى: «قد» في الاستفهام خاصة، وسمعتهم يقولون في التصديق: «إيو»، فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾: بفائتين العذاب، وهو لاحق بهم لا محالة.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ

وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ظَلَمَتْ﴾: صفة لنفس على: ولو أن لكل نفس ظالمة، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما في

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل ماذا تستعجلون منه... إلخ؟ قال أحمد: وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضممر. والأخرى: ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة، والله أعلم.

الدنيا اليوم من خزائنها، وأموالها، وجميع منافعها على كثرتها، ﴿لَأَفْتَدَتْ بِهٖ﴾: لجعلته فدية لها، يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه / ٣١٨ - أيضاً - بمعنى: فداه، ﴿وَأَسْرَؤُا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾؛ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعانوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم، فلم يطيقوا عنده بكاء، ولا صراخاً، ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب؛ كما ترى المقدم للصلب يشخه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة^(١)، ويبقى جامداً مبهوتا، وقيل: أسر رؤسائهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم، حياء منهم وخوفاً من توبيخهم، وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سر الشيء، لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة، وقيل: أسروا الندامة: أظهورها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره، وليس هناك تجلد، ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الظالمين والمظلومين، دل على ذلك ذكر الظلم، ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله؛ وأنه المثير المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجى، ولا يغتر به المغترون.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبية على التوحيد، ﴿و﴾ هو ﴿شِفَاءٌ﴾ أي: دواء، ﴿لِّمَا فِي﴾: صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: لمن آمن به منكم، أصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا؛ والتكرير للتأكيد والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين؛ للدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح؛ فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يراد: قد جاءكم موعظة بفضل الله وبرحمته، فبذلك: فبمجيئها فليفرحوا، وقرئ: «فلتفرحوا»، بالتاء وهو الأصل والقياس^(٢)، وهي قراءة رسول الله - ﷺ - فيما روي،

(١) قوله: «لا ينبس بكلمة» أي لا يتكلم. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «إنها لغة قليلة» يعني: أن القياس أن يؤمر المخاطب بصيغة (أفعل) وبهذا الأصل، قرأ أبي «فافرحوا» وهي في مصحفه كذلك، وهذه قاعدة كلية، وهي: أن الأمر باللام يكثر في الغائب والمخاطب المبني للمفعول، مثال الأول: «ليقم زيد» وكالآية الكريمة =

وعنه: «لِتَأْخُذُوا مِصَاجِعَكُمْ» (٧٤٨) قالها في بعض الغزوات، وفي قراءة أبي: «فأفرجوا»، ﴿هُوَ﴾: راجع إلى ذلك، وقرىء: «مما تجمعون»، بالياء والتاء، وعن أبي بن كعب أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تلا: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ﴾؛ فقال: «بكتاب الله والإسلام» (٧٤٩)، وقيل: «فضله»: الإسلام، «ورحمته»: ما وعد عليه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩) وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَكُمْ فُضْلًا عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني، و﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: «ما» في موضع النصب بأنزل، أو بأرأيتم، في معنى: أخبروني، ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي: أنزله الله رزقاً حلالاً كله فبعضتموه، وقلتم: هذا حلال وهذا حرام؛ كقولهم: ﴿هَذِهِ أُنْعَمٌ وَحَرْتُ جِجَرَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُ وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، ﴿لَهُ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾: متعلق بأرأيتم، وقل: تكرير للتوكيد، والمعنى: أخبروني: آذن لكم في التحليل/ ٣١٨ ب والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك

٧٤٨ - أخرجه الثرمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٢٤٣/٥) من طريق مالك بن يخامر السكسكي عن معاذ بن جبل مرفوعاً، وهو حديث طويل.

وقال الحافظ: هذا طرف من حديث أخرجه الثرمذي من حديث معاذ بن جبل قال: «أبطأ عنا رسول الله ﷺ في صلاة الفجر حتى كادت الشمس تطلع، ثم خرج فأقيمت الصلاة، فصلى بنا صلاة تجوزها، فلما سلم قال: كما أنتم على مصاعكم - الحديث» انتهى.

٧٤٩ - أخرجه الطبري في تفسيره: (٥٦٨/٦) موقوفاً على أبي سعيد الخدري رقم (١٧٦٨٣)، وهلال بن يساف رقم (١٧٦٨٥ - ١٧٦٨٦ - ١٧٦٨٧ - ١٧٦٨٨) و(٥٦٩/٦) موقوفاً أيضاً على قتادة رقم (١٧٦٩٠)، والحسن رقم (١٧٦٩١)، ومجاهد رقم (١٧٦٩٢)، وابن عباس رقم (١٧٦٩٥)، وزيد ابن أسلم رقم (١٧٦٩٩ - ١٧٧٠٠).

وأخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه موقوفاً على الخدري وعلي وابن عباس؛ كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن عباس؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٢٨/٢)، وعزاه أيضاً إلى ابن مردويه في تفسيره.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبه من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ﴾ فذكره. وعن ابن سعيد كذلك أخرجه الطبري، وروى ابن مردويه من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ» قال: بفضل الله القرآن وبرحمته أن جعلكم من الملة». انتهى.

= في قراءة الجمهور. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «لِتَأْخُذُوا مِصَاجِعَكُمْ» لعل الرواية «مصافكم» (ع).

إليه، ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل أنفثرون على الله، تقريراً للافتراء، وكفى بهذه الآية زاجراً بليغاً عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وألاً يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتنق الله وليصمت، وإلا فهو مفتر على الله، ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: منصوب بالظن، وهو ظن واقع فيه، يعني: أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم؛ حيث أبهم أمره، وقرأ عيسى بن عمر: «وما ظن»، على لفظ الفعل، ومعناه: وأي ظن ظننا يوم القيمة، وجيء به على لفظ الماضي؛ لأنه كائن فكان قد كان، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ حيث أنعم عليهم بالعقل، ورحمهم بالوحي، وتعليم الحلال والحرام، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾: هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾: «ما» نافية، والخطاب لرسول الله - ﷺ - «والشأن»: الأمر، وأصله: الهمز، بمعنى: القصد، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده، والضمير في: ﴿مِنْهُ﴾: للشأن؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله - ﷺ - بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل، كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأن كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له، أو لله - عز وجل - وما ﴿تَعْمَلُونَ﴾: أنتم جميعاً، ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾: أي عمل كان، ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: شاهدين رقباء نحصي عليكم، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه، ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾: قرىء بالضم والكسر: «وما يبعد، وما يغيب»، ومنه: الروض العازب، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾: القراءة بالنصب والرفع، والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء؛ ليكون كلاماً برأسه، وفي العطف على محل: ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، أو على لفظ: (مِثْقَالِ ذَرَّةٍ)، فتحاً في موضع الجز؛ لامتناع الصرف؛ إشكال، لأن قولك: «لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب» مشكل.

فإن قلت: لم قدمت الأرض على السماء، بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]؟

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لأم ذلك أن قدم الأرض على السماء، على أن العطف بالواو حكمه حكم التثنية.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ذَلِكُ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾: الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة، وقد فسر ذلك في قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣)، فهو توليهم إياه، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: فهو توليه إياهم، وعن سعيد بن جبیر أَنَّ رسول الله - ﷺ - / ٣١٩ سُئِلَ: من أولياء الله؟ فقال: «هُمُ الَّذِينَ يُذَكِّرُ اللَّهُ بِرُؤْيَتِهِمْ» (٧٥٠) يعني: السمات والهيئات، وعن ابن

٧٥٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٢٨/٢): هكذا ذكره المصنف مرسلًا، وقد روي مرسلًا ومسنداً. أ. هـ.

قلت: وروى أيضاً موقوفاً.

فالمسند:

أخرجه الثَّسَائِي في تفسيره لسورة يونس (٥٧١/١) رقم (٢٥٥)، وابن المبارك في كتابه «الزهد والرقائق»: (ص ٧٢) رقم (٢١٨)، والطبراني في «الكبير»: (١٣/١٢) رقم (١٢٣٢٥)، والواحدي في تفسيره (٥٥٢/٢).

كلهم من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس مرفوعاً. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩/٧) وقال: رواه الطبراني عن شيخه الفضل بن أبي روح ولم أعرفه، وبقي رجاله ثقات. أ. هـ.

كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٥٦/٣)، وزاد نسبه لأبي الشيخ وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعاً.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١٢٨/٢) إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبخاري في مسنده.

وأما المرسل:

فأخرجه ابن أبي شيبه في «مصنفه»: (٧٩/٧) رقم (٣٤٣٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/١) و(٧/٢٣١)، والطبري في تفسيره (٥٧٥/٦) رقم (١٧٧٢٣)، وابن المبارك في الزهد ص (٧٢) رقم (٢١٧)، وابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٢٩/٢).

كلهم من طرق مختلفة عن سعيد بن جبیر مرسلًا.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥٦/٣)، وزاد نسبه لأبي الشيخ عن سعيد بن جبیر مرسلًا.

وأما الموقوف:

فأخرجه الطبري في تفسيره (٥٧٥/٦) رقم (١٧٧١٨) بسنده عن مقسم وسعيد بن جبیر عن ابن عباس موقوفاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٥٦/٣)، وزاد نسبه إلى الطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس موقوفاً.

وللحديث شاهد من حديث أسماء بنت يزيد:

أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٧٩/٢): كتاب الزهد: باب مَنْ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، حديث (٤١١٩)، وأحمد (٤٥٩/٦)، وعبد بن حميد (ص ٤٥٧) رقم (١٥٨٠ - منتخب) والطبراني في الكبير (٢٤/٢) =

عباس - رضي الله عنه -: الإخبات والسكينة، وقيل: هم المتحابون في الله، وعن عمر - رضي الله عنه -: سمعت النبي - ﷺ - يقول «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَاداً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْطِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ» قالوا: يا رسول الله، خَبَرْنَا مَنْ هُمْ، وَمَا أَعْمَالُهُمْ؟ فَلَعَلَّنَا نَحْبُهُمْ، قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَزْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللَّهِ، إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَتُورَ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَخْزَنُونَ إِذَا خَزَنَ النَّاسُ» ثم قرأ الآية (٧٥١)، (الذين آمنوا): نصب أو

= ١٦٧ - ١٦٨) رقم (٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥)؛ كلهم من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ . . . الحديث. وقال البوصيري في «الزوائد»: (٢٧٣/٣): هذا إسناد حسن وشهر بن حوشب وسويد بن سعيد مختلف فيهما، وباقي رجال الإسناد ثقات. أ.هـ.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/٨) بعد أن نسب لأحمد وحده: وفيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح. أ.هـ. والحديث ذكره السيوطي في «الدر»: (٥٥٧/٣)، وزاد نسبه للحكيم الترمذي وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد به وله شاهد آخر من حديث عبد الرحمن بن غنم مرفوعاً:

أخرجه أحمد (٢٢٧/٤) عن سفيان عن ابن أبي الحسين عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ: «خيار عباد الله الذين إذا رُئوا ذُكر الله، وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون البراء العنت».

وعبد الرحمن بن غنم مختلف في صحبته، وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين.

وله شاهد آخر من حديث عمرو بن الجموح مرفوعاً:

أخرجه أحمد (٤٣٠/١)، وأبو نعيم في الحلية (٦/١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١/٩٢)، وقال: «وفيه رشدين بن سعد، وهو منقطع ضعيف».

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥٧/٣)، وزاد نسبه إلى الحكيم الترمذي.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبه من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عنه به، وابن مردويه من طريق يحيى الحماني عن يعقوب السهمي عن جعفر كذلك ووصله، والبخاري من رواية محمد بن سعيد بن سابق عن يعقوب يذكر ابن عباس. قال: سئل رسول الله ﷺ عن الأولياء قال: الذين إذا رُئوا ذكر الله. قال البخاري: رواه غير محمد عن يعقوب بغير ابن عباس. انتهى.

٧٥١ - أخرجه أبو داود (٢٨٨/٣): كتاب البيوع: باب في الرهن، حديث (٣٥٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٦/٦) رقم (٨٩٩٨ - ٨٩٩٩)، ثم قال: وأبو زرعة عن عمر مرسل أ.هـ. والطبري في تفسيره (٥٧٦/٦) رقم (١٧٧٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (٥/١)، والواحدي في تفسيره (٢/٥٥٢ - ٥٥٣)، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وأبي القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣٠/٢).

كلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب، فذكره. وقد روي هذا الحديث من حديث أبي هريرة، وأبي مالك الأشعري، وابن عمر، والعلاء بن زياد، وأنس، وأبي الدرداء.

رفع على المدح، أو على وصف الأولياء، أو على الابتداء والخبر لهم البشري، والبشري

فحديث أبي هريرة:

أخرجه الثَّسائي في التفسير (٥٧٤/١)، وابن جبان في صحيحه (٣٣٢/٢ - ٣٣٣) رقم (٥٧٣)، وأبو يعلى في مسنده: «(١٠/٤٩٥ - ٤٩٦) حديث (٦١١٠)، والطبري في تفسيره (٥٧٥/٦) رقم (١٧٧٢٨) كلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زُرعة عن أبي هريرة به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/٥٥٧ - ٥٥٨)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة به.

وأما حديث أبي مالك الأشعري:

أخرجه أحمد (٥/٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (٦/٤٨٦ - ٤٨٧) رقم (٩٠٠١)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/٢٣٣ - ٢٣٤) رقم (٦٨٤٢)، وابن المبارك في «الزهد»: ص (٢٤٨ - ٢٤٩) رقم (٧١٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/٢٠١) رقم (٢٠٣٢٤)، والطبراني في الكبير (٣/٣٢٩) رقم (٣٤٣٣)، والطبري في تفسيره (٦/٥٧٦) رقم (١٧٧٣٠)؛ كلهم من طريق ابن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن أبي مالك الأشعري به.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٧٩)، وقال: رواه أحمد كله، والطبراني بنحوه... ورجاله وثقوا. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٥٥٨)، وزاد نسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي مالك الأشعري به.

وأما حديث ابن عمر:

فأخرجه الحاكم في مستدركه: (٤/١٧٠، ١٧١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٥٥٧).

وأما حديث العلاء بن زياد:

فأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي: (٢/١٣١).

وقال ابن حجر: وعن العلاء بن زياد مرسلًا، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/٥٥٩).

وأما حديث أنس:

فأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (١/٣٦٧) رقم (٤٠٩)، وقال ابن حجر: وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي، وهما ضعيفان.

وأخرجه ابن عدي في الكامل، والعقيلي في الضعفاء وأعلامه بواقد، قال ابن عدي: لم يصح حديثه، ونقل العقيلي عن البخاري نحوه، قال: ولا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/١٣١).

وأما حديث أبي الدرداء:

فذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٨٠)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لم أعرفهم.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه إسحاق بن راهويه والطبري، وأبو نعيم في أوائل الحلية، والبيهقي في الشعب من رواية جرير عن عمارة بن غزية عن أبي زُرعة عن عمر به. قال البيهقي: أبو زُرعة عن عمر مرسل.

ورواه ابن مردويه من وجه آخر يذكر أبي هريرة بين أبي زُرعة وعمر، ورواه الثَّسائي وابن جبان من =

في الدنيا: ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبي - ﷺ -: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» (٧٥٢)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذَهَبَتِ الثُّبُوءُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ» (٧٥٣) وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن أبي ذر:

== وَجَّهَ آخَرَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَلَمْ يَذْكُرْ عُمَرَ. وَفِي الْبَابِ عَنْ أَنَسٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِيٍّ وَالْعَقْلِيُّ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الشَّعْبِ أَيْضاً فِي الْعَاشِرِ مِنْهُ، وَفِيهِ وَقَدْ بَنَ سَلَامَةَ عَنْ يَزِيدَ الرِّقَاشِيِّ. وَهُمَا ضَعِيفَانِ. وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَفِيهِ فَرْجُ بْنُ فَضَالَةَ وَهُوَ سَاقِطٌ. وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ. أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَمِنْ طَرِيقِهِ الطَّبْرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَفِيهِ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ مِنْ رِوَايَةِ زِيَادِ بْنِ خَيْثَمَةَ عَنْهُ. وَعَنْ الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ مَرْسُلاً. أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مَصْنُفِهِ. انْتَهَى.

٧٥٢ - أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٢٧٥) وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ (١٢٨٣/٢): كِتَابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا: بَابُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَى لَهُ، حَدِيثٌ (٣٨٩٨)، وَالدَّارِمِيُّ (١٢٣/٢): كِتَابُ الرُّؤْيَا: بَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، وَأَحْمَدُ (٣١٥/٥، ٣٢١) مِنْ طَرِيقِ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ بِهِ. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٢٧٣)، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٤٥/٦، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٢)، وَالحَمِيدِيُّ (١٩٣/٢)، حَدِيثٌ (٣٩١، ٣٩٢)، مِنْ طَرِيقِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ بِهِ. قَالَ الْحَافِظُ فِي تَخْرِيجِ الْكُشَافِ:

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَالْحَاكِمُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ: «لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، قَالَ: هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تَرَى لَهُ، رَجَالُهُ ثِقَاتٌ: إِلَّا أَنَّهُ مَعْلُولٌ؛ فَإِنَّ أَبَا سَلَمَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عِبَادَةَ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ أَيْضاً عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: نَبَتْ عَنْ عِبَادَةَ، وَلَهُ طَرِيقٌ أُخْرَى عِنْدَ ابْنِ مَرْدُوَيْهِ مِنْ رِوَايَةِ حَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَرْسِيِّ عَنْ عِبَادَةَ. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضاً وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَبُو يَعْلَى وَالتَّبْرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ طَرِيقِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ: سَأَلْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، قَالَ: سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تَرَى لَهُ، زَادَ بَعْضُهُمْ: «وَفِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ» قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِيهِ: هَذَا الرَّجُلُ لَا يَعْرِفُ. وَفِي الْبَابِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ بِلَفْظٍ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ مِثْلَ حَدِيثِ عِبَادَةَ»، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَابٍ أَخْرَجَهُ الْبَزَّازُ، وَابْنُ عَدِيٍّ وَمِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْهُ مَرْفُوعاً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (لَهُمُ الْبَشْرَى). الْحَدِيثُ.

وَعَنْ جَابِرٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ رِوَايَةِ جَابِرِ الْجَعْفِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ جَابِرٍ. قَالَ: جَابِرٌ هَذَا هُوَ ابْنُ رَبَابٍ. كَذَا قَالَ فَاحْطَأْ. وَقَدْ أَخْرَجَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سَفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ رِوَايَةِ عَمَارِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْهُ. قِيلَ: انْفَرَدَ بِهِ عَمَارٌ. لَكِنْ أَخْرَجَهُ الثَّعَالِيُّ فِي الْكُنَى مِنْ رِوَايَةِ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّ الْأَعْمَشَ حَدَّثَهُ، فَذَكَرَهُ. وَقَالَ: أَبُو إِسْحَاقَ لَا أَعْرِفُهُ. وَالحَدِيثُ خَطَأٌ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَخْرَجَهُ الثَّعَالِيُّ، وَأَبُو يَعْلَى مِنْ رِوَايَةِ دِرَاجٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبْرِ عَنْهُ. وَزَادَ: «الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ». انْتَهَى.

٧٥٣ - قَالَ الزَّيْلَعِيُّ فِي تَخْرِيجِ الْكُشَافِ (١٣٥/٢): رُويَ مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ بْنِ أَسِيدٍ، وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي =

قلت لرسول الله - ﷺ -: الرجل يعمل العمل لله، ويحبه الناس، فقال: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ» (٧٥٤)، وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠]،

= الطفيل ومن حديث أم كرز الكعبية. أ.هـ.

أما حديث حذيفة بن أسيد:

أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٠/٣) رقم (٣٠٥١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٧/ ١٧٦)، وقال: رواه الطبراني والبخاري، ورجال الطبراني ثقات. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٠)، وعزاه إلى ابن مردويه وأما حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة:

فأخرجه أحمد في مسنده: (٤٥٤/٥)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١٣٥/٢) إلى البخاري في تاريخه الوسط في باب العين المهملة في ترجمة عثمان بن عبيد، وإلى الطبراني في معجمه، وإلى أبي يعلى الموصلي في مسنده.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٠)، وعزاه إلى سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن أبي الطفيل عامر بن واثلة به، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦/٧)، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجالهم ثقات. أ.هـ.

وأما حديث أم كرز الكعبية:

فأخرجه ابن ماجه (١٢٨٣/٢)، كتاب تعبير الرؤيا: باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٦)، وأحمد (٣٨١/٦)، والدارمي (١٢٣/٢): كتاب الرؤيا: باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، والحميدي (١٦٧/١) رقم (٣٤٨)، وابن جبان (٤١١/١٣) رقم (٦٠٤٧)، والطبري في تفسيره (٥٧٩/٦) رقم (١٧٧٤٧).

كلهم من حديث سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي زيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كرز الكعبية به. وذكره البوصيري في «الزوائد» (١٤٢/١)، وقال: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

وللحديث شواهد أيضاً من طريق عائشة وأبي هريرة وابن عباس.

فأما حديث عائشة:

فأخرجه أحمد (١٢٩/٦) من طريق سعيد بن عبد الرحمن الجمحي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٠) وزاد نسبه إلا ابن مردويه.

وأما حديث أبي هريرة:

فأخرجه البخاري (٤٠١/١٤): كتاب التعبير، باب المبشرات، حديث (٦٩٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٨٨/٢)، والبغوي في شرح السنة (٢٩١/٥ - بتحقيقنا) رقم (٣١٦٥)؛ كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة بنحوه مرفوعاً، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٦١/٣).

وأما حديث ابن عباس:

فأخرجه ابن جبان (٤١٠/١٣ - ٤١١) رقم (٦٠٤٥ - ٦٠٤٦) بنحوه.

٧٥٤ - أخرجه مسلم (٤٣٨/٨ - النووي): كتاب البر والصلة والآداب، حديث (٢٦٤٢/١٦٦)، وابن ماجه (١٤١٢/٢): كتاب الزهد: باب الثناء الحسن، حديث (٤٢٢٥) كلاهما من طريق أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر به.

قال الحافظ: في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم بلفظ: «فتحبه وتحمده الناس عليه» انتهى.

وأما البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرؤون منها، وغير ذلك من البشارات، ﴿لَا يَدْبِلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾: لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَدَيْ﴾ [ق: ٢٩]، و﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض.

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ﴾، وقرئ: «ولا يحزنك»، من أحزنه، ﴿قَوْلُهُمْ﴾: تكذيبهم لك، وتهديدهم، وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك، وسائر ما يتكلمون به في شأنك، ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾: استئناف بمعنى: التعليل، كأنه قيل: مالي لا أحزن؟ فقيل: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً، أي: إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعاً، لا يملك أحد شيئاً منها لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرهم عليهم، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]. وقرأ أبو حية: «أَنَّ الْعِزَّةَ»، بالفتح، بمعنى: لأن العزة على صريح التعليل، ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره، فالمنكر هو تخريجه، لا ما أنكر من القراءة به، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: يسمع ما يقولون، ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦)

﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء المميزين وهم الملائكة والنفوس؛ وإنما خصهم، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له في ملكته فهم عبيد كلهم، وهو سبحانه وتعالى ربهم/ ٣١٩ ب ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق ألا يكون له نداً وشريكاً، وليدل على أن من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل، تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر، ومعنى: «وما يتبعون شركاء»، أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء، وإن كانوا يسمونها: شركاء؛ لأن شركة الله في الربوبية محال، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا﴾: ظنهم أنها شركاء، ﴿يَخْرُصُونَ﴾: يحزرون، ويقدرُونَ أن تكون شركاء تقديرًا باطلاً، ويجوز أن يكون: (وما يتبع): في معنى الاستفهام، يعني: وأي شيء يتبعون، و(شركاء): على هذا نصب بيدعون، وعلى الأول بيتبع، وكان حقه، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء

شركاء، فاقصر على أحدهما؛ للدلالة^(١)، ويجوز أن تكون «ما»: موصولة معطوفة على: «من»؛ كأنه قيل: والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم، وقرأ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «تدعون»، بالتاء، ووجهه أن يحمل: (وما يتبع) على الاستفهام، أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبیین، يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله تعالى: ﴿أَتَلْبَسَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتِغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أَلَوْ سِجْلَةٌ﴾ [الإسراء: ٥٧] ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبیون من الحق.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

ثم نبه على عظيم قدرته، ونعمته: الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحده بالعبادة؛ بأنه جعل لهم الليل مظلاً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردّد في المعاش، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم، ومكاسبهم، ﴿لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: سماع معتبر مذكّر.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿سُبْحَنَهُ﴾: تنزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجب من كلمتهم الحمقاء، ﴿هو الغني﴾: علة لنفي الولد؛ لأنّ ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً، ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهَٰذَا﴾: ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: (إن عندكم) على أن يجعل القول مكاناً للسلطان؛ كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدلّ على أنّ كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس يعلم.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي ذكره الزمخشري قد ردّه مكي بن أبي طالب وأبو البقاء، أما مكي فقال: انتصب «شركاء» بـ «يدعون» ومفعول «يتبع» قام مقامه «إن يتبعون إلا الظن» لأنه هو، ولا ينتصب الشركاء بـ «يتبع»، لأنك تنفي عنهم ذلك والله قد أخبر به عنهم. انتهى. الدر المصون.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: بإضافة الولد إليه، ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: افتراؤهم/ ١٣٢٠
هذا منفعة قليلة في الدنيا؛ وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبه النبي - ﷺ -
بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ فَاجْتَمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٢﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِن أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي أُلْقَاكٍ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾: عظم عليكم وشق وثقل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ويقال: تعاضمه الأمر، ﴿مَقَامِي﴾: مكاني، يعني: نفسه، كما تقول: فعلت كذا لمكان فلان، وفلان ثقل الظل، ومنه: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بمعنى: خاف ربه، أو قياسي^(١) ومكثي بين أظهركم مدداً طويلاً ألف سنة إلا خمسين عاماً، أو مقامي^(٢) وتذكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم؛ ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى - صلوات الله عليه - أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود، ﴿فَاجْتَمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: من أجمع الأمر وأزمعه، إذا نواه وعزم عليه؛ قال [من الكامل]:

..... هَلْ أَغْدُونَ يَوْماً وَأَمْرِي مُجْمَعٌ؟^(٣)

(١) قوله: «أو قياسي ومكثي» لعله أو مقامي بالضم (ع).

(٢) قوله: «أو مقامي وتذكيري» لعل هذا أو قياسي (ع).

(٣) يا ليت شعري والحوادث جمعة هل أغدون يوماً وأمري مجمع

قوله: «والحوادث جمعة» أي كثيرة. جملة اعتراضية. وأغدون: مؤكد بالنون الخفيفة. وأمري مجمع: أي منوي مجزوم بامثاله. أو المعنى: وشملني مجتمع بعد تفرقه، وهي جملة حالية مغنية عن خبر أغدون. أو خبرها. وزيدت الواو لتوكيد الربط. وأجمع يتعلق بالمعقول، وجمع يتعلق بالمحسوس.

ينظر: إصلاح المنطق ص ٢٦٣، وأمالى المرتضى ١/ ٥٥٩، والخصائص ٢/ ١٣٦، والدرر ٤/ ٢٠، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨١١، ولسان العرب (جمع)، ١٤/ ٣٥٧ (رمى)، ومغني اللبيب ٢/ =

والواو بمعنى: «مع»، يعني: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، وقرأ الحسن: «وشركاؤكم» بالرفع، عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل؛ لقيام الفاصل مقامه؛ لطول الكلام، كما تقول: اضرب زيدا وعمرو، وقرئ: «فأجمعوا» من الجمع، وشركاءكم: نصب للعطف على المفعول، أو لأنّ الواو بمعنى: «مع»، وفي قراءة أبي: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟

قلت: على وجه التهكم؛ كقوله: ﴿ثُمَّ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟

قلت: أما الأمر الأول: فالقصد إلى إهلاكه، يعني: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكه واحتشدوا فيه، وابدلوا وسعكم في كيدي؛ وإنما قال ذلك إظهاراً لقلّة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً. وأما الثاني ففيه وجهان:

أحدهما: أن يراد مصاحبته له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعني: ثم أهلكوني؛ لثلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة، أي: غمّاً وهمّاً، والغم والغمة: كالكرب والكربة.

والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره؛ ومنها قوله عليه السلام: «وَلَا غُمَّةَ فِي فَرَايِضِ اللَّهِ» (٧٥٥) أي: لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكه مستوراً^(١) عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهروني به، ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾: ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدوا إليّ قطعه وتصحيحه؛ كقوله

٧٥٥ - ذكره القاضي عياض في كتابه «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى»: (١/ ٩٩ - ١٠٠) في فصل فصاحته ﷺ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقبال، وفيه: «ولا يؤصم في الدين ولا غمة في فرائض الله، وقال: الغمة السترة، أي لا تستر في فرائض الله، بل ظاهر بها. انتهى.

٣٨٨، ونوادير أبي زيد ص ١٣٣، وجمع الهوامع ١/ ٢٤٧، وتاج العروس (جمع)، وتهذيب اللغة ٣٩٦/١.

(١) قوله: «مستوراً عليكم» لعله أراد ملتبساً، فلذا قال عليكم، كما أشار إليه النسفي (ع).

تعالى: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، أو أذوا إلي ما هو حق عليكم عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه، ﴿وَلَا تُظِرُّونَ﴾: ولا تمهلوني، وقرىء: «ثم أفضوا إلي»، بالفاء، بمعنى: ثم انتهوا إلي بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي: أصحروا به إلي وأبرزوه لي، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي/ ٣٢٠ب، ﴿عَمَّا سَأَلْتُمُ مِنْ آخِرٍ﴾: فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظمتكم، ﴿إِنْ آخِرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾: وهو الثواب الذي يثبني به في الآخرة، أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا، ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]: الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً، ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأثور به، والمراد: أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبريء ساحتهم، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه؛ وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير، ﴿تَكْذِبُوهُ﴾: فتموا على تكذيبه^(١)، وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاوله كتكذيبهم في أولها؛ وذلك عند مشاركة الهلاك بالطوفان، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ حَلَائِفَ﴾: يخلفون الهالكين بالغرق، ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الزَّادِينَ﴾: تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله - ﷺ - عن مثله، وتسلية له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: من بعد نوح، ﴿رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ يعني: هوداً، وصالحاً، وإبراهيم، ولوطاً، وشعيباً، ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾: فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه، ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾: يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد، ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾: مثل ذلك الطبع المحكم نطبع، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾: والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأن الخذلان يتبعه؛ ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلِيَانَا فَاستَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ

(١) قوله: «فتموا على تكذيبه» أي استمروا. أفاده الصحاح (ع).

لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَزَمًا وَجَدْنَا عَلَىٰ
ءَابَائِنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

﴿من بعدهم﴾: من بعد الرسل، ﴿بآياتنا﴾: بالآيات التسع، ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾: عن قبولها، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن تقبلها، ﴿وَكَاثُوا قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾: كفاراً ذوي آثام عظام؛ فلذلك استكبروا عنها، واجترأوا على رذها، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾: فلما عرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله، لا من قبل موسى وهارون، ﴿قَالُوا﴾: لحبهم الشهوات، ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾: وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً.

فإن قلت: هم قطعوا بقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ على أنه سحر^(١)، فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟

قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: ﴿أَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾: أتعيبونه وتطعنون فيه، وكان عليكم أن تدعوا له وتعظموه، من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاويل إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه؛ ونحو القول: الذكر، في قوله: ﴿سَمِعْنَا فَنَقَّيْذُرُهُمْ﴾ [للأنبياء: ٦]، ثم قال: ﴿أَسْحَرُ هَذَا﴾، فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه، وأن يحذف مفعول: أتقولون، وهو ما دل عليه قولهم، ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾: كأنه قيل / ٣٢١: أتقولون ما تقولون، يعني: قولهم: إن هذا لسحر مبين، ثم قيل: أسحر هذا؟ وأن يكون جملة قوله: ﴿أَسْحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾: حكاية لكلامهم، كأنهم قالوا: أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾: كما قال موسى للسحرة: «ما جئتم به السحر، إن الله سيبيطله»، ﴿لِنَلْفِنَا﴾: لتصرفنا، واللفت والقتل: أخوان، ومطاوعهما الالتفات والانفتال، ﴿عَزَمًا وَجَدْنَا عَلَىٰ ءَابَائِنَا﴾، يعنون: عبادة الأصنام، ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبَرِيَّةُ﴾ أي: الملك؛ لأن الملوك موصوفون بالكبر؛ ولذلك قيل للملك: الجبار، ووصف بالصيد والشوس؛ ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله [من الخفيف]:

مُلْكُهُ رَأْفَةٌ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبَرِيَاءٌ^(٢)

(١) قال محمود: «إن قلت هم قطعوا بقولهم إن هذا لسحر مبين على أنه سحر... إلخ» قال أحمد: وفي الفرق بين الوجهين غموض، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب، فلا يتقاضى مفعولاً وفي الثاني على أنه يطلب مفعولاً والله أعلم.

(٢) لعبد الله بن قيس الرقيات. وقيل: لقيس الرقيات يمدح مصعباً، سمي قيس الرقيات لأنه اتفق له أنه تزوج عدة نساء، كل منهن تسمى رقية. وملك: وصف كحذر، فلذلك نصب «ملك رافة» على المصدر. وروي «ملكه ملك» على المبتدأ والخبر. وضمير «فيه» للمصدر، أي: ليس في ملكه =

ينفي ما عليه الملوك من ذلك، ويجوز أن يقصدوا ذمهما، وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبيرا؛ كما قال القبطي لموسى - عليه السلام -: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدقين لكما فيما جئتما به، وقرىء: «يطبع»، و«يكون لكما»، بالياء.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ۖ﴾ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُوتُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيَحْقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمُتَهُمْ وَكَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾: ما موصولة واقعة مبتدأ، و﴿السِّحْرُ﴾: خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر^(١) لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله، وقرىء: «السحر»، على

= جبروت منه، أي من مصعب. ويحتمل أن الضميرين له. والجبروت: مبالغة في الجبر والقهر، أي: ليس فيه ذلك كغيره، فهو أعظم الملوك.

(١) قال محمود: «ما موصولة مبتدأ، والسحر خبر أي الذي جئتم به... إلخ» قال أحمد: وليس المراد في القراءة الأولى الإخبار بأن ما جاؤوا به سحر خاصة، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً. وإنما يستفاد ذلك مما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر، ولو مرت بخاطر الإمام أبي المعالي في مسألة تحريمه التكبير لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر، فإنا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جاؤوا به محصوراً فيه، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء. وأما القراءة الثانية ففيها - والله أعلم - إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أو لا ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَرُّ هَذَا﴾ حكاية لقولهم، ويكون ﴿أَيْحَرُّ هَذَا﴾ هو الذي قالوه، ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا ﴿إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ﴾ وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً: بدؤوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً، والاستهزاء بالحق إنكار له، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن أبت من الإخبار. ألا ترى أنهم يقولون في قوله: أأنت أم سالم، أبلغ في البت من قوله: مخبراً أنت أم سالم؟ ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار ودعوى أنه سحر فقالوا: إن هذا لسحر مبين، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، ووبخهم موسى على قولهم الأول. ومعنى العبارتين ومآلهما واحد. وإما أن لا يكونوا قالوا سوى (أسحر هذا) على سبيل الإنكار حسبما تقدم، فحكاة الله تعالى عنهم بمآله، لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار وبت القول أنه سحر. وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه، ولم يؤده بعبارة أخرى. وحكاية القصص المتلوة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالانفاظ المترادفة المتساوية المعاني. وحاصل هذا البحث: أن قول موسى عليه السلام ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَرُّ هَذَا﴾ إنما حكى فيه قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالته مستهماً، فقال: ما جئتم به السحر؟ على قراءة الاستفهام قرصاً بوفاء على السواء، والذي يحقق لك أن الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى مؤداهما واحد: أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ على الوجهين: الخبر الاستفهام، على ما اقتضته القراءتان، وهو قول واحد دل على أن مؤدى =

الاستفهام، فعلى هذه القراءة «ما»: استفهامية، أي: أي شيء جئتم به، أهو السحر؟ وقرأ عبد الله: «ما جئتم به سحر»، وقرأ أبي: «ما أتيتم به سحر»، والمعنى: لا ما أتيت به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَهُ﴾: سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة، ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾: لا يثبت ولا يديمه، ولكن يسلط عليه الدمار، ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ﴾: ويثبت، ﴿يَكَلِّمُنِي﴾: بأوامره وقضاياه، وقرئ: «بكلمته»، بأمره ومشيته.

﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٢)

﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَىٰ﴾: في أول أمره، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ﴾: إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه؛ وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه؛ خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقيل: الضمير في قومه لفرعون، والذرية: مؤمن آل فرعون، وأسية: امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وماشطته.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾؟

قلت: إلى فرعون، بمعنى: آل فرعون، كما يقال: ريعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأترون له، ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشراف بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم، ويدل عليه قوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: يريد أن يعذبهم، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾: لغالب فيها قاهر، ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: في الظلم والفساد، وفي الكبر والعنوة، بادعائه الربوبية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُومٌ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوِّمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوِّمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦)

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنُومٌ بِاللَّهِ﴾: صدقتم به وبآياته، ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾: فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون، ثم شرط في التوكل الإسلام، وهو أن يسلموا/ ٣٢١ ب نفوسهم لله، أي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط، ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت بك قوة، ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: إنما

= الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر. وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعيب، أو إضمار مفعول تقولون. استشكالا لوقوع الاستفهام محكيا بالقول، والمحكي أولاً عنهم الخبر. وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافي بين الأمرين، فشد بهذا الفصل عرى التمسك، فإنه من دقائق النكت. والله الموفق.

قالوا ذلك؛ لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص، ﴿لَا تَعْمَلُنَا فَتَنَةً﴾: موضع فتنة لهم، أي: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧)

تبوء المكان: اتخذه مباءة؛ كقولك: توطنه، إذا اتخذها وطنًا، والمعنى: اجعلا بمصر بيوتًا من بيوتهم^(١) مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ﴾: تلك ﴿قِبْلَةً﴾ أي: مساجد متوجهة نحو القبلة، وهي: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة؛ لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة.

فإن قلت: كيف نوع الخطاب، فثنى أولاً، ثم جمع، ثم وحد آخرًا؟

قلت: خطب موسى وهارون - عليهما السلام - أن يتبوءا لقومهما بيوتًا، ويختاراهما للعبادة؛ وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عامًا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى - عليه السلام - بالبشارة التي هي الغرض؛ تعظيمًا لها وللমبشر بها.

﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ إِنَّكَ أَتَيْتَ مَرْغُوبَتَ وَمَلَائِكَةً وَأَمُورًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨)

الزينة: ما يتزين به من لباس، أو حلي، أو فرش، أو أثاث، أو غير ذلك، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب، وفضة، وزبرجد، وياقوت».

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾؟

(١) قوله: «بمصر بيوتًا من بيوتهم» لعل الضمير لمصر (ع).

قلت: هو دعاء بلفظ الأمر^(١)؛ كقوله: (ربنا اطمس)، (واشدد)، وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبياناته عرضاً مكرراً وردد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفرأ، وعلى الإنذار إلا استكباراً، وعن النصيحة^(٢) إلا نبواً، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال، وأن إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحي من الله - اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم/ ٣٢٢٢ بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون^(٣) فيه، كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال، وليكونوا ضلالاً^(٤)، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما عليّ منهم، هم أحق بذلك وأحق، كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه؛ حسرة على ما فاته من قبول نصيحته، وحرداً^(٥) عليه، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه، ومعنى الشد على القلوب، الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾: جواب للدعاء الذي هو: «اشدد»، أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال، فكأنهم أوتوها ليضلوا، وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾: عطف على ليضلوا، وقوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: دعاء معترض بين المعطوف

(١) قال محمود: «قلت هو دعاء بلفظ الأمر... إلخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أدق من ديب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفاً. ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل والباطن أن اللام للتعليل؛ وأن الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أمدهم بالزينة والأموال وما يتبعهما من النعم استدراجاً ليزدادوا إثماً وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم بقوله ﴿إِنَّمَا تُمَلَّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أن من الجور أن يملئ لهم في الضلالة ويعاقبهم عليها، فهو متبطل لما يرد من الآيات بعمل الحيلة في تأويلها وردها إلى معتقده وجعلها تبعاً له، كما تقدم له في تأويل قوله (ليزدادوا إثماً) وكأين من آية غراء رام أن يسترغرتها ويطنق نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً وعقداً، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات، ولقد برأه الله وكان عند الله وجيهاً.

(٢) قوله: «وعن النصيحة» لعله وعلى (ع).

(٣) قوله: «يتسكعون» في الصحاح: «التسكع» التماذي في الباطل (ع).

(٤) قوله: «وليكونوا ضلالاً» هذا على قراءة (ليضلوا) بفتح الياء. والقراءة المشهورة (ليضلوا) بضمها.

وعبارة النسفي: ليضلوا الناس عن طاعتك اهـ (ع).

(٥) قوله: «وحرداً عليه» في الصحاح: الحرد - بالتحريك: الغضب (ع).

والمعطوف عليه، وقرأ الفضل الرقاشي: «أأنك آتيت؟» على الاستفهام، و«اطمس» بضم الميم.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

قرئ: دعواتكما، قيل: كان موسى يدعو وهارون يؤمن، ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان، والمعنى: إن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾: فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح - عليه السلام - في قومه ألف عام إلا قليلاً ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة، ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعنا طريق الجهلة بعبادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا؛ فإن العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح - عليه السلام - ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وقرئ: «ولا تتبعان»، بالنون الخفيفة، وكسرهما؛ لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون الثنية، ويتخفيف التاء من تبع.

﴿وَجَوَّزْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠)

قرأ الحسن: «وجوزنا» من أجاز المكان وجوزه وجاوزه، وليس من جوز الذي في بيت الأعشى [من الكامل]:
وَإِذَا تَجَوَّزْنَا حِبَالَ قَبِيلَةٍ^(١)
.....

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال: «وجوزنا بني إسرائيل في البحر»؛ كما قال [من الطويل]:

(١) وإذا تجوزنا حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالاً للأعشى. وشبه عهود الأمان التي يأخذها من القبيلة يتوثق ويتوصل بها إلى أخرى بالحبال، بجامع التوثق بكل على طريق التصريحية. أي: وإذا تجشمتنا مجاوزة عهود قبيلة وتكلفنا مجاوزة محل أمانها؛ فإيقاع التجوز على الحبال: منجاز عقلي، أخذت ناقتي من القبيلة الأخرى حال كونها ذاهبة إليك حبالاً، أي عهوداً للتوصل للقبيلة الأخرى، وهكذا. وإسناد الأخذ لها مجاز عقلي، ويكفي في الملازمة مجاورتها له حين الفعل. وإنما أسنده إليها للمبالغة، وتخيل أنها تعرف الممدوح وفضله، فهي المسامرة إليه بنفسها. وروي يجوزها. وجبال بالجيم، فمعنى أخذت: قطعت من أرض القبيلة الأخرى بالسير إليك جبلاً غير تلك. وعلى كل، ففيه دليل على صعوبة الطريق. ينظر البيت في ديوانه (٦٥)، وتأويل مشكل القرآن ٤٦٥، ومجاز القرآن ١٠١/١، واللسان (حبل)، ومجمل اللغة ٢٦٢/١، وزاد المسير ٤٣٣/١، وتاج العروس ٢٧٠/٧، وتهذيب اللغة ٧٨/٥، والدر المصون ١٧٧/٢.

كَمَا جَوَّزَ السُّكِّي فِي الْبَابِ فَيَتَّقُ^(١)

﴿فَأَتَيْتَهُمْ﴾: فلحقهم، يقال: تبعته حتى أتبعته، وقرأ الحسن: «وعدوا»^(٢)، وقرئ: أنه بالفتح على حذف الياء التي هي صلة الإيمان؛ وإنه بالكسر على الاستئناف بدلاً من آمنت، كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه؛ حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف.

﴿إِنَّمَا أَتَيْنَا لَعْنُوكُمْ لَمَنَ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾^(٣)

﴿إِنَّمَا أَتَيْنَا﴾: أتؤمن الساعة في وقت الاضطراب حين أدركك الغرق^(٤)، وأيست من نفسك، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق، وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه، والذي يحكى أنه حين قال: (آمنت)، أخذ جبريل من حال البحر^(٥)، فذسه في فيه (٧٥٦)، فللغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه / ٣٢٢ب لا

٧٥٦ - أخرجه الترمذي (٢٨٧/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٨)،
والنسائي في التفسير (٥٧٨/١)، وأحمد في مسنده (٢٤٠/١ - ٣٤٠) والحاكم في مستدركه (١/ =

(١) ولا بد من جاز يجيز سبيلها كما جوز السكي في الباب فيتق
للأعشى يصف مفازة الغزل فيها الملحق عن بني عكاظ كما يأتي قريباً. يقول: ولا بد لمريد قطعها
من جاز: أي قريب منها يعين المسافر على سلوك سبيلها. وجازه يجوزه: سلكه. وأجازه يجيزه:
أسلكه. وكذا جوزه يجوزه بالتشديد فيهما. والسكي: المسمار، نسبة للسك، وهو تضييب الباب
وتسميره. والفيتق: النجار؛ لأنه يفتق الخشب بالمسمار. ويروى: كما سلك السكي، أي: لا يعد
من معين، ينفذه فيها كما أنفذ النجار المسمار في الباب. وعبر بالماضي ليدل على أن المشبه به
معهود للسامع.

ينظر البيت في ديوانه ص ٢٧٣، ولسان العرب (فتق)، (سكك)، وتهذيب اللغة ٦٣/٩، ٤٣١،
وكتاب الجيم ٦٦/٣، ومقاييس اللغة ٤٧١/٤، وكتاب العين ٢٧٢/٥، وتاج العروس (فتق)،
(سكك)، وبلا نسبة في المخصص ١٣٢/٥، ٢٥/١٠، ٢٦١/١٢.

(٢) قوله: «وقرأ الحسن وعدوا» في الصحاح: عدا عدواً وعدواً وعداء أهـ. وقد مر في قوله تعالى
﴿فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا﴾ (ع).

(٣) قال محمود: «معناه أتؤمن الساعة في وقت اضطرابك حين أدركك الغرق... إلخ» قال أحمد:
ولقد أنكروا منكرًا، وغضب الله ولملائكته كما يجب لهم، والله الموفق.

(٤) قوله: «من حال البحر قدسه» أي طينه الأسود. أفاده الصحاح. وفي الحديث «قال جبريل يا محمد
فلو رأيته وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه» كذا في الخازن (ع).

ينفعه، وأما ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله فمن زيادات الباهتتين^(١) لله

= (٥٧)، (٣٤٠/٢)، (٢٤٩/٤) وصححه، وابن جبان في صحيحه (رقم ١٧٤٥ - موارد)، والطيب السبي في منحة المعبود (٨٤/٢) رقم (٢٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٦٠٥/٦) رقم (١٧٨٧٢ - ١٧٨٧٣ - ١٧٨٧٦)، وإسحاق بن راهويه والبخاري في مسنديهما؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣٨/٢).

كلهم من طرق عن شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قال الترمذي (٢٨٧/٥): هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم (٢/٣٤٠): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٦٨/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس به. وله طريق آخر عن ابن عباس:

أخرجه الترمذي (٢٨٧/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٧)، وأحمد (٢٤٥/١ - ٣٠٩)، والطبراني في الكبير (٢١٦/١٢) رقم (١٢٩٣٢)، وعبد بن حميد ص (٢٢٢) رقم (٦٦٤ - منتخب)، والطبري في تفسيره (٦٠٥/٦) رقم (١٧٨٧٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠٢/٨) رقم (٤٢٠٨) كلهم من طرق عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس به.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وذكر السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٦٨/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس به.

وأخرجه الطبري أيضاً في تفسيره عن ابن عباس موقوفاً:

فأخرجه الطبري (٦٠٦/٦) رقم (١٧٨٧٩، ١٧٨٨١)، من طرق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة:

أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٤٥/٧) رقم (٩٣٩٣)، والطبري في تفسيره (٦٠٥/٦) رقم (١٧٨٧٤)، والسهمي في: «تاريخ جرجان» ص (١٠٦) رقم (٣٠٦)، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣٩/٢)؛

كلهم من طريق حكيم بن سلمة عن عنبسة عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه.

وله شاهد أيضاً من حديث ابن عمر:

أخرجه ابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣٩/٢) من طريق نصر بن محمد بن سليمان بن أبي ضمرة السلمي عن أبيه عن عبد الله بن أبي قيس عن ابن عمر مرفوعاً نحو حديث أبي هريرة.

(١) قوله: «الباهتتين لله» في الصحاح «بهته» إذا قال عليه ما لم يفعله (ع).

وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أَنَّ الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أَنَّ من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر، فهو كافر؛

= وذكره المتقى الهندي في: «كنز العمال» (٢٥/٢) رقم (٢٩٩٦)، وزاد نسبه لابن عساكر عن ابن عمر به.

وله شاهد أيضاً من حديث أبي أمامة:

ذكره السيوطي في: «الدر المنثور» (٥٦٩/٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ عن أبي أمامة - رضي الله عنه - به.

قال الحافظ:

قوله «والذي يحكي»... إلى قوله: «لأن الرضا بالكفر كفر»، هذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغض من أهله. فإن الحديث صحيح الزيادات، وقد أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن جبان والحاكم وإسحاق والبخاري وأبو داود والطيالسي؛ كلهم من رواية شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه أحدهما إلى النبي ﷺ قال: «إن جبريل كان يدس في فم فرعون الطين مخافة أن يقول: لا إله إلا الله فيرحمه الله» لفظ الترمذي والباقيين. نحوه، وله طريق أخرى أخرجهما أحمد وإسحاق وعبد بن حميد والبخاري والطبراني من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس، بلفظ: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ الطين من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة، وله طريق أخرى أخرجه يحيى بن عبد الحميد الحماني في مسنده عن أبي خالد الأحمر عن عمرو بن يعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال جبريل - عليه السلام - للنبي ﷺ: وذكر فرعون «فلقد رأيتني وأنا لأكبر فمه بالحمة مخافة أن تدركه الرحمة، وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب في السادس والخمسين، وابن مردويه من طريق عتبة بن سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: قال لي جبريل: «لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه فرعون؛ مخافة أن يقول ربي الله، فتدركه رحمة الله»، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - سمعت رسول الله ﷺ يقول قال لي جبريل: يا محمد ما غضب ربك على أحد غضبه على فرعون إذ قال: ما علمت لكم من إله غيري. وإذ نادى فقال: أنا ربكم الأعلى. فلما أدركه الغرق استغاث وأقبلت أحشوا فاه؛ مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية محمد بن سليمان بن أبي ضمرة عن عبد الله بن أبي قيس عنه.

قلت: وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري، فللحديث توجيه وجيه، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري؛ وذلك أن فرعون كان كافراً كافر عناد؛ ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص، فأجرى له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره، فخشى جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه، فتدركه رحمة الله فيؤخره في الدنيا، فيستمر على غيه وطغيانه؛ فدس في فمه الطين؛ ليمنعه التكلم بما يقتضي ذلك، هذا وجه الحديث. ولا يلزم منه جهل ولا رضا بكفر، بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد، وأيضاً فأيمانه في تلك الحالة على تقدير أنه كان صدقاً بقلبه لا يقبل؛ لأنه وقع في حال الاضطراب؛ ولذلك عقب في الآية بقوله تعالى: ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾، وفيه إشارة في قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾. انتهى.

لأن الرضا بالكفر كفر ﴿وَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: من الضالين المضلين عن الإيمان؛ كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وروي أن جبريل - عليه السلام - أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته، فكفر نعمته، وجحد حقه، وأدعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماء أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق، ناوله جبريل خطه فعرفه (٧٥٧)، ﴿نَنْجِيكَ﴾: بالتشديد والتخفيف: نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض، وقرئ: «ننحيك»، بالحاء: نلقيك بناحية مما يلي البحر؛ وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر، قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور، ﴿يَبْدِيكَ﴾: في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن، أو ببذك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عرياناً لست إلا بدنأ من غير لباس، أو بدرعك؛ قال عمرو بن معد يكرب [من الوافر]:

أَعَاذِلُ شِكَتِي بَدَنِي وَسَيْفِي وَكُلُّ مُقْلَصٍ سَلِسِ الْقِيَادِ^(١)

وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - : «بأبدانك» وهو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني: ببذك كله وافيأً بأجزائه، أو يريد: بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها، ﴿لَمَنْ خَلَفَكَ آيَةً﴾: لمن وراءك من الناس علامة، وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق، وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون، ولا يموت أبداً. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه، وكان مطرحه كان على ممز من بني إسرائيل حتى قيل: لمن خلفك، وقيل: (لمن خلفك): لمن يأتي بعدك من القرون، ومعنى كونه آية: أن تظهر للناس عبوديته ومهانتة، وأن ما كان يدعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه - عز وجل - فما الظن بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك، فلا يجترثوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا

٧٥٧ - ذكره القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٤١ - ٢٤٢).

(١) عمرو بن معد يكرب، وكانت له درع من ذهب تعرفه بها العرب. يقول: يا عاذلة، إن سلاحي درعي وسيفي وفرسي المكتنز اللحم المديج الخلق. وقيل: المقلص الطويل القوائم الهين القود. ويروى: سهل القيادة. والمعنى واحد. وإطلاق البدن على الدرع في الأصل مجاز علاقته المجاورة أو المحلية، وأتى بأداة العموم في الفرس لأنه الذي يكثر تغييره. ينظر: ديوانه (٦٠)، والبحر المحيط (١٨٩/٥).

بحالك وبهوانك على الله، وقرئ: «لمن خلقك»، بالقاف، أي: لتكون لخالقك آية كسائر آياته، ويجوز أن يراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك وتميزك من بين المغرقين - لثلا يشبهه على الناس أمرك، ولثلا يقولوا - لادعائك/ ٣٢٣ العظمة إن مثله لا يغرق ولا يموت - آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أن ذلك تعمد منه لإمطة الشبهة في أمرك.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿مَبُوءًا صِدْقٍ﴾: منزلاً صالحاً مرضياً وهو مصر والشام، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾: في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرؤوا التوراة، وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرق عنه، وقيل: هو العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب، اختلافهم في صفته ونعته، وأنه هو أم ليس به، بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠].

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

فإن قلت: كيف قال لرسول الله ﷺ ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: مع قوله في الكفرة: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] .

قلت: فرق عظيم بين قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ بمعنى: الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً، وخيل لك الشيطان خيلاً منه تقديراً، ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾، والمعنى: أن الله - عز وجل - قدم ذكر بني إسرائيل وهم قراءة الكتاب،

(١) قال محمود: «إن قلت كيف قال له عليه السلام: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ مع قوله في الكفرة ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾... إلخ؟ قال أحمد: ولو قال هذا المفسر: إن نفي الشك عنه عليه الصلاة والسلام توطئة لأمره بالسؤال لتقوم حجته على المسؤولين لا ليستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تعين الإبراء بقوله له ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله﴾ فأمر بالسؤال والجواب جميعاً - لكان أقوم وأسلم، والله أعلم.

ووصفهم بأن العلم قد جاءهم؛ لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوة محمد - عليه السلام - وببالغ في ذلك، فقال: فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً - وسبيل من خالجه شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلتها، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحق، فسل علماء أهل الكتاب، يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأخبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله، لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات، والبراهين القاطعة، أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَتَانِيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون على طريقة التهيج والإلهاب؛ كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٦ - ٨٧]، ولزيادة التثبيت والعصمة؛ ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ بَلْ أَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ» (٧٥٨) وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: لا والله، ما شك طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم، وقيل: خوطب رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمته/ ٣٢٣ب، ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم؛ كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك؛ كقول العرب: إذا عز أخوك فهن، وقيل: «إن» للنفي، أي: فما كنت في شك فاسأل، يعني: لا تأمرك بالسؤال؛ لأنك شاك، ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم - عليه السلام - بمعاينة إحياء الموتى، وقرئ: «فاسأل الذين يقرؤون الكتب».

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ﴾

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح، وأخبر به

٧٥٨ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٩٧ - ٢٩٨)، والطبري في تفسيره (٦/ ٦١٠) رقم (١٧٩٠٧) - (١٧٩٠٨) كلاهما عن معمر عن قتادة به.

وذكره السيوطي في: «الدر المنثور» (٣/ ٥٧١).

قال الحافظ في تخریج الکشاف: أخرجه عبد الرزاق، ومن طريق الطبري عن معمر عن قتادة في هذه الآية، قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» انتهى.

الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدّر ومُراد^(١)، تعالى الله عن ذلك.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَنَقَّضْنَا إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾: فهلا كانت، ﴿قَرْيَةٌ﴾: واحدة من القرى التي أهلكتها، تابت عن الكفر، وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف، ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنفه، ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا﴾: بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار، وقرأ أبي، وعبد الله: «فهلا كانت»، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾: استثناء من القرى؛ لأن المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع، بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلاً، والجملة في معنى النفي؛ كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء، وقرئ بالرفع على البدل؛ هكذا روي عن الجرمي والكسائي، روي أن يونس - عليه السلام - بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح، وعجوا^(٢) أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: «إن أجلكم أربعون ليلة»، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك، آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخل دخاناً شديداً، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم، ويسود سطوحهم، فلبسوا المسوح، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحنّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن تراءوا المظالم، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر، وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: «يا حيّ حين لا حيّ، يا حيّ محي الموتى، يا حيّ لا إله إلا أنت» فقالوها، فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا: «اللهم، إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله».

(١) قوله: «لا كتابة مقدر ومُراد» مبني على مذهب المعتزلة أن الله لا يريد الشر. وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى يريد كل كائن خيراً كان أو شراً (ع).

(٢) قوله: «وعجوا» أي رفعوا أصواتهم. أفاده الصحاح (ع).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾: مشيئة القسر^(١) والإلجاء^(٢)، ﴿لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾: على وجه الإحاطة والشمول، ﴿جَمِيعًا﴾: مجتمعين على الإيمان/ ٣٢٤ مطبقين عليه لا يختلفون فيه؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ يعني: إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت؛ وإيلاء الاسم حرف الاستفهام؛ للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه؛ وإنما الشأن في المكروه من هو؟ وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان؛ وذلك غير مستطاع للبشر.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ﴾ يعني: من النفوس التي علم أنها تؤمن، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بتسهيله، وهو منح اللطاف، ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: قابل الإذن بالرجس، وهو الخذلان^(٣)، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون، وهم المصرون على الكفر، كقوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وسمي الخذلان: «رجساً» وهو العذاب؛ لأنه سببه، وقرئ: «الرجز»، بالزاي، وقرئ: «ونجعل»، بالنون.

(١) قوله: «مشيئة القسر» هذا مذهب المعتزلة، وذلك أنهم أوجبوا على الله الصلاح والأصلح، وإيمان الكل أصلح، لكن الآية تخالف مذهبهم فقالوا: إنه تعالى أراد إيمان الكل إرادة تخيير للعباد، فلم يلزم وقوع المراد، ولو أراد إرادة إجبار لوقع، وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً، ولزوم وقوع المراد لا ينافي تخيير العباد، لما لهم من الكسب في أفعالهم الاختيارية وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله، كما تقرر في التوحيد.

(٢) قال محمود: «المراد مشيئة القسر والإلجاء» قال أحمد: وهذا من دسه الاعتزال مخلصاً، وخلط الباطل بالحق مدلساً. ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر - إذ مقتضى «لولا» امتناع، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد، إذ يزعمون أن الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض، فلم يؤمن إلا بعضهم - أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر والإلجاء، ليتم له أن المشيئة المرادة في الآية لم تقع؛ إلا أنا نوافقه على أن الله تعالى ما قسر الخلق ولا سلب اختيارهم، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختياراً له وقصداً، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل. بل هو أجدر بالتعطيل، فوجب رده وإقرار الظاهر على حاله، نعوذ بالله من زيف الشيطان وإضلاله، والله الموفق.

(٣) قوله: «وهو الخذلان» تأويل الرجس بالخذلان على مذهب المعتزلة، وعلى مذهب أهل السنة لا حاجة إلى تأويله (ع).

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧١)

﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: من الآيات والعبر، ﴿وَمَا تُعْطِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ﴾: والرسول المنذرون، أو الإنذارات، ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: لا يتوقع إيمانهم، وهم الذين لا يعقلون، وقرئ: «وما يغني»، بالياء، و«ما»: نافية، أو استفهامية.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ (١٧٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾

﴿آبَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: وقائع الله - تعالى - فيهم، كما يقال: «أيام العرب»: لوقائعها، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾: معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله: ﴿إِلَّا مِثْلَ آبَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا، على حكاية الأحوال الماضية، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: ومن آمن معهم، كذلك ﴿نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾: مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم، ونهلك المشركين. و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾: اعتراض، يعني: حق ذلك علينا حقًا، وقرئ: «ننج»، بالتشديد.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٤)

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾: يا أهل مكة، ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾: وصحته وسداده، فهذا ديني فاسمعوا وصفه، واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه بعين الإنصاف، لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم، ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ﴾: وإنما وصفه بالتوفي، ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى، فيعبدون ما لا يقدر على شيء، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن الله أمرني بذلك، بما ركب في من العقل، وبما أوحى إلي في كتابه، وقيل: معناه: إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه - أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم - فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري، واقطعوا غنى أطماعكم، واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا أختار الضلالة على الهدى؛ كقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ [الكافرون: ١ - ٢]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أصله: بأن أكون، فحذف الجار، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف: الجارة مع: «إن»، و«أن»، وأن يكون من الحذف غير المطرد، وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع/ ٣٢٤ ب بما تؤمر.

﴿وَأَنْ أَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦٥)

فإن قلت: عطف قوله: ﴿وَأَنْ أَقَمَّ﴾ على: (أن أكون)؛ فيه إشكال؛ لأن «أن»: لا تخلو من أن تكون التي للعبارة، أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة، وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول؛ لأن عطفها على الموصولة يأبى ذلك، والقول بكونها موصولة مثل الأولى، لا يساعد عليه لفظ الأمر، وهو: (أقم)، لأن الصلة حقها أن تكون جملة تحتل الصدق والكذب.

قلت: قد سوغ سيبويه أن توصل: «أن» بالأمر والنهي، وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال، (أقم وجهك): استقم إليه، ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً، و﴿حَنِيفًا﴾: حال من الدين، أو من الوجه.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦٦)

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضررك، فكفى عنه بالفعل إيجازاً، ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إذا: جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان، وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾

يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٧)

أتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، أن الله - عز وجل - هو الضار النافع، الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيق إذا بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّي أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي﴾ [الزمر: ٣٨].

فإن قلت: لم ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الثاني؟

قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً: الإرادة، والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راد لما يريده منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدل بما ذكر على ما ترك، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ والمراد

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٧٨)

﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾ : فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه ، ومن أثر الضلال فما ضر إلا نفسه ، واللام وعلى : دلا على معنى النفع والضرر ، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل ، وفيه حث على إشار الهدى وإطراح الضلال مع ذلك ، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ : بحفيظ موكل إلي أمركم وحملكم على ما أريد ؛ إنما أنا بشير ونذير .

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٧٩)

﴿وَاصْبِرْ﴾ : على دعوتهم ، واحتمال أذاهم ، وإعراضهم ، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ / ٣٢٥ : لك بالنصرة عليهم والغلبة ، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار ، فقال : «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَعْدِي أَثَرَةً ، فَأَصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي» (٧٥٩) يعني : أني أمرت في هذه الآية

٧٥٩ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٤٠ / ٢) : غريب بهذا اللفظ ، وهو في تفسير الثعلبي ، عن أنس بغير سند ، أ.هـ . وفي الصحيحين عن عبد الله بن بن زيد بن عاصم : أخرجه البخاري (٣٦٩ / ٨) : كتاب المغازي : باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان ، حديث (٤٣٣٠) وطرفه في (٧٢٤٥) ، ومسلم (٤ / ١٦٦ - ١٦٧ - النووي) : كتاب الزكاة : باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام ، حديث (١٣٩ / ١٠٦١) كلاهما من طريق عمرو بن يحيى بن عماره عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد بن عاصم به وله شاهد أيضاً من حديث أسيد بن حضير : أخرجه البخاري (٤٩٤ / ١٤) : كتاب الفتن : باب قول النبي ﷺ : «سترون بعدي أموراً تنكرونها» ، حديث (٧٠٥٧) ، ومسلم (٦ / ٤٧٦ - النووي) : كتاب الإمامة : باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستثناهم ، حديث (١٨٤٥ / ٤٨) ، والترمذي (٤ / ٤٨٢) : كتاب الفتن : باب في الأثرة وما جاء فيه ، حديث (٢١٨٩) ، والنسائي (٨ / ٢٢٤) : كتاب آداب القضاة ، باب ترك استعمال من يحرص على القضاء ؛ كلهم من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن أسيد بن حضير به . قال الترمذي : وهذا حديث حسن صحيح .

قال ابن حجر تعليقاً على حديث أسيد بن حضير : ومن حديث أسيد بن حضير ليس فيه كون الآية سبب ذلك ، بل سببه قسمة غنائم حنين أ.هـ وله طريق آخر عن أسيد بن حضير : أخرجه الحاكم في المستدرک (٧٩ / ٤) من طريق يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك عن أسيد بن حضير به .

وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

قال الحافظ : ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند . والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد الله بن زيد في أثناء حديث ، ومن حديث أسيد بن حضير ، ليس فيه كون الآية سبب ذلك ، بل سببه قسمة =

بالصبر على ما سامتني الكفرة، فصبرت، فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة، قال أنس: فلم نصبر، وروي أن أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقتة الأنصار، ثم دخل عليه من بعد، فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب، قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً» ح، قال معاوية: فماذا قال؟ قال: «فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي» ح، قال: فاصبر؛ قال: إذن نصبر. (٧٦٠) فقال عبد الرحمن بن حسان [من الوافر]:

أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ أَمِيرَ الظَّالِمِينَ نَشَا كَلَامِي
بِأَنَا صَابِرُونَ فَمُنْظَرُوكُمْ إِلَى يَوْمِ الثَّغَابِ وَالْخِصَامِ^(١)
عن رسول الله - ﷺ -: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ يُوْسُفَ وَكَذَّبَ بِهِ، وَبَعْدَ مَنْ عَزَقَ مَعَ فِرْعَوْنَ» (٧٦١).

= غنائم حنين. انتهى.

٧٦٠ - أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٥٦/٦ - ٥٧) رقم (٧٤٨٨) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب؛ أن معاوية لما قدم المدينة... الحديث.
وأخرجه إسحاق بن راهويه والحاكم في مستدركه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٤١/٢).
قال الحافظ: أخرجه إسحاق بن راهويه. ومن طريقه الحاكم والبيهقي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل؛ أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري؛ فقال معاوية: تلقانا الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار، فما يمنعكم أن تلقوني؟ قال: لم تكن لنا دواب، فقال معاوية: فأين النواضح. قال أبو قتادة. عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر. ثم قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال: أما إنكم سترون بعدي أثرة. قال معاوية: فما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر حتى نلقاه. قال: فاصبروا حتى تلقوه. فقال عبد الرحمن بن حسان حين بلغه ذلك - فذكر البيتين. وقال: يا أمير المؤمنين. انتهى.

٧٦١ - تقدم وينظر حديث (٣٤٦).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: تقدم إسناده في آل عمران. ويأتي في آخر القرآن. انتهى.

(١) لعبد الرحمن بن حسان، حين دخل معاوية بن أبي سفيان بن حرب المدينة، فتلقته الأنصار وتخلف أبو قتادة، ثم دخل عليه فقال له: مالك تخلفت؟ فقال: لم يكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: يا معشر الأنصار ستلقون بعدي أثرة. قال معاوية، فماذا قال؟ قال: فاصبروا حتى تلقوني. قال: فاصبروا. قال: إذا نصبر. والثناء يقال للخير، وقد يقال للشر. والثناء: خاص بالشر. وروي «نشا كلامي» ومنظروكم: مهلككم. أي أنت وقومك. والثغابن: ظهور الغبن للعمال في تجارات الأعمال. والخصام: المخاصمة والمجادلة، أي إلى يوم القيامة.

سُورَةُ هُودٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ ١٢ وَ ١٧ وَ ١١٤ فَمَدَنِيَّةٌ]

وهي مائة وثلاث وعشرون آية [نزلت بعد سورة يونس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُنْتُ أَهَكَّتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾

﴿أَهَكَّتْ ءَايَتُهُ﴾: نظمت نظماً رصيناً محكماً، لا يقع فيه نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة، من «حكم»: بضم الكاف، إذا صار حكيماً، أي: جعلت حكيمة؛ كقوله تعالى: ﴿ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]، وقيل: منعت من الفساد، من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحَكَمَةَ لتمنعها من الجماح؛ قال جرير [من الكامل]:

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكَمُوا سَفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا^(١)
وعن قتادة: أحكمت من الباطل، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصلاً، سورة سورة، وآية آية، وفرقت في التنزيل، ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد، أي: بين ولخص، وقرئ: ﴿أَهَكَّتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: «ثم فصلت» أي: فرقت بين الحق والباطل.

فإن قلت: ما معنى ثم؟

قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل،

(١) لجرير، يقول: يا بني حنيفة «امنعوا سفهاءكم عني كما تمنع الدابة بالحكمة، فإن غضبي عليكم شديد. وفيه ضرب من التهديد، فخوفه عليهم كناية عن ذلك. وأن أغضب: مفعول أخاف، عليكم غضبي.

ينظر ديوانه (٥٠)، اللسان: حكم، الدر المصون (١/١٨٤).

وكتاب: خبر مبتدأ محذوف، وأحكمت: صفة له، وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أي: من عنده إحكامها وتفصيلها، وفيه طباق حسن؛ لأنَّ المعنى: أحكمها حكيم وفصلها، أي: بينها وشرحها/ ٣٢٥ ب خبير عالم بكيفيات الأمور.

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ﴾ (٢) ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (٣) ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤)

﴿أَلَا تَعْبُدُوا﴾: مفعول له على معنى: لثلاثا تعبدوا، أو تكون «أن»: مفسرة؛ لأنَّ في تفصيل الآيات معنى القول، كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله، ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي ﷺ إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة؛ ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله، إنني لكم نذير؛ كقوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَ الرِّقَابَ﴾ والضمير في (منه): الله - عز وجل - أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته؛ كقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أو هي صلة لنذير، أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾؟

قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا، والاستغفار: توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَغْفِرُوا﴾ فصلت: [٣٠]، ﴿يُمِيعَكُمْ﴾: يطوِّل نفعمكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى أن يتوفاكم؛ كقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّكُمْ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل: [٩٧]، ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾: ويعطى في الآخرة كل من كان له فضل في العمل، وزيادة فيه جزاء فضله لا ينقص منه، أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾: وإن تولوا، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هو يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل، وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: ﴿وإن تولوا﴾، من ولي.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَعْدُنِ﴾ (٥)

﴿يَتَوَنَّ صُدُورُهُمْ﴾: يزورون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدرة، ومن أوزر عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه، ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يعني: ويريدون ليستخفوا من الله، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم، ونظير إضمار يريدون - لقود المعنى^(١) إلى إضماره - الإضمار في قوله تعالى: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، معناه: فضرب فانفلق، ومعنى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: ويزيدون الاستخفاء^(٢) حين يستغشون ثيابهم - أيضاً - كراهة لاستماع كلام الله تعالى؛ كقول نوح - عليه السلام -: ﴿جَعَلُوا أَصْوَعُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾ يعني: أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغنائهم ثيابهم، ونفاقهم غير نافق عنده، روي أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله ﷺ المحبة، وله منطلق حلو، وحسن سياق للحديث، فكان يعجب رسول الله ﷺ / ٣٢٦ ﷺ مجالسته ومحادثته، وهو يضمخ خلاف ما يظهر، وقيل: نزلت في المنافقين، وقرئ: «تثنوني صدورهم»، واثنوني: «افعول» من الثني، كاحلولي من الحلاوة، وهو بناء مبالغة، قرئ: بالتاء والياء، وعن ابن عباس: «لثنوني»، وقرئ: «تثنون» وأصله: «تثنون» «تفعول» من الثن^(٣) وهو ما هش وضعف من الكلا، يريد: مطاوعة صدورهم للثني، كما ينثني الهش من النبات، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم، وقرئ: «تثنون»، من اثنان: «افعال» منه، ثم همز كما قيل: ابيأضت، وادهأمت، وقرئ: «تثنوي»، بوزن ترعوى.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ ﴿٦﴾

فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ بلفظ الوجوب^(٤) وإنما هو تفضل؟

- (١) قوله: «لقود المعنى» أي لتأدية المعنى (ع).
- (٢) قوله: «ويزيدون الاستخفاء» الظاهر أن هذا هو الخبر عن قوله: ومعنى ألا حين الخ. كما قال أولاً، يعني ويريدون (ع).
- (٣) قوله: «من الثن» في الصحاح «الثن» بالكسر: ييس الحشيش.
- (٤) قال محمود: «إن قلت كيف قال على الله رزقها بلفظ الوجوب... إلخ» قال أحمد: كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف في الدنيا أو ثواب في الآخرة، فذلك كله فضل ولا واجب على الله تعالى، وإن ورد مثل هذه الصيغة فمحمول على أن الله - عز وجل - لما وعدهم فضله - ووعدده خبر، وخبره صدق - وجب وقوع الموعود: أي استحيل في العقل أن لا يقع. للزوم الخلف في خبر الصادق، فعبر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف، وبينهما هذا الفرق المذكور. هذه

قلت: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم، رجع التفضل واجباً كندور العباد، والمستقر: مكانه من الأرض ومسكنه، والمستودع؛ حيث كان مودعاً قبل الاستقرار، من صلب، أو رحم، أو بيضة، ﴿كل﴾: كل واحد من الدواب، ورزقها، ومستقرها، ومستودعها في اللوح، يعني: ذكرها مكتوب فيه مبين.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض، وارتفاعه فوقها إلا الماء، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض، وقيل: وكان الماء^(١) على متن الريح، والله أعلم بذلك، وكيفما كان فالله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام، كانت أحوج إليه وإلى إمساكه، ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾: متعلق بخلق، أي: خلقهن لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات، واجتناب: المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم، يريد: ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون.

فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟

قلت: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له، كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتاً؛ لأن النظر والاستماع من طريق العلم.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال المؤمنين والكافرين: فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟

قلت: الذين هم أحسن عملاً هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، فخصهم بالذكر وأطرح ذكر من وراءهم؛ تشريفاً لهم، وتنبهاً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم، وعن النبي ﷺ:

قاعدة أهل الحق. وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾، والله الموفق.

(١) قوله: «وقيل: وكان الماء» لعله «كان» بدون واو. ويمكن أن المعنى كان عرشه على الماء وكان الماء (ع).

لِيُنَلِّقُكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَأَوْزَعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ» (٧٦٢)، قرئ: «ولئن قلت إنكم مبعوثون»، بفتح الهمزة، ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق/ ٣٢٦ ب عنك تشتري لنا لحماً، وأنت تشتري بمعنى علك، أي: ولئن قلت لهم: لعلكم مبعوثون، بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه، ولا تبتوا القول بإنكاره، لقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: باتين القول ببطلانه، ويجوز أن تضمن: «قلت» معنى: «ذكرت»، ومعنى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أن السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر؛ تشبيهاً له به، أو أشاروا^(١) بهذا إلى القرآن؛ لأن القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً، فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره، وقرئ: «إن هذا إلا ساحر»، يريدون الرسول، والساحر: كاذب مبطل.

﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَتَوْهُ مَعْدُودَةً لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

﴿الْعَذَابَ﴾: عذاب الآخرة، وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين، ﴿إِلَّا أَتَوْهُ﴾: إلى جماعة من الأوقات، ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾: ما يمنعه من النزول؛ استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء، و﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾: منصوب بخبر ليس، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها؛ إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾: وأحاط بهم، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على جهة الاستهزاء. والمعنى: ويحقيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في أخباره.

٧٦٢ - أخرجه الطبري في تفسيره (٧/٧) رقم (١٨٠٠٣) من طريق داود بن المحبر عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن عبد الله بن عمر به. وأخرجه الثعلبي في تفسيره، وداود بن المحبر في كتابه «العقل»؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٤٥/٢).

قال الحافظ: أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل، والحرث في مسنده عنه، والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر، وداود ساقط. وأخرجه ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك، وإسناده أسقط من الأول. انتهى.

(١) قوله: «أو أشاروا بهذا» لعله: وأشاروا (ع).

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۙ﴾ (٩) ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْاءَ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۙ﴾ (١٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۙ﴾ (١١)

﴿الْإِنْسَانَ﴾: للجنس، ﴿رَحْمَةً﴾: نعمة من صحة وأمن وجدة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾: ثم سلبنا تلك النعمة، ﴿إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾: شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر، ولا تسليم لقضائه، ولا استرجاع، ﴿كَفُورٌ﴾: عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نساءً له، ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ أي: المصائب التي ساءتني، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ﴾: أشر بطر، ﴿فَخُورٌ﴾: على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر، ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾: آمنوا، فإن عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۙ﴾ (١٢)

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين، لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم، ومن اقتراحاتهم، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾: وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكاد يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرك الله منه وميجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم، واستهزائهم، واقتراحهم، بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ﴾ أي: لعلك تترك أن تلقيه إليهم، وتبلغه إياهم؛ مخافة ردهم له وتهاونهم به، ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾: بأن تتلوه عليهم، ﴿أَن يَقُولُوا﴾: مخافة أن يقولوا / ١٣٢٧، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ﴾ أي: هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكثر والملائكة، ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نفتخره، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردوا أو تهاونوا أو اقترحوا، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفهمهم واستهزائهم.

فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟

قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرأ، ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد: السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا

أردت الحدوث قلت: سائد، وجائد، ونحوه، كانوا قوماً عامين في بعض القراءات، وقول السمهري العكلي [من الطويل]:

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيمُ فَسَامِنٌ بِهَا وَكَرَامُ النَّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا^(١)

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

(أم): منقطعة، والضمير في: ﴿افْتَرَيْنَاهُ﴾ لما يوحى إليك، تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه، قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد، ﴿مِثْلِهِ﴾ بمعنى: أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له، ﴿مُفْتَرِيَتٍ﴾: صفة لعشر سور، لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله، قاودهم^(٢) على دعواهم، وأرخي معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي، ولم يوح إلي، وأن الأمر كما قلت، فأتوا أنتم - أيضاً - بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب: فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام.

فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟

قلت: معناه: مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى.

﴿فَالْتَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لَكُمْ فَأَعْلَمُوا﴾ بعد قوله:

﴿قُلْ﴾؟

قلت: معناه: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين؛ لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا

يتحدونهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ﴾ [القصص: ٥٠]، ويجوز

أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ؛ كقوله [الطويل]:

(١) للعكلي. والشحوب تغير اللون. وأنشده أبو زيد شاهداً على أن الشحوب في لغة بني كلاب الهزال، وهو أنسب بالمقابلة لقوله بمنزلة مجدبة صفتها أنها. أما اللئيم الذي همه بطنه، فهو سامن فيها لكثرة أكله. وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل، لأنهم يطعمون ولا يطعمون. و«فاعل» من سمن شاذ، وقياسه «فعل».

ينظر: البحر المحيط (٢٠٧/٥)، روح المعاني (١٩/١٢)، الدر المصون (٨٣/٤).

(٢) قوله: «قاودهم» ضمن معنى وافقهم وسائرهم (ع).

فَإِنْ شِئْتُمْ حَرَّمْتُ النَّسَاءَ سِوَاكُمْ (١)

وجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير في: (لم يستجيبوا): لمن استطعتم، يعني: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه، ﴿و﴾: اعلّموا عند ذلك، ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا﴾: الله وحده، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ / ٣٢٧ب: مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد، ومعنى: (فهل أنتم مسلمون): فهل أنتم مخلصون؟

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥)
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿

﴿نُوفِّ إِلَيْهِمْ﴾: نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية، كاملة، من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق، وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحم وتصدق: فعلت حتى يقال: فقيل: ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء، فقد قيل: وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن، وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسهم لهم في الغنائم، وقرئ: «يوف»، بالياء على أن الفعل لله - عز وجل - «وتوف إليهم أعمالهم» بالتاء، على البناء للمفعول، وفي قراءة الحسن: «نوفي»، بالتخفيف، وإثبات الياء؛ لأن الشرط وقع ماضياً؛ كقوله [من البسيط]:

يَقُولُ: لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرَمٌ^(٢)

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾: وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة؛ إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا،

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

﴿وَيَبْطُلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له، وقرئ: «وبطل» على الفعل، وعن عاصم: «وباطلاً» بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إيهامية، وينتصب بيعملون، ومعناه: وباطلاً، أي: باطل كانوا يعملون، وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَآلِنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧)

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ﴾: معناه: أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة^(١)، أي: لا يعقبونهم في المنزل ولا يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً، وتبايناً بيناً، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كان على بينة، ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾: أي: على برهان من الله، وبيان أن دين الإسلام حق وهو دليل العقل، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾: ويتبع ذلك البرهان، ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: أي: شاهد يشهد بصحته، وهو القرآن، (منه): من الله، أو شاهد من القرآن، فقد تقدم ذكره آنفاً، ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾: ومن قبل القرآن، ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾: وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان - أيضاً - من قبل القرآن كتاب موسى، وقرئ: «كتاب موسى» بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه، وهو الدليل على أن القرآن / ١٣٢٨ حق، (ويتلوهُ): وقرأ القرآن، (شاهد منه): شاهد ممن كان على بينة؛ كقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾: ويتلو من قبل القرآن والتوراة، ﴿إِمَامًا﴾: كتاباً مؤتمناً به في الدين قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني من كان على بينة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: يؤمنون بالقرآن، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: أهل مكة، ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله ﷺ ﴿فَآلِنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾، وقرئ: «مُرية»، بالضم، وهما الشك، ﴿مِّنْهُ﴾: من القرآن أو من الموعد.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا

(١) قوله: «فمن كان على بينة» عبارة النسفي: كمن كان. وعبارة الخازن: أفمن كان على بينة من ربه، أي كمن كان يريد... إلخ (ع).

كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَائَهُ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿يَعْرِضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾: يحبسون في الموقف، وتعرض أعمالهم، ويشهد عليهم، ﴿الْأَشْهَادُ﴾: من الملائكة والنبیین بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً، ويقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: فواخزيه، ووافضيحته، والأشهاد: جمع شاهد أو شهيد، كأصحاب أو أشراف، ﴿وَيَعْتُونَهَا عِوَجًا﴾: يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد، وهم الثانية؛ لتأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به، ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد، ﴿يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾، وقرئ: «يضعف»، ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكرهاتهم له، كأنهم لا يستطيعون السمع^(١)، ولعل بعض المجبرة^(٢) يتوهم إذا عثر عليه فيوعوع^(٣) به على أهل العدل، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجّه سمعي، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائَةٍ﴾: أنهم جعلوا آلهم أولياء من دون الله، وولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من

(١) قال محمود: «أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكرهاتهم له كأنهم... إلخ» قال أحمد: أهل الحق وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل، لا ينفون استطاعة العبد نفسها ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفي الاستطاعة جملة هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة. والحق مع الزمخشري في هذا الموضع إلا في غفلته حيث يقول: فيوعوع بها على أهل العدل، يعني الآية المذكورة. وهذه سقطه عظيمة، وهب أن المجبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراده الآية وعوعة، وإنما تلا كتاب الله تعالى غير أن خطئه في تصحيح معتقده الباطل به. وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس أو الحارث بن حلزة. وأما أدب القرآن فيضيق عن أسهل من ذلك، والله الموفق.

(٢) قوله: «ولعل بعض المجبرة» إن كان مراده بهم أهل السنة كعاداته، فهم لا يسلبون عن العبد الاستطاعة في الفعل، بل يشبّهون له الكسب والاستطاعة مع الفعل، وإن كان مراده القائلين بالمجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء فلا ضير. ونقل الخازن عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإنه قال: ما كانوا يستطيعون السمع، وهو طاعته. وما كانوا يبصرون. وأما في الآخرة فإنه قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿خَشِيعَةً أَعْيُنُهُمْ﴾.

(٣) قوله: «فيوعوع به» في الصحاح: الوعوعة صوت الذئب.

أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ فكيف يصلحون للولاية؟ وقوله: ﴿يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾: اعتراض بوعيد، ﴿خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه، وهو أنهم خسروا أنفسهم، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾: وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو: ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من الآلهة وشفاعتها، ﴿لَا جَرَمَ﴾: فسر في مكان آخر، ﴿هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾: لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: واطمأنوا إليه، وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة؛ ومنه قولهم للشيء: الدنيء/ ٣٢٨ ب الخبيت؛ قال [من الخفيف]:

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرُّزِّ قِي وَلَا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيثُ^(١)
وقيل: التاء فيه بدل من التاء.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع^(٢)، وهو من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعتاب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم، أو الذي جمع بين البصر والسمع^(٣)، على أن تكون الواو في: (والأصم)، وفي: (والسميع): لعطف الصفة على الصفة؛ كقوله [من السريع]:

الصَّابِحِ فَالْعَازِمِ فَالْآيِبِ^(٤)

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو... إلخ» قال أحمد: بخلافها على الوجه الأول، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف. وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين ففيه نظر. فإن امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين، وإنما ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثاني، فإن مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً، ولكن في صفتين متعدتين، والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

(٣) قوله: «أو الذي جمع بين البصر والسمع» لعله: والذي (ع).

(٤) تقدم.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني: الفريقين، ﴿مثلاً﴾: تشبيهاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

أي: أرسلنا نوحاً بأنّي لكم نذير، ومعناه: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: بالكسر، فلما اتصل به الجار، فتح كما فتح في: (كأن) والمعنى: على الكسر، وهو قولك: إن زيداً كالأسد، وقرئ: بالكسر على إرادة القول، ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾: بدل من: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: أرسلناه بآلاً تعبدوا، ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾، أو تكون: «أن»: مفسرة، متعلقة بأرسلنا أو بنذير، وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الأليم فيه.

فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟

قلت: مجازي مثله؛ لأن الأليم هو المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجدّ جدّه.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرْنَكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿الْمَلَأُ﴾: الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملؤوا بالأمر؛ لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور، واضطلعوا بها وبتدبيرها، أو لأنهم يتمالؤون، أي: يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة^(١)، أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة، ﴿مَا تَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة^(٢)، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر، لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملاء وموازلهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: وما نرى لكم علينا من فضل، أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً، والأراذل جمع الأراذل؛

(١) قوله: «والمجالس أبهة» كسكرة: عظمة (ع).

(٢) قال محمود: «هو تعريض بأنهم كانوا أحق منه بالنبوة... إلخ» قال أحمد: ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأي. ولكنه ترك الهمز استثقلاً؛ إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز، والمعنيان متقاربان، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين، أحدهما: أن المتبعين أراذل ليسوا قدوه ولا أسوة. والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه. ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية. وغرض هؤلاء أن لا يقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به، والله أعلم.

كقوله: ﴿أَكْثَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] «أحاسنكم أخلاقاً»، وقرئ: «بادي الرأي»، بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أول الرأي أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أول رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامه، أرادوا: أن اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر؛ وإنما استردلوا المؤمنين لفقرهم، وتأخرهم في الأسباب الدنيوية؛ لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك، وبينون عليه / ٣٢٩ إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلّ عنهم أن التقدّم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها، على أن الأنبياء - عليهم السلام - بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغرين لشأنها وشأن من أدخل إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله، ﴿مِنْ فَضْلٍ﴾: من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة، ﴿بَلْ نَقُصُّكُمْ كَذِبًا﴾: فيما تدعون

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَهٍ مِنْ رَبِّي وَمَآئِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأَ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْكُمُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني، ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَهٍ﴾: على برهان، ﴿مِنْ رَبِّي﴾: وشاهد منه يشهد بصحة دعواي، ﴿وَمَآئِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾: بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوّة.

فإن قلت: فقوله: ﴿فَعُمِيتَ﴾: ظاهر على الوجه الأول، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟

قلت: الوجه: أن يقدر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة؛ ومعنى «عميت»: خفيت، وقرئ: «فعميت» بمعنى: أخفيت، وفي قراءة أبي: فعماها عليكم.

فإن قلت: فما حقيقته؟

قلت: حقيقته: أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى «فعميت عليكم البينة» فلم تهدكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قلت: فما معنى قراءة أبي؟

قلت: المعنى: أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله^(١) وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه؛ والدليل عليه قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهَا وَأَنْشَأْنَا كَرِهُونَ﴾ يعني: أنكرهم على قبولها ونفسركم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جاء بضميري المفعولين متصلين جميعاً، ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً؛ كقولك: أنزلكم إياها، ونحوه: (فسيكفيهم الله)، ويجوز: فسيكفيك إياهم، وحكي عن أبي عمرو إسكان الميم، ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلصة خفيفة، فظنها الراوي سكوناً، والإسكان الصريح: لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر، والضمير في قوله: ﴿لَا أَشْكُكُمْ عَلَيْهِ﴾: راجع إلى قوله لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ إِنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]، وقرئ: «ما أنا بطارد الذين آمنوا»، بالتثنية على الأصل.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَنْتُمْ مُلْكُوا رَبَّكُمْ﴾؟

قلت: معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلال ذلك مما تقرفونهم به^(٢) من بناء إيمانهم على بادئ الرأي من غير نظر وتفكر، / ٣٢٩ ب وما علي أن أشق عن قلوبهم وأتعرّف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون؛ ونحوه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة، ﴿تَجْهَلُونَ﴾: تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل؛ من قوله [من الوافر]:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا.....^(٣)

(١) قوله: «فخلاهم الله» لم يفسره بمعنى أخفاها، لأن الله لا يفعل الشر عند المعتزلة، وعند أهل السنة يفعل كل ممكن (ع).

(٢) قوله: «ذلك مما تقرفونهم به» أي ترمونهم وتعيبونهم. أفاده الصحاح (ع).

(٣) ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا لعمرو بن كلثوم من معلقته، و«ألا» استفاحية تفيد التوكيد - و«لا» ناهية. والنون لتوكيد النهي. أي: لا يسفهن أحد علينا ويبدأن بالشر، ونجهل: نصب بأن مضمرة بعد فاء السببية لأنه بعد النهي. =

أو تجهلون بقاء ربكم، أو تجهلون أنهم خير منكم، ﴿مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ﴾: من يمني من انتقامه، ﴿إِنْ كَرِهْتُمْ﴾: وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء، ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾: معطوف على: ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول: أنا أعلم الغيب، ومعناه: لا أقول لكم: عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا زَيْلُكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾: حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلاً، ولا أحكم على من استرذلتهم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، كما تقولون؛ مساعدة لكم ونزولاً على هواكم، ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا عابه، وأزرى به: قصر به، يقال: ازدرت عينه، واقتحمت عينه.

﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٣)

﴿جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾: معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته؛ كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب، ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: من العذاب المعجل.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ بِإِذْنِهِ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْحَرُونَ﴾ (٣٥)

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إليّ؛ إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه، ﴿إِنْ شَاءَ﴾ يعني: إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم، وقرأ ابن عباس - رضي الله عنه -: «فأكثر جدلنا».

فإن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟

= وسمي جزاء الجهل جهلاً مشاكلة، أي: فنجازيه فوق فعله بنا، أو فوق جهل كل جاهل وزيادة عليه.

البيت من معلقته المشهورة ينظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٠٢)، والتبيان في علم المعاني والسريع والبيان (٣٤٨)، والبحر (١٨٦/١)، القرطبي (١٤٥/١) والدر المصون (١٢٦/١).

(١) قال محمود: «إن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين... إلخ» قال أحمد: ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء قول القائل: أنت طالق إن شربت إن أكلت. وهي المترجمة بمسألة اعتراض الشرط على الشرط. والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت لم يحث. وإن أكلت ثم شربت =

قلت: قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾: جزاؤه ما دلّ عليه قوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي﴾، وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنتني.

فإن قلت: فما معنى قوله: ^(١) ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾؟

قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمي ذلك إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلفظ به: سمي إرشاداً وهداية، وقيل: ﴿أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾: أن يهلككم من غوى الفصيل غوى، إذا بشم فهلكت ^(٢)، ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله، ومواعظه، وسائر أطافه، كيف ينفعكم نصحي؟ ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾: وإجرامي بلفظ المصدر / ٣٣٠ أوالجمع؛ كقوله: والله يعلم إسرارهم وأسرارهم؛ ونحو: جرم وأجرام، قفل وأقفال؛ وينصر الجمع أن فسرهم الأولون بأنامي، والمعنى: إن صح وثبت أني افتريته، فعلي عقوبة إجرامي، أي: افتراضي، وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتألّبوا عليّ ^(٣)، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ يعني: ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه، ومعنى: ﴿وَمِمَّا يُخْرِثُونَ﴾؛ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾
﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

﴿لَنْ يُؤْمِنَ﴾: إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع، ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾: إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها، ﴿فَلَا يَتَّبِعْ﴾: فلا تحزن حزن بائس مستكين؛ قال [من البسيط]:
مَا يَقْسِمُ اللَّهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَلِسٍ مِنْهُ وَأَقْعِدْ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَالِ ^(٤)

= حنث. وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر، أي للذي يليه، ثم جعلهما معاً جزاء للشرط المتوسط، ولذلك سر في العربية لا تطول بذكره وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية كما رأيت، والله أعلم.

(١) قوله: «فإن قلت فما معنى... إلخ» السؤال وجوابه مبني على مذهب المعتزلة: أن الله لا يخلق الشر. أما على مذهب أهل السنة فالإغواء على ظاهره: خلق الغي - أي الضلال - في القلب (ع).

(٢) قوله: «إذا بشم فهلكت» في الصحاح «البشم» التخم. يقال: بشمت من الطعام - بالكسر. وبشم الفصيل من كثرة شرب اللبن (ع).

(٣) قوله: «وتألّبوا عليّ» أي تتجمعوا. أفاده الصحاح (ع).

(٤) لحيان، يقال: ابتأس إذا حزن من كثرة وقوع البأس والمكاره به. والبال القلب أو الشأن. يقول: =

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك، وإيذائك، ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم، ﴿يَأْخُذُكَ﴾: في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن الله معه أعياناً تكلؤه أن يزيغ في صناعته عن الصواب، وألاً يحول بينه^(١) وبين عمله أحد من أعدائه، و﴿وَوَحَيْنَا﴾: وأنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع، عن ابن عباس - رضي الله عنه -: «لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر»، ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: ولا تدعني في شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك، ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾: إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك، وقضي به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه؛ كقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَاتِهِمْ عَذَابٌ عَزِيزٌ مَرْدُودٌ﴾ [هود: ٧٦].

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٢٨) ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٩)

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾: حكاية حال ماضية، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾: ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء^(٢) في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ يعني: في المستقبل، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾: منا الساعة، أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع، فإننا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا، أو: إن تستجهلونا، فإننا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق، وروي أن نوحاً - عليه السلام - اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج،

= ما يقسمه الله لك من نعمة أو نعمة فاقبله حال كونك غير متحزن منه، أي مما قسمه الله لك. واقعد كريماً غير مهان طيب الحال والشأن، أو مستريح القلب من نصب الدنيا. وروي: وأقعد بقطع الهزمة، من أقعد المتعدي، فكريماً حال على الأول، ومفعول على الثاني، وفيه تجريد.

ينظر: ديوانه ص ١٤٧، ولسان العرب (بأس)، والتنبيه والإيضاح ٢٦١/٢، وتاج العروس (بأس)، وأساس البلاغة (بأس)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٣٢٨/١، والمخصص ٣١٧/١٢.

(١) قوله: «وأن لا يحول بينه» لعله: وأن يحول (ع).

(٢) قوله: «برية بهماء» أي لا يهتدي فيها الطريق. ويقال: الممر أبهم، وكذا الرجل الشجاع أبهم، كذا في الصحاح.

وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب/ ٣٣٠ب، والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم - عليه السلام - وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة، وقيل: إن الحواريين قالوا لعيسى - عليه السلام -: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب، فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، قال: فضرب الكتيب^(١) بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى - عليه السلام -: هكذا أهلكك؟ قال: لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت، قال: حدثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير، ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد تراباً، ﴿سَمِيعٌ يَلْمِزُ﴾: في محل النصب بتعلمون، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا، وهو الغرق، ﴿وَنَحْنُ عَلَيْهِ﴾: حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: وهو عذاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُنُوتًا أُنْجِلَ فِيهَا مِنَ الَّذِينَ فِيهَا الَّذِينَ يَتْلُونَ الْكِتَابَ وَأُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَنَا الْمُبِينَةَ﴾
سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الرَّسُكِيُّ فِيهَا يَسْمِعُ اللَّهُ
يَجْعَلُهَا وَمُرْسِيَهَا إِنَّهُ رَبِّي كَتُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٥﴾

﴿حَتَّى﴾: هي التي يتبدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟

قلت: لقوله: «ويصنع الفلك»، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت: فإذا اتصلت: «حتى» يصنع، فما تصنع بما بينهما من الكلام؟

قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملاً من قومه سخروا منه.

فإن قلت: فما جواب كلما؟

قلت: أنت بين أمرين: إما أن تجعل: (سخروا): جواباً، و(قال): استئنافاً، على

(١) قوله: «قال فضرب الكتيب» أي راوي هذه القصة، لكنه غير معلوم (ع).

تقدير سؤال سائل، أو تجعل: (سخرُوا)، بدلاً من (مَرَّ)، أو صفة: (لَمَلَأَ)، و(قال): جواباً، ﴿وَأَهْلَكَ﴾: عطف على اثنين، وكذلك: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾: يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم، واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه^(١) وإرادته به - تعالى الله عنه ذلك - قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته، ﴿إِلَّا قَبِيلًا﴾: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كَانُوا ثَمَانِيَّةً: نُوحٌ وَأَهْلُهُ، وَبَنُوهُ الثَّلَاثَةُ، وَنِسَاؤُهُمْ» (٧٦٣)، وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال، ونصفهم نساء، ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل: (بسم الله): باركبوا حالاً من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله / ٣٣١، أو قائلين: بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف؛ كقولهم: خفوق النجم، ومقدم الحاج، ويجوز أن يراد مكاناً الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في: (بسم الله): من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول، والكلامان: أن يكون: ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ تَجْرِيَهَا وَمُرْسَهَا﴾: جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم الاسم^(٢)؛ كقوله [من الطويل]:

... ثُمَّ أَنَسُمُ السَّلَامَ عَلَيْكُمَا^(٣)

٧٦٣ - أخرجه قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (١٤٦/٢): غريب. أ.هـ وقال ابن حجر: لم أره مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم. فجمعهم ثمانية. أ.هـ أخرجه الطبري (٤٢/٧) رقم (١٨١٨٩) موقوفاً على قتادة. قال الحافظ: لم أره مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم؛ فجميعهم ثمانية. انتهى.

(١) قوله: «يختار الكفر لا لتقديره عليه» هذا على مذهب المعتزلة من عدم سبق القضاء والقدر على الشر وعدم إرادته، ولكن مذهب أهل السنة أن كل ممكن مسبوق بالقضاء والقدر والإرادة ولو شراً (ع).
(٢) قال محمود: «ويجوز أن يقحم الاسم... إلخ» قال أحمد: نفور من اعتقاد أن الاسم هو المسمى، ولو اعتقد ذلك لما جعله مقحماً، والله أعلم.

(٣) تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما
وقولا: هو المرء الذي لا صديقه
أهان ولا خان الأمين ولا غدر
وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟
فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره، وقرئ: ﴿مجراها ومرساها﴾: بفتح الميم، من جرى ورسى، إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين، وقرأ مجاهد: «مجريها ومرسيها»، بلفظ اسم الفاعل، مجروري المحل، صفتين لله.

فإن قلت: ما معنى قولك: جملة مقتضية؟

قلت: معناه: أن نوحاً - عليه السلام - أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله، أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن تكون غير مقتضية بأن تكون في موضع الحال؛ كقوله [من الوافر]:

وَجَاءُونَا بِهِمْ سَكْرٌ عَلَيْنَا (١)

= إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
للبيد بن ربيعة العامري، يوصي ابنته أسماء ويسرة. وتمنى: ماض، أو مضارع حذف منه إحدى التائين، والاستفهام إنكاري وهو كناية عن تحتم الموت. ويوماً: ظرف لحيان. والمراد به: مطلق الزمن. وأن يموت: فاعل. وخمش وجهه خمشاً: جرحه بأظفاره، أي: لا تبلغ في الجزع حتى تفعل ذلك، ووقف على شعر منصوب بصورة المرفوع على لغة، نهاهما عن الجزع وأمرهما بعد مناقبه. وصديقه: مفعول مقدم، وإلى الحول: متعلق بقولا، ولفظ «اسم» مقحم بين ثم ولفظ السلام، لأنه أراد تحيتهما بهذا اللفظ بخصوصه وإن أفاد غيره معناه. وقيل: أقمحه إشارة إلى أنه لا أمان لهما بعد موته، وفي «ثم» إيماء إلى أنه لم يسلم الآن، وإنما ذلك بعد الحول، والمراد أنه لا يخطر ببالهما ولا يحزننا عليه بعد ذلك، فعبر عنه بسلام الموادة الذي يلزمه الافتراق، والافتراق يلزمه عدم التذكر عادة. ويحتمل أن المراد الدلالة على أن الوصية قد تمت، ثم قال: ومن يبك مصابه حولاً كاملاً فقد أبلغ في العذر، كأنه يعتذر عن سكوته بأنه أدى ما عليه، أي: وأنتم كذلك. ينظر ديوانه ص ٢١٤، الأغاني ٤٠/١٣، خزائن الأدب ٣٣٧/٤، ٣٤٠، ٣٤٢، الخصائص ٣/٢٩، لسان العرب (غدر)، شرح المفصل لابن يعيش ١٤/٣، العقد الفريد ٧٨/٢، ٥٧/٣، بغية الوعاة ٤٢٩/١، الدرر ١٥/٥، المقاصد النحوية ٣٧٥/٣، المنصف ١٣٥/٣، الأشباه والنظائر ٧/٩٦، شرح الأشموني ٣٠٧/٢، شرح عمدة الحفاظ ص ٥٠٧، والمقرب ٢١٣/١، همع الهوامع ٤٩/٢، ١٥٨، بلا نسبة في أمالي الزجاجي ص ٦٣، شرح ديوان الحماسة ٨٩٤/٢، تأويل المشكل ٢٥٥، مجاز القرآن ١٦/١، الطبري ٨٠/١، النكت والعيون ٤٧/١، الدرر ٥٢/١، فتح القدير ٤٠٩/٢.

(١) وَجَاءُونَا بِهِمْ سَكْرٌ عَلَيْنَا فأجلى القوم والسكران صاحي
السكر والسكر: كالبعد والبعد، و«بهم سكر» جملة حالية. و«علينا» متعلق بسكر: أي جاءنا القوم غضاباً علينا، فأنكشفوا عن مكان الحرب ومضوا عنه. والحال أن السكران منهم مفلق من سكره. ويروى «فأجلى اليوم» أي زال ومضى، أو انكشفت ظلمة الحرب في ذلك اليوم: أي لم يلبثوا إلا هو والحال أن الذي كان سكران صاح من سكره، لعلمه أنه ليس أهلاً لذلك، فأجلى هنا لازم. وهو لعتي بن مالك العقيلي في تهذيب إصلاح المنطق ص ٢٣٣، وبلا نسبة في لسان العرب (سكر)، وديوان الأدب ٢٣٣/٢، وتهذيب اللغة ٥٦/١٠، وإصلاح المنطق ص ٨٧، وتاج العروس (سكر)، وأساس البلاغة (سكر).

فلا تكون كلاماً برأسه، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله بمعنى: التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم، لما نجاكم.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣)

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾؟

قلت: بمحذوف دل عليه: ﴿أَرَكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾؛ كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ أي: تجري وهم فيها، ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾: يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره^(١)، وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى جريها في الموج؟

قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال؛ ألا ترى إلى قول ابنه: «ساوي. إلى جبل يعصمني من الماء». قيل: كان اسم ابنه: كنعان، وقيل: يام، وقرأ علي - رضي الله عنه -: «ابنها»، والضمير لامراته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: «ابنه»، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن، قال قتادة: سألته؟ فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه: ﴿إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِ﴾ [هود: ٤٥]، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله: (من أهلي)، ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمه وجهان:

أحدهما/ ٣٣١ب: أن يكون ربيباً له، كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء - عليهم السلام - وقرأ السدي: «ونادى نوح ابنه»، على الندبة والترثي، أي: قال: يا ابنه، والمعزل: مفعول، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين، وقيل:

(١) قوله: «عند اضطرابه وزخيره» في الصحاح «زخر الوادي» إذا امتد جدا وارتفع. ومنه يقال: بحر زاخر.

كان في معزل عن دين أبيه، ﴿يَسْتَقِ﴾ قرئ بكسر الياء؛ اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك: يا بني، أو سقطت الياء والألف؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: إلا الراحم وهو الله تعالى^(١)، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله، أي: إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وكان لهم غفوراً رحيماً في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء، قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد، وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم، يعني: السفينة، وقيل: «لا عاصم»، بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله؛ كقوله: ﴿ثَلَاثَ دَاقِي﴾ [الطارق: ٦]، و﴿عِشْرَةَ رَأْسِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم؛ كقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلُمِ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقرئ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: على البناء للمفعول.

﴿وَقِيلَ يَتَّزِئُ أَيْلَىٰ مَاءٍ لِّكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَىٰ وَيُغِيصُ أَلْمَاءُ وَيُفْضَى الْأَمْرُ وَأُسْتُوتَ عَلَى الْجُودِيَّ
وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز^(٢) على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿يَتَّزِئُ﴾، و﴿يَسْمَاءُ﴾، ثم

(١) قال محمود: «المراد إلا الراحم وهو الله تعالى أو لا عاصم اليوم... إلخ» قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم. فالأولان استثناء من الجنس، والآخران من غير الجنس. وزاد الزمخشري خامساً؛ وهو لا عاصم إلا مرحوم، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف، تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم. والمارد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز، وبعضها أقرب من بعض، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «نداء الأرض والسماء بما ينادى به العاقل... إلخ» قال أحمد: ومن هذا النمط في السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفرادها بها السكوت عن ذكر الأوصاف أحياناً، اكتفاء بذكر الموصوف لتبينه بها وتوحيده فيها، وأنه متى ذكر مكانها قد ذكرت بذكره في مثل قوله ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ الآية. والمراد: وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين. ومنه [من الرجز]:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعاني اللطيفة، فقال أبو الطيّب يمدح عضد الدولة [من الرجز]:

لا تحمدنها واحمدن هماما إذ لم يسم حامد سواكا
يعني لا تمدح نفسك فإنك المنفرد بالمادح، حتى إذا ذكرت ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك لتفردك بها.

أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿أَبْلَىٰ مَاءَكِ﴾، و﴿أَقْلَىٰ﴾: من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام متقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوا عظمتَه، وجلالته، وثوابه، وعقابه، وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء، والبلغ: عبارة عن النشف، والإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى، و﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾: من غاضه إذا نقصه، و﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه، و﴿وَأَسْتَقَرَّتْ﴾: واستقرت السفينة، و﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾: وهو جبل بالموصل، و﴿وَقِيلَ بُعْدُ﴾: يقال: بعد بعداً وبعداً، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك؛ ولذلك اختص بدعاء السوء، ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل/ ٣٣٢ قادر، وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي، وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله: (ابلعي)، و: (أقلعي)؛ وذلك، وإن كان لا يخلو الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور، وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء، وروي أنها مرت بالبيت، فطافت به سبعاً، وقد أعتقه الله من الغرق، وروي أن نوحاً صام يوم الهبوط، وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي فَوِّنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾
 قَالَ يَنْتَوِيحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَوَّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

نداءه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾، مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: (رب)، فكيف عطف: (قال رب) على: (نادى) بالفاء؟

قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه لجاء، كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ

رَبُّهُ يَدَّاهُ خَفِيًّا ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ ﴿[مریم: ٣، ٤]﴾ بغير فاء، ﴿إِنَّ آتِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنه كان ابنه من صلبه، أو كان ربيباً له فهو بعض أهله، ﴿وَأَنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾: وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ ﴿وَأَنْتَ أَتَكْمُرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أعلم الحكام وأعدلهم^(١)؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقليدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر، ويجوز أن يكون من الحكمة، على أن يبيني من الحكمة حاكم بمعنى: النسبة كما قيل: دارع من الدرع، وحائض وطالق على مذهب الخليل، ﴿إِنَّكُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب. وأن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأبعد في المنصب^(٢) وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك. ومن لم يكن على دينك - وإن كان أمس أقاربك رحماً - فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح، مبالغة في ذمه، كقولها [من البسيط]:

فَأَيُّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِذْبَارٌ^(٣)

وقيل: الضمير: لنداء نوح، أي: إن نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك.

فإن قلت: فهلا قيل: إنه عمل فاسد^(٤)؟

(١) قال محمود: «قال أي أعلم الحكام وأعدلهم، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم... إلخ» قال أحمد: ثم حدث بعد الزمخشري ترفع عن أقضى القضاة إلى قاضي القضاة، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى: أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة لأفضاهم في الوصف، وأن يزداد عليهم، فترفّعوا أن يشاركهم أحد في وصفهم ممن دونهم في المنصب، فعدّلوا عما يشاركه فيه إلى ما ليس كذلك، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضي القضاة: أي هو الذي يقضي بين القضاة ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه، وجعلوا الذي يليه في الرتبة أقضى القضاة إلا أنهم إنما يعنون قاضي قضاة زمانه أو إقليمه. وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أقضى قضاة الصحابة في زمانه كما أطلقه عليه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال «أفضاكم علي» فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان أو الإقليم وأعلمهم: قاضي القضاة، وأقضى القضاة، أي قضاة زمانه وبلده، وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا هذا القلب.

(٢) قوله: «من الأبعد في المنصب» لعله تحريف، وأصله في النسب (ع).

(٣) تقدم.

(٤) قال محمود: «فهلا قيل: إنه عمل فاسد قلت لما نفاه عن أهله نفى عنه... إلخ» قال أحمد: ولهذا المعنى والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿١١١﴾ وإن كان مأموراً بالإنذار على العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال والفتور عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذاناً بذلك، والله أعلم. ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي ﷺ وقال: إني لا أملك لكم من الله شيئاً، أو قال ذلك كل واحد منهم بخصوصه.

قلت: لما نفاه عن أهله، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وآذن بذلك أنه إنما أنجى / ٣٣٢ ب من أنجى من أهله لصالحهم، لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك؛ كقوله: ﴿كَانَتْ تَحْتِ عَيْنَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتْهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحریم: ١٠]، وقرئ: عمل غير صالح أي عمل عملاً غير صالح. وقرئ: «فلا تسئلن»، بكسر النون بغير ياء الإضافة، وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء، يعني: فلا تلتمس مني ملتصماً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى تقف على كنهه، وذكر المسألة دليل على أنَّ النداء كان قبل أن يفرق حين خاف عليه.

فإن قلت: لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟

قلت: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به؛ لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشاركة ولده الغرق فقد استنجز، وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباوة، ووعظه ألا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فإن قلت: قد وعده أن ينجي أهله، وما كان عنده^(١) أن ابنه ليس منهم ديناً، فلما أشفى على الغرق، تشابه عليه الأمر؛ لأن العدة قد سبقت له، وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد، فطلب إمطة الشبهة وطلب إمطة الشبهة واجب، فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟

قلت: إن الله - عز وعل - قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب؛ لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وألاً تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من

(١) قال محمود: «فإن قلت قد وعده الله أن ينجي أهله وما كان عنده... إلخ» قال أحمد: وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه فنقول: لما وعد نوح أولاً تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المذكور ولا مطلعاً على باطن أمره بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن، بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين، فسأل الله فيه بناء على ذلك، فتبين له أنه في علمه من المستثنين، وأنه هو لا علم له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتباً، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله علماً استأثر به غيباً. وأما قوله ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فالمراد منه النهي عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه الله باطن أمره، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين. والغرض من ذلك تقديم ما يقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب، بل المقصد منها أن لا يقع الذنب في الاستقبال، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه والله أعلم.

المستثنى لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب ألا يشبهه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٧)

﴿أَنْ أَشْكَكَ﴾: من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته؛ تأديباً بأدبك، واتعاضاً بموعظتك، ﴿وَلَا تَغْفِرَ لِي﴾: ما فرط مني من ذلك، ﴿وَتَرْحَمَنِي﴾: بالتوبة علي، ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: أعمالاً.

﴿قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

وقرئ: «يا نوح اهبط»، بضم الباء، ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾: مسلماً محفوظاً من جهتنا، أو مسلماً عليك مكرماً، ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾: ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية، وقرئ: «وبركة»، على التوحيد، ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾: يحتمل أن تكون من للبيان، فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم؛ لأن الأمم تنشعب منهم، وأن تكون لإبداء الغاية، أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: ﴿وَأُمَمٌ﴾: رفع بالابتداء، و﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾: صفة، والخبر محذوف تقديره: وممن معك أمم سنمتعهم؛ وإنما حذف؛ لأن قوله: (ممن معك) يدل عليه، والمعنى: أن السلام منا، والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح - عليه / ٣٣٣ السلام - أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه، وممن كان معه في السفينة، وعن كعب بن محمد القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر، وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلًا، منهم من رحم، ومنهم من عذب، وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم: هود، وصالح، ولوط، وشعيب.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩)

﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى قصة نوح - عليه السلام - ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار، أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك، ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾: من قبل إحيائي إليك وإخبارك بها، أو من قبل هذا العلم الذي

كسبته بالوحي، أو: من قبل هذا الوقت، ﴿فَاصْبِرْ﴾: على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك، ولمن كذبك نحو ما قبض لنوح ولقومه، ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾: في الفوز والنصر والغلبة: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا قَوْمَكَ﴾: معناه: إِنَّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم، ووفور عددهم، إذ لم يكن ذلك شأنهم، ولا سمعوه، ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول: لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنِ اجْتَرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا بُحْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿أَخَاهُمْ﴾: واحداً منهم، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحاً، و﴿هُودًا﴾: عطف بيان؛ و﴿غَيْرُهُ﴾: بالرفع: صفة على محل الجار والمجرور، وقرئ: «غيره»، بالجر صفة على اللفظ، ﴿إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾: تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء، ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأن شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحضها، ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفي للتهمة من ذلك، قيل: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: آمنوا به، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾: من عبادة غيره؛ لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان، «والمدرار»: الكثير الدرور، كالمغزار؛ وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان، وترغيبهم فيه، بكثرة المطر، وزيادة القوة؛ لأن القوم كانوا أصحاب زروع، ويساتين، وعمارات، حراساً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين^(١) بما أوتوا من شدة القوة، والبطش، والبأس، والنجدة، مستحزين بها من العدو، مهيبين في كل ناحية، وقيل: أراد القوة في المال، وقيل: القوة على النكاح، وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسايتهم، وعن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - أنه وفد على معاوية، فلما خرج، تبعه بعض حجابيه، فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشر بنين، فبلغ / ٣٣٣ ب ذلك معاوية، فقال: هلا سألته مم قال ذلك، فوفد وفدة أخرى، فسأله

(١) قوله: «وكانوا مدلين» من الدل. وفي الصحاح: الدل قريب من الهدى، وهما من السكينة والوقار (ع).

الرجل؟ فقال: ألم تسمع قول هود - عليه السلام -: ﴿وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةَ إِيَّائِي قُوَّتَكُمْ﴾، وقول نوح - عليه السلام -: ﴿وَيَذِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ﴾، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾: ولا تعرضوا عني، وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه، ﴿مُجْرِمِينَ﴾: مصرين على إجرامكم وأثامكم.

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [يونس: ٢٠]، مع فوت آياته الحصر، ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾: حال من الضمير في تاركي آلهتنا، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾: وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه؛ إقناطاً له من الإجابة.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿اعْتَرَاكَ﴾: مفعول نقول، وإلا لغو، والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي: خيلك ومسك بجنون لسبك إياها، وصدك عنها وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المبرسمين^(١)، وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خيلاً وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر، وأوتاد الشرك؛ وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام، سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً، والمنيب إلى ربه مخبلاً، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموضة؛ وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبي إلا أن ينبض، وضب من الزندقة^(٢) أراد أن يطلع رأسه، وقد دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت^(٣)، ولا يلتفتون إلى النصيح، ولا تلين شكيמתهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه؛ حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلمهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب، من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة؛ وذلك لثقتة بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبتهم؛ ونحو ذلك قال نوح - عليه السلام -

(١) قوله: «المبرسمين» في الصحاح «البرسام» علة معروفة (ع).

(٢) قوله: «وضب من الزندقة» في الصحاح «الضب» الحقد. والضب: واحد ضباب النخل، وهو طلعه (ع).

(٣) قوله: «لا يبالون بالبهت» رمي الشخص بما ليس فيه (ع).

لقومه: ﴿ثُمَّ أَقْضَوْا إِلَيَّ وَلَا تُظِرُّونَ﴾ [يونس: ٧١]، أكد براءته من آلهتهم، وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد على أي لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أي لا أفعله.

فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟^(١)

قلت: لأنَّ إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدَّ معاقده، وأمَّا إشهدهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة/ ١٣٣٤، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه. اشهد على أي لا أحبك؛ تهكماً به، واستهانة بحاله، ﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركونه من آلهة من دونه، أي: أنتم تجعلونها شركاء له، ولم يجعلها هو شركاء، ولم ينزل بذلك سلطاناً، ﴿فَكِيدُونِي جَبِينًا﴾: أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون، من غير إنظار؛ فإني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معزتكم وإن تعاونتم عليّ، وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضروني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي؟

﴿إِنِّي نَوَّكْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾﴾

ولما ذكر توكله على الله، وثقته بحفظه، وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم، من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانها، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به، ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾: فإن تولوا.

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل أشهد الله وأشهدكم... إلخ» قال أحمد: وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه، فلما كان إشهد الله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر. لأنه إشهد صحيح ثابت، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو مراده في هذا المقام معهم. ويحتمل أن يكون إشهد لهم حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر؛ للتمييز بين خطابه الله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوفر للمخاطب من صيغة الأمر، والله الموفق للصواب.

فإن قلت: الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وقع جزاء للشرط؟

قلت: معناه: فإن تولوا، لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم، فأبيتهم إلا تكذيب الرسالة، وعداوة الرسول، ﴿وَيَسْتَخْلَفُ﴾: كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم، ﴿وَلَا تَصْرُوهُ﴾: بتوليكم، ﴿شَيْئاً﴾: من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع؛ وإنما تضرون أنفسكم، وفي قراءة عبد الله: «ويستخلف»، بالجزم، وكذلك: «ولا تضروه»، عطفاً على محل: ﴿فَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ﴾، والمعنى: إن يتولوا، يعذرني، ويستخلف قوماً غيركم، ولا تضروا إلا أنفسكم، ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَظِيظٌ﴾ أي: رقيب عليه مهيمن، فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، أو من كان رقيباً على الأشياء كلها، حافظاً لها، وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار، لم يضر مثله مثلكم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف.

فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟

قلت: ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم، نجاهم، ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ؛ وذلك أن الله - عز وجل - بعث عليه السمو، فكانت تدخل في أنوفهم، وتخرج من أديبارهم، فتقطعهم عضواً عضواً، وقيل: أراد بالثانية: التنجية من عذاب الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه وأشد، وقوله: «برحمة منا»، يريد: بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي

هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾: إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض، فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ / ٣٣٤ ب؛ لأنهم إذا عصوا رسولهم، فقد عصوا جميع رسل الله، ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ قيل: لم يرسل إليهم إلا هود وحده، ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، يريد: رؤساءهم، وكبراءهم، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل، ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم، ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل، جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين، تكبهم على وجوههم في عذاب الله، و﴿أَلَا﴾: وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم؛ تهويل لأمرهم وتفظيع له، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم.

فإن قلت: ﴿بَعْدًا﴾ دعاء بالهلاك، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟
 قلت: معناه: الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له؛ ألا ترى إلى قوله [من المديد]:
 إِخْوَتِي لَا تَبْعَدُوا أَبَدًا وَيَلِيَّ وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا^(١)
 ﴿قَوْمٌ هُودٌ﴾: عطف بيان لعاد.

فإن قلت: ما الفائدة في هذا البيان^(٢)، والبيان حاصل بدونه؟
 قلت: الفائدة فيه: أن يوسموا بهذه الدعوة وسمًا، وتجعل فيهم أمرًا محققًا، لا شبهة
 فيه بوجه من الوجوه، ولأن عادًا عادان: الأولى: القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم،
 والأخرى: إرم.

﴿وَإِنْ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَاحِبًا قَالَ يَقَوْمِ أَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ
 الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (٦١) قَالُوا يَصْصَلِحْ قَدْ كُنْتَ

(١) إخوتي لا تبعدوا أبدًا ويلى الله قد بعدوا
 ما أمر العيش بعدكم كل عيش بعدكم نكد
 ليت شعري كيف شربكم؟ إن شربي بعدكم ثم
 لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية. وتقول العرب: بعد بالضم في ضد القرب، وبالكسر في الهلاك،
 ومضارع الأول مضموم، ومضارع الثاني مفتوح. وما في البيت منه. وما أمر: تعجب، وشبهت
 العيش وهو الحياة أو ما يعيش به شيء مر على طريق المكنية، وإثبات المرارة تخيل. أو استعارتها
 للنقص على طريق التصريحية. والنكد: العسر الضيق المنغص. والتمد: الماء القليل الذي لا مادة
 له فينقطع سريعاً. ورجل مثمود، إذا كثر عليه السؤال من العلم أو المال حتى نفذ ما عنده.
 والمعنى: أن سروري بعدكم منقطع كالماء القليل، وعبرت بذلك لمشكلة ما قبله. ويروى لها بعد
 البيت الأول:

لو تملتهم عشيرتهم لاقتناء العز أو ولدوا
 هان من بعض الرزية أو هان من بعض الذي أجد
 كل ما حي وإن أمروا وارادوا الحوض الذي وردوا
 ومعنى تملتهم: عاشوا معهم ملياً من الزمان، وأقحمت «من» مع إغواء «بعض» عنها، للدلالة على
 تبغيض البغض. و«ما» مقحمة، بني كل حي مبالغة في العموم. وأمروا بالكسر: كثروا. والحوض:
 تمثيل للموت.

ينظر: شرح شواهد المغني (٥٤٣/٢)، ومغني اللبيب (١٩٨/١)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي
 ص (٩١٢).

(١) قال محمود: «إن قلت ما الفائدة في هذا البيان وجعل قوم هود عطف بيان على عاد... إلخ» قال
 أحمد: فيه أيضاً فائدتان جليلتان، إحداهما: النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على
 موجب الدعاء عليهم، وكأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه، والأخرى تناسب الآي بذلك، فإن
 قبلها ﴿وَاتَّبَعُوا أَثَرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَبِيدٍ﴾ وقبل ذلك حفيظ وغليظ، وغير ذلك مما هو على وزن فاعيل
 المناسب لفعول في القوافي، والله أعلم.

فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَلْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
 قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
 إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا
 تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي
 دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِIRِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ نَعُودًا كَفَرُوا
 رَبَّهُمْ آلَا بَعْدًا لَشُعُودٍ ﴿٦٨﴾

﴿هُوَ أَشْدَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾: لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشأوهم
 منها خلق آدم من التراب، ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: وأمركم بالعمارة، والعمارة: متنوعة إلى
 واجب، وندب، ومباح، ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار، وغرس
 الأشجار، وعلموا الأعمار الطوال، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء
 زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: إنهم عمروا بلادهم، فعاش فيها عبادي، وعن
 معاوية بن أبي سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقليل له، فقال: ما حملني
 عليه إلا قول القائل [من البسيط]:

لَيْسَ الْفَتَى بِفَتَى لَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا تَكُونُ لَهُ فِي الْأَرْضِ آثَارٌ^(١)
 وقيل: «استعمركم من العمر»، نحو: استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى،
 وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون استعمر في معنى: أعمار؛ كقولك: استهلكه في معنى أهلكه،
 ومعناه: أعماركم فيها دياركم، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم.

والثاني: أن يكون بمعنى: جعلكم معمرين دياركم فيها؛ لأن الرجل إذا ورث داره من
 بعده، فكأنما أعمارها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره، ﴿قَرِيبٌ﴾: داني الرحمة

(١) قوله: «فتى» خبر ليس. و«لا يستضاء به» صفته. ويجوز أنه حال من الفتى الأول، شبهه في حسن
 الرأي وهداية المستشير بسراج منير. ويمكن أن شبهه بكوكب في السماء، ليقابل الأرض بعده.
 والجامع ما مر. ويجوز أن الجامع أنه يكشف غمة الفقر، كما أن المشبه به يكشف ظلمة الليل،
 وعلى كل حال فالاستضاءة تخيل. روي أنه قيل لمعاوية: لم أكثر من حفر الأنهار وغرس
 الأشجار وإحياء القفار؟ فقال: ما حملني عليه إلا هذا البيت، فالآثار هي ما كان يفعله. ويحتمل
 أنها المكارم الموجبة للثناء بعد الفناء.

سهل المطلوب، ﴿تُجِيبُ﴾: لمن دعاه وسأله، ﴿فِينَا﴾: فيما بيننا، ﴿مَرْجُواً﴾: كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد، فكنا نرجوك لنتفجع بك، وتكون مشاوراً في الأمور، ومسترشداً في التدابير، فلما نطق بهذا القول، انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خير فيك، وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً نقذمك على جميعنا، وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا، وتوافقنا على / ١٣٣٥ ما نحن عليه، ﴿يَعْبُدُ آبَاءَهُ﴾: حكاية حال ماضية، ﴿مُرْسِياً﴾: من أرابه إذا أوقعه في الريبة، وهي قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من «أراب الرجل»: إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي، قيل: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي﴾: بحرف الشك، وكان على يقين أنه على بينة؛ لأن خطابه للجاحدين، فكأنه قال: قدروا أنني على بينة من ربي، وأني نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟ ﴿فَمَا تَزِيدُنِي﴾: إذن حينئذ^(١)، ﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ يعني: تخسرون أعمالكم وتبطلونها، أو: فما تزيدوني بما تقولون لي، وتحملونني عليه غير أن أخسرهم، أي: أنسبكم إلى الخسران، وأقول لكم: إنكم خاسرون، ﴿ءَايَةً﴾: نصب على الحال، قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

فإن قلت: فبم يتعلق: ﴿لَكُمْ﴾؟

قلت: بآية حالاً منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت، لكانت صفة لها، فلما تقدمت، انتصبت على الحال، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾: عاجل لا يستأخر عن مسكم لها بسوء إلا يسيراً؛ وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم، ﴿تَمَتَّعُوا﴾: استمتعوا بالعيش، ﴿فِي دَارِكُمْ﴾: في بلدكم، وتسمى البلاد: الديار؛ لأنه يدار فيها، أي: يتصرف، يقال: ديار بكر، لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار، يريدون: من عرب البلد، وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عقروها يوم الأربعاء، وهلكوا يوم السبت، ﴿غَيْرَ مَكْدُوبٍ﴾: غير مكذوب فيه، فأتسع في الظرف بحذف الحرف، وإجرائه مجرى المفعول به؛ كقولك: يوم مشهود؛ من قوله [من الطويل]:

وَيَوْمٌ شَهْدَانُهُ.....

(١) قوله: «إذن حينئذ» لعل إحداهما مزيدة (ع).

(٢) ويوم شهدناه سليماً وعامراً قليل سوى الطعن النihal نوافله يقول: ورب يوم شهدنا فيه، فحذف الجار وأوصل الضمير بالفعل، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين: الأول الضمير، والثاني: سليماً، أي قبيلتهما «قليل» صفة ليوم. و«نوافله» فاعل به، وقلة الغنائم لأن قومه لا تراعي حيازتها. أو المعنى أن أعداءه لا يبالغون من قومه إلا الطعن، تهكماً بهم، فلاستثناء متصل. ويجوز أنه منقطع. ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه أو مراته، فهو متعدد أيضاً. والنهال: جمع ناهل، أي ريان أو عطشان على التشبيه هنا، فهو من الأضداد، ووصف =

أو على المجاز، كأنه قيل للوعد: نفى بك، فإذا وفى به، فقد صدق ولم يكذب، أو وعد غير كذب، على أن المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول، وكالمصدوقة بمعنى: الصدق، ﴿وَمِنْ خَزْيٍ يَوْمَئِذٍ﴾: قرئ مفتوح الميم؛ لأنه مضاف إلى إذ، وهو غير متمكن؛ كقوله [من الطويل]:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا (١)

فإن قلت: علام عطف؟

قلت: على نجينا؛ لأن تقديره: ونجيناهم من خزي يومئذ، كما قال: ﴿وَنَجِّنَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] على: وكانت التنجية من خزي يومئذ، أي: من ذله، ومهانتة، وفضيحتة، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه يغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة، وقرئ: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ﴾، و(لثمود): كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحي أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث، بمعنى: القبيلة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَمَا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَتَنَرْنَهَا يَا سَحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبُ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْنَتِلَقَّى أَلَدًا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

= الطعن بأنه ناهل مجاز عقلي؛ لأن الذي يوصف به الريح أو الفارس. والمعنى: أنهم يشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن.

البيت لرجل من بني عامر في الدرر ٩٦/٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٤٦/٢، ولسان العرب (جزى)، الأشباه والنظائر ٣٨/١، وخزانة الأدب ١٨١/٧، و٢٠٢/٨ و١٧٤/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨٨، مغني اللبيب ٥٠٣/٢، والمقتضب ١٠٥/٣، والمقرب ١٤٧/١، وجمع الهوامع ٢٠٣/١، وأمالى ابن الشجري ٦/١، الكامل ٢١ والدر المصون ٢١٤/١.

(١) على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت: ألما أصح والشيب وازع؟

للناطقة الذيباني، وبنى حين على الفتح لإضافته إلى مبني، وشبه المشيب بمن يصح معه العتاب على طريق المكنية والعتاب تخيل، ويحتمل أن إيقاع العتاب على المشيب مجاز عقلي. والمعنى: عاتبت نفسي زمن الشيب على الصبا، أي الميل إلى الهوى كما يفعل الشبان. وقوله: «فقلت» بيان للعتاب، أي: إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا، والحال أن الشيب زاجراً لي عن موجب العتاب، والاستفهام توبيخي: أي لا ينبغي ذلك، ووزعته فاتزع: كفته فامتنع؛ فالوازع الذي يصلح الصف ويمنعه عن الاعوجاج، وأوزعني: ألهمني ما يصلح شأني.

ينظر شرح المفصل ٤٥٨/١، وشرح الأشموني ٢٥٦/٢، شرح شواهد المغني ٨١٦/٢ و٨٨٣، والدر المصون ١٧/٢.

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْهِ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴿١﴾

﴿رُسُلَنَا﴾: يريد الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل - عليه السلام - وملكاه معه، وقيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر/ ٣٣٥ ب، ﴿بِالْبَشَرِ﴾: هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد، ﴿سَلَمًا﴾: سلمنا عليك سلاماً، ﴿سَلَامٌ﴾: أمركم سلام، وقرئ: «فقالوا سلماً قال سلم»، بمعنى: السلام، وقيل: «سلم وسلام»، كحرم وحرام؛ وأنشد [من الطويل]:

مَرَزْنَا فَقُلْنَا: إِيهِ سَلَمٌ فَسَلَمْتُ كَمَا أَكْتَلُ بِالْبَرْقِ الْعَمَامُ اللَّوَائِحُ^(١)

﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ﴾: فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه، أو: فما لبث مجيئه، والعجل: ولد البقرة، ويسعى الحسيل والخبش بلعة أهل السراة، وكان مال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - البقر، ﴿حَزِيذٍ﴾: مشوي بالرضف^(٢) في أخدود، وقيل: (حنيئذ): يقطر دسمه، من حنذت الفرس، إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقاً؛ ويدل عليه: ﴿يَعْبَلُ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، يقال: نكره، وأنكره، واستنكره، ومنكور: قليل في كلامهم، وكذلك: أنا أنكرتك، ولكن منكرك، ومستنكر، وأنكرتك، قال الأعشى: [البيسط]

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا^(٣)

قيل: كان ينزل في طرف من الأرض، فخاف أن يرويدوا به مكروهاً^(٤)، وقيل: كانت

(١) الذي الرمة غيلان بن عقبة، يقول: مررنا بديار المحبوبة مي، فقلنا إيه، أي حدثني واستأنسي، فأسرنا سلم، أي سلامة وأنس، فسلمت علينا ولمعت ثناياها وغابت بسرعة، كما لمع الغمام بلمعان البرق وغاب البرق بسرعة. واكتل اكتلالاً: لمع لمعاناً واللوائح الظواهر: صفة للغمام لتعدد معني.

ينظر البيت في البحر المحيط ٢٤٢/٥، ومعاني الفراء ٢١/٢، وروح المعاني ٩٤/١٢، والطبري ٣٨٣/١٥، واللسان (سلم)، والدر المصون ١١٢/٤.

(٢) قوله: «مشوي بالرضف» أي الحجارة المحممة، كما في الصحاح (ع).

(٣) للأعشى. ويقال: أنكره ونكره: جهله ونفر منه: أي جهلته المحبوبة، وما كان الذي أنكرته من الحوادث إلا الشيب والصلع وهو انحسار شعر الرأس. وقيل: إن أبا عبيدة سمع بشاراً ينكر نسبة هذا البيت للأعشى ويقول: إنه مصنوع عليه لا يشبه كلامه، فتعجب أبو عبيدة من فطنته، كأنه صح عنده إنكاره.

ينظر ديوانه (١٣٧)، والمحتسب ٢٩٨/٢، والخصائص ٣١٠/٣، ومجاز القرآن ٢٩٣/١، والبحر المحيط ٢٤٢/٥، وروح المعاني ٩٠/١٢، والتهذيب ١٩١/١٠، وإعراب النحاس ٢٩٢/٢، والدر المصون ١١٣/٤، الموشح ٥٢، الصحاح (نكر)، التاج (نكر)، الأغاني ١٨/١٦.

(٤) قال محمود: «قيل إنه كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يرويدوا به مكروهاً... إلخ» قال أحمد: وقد وردت قصة إبراهيم هذه في ثلاثة مواضع: هذا أحدها، وهو دال على أنه إنما أوجس =

عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، والظاهر: أنه أحسن بأنهم ملائكة، ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه؛ ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾ وإنما يقال هذا لمن عرفهم، ولم يعرف فيم أرسلوا، (فأوجس): فأضمر^(١)؛ وإنما قالوا: (لا تخف)؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله، أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب، ﴿وَأَمْرًا تُقَاتِمُهُ﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤوسهم تخدمهم، وفي مصحف عبد الله: «وامرأته قائمة» وهو قاعد، ﴿نَصَبَكَ﴾: سروراً بزوال الخيفة^(٢)، أو بهلاك أهل الخبائث، أو: كان ضحكها ضحك إنكار؛ لغفلتهم، وقد أظلمهم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك؛ فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: ضحكت فحاضت، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: (فضحكت) بفتح الحاء، ﴿يَعْقُوبُ﴾: رفع بالابتداء، كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود، أي: من بعده، وقيل: الورا: ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال: نعم، من الورا، وكان ولد ولده، وقرئ: (يعقوب): بالنصب، كأنه قيل: «ووهبنا لها إسحاق»، ومن وراء إسحاق يعقوب؛ على طريقة قوله [من الطويل]:

لَيْسُوا مُضْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبِينَ.....^(٣)

= منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاؤوا. الثاني: في الحجر قوله ﴿وَيَنْتَهُم عَنْ صَيِّفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١) إلى قوله ﴿لَا تَوَجَلْ إِنَّا نَبَشِّرُكَ﴾ فلم يطمئنا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بأنهم يشرون له، فدل على استنعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاؤوا فيه. الثالث: في الذاريات ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ﴾ فهو أيضاً كذلك. وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُؤْسُكَ لَن يَمْلُوكَ إِلَيْكَ﴾ فأول ما أعلموا به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية وبين آي إبراهيم، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطاً لم يعلم ذلك، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام.

(١) عاد كلامه. قال: «ومعنى أوجس أضمر وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف... إلخ» قال أحمد: وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري والله أعلم، لأنهم إنما علموا خوفه ووجله بإخباره إياهم بذلك، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل﴾ والقصة واحدة. والله الموفق للصواب.

(٢) عاد كلامه. قال: «وضحك زوجته لأنها سرت بذهاب الخيفة... إلخ» قال أحمد: ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد (يا ويلتنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب) فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من تحيض، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل، والله الموفق.

(٣) تقدم.

الألف في: ﴿يَوَلَّى﴾: مبدلة من ياء الإضافة، وكذلك في: «يا لهفأ»، و«يا عجبأ»، وقرأ الحسن: «يا ويلتي»، بالياء على الأصل، و﴿شَيْخًا﴾: نصب بما دل عليه اسم الإشارة، وقرئ شيخ، على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا بعلي هو شيخ، أو بعلي: بدل من المبتدأ، وشيخ: خبر، أو يكونان معاً خبرين، قيل: بشرت ولها ثمان وتسعون سنة، ولإبراهيم مائة/ ٣٣٦ أعشرون سنة، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله؛ وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها فـ ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادة، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها^(١) ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة - صلوات الله عليهم - في قولهم: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان عجب، وأمر الله: قدرته وحكمته، وقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكَ﴾: كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب؛ فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم، وقيل: «الرحمة النبوة»، والبركات الأسباط من بني إسرائيل؛ لأن الأنبياء منهم، وكلهم من ولد إبراهيم، ﴿حَمِيدٌ﴾: فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده، ﴿مَجِيدٌ﴾: كريم كثير الإحسان إليهم، وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص؛ لأن (أهل البيت): مدح لهم؛ إذ المراد: أهل بيت خليل الرحمن.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ

مُنِيبٌ﴾ (٧٥)

(الروع): ما أوجس من الخيفة، حين نكر أضيافه، والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخرف وملئ سروراً بسبب البشرى بدل الغم، فرغ للمجادلة.

فإن قلت: أين جواب لما؟

قلت: هو محذوف كما حذف قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا﴾ [يوسف: ١٥]، وقوله: ﴿يُجْدِلُنَا﴾: كلام مستأنف دال على الجواب، وتقديره: اجتراً على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت، ثم ابتدأ فقال: ﴿يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ وقيل في: (يجادلنا)، هو: جواب لما؛ وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، وقيل: إن «لما» ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد «إن»: الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل: معناه:

(١) قوله: «ولا يزدهيها» في الصحاح: زهاه وازدهاه: استخفه وتهاون به (ع).

أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا، والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إياهم أنهم قالوا: ﴿مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [المنكبات: ٣١]، فقال: رأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة، قالوا: لا، قال: رأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [المنكبات: ٣٢]، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَسْجِسَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [المنكبات: ٣٢]، ﴿فِي قَوْمٍ لُّوطٍ﴾: في معنهم، وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون، رفع عنهم العذاب، وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير^(١)، وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾: غير عجول على كل من/ ٣٣٦ أساء إليه، ﴿أَوَدَّ﴾: كثير التأوه من الذنوب، ﴿مُتَّيِّبٌ﴾: تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب، والرأفة، والرحمة، فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة، والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَذَابٍ غَيْرِ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦)

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾: على إرادة القول، أي: قالت له الملائكة، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: الجدل، وإن كانت الرحمة ديدنك، فلا فائدة فيه، ﴿إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾: وهو قضاؤه، وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة، والعذاب نازل بالقوم لا محالة، لا مردّ به بجدال، ولا دعاء، ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَمًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧)

كانت مساء لوط وضيق ذرعه؛ لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، روي أن الله تعالى قال لهم: «لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات»، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها، يقال: يوم عصيب، وعصوب، إذا كان شديداً من قولك: عصبه، إذا شدّه.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا

(١) قوله: «عشرة فيهم خير» لعله عشرة يصلون.

﴿يَهْرَعُونَ﴾: يسرعون كأنما يدفعون دفعاً، ﴿وَمِنْ قَتْلٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ أَلَسَيَاتٍ﴾، ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها؛ فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء، وقيل: معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾؛ أراد أن يقي أضيافه ببناته؛ وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوجوهن، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً، كما زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن وائل قبل الوحي، وهما كافران (٧٦٤)، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه: وقرأ ابن مروان: «هن أطهر لكم»، بالنصب، وضعفه سيويه، وقال: احتبى ابن مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ: (هن أطهر): بالنصب فقد تربع في لحنه؛ وذلك أن انتصابه على أن يجعل حالاً قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل، كقوله: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر، كأنه قيل: خذوا هؤلاء، وبناتي: بدل، ويعمل هذا المضمر في الحال، و(هن): فصل، وهذا لا يجوز؛ لأنَّ الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة، ولا يقع بين الحال وذو الحال، وقد خرَّج له وجه لا يكون

٧٦٤ - أخرجه الطبراني في معجمه (٤٢٦/٢٢) رقم (١٠٥٠)، وابن هشام في سيرته (٣٢٣/٢) رقم (٨٠٩)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة»: ص (٣٤٣ - ٣٤٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣٣٨ - ٣٣٩)؛ وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٢١٨/٩ - ٢١٩)، وقال: رواه الطبراني وإسناده منقطع. قال الحافظ:

قوله «وضيق ذرعه» في الصحاح: يقال ضقت بالأمر ذرعاً، إذا لم تعلقه ولم تقر عليه. وأصل الذرع إنما هو بسط اليد؛ فكأنك تريد: مددت يدي إليه فلم تله.

قلت: قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش، وإنما هو أبو العاص بن الربيع، ليس في نسبته من اسمه وائل. وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمي والد عمرو وليس له في هذه القضية مدخل، وأما قصة تزويج أبي العاص بن الربيع بنت رسول الله ﷺ وكذا عتبة بن أبي لهب فذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريقه قال: كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالاً وأمانة، وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوجه بزينب وكان لا يخالفها؛ وذلك قبل أن ينزل عليه، فلما أكرم الله نبيه ﷺ بالنبوة آمنت خديجة وبناته، وثبت أبو العاص على شركه. قال: وكان رسول الله ﷺ قد زوج عتبة بن أبي لهب بنته رقية. فلما دعا قريشاً إلى أمرين قال بعضهم لبعض: قد فرغتم محمداً من همه ببناته. فردوهن عليه فمشوا إلى أبي العاص. فأبى عليهم. ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب. ففارق رقية. وزوجه بنت سعيد بن العاص. فتزوجها بعدة عثمان بن عفان. فذكر قصة أبي العاص وأسره بيدر، وروى البيهقي في الدلائل من طريق قتادة: «أن النبي ﷺ زوج ابنته أم كلثوم في الجاهلية عتبة ابن أبي لهب. ورقية أخاه. فلما جاء الإسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين. انتهى.

(هَـنَ) فيه فصلاً؛ وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ، و(بناتي هَـنَ): جملة في موضع خبر المبتدأ؛/ ٣٣٧ أ كقولك: هذا أخي هو، ويكون: (أطهر): حالاً، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: بإيثار هَـنَ عليهم، ﴿ولا تخزون﴾: ولا تهينوني، ولا تفضحوني، من الخزي، أو: ولا تخجلوني، من الخزية وهي الحياء، ﴿فِي صَبِيٍّ﴾: في حق ضيوفي؛ فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره، فقد خزي الرجل؛ وذلك من عِراقة الكرم وأصالة المروءة، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾: رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل، والكف عن السوء، وقرئ: «ولا تخزون»، بطرح الياء، ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم، وإظهاراً لشدة امتعاضه^(١) مما أوردوا عليه؛ طمعاً في أن يستحيوا منه، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده، وعندهم ألا مناكحة بينه وبينهم، ومن ثم: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾: مستشهدين بعلمه، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ لأنك لا ترى مناكحتنا، وما هو إلا عرض سابري^(٢)، وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً لتواطؤهم عليه، كان عندهم أنه هو الحق، وأن نكاح الإناث من الباطل؛ فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة، والغرض نفي الشهوة، ﴿لَنَعْلَمَ مَا تَرِيدُ﴾: عنوا إتيان الذكور، وما لهم فيه من الشهوة.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

جواب «لو»: محذوف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، يعني: لو أن لي بكم قوة، لفعلت بكم وصنعت، يقال: مالي به قوة، ومالي به طاقة؛ ونحوه: ﴿لَا يَكِلُ لَكُمْ بَيًّا﴾ [النمل: ٣٧]، ومالي به يدان؛ لأنه في معنى: لا أضطلع به ولا أستقل به، والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قوتي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته؛ ولذلك قالت الملائكة؛ وقد وجدت عليه -: إن ركنك لشديد، وقال النبي ﷺ «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي لَوْطًا، كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» (٧٦٥) وقرئ: (أو آوي): بالنصب بإضمار «أن»، كأنه قيل:

٧٦٥ - أخرجه البخاري (٦١/٩): كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ =

(١) قوله: «لشدة امتعاضه» امتعاض من الأمر: غضب منه وشق عليه، كذا في الصحاح (ع).

(٢) قوله: «وما هو إلا عرض سابري» عرض سابري بفتح العين: نوع من الثياب رقيق، منسوب إلى سابور من الأكاسرة، كذا بهامش. وفي الصحاح: عرضت له الشيء. أي أظهرته له وأبرزته إليه. يقال: عرضت له ثوباً مكان حقه. وفي المثل: عرض سابري؛ لأنه ثوب جيد يشتري بأول عرض ولا يبالغ فيه.

لو أن لي بكم قوة أو أوياء؛ كقولها [من الوافر]:

لَلْبُسُ عِبَاءَةٌ وَتَقَرَّ عَيْنِي (١)

وقرى: (إلى ركن): بضميتين، وروي أنه أغلق بابه حين جاءوا أو جعل يرادهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فسوّروا الجدار.

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسَرَّ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْهَفْ
مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ

بِقُرْبٍ ﴿٨١﴾

= تحيي الموتى، حديث (٤٥٣٧)، ومسلم (٤٦٠/١) - النووي: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث (١٥١/٢٣٨)، ومسلم أيضاً (١٣٤/٨) - النووي: كتاب الفضائل: باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام، حديث (١٥١/١٥٢)، وابن ماجه (١٣٣٥/٢) كتاب الفتن: باب الصبر على البلاء، حديث (٤٠٢٦)؛ كلهم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.
قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث.

(١) لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلي من قصر منيف
وليس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف

لميسون بنت بحدل الكلية أم يزيد بن معاوية، ضاق صدرها من عشرة معاوية فقال: أنت اليوم في ملك لا تدرين قدره، وكنت قبله في العباءة، فقالت ذلك، أي: لبيت الشعر تضطرب الرياح فيه، أحب إلي من قصر عال مرتفع، من أناف إنافة: ارتفع. ومن العرب من يقول: أرياح في جمع ريح، خوف الاشتباه بجمع روح، كأعياد في عيد، خوف الاشتباه بالعود. ولبس: عطف على ما قبله. ورواية «اللبس» على أنه هو المبتدأ تحريف وإن كثرت. ولبس عباءة خشنة من الصوف وقرة عيني مع ذلك وسروري، أحب إلي من لبس الشفوف وسخونة عيني وحزني. والشفوف - جمع شف - الرقيق من الثياب، كأنه لا يحجب ما وراءه. وشف يشف شفوقاً. نحل جسمه. وشفه يشفه بالكسر شفا: نحله.

ينظر خزانة الأدب ٥٠٣/٨، ٥٠٤، والدرر ٩٠/٤، وشرح التصريح ٢٤٤/٢، ولسان العرب (مسن)، والمقاصد النحوية ٣٩٧/٤، ومغني اللبيب ٢٦٧/١، وشرح شواهد المغني ٦٥٣/٢، والمحتسب ٣٢٦/١، وسر صناعة الإعراب ٢٧٣/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤٧٧، وشرح شذور الذهب ص ٤٠٥، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٥٠، والكتاب ٤٥/٣، والمقتضب ٢٧/٢، وشرح الأشموني ٥٧١/٣، وشرح المفصل ٢٥/٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٤٤، وشرح ابن عقيل ص ٥٧٦، وشرح قطر الندى ص ٢٦٥، وخزانة الأدب ٥٢٣/٨، والرد على النحاة ص ١٢٨، والأشباه والنظائر ٢٧٧/٤، وأوضح المسالك ١٩٢/٤، والجنى الداني ص ١٥٧، ووصف المباني ص ٤٢٣، والصاحبي في فقه اللغة ص ١١٢، ١١٨، والدر المصون ١/٣٥٥، فتح القدير ٥٣/٢.

فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب، قالوا: يا لوط، إن ركنك لشديد، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَاصِلُونَكَ﴾: فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل - عليه السلام - ربه في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه - وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الشيا - فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله / ٣٣٧ ب تعالى: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]، فصاروا لا يعرفون الطريق؛ فخرجوا وهم يقولون: النجاة النجاة، فإن في بيت لوط قوماً سحرة، ﴿لَنَاصِلُونَكَ﴾: جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله، لم يصلوا إليه، ولم يقدروا على ضرره، قرئ: ﴿فَأَنشَرَهُ﴾: بالقطع والوصل، و﴿إِلَّا أَمْرًا﴾: بالرفع والنصب، وروي أنه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الْأَمْرُ بِقَرِيبٍ﴾، وقرئ: ﴿الْصَبْحُ﴾: بضمين.

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ: ﴿إِلَّا أَمْرًا﴾ بالنصب؟

قلت: استثناء من قوله: ﴿فَأَنشَرَهُ بِأَمْرِكَ﴾؛ والدليل عليه قراءة عبد الله: «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك»، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت، على أصل الاستثناء، وإن كان الفصيح هو البدل، أعني قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد، وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي أنه أخرجها معهم، وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت، هذه العذاب التفت، وقالت: يا قوماء، فأدركها حجر فقتلها، وروي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها؛ فإن هواها إليهم، فلم يسر بها، واختلاف القراءتين؛ لاختلاف الروايتين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ﴾ (٨٢)

مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَكَانَ هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَعْجِدُونَ (٨٣)

﴿جَعَلْنَا عَنِهَا سَافِلَهَا﴾: جعل جبريل جناحه في أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل: هي كلمة معربة من سنكل؛ بدليل قوله: «حجارة من طين»، وقيل: «هي من أسجله»؛ إذا أرسله؛ لأنها ترسل على الظالمين؛ ويدل عليه قوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل، وسجل لفلان، ﴿مَّنْضُورٍ﴾^(١): نضد في السماء نضداً معداً للعذاب، وقيل: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً، ﴿الْمُسَوِّمَةُ﴾: معلمة للعذاب، وعن الحسن: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقيل: عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، وقيل: مكتوب على كل واحد: اسم

(١) قوله: «منضود» في الصحاح: نضد متاعه ينضده بالكسر نضداً، أي: وضع بعضه فوق بعض (ع).

من يرمي به، ﴿وَمَا هِيَ﴾: من كل ظالم بعيد، وفيه وعيد لأهل مكة، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل، عليه السلام؟ فقال: يعني ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة (٧٦٦)، وقيل: الضمير: للقرى، أي: هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسائرهم، ﴿بَعِيدٌ﴾: بشيء بعيد، ويجوز أن يراد: وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالرمي، فكانها بمكان قريب منه.

﴿وَإِلَىٰ مَآثِنِ أَعْيُنِهِمْ يُفَوِّتُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْطِئُونَ] (٨٤) وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ شَيْئًا هُمْ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ يريد: بثروة واسعة، تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه، / ٣٣٨، كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَقُومُ لَكُمْ إِلَهُكُمُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرُ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَ نَأً﴾ [غافر: ٢٩]، ﴿يَوْمٍ تُحْطِئُونَ﴾: مهلك من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢]، وأصله: من إحاطة العدو.

فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ، أم وصف اليوم بها؟ قلت: بل وصف اليوم بها؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه، فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه. فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء^(١)، فما فائدة قوله أوفوا؟ قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأن في

٧٦٦ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٤٨/٢): غريب، وذكره الثعلبي عن أنس من غير سند. وقال ابن حجر: ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند. انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت النهي عن النقصان أمر بالإيفاء... إلخ» قال أحمد: ولمن قال إن الأمر بالشيء ليس نهياً عن ضده أن يستدل بهذه الآية، فإن الأمر لو كان عين النهي عن الضد، لكان وروده عقبيه تكراراً. وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أن النهي في الآية قبل الأمر، وذلك سهو وغفلة، وكل مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم: وأما قوله: إن الإيفاء حسن في العقول، فتفريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وقد سبق بطلانها، وبيننا أن التحسين والتقبيح موظفان من الشرع، ولا مجال للعقل في حكم سمعي.

التصريح بالقبيح نعيّاً على المنهي وتعبيراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه؛ لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه، وجيء به مقيداً بالقسط، أي: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان، أمراً بما هو الواجب؛ لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه، وفيه توقيف على أنّ الموفي عليه أن ينوي بالوفاء بالقسط؛ لأنّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد.

البخس: الهضم والنقص، ويقال للمكس: البخس؛ قال زهير [من الطويل]:

..... وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ أَمْرُو مَكْسٍ دِرْهَمٍ^(١)

وروي: مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً، كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك، والعثي في الأرض نحو السرقة، والغارة، وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثياً منهم في الأرض، ﴿يَقَيِّتُ اللَّهُ﴾: ما يبقى لكم من الحلال^(٢) بعد التنزه عما هو حرام عليكم، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: بشرط أن تؤمنوا؛ وإنما خطبوا بترك التطفيف، والبخس، والفساد في الأرض، وهم كفرة بشرط الإيمان.

فإن قلت: بقية الله خير للكفرة؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس^(٣) والتطفيف،

(١) أفي كل أسواق العراق إتاوة؟! وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
ألا تستحي منا ملوك وتتقي محارمنا لا تتقي الدم بالدم

لزهير. وقيل: لجابر بن حبي التغلبي، والاستفهام للتعجب أو للتوبيخ، والإتاوة كالكتابة: الرشوة والجمالة. يقال: أتوته أثوته أتوا وإتاوة: أعطيته الخراج، فهي في الأصل مصدر. والمكس: ما يأخذه العشار. ويروي «بخس درهم» أي نقص درهم، وكان أهل العراق يفعلون ذلك في أسواقهم مع العرب وغيرهم، فقال زهير: لا ينبغي ذلك. و«ألا» في الأصل مركبة من همزة الاستفهام التوبيخي ولا النافية، فصارت أداة تحضيض. ويقال: استحيا واستحي كما هنا، بنقل حركة الياء إلى الحاء وحذفها، أي: لتستح منا الملوك، وتتوقى عقوبة التعرض لمحارمنا وأموالنا، لئلا تتوقى القتل منا لهم بقتلنا لبعضهم، أي لئلا ترجع إلا بذلك، أو لئلا ترجع إلا بذلك، أو لئلا تتوقى أخذ الدم بدل الدم. وروي «ألا يستحي منا المليك ويتقي» إلى آخره، وهو لغة في الملك، والمراد به ملك العراق.

ينظر: شرح اختيارات المفضل ص ٩٥١، ولسان العرب (بوا)، (مكس)، والكتاب ٩٥/٣، الدر المصون ١٦٢/١، فتح القدير ١٥٥/١.

(٢) قال محمود: «بقية الله ما يبقى لكم من الحلال... إلخ» قال أحمد: المنقول عن المعتزلة أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة، لا نهياً ولا أمراً، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهى. وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر بشرط الإيمان، وقد قررها الزمخشري على ذلك.

(٣) عاد كلامه. قال: «فإن قلت بقية الله خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها، ومعنى السؤال: أذ، الكفار إذا قدرنا =

قلت: لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائدتها مع فقده؛ لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك استعظام للإيمان، وتنبية على جلالة شأنه، ويجوز أن يراد: إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم، وأنصح به إياكم، ويجوز أن يراد: ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير^(١) لكم؛ كقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]، وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه، وأما الحرام، فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً^(٢)، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول: طاعة الله، وقرئ: «تقية الله»، بالتاء، وهي تقواه، ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾: وما بعث لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها؛ وإنما بعث مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً، وقد أعذرت حين أنذرت.

﴿قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلُوكُ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾

كان شعيب - عليه السلام - كثير الصلوات / ٣٣٨ ب، وكان قومه إذا رأوه يصلي، تغامزوا وتضاحكوا، فقصدا بقولهم؛ ﴿أَصْلُوكُ تَأْمُرُكَ﴾: السخرية والهزاء - والصلوة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز، كما كانت ناهية في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأن يقال: إن الصلاة تأمر بالجميل والمعروف، كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه - إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز^(٣)، وجعلوا الصلاة

= خطابهم بالفروع، انتفعوا باجتناب المنهيات في الدار الآخرة؛ لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة، وإذا كانوا ينتفعون بذلك فلا معنى لاشتراط الإيمان والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتنال سواء. ومعنى الجواب: أن ظهور الانتفاع بالامتنال إنما يتحقق مع الإيمان، وأما مع الكفر فهم مخلدون في العذاب، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مآمن العذاب، والله الموفق.

(١) عاد كلامه. قال: «ويجوز أن يراد ما يبقى لكم من الطاعات عند الله... إلخ» قال أحمد: قد تقدم أن عقيدة أهل السنة: أن لا خالق ولا رازق إلا الله، إيماناً بقوله ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً وحقيقة. وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى الله تعالى، فأمر خارج عن الاعتقاد راجع إلى الاتباع، والله الموفق.

(٢) قوله: «ولا يسمى رزقاً» هذا مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراماً (ع).

(٣) قوله: «مساق الطنز» في الصحاح: الطنز السخرية. وطنز يطنز فهو طناز، وأظنه مولداً أو معرباً اهـ (ع).

أمره على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأن مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمر بك به أمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمر بك به أمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون، ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال، ومعنى تأمرك: ﴿أَنْ تَتْرَكَ﴾: تأمرك بتكليف أن تترك^(١)، ﴿مَا يَغْبُدُ أَبَاؤُنَا﴾: لحذف المضاف الذي هو التكليف، لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره، وقرئ: ﴿أَصْلَاتِكَ﴾: بالتوحيد، وقرأ ابن أبي عجلة: «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء»، بقاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس، والافتقار بالحلال القليل من الحرام الكثير، وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم^(٢) والدنانير وتقطيعها، وأرادوا بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾: نسبته إلى غاية السفه والغف، فعكسوا ليتكلموا به، كما يتهمك بالشحيح الذي لا يبض حجرة^(٣)، فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل: معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

﴿قَالَ يَنْفَوِرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ



﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي: من لدنه، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، وهو ما رزقه من النبوة والحكمة، وقيل: (رزقاً حسناً): حلالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف.

(١) قال محمود: «معناه تأمرك بتكليف أن تترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله بقاء الخطاب فيهما» قال أحمد: فعلى هذه القراءة يكون (أن تفعل) معطوفاً على أن تترك، وعلى المشهور: لا يجوز ذلك والله أعلم لاستحالة المعنى، فيتعين العطف فيها على (ما يعبد) كأنهم قالوا: أصلواتك تأمرك أن تترك عبادة آبائنا أو معبود آبائنا، على أنها مصدرية أو موصولة، ثم قالوا: أو أن تفعل، أي أو أن تترك فعلنا في أموالنا ما نشاء، هذه لطيفة فتنبه لها، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره: تأمرك بتكليف أن تترك، واحتجاجة لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذا والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال، ومع ذلك كله فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المذكورة، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك، والله أعلم.

قوله: «عن حذف الدراهم» الذي في الصحاح: حذفت من شعري ومن ذنب الدابة، أي: أخذت اهـ (ع).

قوله: «لا يبض حجرة» في الصحاح: بض الماء بضيضاً: سال قليلاً قليلاً. وفي المثل: ما يبض حجرة، أي ما تندى صفاته (ع).

فإن قلت: أين جواب: (أرأيتم)، وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟

قلت: جوابه محذوف؛ وإنما لم يثبت، لأن إثباته في القصتين دل على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة، ويقين من ربي، وكنت نبياً على الحقيقة، أيصح لي ألا أمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟، يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه؟ فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَتَهْلِكُكُمْ عَنْهُ﴾: يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم/ ٣٣٩ أ التي نهيتكم عنها، لأستبد بها دونكم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾: ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي، ونصيحتي، وأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾: ظرف، أي: مدة استطاعتي^(١) للإصلاح، وما دمت متمكناً منه لا ألو فيه جهداً، أو بدل من الإصلاح، أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح: إصلاح ما استطعت، أو مفعول له؛ كقوله: [من المتقارب]:

ضَعِيفُ النُّكَايَةِ أَغْدَاءُهُ (٢)

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾:

(١) قال محمود: «ما استطعت ظرف أي مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه، ويجوز أن يكون على حذف مضاف تقديره إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، أو يكون مفعولاً للمصدر كقوله: «ضعيف النكايه أعداءه» قال أحمد: والظاهر أنه ظرف. كهو في قوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وأما جعله مفعولاً للمصدر وقد عرف بالالف واللام فبعيد؛ لأن إعمال المصدر المعرف في المفعول الصريح ليس بذلك. قالوا: ولم يوجد في القرآن عاملاً في مفعول صريح ولا في غيره إلا في قوله ﴿لَا يُؤْبِ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ فأعمله في الجار والعدول عن إقفاء الإعراب إلى وجوهه وهي ممكنة عنيدة متعين خصوصاً في أفصح الكلام. والله أعلم.

(٢) ضعيف النكايه أعداءه يخال الفرار يراخي الأجل نكأ القرح نكاً بالهمز: جرحه بعد اندماله، ونكى العدو نكايه: قتله وجرحه. وأعداءه: مفعول النكايه. وعمل المصدر المقرون بال كما هنا نادر. يخال: أي يظن الهرب من العدو يطيل الأجل من جنبه.

ينظر أوضح المسالك ٣/٣٠٨، وخزانة الأدب ٨/١٢٧، والدرر ٥/٢٥٢، وشرح أبيات سيبويه ١/٣٩٤، وشرح الأشموني ١/٣٣٣، وشرح التصريح ٢/٦٣، وشرح شذور الذهب ص ٤٩٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٣٦، وشرح ابن عقيل ص ٤١١، وشرح المفصل لابن يعيش ٦/٥٩، ٦٤، والكتاب ١/١٩٢، والمقرب ١/١٣١، والمنصف ٣/٧١، وجمع الهوامع ٢/٩٣.

وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده، والمعنى: أنه استوفى ربه في إمضاء الأمر على سنته، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوه، وفي ضمنه تهديد للكفار، وحسم لأطماعهم فيه.

﴿وَيَقُولُ لَا يَحْرِمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩) وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

«جرم»: مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين تقول: جرم ذنباً وكسبه، وجرمته ذنباً وكسبته إياه؛ قال [من الكامل]:

جَرِمْتَ فَرَاةً بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا^(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَحْرِمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ أي: لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير بضم الياء، من أجرمته ذنباً، إذا جعلته جارماً له، أي: كاسباً، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد، كما نقل: أكسبه المال، من كسب المال، وكما لا فرق بين كسبه مالاً وأكسبه إياه؛ فكذا لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما، إلا أن المشهورة أفصح لفظاً، كما إن كسبه مالاً أفصح من أكسبه، والمراد بالفصاحة: أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعريتهم أدور، وهم له أكثر استعمالاً، وقرأ أبو حيوة، ورويت عن نافع: (مثل ما أصاب)، بالفتح؛ لإضافته إلى غير متمكن؛ كقوله [من البسيط]:

لَمْ يَمْنَعْ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقْتُ^(٢)

(١) ولقد طعن أبو عبيدة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا لزيادة بن أسماء. ويقال: جرم ذنباً إذا اكتسبه. وجرم النخل: قطعه. وجرمته كذا: إذا أكسبه إياه أو حملته عليه. يقول: طعنت ذلك الرجل الفزاري طعنة قتلتة. «جرمت فزارة» أي حق لها بعدها الغضب، أو اكتسبت فزارة بعدها الغضب فقط، واشتهر الرفع عنهم؛ لكن قال الجوهري «فزارة» مفعول أول، أي: أحققتهم الغضب، أو أكسبتهم إياه، أو حملتهم على أن يغضبوا بعدها، فهو على إسقاط الخافض.

ينظر لسان العرب (جرم)، وله أو لعطية بن عفيف في خزنة الأدب ٢٨٣/١٠، ٢٨٦، ٢٨٨، وشرح أبيات سيبويه ١٣٦/٢، ولرجل من فزارة في الكتاب ١٣٨/٣، ويلا نسبة في أدب الكتاب ص ٦٢، والاشتقاق ص ١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٤٦٥، وجواهر الأدب ص ٣٥٥.

(٢) ثم ارعويت وقد طال الوقوف بنا فيها فصرت إلى وجناء شمالل تعطيك مشياً وإرقالاً ودأداة إذا تسربلت الآكام بالآل لم يمنع الشرب منها غير أن نطق = حمامة فوق غصن ذات أوقال

﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ يَنْصَحُكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب الهالكين منكم، أو لا يبعدون منكم في الكفر، والمساوى، وما يستحق به الهلاك. فإن قلت: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه^(١)؟ قلت: إما أن يراد: وما إهلاكهم ببعيد، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد، ويجوز أن يسوي في قريب وبعيد، وقليل وكثير، بين المذكر والمؤنث؛ لورودها على زنة المصادر التي هي: الصهيل، والنهيق، ونحوهما، ﴿رَجِئٌ وَدُوْدٌ﴾: عظيم الرحمة للتائبين، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، من الإحسان والإجمال.

﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ (٩١) قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا

= لأبي قيس بن رقاعة يصف ناقته. وقوله: «فيها» أي في دار المحبوبة. والوجناء: الشديدة الصلبة. والشملال: الخفيفة السريعة. والإرقال والدأدة: نوعان من السير، وقد شبه استتار الآكام وهي الجبال الصغيرة بالآل، وهو السراب الذي يرى في الهاجرة أبيض يشبه الماء في جريانه على وجه الأرض، بالتسريل وهو لبس السرايل: أي الثياب على طريق التصريحية، ثم وصفها بحدة الفؤاد وهو محمود عندهم، أو بحنينها إلى وطنها، وعطفها لما سمعت صوت الحمامة. والشرب - بالكسر - النصب من الماء. وبالضم المصدر. والأوقال: جمع وقل كجبل وهي الحجارة، أو البقايا التي بقيت في جذع الشجرة بعد تقليم بعض أغصانها، بارزة يمكن الارتقاء عليها. يقول: لم يمنع نصيبها من الماء عنها، أو لم يمنعها من شربها الماء. ففيه قلب على الثاني وغير فاعل لأنه تضرع إليه العامل، وبني على الفتح لإضافته إلى مبنى، واستعار النطق لتفريد الحمامة على سبيل التصريحية، وكأنها كانت داخل الغصون فسمعت الناقه صوتها ولم ترها ففزعته. أو كانت على غصن من الشجرة فكان تغريدها مطرباً لذيذاً، فحننت الناقه إلى وطنها. وذات أوقال: وصف لغصن؛ لأنه جمع غصن كما قيل في فلك، المفرد والجمع باعتبار التغير التقديري. ويجوز أن يقرأ بإضافة غصن إلى ذات، والمعنى: غصن أرض أو شجرة ذات أوقال، لكن الأول أحسن في الوزن. وقد روي: في غصون ذات أوقال، أي: ذات قطع بارزة بعد التعليم، فتكون مشوهة المنظر توجب النفرة والوحشة، أو صاحبة أحجار، فتكون أنضر حيث ترى مخضرة وسط أرض قفرة، أو لتكون في غير محلها فتوجب حنين الناقه إلى محلها أو فزعها لغرابة ذلك. وقيل: إنه جمع «وقل» بالسكون، وهو شجر المقل. وقيل: يجوز أنه من وقل كوعد إذا صعد، أي ذات ارتفاعات. ينظر البيت في ديوانه ص (٨٥)، جمهرة اللغة ص (١٣١٦)، خزنة الأدب ٤٠٦/٣، ٤٠٧، الدرر ١٥٠/٣، ولأبي قيس بن رقاعة في شرح أبيات سيبويه ١٨٠/٢، شرح شواهد المغني ٤٥٨/١، شرح المفصل ٨٠/٣، الأدب ٥٣٢/٦، ٥٥٢، ٥٥٣، سر صناعة الإعراب ٥٠٧/٢، شرح التصريح ١٥/١، شرح المفصل لابن يعيش ٨١/٣، ١٣٥/٨، الكتاب ٣٢٩/٢، لسان العرب (نطق)، (وقل)، مغني اللبيب ١٥٩/١، همع الهوامع ٢١٩/١، الدر المصون ١٢٧/٣.

(١) قوله: «على ما يقتضيه قوم من حمله» وذلك بأن يعامل معاملة المؤنث، نحو ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٥) أو معاملة جمع الذكور، نحو ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦١) لأن الأول مقتضى حمله على لفظه، كما سيأتي في سورة الشعراء، من أن القوم مؤنثة وتصغيرها قويمه، والثاني مقتضى =

إِنَّ رَبِّيَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٦﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ إِنِّي عَعِلٌّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا بِجَنَّتِنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي
دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٨﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٩﴾

﴿مَا نَفَقَهُ﴾: ما نفهم، ﴿كثيراً ممَّا نقول﴾: لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم؛ رغبة عنه، وكرامية له؛ كقوله/ ٣٣٩ ب: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكانهم لم يفقهوه، وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول، أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان ألشخ، ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾: لا قوة لك، ولا عز فيما بيننا^(١)، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً، وعن الحسن: (ضعيفاً): مهيناً، وقيل: (ضعيفاً): أعمى، وحمير تسمي المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريباً، وليس بسديد؛ لأن (فينا): يأباه؛ ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً؛ لأن الأعمى، أعمى فيهم وفي غيرهم؛ ولذلك قللوا قومه؛ حيث جعلوهم رهطاً، والرهط: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة؛ وإنما قالوا: ولولا هم؛ احتراماً لهم، واعتداداً بهم؛ لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم وعزتهم، ﴿الرَّحْمَنُكَ﴾: لقتلناك شر قتلة، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا تعز علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم؛ وإنما يعز علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزة علينا؛ ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصح هذا الجواب.

فإن قلت: فالكلام واقع فيه، وفي رهطه، وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؟

قلت: تهاونهم به - وهو نبي الله - تهاون بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه، كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَطْعِ الرِّسْوَةَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَتَعَذَّبْتُمُوهُ وَرَأَيْتُمْ ظَهْرَ الْمُنْبُذِ وَرَأَيْتُمْ ظَهْرَ الْمُنْبُذِ﴾: ونسيتموه، وجعلتموه كالشيء المنبذ وراء الظهر

= حملة على معناه وهو ظاهر (ع).

(١) قال محمود: «معنى قولهم ضعيفاً، أي: لا قوة لك ولا عز فيما بيننا... إلخ» قال أحمد: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان ملياً بالحذاقة في علم البيان والله المستعان.

لا يعبا به، والظهوري: منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى أسس: أمسي، ﴿يَمَا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ﴾: قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها، ﴿عَلَى مَكَانِكُمْ﴾: لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، أو تكون مصدرأ من مكن مكانة فهو مكين، والمعنى: اعملوا قازين على جهتك التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها، ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾: على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾: يجوز أن تكون (من): استفهامية، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها؛ كأنه قيل: سوف تعلمون أينما يأتيه عذاب يخزيه، وأينما هو كاذب، وأن تكون/ ٣٤٠ أ موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في: (سوف تعلمون)؟

قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف؛ للفتن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان، تتكاثر محاسنه، ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾: وانتظروا العاقبة، وما أقول لكم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: منتظر، والرقيب بمعنى: الراقب، من رقبه، كالضرب والصريم بمعنى: الضارب، والصارم، أو بمعنى: المراقب، كالعشير والنديم، أو بمعنى: المرتقب، كالفقير، والرفيع، بمعنى: المفتقر والمترفع.

فإن قلت: قد ذكر عملهم على مكانتهم^(١)، وعمله على مكانته، ثم أتبعه ذكر عاقبة

(١) قال محمود: «إن قلت قد ذكر عملهم على مكانتهم... إلخ» قال أحمد: والظاهر - والله أعلم - أن الكلامين جميعاً لهم، فالأول وهو قوله ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ مضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به وهو الكذب، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد، كما تقول لمن تهدده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وإنما يعني المخاطب في الكلامين، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يخل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً فالآخر هو المحق قطعاً، فذكره لإحدى العاقبتين صريحاً يفهم ذكر الأخرى تعريضاً والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح، وهذا منه، والذي يدل على أن الكلامين لهما وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر، استغناء عنها بذكر عاقبتهم، كما بيناه في الآية التي في أول هذه السورة، وهي قوله تعالى ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ألا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، وكذلك قوله في سورة الأنعام ﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَذَابُهُ الدَّارُ﴾ فذكر هناك أيضاً إحدى العاقبتين، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير، =

العاملين منه ومنهم، فكان القياس أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق، حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم؟ قلت: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ يعني: في زعمكم ودعواكم؛ تجهيلاً لهم. فإن قلت: ما بال ساقتي قصة^(١) عاد، وقصة مدين جاءت بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟

قلت: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد؛ وذلك قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، فجاء بالفاء الذي هو للتسبيب، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخريان: فلم تقعا بتلك المثابة؛ وإنما وقعتا مبتدأتين، فكان حقهما أن تعطف بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة، الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم، كاللابد^(٢)، يعني: أن جبريل صاح بهم صيحة، فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصاً^(٣)، ﴿كَأَنَّ لَمْ يَمُوتُوا﴾: كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين، البعد: بمعنى: البعد، وهو الهلاك، كالرشد بمعنى: الرشد؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعْدَتْ﴾؟ وقرأ السلمي: «بعدت»، بضم العين، والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيروا البناء، كما فرقوا بين ضمان الخير والشر، فقالوا: وعد وأوعد، وقرأ السلمي جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص، كما يقال: ذهب فلان ومضى، في معنى الموت، وقيل: معناه: بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاتَّبَعُوهُ أَمَّا فِرْعَوْنُ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۖ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ۖ (٩٨) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ۖ (٩٩)﴾

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ / ٣٤٠ب: فيه وجهان: أن يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته، وأن يراد بالسلطان المبين: العصا؛ لأنها أبهرها، ﴿وَمَا أَمْرُ

= ومتى أطلقت فلا يعني إلا ذلك. كقوله ﴿وَالْمَقِيَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واستغنى عن ذكر مقابلتها، والله أعلم. فتأمل هذا الفصل فإنه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز، وضم بعضها إلى بعض، والله الموفق للصواب.

- (١) قوله: «ساقتي قصة» في الصحاح: ساقه الجيش مؤخره اهـ. ومثله ساقه القصة هنا (ع).
- (٢) قوله: «كاللابد» أي المتلبد اللاصق بالأرض، أفاده الصحاح (ع).
- (٣) قوله: «بحيث هو قعصاً» في الصحاح: يقال مات فلان قعصاً، إذا أصابته ضربة فمات مكانه (ع).

فَرَعَوْتُ بِرَشِيدٍ: تجهيل لمتبعيه؛ حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل؛ وذلك أنه ادعى الإلهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته، والأمر الرشيد: الذي فيه رشد، أي: وما في أمره رشد إنما هو غي صريح وضلال ظاهر مكشوف؛ وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم، وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى - عليه السلام - وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: كما كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، ويجوز أن يريد بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فَرَعَوْتُ بِرَشِيدٍ﴾: وما أمره بصالح حميد العاقبة، ويكون قوله: (يقدم قومه): تفسيراً لذلك وإيضاحاً، أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته، والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضي، كما استعمل الغي في كل ما يذم ويتسخط، ويقال: قدمه بمعنى تقدمه، ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدمه، ومنه مقدمة الجيش، وأقدم بمعنى تقدم. ومنه مقدم العين.

فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جيء بلفظ الماضي؟

قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به؛ فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة، و﴿الْوَرْدُ﴾: المورد، و﴿الْمُرُودُ﴾: الذي وردوه، شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بشس الورد الذي يردونه النار؛ لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضده، و﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾: في هذه الدنيا، و﴿لَعْنَةُ﴾ أي: يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة، و﴿يَسَّ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾: رفدهم، أي: بشس العون المعان؛ وذلك أن اللعنة في الدنيا رقد للعذاب ومدد له، وقد رقدت باللعة في الآخرة، وقيل: بشس العطاء المعطى.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَفْثُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَنْثِيْبٍ ﴿١١١﴾

﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَفْثُهُ عَلَيْكَ﴾: خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك، ﴿مِنْهَا﴾: الضمير للقرى، أي: بعضها باق وبعضها عافى الأثر، كالزرع القائم على ساقه والذي حصد.

فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟

قلت: هي مستأنفة لا محل لها، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾: بإهلاكنا/ ١٣٤١ إياهم، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: بارتكاب ما به أهلكوا، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾: فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله، ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون، وهي حكاية حال ماضية، و﴿لَمَّا﴾: منصوب بما أغنت، ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾: عذابه ونقمته، ﴿تَتَّبِعُ﴾: تخسير، يقال: تب إذا خسر، وتببه غيره، إذا أوقعه في الخسران.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٢٢)

محل الكاف: الرفع، تقديره: ومثل ذلك الأخذ، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾: والنصب فيمن قرأ: «وكذلك أخذ ربك»، بلفظ الفعل، وقرئ: «إذ أخذ القرى»، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: حال من القرى، ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: وجيع صعب على المأخوذ، وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقتضيه، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٢٣)

﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم، ﴿لَآيَةً لِّمَن خَافَ﴾: لعبرة له؛ لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا، وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدته، اعتبر به عظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى، والخشية من الله تعالى، ونحوه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (٢٦) [النازعات: ٢٦]. ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى يوم القيامة؛ لأن عذاب الآخرة دل عليه، و﴿النَّاسِ﴾: رفع باسم المفعول الذي هو مجموع، كما يرفع بفعله إذا قلت: يجمع له الناس.

فإن قلت: لأي فائدة أوتر اسم المفعول على فعله؟^(١)

قلت: لما في اسم المفعول من دلالة^(٢) على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت

(١) قال محمود: «إن قلت لم عدل عن الفعل إلى اسم المفعول... إلخ» قال أحمد: ولهذا السر ورد قوله تعالى ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ﴾ فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً... إلخ.

(٢) قوله: «من دلالة» عبارة النسفي: دلالة (ع).

- أيضاً - لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه؛ ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] تعثر على صحة ما قلت لك، ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب، والثواب، والعقاب، ﴿يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾: مشهود فيه، فاتسع في الظرف^(١) بإجرائه مجرى المفعول به؛ كقوله [من الطويل]:

وَيَوْمَ شَهِدْتَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا^(٢)

أي: يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد، والمراد بالمشهود: الذي كثر شاهده، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور، قال [من البسيط]:

..... فِي مَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٌ^(٣)

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟

قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه، فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل / ٣٤١ ب التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه؛ لأن سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده؛ وكذلك قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في: (فليصمه)، والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه، يعني: فمن كان

(١) قال محمود: «المراد مشهود فيه فاتسع في الظرف... إلخ» قال أحمد: يكون المشهود الذي هو المفعول به مسكوتاً عنه مبهماً، ومن الإيهام ما يكون تفخيماً، وهذا مكانه.

(٢) تقدم.

(٣) من للخصوم إذا جد الضجاج بهم
ومشهد قد كفيت الغائبين به
بعد ابن سعد ومن للضمير القود
في محفل من نواصي القوم مشهود
عند الحفاظ وقلب غير مزود
فرجته بلسان غير ملتبس

لأم قيس الضبية. وضج ضجيجاً وضجاجاً: صاح. وضج البعير من الحمل: تعب من ثقله، والضمير بالتشديد: جمع ضامر. وفرس أقود: طويل العنق. ورجل أقود: يقبل بوجهه ولا ينثني. والقود: جمعه. ومشهد: عطف على الخصوم. ويجوز جره برب، أي مجلس كفيت فيه الغائبين عنه بالتكلم عنهم بين محفل من رؤساء الناس وأشرافهم، فالنواصي: استعارة لهم. وفرجته، فككت كربته، وكشفت غمته بكلام واضح الدلالة صادر عن قلب مطمئن غير خائف عند الحفاظ، أي غير الخصوم ومحافضة كل منهم على رأيه أو المغاضبة. ويقال: أحفظه إحفاظاً إذا أغضبه. ينظر: لسان العرب (نصو)، وتاج العروس (نصو)، وأساس البلاغة (نصو).

منكم مقيماً حاضراً لوطنه في شهر رمضان، فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً، فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر، لا يشهده المقيم، ويغيب عنه المسافر:

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ (١١٤)

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤]، يراد: آخر مدة التأجيل، والعد إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ (١١٤): إلا لانتفاء مدة معدودة بحذف المضاف، وقرئ: «وما يؤخره بالياء».

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ﴾ (١١٥)

قرئ: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾: بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل.

فإن قلت: فاعل يأتي ما هو؟

قلت: الله - عز وجل - كقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وتعضده قراءة: «وما يؤخره»، بالياء، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم؛ كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾.

فإن قلت: بما انتصب الظرف؟

قلت: إما أن ينتصب بلا تكلم، وإما بإضمار «اذكر»، وإما بالانتفاء المحذوف في قوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ينتهي الأجل يوم يأتي.

فإن قلت: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحددت الشيء بنفسه.

قلت: المراد إتيان هوله وشدائده، ﴿لَا تَكَلِّمُ﴾: لا تتكلم، وهو نظير قوله: ﴿لَا يَكَلِّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ٢١].

فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجْدِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]، [٣٦].

قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام، فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير: لأهل

الموقف، ولم يذكروا؛ لأن ذلك معلوم، ولأن قوله: ﴿لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ﴾: يدل عليه، وقد مر ذكر الناس في قوله: ﴿يَجْمَعُونَ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣]، والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦٦﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦٧﴾﴾

قراءة العامة بفتح الشين، وعن الحسن: (شقوا): بالضم، كما قرئ: (سعدوا)، والزفير: إخراج النفس، والشهيق: رده؛ قال الشَّماخ [من من الطويل]:
بَعِيدُ مَدَى الثَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحْشَرَجٌ^(١)
﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سموات وأرضاً. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]؛ وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبِّؤُا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]؛ ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلمهم: إما سماء يخلقها الله، أو يظلمهم العرش، وكل ما أظلك فهو سماء.

والثاني: أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع، كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد.

فإن قلت: فما معنى: الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟

قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة؛ وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير بأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسوه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم، وهو رضوان الله، كما قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿١﴾ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿٢﴾ وَمَسْكَنٍ ظِلِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴿٣﴾﴾ [التوبة: ٧٢] ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء، والدليل عليه

(١) للشماخ يصف حمار وحشي. والمدى: المسافة والغاية. والتطريب: ترديد الصوت وترخيمة. والزفير: إخراج النفس بشدة. والمحشرج اسم مفعول: الصوت الذي يردده في حلقه وصدره.

قوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ جَدُوزٍ﴾ ومعنى قوله في مقابله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمل؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا يخدعك عنه قول المجبرة^(١)، إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل باقترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض الثواب^(٢)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد (٧٦٧)؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار، وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين - زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه - وتنبهوا على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص، فمعناه: أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير؛ فذلك خلّو جهنم وصفق أبوابها، وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفه، ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث.

٧٦٧ - أخرجه البزار، كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (١٤٨/٢) من طريق الطيالسي ثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً، وقد ورد هذا مرفوعاً من حديث أنس.

أخرجه ابن عدي في «الكامل»؛ كما في «تخريج الكشاف» (١٤٨/٢ - ١٤٩) من طريق العلاء بن زيد الثقفي عن أنس مرفوعاً. وأعله بالعلاء بن زيد وقال: هو منكر الحديث.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

الحديث أخرجه البزار قال: حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: «يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد. يعني من الموحدين»، كذا فيه ورجاله ثقات. والتفسير لا أدري ممن هو، وهو أولى من تفسير المصنف، ويؤيده ما رواه ابن عدي عن أنس - رضي الله عنه - مرفوعاً: «ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها، ما فيها من أمة محمد أحد»، وفي الباب عن أبي أمامة رفته: «يأتي على جهنم يوماً ما فيها من بني آدم أحد، تخفق أبوابها، يعني من الموحدين»، وأما الحديث الذي أخرجه الحارث بن أبي أمامة في مسنده من طريق الحسن عن عمرو رفته: «إن جهنم تخلو حتى ينبت فيها الجرجير»، فهو منقطع. ومراسيل الحسن عندهم واهية؛ لأنه كان يأخذ من كل أحد. فإن كان محفوظاً فعلى التأويل الأول. والله أعلم. انتهى.

(١) قوله: «ولا يخدعك عنه قول المجبرة» يريد أهل السنة. أما المعتزلة فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر وخلوده في النار أبدي، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد (ع).

(٢) قوله: «لما روى لهم بعض الثواب» في الصحاح: إن بني فلان لئابة شر. والثواب من الأحداث الأعمار (ع).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ (١٨) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٩﴾

﴿غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾: غير مقطوع، / ٣٤٢ب ولكنه ممتد إلى غير نهاية؛ كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥]. لما قصّ قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحلّ بهم من نعمة، وما أعدّ لهم من عذابه، قال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم، وتعرضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسليّة لرسول الله ﷺ وعده بالانتقام منهم ووعيداً لهم، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ يريد: أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحاليين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله، وهو استئناف معناه تعليل النهي عن المرية، و«ما»: في مما، وكما: يجوز أن تكون مصدرية وموصولة، أي: من عبادتهم، وكعبادتهم، أو مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها، ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ أي: حظهم من العذاب^(١)، كما وفينا آباءهم أنصباؤهم.

فإن قلت: كيف نصب: ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حالاً عن النصب الموفى؟ قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص، ويوفى وهو كامل؛ ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه، وثلاث حقه، وحقه كاملاً وناقصاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ وَلِإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١١)

﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾: آمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة، ﴿لَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ﴾: بين قوم موسى أو قومك، وهذه من جملة التسليّة، أيضاً.

﴿وَإِن كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقُنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنِّي بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٢)

(١) قال محمود: «أي حظهم من العذاب، وإنما نصب غير منقوص حالاً من النصب الموفى، لأنه يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه وحقه كاملاً» قال أحمد: وهم والله أعلم، فإن التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملاً كان أو ناقصاً، فقولك: وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالاً عنه؟ والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الإعطاء، كما استعمل التوفي بمعنى الأخذ. ومن قال: أعطيت فلاناً حقّه. كان جديراً أن يؤكد بقوله: «غير منقوص» والله أعلم.

﴿وَإِنَّ كَلًّا﴾: التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإن كلهم، وإن جميع المختلفين فيه، ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ﴾: جواب قسم محذوف، واللام في (لما): موطنه للقسم، و(ما): مزيدة، والمعنى: وإن جميعهم والله ليؤفينهم، ﴿رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾: من حسن وقبح وإيمان وجحود، وقرئ: وإن كلا بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة؛ اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيف، وقرأ أبي: «وإن كل لما ليؤفينهم»، على أن إن نافية، ولما بمعنى: إلا، وقراءة عبد الله مفسرة لها، وإن كل إلا ليؤفينهم، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم: «وإن كلا لما ليؤفينهم»، بالتنوين؛ كقوله: ﴿أَكْثَلًا لَمَّا﴾ [الفجر: ١٩] والمعنى: وإن كلا ملمومين، بمعنى: مجموعين؛ كأنه قيل: وإن كلا جميعاً؛ كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق، غير عادل عنها، ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾: معطوف على المستتر في استقم؛ وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، والمعنى: فاستقم أنت، وليستقم من تاب على الكفر، وآمن معك، ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾: ولا تخرجوا عن حدود الله، ﴿إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: عالم فهو مجازيكم به، فاتقوه، وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه / ٣٤٣ من هذه الآية، ولهذا قال: «شيبني هود والواقعة وأخواتهما» (٧٦٨). وروي أن أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب، فقال:

٧٦٨ - تفرد به الترمذي (٣٢٩٧) دون أصحاب الكتب الستة، وأخرجه الحاكم (٤٧٦/٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقد توسع الدارقطني في «العلل» (١٩٣/١) - (٢١١) في الكلام على هذا الحديث فليراجع. قال الحافظ:

وفي الترمذي من حديث شيبان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: «يا رسول الله، قد شبت، قال: قد شيبني هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون. وإذا الشمس كورت» وقال: حسن غريب. وأخرجه البزار من هذا الوجه. وقال: اختلف فيه على أبي إسحاق، فقال شيبان كذا. وقال علي بن صالح: عن أبي إسحاق عن أبي حجية قال: وقال زكريا عن أبي إسحاق عن مسروق أن أبا بكر قال: وأطال الدارقطني في ذكر علله واختلاف طرقه في أوائل كتاب العلل - ورواه البيهقي في الدلائل من رواية عطية بن سعيد قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب. فقال: شيبني هود وأخواتها: الواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت، وأخرجه ابن سعد وابن عدي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس. وفيه: «الواقعة، والقارعة، وسأل، وإذا الشمس كورت». انتهى.

«شَيْبَتْنِي هُوْدُ» (٧٦٩) وعن بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبتني هود، فقال: «نعم»، فقلت: ما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «لا»، ولكن قوله ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾. وعن جعفر الصادق - رضي الله عنه - (فاستقم كما أمرت)، قال: افتقر إلى الله بصحة العزم.

﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٣)

قري: «ولا تركنوا»، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء، وفتح الكاف، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم؛ ونحوه قراءة من قرأ: (فتمسكم النار): بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبلة: «ولا تركنوا»، على البناء للمفعول، من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم، وزيارتهم، ومداونتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزوي بزيتهم، ومدّ العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم؛ وتأمل قوله: (ولا تركنوا): فإن الركون هو الميل اليسير، وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: إلى الظالمين، وحكي أن الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم؟. وعن الحسن - رحمه الله - جعل الله الدين بين لاءين: ﴿وَلَا تَقْفُوا﴾ [طه: ٨١]، ﴿وَلَا تَرْكُنُوا﴾، ولما خالط الزهري السلاطين، كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء؛ قال الله سبحانه: ﴿لَبِئْسَ نَجِثٌ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت: أنك أنتست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤدّ حقاً، ولم يترك باطلاً، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحي باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك^(١) من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا

٧٦٩ - ينظر الحديث السابق.

(١) قوله: «وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك» لعل هنا سقطاً تقديره: في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحو لك في جنب ما أفسدوا... إلخ (ع).

الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٥٩﴾ [مریم: ٥٩]، فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهیی زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في / ٣٤٣ ب السماء، والسلام.

وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك، وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً، وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا لظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ فِي أَرْضِهِ» (٧٧٠). ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: حال من قوله: (فتمسكم) أي: فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره، ﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾: ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم.

فإن قلت: فما معنى ثم؟

قلت: معناها: الاستبعاد؛ لأن النصره من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكْرِ﴾ (١١٤)

﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾: غدوة وعشية، ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾: وساعات من الليل، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قربته وازدلف إليه، وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأن ما بعد الزوال عشي، وصلاة الزلف: المغرب والعشاء،

٧٧٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٥١/٢): غريب مرفوعاً، وذكره الغزالي كذلك مرفوعاً في موضعين من كتابه إحياء علوم الدين. أ.هـ. والحديث أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٧/ ٥٣ - ٥٤) رقم (٩٤٣٢) عن عبد الله بن عمر الرقي عن يونس بن عبيد سمعت الحسن يقول: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله في أرضه».

وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٤٦/٧) من قول سفيان الثوري، في ترجمته فذكره.

وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين: (٨٧/٢)، (١٤٤/٢) مرفوعاً به.

قال الحافظ: قد رواه البيهقي في السادس والستين من الشعب من رواية يونس بن عبد عن الحسن من قوله. وذكره أبو نعيم في الحلية من قول سفيان الثوري. انتهى.

وانتصاب طرفي النهار على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت؛ كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار، وأوله، وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه؛ ونحوه: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقرئ: «وَزُلْفَا»؛ بضميتين، «وَزُلْفَا». بسكون اللام، «وَزُلْفَى»: بوزن قربي، فالزلف: جمع زلفة، كظلم في ظلمة، والزلف بالسكون: نحو بسرة وبسر، والزلف بضميتين نحو: بسر في بسر، والزلفى بمعنى: الزلفة، كما أن القربى بمعنى القرية: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل: «وَزُلْفَا من الليل»: وقرباً من الليل، وحققها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة، أي: أقم الصلاة طرفي النهار، وأقم زلفاً من الليل، على معنى: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله - عز وجل - في بعض الليل، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إِنَّ الصَّلَاةَ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ مَا بَيْنَهُمَا مَا اجْتَنِبْتَ الْكَبَائِرَ» (٧٧١).

والثاني: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ»: بأن يكن لطفاً في تركها؛ كقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو ابن غزية الأنصاري كان يبيع التمر فأنته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ / ٣٤٤ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ «أَنْتَظِرُ أَمْرَ رَبِّي، فَلَمَّا صَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ، نَزَلَتْ، فَقَالَ: نَعَمْ، أَذْهَبَ؛ فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَا عَمِلْتَ» ح، وروي أنه أتى أبا بكر فأخبره، فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر - رضي الله عنه - فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل

٧٧١ - أخرجه مسلم (أبي) [٢٥/٢]: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة و...، حديث (٢٣٣/١٤). والترمذي (٢١٤) وأخرجه ابن ماجه (٣٤٥/١): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب في فضل الجمعة، حديث (١٠٨٦).

وابن خزيمة (١٦٢/١): كتاب الصلاة: باب ذكر الدليل على أن الصلوات الخمس إنما تكفر صغائر الذنوب دون كبائرها، حديث (٣١٤). و(١٥٨/٣): في جماع أبواب الأذان والخطبة في الجمعة: باب ذكر الخبر المفسر للأخبار المجملة التي ذكرتها في الأبواب المتقدمة، حديث (١٨١٤).

وأخرجه أحمد (٤٨٤/٢).

قال الحافظ: أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة رفعه: «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر». انتهى.

للناس عامة، وروي أن رسول الله ﷺ قال له: تَوَضَّأْ وَضُوءاً حَسَنًا وَصَلْ رَكَعَتَيْنِ، ﴿إِنَّ أَحْسَنَتَ يَذْهَبَنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ (٧٧٢)، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى قوله: ﴿فَأَسْتَقِمَّ﴾، فما بعده:

٧٧٢ - أخرجه الترمذي (٢٩٢/٥): كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود، حديث (٣١١٥)، والنسائي في تفسيره: (٥٩٤/١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو.

قال: وروى شريك عن عثمان عن عبد الله هذا الحديث مثل رواية قيس بن الربيع. وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣٤/٧) رقم (١٨٦٩٧ - ١٨٦٩٨)، والطبراني في الكبير (١٦٥/١٩) رقم (٣٧١): كلهم من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن عبد الله بن موهب عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٣٨/٣)، وزاد نسبه للبزار وابن مردويه عن أبي اليسر به. وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (١٨٩/٢): كتاب مواقيت الصلاة باب الصلاة كفارة، حديث (٥٢٦) و(٢٦٠/٩): كتاب التفسير، باب: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ حديث (٤٦٨٧)، وذكره تعليقاً في ترجمة باب (٢٦) من كتاب الحدود (٩٣/١٤)، ومسلم (٩١/٩ - ٩٢ - النووي): كتاب التوبة باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ حديث (٣٩ - ٤٠ - ٢٧٦٣/٤١)، والترمذي (٢٩١/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة هود، رقم (٣١١٤)، وابن ماجه (٤٤٧/١): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء أن الصلاة كفارة، رقم (١٣٩٨) و(١٤٢١/٢): كتاب الزهد: باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٤)، والطبري في تفسيره (١٣٢/٧) رقم (١٨٦٨٩).

كلهم من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان عن ابن مسعود به.

وأخرجه الطبري في تفسيره (١٣١/٧) رقم (١٨٦٨١ - ١٨٦٨٢) من طريق سماك عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبد الله بن مسعود به. وله شاهد أيضاً من حديث معاذ بن جبل: أخرجه الدارقطني في السنن (١٣٤/١): كتاب الطهارة باب صفة ما يتقضى الوضوء، وما روي في الملامسة والقبلة، والبيهقي في «سننه الكبرى» (١٢٥/١)، والحاكم في «المستدرک»: (١٣٥/١) وسكت عنه، والواحدي في تفسيره: (٥٩٤/٢)، والطبري في تفسيره (١٣٣/٧) رقم (١٨٦٩٥): كلهم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل به.

وذكره السيوطي في الدر المنثور: (٦٣٨/٣) وزاد نسبه إلى أحمد والترمذي والنسائي وأبي الشيخ وابن مردويه عن معاذ بن جبل نحوه.

قال الحافظ:

كان في الأصل أبو اليسر عمرو بن غزية وهو غلط. وإنما هو أبو اليسر كعب بن عمرو. وكذا هو في كتب أسماء الصحابة. وإنما تبع المصنف الشعبي فإنه قال: كذلك نزلت في عمرو بن غزية الأنصاري. والحديث عند الترمذي والنسائي والبزار والطبراني والطبري من رواية عثمان بن عبد الله ابن موهب عن موسى بن طلحة بن أبي اليسر بن عمرو قال: أتتني امرأة بتناع تمرأ - فقلت لها: في البيت تمر أطيّب من هذا فدخلت معي في البيت. فأهويت إليها فقبلتها. فقالت: اتق الله. فأنيت أبا بكر فذكرت ذلك له: فقال استر علي نفسك وتب. فأتيت عمر فقال مثل ذلك. فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فأتق طويلاً حتى أوحى إليه: (أقم الصلاة... الآية) قال ابن أبي اليسر: أتيت فقرأها علي. فقال أصحابه: يا رسول الله، ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة. =

﴿ذَكَرَى لِلذَّكْرِ﴾: عظة للمتعظين.

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)

ثم كرّ إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحلّه؛ كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امثال ما أمرت به، والانتهاه عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: جاء بما هو مشتمل على الاستقامة، وإقامة الصلوات، والانتهاه عن الطغيان، والركون إلى الظالمين، والصبر، وغير ذلك من الحسنات.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦)

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾: فهلا كان، وقد حكوا عن الخليل: كل: «لولا» في القرآن، فمعناها: «هلا»، إلا التي في الصفات، وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصفات، ﴿لَوْلَا أَنْ تَذَكَّرُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّكَ لَنْبَذَ بِالْعَرَاءِ﴾ [القلم: ٤٩]، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥]، ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤] ﴿أُولُوا بَقِيَّةَ﴾: أولو فضل وخير، وسمي الفضل والجودة بقية؛ لأنّ الرجل يستبقي مما يخرججه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم؛ وبه فسر بيت الحماسة [من البسيط]:

إِنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ يَأْتِيَنِي بَقِيَّتُكُمْ

(١)

= وفي رواية لأحمد فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أله وحده أم للناس كافة؟ وللدارقطني والحاكم والبيهقي من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئاً يأتيه الرجل من امرأته إلا أصاب منها غير أنه لم يجامعها. فقال له النبي ﷺ: تَوْضُأً وَضُوءاً حسناً ثم صل. فأنزل الله تعالى الآية. فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة. وأصل الحديث في الصحيحين عن ابن مسعود، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، ولم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً فانطلق الرجل فأتبعه النبي ﷺ رجلاً. فدعاه فتلا عليه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ... الآية﴾، فقال رجل من القوم: يا رسول الله أله خاصة أم للناس؟ فقال: بل للناس كافة. انتهى.

(١) يأيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت؟ =

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البقوى، كالتقية بمعنى: التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: «أولو بقية»: بوزن لقية، من بقاء يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه: «بقينا رسول الله ﷺ (٧٧٣)، والبقية المرة من مصدره، والمعنى: فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي، (من) في: ﴿يَمَعْنَ أَجِينًا﴾: حقها أن تكون للبيان، لا للتبويض؛ لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فإن قلت: هل لوقوع هذا/ ٣٤٤ ب الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؟

قلت: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام، كان المعنى فاسداً؛ لأنه يكون تحضيضاً لأولي البقية على النهي عن الفساد، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم، تريد استثناء الصالحاء من المحضضين على قراءة القرآن، وإن قلت في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفية عنهم، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً، كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل، ﴿وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا﴾

٧٧٣ - أخرجه أبو داود (١/١١٤): كتاب الصلاة: باب في وقت العشاء الآخرة، حديث (٤٢١) من طريق عاصم بن حميد السكوني عن معاذ بن جبل به.
قال الحافظ: أخرجه أبو داود من حديث معاذ قال «لقينا رسول الله ﷺ في صلاة العتمة فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج... الحديث» انتهى.

وقل لهم: بادروا بالعدر والتمسوا
إن تذنّبوا ثم يأتيني بقيتكم
فما عليّ بذنب عندكم فوت
قولاً يبرئكم إنني أنا الموت

لروشيد بن كثير الطائي. وزجاء - بالتخفيف والتشديد - وأزجاء: ساقه. وأراد بالصوت: الصيحة أو القصة التي بلغته عنه، وأخبر عن نفسه بالموت مبالغة. وبقية القوم: خيارهم، وتأتي مصدراً بمعنى البقوي، كالتقية بمعنى التقوى. والمعنى على الأول. إن تذنّبوا ثم يأتيني أمثالكم يعتذرون عنكم فلا فوت، ولا بأس عليّ بسبب ذنب غيركم. وعلى الثاني: ثم يأتيني منكم ذو الإبقاء على أنفسهم، يقولون: لا تهلكتنا بما فعل السفهاء منا، فكذا. ويجوز أن المعنى: إن تجتمعوا عليّ للمحاربة أو للاعتذار، فلا تفوتني مواخذتكم بل لا بد منها. وإثبات الباء في «يأتيني» للإشباع، لكن الأخير غير مناسب لقوله: «بادروا بالعدر».

ينظر: لسان العرب (بقي)، والمحتسب (١/١٩٦).

فيه: أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعقدوا همهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والتترف، من حب الرياسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم، وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي، «واتبع الذين ظلموا»، يعني: واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزاء إترافهم، وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؟

قلت: إن كان معناه: واتبعوا: الشهوات، كان معطوفاً على مضمر؛ لأن المعنى: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزاء الإتراف، فالواو للحال، كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

فإن قلت: فقوله: ﴿وَكَاذِبًا مَّجْرِمًا﴾؟

قلت: على أترفوا، أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا، أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧)

﴿وَكَانَ﴾ بمعنى: صح واستقام، واللام لتأكيد النفي، و﴿بِظُلْمٍ﴾: حال من الفاعل، والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلُهَا﴾: قوم، ﴿مُصْلِحُونَ﴾: تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيضاحاً بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون، يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ

خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴿

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: لا يضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة، أي: ملة واحدة، وهي ملة الإسلام؛ كقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، وهذا الكلام يتضمن/ ٣٤٥ أنه نفى الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه

مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلَفوا؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً هُداةً لله ولطف بهم، فاتَّفَقوا على دين الحق غير مختلفين فيه، ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأول وتضمنه، يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، وهي قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ لعلَّه بكثرة من يختار الباطل.

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٦) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿وَكَلَّا﴾: التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبأ، ﴿نَقْصُ عَلَيْكَ﴾، و﴿مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾: بيان لكل، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: بدل من كلا، ويجوز أن يكون المعنى: كل اقتصاص نقص عليك، على معنى: وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك، يعني: على الأساليب المختلفة، و﴿ما نثبت به﴾: مفعول نقص، ومعنى تثبيت فؤاده: زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأن تكرار الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق، ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: من أهل مكة وغيرهم: ﴿أَعْمَلُوا﴾: على حالكم، وجهتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَمِلُونَ وَانظُرُوا﴾: بنا الدوائر، ﴿إِنَّا مُنظِرُونَ﴾: أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩)

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾: فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ فإنه كافيك وكافللك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقرئ: «تعملون»، بالتاء، أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ يَسُوحَ وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَشُعَيْبٍ، وَلُوطٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَكَانَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ مِنَ السُّعَدَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ» (٧٧٤).

٧٧٤ - تقدم برقم (٣٤٦).

قال الحافظ : تقدم إسناده في آل عمران، ويأتي في آخر الكتاب. انتهى.

سُورَةُ يُوسُفَ

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ ١ وَ ٢ وَ ٣ وَ ٧ فَمَدَنِيَّةٌ]

وهي مائة وإحدى عشرة آية [نزلت بعد سورة هود]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيَّةُ الْكُتُبِ الْمُتَيْنِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى آيات السورة، و﴿الْكُتُبِ الْمُتَيْنِ﴾: السورة، أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيهم، أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله، لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا نشبهه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف، فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً، لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف، ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾: انزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وسمي بعض القرآن قرآناً؛ لأن القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿الْقَصَصُ﴾ على وجهين: يكون مصدراً بمعنى: الاقتصاص، تقول: قصّ الحديث يقصه قصصاً؛ كقولك: شله يشله سلاً، إذا طرده، ويكون: «فعلاً» بمعنى: «مفعول»، كالنفض والحسب؛ ونحوه: النبأ والخبر: في معنى المنبأ به والمخبر به، ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر، كالخلق والصيد، وإن أريد المصدر، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن القصص، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بإيحاءنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر؛ لإضافته إليه، ويكون المقصود محذوفاً؛ لأن قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾: مغن عنه، ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقص/ ١٦٥، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحاءنا إليك، والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتص على أبداع طريقة وأعجب أسلوب؛ ألا ترى أن هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً؛ لاقتصاصه في القرآن، وإن

فإن قلت : مم اشتقاق القصص؟

﴿إِذْ قَالَ يُسُفُّ لَأَبِيهِ يَتَابَتُ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايَتْهُمُ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

قلت: لا؛ لأنَّ القراءة المشهورة قامت بالشهادة، على أن الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى، ونحو يوسف: يونس، رويت فيه هذه اللغات الثلاث، ولا يقال: هو عربي؛ لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من أنس وأونس، وعن النبي ﷺ: «إِذَا قِيلَ: مَنْ الْكَرِيمُ؟ فَقُولُوا: الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» (٧٧٥)، ﴿يَكَاتُ﴾: قرئ بالحركات الثلاث.

٧٧٥ - أخرجه الترمذي (٢٩٣/٥) كتاب تفسير القرآن باب: ومن سورة يوسف حديث (٣١١٦)، والنسائي =

201

فإن قلت: ما هذه التاء؟

قلت: تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف.

فإن قلت: كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر؟

قلت: كما جاز نحو قولك: حمامة ذكر، وشاة ذكر، ورجل ربعة، وغلام يفعة.

فإن قلت: فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟

قلت: لأن التأنيث والإضافة يتناسبان في أن كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره.

فإن قلت: فما هذه الكسرة؟

قلت: هي الكسرة التي كانت قبل الباء في قولك: يا أبي، قد زحلقنت إلى التاء؛ لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحاً.

فإن قلت: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء، وتبقى التاء ساكنة؟

قلت: امتنع ذلك فيها؛ لأنها اسم، والأسماء: حقها التحريك؛ لأصالتها في الإعراب؛ وإما جاز تسكين الباء وأصلها أن تحرك تخفيفاً؛ لأنها حرف لين، وأما التاء: فحرف صحيح نحو كاف الضمير، فلزم تحريكها.

فإن قلت: يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوض منه؛

في «التفسير» رقم (٢٧٤) والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٦٠٥)، وأحمد (٣٣٢/٢)، والطبري في تفسيره (٥٣/٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٢٩/٢)، والحاكم (٣٤٦/٢ - ٣٤٧)؛ كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً وقال الثرمذي: حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وللحديث شاهد من حديث ابن عمر أخرجه البخاري (٤٨٠/٦) كتاب أحاديث الأنبياء باب: أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت رقم (٣٣٨٢)، وذكره في كتاب التفسير (٢١٢/٨) باب: ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق رقم (٤٦٨٨).

قال الحافظ: أخرجه الثرمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم... إلى آخره» وفي البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الكريم بن الكريم إلى آخره»، وهو في المتفق عليه عن أبي هريرة لكن بلفظ: «سئل النبي ﷺ: أي الناس أكرم؟ فقال: أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا: يا رسول الله، ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله». انتهى.

لأنها في حكم الياء، إذا قلت: يا غلام، فكما لا يجوز: «يا أبتى»، لا يجوز: «يا أبت».

قلت: الياء والكسرة قبلها شيءان، والتاء عوض من أحد الشئين، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعوّض منه، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير؛ ألا ترى إلى قولهم: «يا أبتا» مع كون الألف فيه بدلاً من التاء، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوّض منه، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قلت: فقد دلت الكسرة في: «يا غلام» على الإضافة؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتهما.

فإن دلت على مثل ذلك في: «يا أبت»، فالتاء المعوّضة لغو: وجودها كعدمها.

قلت: بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت يا أبي.

فإن قلت: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟

قلت: أما من فتح فقد حذف الألف من: «يا أبتا»، واستبقى الفتحة قبلها، كما فعل من حذف الياء في: «يا غلام»، ويجوز أن يقال: حركها بحركة الباء المعوض منها في قولك: «يا أبي»، وأما من ضم، فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: «يا أبت»، كما تقول: «يا تبة»^(١)، من غير اعتبار؛ لكونها عوضاً من ياء الإضافة، وقرئ: «إني رأيت»: بتحريك الياء، وأحد عشر: بسكون العين؛ تخفيفاً لتوالي المتحركات فيما هو في ختم اسم واحد، وكذا إلى تسعة عشر، إلا اثني عشر؛ لثلاث يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا، لا من الرؤية؛ لأن ما ذكره معلوم أنه منام؛ لأن الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة، لكانت آية عظيمة ليعقوب - عليه السلام - ولما خفيت عليه وعلى الناس.

فإن قلت: ما أسماء تلك الكواكب؟

قلت: رَوَى جَابِرٌ أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنْ الشُّجُومِ الَّتِي رَأَاهُنَّ يُوسُفُ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فنزيل جبريل فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لِلْيَهُودِيِّ: «إِنْ أَخْبَرْتُكَ هَلْ تُسَلِّمُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «جَرِيان، والطارق، والذّيال، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ، ووئاب، وذو الكتفين، رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له». فقال

(١) قوله: «كما تقول ياتبة» بكسر التاء وتشديد الباء: الحالة الشديدة. وفي نسخة: يا ابنة، كذا بهامش الأصل (ع).

اليهودي: إي والله، إنها لأسماؤها (٧٧٦). وقيل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب: إخوته، وعن وهب أن يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه، فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة: الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على / ١٦٥ أب أبيه، فقال له: لا تقصها عليهم، فيبغوا لك الغوائل، وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة، وقيل: ثمانون. فإن قلت لم أخرج الشمس والقمر؟ قلت: أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص؛ بياناً لفضلهما، واستبادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخرج جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى: مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.

فإن قلت: ما معنى تكرار رأيت؟^(١).

٧٧٦ - أخرجه الحاكم (٣٩٦/٤) من طريق أسباط بن نصر عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر ابن عبد الله به.

وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي، وأخرجه العقيلي (٢٥٩/١)، وابن جبان في «المجروحين» (٢٥٠/١ - ٢٥١)، والبزار وأبو يعلى والبيهقي في «الدلائل»، وكذا أبو نعيم؛ كما في «تخريج الكشاف» (١٦٠/٢)، من طريق الحكم بن ظهير الفزاري عن السدي بإسناد السابق. وقال البزار: لا نعلم يرويه إلا جابر ولا طريقاً عنه إلا هذا الطريق، والحكم بن ظهير ليس بالقوي. وقد روى عنه جماعة من أهل العلم. أ.هـ. قلت: وقول البزار: متعقب بإسناد الحاكم فقد توبع الحكم.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤)، وعزاه إلى سعيد بن منصور والبزار وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي وابن جبان في «الضعفاء وأبي الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً» في «دلائل النبوة». قال الحافظ:

أخرجه الحاكم من طريق أسباط عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال «جاء بستان اليهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، هل تعرف النجوم التي رآها يوسف فسجدن له؟ فسكت... الحديث» ولم يذكر فيهن الشمس والقمر وقال: رآها يوسف محيطة بأكتاف السماء ساجدة له، وزاد: فقصها على أبيه فقال له: إن هذا أمر قد تشئت وسيجمعه الله بعد»، رواه أبو يعلى والبزار والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل والطبراني وأبو حاتم في رواية الحاكم بن زهير عن السدي نحوه، وذكره العقيلي من حديثه، وقال: لا يثبت. وقال البزار: لا نعلم له طريقاً إلا =

(١) قال محمود: «إن قلت ما معنى تكرار رأيت... إلخ» قال أحمد: وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل. الحال، فطرى ذكر الفعل لمناسبة الحال وهي المقصودة، إذ الآية في السجود كانت، والله أعلم.

قلت: ليس بتكرار؛ إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له، كأن يعقوب - عليه السلام - قال له عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: كيف رأيتهما سائلاً عن حال رؤيتهما؟ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمَا لِي سَجْدَيْنِ﴾.

فإن قلت: فلم أجريت مجرى العقلاء في رأيتهما لي ساجدين؟

قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود، أجرى عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم، أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكماً من أحكامه؛ إظهاراً لأثر الملازمة والمقاربة.

﴿قَالَ يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَلِكَ يَحْيِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾

عرف يعقوب - عليه السلام - دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فعل بآبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيتهم، والرؤيا بمعنى: الرؤية؛ إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة، فرق بينهما بحرفي التانيث، كما قيل: القرية والقريبى، وقرئ: «روياك»، وبقلب الهمزة واواً، وسمع الكسائي: رُبَّكَ ورُبَّكَ: بالإدغام وضم الراء وكسرها، وهي ضعيفة؛ لأن الواو في تقدير الهمزة، فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم: «اتزر»: من الإزار، و«اتجر»: من الأجر، ﴿فَيَكِيدُوا﴾: منصوب بإضمار: «أن»، والمعنى: إن قصصتها عليهم كادوك.

فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك، كما قيل: فكيدوني؟

قلت: ضمن معنى فعل يتعدى باللام؛ ليفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المضمن، فيكون أكد وأبلغ في التخويف؛ وذلك نحو: فيحتالوا لك؛ ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر، ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء، ولقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر، ليورط من يحمله، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله، ﴿وَكَذَّبَ﴾: ومثل ذلك الاجتناء، ﴿يَحْيِيكَ رَبُّكَ﴾ يعني:

هكذا. والحاكم ليس بقوي، وكذا قال البيهقي: إن الحاكم تفرد به. وغفل عن طريق شيخ الحاكم، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وأعله بالحاكم. وطريق الحاكم يدفع على الحكم وذكر ابن أبي حاتم في العلل عن أبي زرعة؛ أنه قال: حديث منكر. انتهى.

وكما اجتنابك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن، كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُكَ﴾: كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه، كأنه قيل: وهو يعملك ويتم نعمته عليك، والاجتناب: الاصطفاء، افتعال من جبت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجببت الماء في الحوض: جمعته، والأحاديث: الرؤيا؛ لأنَّ الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان، وتأويلها. عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف - عليه السلام - أعبر الناس للرؤيا، وأصحهم عبارة لها، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث: معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها، وسميت: أحاديث؛ لأنه يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله، وقال الرسول كذا وكذا؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]: وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحداثه، ومعنى إتمام النعمة عليهم: أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة؛ بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً، ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة، وقيل: أنمها على إبراهيم بالخلة، والإنجاء من النار، ومن ذبح الولد، وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح، وفدائه بذبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، وقيل: علم يعقوب أنَّ يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء؛ استدلالاً بضوء الكواكب؛ فلذلك قال: ﴿وَعَلَىٰ مَالٍ يَعْقُوبُ﴾ [يوسف: ٦]، وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف، حسدوه، وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه، وقيل: كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة؛ لصغره، ولما يرى فيه من المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا، ضاعف له المحبة، فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه، فتبالغ فيهم الحسد، وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب، قال: هذا أمر مشئت يجمع الله لك بعد دهر طويل، وآل يعقوب: أهله، وهم نسله وغيرهم، وأصل آل: أهل؛ بدليل تصغيره على أهيل، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي، وآل الملك، ولا يقال: آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلها، وأراد بالأبوين: الجد، وأبا الجد؛ لأنهما في حكم الأب في الأصالة، ومن ثم يقولون: ابن فلان، وإن كان بينه وبين فلان عدة، وإبراهيم وإسحاق: عطف بيان لأبويك، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾: يعلم من يحق له الاجتناب، ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْمُتَّالِينَ﴾ (٧)

﴿فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي: في قصتهم وحديثهم، ﴿ءَايَاتٍ﴾: علامات، ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء، ﴿لِّلْمُتَّالِينَ﴾: لمن سأل عن قصتهم وعرفها، وقيل: آيات

على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب، وقرئ: «آية»، وفي بعض المصاحف: «عبرة»، وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي - عليه الصلاة والسلام - خبر يوسف وبغي إخوته عليه، لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به، وقيل: أساميههم: يهوذا، وروبييل، وشمعون، ولاوى، وربالون، ويشجر، ودينه، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر: السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين: زلفة، وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل، فولدت بنيامين ويوسف.

﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَتَّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨)

﴿ليوسف﴾ اللام: للابتداء، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت^(١) لا شبهة فيه، ﴿وَأَخُوهُ﴾ هو: بنيامين؛ وإنما قالوا: أخوه، وهم جميعاً إخوته؛ ١٦٦/ لأن أمهما كانت واحدة، وقيل: ﴿أَحَبُّ﴾: في الاثنين؛ لأن أفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه: «من»، ولا بد من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران، والواو في: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: واو الحال، يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفأة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك، والعصبة والعصابة: العشرة فصاعداً، وقيل: إلى الأربعين؛ سموا بذلك

(١) قال محمود: «اللام للتوكيد، دخلت للأشعار بأن زيادة محبة أبيهم لهما أمر ثابت... إلخ» قال أحمد: وهذه تؤيد قراءة ابن مروان ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ بالنصب. وقد قال سيبويه فيها: احتبى ابن مروان في لحنه، أي تمكن. وحيث تأيدت بقراءة أمير المؤمنين كرم الله وجهه، فلا بد من التماس المحمل الصحيح لها وليس ذلك ببعيد إن شاء الله فنقول: لو قالوا «ليوسف وأخوه أحب إلى أبنائنا منا ونحن نحن» على طريقة [من الرجز]:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ونحو: أنا أنا وأنت أنت. لم يكن في فصاحته مقال: وقد علمت أن معنى أنا أنا: أي أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى عن ذكرها، فلا بعد والحالة هذه في حذف الخبر، لمساواته المبتدأ وعدم زيادته عليه لفظاً، وراحة من تكرار اللفظ بعينه، والسياق يرشد إلى المحذوف، وإذا كان كذلك فقول القائلين ﴿لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَتَّ وَنَحْنُ﴾ معناه: ونحن نحن، ولكن استغنوا عن الخبر للسر الذي ذكرناه، فقولهم: (نحن) كلام تام بالتقدير المذكور، فلا غرو في وقوع الحال بعده، وهذا بعينه يجري في قوله ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فقوله (هن) في حكم الكلام التام. والمراد: هؤلاء بناتي هن المشهورات بالأوصاف الحميدة الظاهرة. وأصل الكلام: هن هن، فوقع الحال بعد التمام، والله أعلم.

لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوايب، وروى النزال بن سبرة عن علي - رضي الله عنه -: «ونحن عصبية؛ بالنصب، وقيل: معناه: ونحن نجتمع عصبية، وعن ابن الأنباري: هذا كما تقول العرب؛ إنما العامري: عمته، أي: يتعهد عمته.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (٩)

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾: من جملة ما حكى بعد قوله: «إذ قالوا»؛ كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، وقيل: الأمر بالقتل شمعون، وقيل: دان، والباقيين: كانوا راضين، ففعلوا أمرين، ﴿أَرْضًا﴾: أرضاً منكورة، مجهولة، بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإيهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم، والمراد: سلامة محبته لهم ممن يشاركون فيها وينازعونهم إياها، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه، ويجوز أن يراد بالوجه الذات، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقيل: (يخل لكم): يفرغ لكم من الشغل بيوسف، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: من بعد يوسف، أي: من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا، ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾: تائبين إلى الله مما جنيتهم عليه، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعد تمهدونه، أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم، و﴿تَكُونُوا﴾؛ إما مجزوم عطفاً على: (يخل لكم)، أو منصوب بإضمار: «أن والوا» بمعنى: مع؛ كقوله: ﴿وَتَكُونُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ

فَاعِلِينَ﴾ (١١)

﴿قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾: هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً، وهو الذي قال: فلن أبرح الأرض، قال لهم: القتل عظيم، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله؛ قال المنخل [من الطويل]:
وَإِنْ أَنَا يَوْمًا غَيَّبْتُ نِيَّ غَيَابَتِي فَسِيرُوا بِسِيرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ^(١)

(١) للمنخل. والغاية: ما غاب عن الناظر من أسفل البئر ونحوه. يقول: وإن غيبتني مقبرتي، كناية عن موته، فسيروا بسيري، أي فانوني وسيروا بذكر خصالي، على عادة العرب إذا مات منها رئيس. ويحتمل أنه يوصي أقاربه بالخير، وأنهم يسرون بمثل سيره، ويفعلون كفعله في جيرانه وقرباته. ينظر البيت في روح المعاني ١٢/١٩٢، ومجاز القرآن ١/٣٠٢، ومعجم الشعراء ٣٨٨، والبحر =

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها، وقرئ: «غيابات»: على الجمع، و«غيابات»: بالتشديد، وقرأ الجحدري: «غيبية»، والعجب: البئر لم تطو؛ لأن الأرض تجبّ جباً لا غير، «يَلْتَقِطُهُ»: يأخذه بعض السيارة بعض الأقوام الذين يسرون في الطريق، وقرئ: «تلتقطه»: بالتاء على المعنى؛ لأنّ بعض السيارة سيارة؛ كقوله [من الطويل]:

كَمَا شَرَقَتْ صَدْرُ الْقَنَاقَةِ مِنَ الدَّمِ

ومنه: ذهبت بعض أصابعه، «إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ»: إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم، فهذا هو الرأي.

﴿قَالُوا يَتَابَعَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾، قرئ بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، و: تيمنا: بكسر التاء مع الإدغام، والمعنى: لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ وما وجد منا في بابهِ ما يدل على خلاف النصيحة والمقة^(٢)، وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعاداته في حفظه منهم، وفيه دليل على أنه أحسنّ منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه، «يَرْتَعْ»: يتسع في أكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة: الخصب والسعة، وقرئ: «يرتع»: من ارتعى يرتعي، وقرئ: «يرتع ويلعب»: بالياء، ويرتع: من ارتع ماشيته، وقرأ العلاء بن سبابة: «يرتع» بكسر العين، و«يلعب»: بالرفع على الابتداء.

فإن قلت: كيف استجاز لهم يعقوب - عليه السلام - اللعب؟

قلت: كان لعبهم الاستباق والانتضال، ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدو لا للهو؛ بدليل قوله: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» [يوسف: ١٧]؛ وإنما سموه لعباً؛ لأنه في صورته.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿لَيَحْزُنُنِي﴾: اللام: لام الابتداء؛ كقوله: «وَإِنْ رَبِّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ» [النحل: ١٢٤]. ودخلها أحد ما ذكره سيبويه من سببي المضارعة، اعتذر إليهم بشيئين:

= المحيط ٢٨٥/٥، ومعجم المرزباني (٣٨٨)، والمؤتلف (٢٧١)، والقرطبي ١٩٤/٥، والمحرم ٩/٢٥٤، والدر المصون ١٥٨/٤.

(١) تقدم.

(٢) قوله: «ما يدل على خلاف النصيحة والمقة» أي المحبة. وقد ومقه بمقه، بالكسر فيهما: أي أحبه، فهو وامق، كذا في الصحاح (ع).

أحدهما: أَنَّ ذهابهم به ومفارقتة إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر غنه ساعة.

والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه^(١) برعيهم ولعبهم، أو قل به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم، وقيل: رأى في النوم أَنَّ الذئب قد شدَّ على يوسف فكان يحذره، فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة، وفي أمثالهم: «البلاء موكل بالمنطق»، وقرئ: (الذئب): بالهمزة على الأصل وبالتخفيف، وقيل: اشتقاقه من «تذاءبت الريح»: إذا أتت من كل جهة:

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّيْرُونَ﴾

القسم محذوف تقديره: والله، ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾: واللام موطنه للقسم، وقوله: ﴿إِنَّا إِذَا لَخَّيْرُونَ﴾: جواب للقسم، مجزئ عن جزاء الشرط، والواو في (ونحن عصبه): واو الحال، حلفوا له: لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم - وحالهم أنهم عشرة رجال، بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب - إنهم إذا لقوم خاسرون، أي: هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً، أو مستحقون أن يهلكوا؛ لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون، لأن يدعي عليهم بالخسارة والدمار، وأن يقال: خسروهم الله، ودمروهم: حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون، وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا، فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها.

فإن قلت: قد اعتذر إليهم بعذرين، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟

قلت: هو الذي كان يغیظهم ويذيقهم الأمرين^(٢) فأعاروه آذاناً صمًّا ولم يعبؤوا به.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُمُوعِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْتَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

(١) قال محمود: «اعتذر لهم بأمرين: أحدهما حزنه لمفارقتة، والثاني خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه... إلخ» قال أحمد: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه، لأنه مظنة هلاكه. وأما حزنه لمفارقتة ريشما يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل، فأمر سهل؛ فكانهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه، والله أعلم.

(٢) قوله: «ويذيقهم الأمرين، الأمرين - بنون الجمع -: الدواهي، كذا بهامش. وفي الصحاح: الأمران: الفقر والهزم. وفيه أيضاً: الأمر: المصارين يجتمع فيها الفرت. قال الشاعر:

فلا تهدد الأمر وما يليه ولا تهدن معروق العظام

وقال أبو زيد: لقيت منه الأمرين، بنون الجمع: وهي الدواهي اهـ (ع).

﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾: مفعول، (أجمعوا): من قولك: أجمع الأمر وأزمعه، ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾،
 وقرئ: «في غيايات الجب»: قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: بأرض الأردن، وقيل:
 بين مصر/ ١٦٦ ب ومدين، وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب «لما»:
 محذوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي أنهم لما برزوا به إلى البرية
 أظهروا له العداوة، وأخذوا يهينونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا
 بالإهانة والضرب، حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه، لو تعلم ما يصنع بابنك
 أولاد الإماء، فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب
 تعلق بشياهم، فنزعوها من يده، فتعلق بحائط البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه، فقال:
 يا إخواناه، ردوا عليّ قميصي أتواري به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على
 أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك، ودلوه في البئر، فلما
 بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها
 وهو يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه
 فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام، ويروى أن إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى في
 النار، وجرد عن ثيابه، أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى
 إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف، فجاء
 جبريل فأخرجه وألبسه إياه، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ قيل: أوحى إليه في الصغر كما أوحى إلى
 يحيى وعيسى، وقيل: كان إذ ذاك مدركاً، وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة،
 ﴿لَتَنبَيِّنَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا﴾: وإنما أوحى إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة، وبشر بما يؤول
 إليه أمره، ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك، ﴿وَهُمْ لَا
 يَشْعُرُونَ﴾: أنك يوسف؛ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك، وبعد حالك عن أوهامهم، ولطول
 العهد المبدل للهيئات والأشكال، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتازين فعرفهم وهم له
 منكرون، دعا بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فظن فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه
 كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، وكان يدينه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في
 غيابة الجب، وقتلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعتموه بثمن بخس، ويجوز أن يتعلق: (وهم
 لا يشعرون) بقوله: (وأوحينا): على أننا آتسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة، وهم لا
 يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنس له، وقرئ: «لننبئهم»: بالنون على
 أنه وعيد لهم، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: متعلق بأوحينا لا غير.

﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمَا عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا سَتَقِ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ
 مَتَلَعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴿

وعن الحسن: «عشيًا»: على تصغير عشي، يقال: لقيته عشيًا وعشياناً^(١)، وأصيلًا وأصيلاناً، ورواه ابن جنى: «عُشي»: بضم العين والقصر، وقال: «عشوا» من البكاء، وروي أن امرأة حاکمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة: ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية، وروي أنه لما سمع صوتهم^(٢) فزع، وقال: مالكم يا بني؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فمالكم وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَتَابَنَّا إِنَّا دَهَبْنَا نَسْتَيْقُ﴾ أي: نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل، والارتماء والترامي، وغير ذلك، والمعنى: نتسابق في العدو أو في الرمي، وجاء في التفسير: نتنضل، ﴿يُؤْمِنُونَ لَنَا﴾: بمصدق لنا، ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة؛ لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا، غير واثق بقولنا؟

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨)

﴿بَدِمَ كَذِبٌ﴾: ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته؛ ونحوه [من الطويل]:

فَهُنَّ بِهٖ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهٖ بُخْلٌ^(٣)

وقرئ: «كذبًا»: نصباً على الحال، بمعنى: جاؤوا به كاذبين، ويجوز أن يكون مفعولاً له، وقرأت عائشة - رضي الله عنها -: «كذب»؛ بالبدال غير المعجمة، أي: كدر، وقيل: «طرى»، وقال ابن جنى: أصله من الكذب، وهو الفوف البياض^(٤)، الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنه دم قد أثر في قميصه، روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها، وزل

(١) قوله: «يقال: لقيته عشيًا وعشياناً» وهذا لو حذف نونه صار عشيًا، كقراءة الحسن (ع).

(٢) قال محمود: «روي أنه لما سمع أصواتهم قال: يا بني، هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا لا... إلخ» قال أحمد: وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولاً أكل الذئب إياه، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم ﴿وَلَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ﴾ وكثيراً ما الأعذار الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار.

(٣) ينظر: أساس البلاغة (جود).

(٤) قوله: «وهو الفوف البياض» عبارة الصحاح: الفوف البياض الذي يكون في أظفار الأحداث اهـ، فجعل البياض خبراً عن الفوف وتفسيراً له، فلعله هنا: أي البياض (ع).

عنهم أن يمزقوه، وررري أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف، صاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله، ما رأيت كالأيوم ذنباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه، وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلاً على براءة يوسف حين قد من دبر.

فإن قلت: (على قميصه) ما محله؟

قلت: محله: النصب على الظرف؛ كأنه قيل: وجاءوا فوق قميصه بدم، كما تقول: جاء على جماله بأحمال.

فإن قلت: هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة؟

قلت: لا؛ لأن حال المجرور لا تتقدم عليه^(١) ﴿سَوَّلَتْ﴾: سهلت من السول وهو الاسترخاء، أي: سهلت، ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾: عظيماً ارتكبتموه من يوسف، وهونته في أعينكم، استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص، أو أوحى إليه بأنهم قصدوه، ﴿فَصَبَّرَ جَمِيلٌ﴾: خبر أو مبتدأ؛ لكونه موصوفاً، أي: فأمرني صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبي: «فصبراً جميلاً»، والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع: «أنه الذي لا شكوى فيه إلى الخلق» (٧٧٧)؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي

٧٧٧ - أخرجه الطبري (١٦٣/٧) رقم (١٨٨٣، ١٨٨٤).

قال الحافظ:

أخرجه الطبري من طريق حيان بن أبي حنثة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبَّرَ جَمِيلٌ﴾، =

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي رد به الزمخشري أحد قولي النحاة، وقد صحح جماعة جوازه وأنشدوا [من الطويل]:

فَلَنْ يَذْهَبُوا قَرْعاً يَفْتَنِلُ جِبَالِ

وقال الشيخ: «ولا يساعد المعنى على نصب «عَلَى» على الظرف بمعنى: فوق، لأن العامل فيه إذ ذاك «جاءوا» وليس الفرق ظرفاً لهم، بل يستحيل أن يكون ظرفاً لهم». وهذا الرد هو الذي رددت به على الحوفي قوله: إن «عَلَى» متعلقة بـ«جاءوا». ثم قال الشيخ: وأما المثال الذي ذكره الزمخشري، وهو: «جاء على جماله بأحمال» فيمكن أن يكون ظرفاً للجائي، لأنه يمكن الظرف فيه باعتبار تبدله من جَمَلٍ إلى جَمَلٍ، ويكون بأحمال في موضع الحال، أي: مضموماً بأحمال. انتهى. الدر المصون.

وحزني إلى الله ﴿يوسف: ٨٦﴾، وقيل: لا أعيشكم على كآبة الوجه، بل أكون لكم كما كنت، وقيل: سقط حاجباً يعقوب على عينيه، فكان يرفعهما بعصا، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان، وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب، أتشكوني؟ قال: يا رب؛ خطيئة، فاغفرها لي، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي: أستعينه ﴿عَلَى﴾: احتمال ﴿مَا نَصِفُونَ﴾: من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر؛ وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف / ١٦٧ في الحب، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه، وكان الحب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤها ملحاً، فعذب حين ألقي فيه يوسف، ﴿فَأَرْسَلُوا﴾: رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي، ليطلب لهم الماء، والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم، ﴿يَبُشْرَىٰ﴾: نادى البشري، كأنه يقول: تعالي، فهذا من آونتك، وقرئ: «يا بشراي»: على إضافتها إلى نفسه، وفي قراءة الحسن وغيره: «يا بشري»: بالياء مكان الألف، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة، وهي لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومولّي، وعن نافع: «يا بشراي»: بالسكون، وليس بالوجه؛ لما فيه من التقاء الساكنين على غير حدّه، إلا أن يقصد الوقف، وقيل: لما أدلى دلوه، أي: أرسلها في الحب، تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج، إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشراي، ﴿هَذَا غُلَامٌ﴾، وقيل: ذهب به، فلما دنا من أصحابه، صاح بذلك يبشرهم به، ﴿وَأَسَرُّهُ﴾: الضمير: للوارد وأصحابه: أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمره ووجدانهم له في الحب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، وعن ابن عباس أنّ الضمير لإخوة يوسف (٧٧٨). وأنهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف؛ مخافة أن يقتلوه، و﴿بِضْعَةً﴾: نصب على الحال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة، والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة، أي: قطع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم؛ حيث استبضعوا ما ليس لهم، أو: والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

= قال: صبر لا شكوى فيه. من بث لم يصبر هذا مرسل. انتهى.

٧٧٨ - أخرجه الطبري (١٦٦/٧) رقم (١٨٩٠٨).

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

﴿وَشَرَوْهُ﴾ : وباعوه، ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ : مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو زيف ناقص العيار، ﴿دَرَاهِمَ﴾ : لا دنانير، ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ : قليلة^(١)، تعدّ عدداً، ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية، وهي الأربعون، ويعدون ما دونها، وقيل: للقليلة معدودة؛ لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها؛ لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهماً (٧٧٩)، وعن السدي: اثنين وعشرين (٧٨٠). ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ : ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن^(٢)؛ لأنهم التقطوه، والمثلث للشيء: متهاون به لا يبالي بما باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن، ويجوز أن يكون معنى: (وشروه): واشتروه، يعني: الرفقة من إخوته، ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ : لأنهم اعتقدوا أنه أبق، فخافوا أن يخطروا بمالهم فيه، ويروى أن إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق، وقوله: (فيه): ليس من صلة (الزاهدين)؛ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول؛ ألا تراك لا تقول: وكانوا زیداً من الضارين؛ وإنما هو بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ : قيل: هو قطفير أو أطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر، والملك يومئذ: الريان بن الوليد، رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف، ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو

٧٧٩ - أخرجه الطبري (٧/ ١٧٠) رقم (١٨٩٣٥).

٧٨٠ - أخرجه الطبري (٧/ ١٧٠) رقم (١٨٩٣٦) بنحوه.

(١) قال محمود: «المعدودة كناية عن القليلة... إلخ» قال أحمد: ومن التعبير عن القلة بالعدد: الدعوة المأثورة على الكفرة: «اللهم أحصهم عدداً، واستأصلهم بدءاً ولا تبق منهم أحداً» فالمدعو به وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر، إلا أن هذا ليس مراداً لأن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً وأحاط به علماً، فلا بد من مقصود وراء ذلك وهو لازم العدد وذلك القلة، فلما كان كل قليل معدوداً وكل كثير غير معدود، دعى عليهم بالقلة وعبر عنها بلازمها وهو الإحصاء. والله أعلم.

(٢) قوله: «فبيعه بما طف من الثمن» أي قل. وفي الصحاح: الطفيف القليل (ع).

ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى، عاش أربعمئة سنة؛ بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين، وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه؛ حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً، فابتاعه قطفير بذلك المبلغ، ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾: اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً، أي: حسناً مرضياً؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ رَفِيعَ أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ [يوسف: ٢٣]، والمراد: تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة، يراد: هل تطيب نفسك بثواك عنده، وهل يراعي حق نزولك به، واللام في (لامرأته): متعلقة بقال، لا باشتراه، ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَكَ﴾: لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله، فينفعنا فيه بكفائته وأمانته، أو تنبئه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيماً لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك، وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف، فقال لامرأته: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها: ﴿يَتَأْتِيَ اسْتَجِرَّةً﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر حين استخلف عمر - رضي الله عنهما - وروي أنه سأله عن نفسه، فأخبره بنسبه فعرفه، ﴿وَكَذَلِكَ﴾: الإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه، وعطف قلب العزيز عليه، والكاف: منصوب تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف، ﴿مَكْنَأً﴾: له، أي: كما أنجينا وعطفنا عليه العزيز؛ كذلك مكنا له في أرض مصر، وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: كان ذلك الإنجاء والتمكين؛ لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾: على أمر نفسه: لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي، أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أن الأمر كله بيد الله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

قيل في الأشد: ثماني عشرة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل: أقصاه ثنتان وستون، ﴿حُكْمًا﴾: حكمة، وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه، وقيل: حكماً بين الناس وفقهاً، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: تنبيه على أنه كان محسناً في عمله، متقياً/ ١٦٧ ب في عنفوان أمره، وأنّ الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه، وعن الحسن:

من أحسن عبادة ربه في شيبته، آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣)

المرادة: مفاعلة، من راد يروود إذا جاء وذهب، كأن المعنى: خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقفته إياها، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ قيل: كانت سبعة، وقرئ: (هيت): بفتح الهاء وكسرهما مع فتح التاء، وبناءه كبناء أين، وعيط، وهيت كجبر، وهيت كحيث، وهنت بمعنى: تهيأت، يقال: هاء يهيء، كجاء تجيء: إذا تهيأ، وهيت لك، واللام من صلة الفعل، وأما في الأصوات فللبيان^(١)؛ كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾: أعوذ بالله معاذاً، ﴿إِنَّهُ﴾: إن الشأن والحديث، ﴿رَبِّي﴾: سيدي ومالكي، يريد قطفير، ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾: حين قال لك: أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: الذين يجازون الحسن بالسيء، وقيل: أراد الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم، وقيل: أراد الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهٗ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُم مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤)

هم بالأمر: إذا قصده وعزم عليه؛ قال [من الطويل]:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَذْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالُهُ^(٢)

(١) قوله: «وأما في الأصوات فللبيان» في الصحاح: هيت به وهوت به، أي صاح به ودعاه. وفيه أيضاً قولهم «هيت لك» أي هلم لك وفيه. هلم يا رجل - بفتح الميم -: بمعنى تعال (ع).

(٢) لعمر بن ضابئ البرجمي، دخل على عثمان وهو مقتول فوطئ بطنه وكسر ضلعه وقال: عزمت على قتل عثمان ولم أقتله، وكذت أن أفعل وليتني قتلته. وكنى عن ذلك بقوله: «تركت على عثمان تبكي حلاله» وهو من باب التنازع. وأصله: تركت على عثمان حلاله تبكي فجعل حلاله فاعلاً. وحذف مفعول تركت الأول لعلمه من الكلام، ولأنه فضلة وهي لا تضمّر في هذا الباب - والمعنى ليتني قتلته فصيرت نساء تبكي عليه، ودخل هذا الرجل على الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين: أنا شيخ ضعيف، وخرج اسمي في هذا البعث، فاقبل ابني بدلاً عني فقبله منه وخرج فقال عتبة بن سعيد: أيها الأمير، هذا هو الذي فعل بعثمان كذا وكذا، فقال: ردوه علي، فقال له: أيها الشيخ، هلا بعثت إلى عثمان أمير المؤمنين بدلاً يوم الدار؟ إن في قتلك صلاحاً، يا حرسى، اضربا عنقه. أمر الحرس بقتله وخاطبه خطاب المثنى على لغة الحرس الذين نسب المخاطب إليهم هذا. وقيل: =

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا همّاً، أي: ولا أكاد أن أفعله كيداً، ولا أهم بفعله همّاً: حكاة سيويه، ومنه: الهمام، وهو الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم ينكل عنه، وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُ﴾ معناه: ولقد همت بمخالطته، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: وهمّ بمخالطتها، ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي﴾: جوابه محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لخالطها؛ فحذف؛ لأنّ قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يدل عليه؛ كقولك: هممت بقتله لولا أنني خفت الله، معناه: لولا أنني خفت الله.

فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟

قلت: المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه^(١)؛ ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته، لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء، على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين، ويجوز أن يريد بقوله: (وهم بها): وشارف أن يهم بها، كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يريد مشاركة القتل ومشافهته^(٢)، كأنه شرع فيه.

فإن قلت: قوله: (وهم بها): داخل تحت حكم القسم في قوله: (ولقد همت به): أم هو خارج منه؟

قلت: الأمران جائزان، ومن حق القارئ إذا قدّر خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على قوله: (ولقد همت به)، ويبتدئ قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي﴾، وفيه - أيضاً - إشعار بالفرق بين الهمين.

فإن قلت: لم جعلت جواب «لولا» محذوفاً يدل عليه: «هم بها»، وهلا جعلته هو الجواب مقدماً؟

= إن القصة مع ضابئ نفسه، وإن عثمان كان حبيسه في هجوه بني نهشل، فلما قتل عثمان أفلت وفعل به ذلك.

ينظر: حماسة البحري ص ١١، خزانة الأدب (٩/ ٣٢٣، ٣٢٧)، الشعر والشعراء ١/ ٣٥٨، لسان العرب (قبر)، معاهد التنصيص (١/ ١٨٧).

(١) قوله: «وقرمه» أي شدة شهوته، أفاده الصحاح.

(٢) قوله: «مشافهته» لعله: ومشابته.

قلت: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها، من قبل أنه في حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام، وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دلّ الدليل عليه فجاز.

فإن قلت: فلم جعلت «لولا» متعلقة «بهم بها» وحده، ولم تجعلها متعلقة بجمله قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا﴾؛ لأن الهم لا يتعلق بالجواهر، ولكن بالمعاني، فلا بد من تقدير المخالطة، والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً، فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟

قلت: نعم ما قلت، ولكن الله - سبحانه وتعالى - قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل؛ حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا﴾، فكان إغفاله إلغاء له، فوجب أن يكون التقدير: ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها، على أن المراد بالمخالطين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه، وتوصله إلى ما هو حظها من قضاء شهوته منها، «لولا أن رأى برهان ربه»، فترك التوصل إلى حظها من الشهوة؛ فلذلك كانت: «لولا»: حقيقة بأن تعلق بـ «هم بها» وحده، وقد فسر هم يوسف بأنه حل الهميان، وجلس منها مجلس المجامع، وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع، وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً: إياك وإياها، فلم يكثر له، فسمعه ثانياً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً: أعرض عنها، فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أناملته، وقيل: ضرب بيده في صدره، فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف؛ فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم، وقيل: صيح به: يا يوسف، لا تكن كالطائر: كان له ريش، فلما زنى قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم، مكتوب فيها: ﴿وَرَأَى عَلَيْكُمْ كُفُوفَ ظَنِينٍ ۖ كَرَامًا كَبِيرًا﴾، فلم ينصرف، ثم رأى فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، فلم ينته، ثم رأى فيها: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فلم ينجع فيه، فقال الله لجبريل - عليه السلام -: أدرك عبي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف، أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحي منه أن يرانا،/ ١٦٨ فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحي من السميع البصير، العليم بذوات الصدور، وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر^(١) الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو

(١) قوله: «مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى» يريد بهم أهل السنة، ويريد بأهل =

وجدت من يوسف - عليه السلام - أدنى زلة، لنعيت عليه، وذكرت توبته واستغفاره، كما نعيت على آدم زلته، وعلى داود، وعلى نوح، وعلى أيوب، وعلى ذي النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى عليه وسمي مخلصاً، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصادق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته، وضرب سورة كاملة عليها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجده الخليل إبراهيم - عليه السلام - وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة، وطيب الإزار، والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقندي بنبي من أنبياء الله، في القعود بين شعب الزانية، وفي حل تكته للوقوع عليها، وفي أن ينهائهم بثلاث كرات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه، وهو جائم في مريضه لا يتحلل، ولا ينتهي، ولا ينتبه، حتى يتداركه الله بجبريل وإجباره، ولو أن أوقع الزناة، وأشطرهم، وأحدهم حدقة، وأصلحهم وجهاً لقي بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا، لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك، فيا له من مذهب ما أفحشه! ومن ضلال ما أبينه، ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف: منصوب المحل، أي: مثل ذلك التثبيت ثبنته، أو مرفوعه، أي: الأمر مثل ذلك، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾: من خيانة السيد، ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾: من الزنا، ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾: الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح، الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم، ويجوز أن يريد بالسوء: مقدمات الفاحشة، من القبله والنظر بشهوة، ونحو ذلك، وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ معناه: بعض عبادنا، أي: هو مخلص من جملة المخلصين، أو هو ناشئ منهم؛ لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْأَبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِيهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ

= العدل المعتزلة. وبهت الشخص: نسبه إلى قبيح لم يفعله، ولولا أن ذلك دائر بين السلف لما أوردوه (ع).

كَيْدُكَ إِنَّ كَيْدُكَ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ
مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾: وتسابقا إلى الباب، على حذف الجار وإيصال الفعل؛ كقوله:
﴿وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] على تضمين: «استبقا» معنى: «ابتدرا»، نفر منها
يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرع وراءه لئلا تمنعه الخروج.

فإن قلت: كيف وحد الباب، وقد جمعه في قوله: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾؟

قلت: أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى
كعب أنه لما هرب يوسف، جعل فراش القفل^(١) يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب،
﴿وَقَدَّتْ قَيْصُصُهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ اجتذبت من خلفه فانقد، أي: انشق حين هرب منها إلى الباب
وتبعته تمنعه، ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾: وصادفا بعلمها وهو قطفير، تقول المرأة لبعلمها: سيدي،
وقيل: إنما لم يقل: سيدهما؛ لأن ملك يوسف لم يصح، فلم يكن سيداً له على الحقيقة،
قيل: ألفتاه مقبلاً: يريد أن يدخل، وقيل: جالسا مع ابن عم المرأة، لما اطلع منها زوجها
على تلك الهيئة المريبة، وهي مغتظة على يوسف إذ لم يؤاتها^(٢)، جاءت بحيلة جمعت
فيها غرضيها، وهما: تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف، وتخفيفه
طمعاً في أن يؤاتها؛ خيفة منها ومن مكرها، وكرهاً لما أيست من مؤاتاته طوعاً؛ ألا ترى
إلى قولها: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرْتُ لَيْسَجَنَّ﴾ [يوسف: ٣٢]، و«ما»: نافية، أي: ليس جزاؤه
إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أي شيء إلا السجن؟ كما تقول: من في
الدار إلا زيد.

فإن قلت: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف، وإنه أراد بها سوءاً؟^(٣) قلت:

- (١) قوله: «فراشة القفل» وما ينشأ فيه. يقال أقفل فأفرش (ع).
- (٢) قوله: «إذ لم يؤاتها» في الصحاح: وتقول آتيتها على ذلك الأمر مؤاتاة، إذا وافقته وطاعته. والعامّة تقول: وآتيتها (ع).
- (٣) قال محمود: «إن قلت: لم قالت ما قالت غير مصرحة بذكر يوسف... إلخ» قال أحمد: أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلمها: هذا أراد بي سوءاً ولذلك أيضاً كنت بالسوء عما أضمرت من الهناة مبالغة في المكر والكيد، وإبعاد للتهمة عنها بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقحة، وعلى الضد من مقصودها وإن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال: قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها ﴿قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَخَابِتُ اسْتَجِرَّةً إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ﴿٦٦﴾ ولم تقل: إنه قوي أمين، حياء من التعيين وحشمة وخفراً، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء. وامرأة العزيز إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء. وامرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال لذلك الغرض الفاسد من المكر، والله أعلم.

قصدت العموم، وأن كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب؛ لأن ذلك أبلغ فيما قصده من تخويف يوسف، وقيل: العذاب الأليم: الضرب بالسياط، ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب، وجب عليه الدفع عن نفسه، فقال: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، ولولا ذلك لكتم عليها، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: كان ابن عم لها؛ إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها؛ لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه، وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار، فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق، وقيل: كان ابن خال لها صبيّاً في المهد، وعن النبي ﷺ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: ابْنُ مَاشِطَةَ فِرْعَوْنَ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَى» (٧٨١).

فإن قلت: لم سمي قوله: شهادة، وما هو بلفظ الشهادة؟^(١)

٧٨١ - أخرجه الحاكم (٤٩٦/٢ - ٤٩٧)، وأحمد (٣١٠/١)، والبخاري (٣٨ - ٣٧/١) رقم (٥٤)، والبيهقي (٣٨٩/٢)، والطبري (١٩١/٧) رقم (١٩١٠٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦/٤) عن ابن عباس.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه الحاكم (٥٩٥/٢).

قال الحافظ:

أخرجه الحاكم وابن جبان وأحمد وابن أبي شيبه والبخاري وأبو يعلى. والطبري والبيهقي في السادس عشر من الشعب، كلهم من رواية حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - رفعه: «لما أسرى بي مرت راتحة طيبة - الحديث» فيه قصة الماشطة، وفي آخره قال رسول الله ﷺ: «تكلّم في المهد أربعة، وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم»، وفي الحاكم أيضاً من رواية مسلم بن إبراهيم عن جريج بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رفعه: «لم يتكلّم في المهد إلا أربعة وهم صغار: عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون»، وذكره بلفظ ثلاثة. وذكر الثالث ابن المرأة التي ألقيت في النار. فخشيت على ولدها فكلّمها» وفي الصحيحين من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً: «لم يتكلّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصبي كان يرضع فمر رجل راكب على دابة...» الحديث اقتصر الطبري على هذا الأخذ فلم يصب، وبهذا الاعتبار صاروا خمسة، وروى الثعلبي عن الضحاك: أنهم ستة زادهم يحيى بن زكريا. انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة... إلخ؟» قال أحمد: مهما قدره من ذلك في اتباعها لها، يحتمل مثله في اتباعها له، فإنها إنما تقد قميصه من قبل بتقدير أن يكون اجتذبتها حتى صاروا متقابلين فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبه حتى صاروا متقابلين، ثم جذبت قميصه إليها من قبل، بل ههنا أظهر؛ لأن الموجب لقد القميص غالباً الجذب لا الدفع.

قلت: لما أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف، وبطل قولها سمي شهادة.

فإن قلت: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟

قلت: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد، فقال: إن كان قميصه.

فإن قلت: إن دل قد قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتبتت ثوبه إليها فقدته، فمن أين دل قده من قبل على أنها صادقة، وأنه كان تابعها؟ قلت: من وجهين:

أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعتة عن نفسها قادت قميصه/ ١٦٨ ب من قدامه بالدفع.

والثاني: أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر في مقدم قميصه فيشقه^(١)، وقرئ: «من

- (١) عاد كلامه. قال: «والثاني أن يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقدم قميصه فينقد» قال أحمد: وهذا بعينه محتمل لو كانت هي التابعة وهو فار منها فانقد قميصه في إسرعه للفرار، والله أعلم. فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذاك. والحق - والله ولي التوفيق - أن الشاهد المذكور إن كان صبيها في المهد كما ورد في بعض الحديث، فالآية في مجرد كلامه قبل أوانه، حتى لو قال: صدق يوسف وكذبت، لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد برهاناً على صدق مريم، فلا تبقى المناسبة بين الأمانة المنصوبة وما رتب عليها؛ لأن العمدة في الدلالة نصبها لا مناسبتها، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضب الله ليوسف بالشهادة له وإقامة الحق كما ذكر الزمخشري. فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى فيصدق يوسف ويكذبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر فنصبه أمانة لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر وهو قده من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعاً فيذكر أمانة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر أمانة على صدقه المعلوم وجده، ومن ثم قدم أمانة صدقها على أمانة صدقه في الذكر، إزاحة للتهمة ووثوقاً بأن الأمانة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها. وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم - هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله «وإن يك كاذباً عليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم» فقدّم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تنطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقاً بأن القسم الثاني وهو صدقه هو الواقع. فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة. ومن ثم قال «بَقَعُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ» ولم يقل: كل ما يعدكم تعريضاً بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخره حقه، وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ به لمعطوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم. فقصد هذا الشاهد الأمانة الآخرة فقط. والمناسبة فيها محققة. وأما الأمانة الأولى فليست مقصودة، وإنما ذكرها توطئة كما تقدم. فلم يلتبس لها مناسبة جلية صحيحة على اليقين، وإنما هي كالفرض والتقدير والله أعلم. وكأنه قال: إن كان قميصه قد من قبل فهي صادقة. =

قبل»، «ومن دبر»: بالضم على مذهب الغايات، والمعنى: من قبل القميص ومن دبره، وأما التنكير، فمعناه: من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها: دبر، وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «من قبل»، و«من دبر»: بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين، فمنعهما الصرف؛ للعلمية والتأنيث، وقرئنا^(١): بسكون العين.

فإن قلت: كيف جاز الجمع بين: «إن» الذي هو للاستقبال، وبين: «كان»؟

قلت: لأن المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قد؛ ونحوه كقولك: إن أحسنت إليّ، فقد أحسنت إليك من قبل، لمن يمتن عليك بإحسانه، تريد: إن تمتن عليّ أمتنّ عليك، ﴿فَلَمَّا رَءَاكَ يُعْنِي: قُطْفِيرٍ، وَعَلِمَ بَرَاءَةَ يَوْسُفَ وَصَدَقَهُ، وَكَذَّبَهَا ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾: إن قولك: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾^(٢): أو إن الأمر، وهو طمعهما في يوسف ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾: الخطاب لها ولأمتها؛ وإنما استعظم كيد النساء؛ لأنه وإن كان في الرجال، إلا أن النساء ألطف كيداً، وأنفذ حيلة، ولهنّ في ذلك نيفة^(٣)، ورفق؛ وبذلك يغلبن الرجال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ سَكِرَاتِ الْفَتَنَاتِ فِي أَعْقَدِ ﴿١٠﴾﴾ [الفرق: ٤]، والقصریات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق^(٤)، وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر ما أخاف من الشيطان؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ﴿يُؤَسِّفُ﴾: حذف منه حرف النداء؛ لأنه منادى قريب، مفاطن للحديث، وفيه تقريب له، وتلطيف لمحلّه، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: الأمر، واكتمه، ولا

لكنه يعلم انتفاء الأمانة المذكورة، فعلق صدقها على محال وهو وجود قده من قبل حالة، فهذا التقرير هو الصواب والحق للباب، والله الموفق. وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشير كما ورد في بعض التفاسير، فلا بد من التماس المناسبة في الطرفين لأنها عهدة الحكيم. وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر دليل على إدباره عنها، وقده من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه، والله أعلم.

(١) قوله: «وقرئنا» أي: قبل ودبر، قوله: «بسكون العين»: أي الباء.

(٢) قال محمود: «الضمير راجع إلى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً... إلخ» قال أحمد: وفيما قاله هذا العالم نظر، لأن الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى غير محكي. وأما هذه الآية فكيد النساء فيها من قول العزيز، ولكن حكاه الله تعالى عنه فيحتمل حكايته عنه أن يكون تصحيحاً له، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه، وأيضاً فإن كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلاً لكيد الله تعالى، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه. ألا ترى أول الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَفَعَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ وأيضاً فإن الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته وتسويله وشواهد الشرع قائمة على ذلك، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهن أعظم من كيده، والله أعلم.

(٣) قوله: «نيفة» اسم للتأتق في الأمر. أفاده الصحاح (ع).

(٤) قوله: «مع غيرهن من البوائق» أي الدواهي. أفاده الصحاح (ع).

تحدث به ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ أنت ﴿لَدَيْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنوب. يقال: خطيء، إذا أذنب متعمداً؛ وإنما قال: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾: بلفظ التذكير؛ تغليظاً للذکور على الإناث، وما كان العزيز إلا رجلاً حليماً، وروي أنه كان قليل الغيرة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاْتَمَعَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُفَّنَّ لَنَا لَيْكُونَا مِنَ الْمُضْغَرِّينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾: وقال جماعة من النساء وكنّ خمساً: امرأة الساقى، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب، والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة؛ ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث، وفيه لغتان: كسر النون وضمها، ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾: في مصر، ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾: يردن قطفير، والعزيز: الملك بلسان العرب، ﴿فَلَمَّا﴾: غلامها، يقال: فتاي وفتاتي، أي: غلامي وجاريتي، ﴿شَغَفَهَا﴾: خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد؛ والشغاف: حجاب القلب، وقيل: جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب؛ قال النابغة [من الطويل]:
وَقَدْ حَالَ هُمْ دُونَ ذَلِكَ وَالْجُحْ مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ^(١)

(١) وقد حال هم دون ذلك والـجح مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكش فالضواجع

للنابغة، يعتذر إلى النعمان ملك العرب عما قذفه به الواشون، أي وقد حال هم دون التغزل في المحبوبة وغيره من اللذات «والـجح» داخل مكان الشغاف. ويروي «ولوح الشغاف» أي كولوجه، والشغاف: داء في القلب جهة اليمين تخرجه الأطباء بأصابعهم، فتبتغيه الأصابع: من صفته على أنه حال منه. وقيل: حجاب القلب، أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب، فتبتغيه: صفة للهم، وشبه الأصابع بمن يصح منه الطلب على طريق المكنية والابتغاء تخييل، ثم إنه شبه الهم المعقول بمحسوس وبالبغ في ذلك حتى ادعى أن الأصابع تفتش عليه فلا تجده لشدة ولوجه وكمونه في القلب. أو تلمسه وتريد إخراجه. وبين الهم بقوله: وعيد النعمان أبي قابوس وتهديده حال كونه في غير كنهه وحقيقته، أي: لم يبلغني بكماله. أو لأنه بلا سبب حصل مني، بل افترى الوشاة علي كذباً جاءني. ودوني: أي أمامي هذين الموضعين وهما مسافة بعيدة، ومع ذلك أدركني الخوف أو بعد المسافة، دلالة على غضب الملك عليه غضباً شديداً.

ينظر: البيت في ديوانه ٧٩، والعيني ٤٠٩/٣، ومعاني الزجاج ١٠٥/٣، ومجاز القرآن ٣٠٨/١، =

وقرى: «شعفها»؛ بالعين، من شعف البعير إذا هنأه^(١) فأحرقه بالقطران؛ قال [من الطويل]:

..... كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي^(٢)

و﴿حُبًّا﴾: نصب على التمييز، ﴿لَفَى سَلَكِلِ مِثْلِي﴾: في خطأ وبُعْدٍ عن طريق الصواب، ﴿يَمَكِّرُهُنَّ﴾: باغتيابهنَّ، وسوء قالنهنَّ، وقولهنَّ: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتياب مكرًا؛ لأنه في خفية وحالي غيبة، كما يخفي الماكر مكره، وقيل: كانت استكتمتهنَّ سرَّها فأفشيته عليهما، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْنِ﴾: دعتهنَّ، قيل: دعت أربعين امرأة منهنَّ الخمس المذكورات، ﴿وَأَعْتَدْتُ لِهِنَّ مَتَكًا﴾: ما يتكنن عليه من نمارق، قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهنَّ متكئات والسكاكين في أيديهنَّ: أن يدهشنَّ^(٣) ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهنَّ فتقع أيديهنَّ على أيديهنَّ فيقطعنها؛ لأن المتكى إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنَّ، فتضع الخناجر في أيديهنَّ ليقطعن أيديهنَّ، فتبكتهنَّ بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهنَّ الخناجر، وتوهمه أنهنَّ يشن عليه، وقيل: متكا: مجلس طعام؛ لأنهم كانوا يتكون للطعام، والشراب، والحديث، كعادة المترفين؛ ولذلك: «نهى أن يأكل الرجل متكئاً» (٧٨٢)، وآتتهنَّ السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن، وقيل: (متكا):

٧٨٢ - أخرجه ابن أبي شيبة (١٣٣/٥) رقم (٢٤٤٤٦) من حديث جابر، وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود.

وسمط اللآلئ ٤٨٩، وأمالى القالي ٢٠٥/١، والخزانة ٤٣٠/١، وأدب الكاتب ١١٨، والقرطبي ٢٣٣/٥، والدر المصون ١٧٣/٤، والتاج (شغف).

(١) قوله: «إذا هنأه» في الصحاح «هنأت البعير» إذا طلبته بالهناء. وهو القطران (ع).

(٢) أنقتلني وقد شغفت فؤادها كما شعف المهنوءة الرجل الطالي؟

لامرئ القيس، والاستفهام للإنكار والاستبعاد، أو للتعجب. وشعف الجمل: إذا أحرقه بالقطران المغلي على النار، وهنأه: دهنه بذلك القطران، فأطلق الشعف وأريد منه مطلق الإحراق، ثم أريد منه الإحراق بالعشق مجازاً مرسلأ ليصح التشبيه في قوله: كما أحرق الإبل المدهونة الداهن لها. وإن كان شغفت بالغبين المعجمة فالمعنى: أصبت شغاف قلبها بالحب، وهو حجاب القلب أو لسانه أو حبة سوداء في وسطه، كما شغف: أي أخاف الإبل المدهونة وراع قلبها الرجل الداهن لها. لأنها تخافه في الأول. وقيل: شبه حبها باستلذاذ الإبل لذلك الطلي بعد دهنها به.

ينظر: ديوانه ١٤٢، وشرح ديوان الحماسة ١٦٢٤/٤، المحتسب ٣٣٩/١، والطبري ٦٧/١٦، والقرطبي ١٧٧/٩، وفتح القدير ٢٥/٣، والدر المصون ١٧٣/٤.

(٢) قوله: «يدهشن» أي يتحيرن. أفاده الصحاح.

طعاماً؛ من قولك: اتكأنا عند فلان: طعمنا^(١)، على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك، اتخذت له نكأة يتكئ عليها؛ قال جميل [من الخفيف]:

فَظَلَّلْنَا بِنِعْمَةٍ وَأَتَكَّأْنَا وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلِيلَةٍ^(٢)

وعن مجاهد: (متكأ): طعاماً يحزّ حزاً؛ كأن المعنى يعتمد بالسكين؛ لأن القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين، وقرئ: «متكأ»: بغير همز، وعن الحسن: «متكأ»: بالمدّ، كأنه مفتعال؛ وذلك لإشباع فتحة الكاف؛ كقوله [من الوافر]:

..... بِمُنْتَزَاحٍ^(٣)

= أخرج الطبراني (١٠/١٢٤) رقم (١٠٠٨٧).

وقال الحافظ في تخرّيج الكشف:

من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن الزبير عن جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يأكل أحدنا بشماله وبأن يأكل متكأ»، وفي الطبري من حديث ابن مسعود: «نهى رسول الله ﷺ عن صومين وصلاتين ولباسين ومطعمين وبيعيتين ومنكحين - إلى أن قال: وأما المطعمان فإن يأكل الرجل بشماله ويمينه صحيح. وأن يأكل متكأ، إسناده جيد. وله في الأوسط وفي مسند الشاميين من حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأكل متكأ». ولا تتخط رقاب الناس يوم الجمعة»، وأعله ابن جبان في الضعفاء بزريق بن عبد الله رواية عن عمرو بن الأسود عن أبي الدرداء. وفي الباب عن ابن أبي إهاب. أخرجه البزار بلفظ: «نهى أن تأكل متكئين». انتهى.

(١) قوله: «طعمنا» لعله «أي طعمنا». (ع)

(٢) لحميد بن ثور. وقيل لجميل بن معمر. وظل يظل من باب علم. يقول: فظللنا في نعمة أو ملتسين بنعمة. واتكأنا: أصله أو تكأنا فتأوه الأولى واو: أي اتخذنا متكأ اضطجعنا عليه، وشربنا الشراب الحلال يعني التبيذ، من قلله: جمع قلة، وهي الجرة العظيمة. ففي ذكر القلل دلالة على التوسع في الشرب وعدم التحجر فيه.

ينظر: البيت في ديوانه (٦٩)، وشواهد المغني (١٢٦)، وتأويل المشكل (١٨١)، والقرطبي ٩/ ١٧٨، وروح المعاني ٢/ ٢٢٨، واللسان (قلل)، والخزانة ٤/ ١٩٩، وأساس البلاغة ٢/ ٢٧٣، وشرح شواهد المغني للسيوطي (١٢٦)، والأغاني ٧/ ٧٩، وشرح شواهد المغني ٥/ ٢٧٢، والدر المصون، ٤/ ١٧٤، فتح القدير ٣/ ٢٣.

(٣) قوله: «بمنتزاح» هو من قول الشاعر:

وأنت من الغوائل حين ترمي وعن ذم الرجال بمنتزاح

والبيت لابن هرمة يرثي ابنه. والغوائل: الحوادث التي تغتال النفوس وتهلكها. ونزح: إذا بعد، والمنتزح: اسم لمكان البعد، وأشبع فتحته فتولدت منها الألف كقولهم: ينباع في ينبع، وعقربا في عقرب.

ينظر: ديوانه (٩٢)، الأشباه والنظائر ٢/ ٣٠، والخصائص ٢/ ١٠٦، ٣/ ١٢١، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٥، ٢/ ٧١٩، وشرح شواهد الشافية ص ٢٥، ولسان العرب (ترج)، والمحتسب ١/ ١١٦، ٣٤٠، خزنة الأدب ٧/ ٥٥٧، والدر المصون ٢/ ٢٠٥.

بمعنى: بمنتزح؛ ونحوه [من الكامل]:

يَنْبَاعٌ..... (١)

بمعنى: ينبع، وقرئ: «مُنْكَأ»: وهو الأترج؛ وأنشد [من الطويل]:

فَأَهْدَتْ مَثَكَةً لِبَنِي أَبِيهَا تَحُبُّ بِهَا الْعَثْمَمَةَ الْوَقَاحُ (٢)

وكانت أهدت أترجة على ناقة، وكأنها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت بنصفين، وحملا كالعدلين على جمل، وقيل: الزماورد (٣)، وعن وهب: أترجاً وموزاً وبطيخاً، وقيل: أعتدت لهم ما يقطع، من منك الشيء بمعنى: بتكه إذا قطعه، وقرأ الأعرج: (متكاً): مفعلاً، من تكى يتكأ، إذا اتكأ، ﴿أَكْبَرْتُهُ﴾: أعظمته، وهبن ذلك الحسن الرائع، والجمال الفائق، قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وعن النبي ﷺ: «مَرَزْتُ يُونُسَ اللَّيْلَةَ الَّتِي عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ لِيَجْزِيْلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: «يُونُسُ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ رَأَيْتُهُ؟ قَالَ: «كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» (٧٨٣)، وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر، يرى تلالؤ وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس من الماء عليها، وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، وقيل/ ١٦٩: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وقيل: ورث الجمال من جدته سارة، وقيل: أكبرن بمعنى: حضن، والهاء: للسكت، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته: دخلت في الكبر؛ لأنها بالحض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر؛ وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله [من الطويل]:

٧٨٣ - أخرجه الحاكم (٥٧١/٢).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدى عن أبي سعيد، وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً. انتهى.

(١) قوله: «ينباع» هو من قول الشاعر:

ينباع من ذفرى أسيل حرة

زيافة مثل الفنيق المكدم

وقد مر شرح هذا البيت في سورة الأعراف بهذا الجزء فراجع إن شئت اهـ.

(٢) المتكة: الأترجة، وكأنه التي ذكر أبو داود في سننه أنها شقت نصفين وحملت على ناقة. والخبب:

نوع من السير. والعثممة: الصلبة. والوقاح - بالفتح -: شديدة وقع الخف على الأرض.

ينظر: البيت في روح المعاني ٢٨٨/١٢، والدر المصون ١٧٤/٤.

(٣) قوله: «الزماورد» هو الرقاق المحشو باللحم (ع).

خَفِ اللَّهَ وَأَسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بِبُرْقِعٍ فَإِنْ لُحِتْ حَاصَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ^(١)

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها
﴿حَشَّ﴾ كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، تقول: أساء القوم حاشا زيد؛ قال:
[من الكامل]:

حَاشَا أَبَا ثَوْبَانَ إِنْ.....
ضُنَّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشُّثْمِ..... بِهِ

وهي حرف من حروف الجر، فوضعت موضع التنزيه والبراءة، فمعنى: «حاشا الله»: براءة الله وتنزيهه، وهي قراءة ابن مسعود، على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة، ومن قرأ: «حاشا لله»؛ فنحو قولك: سقيا لك؛ كأنه قال: براءة، ثم قال: لله؛ لبيان من يبرأ وينزه، والدليل على تنزيل «حاشا»: منزلة المصدر: قراءة أبي السمال: (حاشا لله): بالتونين، وقراءة أبي عمرو: (حاش لله): بحذف الألف الآخرة، وقراءة الأعمش: (حشا لله): بحذف الألف الأولى، وقرئ: (حاش لله): بسكون الشين، على أن الفتحة تبتع الألف في الإسقاط، وهي: ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حده، وقرئ: «حاشا الإله».

(١) لأبي الطيب، يقول: اتق واستر هذا الجمال الذي في وجهك ببرقع، لأنك إن ظهرت حاضت العواتق، أي خيار النساء وهن في خدورهن، لما ينظرن من جمالك. ولاح يلوح: ظهر يظهر. ينظر: البيت في ديوانه ٣٤٩/٢، وروح المعاني ٢٢٩/١٢، والبحر المحيط ٣٠٣/٥، والدر المصون ١٧٥/٤.

(٢) حاشا أبي ثوبان إن أبا عمرو بن عبد الله إن به ضنا عن الملحاة والشتم
للمنقذ بن الطماح وهو الجميح الأسدي. وحاشا: كلمة تبرئة وتنزيه واقعة موقع المصدر مضافة لما بعدها، كسبحان الله. ويجوز أنها حاشا الاستثنائية، وهي حرف جر عند الأكثر. ورواه الضبي: حاشا أبا ثوبان بالنصب، فهو فعل، واحتمال لغة القصر ضعيف لشهرة لغة الإعراب بالحروف. وعلى الأول فبناؤها لمشايتها للحرفية لفظاً ومعنى. وبكم الرجل - كتعب -: إذا عجز عن الكلام. وقدم كسهل وظرف، إذا عجز عن الحجة كأن فمه مسدود. والضن - بالكسر -: البخل. والملحاة: مفعلة، من لحاه إذا لامه. واللحاء - كالرداء - مفاعلة من اللحن والعذل، من لحوت العود إذا قشرته. وتكرير أبي ثوبان لتعظيمه والتنويه باسمه، ليس ببكمة بالضم، أي ذي بكمة، أي: ليس بأبكم، ولا قدم: أي عاجز عن الكلام. وعمرو: قيل إنه بدل من أبي ثوبان، فقوله: إن أبا ثوبان إلخ: جملة اعتراضية مبينة لوجه التنزيه. وفي قوله: إن به ضنا، بيان لوجه سكوته عن مؤاخذه اللثام. والمعنى: إن به امتناعاً وتنزهاً عن اللؤم والشتم.

ينظر: المحتسب ٣٤١/١، المفضليات ٣٦٧، مجاز القرآن ٣١٠/١، وشرح المفصل ٤٧/٨، الدرر ١٩٦/١، ٨٤/١ الإنصاف ٢٨٠/١، البحر المحيط ٣٠٠/٥، اللسان «حاشا» الأصمعيات ص ٣٦٧، الجنى الداني ص ٥٦٢، والمقاصد النحوية ١٢٩/٣، والدر المصون ١٧٦/٤، وله أو لسيرة بن عمرو الأسدي في خزانة الأدب ١٨٢/٤، وجمع الهوامع ٢٣٢/١.

فإن قلت: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى: براءة لله؟
قلت: مراعاة لأصله الذي هو الحرفية؛ ألا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه
كيف تركوا: «عن» غير معرب على أصله؟ وعلى^(١) في قوله [من الطويل]:
غَدَتْ مِنْ عَلَيِّهِ.....

منقلب الألف إلى الياء مع الضمير؟ والمعنى: تنزيه الله - تعالى - من صفات العجز،
والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله، وأما قوله: ﴿حَشَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوِّ﴾:
فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾: نفين عنه البشرية لغرابة جماله
ومباعدة حسنه^(٢)؛ لما عليه محاسن الصور، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم؛ وذلك
لأن الله - عز وجل - ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من
الشیطان؛ ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا؛ لأن
الحقيقة كذلك، كما ركز في الطباع ألا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من
الملائكة، إلا ما عليه الفنة الخاصة^(٣) المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا
من تعكسهم للحقائق، وجحودهم للعلوم الضرورية، ومكابرتهم في كل باب، وإعمال:
«ما» عمل: «ليس» هي اللغة القدمى الحجازية^(٤)، وبها ورد القرآن؛ ومنها قوله تعالى:
﴿مَا هُتِ أَهْلُهَا﴾ [المجادلة: ٢]، ومن قرأ على سليقته من بني تميم، قرأ: (بشر):
بالرفع، وهي في قراءة ابن مسعود، وقرئ: «ما هذا بشري»، أي: ما هو بعبد مملوك
لثيم، ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: تقول: هذا بشري، أي: حاصل بشري، بمعنى: هذا

(١) قوله: «على أصله وعلى في قوله» عطفه يحتاج إلى تكلف، أي: وإلى قوله:

غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها

كيف ترك على في قوله. ويمكن أن التقدير: ألا ترى إلى قولهم إلخ وعلى في قوله أي: وألا ترى
على... إلخ.

(٢) قال محمود: «نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه... إلخ» قال أحمد: تقدم القول في
مسألة التفضيل شافياً، والزمخشري لا يدعه التعصب للمعتقد الفاسد أن يحمله على مثل هذه
المشافهات، يرمي بها أهل الحق فينسب إليهم الإجمار والخسار والمكابرة في الضروريات وجحد
الحقائق تعكساً، وهذا كله هم براء منه، وحسبه من المقابلة بذلك خطؤه في اعتقاد أن تفضيل
الملك عند قائله ليس ضرورياً ولا عقلياً نظرياً، ولكن سمعياً، وقد قنع في الاستدلال على هذه
العقيدة بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق،
وخصوصاً والكلام في طباع النساء القائلات: ما هذا بشراً. وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً، فما
ركز فيها حب الشهوات وإثارة العاجلة وجميع أمهات الذنوب مركوز في الطباع، أف يكون ذلك حقاً
إلا عند ناظر بعين الهوى، أعشى في سبيل الهدى، والله ولي التوفيق.

(٣) قوله: «إلا ما عليه الفنة الخاصة» يريد أهل السنة، وقد أساء في تعصبه للمعتزلة فعفا الله عنه (ع).

(٤) قوله: «ليس هي اللغة القدمى الحجازية» بمعنى القديمة، لكن لم يذكرها في الصحاح (ع).

مشري، وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة: هي الأولى؛ لموافقتها المصحف ومطابقة بشر لملك، ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ﴾: ولم تقل: فهذا وهو حاضر^(١)؛ رفعاً لمنزلته في الحسن، واستحقاق أن يحب ويفتن به، وربناً بحاله واستبعاداً لمحله، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن: عشقت عبدها الكنعاني، تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن، ثم لمتنني فيه، تعني: أنكن لم تصوّرنه بحق صورته، ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتنان به، الاستعصام: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها؛ ونحوه: استمسك واستوسع الفتق، واستجمع الرأي، واستفحل الخطب^(٢)؛ وهذا بيان لما كان من يوسف - عليه السلام - لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمم والبرهان.

فإن قلت: الضمير في: ﴿ءَاْمُرُهُ﴾: راجع إلى الموصول، أم إلى يوسف؟

قلت: بل إلى الموصول، والمعنى: ما أمر به؛ فحذف الجار كما في قولك: أمرتك الخير، ويجوز أن تجعل «ما»: مصدرية، فيرجع إلى يوسف، ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه، أي: موجب أمري ومقتضاه، قرئ: (وليكونا): بالتشديد والتخفيف، والتخفيف أولى؛ لأنّ النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف؛ وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ

(١) قال محمود: «لم لم تقل فهذا وهو حاضر... إلخ» قال أحمد: وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أول البقرة ﴿أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ لما جعل الإشارة إلى الحروف المذكورة فقال: إن قلت كيف أشار إليها وهي قريبة كما يشار إلى البعيد، وأجاب هو بأن كل متقضى بعيد، وأجبت أنا بأن الإشارة بذلك إلى بعد منزلة هذا الكتاب بالنسبة إلى كتب الله تعالى.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «والذي ذكره التصريفيون في «استعصم»: أنه موافق لـ «اغتنصم» فـ «استفعل» فيه موافق لـ «افتعل»، وهذا أجود من جعل «استفعل» فيه للطلب، لأن «اغتنصم» يدل على وجود اعتصامه، وطلب العصمة لا يدل على حصولها، وأما أنه بناء مبالغة يدل على الاجتهاد في الاستزادة من العصمة، فلم يذكر التصريفيون هذا المعنى لـ «استفعل»، وأما استفسك واستوسع واستجمع الرأي فـ «استفعل» فيه لموافقة «افتعل» والمعنى: امتسك واتسع واجتمع، وأما استفحل الخطب فـ «استفعل» فيه موافقة لـ «تفعل»، أي تفعل الخطب، نحو: «استكبر وتكبر». وقرأ العامة بتخفيف نون «وليكونا» ويقفون عليها بالألف إجراء لها مجرى التثنية، ولذلك يحذفونها بعد ضمة أو كسرة، نحو: «هل تقومون، وهل تقومين»، في: «هل تقومين»، وهل تقومين، والنون الموجودة في الوقف نون الرفع، رجعوا بها عند عدم ما يقتضي حذفها. انتهى. الدر المصون.

﴿الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٢) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

(السجن): بالفتح على المصدر، وقال: ﴿يَدْعُونَنِي﴾: على إسناد الدعوة إليهن جميعاً؛ لأنهن تنصحن له وزيّن له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك، وقال: «رب، نزول السجن أحب إلي من ركوب المعصية».

فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة؟

قلت: كانت أحب إليه وأثر عنده؛ نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروها، ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾: فزع منه إلى أطفاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجماع على التعفف والإلجاء إليه، ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أمل إليهن، والصبوة: الميل إلى الهوى، ومنها: الصبا؛ لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها، وقرئ: أصب إليهن؛ من الصبابة، ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء، أو من السفهاء؛ لأن الحكيم لا يفعل القبيح؛ وإنما ذكر الاستجابة ولم/ ١٦٩ب يتقدم الدعاء؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي﴾: فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف، ﴿السَّمِيعُ﴾: لدعوات الملتجئين إليه، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٣٥)

﴿بَدَأَ لَهُمْ﴾: فاعله مضمّر؛ لدلالة ما يفسره عليه، وهو: «ليسجنته»، والمعنى: بدأ لهم بداء، أي: ظهر لهم رأي ليسجنته، والضمير في (لهم): للعزیز وأهله، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا﴾، وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستئزال المرأة لزوجها، وقتلها منه في الذروة والغارب^(١)، وكان مطواعة لها وجميلاً ذلولاً زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه، وإلحاق الصغار به كما أوعدته به؛ وذلك لما أيسر من طاعته لها، أو لطمعها في أن يذلل السجن ويسخره لها؛ وفي قراءة الحسن: «لتسجنته»: بالتاء على الخطاب: خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: إلى زمان، كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون

(١) قوله: «وقتلها منه في الذروة» أي دورانها من وراء خديعته. أفاده الصحاح (ع).

منه، وفي قراءة ابن مسعود: «عتى حين»، وهي لغة هذيل، وعن عمر - رضي الله عنه - أنه سمع رجلاً يقرأ: (عتى حين)، فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب إليه: «إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً، وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل، والسلام».

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثَيْنَا فَبَتَّ أُولَاهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

«مع»: يدل على معنى الصحبة واستحدثائها، تقول: خرجت مع الأمير، تريد مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له، ﴿فَتَيَانٍ﴾: عبدان للملك: خبازه وشرابه: رقي إليه أنهما يسمانه^(١)، فأمر بهما إلى السجن، فأدخلا ساعة أدخل يوسف - عليه السلام - ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ يعني: في المنام، وهي حكاية حال ماضية، ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني: عنباً، تسمية للعنب بما يؤول إليه، وقيل: الخمر - بلغة عمان -: اسم للعنب، وفي قراءة ابن مسعود: أعصر عنباً، ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: من الذين يحسنون عبارة الرؤية، أي: يجيدونها، رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له، فقالا له ذلك، أو من العلماء؛ لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا بأن تفرّج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا، روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق وسع له، وإذا احتاج جمع له، وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا، اصبروا تؤجروا؛ إن لهذا لأجراً، فقالوا: بارك الله عليك، ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك! لقد بورك لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟ قال: «أنا: يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خلّيت سبيلك، ولكني أحسن جوارك، فكن في أي بيوت السجن شئت، وروي أن الفتيين قالاه: إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: أنشدكم بالله ألاّ تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء، لقد أحببني عمّي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحببني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبه بلاء، فلا تحباني - بارك الله فيكما - وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي: إني أراني في بستان، فإذا بأصل حبله^(٢) عليها ثلاثة عناقيد من عنب، فقطفتها وعصرتها في كأس

(١) قوله: «رقي إليه أنهما يسمانه» في الصحاح: رقى إليه الكلام ترقية، أي: رفع إليه (ع).

(٢) قوله: «فإذا بأصل حبله» في الصحاح «الحبله» بالضم: ثمر العضاء. وفيه «العضاه» كل شجر يعظم وله شوك والحبله - بالتحريك -: القضيبي من الكرم. وفيه أيضاً: سلة الخبز معروفة (ع).

الملك، وسقيته، وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، وإذا سباع الطير تنهش منها.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: (نبئنا بتأويله)؟

قلت: إلى ما قصا عليه، والضمير، يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه؛ كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترض ذلك^(١)، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفناه واحد منهم أن يقدم الهداية، والإرشاد، والموعظة، والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه أن يقتبس منه، وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية، ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾: ببيان ماهيته وكيفيته؛ لأن ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه، ﴿ذَلِكَمَا﴾: إشارة لهما إلى التأويل، أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾: وأوحى به إليّ ولم أقله عن تكهن وتنجم، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾: يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، وأن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علمني ذلك وأوحى إليّ؛ لأنني رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين، وهي الملة الحنيفية، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون: أهل مصر، ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة، وأن غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها^(٢)، وهم الذين على ملة إبراهيم؛ ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من

(١) قوله: «افترض ذلك» أي اتخذته فرصة، أي نوبة وحظاً ونصيلاً، أفاده الصحاح (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وليست هم» عندنا تدل على الخصوص «قلت: لم يقل الزمخشري إن هم» تدل على الخصوص، وإنما قال: تكرير «هم» للدلالة، فالتكرير هو الذي أفاد الخصوص، وهو معنى حسن فهمه أهل البيان. انتهى. الدر المصون.

الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأن ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء؛ وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرّفهما أنه نبيّ يوحى إليه، بما ذكر من إخباره بالغيوب؛ ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله، ﴿مَا كُنَّا لَنَا﴾: ما صَحَّحَ لَنَا مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ، ﴿أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ﴾ أي: شيء كان من ملك أو جنيّ أو إنسيّ / ١٧٠، فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر، ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾: التوحيد، ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي: على الرسل وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾: المبعوث إليهم، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾: فضل الله فيشركون ولا يتنبهون، وقيل: إنّ ذلك من فضل الله علينا؛ لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدلّ بها، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعاً لأهوائهم، فيبقون كافرين غير شاكرين.

﴿يَصْصِجِي السِّجْنَ عَزَابًا مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ أَلَوْحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَلْبُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَصْصِجِي السِّجْنَ﴾ يريد: يا صاحبيّ في السجن، فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة؛ فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب؛ وإنما المصحوب غيره وهو يوسف - عليه السلام - ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصدق، فتضيفهما إلى الصدق، ولا تريد أنهما صحبا الصدق، ولكن كما تقول: رجلاً صدق، وسميتهما صاحبيين؛ لأنهما صحباك، ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن؛ كقوله: ﴿أَخَذْتُ النَّارَ وَأَخَذْتُ الْجَنَّةَ﴾ [الحشر: ٢٠]، ﴿عَزَابًا مُتَفَرِّقُونَ﴾: يريد التفرق في العدد والتكاثر، يقول: أأن تكون لكما أرباب شتى، يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا، ﴿خَيْرٌ﴾: لكما، ﴿أَمِ﴾: أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية، بل هو ﴿الْقَهَّارُ﴾: الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام، ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾: خطاب لهما، ولمن على دينهما من أهل مصر، ﴿إِلَّا أَسْمَاءً﴾ يعني: أنكم سميت ما لا يستحق الإلهية آلهة، ثم طفقتم تعبدونها؛ فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها، ومعنى ﴿سَبَّيْتُمُوهَا﴾: سميتم بها، يقال: سميت به زيد، وسميته زيداً، ﴿مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: بتسميتها، ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾: من حجة، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾: في أمر العبادة والدين، ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾: ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَلْبُ﴾:

الثابت الذي دلت عليه البراهين .

﴿يَصْجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الظُّرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤١)

﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾: يريد الشرابي، ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾: سيده، وقرأ عكرمة: «فيسقي ربه»، أي: يسقي ما يروي به على البناء للمفعول، روي أنه قال للأول: ما رأيت من الكرمه وحسنها هو الملك وحسن حاله عنده، وأما القضبان الثلاثة: فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن، ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل، ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: قطع وتم ما، ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾: فيه من أمركما وشأنكما.

فإن قلت: ما استفتيا في أمر واحد، بل في أمرين مختلفين، فما وجه التوحيد؟

قلت: المراد بالأمر: ما اتهما به من سم الملك وما سجننا من أجله، وظنا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيان في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاه أم هلاك، فقال لهما: قضى الأمر الذي فيه تستفتيان، أي: ما يجر إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما ونجاه الآخر، وقيل: جحدا، وقالوا: ما رأينا شيئا، على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتهما أو كذبتما.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢)

﴿ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾: الظان: هو يوسف، إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي: فالظان هو الشرابي، ويكون الظن بمعنى: اليقين^(١)، ﴿اَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾: صفني عند الملك بصفتي، وقص عليه قصتي؛ لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة، ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ﴾: فأنسي الشرابي، ﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾: أن يذكره لربه، وقيل: فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره، ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين.

(١) قال السمين الحلبي: قُلْتُ: يعني أنه إن كان الظن على بابه فلا يستقيم إسناده إلى يوسف، إلا أن يكون تأويله بطريقة الاجتهاد لأنه متى كان بطريق الوحي كان يقينا فينسب الظن حينئذ للشرابي لا له عليه السلام، وأما إذا كان الظن بمعنى اليقين فتصح نسبته إلى يوسف، وإن كان تأويله بطريق الوحي، وهو حسن وإلى كون الظن على بابه وهو مسند ليوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، ذهب قتادة فإنه قال: الظن هنا على بابه، لأن عبارة الرؤيا ظُنُّ. انتهى. الدر المصون.

فإن قلت: كيف يقدر الشيطان على الإنسان؟

قلت: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان، حتى يذهب عنه
ويزول عن قلبه ذكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله، عز وجل، ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ
أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فإن قلت: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك؟ وما هي بإضافة المصدر
إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟

قلت: قد لابس في قولك: «فأنساه الشيطان ذكر ربه»، أو: عند ربه فجازت إضافته
إليه؛ لأن الإضافة تكون بأدنى ملابسة، أو على تقدير: فأنساه الشيطان ذكر إخبار ربه،
فحذف المضاف الذي هو الإخبار.

فإن قلت: لم أنكر على يوسف الاستغاثة بغير الله في كشف ما كان فيه، وقد قال الله
تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْقَوَى﴾ [المائدة: ٢]، وقال حكاية عن عيسى، عليه السلام، ﴿مَنْ
أَنْصَارَ إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وفي الحديث: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون
أخيه المسلم» (٧٨٤) «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ الْآخِرَةِ» وعن
عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب
من يحرسه، حتى جاء سعد فسمعت غطيظه (٧٨٥)، وهل ذلك إلا مثل التداوي بالأدوية

٧٨٤ - أخرجه مسلم (٢٠٧٤/٤) كتاب الذكر والدعاء: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن حديث
(٢٦٩٩/٣٨) والترمذي (٢٦/٤) كتاب الحدود: باب ما جاء في الستر على المسلم حديث
(١٤٢٥)، (٢٨٧/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الستر على المسلم حديث
(١٩٣٠) وأبو داود (٧٠٤/٢) كتاب الأدب: باب في المعونة للمسلم حديث (٤٩٤٦) وابن ماجه
(٨٢/١) المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم حديث (٢٢٥) وأحمد (٢٠٢/٢)
وأبو نعيم في الحلية (١١٩/٨) والبيهقي في «شرح السنة» (٢٢١/١) - بتحقيقنا كلهم من طريق
الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.
قال النووي في «شرح مسلم» (٢٨/٩).
ومعنى (نفس الكربة): أزالها.

وفيه: فضل قضاء حوائج المسلمين، ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة
أو نصيحة وغير ذلك، وفضل الستر على المسلمين، وقد سبق تفصيله، وفضل إنظار المعسر،
وفضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي، بشرط أن يقصد به وجه
الله تعالى، وإن كان هذا شرطاً في كل عبادة، لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به، لكونه قد
يتساهل فيه بعض الناس، ويغفل عنه بعض المبتدئين ونحوهم.

وقال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث. انتهى.

٧٨٥ - أخرجه البخاري (٢٣٢/١٣) كتاب التمني باب قوله ﷺ: «ليت كذا وكذا»، ومسلم (١٩٥/٨) =

والتموي بالاشربة والأطعمة، وإن كان ذلك؛ لأن الملك كان كافراً، فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم، والغرق، والحرق، ونحو ذلك من المضار؟

قلت: كما اصطفى الله - تعالى - الأنبياء على خليفته، فقد اصطفى لهم أحسن الأمور، وأفضلها، وأولها، والأحسن والأولى بالنبي ألا يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه، ولا يعتضد إلا به، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً؛ لثلاث يشمت به الكفار، ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا، وعن الحسن: أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فرعنا إلى الناس.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنْ آتَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا أَمْلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا نَعْتَرُونَ﴾ (٤٣)

لما دنا فرج يوسف، رأى ملك مصر «الريان بن الوليد» رؤيا عجيبة هالته: رأى سبع/ ١٧٠ بقرات سمان خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً آخر يابسات قد استحصدت وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها، فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها، ﴿سِمَانٍ﴾: جمع سمين وسمينة، وكذلك رجال ونسوة كرام.

فإن قلت: هل من فرق بين إيقاع: (سمان) صفة للمميز وهو: (بقرات) دون المميز، وهو: (سبع)، وأن يقال: سبع بقرات سماناً؟

قلت: إذا أوقعتها صفة لبقرات، فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات، وهي السمان منهن لا بجنسهن، ولو وصفت بها السبع، لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن.

فإن قلت: هلا قيل: سبع عجاف على الإضافة؟

قلت: التمييز موضوع لبيان الجنس، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده.

= (١٩٦) نووي كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد رقم (٢٤١٠) والحاكم (٥٠١/٣).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من طريق عبد الله بن عامر بن ربيعة عنها بلفظ: «أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة، قال: وسمعت صوت السلاح، فقال: رسول الله ﷺ من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله جئت أحرسك فقالت عائشة: فنام حتى سمعت غطيطة، وغفل الحاكم فاستدركه... انتهى.

فإن قلت: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب.

قلت: الفارس، والصاحب، والراكب، ونحوها: صفات جرت مجرى الأسماء، فأخذت حكمها، وجاز فيها ما لم يجز في غيرها؛ ألا تراك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ.

فإن قلت: ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه؛ ألا ترى أنه لم يقل: بقرات سبع عجاف؛ لوقوع العلم بأن المراد البقرات؟

قلت: ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك: (سبع عجاف)، عما تقتضيه من التمييز بالوصف، والعجف: الهزال الذي ليس بعده، والسبب في وقوع «عجاف»: جمعاً «لعجفاء»، وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال: حملة على سمان؛ لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظر على النظر، والنقيض على النقيض.

فإن قلت: هل في الآية دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر؟

قلت: الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنبال الخضر، فوجب أن يتناول معنى الأخير السبع، ويكون قوله: (وأخر يابسات)، بمعنى: وسبعاً آخر.

فإن قلت: هل يجوز أن يعطف قوله: (وأخر يابسات) على (سنبلات خضر)، فيكون مجرور المحل؟

قلت: يؤدي إلى تدافع، وهو أن عطفها على: (سنبلات خضر) يقتضي أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة، ولفظ الآخر يقتضي أن تكون غير السبع، بيانه: أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وعود: بالجر، فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والعود، على أن بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود، تدافع ففسد، ﴿يَتَأْتِيَ الْهَلَاكُ﴾: كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء، واللام في قوله: ﴿لِلرَّءْيَا﴾: إما أن تكون للبيان؛ كقوله: ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ مِنَ الرَّهْدِ﴾ [يوسف: ٢٠]، وإما أن تدخل؛ لأن العامل إذا تقدّم عليه معموله، لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل، إذا قلت: هو عابر للرؤيا، لانحطاطه عن الفعل في القوة، ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان؛ كما تقول: كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه، و﴿تَعْبُرُونَ﴾: خبر آخر، أو حال، وأن يضمن: (تعبرون) معنى: فعل يتعدى باللام، كأنه قيل: إن كنتم تتدبّون لعبارة

الرؤيا، وحقيقة: «عبرت الرؤيا»: ذكرت عاقبتها وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر، إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبرة^(١)؛ ونحوه: أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها، وعبرت الرؤيا: بالتخفيف، هو الذي اعتمده الأنبياء، ورأيتهم ينكرون «عبرت»: بالتشديد والتعبير والمعبر، وقد عَثَرْتُ على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض الأعراب [من السريع]:

رَأَيْتُ رُؤْيَا ثُمَّ عَبَّرْتُهَا وَكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عَبَّارًا^(٢)

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾

﴿أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾: تخاليلها وأباطيلها، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان، وأصل الأضغاث: ما جمع من أخلاط النبات وحزم الواحد: ضغث؛ فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى: «من» أي: أضغاث من أحلام، والمعنى: هي أضغاث أحلام.

فإن قلت: ما هو إلا حلم واحد، فلم قالوا: أضغاث أحلام فجمعوا؟

قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمام الخز، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة، تزيداً في الوصف، فهؤلاء - أيضاً - تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾: إما أن يريدوا بالأحلام: المنامات الباطلة^(٣)

(١) قوله: «آخر عرضه وهو عبرة» في الصحاح: «عبر النهر، وعبر شطره وجانبه (ع).

(٢) أنشده المبرد في كتابه. والرؤيا - بالالف: مصدر رأى المنامية، ويقل مجيئه بالتاء. ومصدر البصرية بالعكس، وعبرت الرؤيا - بالتخفيف وبالتضعيف كما هنا -: ذكرت عاقبتها وأدركت غايتها كأولتها. إذا ذكرت مآلها ومرجعها. والأحلام: جمع حلم بالضم، وهو ما يراه النائم. والعبارة: مبالغة في المعبر أو في العابر، واللام تزداد في المعمول لتقوية العامل إذا ضعف بالتأخر، أو بكونه فرعاً عن الفعل، وقد اجتمع الأمران ههنا فزيدت اللام.

ينظر: البيت في روح المعاني ٢٥٠/١٢، والبحر ٣١١/٥، والتاج (عبر)، والدر المصون ١٨٧/٤. قال محمود: «يحتمل أن يكون مرادهم بالأحلام المنامات... إلخ» قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل الكلام على الأول يصيره من وادي [من الطويل]:

على لا حب لا يهتدي بمناره على لا حب لا يهتدي بمناره

كانهم قالوا: ولا تأويل للأحلام الباطلة فتكون به عالمين. وقول الملك لهم أولاً ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا فَتَرُونَ﴾ دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أولاً. وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله - إلى قوله - لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون: دليل أيضاً على ذلك. والله أعلم.

خاصة، فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم، وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥)

قرئ: ﴿وَادَّكَرَ﴾: بالذال، وهو الفصيح، وعن الحسن: «واذكر»: بالذال المعجمة، والأصل: تذكر، أي: تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: بعد مدة طويلة؛ وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملاء تأويلها، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك، وقرأ الأشهب العقيلي: (بعد إمة): بكسر الهمزة، والإمة: النعمة؛ قال عدي [من الخفيف]:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَةِ مَتَّ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ^(٢)

أي: بعد ما أنعم عليه بالنجاة، وقرئ: (بعد أمه): بعد نسيان^(٣)، يقال: أمه يأمه أمها، إذا نسي، ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ^(٤)، ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾: أنا أخبركم

(١) قوله: «بنحارير» جمع نحير وهو العالم المتقن، كما في الصحاح (ع).

(٢) أين كسرى كسرى الملوك أبوسا سان؟ بل أين قبله سابور؟

ثم بعد الفلاح والملك والإم - مة وارتهم هناك القبور

ثم صاروا كأنهم ورق جف - ف فألوت به الصبا والدبور

لعدي بن زيد. وكسرى وساسان وسابور: أسماء ملوك وساسان: هو أبو الأكاسرة. ويروي: أنو شروان، بدل أبو ساسان؛ فهو كلمة واحدة. وكسرى الثاني بدل من الأول، مضاف لما بعده؛ كما يقال: ملك الملوك، وهو فارسي معرب، وأصله خسرو، فغيرته العربية. وإن كان عربياً مأخوذاً من الكسر؛ فالمعنى أنه كان يكسر شوكة الملوك، وما بعده عطف بيان له وقبله متعلق بمحذوف حال من سابور وفي «بل» دلالة على أن سابور أعظم منهما. وثم - بالفتح - ظرف خبر لمحذوف أي هم ثم. وإن ضمت فهي عاطفة على محذوف، أي أفلحوا ثم بعد الفلاح، أي البقاء أو الفوز والملك. وروي بدله «الرشد». والإمة - بالكسر -: النعمة، وبالضم: الجيش العظيم. وارتهم: أي سترتهم قبورهم في ذلك المكان، كناية عن موتهم، فيدفنون في باطن الأرض بعد عظمتهم على وجهها، ثم شبههم بالورق الذي جف فاختلفت به الصبا والدبور، فهذه نظيرة كذا وهذه نظيرة كذا، فألوت بمعنى التوت، أو بمعنى: أوقعت به اللي، يعني تناول بهم الزمان حتى تفتت عظامهم وصارت كذلك.

ينظر: ديوانه (٨٩)، مثلثات قطرب / ٤٥، الرازي ١٨/ ١٥٢، فصيح ثعلب ٦٥، شواهد المغني للبغداد ٤/ ٤٢، ٤٧، ابن الشجري ١/ ٩١، الشعر والشعراء ١/ ٢٢٥، الأغاني ١/ ٢١٥، ١٢٦، وحامسة البحر ١٢٢، تاريخ الطبري ٢/ ٥٠، ٦٨، اللسان: أم، الدر المصون ٤/ ١٨٨.

(٣) قوله: «قرئ بعد أمه بعد نسيان» لعله أي بعد (ع).

(٤) قوله: «ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ» بمعنى أثم من الخطأ بالكسر، وهو الإثم. أفاده الصحاح

(ع).

به عمن/ ١٧١ عنده علمه، وفي قراءة الحسن: أنا أتاكم بتأويله، ﴿فَأَرْسَلُونَا﴾: فابعثوني إليه لأسأله، ومروني باستعباره، وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

المعنى: فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾: أيها البليغ في الصدق؛ وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله، وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه؛ حيث جاء كما أول؛ ولذلك كلمه كلام محترز فقال: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنه ليس على يقين من الرجوع؛ فربما اخترم دونه، ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى: (لعلهم يعلمون): لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محتك.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿تَزْرَعُونَ﴾: خبر في معنى الأمر؛ كقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ [الصف: ١١]؛ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر؛ للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾^(١)، ﴿دَأَبًا﴾: بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدران: دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أي دائبين: إما على تدأبون دأباً، وإما على إيقاع المصدر حالاً، بمعنى: ذوي دأب، ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾؛ لثلاث يتسوس، و﴿يَأْكُلْنَ﴾: من الإسناد المجازي: جعل أكل

= قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا على عادته في نسبته الخطأ إلى القراء». قلت: لم ينسب هو إليهم خطأ، وإنما حكى أن بعضهم خطأ هذا القارئ فإنه قال: «خطئ» بلفظ ما لم يسم فاعله، ولم يقل فقد أخطأ على أنه إذا صح أن من ذكره قرأ بذلك فلا سبيل إلى الخطأ إليه البتة. انتهى. الدر المصون.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يدل الأمر بتركه في سنبله على أن «تزرعون» في معنى: ازرعوا، بل «تزرعون»، إخبار غيب وأما «فذرؤه» فهو أمر إشارة بما ينبغي أن يفعلوه». قلت: هذا هو الظاهر ولا مدخل لأمره لهم بالزراعة، لأنهم يزرعون على عادتهم أمرهم أو لم يأمرهم، وإنما يحتاج إلى الأمر، فيما لم يكن من عادة الإنسان أن يفعل كتركه «في سنبله». انتهى الدر المصون.

أهلهم مسنداً إليهم، ﴿تَحْشِرُونَ﴾: تحرزون وتخبؤون، ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾: من الغوث أو من الغيث، يقال: غيثت البلاد، إذا مطرت؛ ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا، ﴿يَعْصِرُونَ﴾: بالياء والتاء: يعصرون العنب والزيتون والسَّمْسَم، وقيل: يحلبون الضروع، وقرئ: «يعصرون»: على البناء للمفعول، من عصره إذا أنجاه، وهو مطابق للإغاثه، ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى: ينجون، كأنه قيل: فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم، أي: يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً، وقيل: (يعصرون): يمتطرون، من أعصرت السحابة، وفيه وجهان: إما أن يضمن أعصرت معنى مطرت، فيعدى تعديته، وإما أن يقال: الأصل أعصرت عليهم، فحذف الجار وأوصل الفعل، تأول البقرات السماء، والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم؛ وذلك من جهة الوحي، وعن قتادة: زاده الله علم سنة.

فإن قلت: معلوم أن السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب، وإلا لم توصف بالانتهاء، فلم قلت: إن علم ذلك من جهة الوحي؟

قلت: ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً، وقوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: تفصيل لحال العام؛ وذلك لا يعلم إلا بالوحي.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ االْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك^(١)، وقدم سؤال النسوة؛ ليظهر براءة ساحته عما

(١) قال محمود: «إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك تظهر براءة ساحته عما قرف به... الخ» قال أحمد: ولقد مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة بقوله: ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف لأجبت الداعي، وكان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم من أنه هم بزيخا هما يؤاخذ به، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه وهو الخروج من السجن، مع أن الدواعي متوفرة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم أولى وأجدر، والله أعلم.

قرف^(١) به وسجن فيه؛ لثلاثا يتسلق به الحاسدون^(٢) إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه، ولثلاثا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم، وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها؛ قال عليه السلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقِفْ مَوَاقِفَ التَّهْمِ^(٣)» ومنه قال رسول الله ﷺ للمازين به في معتكفه وعنده بعض نسائه -: «هِيَ فَلَانَةٌ» (٧٨٦) اتقاء للتهمة، وعن النبي ﷺ: «لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَكَرَمِهِ وَصَبْرِهِ - وَاللَّهِ يَغْفِرُ لَهُ - حِينَ سُئِلَ عَنِ الْبَقَرَاتِ الْعِجَافِ وَالسَّمَانِ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَائُهُ مَا أَخْبَرْتُهُمْ حَتَّى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَائُهُ وَلَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثْتُ، لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ وَبَادَرْتُهُمْ الْبَابَ وَلَمَّا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ، إِنْ كَانَ لَحَلِيمًا ذَا أَنَاةٍ» (٧٨٧)، وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة،

٧٨٦ - أخرجه البخاري (٣٨٧/٦ - ٣٨٨) كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده حديث رقم (٣٢٨١)، ومسلم (٤١١/٧) نووي كتاب السلام باب بيان أنه يستحب لمن روي خالياً حديث رقم (٢١٧٥)، وأبو داود (٣٣٢/٢) كتاب الصوم باب المعتكف يدخل البيت لحاجته، (٢٩٨/٤)، (٢٩٩) «كتاب الأدب» «باب في حسن الظن» حديث رقم (٤٩٩٤)، وأحمد (٣٣٧/٦)، وابن ماجه (٥٦٥/١ - ٥٦٦) «كتاب الصيام» باب في المعتكف يزوره أهله في المسجد حديث رقم (١٧٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٢١/٤ - ٣٢٢)، باب المعتكف يخرج إلى باب المسجد، (٣٢٤/٤) «باب المرأة تزور زوجها في اعتكافه»، والبغوي في شرح السنة (٣٩٧/٧) «كتاب الرقاق» باب فتنة الشيطان حديث رقم (٤١٠٣).

قال الحافظ :

متفق عليه من حديث علي بن الحسين عن صفية بنت حيي قالت: كان رسول الله ﷺ يعتكف فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت فانقلبت فقام معي ليقبلني. وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار. فلما رأياه أسرع. فقال: على رسلكما، إنها صفية - الحديث» انتهى.

٧٨٧ - أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٤٩/١١) حديث رقم (١١٦٤٠)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢/٧)، وقال: رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك، وأخرجه الطبري (٢٣٣/٧) رقم (١٩٤١٠).

وللمحدث شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه الطبري (٢٣٢/٧) حديث رقم (١٩٤٠٣).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريقه عن ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة بهذا بدون قوله: «إن كان لحليماً ذاً أناة» وصله إسحاق من رواية إبراهيم بن يزيد الجوزي عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس بمعناه، وزاد: ولولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن حتى يبتغي الفرج من عند =

(١) قوله: «عما قرف به إلخ» أي اتهم به. والتسلق: التوسل (ع).

(٢) يأتي في الأحزاب.

ولم يقل: سله أن يفتش عن شأنهن؛ لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة القصة وفص الحديث^(١)؛ حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل، وقرئ: (النسوة): بضم النون، ومن كرمه، وحسن أدبه: أنه لم يذكر سيده مع ما صنعت به، وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: إن الله تعالى ﴿يَكِيدُهُنَّ عَلِيمٌ﴾: أراد أنه كيد عظيم، لا يعلمه إلا الله، لبعد غوره، أو استشهد بعلم الله على أنهن كدنه، وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهن، أي: هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه، ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾: ما شأنكن ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ﴾: هل وجدت من ميلاً إليك، ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾: تعجباً من عفته، وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها، ﴿قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ الْقَنَ حَصَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ثبت واستقر، وقرئ: (حصص): على البناء للمفعول، وهو من حصص البعير: إذا ألقى ثفثاته^(٢) للإناخة؛ قال [من الطويل]:

فَحَصَّحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثِفْثَاتِهِ وَنَاءً بِسَلْمَى نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا^(٣)
ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة^(٤)، واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق

= غير الله - يعني قوله: ﴿أذكرني عند ربك﴾، وأخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق إسحاق. وأما قوله: «إن كان لحليماً ذا أناة»، فأخرج الطبري من رواية أبي إسحاق عن رجل لم يسم عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يرحم الله يوسف، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعاً، إن كان لحليماً ذا أناة»، ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري، وعن الأعرج عن أبي هريرة. انتهى.

- (١) قوله: «وفص الحديث» في الصحاح «فص الأمر» مفصله (ع).
- (٢) قوله: «ألقى ثفثاته للإناخة» هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح (ع).
- (٣) لحميد بن ثور يصف بعيراً بأنه ألقى في الحجارة الصلبة أعضاءه التي يبرك عليها عند الإناخة، والصم جمع صماء أو أصم أي صلب. وناء: أي قام مثاقلاً بسلمى محبوبتي نواة ونهضة واحدة لم يتردد، ثم صمم وعزم على السير. وروي أن سمرة بن جندب أتى برجل عنين، فاشتري له جارية من بيت المال وأدخلها معه ليلة، فلما أصبح قال له: ما صنعت؟ قال: فعلت حتى حصصت فيه، فسألها فقالت: لم يصنع شيئاً. فقال: خل سبيلها.
- (٤) ينظر: ديوانه (١٩)، الألوسي ٢٥٩/١٢، اللسان: ص م م، حصص. الدر المنثور ١٩١/٤.
- (٤) قال محمود: «لا مزيد على شهادتهن له بالبراءة واعترافهن على أنفسهن... إلخ» قال أحمد: الصحيح من مذاهب أهل السنة تنزيه الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعاً، وتتبع الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل. وذهب منهم طائفة مع القدورية إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفرة. والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن =

بشيء مما قرفته به؛ لأنهنّ خصومه، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل، لم يبق لأحد مقال؛ وقالت المجبرة والحشوية^(١): نحن قد بقي لنا مقال، ولا بدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَتَى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾ (٥٢)

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾: من كلام يوسف^(٢)، أي: ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة؛ ليعلم العزيز ﴿أَتَى لَمْ أَخُنْهُ﴾: بظهر الغيب في حرمة، ومحل: ﴿بِالْغَيْبِ﴾: الحال^(٣)، من الفاعل أو المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه، خفي عن عينه، أو وهو غائب عني، خفي عن عيني، ويجوز أن يكون ظرفاً، أي: بمكان الغيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة، ﴿و﴾: ليعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾: لا ينفذه ولا يسدّه، وكأنه تعريض بامراته في خيانتها أمانة زوجها، / ١٧١ ب وبه في خيانتها أمانة الله، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته، وأنه لو كان خائناً، لما هدى الله كيده ولا سدّه.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٣)

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه؛ لثلا يكون لها مزيكاً وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدٌ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» (٧٨٨) وليبين أنّ ما فيه من

٧٨٨ - ورد ذلك من حديث جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعبد الله بن سلام.

الوقف عند قوله ﴿هَمَّتْ بِؤْ﴾ ثم يتبدأ ﴿وهم بها﴾. لولا أن رأى برهان ربه ﴿كما تقول﴾. قتلت زيدا لولا أنني أخاف الله، فلا يكون الهم واقعاً لوجود المانع منه، وهو رؤية البرهان. فإن كان الزمخشري يعرض بأهل السنة فقد بينا معتقدهم، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة، فشأنه وإياهم.

(١) قوله: «وقالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال ولا بد لنا من أن ندق في فروة» يريد أهل السنة وقوله نحن قد بقي لنا إلخ يعني أن حالهم في تفسير الهم والبرهان يمثل بذلك. والفروة: جلدة الرأس (ع).

(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَتَى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إلخ: من كلام يوسف عليه السلام والمعنى أن ذلك الجد في ظهور البراءة ليعلم... إلخ» قال أحمد: وإرادته لعموم الأحوال أدخل في تنزيهه، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه والتبري من تزكية النفس، فهو أدل على هذا المعنى من حمله على الحادثة الخاصة والله أعلم (ع).

(٣) قوله: «ومحل بالغيب الحال من الفاعل» لعله محل الحال أو النصب على الحال.

الأمانة ليس به وحده؛ وإنما هو بتوفيق الله، ولطفه، وعصمته، فقال: ﴿وَمَا أَرِيتُمْ نَفْسِي﴾: من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزيها، ولا يخلو، إِمَّا أَنْ يريد في هذه الحادثة، لما ذكرنا من الهمّ الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية، لا عن طريق القصد والعزم، وإِمَّا أَنْ يريد به عموم الأحوال، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾: أراد الجنس،

= فأما حديث أبي هريرة فرواه مسلم ١٧٨٢/٤ في الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٢٢٧٨/٣)، وأبو داود ٦٣٠/٢ في السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٣). وأحمد ٥٤٠/٢ والبغوي في شرح السنة ١١/٧ برقم (٣٥١٩) عنه مرفوعاً. «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع». وأما حديث أبي سعيد الخدري فرواه الترمذي ٢٨٨/٥ في التفسير، باب «ومن سورة بني إسرائيل» (٣١٤٨)، وفي المناقب، باب في فضل النبي ﷺ (٣٦١٥)، وابن ماجه ١٤٤٠/٢ في الزهد، باب ذكر الشفاعة (٤٣٠٨) عنه مرفوعاً «أنا سيد ولد آدم ولا فخر...» فذكره بنحو حديث أبي هريرة ورواه الترمذي في الموضع الأول مطولاً.

وقال في الموضعين: هذا حديث حسن صحيح.

وأما حديث أنس فرواه أحمد ١٤٤/٣ - ١٤٥، والدارمي ٢٧/١ - ٢٨ في المقدمة، باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل، وأبو يعلى واللفظ له (٤٣٠٥)، عنه مرفوعاً «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة ولا فخر، ولواء الحمد بيدي ولا فخر».

وأما حديث عبد الله بن سلام فرواه أبو يعلى (٧٤٩٣)، وابن جبان (٢١٢٧ - موارد) من طريق عمرو الناقد حدثنا عمرو بن عثمان الكلابي حدثنا موسى بن أعين عن معمر بن راشد عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن بشر بن شفاف عنه مرفوعاً.

وذكره الهيثمي في المجمع ٢٥٧/٨ وقال: رواه أبو يعلى والطبراني، وفيه عمرو بن عثمان الكلابي، وثقه ابن جبان على ضعفه وبقية رجاله ثقات.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، دون قوله: «ولا فخر»، وذكره بإثباتها أبو نعيم في الدلائل، من رواية سهيل عن أبيه عنه في أثناء حديث. ورواه ابن أبي عاصم في الآداب له من حديث عائشة بإثباتها. وأخرجه ابن جبان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وواثلة وأبي بكر الصديق. ورواه الترمذي من رواية أبي نضرة عن أبي سعيد بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر...» الحديث وقال: حسن. ورواه بعضهم عن أبي نضرة بن عامر. وهو عند أحمد وأبي يعلى وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل. وهما من طريق أبي نضرة قال: خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فذكره. ولحديث ابن عباس طريق آخر أخرجه الدارقطني في الأفراد من رواية خارجة بن مصعب. وهو ضعيف عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وأخرى عن ابن مردويه في أثناء حديث الإسراء بإسناد واه. وفي الباب عن عبادة بن الصامت عند الحاكم وإسناده منقطع، وعن أنس عن البزار. وفيه مبارك بن سحيمة. وهو متروك، وعند أبي يعلى، وفيه زيادة بن ميمون البخري، وعن عبد الله بن سلام أخرجه أبو يعلى والطبراني من رواية بشر بن شفاف عنه. وهو معلول. والمحفوظ عن بشر بن شفاف عن عبد الله بن عمرو. وعن جابر أخرجه الحاكم. وفيه القاسم بن محمد بن عبد الله بن عقيل. وهو متروك. انتهى.

أي: إِنَّ هَذَا الْجِنْسَ يَأْمُرُ بِالسُّوءِ، ويحمل عليه بما فيه من الشهوات، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾: إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة، ويجوز أن يكون: (ما رحم): في معنى: الزمن، أي: إلا وقت رحمة ربي، يعني: أنها أمانة بالسوء في كل وقت وأوان، إلا وقت العصمة، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة؛ كقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُقْدُونَ إِلَّا رَحْمَةً﴾ [يس: ٤٤]، وقيل معناه: ذلك ليعلم أنني لم أخنه؛ لأن المعصية خيانة، وقيل: هو من كلام امرأة العزيز^(١)، أي: ذلك الذي قلت: ليعلم يوسف أنني لم أخنه، ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة؛ فإني قد خنته حين قرفته^(٢)، وقلت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن - تريد الاعتذار مما كان منها - إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي: إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: استغفرت ربها واسترحمتها مما ارتكبت.

فإن قلت: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟

قلت: كفى بالمعنى دليلاً قائداً^(٣) إلى أن يجعل من كلامه؛ ونحوه قوله: ﴿قَالَ أَمَلْتُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ﴾ كلام فرعون ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [يُؤَيَّدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ] [الأعراف: ١٠٩ - ١١٠] بسحره، ثم قال ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم، وعن ابن جريج: هذا من تقديم القرآن وتأخيرها، ذهب إلى أن: (ذلك ليعلم): متصل بقوله: ﴿فَتَشْكَلُهُ مِمَّا بَالَ اللَّسَوُفَ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، ولقد لفقت المبطل^(٤) روايات مصنوعة^(٥)؛ فزعموا أن يوسف حين قال: ﴿إِنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: قال له جبريل: ولا حين

(١) عاد كلامه. قال: «وقيل ذلك كله كلام امرأة العزيز أي ذلك الذي قلت... إلخ» قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه إذا ألجأ إليه محوج، كقوله ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ إذ لا يمكن جعله من قول الملائكة بوجهه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون. وأما هذه الآية فهي تتلو قوله ﴿وَأَنْتُمْ لَمَنِ الْعَدِيقِينَ﴾ إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً، ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في (ليعلم) على العزيز وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وأنه لما تحتمت براءته بقولها بعث يخرج من السجن، فذلك قوله ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي بِهَذَا اسْتَخْلَفْتُ لِنَفْسِي﴾.

(٢) قوله: «حين قرفته» أي اتهمته (ع).

(٣) قوله: «دليلاً قائداً» أي مؤدياً (ع).

(٤) قوله: «ولقد لفقت المبطل روايات مصنوعة» يريد أهل السنة الذين سماهم المجبرة فيما مر (ع).

(٥) عاد كلامه. قال: «ولقد لفقت المبطل روايات مصنوعة... إلخ» قال أحمد: ولقد صدق في التوريك على نقله هذه الزيادات بالبهت، وذلك شأن المبطل من كل طائفة، كما لفقت القدريّة على =

هممت بها، وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حلت تكة سراويلك يا يوسف؛ وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله^(١).

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ أَسْتَحْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

يقال: استخلصه واستخصه، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾: وشاهد منه ما لم يحتسب، ﴿قَالَ﴾: أيها الصديق، ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾: ذو مكانة ومنزلة، ﴿أَمِينٌ﴾: مؤتمن على كل شيء، روي أن الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله، «اللهم، أعطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تغم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات»، وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى^(٢)، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن، ولبس ثياباً جدد^(٣)، فلما دخل على الملك، قال: «اللهم، إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه، ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه، وقال: أيها الصديق، إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فقال: رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً، وقال له: من حقا أن تجمع الطعام في الأهرأ^(٤)، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٥﴾﴾

﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾: ولني خزائن أرضك، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾: أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف؛ وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبه الملوك ممن يولونه؛ وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق، وبسط

= قصة موسى حين طلب الرؤية وخر صعقاً أن الملائكة جعلت تلكزه بأرجلها وتقول: يا ابن النساء الحيس طمعت في رؤية رب العزة، كل ذلك ليم لهم غرضهم في أنه طلب محالاً في العقول على الله تعالى، ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل، والله الموفق.

(١) قوله: «وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله» أي اتهامهم بما لم يفعله. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «البلوى» عبارة النسفي البلواء (ع).

(٣) قوله: «ولبس ثياباً جدد» في الصحاح: جديد وجدد، كسرير وسرر (ع).

(٤) قوله: «أن تجمع الطعام في الأهرأ» كذا عبارة النسفي أيضاً ولكنه ليس في الصحاح بل الذي فيه هراء البرد يهراء هراً أي اشتد عليه حتى كاد يقتله وهري المال وهري القوم فهم مهروئون اه فاصل الإهراء مواضع يشتد فيها البرد (ع).

العدل، والتمكن مما لأجله تبعت الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية؛ ابتغاء وجه الله، لا لحب الملك والدنيا، وعن النبي ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ، لَوْ لَمْ يَقُلْ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، لَأَسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ، وَلَكِنَّهُ أَخَّرَ ذَلِكَ سَنَةً» (٧٨٩).

فإن قلت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر، ويكون تبعاً له، وتحت أمره وطاعته؟

قلت: روى مجاهد أنه كان قد أسلم، وعن قتادة: هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

﴿وَكَذَلِكَ﴾: ومثل ذلك التمكين الظاهر، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾: في أرض مصر، روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين، ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾: قرئ: بالنون والباء، أي: كل مكان أراد أن يتخذ منزلاً ومتبواً له؛ لم يمنع منه؛ لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه، روي أن الملك توجه، وختمه بخاتمه، ورداه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، روي أنه قال له: أما السرير: فأشد به ملكك، وأما الخاتم: فأدبر به/ ١٧٢ أمرك، وأما التاج: فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال: قد وضعته إجلالاً لك، وإقراراً بفضلك، فجلس على السرير وهانت له الملوك، وفوض الملك إليه أمره، وعزل قطفير، ثم مات بعده، فزوجه الملك امرأته زليخا، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشا، وأقام العدل

٧٨٩ - أخرجه الواحدي في «الوسيط» (٦١٨/٢ - بتحقيقنا) أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد الثقفي نا مخلص بن جعفر نا الحسن بن علوية نا إسماعيل بن عيسى نا إسحاق بن بشر عن جوير عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشير عن جوير عن الضحاك عنه، وهذا إسناد ساقط. انتهى.

بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك، وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياح والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا: والله، ما رأينا كاليوم ملكاً أجَلّ ولا أعظم منه، فقال للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني فما ترى؟ قال: الرأي رأيك، قال: فإني أشهد الله وأشهدك أنني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير؛ تقسيطاً بين الناس، وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتسب بنيامين، ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾: بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم، ﴿مَنْ شَاءَ﴾: من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك، ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: أن نأجرهم في الدنيا.

﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ (٥٧)

﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾: لهم، قال سفيان بن عيينة: المؤمن: يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر: يعجل له الخير في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨)

لم يعرفوه؛ لطول العهد^(١)، ومفارقتهم إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم؛ لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله. التي فارقه عليها طريحاً في البئر، مشرياً بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأنّ الملك مما يبذل الزّيّ ويلبس صاحبه من التهيّب والاستعظام ما ينكر له المعروف، وقيل: رأوه على زيّ فرعون^(٢): عليه ثياب الحرير، جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج، فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج؛ وإنما عرفهم؛ لأنه فارقههم وهم رجال ورأى زيهماً قريباً من زيهم إذ

(١) قال محمود: «إنما أنكره لبعد العهد وتغيير الصورة... إلخ» قال أحمد: وتوارد القادمين في دخولهم عليه ومعرفته لهم عند ذلك، تدل على أن مجرد دخولهم عليه استعقبته المعرفة بلا مهلة، والله أعلم.

(٢) قوله: «وقيل رأوه على زيّ فرعون» إن أريد فرعون موسى، فلم يكن قد وجد. وعبرة الخازن: زيّ ملوك مصر عليه ثياب... إلخ (ع).

ذاك، ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمل ويتفطن، وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرّفوا له.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآلَا تَرَوْتَنِي أَنِّي أَوْفِي الْأَكْثَلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزِيلِينَ﴾ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أصلحهم بعدتهم، وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون، وأوفر ركائبهم بما جاؤوا من الميرة، وقرئ: (بجهازهم): بكسر الجيم، ﴿قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾: لا بد من مقدمة سبقت له معهم، حتى اجتر القول هذه المسألة، روي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم؟ فأني أنكركم، قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجننا نمتار، فقال: لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلاد؟ قالوا: معاذ الله، نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء، اسمه: يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك، قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأن الذي تقولون حق؟ قالوا: إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة واثنوني بأخيك من أبيكم، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون - وكان أحسنهم رأياً في يوسف - فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم، ﴿وَلَا تَقْرُبُونِ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون داخلاً في حكم الجزاء مجزوماً، عطفاً على محل قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تحرّموا ولا تقربوا، وأن يكون بمعنى النهي.

﴿قَالُوا سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١)

﴿سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: سنخادعه عنه، وسنجهده ونحتال حتى ننزعه من يده، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾: وإنا لقادرون على ذلك لانتعابى به، أو: وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ أَجْمَلُوا بِضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

﴿لِفَتْنَيْنِهِ﴾، وقرئ: (لفتيته)، وهما جمع فتى، كإخوة وإخوان في أخ، و«فعلة»:

للقلة، و«فعلان»: للكثرة، أي: لغلمانة الكياليين، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾: لعلمهم يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين، ﴿إِذَا أَنْقَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾: وفرغوا ظروفهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم، وقيل: تخوف ألا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به، وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنًا، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: معنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لعلمهم يردونها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾ (١٣)

﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يريدون: قول يوسف، فإن لم تأتوني به، فلا كيل لكم عندي؛ لأنهم إذا أُنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل، ﴿نَكْتَلُ﴾: نرفع المانع من الكيل، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه، وقرئ: (يكتل)، بمعنى: يكتل، أخونا، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، أو يكن سبباً للاكتيال، فإن امتناعه بسببه.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٤)

﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يريد: أنكم قلتم في يوسف، ﴿وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾: كما تقولونه في أخيه، ثم ختمتم بضمائكم، فما يؤمني من مثل ذلك، ثم قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾: فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم، و(حافظًا): تمييز؛ كقولك: هو خيرهم رجلاً، والله ذره فارساً، ويجوز أن يكون حالاً، وقرئ: (حفظًا)، وقرأ الأعمش: فالله خير حافظ، وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: فأرجو أن ينعم علي بحفظه ولا يجمع علي/ ١٧٢ ب مصيبتين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾ (١٥)

وقرئ: (ردت إلينا): بالكسر، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء، كما في: قيل وبيع، وحكى قطرب ضرب زيد، على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد، ﴿مَا نَبْغِي﴾: للنفي، أي: ما نبغي في القول، وما ننزid فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من

أل يعقوب ما أكرمنا كرامته، أو ما نبتغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو على الاستفهام، بمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا؟ وفي قراءة ابن مسعود: «ما تبغي»: بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه: أي شيء نطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الشاهد على صدقنا؟ وقيل: معناه: ما نريد منك بضاعة أخرى، وقوله: ﴿هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: جملة مستأنفة موضحة لقوله: (ما نبغي)، والجملة بعدها معطوفة عليها، على معنى: إن بضاعتنا ردت إلينا، فنستظهر بها، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: في رجوعنا إلى الملك، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾: فما يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا، فأَي شيء نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا؟ وإنما قالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقيط.

فإن قلت: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فأما إذا فسرت بالكذب والتزيد في القول، كانت الجملة الأولى وهي قوله: ﴿هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: بياناً لصدقهم، وانتفاء التزيد عن قيلهم، فما تصنع بالجمل البواقي؟

قلت: أعطفها على قوله: (ما نبغي): على معنى: لا نبغي فيما نقول، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: ونفعل كيت وكيت، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ؛ كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا، كما تقول: سعت في حاجة فلان، واجتهدت في تحصيل غرضه، ويجب أن أسعى، وينبغي لي ألا أقصر، ويجوز أن يراد: ما نبغي، وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع؛ بياناً لأنهم لا يبالغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه، وهو وجه حسن واضح، ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: ذلك مكيل قليل لا يكفيننا، يعنون: ما يكال لهم، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير، أي: ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاضمه، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد؛ كقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ [يوسف: ٥٢]^(١).

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (١٦)

(١) قوله: «كقوله ذلك ليعلم» هل المراد أن جواز كونه من كلام يعقوب، لأن المعنى يؤدي إليه، كما جاز في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ كونه من كلام يوسف؛ لأن المعنى يقود إليه، فتدبر (ع).

﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾: مناف لحالي^(١) - وقد رأيت منكم ما رأيت - إرساله معكم،
 ﴿حَتَّى تُوْتُوْنَ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾: حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله؛
 وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد، وقد أذن الله
 في ذلك فهو إذن منه، ﴿لَتَأْتِيََنَّ بِهِ﴾: جواب اليمين؛ لأن المعنى: حتى تحلفوا لتأتني
 به، ﴿إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾: إلا أن تغلبوا^(٢) فلم تطبقوا الإتيان به، أو إلا أن تهلكوا.

فإن قلت: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال؟

قلت: (أن يحاط بكم): مفعول له، والكلام المثبت الذي هو قوله: (لتأتني به) في
 تأويل النفي، معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، أي: لا تمتنعون منه لعله
 من العلل إلا لعله واحدة: وهي أن يحاط بكم، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له،
 والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده، فلا بد من تأويله بالنفي؛ ونظيره من
 الإثبات المتأول بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت، تريد: ما أطلب
 منك إلا الفعل، ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾: من طلب الموثق وإعطائه، ﴿وَكَيْلٌ﴾: رقيب مطلع.

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمْتُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلِمَنَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

(١) قال محمود: «معناه أن إرساله معكم مناف... إلخ» قال أحمد: لن للنفي المؤكد. وأما قول الزمخشري في المنافاة له، فله وراء ذلك غرض إنما يطلع عليه من قتل كلامه علماً، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على الله تعالى، على أن قوله تعالى ﴿لَنْ تَرَنِ﴾ معناه أن الرؤية منافية لحالي، وجعل هذه المنافاة من مقتضى (لن) ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت، كل ذلك لتمرن الأذهان على أن هذا مقتضى (لن) وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك.

(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله ﴿لَتَأْتِيََنَّ بِهِ﴾ إلا أن يحاط بكم» معناه إلا أن تغلبوا فلا تطبقوا الإتيان... إلخ» قال أحمد: وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفي، لأن المستثنى منه مسكوت عنه، والنفي عام، إذ يلزم من نفي الإتيان مثلاً نفي جميع العوارض اللاحقة به ضرورة، فكأنه لعمومه مقرون بذكر المستثنى منه، ولا كذلك الإتيان؛ فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال؛ لأنه لا يتوقف إلا على أحدها، والله أعلم. ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم «البلاء موكل بالمنطق» فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف: وأخاف أن يأكله الذئب، فابتلي من ناحية هذا القول. وقال ههنا ثانياً: إلا أن يحاط بكم، أي تغلبوا عليه، فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه.

ولأنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد؛ لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة^(١)، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع، وقال هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتیان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك، وقربهم، وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم؛ ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس.

فإن قلت: هل للإصابة بالعين وجه تصح عليه؟

قلت: يجوز أن يحدث الله - عز وجل - عند النظر إلى الشيء والإعجاب به، نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من الله، وامتحاناً لعباده، ليطيّر المحققون من أهل الحشو^(٢)، فيقول المحقق: هذا فعل الله، ويقول الحشوي: هو أثر العين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١]، الآية، وعن النبي ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ يَعُوذُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فَيَقُولُ: أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ... مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَأَمَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ» (٧٩٠)، ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ يعني: إن أراد الله بكم سوءاً، لم ينفعكم، ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيبكم لا محالة، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أُولَهُمْ﴾ أي: متفرقين، ﴿مَا

٧٩٠ - أخرجه البخاري (٦١/٧) كتاب أحاديث الأنبياء باب (١٠) حديث (٣٣٧١) وأبو داود (٢٣٥/٤) كتاب السنة: باب في القرآن حديث (٤٧٣٧) والترمذي (٣٩٦/٤) كتاب الطب: باب (١٨) حديث (٢٠٦٠) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٠٦، ١٠٠٧) وابن ماجه (١١٦٤/٢) كتاب الطب: باب ما عوذ به النبي ﷺ حديث (٣٥٢٥) وأحمد (٢٣٦/١، ٢٧٠) وابن أبي شيبة (٤٨/٧)، ١٠/٣١٥ وابن جبان (١٠١٢، ١٠١٣) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري وأصحاب السنن من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هذا وأتم منه. انتهى.

- (١) قوله: «كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة اشتهرهم» في الصحاح: الشارة: اللباس والهيئة. وفيه. اشتهر الأمر، أي وضح. ولفلان فضيلة اشتهرها الناس (ع).
(٢) قوله: «ليطيّر المحققون من أهل الحشو» إن كان مراده أهل السنة، فهم يقولون: تأثير العين من قبيل ربط الأسباب بالمسببات، كربط النار بالإحراق، فالسبب مؤثر في الظاهر، والله هو الفاعل في الحقيقة. قال النسفي: وأنكر الجبائي العين اه وهو من مشايخ المعتزلة (ع).

كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ: رأي يعقوب ودخولهم متفرقين شيئاً قط؛ حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيههم بوجودان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾: استثناء منقطع، على معنى: ولكن حاجة، ﴿فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَلَهَا﴾: وهي شفقتة عليهم، وإظهارها/ ١٧٣ بما قاله لهم ووصاهم به، ﴿وَالَّذِي لَدُو عِلْرٍ﴾ يعني قوله: (وما أغني عنكم)، وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩)

﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾: ضم إليه بنيامين، وروي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً، فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله، قال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده؟ فقال: لي عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف، وقام إليه، وعانقه، وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾: يوسف، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: فلا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: بنا فيما مضى؛ فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك، وعن ابن عباس: تعرّف إليه، وعن وهب: إنما قال له: أنا أخوك بدل أخيك المفقود، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم، وروي أنه قال له: أنا لا أفارقك، قال: قد علمت اغتنام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، قال: فإني أدس صاعي في رحلك، ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته، ليتها لي ردك بعد تسريحك معهم، قال: افعل.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠) ﴿قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ (٧١) ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُرَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢)

﴿السَّقَايَةَ﴾: مشربة يسقى بها وهي الصواع، قيل: كان يسقى بها الملك، ثم جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها، وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك، وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم، وقيل: كانت من فضة ممّوّه بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر، ﴿ثُمَّ أَذَنَ مُؤَذِّنٌ﴾: ثم نادى مناد، يقال: آذنه أعلمه، وأذن: أكثر الإعلام، ومنه المؤذن؛ لكثرة ذلك منه، روي: أنهم ارتحلوا، وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا، ثم قيل لهم ذلك، والعيير: الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنها تعير: أي: تذهب وتجيء، وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة: عير، كأنها جمع عير، وأصلها: فعل كسقف وسقف، فعل به ما فعل ببيض وعيد^(١)، والمراد: أصحاب العير؛ كقوله: يا خيل الله اركني، وقرأ ابن مسعود: «وجعل السقاية»: على حذف جواب لما، كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم، وجعل السقاية في رحل أخيه، أمهلهم حتى انطلقوا، ثم أذن مؤذن، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «تفقدون»: من أفقدته إذا وجدته فقيداً، وقرئ: صواع، وصاع، وصوع، وصوع: بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيذٌ﴾: يقوله المؤذن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيل، أُوذِيه إلى من جاء به، وأراد وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصله.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿٧٣﴾

﴿تَاللَّهِ﴾: قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم؛ وإنما قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾: فاستشهدوا بعلمهم، لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرّتي مجيئهم ومداخلتهم للملك، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحلهم مكعومة^(٢)؛ لثلاث تناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق، ولأنهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم، ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾: وما كنا قط نوصف بالسرقة، وهي منافية لحالنا.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ

كَذَلِكَ نَجْزِي الْفٰلِظِينَ ﴿٧٥﴾

﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾: الضمير: للصواع، أي: فما جزاء سرقة، ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾: في

(١) قوله: «ما فعل ببيض وعيد» لعله: وغيد، بإعجام الغين، وهو جمع غيداء أي ناعمة. أو أغيد، بمعنى وسنان مائل العنق، كذا في الصحاح، فليحرر لفظ المصنف (ع).

(٢) قوله: «وأفواه رواحلهم مكعومة» يقال: كعمت البعير، إذا شددت فمه بالكعام، وهو شيء يجعل في فم البعير عند هياجه، كذا في الصحاح. (ع)

جحدوكم وأذعائكم البراءة منه، ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة؛ فلذلك استفتوا في جزائه، وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾: تقرير للحكم، أي: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير؛ كقولك: حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه، فذلك حقه، أي: فهو حقه؛ لتقرر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه^(١)، ويجوز أن يكون: (جزاؤه): مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمَر، والأصل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو، كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه، فهو هو، يرجع الضمير الأول: إلى من، والثاني: إلى الأخ، ثم نقول: «فهو أخوه»: مقيماً للمظهر مقام المضمَر، ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف، أي: المسؤول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: من وجد في رحله فهو جزاؤه، كما يقول: من يستفتي في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾^(٢) [المائدة: ٩٥].

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦)

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾: قيل: قال لهم من وكل بهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين؛ لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه، فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله، لا تتركه حتى تنظر في رحله؛ فإنه أطيّب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه، وقرأ الحسن: «وعاء أخيه»: بضم الواو، وهي لغة، وقرأ سعيد بن جبیر: «إعاء أخيه»: بقلب الواو همزة.

فإن قلت: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنثه؟

(١) قوله: «من استحقاقه وتلزمه. ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ» سيذكر أن حكم السارق في دين ملك مصر: أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهو متكلف، إذ تصير الجملة من قوله: «المسؤول عنه جزاؤه»، على هذا التقدير ليس فيه كبير فائدة، إذ قد علم من قوله: «فَمَا جَزَاؤُهُ»، أَنَّ الشَّيْءَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ جَزَاءٌ سَرَقْتُهُ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي نَطْقِهِمْ بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْمِثَالِ الَّذِي مِثْلُ بِهِ مِنْ قَوْلِ الْمُسْتَفْتَى». قُلْتُ: قوله: «ليس فيه كبير فائدة» ممنوع، بل فيه فائدة الإضمار المذكور في علم البيان، وفي القرآن أمثال ذلك. انتهى. الدر المصون.

قلت: قالوا: رجع بالتأنيث على السقاية، أو أنث الصواع؛ لأنه يذكر ويؤنث، ولعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعاً، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية، وفيما يتصل بهم منه صواعاً، ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا﴾: مثل ذلك الكيد العظيم كدنا، ﴿قَالَ يُوسُفُ﴾ يعني: علمناه إياه وأوحينا به إليه، ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾: تفسير للكيد وبيان له؛ لأنه كان في دين ملك مصر، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ / ١٧٣ ب أي: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه، ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾: في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه، وقرئ: «يرفع»: بالياء، ودرجات بالتنوين، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾: فوفقه أرفع درجة منه في علمه، أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم، وهو الله عز وعلا.

فإن قلت: ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً، فمن أي وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان، وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾؟

قلت: هو في صورة البهتان، وليس ببهتان في الحقيقة؛ لأن قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾: تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف، وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: (إن كنتم كاذبين)؛ فرض لانتفاء براءتهم، وفرض التكذيب لا يكون تكديماً، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب، كما صرح لهم بالتسريق، لكان له وجه؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَةٍ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية؛ كقوله - تعالى - لأيوب - عليه السلام -: ﴿رَبُّكَ يَدِيَكَ مَضْفًا﴾ [ص: ٤٤]، ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم - عليه السلام -: هي أحتي؛ لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفساد، وقد علم الله - تعالى - في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة، فجعلها سلماً وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة، وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

﴿أَخٌ لَّهُ﴾: أرادوا يوسف؛ روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين، نكس إخوته رؤوسهم حياء، وأقبلوا عليه وقالوا له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسودت وجوهنا، يا بني راحيل، ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا

يزال منكم عليهم البلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكُم، واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة، فقيل: كان أخذ في صباه صنماً لجده أبي أمه، فكسره، وألقاه بين الجيف في الطريق، وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه، وقيل: كانت في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاهما السائل، وقيل: كانت لإبراهيم - عليه السلام - منطقة يتوارثها أكبر ولده، فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف - وهي عمته - بعد وفاة أمه، وكانت لا تصبر عنه، فلما شب، أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه، وقالت: فقدت منطقة إسحاق. فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أفعَل به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت، ﴿فَأَسْرَهَا﴾: إضمار على شريطة التفسير، تفسيره: ﴿أَنْتَ سَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ وإنما أنت لأن قوله: (أنتم شر مكاناً): جملة أو كلمة، على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة، كأنه قيل: فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أَنْتَ سَرٌّ مَّكَانًا﴾، والمعنى: قال في نفسه: أنتم شر مكاناً؛ لأن قوله: ﴿قَالَ أَنْتَ سَرٌّ مَّكَانًا﴾: يدل من أسرها، وفي قراءة ابن مسعود: «فأسرها»: على التذكير، يريد القول أو الكلام، ومعنى: (شر مكاناً): أنتم شر منزلة في السر؛ لأنكم سارقون بالصحة، لسرقتكم أخاكم من أبيكم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تصفون.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

استعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السن أو كبير القدر، وأن بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولداً له قد هلك وهو عليه ثكلان^(١)، وأنه مستأنس بأخيه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾: فخذ بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: إلينا فأتهم إحسانك، أو من عادتكَ الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾: هو كلام موجه، ظاهره: أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد

(١) قوله: «قد هلك وهو عليه ثكلان» أي حزين أسيف على فقد ولده (ع).

الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم، وباطنه: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي وَأَوْحَى إِلَيَّ بِأَخْذِ بَنِيَامِينَ واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الرحي، ومعنى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ﴾: نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من، و﴿إِذَا﴾: جواب لهم وجزاء؛ ^(١) لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا.

﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ ابْنُ آدَمَ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

﴿اسْتِئْذِنُوا﴾: يسئوا، وزيادة السين والتاء في المبالغة؛ نحو: ما مرّ في استعصم، و«النجي»: على معنيين: يكون بمعنى: المناجي، كالعشير والسمير بمعنى: المعاصر والمسامر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَرَّقْنَاهُ يُحْيَا﴾ [مريم: ٥٢]؛ وبمعنى المصدر الذي هو التناجي، كما قيل: النجوى، بمعناه، ومنه قيل: قوم نجى، كما قيل: ﴿وَإِذْ هُمْ يُجَوَّى﴾ [الإسراء: ١٧]؛ تنزيلاً للمصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال: هم نجى؛ كما قيل: هم صديق؛ لأنه بزنة المصادر وجمع أنجية؛ قال [من الرجز]:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَّةً ^(٢)

(١) قوله: «وَإِذَا جَوَابَ لَهُمْ وَجْزَاء، أَي لِقَوْلِهِمْ ﴿فَخُذْ أَعَدْنَا مَكَانَهُ﴾ (ع).

(٢) إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَّةً واضطرب القوم اضطراب الأرضية
وشد فوق بعضهم بالأرويه هناك أوصيني ولا توصي بيه

من أبيات الحماسة. و«ما» زائدة. والأنجية. جمع نجى بمعنى المناجي، كالسمير والجلس والعشير، بمعنى المفاعل. أو النجي: مصدر كالدوي والأزيز والنشيج والنشيج والصهيل، كلها أنواع من الصوت، فيكون على حد «زيد عدل» ولو قلت: إنه جمع نجاء مصدر ناجاه، كقتال مصدر قاتله لجاز، وكان كالأرضية جمع رشاء وهو حبل الاستقاء، والأرويه جمع رواء وهو حبل الارتواء والاستقاء أيضاً، أي: كانوا فرقاً متناجين ومتشاورين فيما نزل بهم واضطربوا قياماً وقعوداً وذهاباً وإياباً، كاضطراب الأرضية على الماء. ويروى: واضطربت أعناقهم كالأرضية. وشد: مبني للمجهول، أي: شد بعضهم بعضاً وشمره وحزمه بحبال الاستقاء، كناية عن استعدادهم للحرب. ويبعد كونه كناية عن الاستعداد للاستقاء في الزمن الجذب هناك، أي: في ذلك الزمان أو المكان. قيل: أو فيها أكون شجاعاً صبوراً، فأوصيني بغيري ولا توصي بغيري بيه. وظاهر البيت جواز الإخبار عن اسم إن بجملة إنشائية وليس كذلك، بل هو على التأويل كما ترى. والخطاب لمؤنثة. ويجوز: أنه لمذكر. وثبوت الياء في الفعلين للإشباع. والهاء في «بيه» للسكت. فهذا كناية عن =

ومعنى «وَأَخْصُوا»: اعتزلوا وانفردوا عن الناس، خالصين لا يخالطهم سواهم، «فِيَّيَا»: ذوي نجوى، أو فوجاً نجياً، أي: مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً، وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجياً؛ لاستجماعهم لذلك، وإفاضتهم فيه بجدّ واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم، على أيّ صفة يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيه؟ كقوم تعايا بما دهمهم من الخطب، فاحتاجوا إلى التشاور، «كَيِّدُهُمْ»: في السنّ وهو روبيل، وقيل: رئيسهم وهو شمعون، وقيل: كبيرهم في العقل والرأي وهو يهوذا، «مَا قَرَطْتَهُ فِي يُوسُفَ»: فيه وجوه: أن تكون «ما»: صلة، / ١٧٤ أي: ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف، ولم تحفظوا عهد أبيكم، وأن تكون مصدرية، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف، وهو (من قبل)، ومعناه: ووقع من قبل تفريطكم في يوسف، أو النصب عطفاً على مفعول: (ألم تعلموا)، وهو: (أن أباكم)؛ كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف^(١)، وأن تكون موصولة بمعنى: ومن قبل هذا ما فرطتموه، أي: قدّمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة، ومحلّه: الرفع أو النصب على الوجهين، «فَلَنْ أَرْجَحَ الْأَرْضَ»: فلن أفارق أرض مصر، «حَتَّى يَأْذَنَ لِي إِلَى أَبِي»: في الانصراف إليه؛ «أَزْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي»: شجاعته وتجلده. أو كناية عن كرمه على البعد.

البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي. ينظر: اللسان والصحاح «نجا»، أساس البلاغة ٤٤٨، وجمهرة اللغة ص ٢٣٥، ٨٠٩، وخزانة الأدب ٢٤٧/١٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٦٥٦، وشرح شواهد المغني ٩١٤، المغني ٥٨٥/٢، وأمالى ابن الشجري ٢٥/٢، وروح المعاني ١٣/٣٥، ومعاني الزجاج ١٢٤/٣، والبحر المحيط ٣٣١/٥، والدر المصون ٢٠٥/٤.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا الذي ذهب إليه ليس بجيد، لأنّ فيه الفصل بالجاء والمجرور بين حرف العطف الذي هو على حرف واحد، وبين المعطوف، فصار نظير «ضربت زيداً وبسيف عمراً وقد رَعِمَ أبو علي الفارسي: «أنه لا يجوز ذلك إلا في ضرورة شعر». قُلْتُ: أيضاً هذا الرّدُّ سبقه إليه أبو البقاء، ولم يرتضه، فقال: وقيل هو ضعيف، لأنّ فيه الفصل بين حرف العطف والمعطوف، وقد بينا في سورة النساء أن هذا ليس بشيء. قُلْتُ: يعني أن منع الفصل بين حرف العطف والمعطوف ليس بشيء. وقد تقدم إيضاح ذلك وتقريره في سورة النساء كما أشار إليه أبو البقاء.

ثم قال الشيخ: وأما تقدير الزمخشري: «وتفريطكم من قبل في يوسف، فلا يجوز، لأنّ فيه تقديم معمول المصدر المنحل بحرف مصدري والفعل عليه، وهو لا يجوز». قُلْتُ: ليس في تقدير الزمخشري شيء من ذلك لأنه لما صرح بالمقدر آخر الجارين والمجرورين عن لفظ المصدر المقدر، كما ترى، وكذا هو في سائر النسخ، وكذا ما نقله الشيخ عنه بخطه، فأين تقديم معمول على المصدر؟ ولو رد عليه وعلى ابن عطية بأنه يلزم من ذلك تقديم معمول الصلة على الموصول لكان رداً واضحاً، فإنّ «مِنْ قَبْلُ» متعلق بـ«قَرَطْتُمْ» وقد تقدم على «ما» المصدرية، وفيه خلاف مشهور. انتهى. الدر المصون.

بالخروج منها، أو بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْمَوَكِّينَ﴾؛ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّا بِنَاكَ سَرَقْنَا وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١)

وقرئ: (سُرِق) أي: نسب إلى السرقة، ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾: عليه بالسرقة، ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾: من سرقة (١) وتيقناه؛ لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق (٢)، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ومن قرأ: (سُرِق)، فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسرير، وما كنا للغيب: للأمر الخفي حافظين، أسرق بالصحة أم دس الصاع في رحله ولم يشعر.

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣)

﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: هي مصر، أي: أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة، ﴿وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقَلْنَا فِيهَا﴾: وأصحاب العير، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب، وقيل: من أهل صنعاء، معناه: فرجعوا إلى أبيهم، فقالوا له ما قال لهم أخوهم: ف ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ

(١) قال محمود: «معناه: وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من سرقة... إلخ» قال أحمد: إما أن يكون مقتضى شرعهم حيث أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد إنكاره يوجب له أحكام السارق فيكون العلم على ظاهره إذاً. وإما أن لا يكون كذلك، فهذا القدر من مجرد وجوده في رحله لا يوجب علم كونه سارقاً. وغايته أن يفيد ظناً بيناً، فيكون المراد بالعلم هنا الظن. وقد ورد مثله، ويكون قولهم ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ تنبيهاً على أن مستندهم فيما قالوه ظن بمقتضى ظاهر الحال. وأما كشف باطن الأمر الموجب للعمل فليسوا يدعونه عليه.

(٢) عاد كلامه. قال: «وقولهم ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ معناه: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق... إلخ» قال أحمد: وإنما تلتزم القراءتان على التأويل الذي ذكرته، وهو أنهم إنما أضافوا إليه السرقة ظناً بمقتضى ظاهر الحال، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة فقالوا: وما كنا للغيب حافظين فالقراءتان على التأويل المذكور يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه. وأما على غيره من التأويلات المذكورة فلا تنتظم القراءتان لأن مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة علماً. ومقتضى الثانية التبري من الجزم، والله أعلم.

لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً^(١) : أردتموه^(١)، وإلا فما أدري ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم، ﴿بِهِمْ جَمِيعاً﴾ : بيوسف وأخيه وروبيل أو غيره، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ : بحالي في الحزن والأسف، ﴿الْعَكِيدُ﴾ : الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤)

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ : وأعرض عنهم؛ كراهة لما جاؤوا به، ﴿يا أسفي﴾ : أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة، والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع، ونحوه: ﴿أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِينَ﴾ [التوبة: ٣٨]، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوِي عَنْهُ﴾ [النمل: ٢٢]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ﴾ [النمل: ٢٢]، ﴿من سبيل بنينا﴾^(٢) [النمل: ٢٢] وعن النبي ﷺ: «لَمْ تَغْطِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ - إِنَّا اللَّهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - عِنْدَ الْمُصِيبَةِ إِلَّا أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٧٩١)، ألا ترى إلى

٧٩١ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٧/٢)، والطبري في تفسيره (٢٧٥/٧) رقم (١٩٦٦٤)، =

(١) قال محمود: «إن هذا شيء أردتموه... إلخ» قال أحمد: وهذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كان قائلاً يقول: هم في الواقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الواقعة الثانية فلم يتعمدوا في حق بنيامين سوءاً، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ كما قال لهم أولاً، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير فلا بد من زيد بسط في الجواب فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قمن باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده لا من دين غيره من الناس ولا من عاداتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا واتهام من هو بحيث تنطرق التهمة إليه لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد. ويحتمل - والله أعلم - أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك ففتواهم إذاً غير محررة، وهو إشعار بأنهم كانوا حراساً على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم. وقوله لهم (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأول، والله المستعان.

(٢) قال السمين الحلبي: قلت: ويسمى هذا النوع «تجنيس التصريف»، وهو أن تشترك الكلمتان في =

يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع؛ وإنما قال يا أسفي».

فإن قلت: كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث، والرزء الأحداث أشد على النفس وأظهر أثراً؟

قلت: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه، وأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده طرياً [من الطويل]:

فلم تنسني أوفى المصيبات بعده (١)

ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به، ﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ﴾: إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبتة إلى بياض كدر، قيل: قد عمي بصره، وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً، قرئ: «من الحزن»، «ومن الحزن»، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض،

= والبیهقي في شعب الإيمان (١١٧/٧) رقم (٩٦٩١)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٠/١٢) حديث رقم (١٢٤١١).

وقال الحافظ في تخریج الکشاف:

أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفر عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس بهذا مرفوعاً، وأخرجه الطبراني في الدعاء من وجه آخر عن سفيان بن زياد. ورواه: عبد الرزاق من طريق الطبري عن الثوري عن سفيان بن زياد المعصفر عن سعيد بن جبیر، أقول: وكذا رواه البیهقي في الشعب من رواية أبي عامر عن الثوري قال: ورفع بعض الضعفاء وليس بشيء. انتهى.

= لفظ ويفرق بينهما بحرف ليس في الأخرى. انتهى الدر المصون.

(١) تعزيت عن أوفى بغيلان بعده عزاء وجفن العين ملآن مترع

فلم تنسني أوفى المصيبات بعده ولكن نكاء القرع بالقرح أوجع

لهشام بن عقبة العذري، يرثي أخاه ذي الرمة، واسمه غيلان بن عقبة. ويرثي أوفى بن دلهم. وقيل: يرثي أخويه. يقول: تعزيت أي تسليت عن أوفى بموت غيلان بعده، أي نابني ما يوجب النسيان الأول ولم أنسه، والحال أن جفن عيني ممتلئ بالدموع. أو المعنى: تكلفت التسلي فلم أقدر. ويقال: أترع الحوض إذا ملاء بالماء في المترع تركيد. ويجوز تشبيه الجفن بالحوض على طريق المكنية والإترع تخيل، فلم تنسني أوفى المصيبات التي أصابتني بعده موت أخي غيلان، ولكن زادتني حزناً على حزني. والقرح: الجرح إذا اندمل وبيست جلبته. والنكاء: كشط تلك الجلبة. ويروى: ولكن نكأ بتشديد النون. والنكأ: التي منها وزن الضرب، فشبه حال مصيبتة الأولى التي طرأ عليها غيرها فزادها بحال ذلك الجرح على سبيل التمثيلية، أي: ولكن نكأ القرع أوجع به من الحالة الأولى. وأظهر محل المضمر لإظهار التوجع والتفجع. أو المعنى: ولكن نكأ القرع الأول بقرح غيره أوجع بالإنسان مما كان، فبالقرح متغلق بأوجع، أو بنكاء. ينظر: أساس البلاغة (نكأ)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة (ص ١١٠٥).

فكانه حدث من الحزن، قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل - عليه السلام -: «مَا بَلَغَ مِنْ وَجْدِ يَعْقُوبَ عَلَى يُوسُفَ؟ قَالَ: وَجْدَ سَبْعِينَ ثَكْلِي، قَالَ: فَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ؟ قَالَ: أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ، وَمَا سَاءَ ظَنُّهُ بِاللَّهِ سَاعَةً قَطُّ» (٧٩٢).

فإن قلت: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟

قلت: الإنسان مجبول على ألا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن؛ ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال: «الْقَلْبُ يَجْزَعُ، وَالْعَيْنُ تَذْمَعُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسَخِّطُ الرَّبَّ، وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ» (٧٩٣)؛ وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصباح والنياحة، ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب، وعن النبي ﷺ أنه بكى على ولد بعض بناته، وهو وجود بنفسه، فقليل: يا رسول الله، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الْبُكَاءِ؛ وَإِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ: صَوْتُ عِنْدَ الْفَرَحِ، وَصَوْتُ عِنْدَ التَّرَجِّحِ» (٧٩٤)؛ وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقليل له في ذلك، فقال: ما

٧٩٢ - أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨١/٧) رقم (١٩٧٢٤).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده مرفوعاً. وأخرجه الطبري من رواية عيسى بن يزيد عن الحسن البصري أنه قيل له: ما بلغ.. فذكره.

٧٩٣ - أخرجه البخاري (٢٠٦/٣) «كتاب الجنائز» «باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» حديث رقم (١٣٠٣)، ومسلم (٨٢/٨) نوي «كتاب الفضائل»، «باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه حديث رقم (٢٣١٥).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث أنس.

٧٩٤ - أخرجه الترمذي (٣١٨/٣) «كتاب الجنائز»، «باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت»، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٩/٧) حديث رقم (٩٧٣٧).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

قال المخرج عزاء الطيبي إلى الصحيحين فلم يصب. ولم يرد هذا في ولد بعض بناته، وإنما ورد في ولده إبراهيم؛ كما أخرجه الترمذي وابن أبي شيبه وإسحاق وعبد بن حميد وغيرهما من حديث جابر. وأخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف نحوه. والذي ورد في بعض بناته متفق عليه من حديث أسامة، وفيه: «ففاضت عيناه فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده»، قلت: والأول إنما هو بلفظ: «قال عبد الرحمن بن عوف: أتبكي، أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين: صوت عند مصيبة، وخمش وجوه، ورنه شيطان، وشق جيوب. وصوت نغمة لعب ولهو ومزامير شيطان». انتهى.

رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: فهو مملوء من الغيظ^(١) على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم، فعيل بمعنى: مفعول؛ بدليل قوله: (وهو مكظوم): من كظم السقاء إذا شده على ملئه، والكظم بفتح الظاء: مخرج النفس، يقال: أخذ بأكظامه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾

﴿تَفْتَوُا﴾ أراد: لا تفتؤ، فحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون؛ ونحوه [من الطويل]:

فَقُلْتُ: يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا^(٢)

ومعنى (لا تفتؤ): لا تزال، وعن مجاهد: لا تفتّر من حبه، كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين؛ يقال: ما فتى يفعل؛ قال أوس [من الطويل]:

فَمَا فِتَيْتُ خَيْلٌ تَثُوبٌ وَتَدْعِي وَيَلْحَقُ مِنْهَا لَاحِقٌ وَتَقْطَعُ^(٣)

(١) قوله: «فهو مملوء من الغيظ» أي الغضب الكامن. أفاده الصحاح. قوله: «ولا يظهر ما يسوؤهم» أي لما صنعوا بيوسف وأخيه (ع).

(٢) سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

لامرئ القيس. يقول: سموت إلى محبوبتي سلمى بعد نوم أهلها، ولم يسمع لي أحد صوتاً، ولم تشعر بي هي إلا وأنا عندها، كسمو حباب الماء فوقه بسهولة. وحباب الماء - بالضم: اسم لثعبان الماء. وحباب الماء - بالفتح -: فقاغقه التي تعلوه. وقوله: «حالاً على حال» واقع موقع الحال المؤكدة للتشبيه، أي: حالاً منطبقاً على حال ومساوياً له، كقولك «سواء بسواء» وههنا حذف، أي: فخوفتني بالقوم، فقلت: يمين الله أبرح، أي: لا أبرح قاعداً. وحذف «لا» النافية للمضارع بعد القسم كثير لأمن اللبس، ولأنه لولا تقديرها لوجب اقتران الفعل بلام جواب القسم أو بنون التوكيد أو بهما. ويمين: نصب بمحذوف، أي أحلف يمين الله، فهو كالمصدر النائب عن فعله. وبقيّة القصة تقدمت.

ينظر: ديوانه (١٢٥)، شواهد الكتاب ٥٠٤/٣، وأوضح المسالك ١٦٣/١، والخصائص ٢٨٤/٢، والدرر ٤٢/٢، والدر المصون ٤٦٢/١، فتح القدير ٥٠/٣.

(٣) لأوس بن حجر، وكنى بالخيّل عن أصحابها. ويقال: ثاب وثوب، إذا لوح بطرف ثوبه عند النداء من بعيد. وتدعي: تفتعل من الدعاء أي يدعو بعضهم بعضاً. ويحتمل أن تثوب بمعنى ترجع، أي تذهب وترجع. ومعنى «تدعي» تلاحق وينتسب بعضها إلى بعض مجازاً، فيجوز أن الخيل حقيقة. أو شبه الخيل بالناس على طريق المكنية، والادعاء بمعنى التنادي تخيل، وهذان الوجهان أنسب بقوله: «ويلحق» أي يسبق منها سابق. وتقطع: أي تنقطع وينقطع بعضها عن بعض قطعاً قطعاً، فهي تجتمع وتفرق: صور الحرب من أولها إلى آخرها في هذا البيت، أي: فما زالت الخيل تفعل كذلك حتى انتهت الحرب.

ينظر: ديوانه (٥٨)، مجاز القرآن ٣١٦/١، والجمهرة ٢٨٧/٣، تفسير غريب القرآن ٢٢١، البحر ٣٢٤/٥، الطبري ٢٨/١٣، الدر المصون ٢٠٩/٤.

﴿حَرَصًا﴾: مشفياً على الهلاك مرضاً، وأحرضه المرض، ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث؛ لأنه مصدر، والصفة: حَرَصَ: بكسر الراء، ونحوهما: دنف ودنف، وجاءت القراءة بهما جميعاً، وقرأ الحسن: «حرضاً»: بضميتين؛ ونحوه في الصفات: رجل جنب وغرب.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)

البث: أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيثبه إلى الناس، أي: ينشره، ومنه: باثه أمره، وأبثه/ ١٧٤ب إياه، ومعنى ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا﴾: إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم؛ إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي، وهذا معنى توليه عنهم، أي: فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه، وقيل: دخل على يعقوب جازٍ له فقال: يا يعقوب، قد تهشمت، وفنيت، وبلغت من السن ما بلغ أبوك! فقال: هشميني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب، خطيئة أخطأتها فاغفر لي، فغفر له، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. وروي أنه أوحى إلى يعقوب: إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة، فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه، وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء، ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين، وقيل: اشترى جارية مع ولدها، فباع ولدها فبكت حتى عميت، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب، وروي أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حي فاطلبه، وقرأ الحسن: «وَحُزْنِي»: بفتحيتين، «وَحُزْنِي»: بضميتين: قتادة.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ

اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما، وقرئ: بالجيم، كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو المعرفة، ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] ومن الجس، وهو: الطلب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان: الحواس، والجواس، ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾: من فرجه وتنفيسه، وقرأ الحسن وقاتدة: «من روح الله»: بالضم، أي: من رحمته التي يحيا بها العباد.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُرُوجَ وَحَشْنَا بَضْعَهُ مُرْجَلَهُ فَأَوْفَ لَنَا

الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨)

﴿الْمَرْءُ﴾: الهزال من الشدة والجوع، ﴿مَرْجَلَةٌ﴾: مدفوعة يدفعها كل تاجر؛ رغبة عنها واحتقاراً لها، من أزجيته إذا دفعته وطرده، والريح تزجي السحاب، قيل: كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً، وقيل: الصنوبر وحب الخضر، وقيل: سويق المقل والأقط، وقيل: دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة، ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ﴾: الذي هو حقنا، ﴿وَنَصَدَّقُ عَلَيْهَا﴾: ونفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداء البضاعة، أو زدنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة؛ لأن الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: كانت تحل لغير نبينا، وسئل ابن عيينة عن ذلك؟ فقال: ألم تسمع: (وتصدق علينا) أراد: أنها كانت حلالاً لهم، والظاهر أنهم تمسكوا له، وطلبوا إليه أن يتصدق عليهم، ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم، فلم يتمالك أن عرفهم نفسه، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾: شاهد لذلك لذكر الله وجزائه، والصدقة: العطية التي تبتغي بها المثوبة من الله، ومنه قول الحسن - لمن سمعه يقول: اللهم تصدق عليّ - إن الله تعالى لا يتصدق؛ إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، قل: اللهم، أعطني، أو تفضل عليّ، أو ارحمني.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ﴾: أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موقفاً^(١)، فكلمهم مستفهماً عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح: ﴿مَا فَعَلْتُمْ يٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾: لا تعلمون قبحه؛ فلذلك أقدمتم عليه، يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجزى إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم، وتنصيحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً؛ إيثاراً لحق الله على حق نفسه، في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور^(٢)، ويتشفى المغيظ المحتق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها^(٣)، والله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها، وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم؛ لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل^(٤)، سماهم جاهلين، وقيل: معناه: إذ

(١) قال محمود: «أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موقفاً، فكلمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح...

إلخ» قال أحمد: ومن تلطفه بهم قوله ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ كالاتذار عنهم، لأن فعل القبح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلفوا عذراً كهذا، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال: فعلتها إذاً وأنا من الضالين.

(٢) قوله: «وينفث المصدور... إلخ» المصدور: الذي يشتكي صدره. والمحتق: المغيظ. والموتور: الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه، كذا في الصحاح (ع).

(٣) قوله: «ما أوطأها وأسجحها» أي ما أسهلها وما أرفقها، أفاده الصحاح. وفيه: فلان ذو حصاة، أي ذو عقل ولب، فحصى عقولهم؛ إضافة بيانية (ع).

(٤) قوله: «ولا يقدم عليه إلا جاهل» لعله عطف على المعنى لأن قوله: «لم يفعلوا... إلخ» بمعنى =

أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة، روي أنهم لما قالوا: مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه: ارفضت عيناه، ثم قال هذا القول، وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر، أما بعد: فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدِّي فشَدَّتْ يده ورجلاه، ورمي به في النار ليحرق، فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي: فوضع السكين على قفاه ليقتل، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناى من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا، وقالوا: إنه سرق، وأنتك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، والسلام»، فلما قرأ يوسف الكتاب، لم يتمالك وعيل صبره، فقال لهم ذلك، وروي أنه لما قرأ الكتاب، بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟

قلت: تعريضهم إياه للغم والشكل^(١) بإفراذه عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الدليل للعزیز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

﴿قَالُوا أَأَتٰكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِّن يَّتَقٰ وَيَصْبِرْ فَإِنَّكَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْنَا الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَالْقُوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَيْ يَآتِ بِصَبْرٍ وَأَتَوْفِ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قرئ: (أنتك): على الاستفهام، «وأنتك»: على الإيجاب، وفي قراءة أبي: «أنتك أو أنت يوسف»: على معنى: أنتك يوسف أو أنت يوسف، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب/ ١٧٥ أ مستغرب لما يسمع، فهو يكرر الاستثبات.

فإن قلت: كيف عرفوه؟

قلت: رأوا في رواه^(٢) وشماله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم

= فعلوا ما لا يقتضيه العلم (ع).

والشكل: فقدان المرأة ولدها، كما في الصحاح. والمراد هنا الحزن (ع).

قوله: «قلت رأوا في رواه» بالضم، أي منظره. أفاده الصحاح (ع).

بأن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم، لا عن بعض أعزاء مصر، وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها، تشبه الشامة البيضاء.

فإن قلت: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ على أن أخاه كان معلوماً لهم.

قلت: لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه، ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾: من يخف الله وعقابه، ﴿وَيَصْبِرْ﴾: عن المعاصي وعلى الطاعات، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾: أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير؛ لاشتماله على المتقين والصابرين، ﴿لَقَدْ أَثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين، وإن شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم، لم نتق ولم نصبر، لا جرم أن الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمكن بين يديك، ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾: لا تأنيب عليكم ولا عتب، وأصل الثريب: من الثرب، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع^(١)؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرب مثلاً للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجه.

فإن قلت: بم تعلق اليوم؟^(٢).

قلت: بالثريب، أو بالمقدر في: (عليكم)، من معنى الاستقرار، أو ببغفر، والمعنى: لا أثربكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة الثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتداء فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾: فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك: على لفظ الماضي والمضارع جميعاً، ومنه قول المشمت: «يهديكم الله ويصلح بالكم»، و(اليوم يغفر الله لكم): بشارة بعاجل غفران الله، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم، وروي أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح، فقال لقريش: «مَا تَرُونَنِي فَاعِلًا بِكُمْ؟» قَالُوا: نَظْنُ خَيْرًا، أَخْ كَرِيمٌ وَأَبْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، وقد

(١) قوله: «والقرع» في الصحاح «القرع» بالتحريك: بثر أبيض، يخرج بالنصال. والتقريع: معالجة الفصيل من القرع، ينزع ذلك منه (ع).

(٢) قال: «فإن قلت بم تعلق اليوم في قوله ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾... إلخ؟ قال أحمد: وهذا المعنى إنما يتوجه على الإعراب الأول وهو الأوجه. ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك ﴿يَتَأَبَّأْنَا أَتَسْتَقْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُتَّاءٌ خَطِيئِينَ﴾ وقوله (سوف أستغفر لكم ربي) دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب، ولو كان متعلقاً ببغفر للزم أن يقطعوا بغفران ذنبهم حينئذ بأخبار النبي الصديق. ويحتمل أن يقال: إنما أراد مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه، إذ الإثم كان مشتركاً بينهما، والله أعلم.

قدرت، فقال: «أَقُولُ مَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» (٧٩٥)، وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فأتل عليه: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾، ففعل، فقال رسول الله ﷺ «عَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِمَنْ عَلَّمَكَ» (٧٩٦). ويروى أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه: إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: إن أهل مصر وإن ملكك فيهم، فإنهم ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون؛ حيث علم الناس أنكم إخواني، وأني من حفدة إبراهيم، ﴿أَذْهَبُوا بِقَيْصِي هَذَا﴾ قيل: هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة، أمره جبريل - عليه السلام - أن يرسله إليه؛ فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلي ولا سقيم إلا عوفي، ﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾: يصير بصيراً؛ كقولك: جاء البناء محكماً، بمعنى: صار، ويشهد له: (فارتد بصيراً)، أو: يأت إلي وهو بصير؛ وينصره قوله: ﴿وَأَتَوْفٍ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يأتني أبي، ويأتني آله جميعاً، وقيل: يهوذا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم إليه، فأفرحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر^(١) من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً.

﴿وَلَمَّا فَصَّصَتِ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْتَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴿

﴿فَصَّصَتِ الْعِمْرُ﴾: خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصلاً: إذا انفصل

٧٩٥ - أخرجه النسائي (٣٨٢/٦) رقم (١١٢٩٨)، وذكره البيهقي في دلائل النبوة (٥٨/٥)، وأخرجه ابن هشام في السيرة (٣٤/٤) رقم (١٦٨١).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه النسائي والبيهقي من رواية ثابت عن عبد الرحمن بن رباح عن أبي هريرة وأتم منه، وأخرجه الثعلبي من رواية سمعان عن عطاء عن ابن عباس بهذا اللفظ وأتم منه، وكذا ذكره ابن إسحاق عن بعض أهل العلم، وقال فيه: «قدرت فاسمح»، وكذا أخرجه الواقدي في المغازي من حديث برة بنت تجرة، ورواه أبو عبيد في الأموال عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين. انتهى.

٧٩٦ - أخرجه ذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار وقال: غريب جداً.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده.

(١) قوله: «وهو حاف حاسر» أي لا مغفر له ولا درع، أفاده الصحاح (ع).

منه وجاوز حيطانه، وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير، ﴿قَالَ﴾: لولد ولده ومن حوله من قومه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾: أوجده الله ريح القميص؛ حين أقبل من مسيرة ثمان، والتفنيد: النسبة إلى الفند، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال عجوز مفندة؛ لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي فتفند في كبرها، والمعنى: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني، ﴿لَقِيَ ضَلَالِكَ الْكَذِيرِ﴾: لقي ذهابك عن الصواب قدماً في إنراط محبتك ليوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للمقائه، وكان عندهم أنه قد مات، ﴿أَلْقَهُ﴾: طرح البشير القميص على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب، ﴿فَأَزْدَ بِصِيرًا﴾: فرجع بصيراً، يقال: رذه فارتد، وارته إذا ارتجعه، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ﴾ يعني: قوله: (إني لأجد ريح يوسف)، أو قوله: ﴿وَلَا تَأْتِسُوهَا مِن رِّيحِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾: كلام مبتدأ لم يقع عليه القول، ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، روي: أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، فقال: ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ

هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾

﴿سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ قيل: آخر الاستغفار إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة؛ ليتعمد به وقت الإجابة، وقيل: ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم، فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهم، اغفر لي جزعي على يوسف، وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين، وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغني عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا، فإن لم يوح إليك بالعفو، فلا قرأت لنا عين أبداً، / ١٧٥ ب فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة، حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل - عليه السلام - فقال: «إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد موثيقهم بعدك على النبوة، وقد اختلف في استنبائهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي

حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ
بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَحْمَتِي لَظَافِرٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ هَوَالِ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ قيل: وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه
بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر
بأجمعهم، فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا
يهوذا، أهذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ولدك، فلما لقيه، قال يعقوب - عليه السلام -:
السلام عليك يا مذهب الأحزان، وقيل: إن يوسف قال له لما التقيا: يا أبت، بكيت عليّ
حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكن خشيت أن تسلب دينك
فيحال بيني وبينك، وقيل: إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون، ما بين رجل
وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً
سوى الذرية والهرمي، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف، ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويَ﴾: ضمهما
إليه واعتنقهما، قال ابن أبي إسحاق: كانت أمه تحيي، وقيل: هما أبوه وخالته، ماتت أمه
فتزوجها وجعلها أحد الأبوين؛ لأن الرابة تدعى أما؛ لقيامها مقام الأم، أو لأن الخالة أم
كما أن العم أب، ومنه قوله: ﴿وَاللَّهُ ءَابَايَكَ إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

فإن قلت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟

قلت: كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب^(١) أو بيت ثم، فدخلوا عليه وضم إليه
أبويه، ثم قال لهم: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾، ولما دخل مصر، وجلس في
مجلسه مستوياً على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير، ﴿وَحَرُّوا لَهُ﴾
يعني: الإخوة الأحد عشر والأبوين، ﴿سُجَّدَا﴾، ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من
قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلوا عليه القبة، فأواهما
إليه بالضم والاعتناق وقربهما منه، وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر.

فإن قلت: بم تعلقت المشيئة؟

قلت: بالدخول مكيفاً بالأمن؛ لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه
قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله، ونظيره قولك للغازي: ارجع سالماً
غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة، مكيفاً
بهما، والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء؛ لدلالة
الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذو الحال، ومن بدع التفاسير أن

(١) قوله: «في مضرب» عبارة النسفي: مضرب خيمة (ع).

قوله: (إن شاء الله): من باب التقديم والتأخير، وأن موضعها ما بعد قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾: في كلام يعقوب، وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره.

فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟

قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد، ونحوها مما جرت عليه عادة الناس، من أفعال شهت في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تغيير الجباه، وخرورهم سجداً ياباه، وقيل: معناه: وخزوا لأجل يوسف سجداً لله شكراً، وهذا - أيضاً - فيه نبوة، يقال: أحسن إليه وبه؛ وكذلك أساء إليه وبه؛ قال [من الطويل]:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ (١)

﴿مَنْ أَلْبَدُو﴾: من البادية؛ لأنهم كانوا أهل عمد، وأصحاب مواش، ينتقلون في المياه والمناجع، ﴿نَزَعَ﴾: أفسد بيننا وأغرى، وأصله: من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري، يقال: نزغه ونسغه: إذا نخسه، ﴿طَيْفُ نَسَايَةٍ﴾: لطيف التدبير لأجله، رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وروي أن يوسف أخذ بيد يعقوب، فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الورق والذهب، وخزائن الحلّي، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، وغير ذلك، فلما أدخله خزانة القراطيس، قال: يا بني، ما أعقك: عندك هذه القراطيس، وما كتبت إليّ على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله، قال جبريل - عليه السلام -: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدِّبْطُ﴾ قال: فهلا خفتني؟ وروي أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له، طلبت نفسه الملك الدائم الخالد، فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبيّ قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه: كل يحب أن يدفن في محلّتهم حتى هموا بالقتال، فأروا من الرأي أن عملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً^(٢)، وولد له: إفرائيم وميشا، وولد لإفرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم

(١) تقدم.

(٢) قوله: «ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً» في الصحاح: الناس في هذا الأمر شرع، أي سواء، يحرك ويسكن (ع).

على بقايا دين يوسف وآبائه، إلى أن بعث الله موسى، ﷺ.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١١٦)

«من» في: ﴿ مِنَ الْمُلْكِ ﴾، و﴿ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾: للتبويض؛ لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا، أو بعض ملك مصر وبعض التأويل، ﴿ أَنْتَ وَلِيِّ ﴾: أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وبوصل الملك الفاني بالملك الباقي، ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾: طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير/ ١٧٦ أ والحسنى، كما قال يعقوب لولده: ﴿ وَلَا تَمُوتَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل: ﴿ وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من آبائي أو على العموم، وعن عمر بن عبد العزيز: أن ميمون بن مهران بات عنده، فرآه كثير البكاء والمسألة للموت، فقال له: صنع الله على يدك خيراً كثيراً: أحيت سنناً، وأمت بدعاً، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين، فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره، قال: «توفني مسلماً وألحقني بالصالحين».

فإن قلت: علام انتصب فاطر السموات؟

قلت: على أنه وصف لقوله: (رب)؛ كقولك: أبا زيد حسن الوجه، أو على النداء.

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَنْكُرُونَ ﴾ (١١٧)

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾: إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله ﷺ ومحله الابتداء، وقوله: ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾: خبر إن، ويجوز أن يكون اسماً موصولاً بمعنى: الذي، و﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾: صلته و(نوحيه): الخبر، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر؛ كقوله: ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴾، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم، وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرة، أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية، ونحوه: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿ وَهُمْ يَنْكُرُونَ ﴾: يبيغون له الغوائل.

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨) وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ مِنْ أَجَرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا

ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿ ١١٩ ﴾

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾: يريد العموم؛ كقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أراد أهل مكة، أي: وما هم بمؤمنين، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾: وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم، ﴿وَمَا تَنْتَهُهُمْ﴾: على ما تحدثهم به وتذكركم أن ينيلوك منفعة وجدوى، كما يعطي حملة الأحاديث والأخبار، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾: عظة من الله، ﴿لِلنَّاسِ﴾: عامة، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١١٥)

﴿مِّنْ آيَةٍ﴾: من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾: ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها، وقرئ: (والأرض): بالرفع على الابتداء، ويمرون عليها: خبره، وقرأ السدي: (والأرض): بالنصب على: ويطؤون الأرض يمرّون عليها، وفي مصحف عبد الله: «والأرض يمشون عليها»: برفع الأرض، والمراد: ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ (١١٦)

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾: في إقراره بالله، وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب، معهم شرك وإيمان، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١١٧)

﴿غَشِيَةٌ﴾: نقمة تغشاهم، وقيل: ما يغمرهم من العذاب ويجللهم، وقيل: الصواعق.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾ (١١٨)

﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾: هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، والسبيل والطريق: يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، أي: ادعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء، و﴿أَنَا﴾: تأكيد للمستتر في: (أدعو)، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: عطف عليه، يريد: أدعو إليها أنا، ويدعو إليها من اتبعني، ويجوز أن يكون: (أنا): مبتدأ، و(على بصيرة): خبراً مقدماً، و(من اتبعني): عطفاً على (أنا): إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان، لا على هوى، ويجوز أن يكون (على بصيرة): حالاً

من (أدعو): عاملة الرفع في: (أنا ومن اتبعني)، ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ﴾: وأنزله من الشركاء^(١).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١١٩)

﴿إِلَّا رَجُلًا﴾: لا ملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يريد ليست فيهم امرأة، وقيل: في سجاج المتنبهة [من البسيط]:

وَلَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذُكْرَانًا^(٢)

وقرى: «نوحى إليهم»: بالنون^(٣)، ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾؛ لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل، والجفاء والقسوة، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾: ولدان الساعة، أو الحال الآخرة، ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه، وقرى: «أفلا تعقلون»: بالياء والياء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢٠)

- | | |
|--|-----------------------------|
| (١) قوله: «وأنزله من الشركاء» لعله «عن» (ع). | |
| (٢) أضحت نبينا أنثى نساء بها | ولم تنزل أنبياء الله ذكرانا |
| فلعنة الله والأقوام كلهم | على سجاج ومن بالإفك أغرانا |
| أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت | أصداؤه ماء مزون حيثما كانا |

لقيس بن عاصم. ويروى: نطيف بها، بدل نساء بها. وطاف به يطوف: دار حوله. وطاف به يطيف: أتى عليه ونزل به. وهذا مبني للمجهول منه، عطف على أضحت. ويروى بدل الشطر الأول، فما سمعت بأنثى قط أرسلها، فالفاعل ضمير الله وإن لم يتقدم له مرجع لظهوره. ويروى بدل الثاني: وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا. وسجاج: علم امرأة من سجع إذا سمع وعفا، وهي بنت المنذر، كانت شريفة في قومها بني حنيفة، فادعت النبوة، ثم تزوجت بمسيلمة الكذاب فاتبعه قومها، ثم حاربه أبو بكر رضي الله عنه فقتل على يدي وحشي قاتل حمزة، فأسلمت بعده وحسن إسلامها. ويروى «باللؤم» بدل الإفك. ولا سقيت: جملة دعائية. والأصداؤه: جمع صدي، وهو ذكر اليوم: كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة تزقو وتصيح: أدركوني أدركوني، حتى يؤخذ بثأره، وهي هنا مجاز عن جثته كلها. والمزن واحدة مزنة وهو السحاب، أي: اللهم اجعل قبره حارا عليه لا يناله غيث.

- (٣) قوله: «وقرى ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ بالنون مبني للمعلوم؛ فتكون القراءة الأصلية بالياء، مبني للمجهول (ع).

﴿يَحْيَى﴾: متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا﴾: فتراخى نصرهم حتى استيأسوا عن النصر، ﴿وَوَلَّوْا أَنفُسَهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: كذبتهم أنفسهم^(١)، حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقولهم: رجاء صادق، ورجاء كاذب، والمعنى: أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله وتأمله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط، وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر^(٢)، وقال: كانوا بشراً، وتلا قوله: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَعْمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فإن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال ويهيج في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية، وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله/ ١٧٦ الذين هم أعرف الناس بربهم، وأنه متعال عن خلف الميعاد، منزّه عن كل قبيح؟ وقيل: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، أي: أخلفوا، أو: وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل، أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدّقوهم فيه، وقرئ: «كذبوا»: بالتشديد على: وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم، وقرأ مجاهد: «كذبوا»: بالتخفيف، على البناء للفاعل، على: وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة، إمّا على تأويل ابن عباس، وإمّا على أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم: إنكم قد كذبتُمونا فيكونون كاذبين عند قومهم، أو وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، ولو قرئ بهذا مشدداً، لكان معناه: وظن الرسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم، قرئ: «فنجي»: بالتخفيف والتشديد، من أنجاه ونجاه، «وفنجي»: على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصن: «فنجاء»، والمراد بـ ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾: المؤمنون؛ لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم، وقد بين ذلك بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- (١) قال محمود: «معناه يثسوا من النصر وظنوا أن أنفسهم كذبتهم... إلخ» قال أحمد: ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك ويرجونه لا عن إخبار وحي.
- (٢) عاد كلامه. قال: «ونقل عن ابن عباس أنه قال: فظنوا حين ضعفوا وغلبوا... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً تأويل حسن ينظم بين القراءتين؛ لأن ظن الأمم كذب رسلهم تكذيب لهم، فيؤدي مؤدى قراءة التشديد.

الضمير في ﴿فَصَصِّهٖمَ﴾: للرسول؛ وينصره قراءة من قرأ: ﴿فِي فَصَصِہٖمَ﴾: بكسر القاف، وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته.

فإن قلت: فإلام يرجع الضمير في: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ فيمن قرأ بالكسر؟ قلت: إلى القرآن، أي: ما كان القرآن حديثاً يفتري، ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: قبله من الكتب السماوية، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: يحتاج إليه في الدين؛ لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل، وانتصاب ما نصب بعد: (لكن): للعطف على خبر كان، وقرئ: (ذلك): بالرفع على: ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول الله ﷺ: «عَلِّمُوا أَرْقَاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ؛ فَإِنَّهُ أَيْمًا مُسْلِمٌ تَلَاهَا وَعَلَّمَهَا أَهْلَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ هُوَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ، وَأَعْطَاهُ الْقُوَّةَ أَلَا يَحْسَدُ مُسْلِمًا» (٧٩٧).

٧٩٧ - ذكره ابن كثير في تفسيره (٤٦٦/٢) في تفسير سورة يوسف، وقال الزيلعي: رواه الثعالبي في تفسيره عن أبي بن كعب وهو حديث ضعيف، وعزاه الزيلعي لابن مردويه في تفسيره بسنده المذكورين في آل عمران، وللواحدي في تفسيره الوسيط بسنده المذكور في سورة يونس، وينظر حديث (٣٤٦).

وقال الحافظ: تقدم إسناده في تفسير آل عمران وهو في آخر آل عمران، وفي آخر الكتاب أيضاً. انتهى.

سُورَةُ الزُّمَرِ

[مَدَنِيَّةٌ، وَقِيلَ مُخْتَلَفٌ فِيهَا]

وَهِيَ ثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ مُحَمَّدٍ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾
﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى آيات السورة، والمراد بالكتاب السورة، أي: تلك الآيات آيات
السورة الكاملة العجيبة في بابها، ثم قال: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، من القرآن كله، هو:
﴿الْحَقُّ﴾: الذي لا مزيد عليه، لا هذه السورة وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول
الأنمارية: هم كالحلقة^(١) المفرعة، لا يدرى أين طرفاها؟ تريد الكلمة.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ السَّمَاءَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، و﴿وَالَّذِي﴾: خبره؛ بدليل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾، ويجوز أن
يكون صفة، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: خبر بعد خبر؛ وينصره ما تقدمه من ذكر
الآيات، ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾: كلام مستأنف استشهد برؤيتهم لها كذلك، وقيل:
هي صفة لعمد، ويعضده قراءة أبي: «ترونها»، وقرئ: «عمد»: بضمين، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾:
يدبر أمر ملكوته وربوبيته، ﴿يُفَصِّلُ﴾: آياته في كتبه المنزلة، ﴿لَعَلَّكُمْ تُوقِنُونَ﴾: بالجزاء،
وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه، وقرأ الحسن: «ندبر»: بالنون،
﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها، ثم
تكاثر بعد ذلك وتنوعت، وقيل: أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض،
والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة، ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾: يلبسه

(١) قوله: «الأنمارية هم كالحلقة» أي في أولادها (ع).

مكانه، فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً، وقرئ: «يغشى»: بالتشديد.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاجِدٍ وَنُفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ﴾: بقاع مختلفة، مع كونها متجاورة متلاصقة، طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة^(١)، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها، مع انتظامها جميعاً في جنس الأرضية؛ وذلك دليل على قادر مريد، موقع لأفعاله على وجه دون وجه، وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقى بماء واحد، وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح، متفاضلة فيها، وفي بعض المصاحف: «قطعاً متجاورات» على: وجعل، وقرئ: «وجنات»: بالنصب للعطف على زوجين، أو بالجرّ على كل الثمرات، وقرئ: «وزرع ونخيل»: بالجرّ عطفاً على أعناب أو جنات، والصنوان: جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان، وأصلهما واحد، وقرئ بالضم، والكسر: لغة أهل الحجاز، والضم: لغة بني تميم وقيس، ﴿تَشْتَّى﴾: بالثاء والياء، ﴿وَنُفْضِلٌ﴾: بالنون، وبالياء: على البناء للفاعل والمفعول جميعاً، ﴿فِي الْأَكْلِ﴾: بضم الكاف وسكونها.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِيهِ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾: يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهم، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب، ﴿أِذَا كُنَّا﴾: إلى آخر قولهم: يجوز أن يكون في محل الرفع بدلاً من قولهم، وأن يكون منصوباً بالقول، وإذا نصب بما دل عليه قوله: ﴿أَمْ نَأْتِيهِ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾: أولئك الكاملون المتمادون في كفرهم، ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾ / ١١٧٧: وصف بالإصرار؛ كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾؛ ونحوه [من البسيط]:

لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادٌ^(٢)

(١) قوله: «زهيدة» في الصحاح: واد زهيد قليل الأخذ للماء، وأرض زهاد: أي لا تسيل إلا عن مطر كثير (ع).

(٢) ضلوا وإن سبيل الغي مقصدهم لهم عن الرشد أغلال وأقياد

أو هو من جملة الوعيد .

﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٦﴾

﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾: بالنقمة قبل العافية، والإحسان إليهم بالإمهال؛ وذلك أنهم
سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب؛ استهزاء منهم بإنذارهم، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ
الْمَثَلَتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا،
والمثلة: العقوبة: بوزن السمرة، والمثلة لما بين^(١) العقاب والمعاقب عليه من المماثلة،
(وجزاء سيئة سيئة مثلها)، ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه، والمثال:
القصاص، وقرئ: (المثلات): بضميتين لإتباع الفاء العين، «والمثلاث»: بفتح الميم
وسكون الشاء، كما يقال: السمرة^(٢)، و«المثلاث»: بضم الميم وسكون الشاء، تخفيف
المثلات بضميتين، والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات^(٣)، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾
أي: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب، ومحلها الحال، بمعنى: ظالمين لأنفسهم^(٤) وفيه أوجه:
أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر، أو الكبائر بشرط التوبة، أو يريد بالمغفرة الستر
والإمهال، وروي أنها لما نزلت قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ
وَتَجَاوُزُهُ مَا هَتَأَ أَحَدُ الْغَيْشِ، وَلَوْلَا وَعِيدُهُ وَعِقَابُهُ لَأَتَكَلَ كُلُّ أَحَدٍ» (٧٩٨).

٧٩٨ - عزاه الزيلعي لابن أبي حاتم في تفسيره عن سعيد بن المسيب، وللثعالبي في تفسيره وهو مرسل،
وللواحدي في تفسيره الوسيط. ينظر «تخريج الكشاف» (١٨٣/٢).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب:
لما نزلت: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ...﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ ... فذكره.

- = سبيل الغي: مجاز عما هم عليه من الأحوال الخبيثة. والغل: ما تشد به اليد إلى العنق والقيد
للرجلين «وهما مجاز عن الغفلة واتباع رأي النفس». يقول: سلكوا طريق الهوى وتركوا طريق
الهدى.
- ينظر: البحر المحيط ٣٥٩/٥، والألوسي ١٠٥/١٣، والرازي: ١٠/١٩.
- (١) قوله: «المثلة لما بين» عبارة النسفي «والمثلة العقوبة لما بين... إلخ» (ع).
- (٢) قوله: «كما يقال السمرة» لعله السمرة والسمرات (ع).
- (٣) قوله: «كركبة وركبات» في الصحاح الركبة معروفة وجمع القلة ركبات وركبات. وفي
هامشه عن مرتضى: أي بسكون الكاف وضمها وفتحها، والراء مضمومة فيهن (ع).
- (٤) قال محمود: «ومحل على ظلمهم الحال بمعنى ظالمين لأنفسهم... إلخ» قال أحمد: والوجه
الحق بقاء الوعد على إطلاقه إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحد، فإن ظلمه أعني =

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧)

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: لم يعتدوا بالآيات المنزل على رسول الله ﷺ عناداً، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، فقبل لرسول الله ﷺ: إنما أنت رجل أرسلت منذراً ومخوفاً لهم من سوء العاقبة، وناصحاً كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت بينها، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطي كل نبي آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: من الأنبياء يهديهم إلى الدين، ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية، وبآية خص بها، ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً^(١) في آيات مخصوصة، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: أنهم يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون، فلا يهمنك ذلك؛ إنما أنت منذر، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم، ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلجاء، وهو الله تعالى، ولقد دل بما أردفه من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضاء حكمته أن إعطاء كل منذر آيات خلاف آيات غيره: أمر مدبر بالعلم النافذ مقدر بالحكمة الربانية، ولو علم في إجابتهم إلى مقترحهم خيراً ومصلحة، لأجابهم إليه، وأما على الوجه الثاني: فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه، هو القادر وحده على هدايتهم، العالم بأي طريق يهديهم، ولا سبيل إلى ذلك لغيره.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾

﴿٨﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ﴾: يحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً، وأن يكون المعنى: هو الله؛ تفسيراً لهاد على الوجه الأخير، ثم ابتدئ فقيل: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾، «وما» في (ما تحمل)، (وما تغيض)، (وما تزداد) إما: موصولة، وإما: مصدرية، فإن كانت موصولة، فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو، من ذكورة وأنوثة، وتمام وخداج^(٢)، وحسن وقبح، وطول وقصر، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترتبة،

= شرکه لا یغفر وما عدا الشرب فغفرانه في المشيئة. والزمخشري يبنى على عقيدته التي وضع فساده، في استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحداً إلا بالتوبة، فيقيد مطلقاً، ويحجر واسعاً، والله الموفق.

(١) قوله: «ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً» أي سواء، كذا في الصحاح (ع).

(٢) قوله: «خداج» في الصحاح: خدجت الناقة خداجاً: ألقت ولدها قبل تمام الأيام، فهي خادج، وهو خديج، وأخدجت: إذا جاءت به ناقص الخلق، فهو مخدج، وهو مخدج اهـ (ع).

ويعلم ما تغيضه الأرحام: أي تنقصه، يقال: غاض الماء وغضته أنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ أَلْمَاءَ﴾ [هود: ٤٤]، وما تزاده: أي: تأخذه زائداً، تقول: أخذت منه حقي، وازددت منه كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَزْدَادُوا شَعًّا﴾، ويقال: زدته فزاد بنفسه وازداد، ومما تنقصه الرحم وتزاده عدد الولد؛ فإنها تشتمل على واحد، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة، ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه، ومنه جسد الولد؛ فإنه كان يكون تاماً ومخدجاً، ومنه مدة ولادته؛ فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة، وإلى أربع عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك، وقيل: إن الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حيان بقي في بطن أمه أربع سنين؛ ولذلك سمي هرمأ، ومنه الدم؛ فإنه يقل ويكثر، وإن كانت مصدرية، فالمعنى: أنه يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ومن أوقاته وأحواله، ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته، فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها، على أن الفعلين غير متعديين؛ ويعضده قول الحسن: الغيوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر، وعنه: الغيوض الذي يكون سقطاً لغير تمام، والازدياد ما ولد لتمام، ﴿بِمَقْدَارٍ﴾: بقدر وحد لا يجاوز ولا ينقص عنه؛ كقوله: ﴿إِذْ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿الْكَبِيرِ﴾: العظيم الشأن الذي كل شيء دونه، ﴿الْمُتَعَالِ﴾: المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^(١)
لَمْ مَعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١١﴾

﴿وَسَارِبٌ﴾: ذاهب في سربه - بالفتح - أي: في طريقه ووجهه، يقال: سرب في الأرض سروباً، والمعنى: سواء عنده من استخفى: أي طلب الخفاء في مختبأ بالليل: في ظلمته، ومن يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يبصره كل أحد/ ١٧٧ ب.

فإن قلت: كان حق العبارة أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار^(١)، حتى يتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحداً هو

(١) قال محمود: «إن قلت كان من حق الكلام أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار... إلخ» قال أحمد: فمقتضى السؤال الذي أورده الزمخشري أن تكون الواو عاطفة لإحدى الصفتين على الأخرى، ومقتضى ما أجاب به أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر، وتحتمل الآية وجهاً آخر: وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية. والمعنى: ومن هو مستخف بالليل ومن =

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنَّ قوله: (وسارب): عطف على (من هو مستخف)، لا على (مستخف).
والثاني: أنه عطف على (مستخف)؛ إلا أن (من): في معنى الاثنين؛ كقوله [من الطويل]:

..... تَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذُئْبُ يَضْطَحِبَانِ^(١)

كأنه قيل: سواء منكم اثنان: مستخف بالليل، وسارب بالنهار، والضمير في ﴿لَهُ﴾: مردود على (من)؛ كأنه قيل: لمن أسر ومن جهر، ومن استخفى ومن سرب، ﴿مُعَيَّنٌ﴾: جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته، والأصل: معتقبات، فأدغمت التاء في القاف؛ كقوله: ﴿وَبِجَاءِ الْمَعْدُورِ﴾ [التوبة: ٩٠]، بمعنى: المتعدرون،

= هو سارب بالنهار، وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع، وخصوصاً وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثاً، ومنه قوله تعالى ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ والأصل: ولا ما يفعل بكم، وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه؛ لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنهي موقع، وإنما صحب في الأول الموصول لا الصلة. ومنه [من الوافر]:

فمن يهجو رسول الله منكم	ويمدحه وينصره سواء
أي ومن يمدحه وينصره، والله أعلم	
(١) فبنت أقد الزاد بيني وبينه	على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكاً	وقائم سيفي من يدي بمكان
تعال فإن عاهدتني لا تخونني	نكن مثل من ياذب يصطحبان
أأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما	أخيين كانا أرضعا بلبان؟

للفرزدق، يصف ذئباً أنه في مفازة فبات يقطع الزاد ويقسمه بينه وبينه، حال كونهما مشرفين على ضوء نار تارة وعلى دخانها أخرى، دلالة على تكرار إيقادها. وتكشر: أبدى أنيابه كالضاحك. وقائم سيفي: أي والحال أن مقبض سيفي بمكان عظيم من يدي، دلالة على الحرص والجرأة. تعال: أي أقبل إلي تتعاهد. ويروى تعش أي كل العشاء، فإن عاهدتني بعد ذلك والتزمت أنك لا تخونني: نكن مثل من يصطحبان يا ذئب. ومعنى «من» مثني، فعاد عليه الرابط كذلك. والنداء. اعتراض بين الصلة والموصول. وأنت: استفهام توبيخي. وتكرير النداء فيه نوع توبيخ أيضاً. وأخيين: مصغر أخوين. واللبان: لبن المرأة خاصة. شبه الذئب والغدر بتوهمين نشأ معاً من صغرهما ترضعهما أم واحدة، دلالة على كمال التلازم والتألف. وتسمية الذئب امرأ، مبنية على تنزيله منزلة العاقل المصحح لخطابه. وشبههما بالأخوين من نوع الإنسان، كما دل على ذلك لفظ اللبان؛ لأن التألف فيه أكمل وأظهر منه في غيره.

ينظر: ديوانه (٦٢٨)، والكتاب ٤١٦/٢، وابن الشجري ١١٣/٢، والخصائص ٤٢٢/٢، والعيني ٤٦١/١، والهمع ٨٧/١، وابن يعيش ١٣٢/٢، و١٣٤، والأشموني ١٥٧/١، والمحتسب ١/٢١٩، ١٤٥/٢، والجمل (٣٤٣)، والدرر ٦٤/١ - ٦٥، والمغني (٤٠٤)، وارتشاف العزب ١/٥٣٩، ورغبة الأمل ٥٥/٤، والدر المصون ٦٥/٢.

ويجوز «معقبات»؛ بكسر العين ولم يقرأ به^(١)، أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه، كما يقال: قفاء؛ لأن بعضهم يعقب بعضاً، أو: لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه، ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: هما صفتان جميعاً^(٢)، وليس (من أمر الله): بصلة للحفظ، كأنه قيل: له معقبات من أمر الله، أو يحفظونه من أجل أمر الله، أي: من أجل أن الله أمرهم بحفظه، والدليل عليه قراءة علي - رضي الله عنه - وابن عباس، وزيد بن علي وجعفر بن محمد وعكرمة: «يحفظونه بأمر الله»، أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب، بدعائهم له ومسالمتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب؛ كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالْأَيْلِ وَالْأَنْهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وقيل: المعقبات الحرس والجلالوة^(٣) حول السلطان، يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله، أي: من قضاياه ونوازله، أو على التهكم به، وقرئ: «له معاقب»: جمع معقب أو معقبة، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير^(٤)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾: من العافية والنعمة، ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾: من الحال الجميلة بكثرة المعاصي، ﴿بَيْنَ وَآلٍ﴾: ممن يلي أمرهم، ويدفع عنهم.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَرَكُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢) وَيَسِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ (١٣)

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما^(٥)؛ لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا وهم فاحش. لا تدغم التاء في القاف ولا القاف في التاء، لا من كلمة ولا من كلمتين. وقد نُصِّصَ التصريفيون على أن القاف والكاف كل منهما يدغم في الآخر، ولا يدغمان في غيرهما، ولا يدغم غيرهما فيهما. وأما تشبيهه بقوله: «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ» فلا يتعين أن يكون أصله المعتذرون، وقد تقدم توجيهه وأنه لا يتعين ذلك فيه. وأما قوله: «ويجوز» معقبات بكسر العين فهذا لا يجوز، لأنه بناء على أن أصله: معقبات فأدغمت التاء في القاف، وقد بينا أن ذلك وهم فاحش. انتهى. الدر المصون.

(٢) عاد كلامه.، ومعنى قوله «لَمْ تُعَيِّنَنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» يحفظونه من أمر الله ﴿هما صفتان جميعاً وليس من أمر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له... إلخ» قال أحمد: وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذي علم الله أنه يدفعه عنه بسبب دعائهم. ولولا هذا السبب لكان في علم الله أن النعمة تحل عليه؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وسع ربنا كل شيء علماً.

(٣) قوله: «والجلالوة» في الصحاح «الجلواز» الشرطي، والجمع الجلالوة (ع).

(٤) قال السمين الحلبي: ويوضح هذا ما قاله ابن جني فإنه قال: معاقب تكسير مُعَقِّبٍ كـ «مُطْعِم، ومطاعيم، ومُقدِّم، ومُقاديم» فكان «مُعَقِّباً» جمع على مُعَاقِبَةٍ، ثم جعلت الياء في «مُعَاقِبٍ» عوضاً من الهاء المحذوفة في «مُعَاقِبَةٍ». انتهى. الدر المصون.

(٥) قال محمود: «خَوْفًا وَطَمَعًا لا يصح أن يكون مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل... إلخ» قال أحمد: أو مفعولاً لهما، على أن المفعول له في مثل هذا الفعل فاعل في المعنى، لأنه إذا أراهم فقد رأوا،

المعلل إلا على تقدير حذف المضاف، أي: إرادة خوف وطمع، أو على معنى إخافة وإطماعاً، ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع، أو على: ذا خوف وذا طمع، أو من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين، ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع في الغيث؛ قال أبو الطيب: [الطويل]

فَتَى كَالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَى وَتُرْتَجَى وَيُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ^(١)
وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر، كالمسافر، ومن له في جريته التمر والزبيب، ومن له بيت يكف^(٢)، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع، ويحيا به، ﴿السَّحَابُ﴾: اسم الجنس، والواحدة سحابة، و﴿الْثِقَالُ﴾: جمع ثقيلة؛ لأنك تقول: سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة، ونساء كرام، وهي الثقال بالماء، ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾: ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له، أي: يضحجون بسبحان الله والحمد لله، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ» (٧٩٩) وعن علي - رضي الله عنه -: سبحان من سبحت له، وإذا اشتد الرعد، قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تَهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ» (٨٠٠)، وعن ابن عباس أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: «مَلَكٌ

٧٩٩ - أخرجه الطبري (٣٦٠/٧) رقم (٢٠٢٦٠)، والبخاري في كتاب الأدب المفرد رقم (٧٢٢)، وعزاه الزيلعي للطبراني في كتاب الدعاء موقوفاً على كعب بن مالك، وللثعالبي عن أبي عن النبي ﷺ من غير سند.

وقال الحافظ في تخریج الكشف:

أخرجه الطبري من رواية إسرائيل عن ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه، «أنه كان إذا سمع الرعد قال: سبحان من يسبح الرعد بحمده» ورواه البخاري في الأدب المفرد، موقوفاً على كعب بن مالك. انتهى.

٨٠٠ - أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ص ٢١٢) رقم (٧٢٨)، والترمذي (٥٠٣/٥) كتاب =

= والأصل: وهو الذي يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً، أي: ترقبونه وتتراؤونه، تارة لأجل الخوف وتارة لأجل الطمع، والله أعلم.

(١) يقول: هو فتى شجاع جواد، يخشى شره، ويرجى خيره، فهو كالسحاب الأسود. والجون: الأسود؛ ويطلق على الأبيض. ورواه ابن جني بالضم ليكون جمعاً، أي السود المظلمات؛ لأن السحاب جمع في المعنى. يرتجي الحياة: أي المطر، منها. ونخشى صواعقها، وهي قطع النار التي تنزل منها.

ينظر: البيت في ديوانه (٦٩)، والعمدة ٣٨/١، والبحر ٣٦٦/٥، والرازي ٣٧٣/٥، والمحرم الوجيز ٣٦٤/٩، والدر المصون ٣٣٤/٤.

(٢) قوله: «ومن له بيت يكف» وكف البيت يكف: قطر يقطر، كذا في الصحاح (ع).

مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِقُ^(١) مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ» (٨٠١)، وعن الحسن: خلق من خلق الله ليس بملك، ومن بدع المتصوفة: الرعد صعقات الملائكة، والبرق: زفرات أفندتهم، والمطر: بكاؤهم، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾: ويسبح الملائكة من هيئته وإجلاله، ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دلّ على قدرته الباهرة ووجدانيته ثم قال: ﴿وَهُمْ﴾ يعني: الذين كفروا، وكذبوا رسول الله، وأنكروا آياته، ﴿يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾؛ حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلاق بقولهم: ﴿مَنْ يُحْيِ الْأَعْظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ويردّون الوجدانية باتخاذ الشركاء والأنداد، ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم: ﴿الملائكة بنات الله﴾ فهذا جدالهم بالباطل؛ كقولهم: ﴿وَحَدِّثُوا بِالْبَاطِلِ يُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، وقيل: الواو للحال، أي: فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم؛ وذلك أنّ أربد أخا لبيد بن ربيعة العامري قال لرسول الله ﷺ حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله، فرمى الله عامراً بغدّة كغدّة البعير^(٢)، وموت في بيت سلولية، وأرسل على أربد صاعقة فقتلته؛

= الدعوات: باب ما يقول إذا سمع الرعد حديث (٣٤٥٠)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٤١٧/٥)، وأحمد (١٠٠/٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٠٣)، والدولابي في «الكنى» (١١٧/٢)، وأبو يعلى (٣٨٠/٩ - ٣٨١) رقم (٥٥٠٧) من طريق أبي مطر عن سالم عن أبيه به.

وقال الثرمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثرمذي والنسائي وأحمد وأبو يعلى والحاكم من رواية: الحجاج بن أرطاة عن أبي مضر عن ابن عبد الله عن أبيه قال الثرمذي: غريب. انتهى.

٨٠١ - أخرجه الثرمذي (٢٩٤/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة الرعد حديث (٣١١٧)، والنسائي كما في الكبرى؛ كما في تحفة الأشراف (٣٩٤/٤)، وأحمد (٢٧٤/١)، وابن منده في التوحيد (١/١٦٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٦٥) من طريق بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبكير بن شهاب قال الحافظ: مقبول.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثرمذي والنسائي وأحمد من رواية بكر بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: أخبرنا يا أبا القاسم عن الرعد. فذكره - وزاد: قالوا: فما هذا الصوت قال: زجره للسحاب قالوا: صدقت»، وفي الطبراني والأوسط من رواية أبي عمران الكوفي عن ابن جريج وعن عطاء عن جابر أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاري «سأل النبي ﷺ عن الرعد. فقال: هو ملك بيده مخراق إذ رفع برق وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت». انتهى.

(١) قوله: «معه مخاريق من نار» في الصحاح المخراق: مندبل يلف ليضرب به (ع).

(٢) قوله: «بغدة كغدة البعير» في الصحاح: غدة البعير: طاعونه (ع).

أخبرنا عن ربنا، أمن نحاس هو أم من حديد؟ (٨٠٢) ﴿الْمَحَالِ﴾: المماحلة، وهي شدة المماكرة والمكايدة، ومنه: تمحل لكذا، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه الحديث: وَلَا تَجْعَلْهُ عَلَيْنَا مَاجِلًا مُّصَدَّقًا (٨٠٣)؛ وقال الأعشى: / ١٧٨ أ [من الخفيف]:

فَزَعُ نَبْعٍ يَهْشُ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ دِ عَزِيرِ الثَّدْيِ شَدِيدُ الْمِحَالِ^(١)

٨٠٢ - أخرجه النسائي في تفسيره (٦١١/١) تفسير سورة الرعد، والطبري في تفسيره (٨٤/١٣) والطبراني في الأوسط (٢٨٦/٣) رقم (٢٦٢٣)، والواحدي في الأسباب (٢٠٥)، والعقيلي في الضعفاء (٣/٢٣٢ - ٢٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٨٩/٦) رقم (٣٣٤٢)، ولم يسق لفظه كلهم من حديث ابن أبي سارة عن ثابت عن أنس.

وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٨٧/٦ - ٨٨) رقم (٣٣٤١)، والبزار في كشف الأستار رقم (٢٢٢١)، والبيهقي في الدلائل (٢٨٣/٦)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (٦٩٢)؛ كلهم من طريق ديلم بن غزوان عن ثابت عن أنس - به. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢/٧) ورواه أبو يعلى والبزار بنحوه، إلا أنه قال: «إلى رجل من فرائعة العرب...» وينحو هذا رواه الطبراني في الأوسط، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٥٢/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن أنس بن مالك - به. وللحديث شاهد أخرجه الطبري (٨٤/١٣).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه الطبراني وابن مردويه عنه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء عنه: «أن أريد بن قيس وعامر ابن الطفيل قدما المدينة - فذكر الحديث مطولاً»، وأخرجه النسائي والطبري والعقيلي، وأبو يعلى من رواية علي بن أبي سارة عن ثابت عن أنس قال: «بعث رسول الله ﷺ رجلاً إلى رجل من خزاعة العرب فقال: ادعه قال: يا رسول الله، هو أخي من ذلك. قال: اذهب فادعه. فأتاه. فقال: إن رسول الله ﷺ يدعوك. قال: وما الله؟ أمن ذهب هو أو من فضة، أم من نحاس - الحديث. وفيه: فأنزل الله تعالى: ﴿وِيرْسِلُ السَّوَاقِقَ... الآية﴾، قال العقيلي: لا مانع على حديثه إلا ممن هو دونه. وقد رواه البزار والبيهقي في الدلائل من رواية ديلم بن غزوان عن ثابت بنحوه. انتهى.

٨٠٣ - قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ والذي وجدته في الحديث المرفوع: «القرآن شافع مشفع، وما حل مصدق»، روي من حديث جابر وأنس، وعن معقل بن يسار ومن حديث ابن مسعود.

فحديث جابر: أخرجه ابن جبان (٣٣١/١) حديث رقم (١٢٤)، والبزار (٧٨/١) رقم (١٢٢). وحديث معقل بن يسار ذكره الهيثمي (١٧٤/١)، وحديث ابن مسعود: أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٨/٤)، الطبراني في المعجم الكبير (١٤١/٩) رقم (٨٦٥٥)، عبد الرزاق في المصنف (٣/٣٧٢) رقم (٦٠١٠)، والبزار كما في كشف الأستار (٧٧/١) رقم (١٢١).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: قلت: الذي من الحديث والقرآن شافع وما حل مصدق. أخرجه ابن جبان من رواية أبي سفيان عن جابر والحاكم من حديث معقل بن يسار، والطبراني من حديث ابن مسعود عن أنس. أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن. انتهى.

(١) فرع كل شيء أعلاه. والنبع: شجر تتخذ منه القسي. والهش من كل شيء: ما فيه رخاوة وليونة. =

والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون، وقرأ الأعرج بفتح الميم، على أنه مفعول، من حال يحول محالاً إذا احتال، ومنه: أحول من ذئب، أي: أشد حيلة، ويجوز أن يكون المعنى: شديد الفقر^(١)، ويكون مثلاً في القوة والقدرة كما جاء: فساعد الله أشد، وموساه أحد؛ لأن الحيوان إذا اشتد محاله، كان منعوياً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره؛ ألا ترى إلى قولهم: فقرته الفواقر؟ وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه^(٢).

﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤﴾

﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق^(٣) الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق؛ للدلالة على أن الدعوة ملازمة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل، والمعنى: أن الله - سبحانه - يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤاله إن كان مصلحة له، فكانت دعوة ملازمة للحق؛ لكونه حقيقة بأن يوجه إليه الدعاء؛ لما في

= وهش إليه، من باب تعب وضرب: ضحك وانبسط إليه، أي هو كفرع النبع في العلو وللصلافة في الحروب. وشبه المجد بشجرة طيبة على طريق المكنية، فإضافة الغصن إليه تخييل لذلك. ويحتمل أنه شبه قومه بأغصان الشجرة المثمرة على طريق التصريحة، وإضافتها للمجد قرينة على ذلك. وفيها دلالة على أن المجد منهم كالثمر من الأغصان، غزير الندى كثير العطاء شديد المحال، أي الماحلة والمكايده، وهو كالتفسير للتشبيه الأول، وغزير الندى كالتفسير للثاني، وهو من بدیع الكلام.

ينظر: البيت في ديوانه (١٤١)، ومجاز القرآن ١/٣٢٥، واللسان (محل)، والطبري ١٦/٤٩٥ والقرطبي ٩/١٩٧، وروح المعاني ١٣/١٢٣، وجمهرة أشعار العرب ١/٢٢٢، والتهذيب ٥/٩٢، والدر المصون ٤/٣٣٤.

(١) قوله: «ويجوز أن يكون المعنى شديد الفقر» في الصحاح: والمحالة أيضاً: الفقارة، وفيه «الفقارة» واحدة فقار الظهر (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا الوجه الثاني لا يظهر، لأن ماله إلى تقدير: لله دعوة الله، كما تقول: «لزيد دعوة زيد». وهذا التركيب لا يصح. قال السمين: وأين هذا مما قاله الزمخشري حتى يرد عليه به؟ انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «فيه وجهان: أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق... إلخ» قال أحمد: دس تحت تأويل الأول نبذة من الاعتزال على وجه الاختزال. فحجر واسعاً من لطف الله واستجابته أدعية عباده، وحتم رعاية المصالح، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق التباسها بالمصلحة، وقد انكشف الغطاء وتبين أن الله تعالى لا تعلل أفعاله ولا تقف استجابته على الشرط المذكور، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة، والله الموفق.

دعوته من الجدوى والنفع، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه.
والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله - عز وعلا - على معنى: دعوة المدعو
الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الحق هو الله، وكلّ دعاء إليه دعوة الحق.
فإن قلت: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله^(١)؟

قلت: أما على قصة أريد فظاهر؛ لأن إصابته بالصاعقة محال من الله، ومكرّ به من
حيث لم يشعر، وقد دعا رسول الله ﷺ على صاحبه بقوله: «اللَّهُمَّ أَخْسِفْهُمَا بِمَا شِئْتَ»
فَأَجِيبَ فِيهِمَا (٨٠٤)، فكانت الدعوة دعوة حق، وأما على الأول: فوعيد للكفرة على
مجادلتهم رسول الله بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ أن دعا عليهم فيهم،
﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: والآلهة الذين يدعوهم الكفار، ﴿مِّن﴾: دون الله، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾:
من طلباتهم، ﴿إِلَّا كَبْسُطٌ كَتَيْه﴾: إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه، أي: كاستجابة الماء
من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه
وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه؛ وكذلك ما يدعوونه جماد لا يحس
بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم، وقيل: شبهوا في قلة جدوى
دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه، فبسطهما ناشراً أصابعه، فلم تلق
كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه.

وقرى: «تدعون»: بالتاء، كباسط كفيه، بالتنوين، ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: إلا في ضياع لا
منفعة فيه؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجبههم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: ينقادون لإحداث ما أَرَادَهُ فيهم من أفعاله، شاؤوا أو أبوا، لا
يقدر أن يمتنعوا عليه، وتنقاد له، ﴿وَيُظِلُّهُمْ﴾: أيضاً؛ حيث تتصرف على مشيئته في
الامتداد والتقلص، والفياء والزوال، وقرئ: «بالغدو والإيصال»: من أصلوا: إذا دخلوا
في الأصل.

٨٠٤ - قال الزيلعي: ذكره الواحدي في أسباب النزول حديث أريد وعامر عن ابن عباس من غير سند.

وينظر «تخريج الكشاف» (١٨٨/٢ - ١٨٩).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

ذكره الواحدي في الأسباب عن ابن عباس في القصة المذكورة. ولم أره فيها من الطريقتين
المتقدمتين عن رواية الكلبي وغيره. انتهى.

(١) قوله: «اتصال هذين الوصفين بما قبله» عبارة النسفي: واتصال ﴿شَدِيدُ اللَّحَالِ﴾ و﴿لَمْ دَعُوهُ لَمَلِي﴾
بما قبله (ع).

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَأْخُذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَعْمَ وَلَا ضَرَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُلِ اللَّهُ﴾: حكاية لاعترافهم، وتأکید له عليهم، لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله؛ كقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْكَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧]، وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك، فإذا قال: هذا قلبي، قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيثاقاً منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت، ويجوز أن يكون تلقيناً، أي: إن كعوا عن الجواب^(١) فلقنهم؛ فإنهم يتلقنونه ولا يقدرُونَ أن ينكروه، ﴿أَتَأْخُذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾: أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم، وإقراركم سبب الإشراك، ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَعْمَ وَلَا ضَرَّ﴾: لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضرراً، فكيف يستطيعونه لغيرهم، وقد آثرتموهم على الخالق الرازق الميثيب المعاقب؟ فما أبين ضلالتكم! ﴿جَعَلُوا﴾: بل اجعلوا، ومعنى الهمزة: الإنكار^(٢)، و﴿خَلَقُوا﴾: صفة لشركاء، يعني: أنهم لم يتخذوا الله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله، ﴿تَشَبَّهُ﴾: عليهم خلق الله وخلقهم، حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد، إذ لا فرق بين خالق وخالق؛ ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرُونَ على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً أن يقدرُوا على ما يقدر عليه الخالق، ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

- (١) قوله: «أي: إن كعوا عن الجواب» أي امتنعوا جبناً أو احتبسوا. أفاده الصحاح (ع).
 (٢) قال محمود: «أم مقدره ببل والهمزة ومعناها ههنا الإنكار... إلخ» قال أحمد: وفي قوله تعالى ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ في سياق الإنكار تهكم بهم؛ لأن غير الله لا يخلق خلقاً آلبته، لا بطريق المشابهة والمساواة لله - تقدس عن التشبيه - ولا بطريق الانحطاط والقصور، فقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقاً، ولكن جاء في قوله تعالى (كخلفه) تهكم يزيد الإنكار تأكيداً. والزمخشري لا يطبق التنبيه على هذه النكتة مع كونه أفطن من أن تستتر عنه؛ لأن معتقده أن غير الله يخلق وهم العبيد يخلقون أفعالهم على زعمه، ولكن لا يخلقون كخلق الله؛ لأن الله تعالى يخلق الجواهر والأعراض، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم لا غير. وفي قوله عز من قائل ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إقام لأفواه المشركين الأولين، ثم لأفواه التابعة لهم في هذه الضلالة كالدردية، فإن الله تعالى بت هذه البتة أن كل شيء يصدق عليه أنه مخلوق جوهرأ كان أو عرضاً، فعلاً لعبيده أو غيره، فالله خالقه، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك إلا عند كل أئيم أفاك، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه قرأ فبشره بعذاب اليم، فلأمر ما تقاصر لسان الزمخشري عند هذه الآية وقرن شقاشقه، والله الموفق.

لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة، ﴿وَهُوَ الرَّاحِدُ﴾: المتوحد بالربوبية، ﴿الْفَهْرُ﴾: لا يغالب، وما عداه مربوب ومقهور.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُۥ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء، فتسيل به أودية الناس، فيحيون به، وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به^(١) في صوغ الحلبي منه، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك / ١٧٨ ب ماكث في الأرض، باق بقاء ظاهراً، يثبت الماء في منفعه، وتبقى آثاره في العيون والثمار والجبوب، والثمار التي تنبت به مما يذخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، يزيد السيل الذي يرمى به، ويزيد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

فإن قلت: لم نكرت الأودية؟

قلت: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿بِقَدَرِهَا﴾؟

قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للمطور عليهم غير ضار؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [الرعد: ١٧]؛ لأنه ضرب المطر مثلاً للحق، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع، خالياً من المضرة، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف^(٢).

فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة بقوله (بقدرها)، لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾؛ لأن المعنى: وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الإنتفاع مما يوقد عليه ويذاب، وهو الحلية والمتاع، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾: عبارة جامعة لأنواع الفلز، مع

(١) قوله: «وبالفلز الذي ينتفعون به»، في الصحاح «الفلز» بالكسر وتشديد الزاي: ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض اهد فليحرر، ولعله ما يبقيه الكير... إلخ (ع).

(٢) قوله: «السيول الجواحف» في الصحاح «سيل جحاف» بالضم: إذا جرف كل شيء وذهب به (ع).

إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به، كما هو هجيري الملوك؛ نحو ما جاء في ذكر الآجر: ﴿فَأَوْفِدْ لِي يَهْمَنُّ عَلَى الطَّلِينِ﴾ [القصص: ٣٨]، و«من» لابتداء الغاية، أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبدًا رابيًا منفخًا مرتفعاً على وجه السيل، أي: يرمى به، وجفأت القدر بزبداء، وأجفأ السيل وأجفل، وفي قراءة رؤية بن العجاج: «جفلاً»، وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤية؛ لأنه كان يأكل الفأر، وقرئ: «يوقدون»: بالياء، أي: يوقد الناس.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَ مَعَهُ لَأَفْقَدُوا بِهِ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَنِسْ إِلَهَادُ﴾ (١٨)

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾: اللام متعلقة بيضرب، أي: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا، وللكافرين الذين لم يستجيبوا، أي: هما مثلاً الفريقين، و﴿الْحُسْنَى﴾: صفة لمصدر استجابوا، أي: استجابوا الاستجابة الحسنى، وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ﴾: كلام مبتدأ في ذكر ما أعد لغير المستجيبين، وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، وما بعده كلام مستأنف، والحسنى: مبتدأ، خبره: (للذين استجابوا)، والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي الجنة، و﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾: مبتدأ خبره: «لو» مع ما في حيزه و﴿سُوءُ الْحِسَابِ﴾: المناقشة فيه، وعن النخعي: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء.

﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ (١٩)

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله: ﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ﴾؛ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أن حال من علم، ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾: فاستجاب؛ بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء، والخبث والإبريز، ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين عملوا على قضيات عقولهم؛ فنظروا واستبصروا.

﴿الَّذِينَ يُؤْفِقُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الشَّيْءَ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ يَعْلَمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢٠) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ هُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢١) ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَأَمَّا آبَائِهِمْ وَزُرِّيَّاتُهُمْ وَزَوَّجُهُمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٢) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٣)

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ يَمْهَدُ اللَّهُ﴾: مبتدأ، و﴿أُولَئِكَ لَمْ يَغْفِقْ الْدَّارِ﴾: خبره؛ كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ... أُولَئِكَ لَمْ يَلْعَنَهُ﴾ [الرعد: ٢٥]، ويجوز أن يكون صفة لأولي الأبواب، والأول أوجه، وعهد الله: ما عقده على أنفسهم من الشهادة بربوبيته، ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الرعد: ٢٠]. ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْتُ﴾: ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه: من الإيمان بالله وغيره من الموائيق بينهم وبين الله وبين العباد، تعميم بعد تخصيص، ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾: من الأرحام والقرباب، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، وشهود جنازتهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر، وكل ما تعلق منهم بسبب، حتى الهرة والدجاجة، وعن الفضيل بن عياض أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل خراسان، قال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُ﴾ أي: يخشون وعيده كله، ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾: خصوصاً ﴿سُوءَ حِسَابٍ﴾: فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ﴿صَبْرًا﴾: مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف، ﴿أَنْعَمَ وَجْهَ﴾: الله؛ لا يقال: ما أصبره وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل، ولا لثلا يعاب بالجزع، ولثلا يشمت به الأعداء؛ كقوله [من الطويل]:

وَتَجْلِدِي لِلشَّامِتِينَ أَرْيَهُمْ^(١)

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا مردّ فيه للفاتئ؛ كقوله [من مجزوء الكامل]:

- (١) وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع
- لأبي ذؤيب خويلد بن خالد المخزومي، يرثي بنيّه. روي أن معاوية مرض، فعاده الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: كحلوني والبسوني عمامتي، وأظهر القوة وأنشد له البيت الثاني، فأجابه الحسن بغتة بالأول. وشبه المنية بالسبع على طريق المكنية. وإنشأ الأظفار: تخيل. ومني له: قدر له. والمنية: الموت لأنه مقدر. والإنشأ: الغرز والتعليق. ألفيت: أي وجدت كل تميمة لا تنفع، وهي ما يعلق على الولدان خوف الجن والحسد. وتجلدي: أي تصبري وتصلبي. مبتدأ. وأريهم: خبره، أي أظهر لهم به أني لا أتضعضع وأتخضع وأضعف لأجل ريب الدهر، أي حدثاته الطارئ من حيث لا أشعر.
- ينظر: شرح أشعار الهذليين (ص ١٠)، لسان العرب (ضعع)، مقاييس اللغة (٣/ ٣٥٥)، كتاب العين (١/ ٧٢)، مجمل اللغة (٣/ ٢٧٦)، تاج العروس (ضعع).

مَا إِنْ جَزَعْتُ وَلَا هَلَفْتُ ت وَلَا يَرُدُّ بُكَائِي زُنْدًا^(١)

وكل عمل له وجوه يعمل عليها، فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حسناً عند الله، وإلا لم يستحق به ثواباً، وكان فعلاً كلاً فعل، ﴿يَمَّا رَزَقْنَهُمْ﴾ / ١٧٩أ: من الحلال؛ لأنّ الحرام لا يكون رزقاً^(٢)، ولا يسند إلى الله^(٣)، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: يتناول النوافل؛ لأنها في السر أفضل، والفرائض؛ لوجوب المجاهرة بها نفياً للثمة، ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾: ويدفعونها، عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم، وعن الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا، وعن ابن كيسان: إذا أذنبوا تابوا، وقيل: إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره، ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾: عاقبة الدنيا، وهي:

(١) ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددن للحدثان سا بقية وعداء علندي
نهذاً وذا شطب يقدر البيض والأبدان قدا
كم من أخ لي صالح بوائه بيدي لحدا
ما إن هلمت ولا جز عت ولا يرد بكاي زندا

لعمر بن معد يكرب. يقول: ليس الجمال بفاخر الشباب. وفاعلم: اعتراض. والخطاب لغير معين، أي ليس كذلك وإن ألبستها والبرد، ثوب سابغ يرتدي به إن الجمال خصال حميدة أكتسبت أصحابها الشرف. والحدثان: مكروه الدهر المنقلب. والسابغة الدرع، وكانت له درع من ذهب. والعداء: الفرس الكثير العدو. والعلندي - بالفتح -: الغليظ الشديد السريع. وشيء علند: صلب - واعلندي البعير: اشتد. والنهد: الضخم الطويل. والشطب - بالضم -: طرائق السيف. والأبدان: الدروع القصيرة، وإذا قطع البيضة والبدن مع أنهما من الحديد، قطع غيرهما بالأولى: مدح نفسه بالشجاعة، ثم بالصبر فقال: كثير من إخواني أنزلتهم للحدود بيدي، ومع ذلك ما جزعت لا قليلاً ولا كثيراً فإن زائدة. والهلع: شدة الجزع. وفي الحديث «من شر ما أوتي العبد: شح هالع، وجبن خالع» أي يهلع فيه وكأنه يخلع فواده. وتزند فلان. ضاق بالجواب وغضب. والمزند: مثل في الشيء. ويقال للحقير: زندان في مرقعة، فالزند: الشيء الحقير. ويروى: زيدا، بالياء، على أنه زيد بن الخطاب أخو عمر رضي الله عنه، كان صديقاً له في الجاهلية. ويروى: وهل يرد بكائي؟ أي: لم أجزع، لعلمي أنه لا ينفع.

ينظر: ديوانه (ص ٨٢)، حماسة البحرني ص (١٢٨)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (١٧٩).

(٢) قوله: «لأن الحرام لا يكون رزقاً» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فيكون رزقاً كالحلال (ع).

(٣) قال محمود: «المрад مما رزقناهم من الحلال، لأن الحرام لا يكون رزقاً ولا يسند إلى الله تعالى» قال أحمد: الحق أن لا رازق إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ كما أنه لا خالق إلا الله ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ فإذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لا رازق إلا الله فأبي مقال بعد ذلك يبقى للقدر الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم لأن الغالب الحرام وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يدعه ولا تكفه القوارع السمعية والعقلية ولا تردعه فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

الجنة؛ لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها^(١)، و﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾: بدل من عقبى الدار، وقرئ: «فَتَنَّم»: بفتح النون، والأصل: نعم، فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل، وقرئ: (يدخلونها): على البناء للمفعول، وقرأ ابن أبي عبلة (صلح): بضم اللام، والفتح أفصح، أعلم أنَّ الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة، وآباؤهم جمع أبوي كل واحد منهم؛ فكأنه قيل: من آباؤهم وأمهاتهم، «سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ»: في موضع الحال؛ لأنَّ المعنى: قائلين سلام عليكم، أو مسلمين.

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿يَمَّا صَبَرْتُمْ﴾؟

قلت: بمحذوف تقديره: هذا بما صبرتم، يعنون: هذا الثواب بسبب صبركم، أو بدل ما احتملت من مشاق الصبر، ومتاعبه هذه الملاذ والنعم، والمعنى: لئن تعبتم في الدنيا لقد أسترحتم الساعة؛ كقوله [من الطويل]:

يَمَّا قَدْ أَرَى فِيهَا أَوَانِسَ بُدْنًا^(٢)

وعن النبي ﷺ أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَمَّا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»^(٣) (٨٠٥) ويجوز أن يتعلق بسلام، أي: نسلم عليكم

٨٠٥ - أخرجه الطبري (٣٧٧/٧) رقم (٢٠٣٤٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥٧٣/٣ - ٥٧٤) رقم (٦٧١٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

(١) قال محمود: «المراد عاقبة الدنيا ومرجع أهلها... إلخ» قال أحمد: قد تكرر مجيء العاقبة المطلقة مثل «وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار»، «مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ». «وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» والمراد في جميع ذلك: عقبى الخير والسعادة، والزمخشري يستنبط من تكرار مجيء العاقبة المطلقة والمراد عاقبة الخير أنها هي التي أرادها الله فهي الأصل والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة بل عارضة على خلاف المراد والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها إلا بتقييد يفهمها كقوله «وَعُقَى الْكَافِرِينَ النَّارُ» كل ذلك من الزمخشري تهالك على أن ينسب إلى الله إرادة ما لم يقع ومشئته ما لم يكن مصادمة لما أنطق الله به السنة حملة الشريعة ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وليس في مجيء ذلك على الإطلاق ما يعين أنه الأصل باعتبار الإرادة، ففعله الأصل باعتبار الأمر، ونحن نقول: إن المؤدي إلى حمد العاقبة مأمور به، والمؤدي إلى سونها منهي عنه، فمن ثم كانت عاقبة الخير هي الأصل، والله الموفق.

(٢) أرى الوحش ترعى اليوم في ساحة الحمى بما قد أرى فيها أوانس بدنا يقول: أرى الوحش ترعى في ساحة الحمى في هذا الزمان، بدل ما كنت أرى فيها الأحبة، فقد أرى: حكاية حال ماضية، وقد لتقريبها. والأوانس: جمع آنسة. والبدن: جمع بادنة، أي سمينه البدن.

ونكرمكم بصبركم .

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٧٥﴾﴾

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ : من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول ، ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ : يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا ؛ لأنه في مقابلة عقبى الدار ، ويجوز أن يراد بالدار : جهنم ، وبسوءها : عذابها .

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي : الله وحده هو يبسط الرزق ، ويقدره دون غيره ، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم ، ﴿وَفَرَحُوا﴾ : بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة ، وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرأ يتمتع به كعجالة الراكب ، وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٧٧﴾﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَمَنَّوْنَ قُلُوبُهُمْ يَذْكُرُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَعْلَمِينَ الْقُلُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ صَوِّبَ لَهُمْ وَحُسْنُ مَثَابٍ ﴿٧٩﴾﴾

فإن قلت : كيف طابق قولهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قوله : ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ؟

قلت : هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم ؛ وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيتها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبي قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكانه قيل لهم : ما أعظم عنادكم ، وما أشد تصميمكم على كفركم : إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم ، وشدة الشكيمة في الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم ، وإن أنزلت كل آية ، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ﴾ : كان على خلاف صفتكم ،

= أخرجه عبد الرزاق والطبري من رواية سهل بن أبي صالح عن محمد بن إبراهيم التيمي قال : كان النبي ﷺ فذكره ، وزاد كان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك . انتهى .

﴿أَنَابَ﴾: أقبل إلى الحق، وحقيقته دخل في نوبة الخير، و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بدل من (من) أناب، ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾: بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته؛ كقوله: ﴿ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، أو تطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو تطمئن بالقرآن؛ لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: مبتدأ، و﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: خبره، ويجوز أن يكون بدلاً من القلوب، على تقدير حذف المضاف، أي: تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا، وطوبى مصدر من طاب، كبشرى وزلفى، ومعنى: «طوبى لك»: أصبت خيراً وطيباً، ومحلهما النصب أو الرفع؛ كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك، والقراءة في قوله: (وحسن مآب): بالرفع والنصب، تدلك على محليها، واللام في (لهم): للبيان مثلها في سقيا لك، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضممة ما قبلها، كموقن وموسر، وقرأ مكوزة الأعرابي: «طبيي لهم»: فكسر الطاء لتسلم الياء، كما قيل: بيض ومعيشة.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىٰ الذِّكْرِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾: مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني: أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة، فهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء، ﴿لَبِثُوا عَلَىٰ الذِّكْرِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾: وحال هؤلاء أنهم يكفرون، ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾: بالبالغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، وما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم، وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾: الواحد المتعالي عن الشركاء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: في نصرتي عليكم، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾: فيثبني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْوَعْدُ بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَأْتِصِلْ بِالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ إِلَهُكُمْ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَهْمُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾: جوابه محذوف / ١٧٩؛ كما تقول لغلامك: لو أني قمت إليك، وتترك الجواب، والمعنى: ولو أن قرآنًا ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾: عن مقارها، وزعزعت عن مضاجعها، ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾: حتى تتصدع وتترايل قطعاً، ﴿أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْوَعْدُ﴾: فتسمع

وتجيب، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف؛ كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، هذا يعضد ما فسرنا به قوله: ﴿لنتلو عليهم الذي أوحينا إليك﴾ [الحشر: ٢١]، من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من القرآن، وقيل: معناه: ولو أن قرآنًا وقع به، تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبههم، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه؛ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةُ﴾ [الأنعام: ١١١]، الآية، وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله ﷺ: «سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع، كما سخرت لداود - عليه السلام - إن كنت نبيًا كما تزعم، فلست بأهون على الله من داود، وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان - عليه السلام - أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا: منهم قصي بن كلاب^(١)؛ فنزلت (٨٠٦)، ومعنى تقطيع الأرض على هذا: قطعها بالسير ومجاورتها، وعن الفراء: هو متعلق بما قبله، والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾: وما بينهما اعتراض، وليس ببعيد من السداد، وقيل: ﴿قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾: شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً، ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾: على معنيين.

أحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها؛ إلا أن علمه بأن إظهارها مفسدة يصرفه.

٨٠٦ - قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ. تخريج الكشاف (١٩٠/٢).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجده بهذا السياق، وقد روى ابن ربيعة عن أبي أسامة عن مجالد عن الشعبي قال: قالت قريش للنبي ﷺ: «إن كنت نبيا كما تزعم فباعد بين جبلي مكة - أحسبها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرون أنك نبي»، أو احملنا إلى الشام، أو إلى اليمن، أو إلى الحيرة، حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلت. فأنزل الله تعالى: ﴿ولو أن قرآنًا - الآية﴾، وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عطية بن أبي سعيد قال: قالوا لمحمد ﷺ «لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرق فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه الريح»، وروى أبو يعلى من حديث الزبير بن العوام يقول: «لما نزلت: «وانذر عشيرتكم الأقربين» صاح رسول الله ﷺ: يا آل قريش، فجاءته قريش. فحذرهم وانذرهم فقالوا: تزعم أنك نبي، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى. فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال وتنفر لنا الأرض أنهاراً، فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، أودع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا أودع الله أن يصير هذه الصخرة التي بجنبك ذهباً فننحت منها ويغنيا، قال: فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي. فلما سرى عنه قال: والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتهم ولو شئت كان، ولكن أخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم يعذبكم. فنزلت. انتهى.

والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بني أمر التكليف على الاختيار؛ ويعضده قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِشِرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ [الرعد: ٣١]، يعني: مشيئة الإلجاء والقسر^(١)، ﴿لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، ومعنى: (أفلم ييشس): أفلم يعلم، قيل: هي لغة قوم من النخع، وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى: العلم، لتضمنه معناه؛ لأن اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى: الخوف، والنسيان في معنى: الترك لتضمن ذلك؛ قال سَحْنَمُ بْنُ وَثِيلِ الرِّيَاحِيِّ [من الطويل]:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشُّغْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي: أَلَمْ تَنْيَاسُوا أَنِّي ابْنُ قَارِسٍ زَهْدَمٍ^(٢)

ويدل عليه أن عليًا وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤوا: «أفلم يتبين»، وهو تفسير: (أفلم ييشس)، وقيل: إنما كتبه الكاتب، وهو ناعس مستوى السيئات؛ وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام، وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهيمنين عليه، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مرية، ويجوز أن يتعلق (أن لو يشاء) بآمنوا، على: أو لم يقتض عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولهداهم، ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾: من كفرهم وسوء أعمالهم، ﴿قَارِعَةً﴾: داهية تفرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا، والمصائب في نفوسهم، وأولادهم وأموالهم، ﴿أَوْ تَحُلْ﴾: القارعة، ﴿قَرِيْبًا﴾: منهم فيفزعون، ويضطربون، ويتطايروا إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾: وهو موتهم، أو القيامة، وقيل: ولا يزال كفر مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله ﷺ من العداوة والتكذيب قارعة؛ لأن رسول الله ﷺ كان لا يزال يبعث السرايا، فتغير حول مكة وتختطف منهم، وتصيب من مواشيهم (٨٠٧)، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم

٨٠٧ - قال ابن حجر: هو موجود في المغازي لابن إسحاق، والواقي، وطبقات ابن سعد في عدة سرايا منها سرية زيد بن حارثة ليلقى غير قريش وغيرها. وينظر «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ١٩٠) - (١٩٥).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

قلت: موجود في المغازي لابن إسحاق، والواقدي، وطبقات ابن سعد في عدة سرايا؛ منها سرية زيد بن حارثة ليلقى غير قريش وسرية على الحر بن سعد بن بكر وغيرها. انتهى.

(١) قوله: «أن لو يشاء الله يعني مشيئة الإلجاء» هذا عند المعتزلة دون أهل السنة (ع).

(٢) تقدم.

بجيشك، كما حل بالحديبية، حتى يأتي وعد الله، وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ رُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثَمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۖ﴾ (٣٢)

الإملاء: الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن، كالبهيمة يملأ لها في المرعى، وهذا وعيد لهم، وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ استهزاء به وتسلياً له.

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۖ﴾ (٣٣) هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن

وَأَبِ ۖ (٣٤)

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ﴾: احتجاج عليهم في إشراكهم بالله، يعني: أفا الله الذي هو قائم رقيب، ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾: صالحة أو طالحة، ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: يعلم خيره وشره، ويعد لكل جزاء، كمن ليس كذلك، ويجوز أن يقدر ما يقع خيراً للمبتدأ ويعطف عليه وجعاراً، وتمثيله: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحده، ﴿وَجَعَلُوا﴾: له، وهو الله الذي يستحق العبادة وحده، ﴿شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبثوه بأسمائهم، ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾: على أم المنقطعة؛ كقولك للرجل: قل لي من زيد أم هو أقل من أن يعرف، ومعناه: بل أنتنبؤونه بشركاء^(١)، لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم، والمراد نفي أن يكون له شركاء، ونحوه: ﴿قُلْ أَنْتَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٢) أم بظاهر من القول / ١٨٠: بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة؛ كقوله: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِإِفْرَاهِهِ﴾ [التوبة: ٩]، ﴿مَا تَبَدُّونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَيَّئُوهَا﴾، وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة^(٢) التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق

(١) قال محمود: «معناه بل أنتنبؤونه بشركاء... إلخ» قال أحمد: وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء، وأن الله لا يعلمهم كذلك، لأنهم ليسوا كذلك وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة، ولكن مجيء النفي على هذا السنن المتلو بديع، لا تكنه بلاغته وبراعته، ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان: وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء، فلم يكن بهذا الموقع الذي اقتضته التلاوة.

(٢) عاد كلامه. قال: «وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها... إلخ» قال أحمد: هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلاً، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن فتنبه لها، وما أسرع المطالع لهذا =

ذلك: أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقرئ: (أتنبئونه): بالتخفيف، ﴿مَكْرَهُمْ﴾: كيدهم للإسلام بشركهم، ﴿وَصَدُّوا﴾: قرئ بالحركات الثلاث، وقرأ ابن أبي إسحاق: «وصد»: بالتنوين، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ﴾: ومن يخذله لعلمه أنه لا يهتدي، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾: فما له من أحد يقدر على هدايته، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: وهو ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر؛ ولذلك سماه عذاباً، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾: وما لهم من حافظ من عذابه، أو مالهم من جهته واق من رحمته.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥)

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾: صفتها التي هي في غرابة المثل، وارتفاعه بالابتداء، والخبر محذوف على مذهب سيويه، أي: فيما قصصناه عليكم مثل الجنة، وقال غيره: الخبر: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، كما تقول: صفة زيد أسمر، وقال الزجاج: معناه: مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار، على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد، وقرأ علي - رضي الله عنه -: «أمثال الجنة»: على الجمع، أي: صفاتها، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾: كقوله: ﴿لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمُوعَ﴾ [الواقعة: ٣٣]، ﴿وُظُلُّهَا﴾: دائم لا ينسخ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكَتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا مَرِئْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُهُ إِلَهُكُمْ وَإِلَيْهِ مَقَابِلُ﴾ (٣٦)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكَتَابُ﴾: يريد من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن، هؤلاء: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾، يعني: ومن أحزابهم، وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، نحو: كعب بن الأشرف وأصحابه، والسيد والعاقب أسقفي نجران وأشياعهما، ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾: لأنهم كانوا لا ينكرون الأفاصيص، وبعض الأحكام والمعاني هو ثابت في كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام، ونعت رسول الله ﷺ وغير ذلك مما حَرَفُوهُ وبَدَّلُوهُ مِنَ الشَّرَائِعِ.

= الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه وهو غافل عما تحته، لولا هذا التنبيه والإيقاظ، والله أعلم.

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُرِيتُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ﴾ بما قبله؟

قلت: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به، فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وألا يشرك به، ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّيْنَا وَبَيْنَا وَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقرأ نافع في رواية أبي خليل: «ولا أشرك»: بالرفع على الاستئناف كأنه قال: وأنا أشرك به، ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى: أمرت أن أعبد الله غير مشرك به، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾: خصوصاً لا أدعو إلى غيره، ﴿وَالَيْهِ﴾: لا إلى غيره مرجعي، وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ

وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾: ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه، بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء، ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصابه على الحال، كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يوافقهم عليها منها: أن يصلي إلى قبلتهم بعد ما حوله الله عنها، فقليل له: لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة، خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك منه واق، وهذا من باب الإلهاب والتهيج، والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه، وألاً يزل زال عند الشبهة بعد استمسাকে بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا هُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَهْلِ كِتَابٍ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَنُفِثَ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

كانوا يعيبونه بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، وكانوا يقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ، فقليل: كان الرسل قبله بشراً مثله ذوي أزواج وذرية، وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم، ولا يأتون بما يقترح عليهم، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات؛ فلكل وقت حكم يكتب على العباد، أي: يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: ينسخ ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، أو يتركه غير منسوخ، وقيل: يمحو من ديوان الحفظ ما ليس بحسنة ولا سيئة؛ لأنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل، ﴿وَنُفِثَ﴾: غيره، وقيل: يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة، ويثبت إيمانهم وطاعتهم، وقيل: يمحو بعض

الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسي، وسائر الحيوان والنبات، والأشجار وصفاتها وأحوالها، والكلام في نحو هذا واسع المجال، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ؛ لأن كل كائن مكتوب فيه، وقرئ: «ويثبت».

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٤)

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾: وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم، وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو توفيناك قبل ذلك، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، فلا يهمنك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعٌ

الْحِسَابِ﴾ (٤٤)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾: أرض الكفر، ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام؛ وذلك من آيات النصر والغلبة، ونحوه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ﴿أَفَهُمْ أَغْلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ﴿سَتَرْنَاهُمْ بِأَسِنَّاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣]، والمعنى: عليك بالبلاغ الذي ١٨٠ ب حملته، ولا تهتم بما وراء ذلك، فنحن نكفيك ونتم ما وعدناك من الظفر، ولا يضجرك تأخره؛ فإن ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تابشير الظفر، وقرئ: «ننقصها»؛ بالتشديد، ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾: لا راد لحكمه، والمعقب: الذي يكرز على الشيء فيبطله، وحقيقته: الذي يعقبه، أي: يقفيه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقب؛ لأنه يقفي غريمه بالاقضاء والطلب؛ قال لبيد [من الطويل]:

..... طَلَبُ الْمُعَقَّبِ حَقُّهُ الْمَظْلُومُ^(١)

(١) حتى تهجر في الرواح وهاجها طلب المعقب حقه المظلوم

للبيد بن ربيعة، يصف حمار وحش خرج في الهاجرة وراء أتانته، وهاجها: أي بعثها على السير ونشطها لسرعة سيره في طلبها، كما يطلب المعقب المظلوم حقه ودينه ممن هو عليه، فالمظلوم بالرفع صفة للمعقب، لأنه فاعل في المعنى. ومعناه الذي رجع إلى حقه الذي كان أعطاه للمدين، فكانه رجع على عقبه، أو لأنه يعقب المدين ويتبعه.

ينظر: ديوانه (١٥٥)، الإنصاف ٢٣٢/١، معاني الفراء ٦٦/٢، وابن الشجري ٢٢٨/١، أوضح المسالك ٢٢٠/١، البحر المحيط ٣٩٠/٥، شرح المفصل لابن يعش ٤٦/٢، الهمع ١٤٥/٢، الدرر ١٤١/١، التصريح ٢٧٨/١، الأشموني ٤٧/٢.

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس، ﴿سَكِرَتْ الْجَسَابُ﴾: فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا.

فإن قلت: ما محل قوله: «لا معقب لحكمه»؟

قلت: هو جملة محلها النصب على الحال، كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه؛ كما تقول: جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة، تريد حاسراً.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَهُمُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ (١٢)

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: وصفهم بالمكر، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره، فقال: ﴿لِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾: ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عاقب الدار﴾؛ لأن من علم ما تكسب كل نفس، وأعد لها جزاءها فهو المكر كله؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون، وهم في غفلة مما يراد بهم، وقرئ: «الكفار»، و«الكافرون»، «والذين كفروا»، و«الكفر»: أي أهله، والمراد بالكافر الجنس: وقرأ جناح ابن جبيش: «وسيعلم الكافر»، من أعلمه، أي: سيخبره.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (١٣)

﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: لما أظهر من الأدلة على رسالتي، ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: والذي عنده علم القرآن^(١)، وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر، وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب^(٢) الذين أسلموا؛ لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم، وقيل: هو الله - عز وجل^(٣) - والكتاب: اللوح المحفوظ، وعن الحسن: لا والله، ما يعني إلا

= لسان العرب ٦١٤/١، خزنة الأدب ٢/٢٤٢، شرح شواهد الإيضاح ص ١٣٣، المقاصد النحوية ٥١٢/٣، الدر المصون ٢٤٧/٤.

(١) قال محمود: «المراد والذي عنده علم القرآن... إلخ» قال أحمد: فيكون المراد حينئذ: جنس المؤمنين.

(٢) قال محمود: «وقيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم، قال أحمد: فالكتاب على التأويل الأول مراد به القرآن خاصة، وعلى الثاني جنس الكتب المتقدمة عليه.

(٣) قال محمود: «وقيل هو الله عز وجل، والكتاب، اللوح المحفوظ. وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة والذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو، شهيداً بيني وبينكم. وتعضده قراءة من قرأ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ على من الجارة» قال أحمد: وإنما =

الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة والذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو، شهيداً بيني وبينكم؛ وتعضده قراءة من قرأ: «ومن عنده علم الكتاب»، على من الجارّة، أي: ومن لدنه علم الكتاب؛ لأن علم من علمه من فضله ولطفه، وقرئ: «ومن عنده علم الكتاب»: على من الجارّة، «وعلم»؛ على البناء للمفعول، وقرئ: «وبمن عنده علم الكتاب».

فإن قلت: بم ارتفع علم الكتاب؟

قلت: في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدّر في الظرف، فيكون فاعلاً؛ لأنّ الظرف إذا وقع صلة أوغل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول، فعمل عمل الفعل؛ كقولك: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل؛ كما تقول: بالذي استقرّ في الدار أخوه، وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّغْدِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِوَزْنِ كُلِّ سَحَابٍ مَضَى وَكُلُّ سَحَابٍ يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَبُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُؤَقِّنِينَ بِعَهْدِ اللَّهِ» (٨٠٨).

٨٠٨ - عزاه الزيلعي للثعالبي عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ فذكره، وعزاه لابن مردويه في تفسيره، كما تقدم إسناده في آل عمران، والواحد في تفسيره الوسيط، وينظر حديث (٣٤٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

تقدم إسناده في آل عمران. انتهى.

= قدر الزمخشري في المعطوف عليه اسم الله بالذي يستحق العبادة، حذراً من عطف الصفة على الموصوف، وعدولاً إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديراً وإنما أخذ الحصر حيث يقول: ومن لا يعلم علم الكتاب إلا هو من أنه قدم الخبر الذي هو عنده على مبتدئه، وشأن الزمخشري أخذ الحصر من التقديم، والله الموفق للصواب.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ
مَكِّيَّةٌ، [إِلَّا آيَتَيْ ٢٨ وَ ٢٩ فَمَدَنِيَّتَانِ]
وآيَاتُهَا ٥٢ [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ نُوحٍ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
 الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ
 عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

﴿كِتَابٌ﴾: هو كتاب، يعني: السورة، وقرئ: «ليخرج الناس»، والظلمات والنور: استعارتان للضلال والهدى، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل للحجاب؛ وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق، ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: بدل من قوله: «إلى النور» بتكرير العامل؛ كقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَفْعَفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، ويجوز أن يكون على وجه الاستثناء؛ كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد، وقوله: ﴿اللَّهُ﴾: عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام؛ لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحقق له العبادة، كما غلب النجم في الشرب^(١)، وقرئ بالرفع على: هو الله، الويل: نقيض الوأل، وهو النجاة اسم معنى، كالهلاك؛ إلا أنه لا يشتق منه فعل؛ إنما يقال: ويلاً له، فينصب نصب المصادر، ثم يرفع رفعها؛ لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويل له؛ كقوله: «سلام عليك»، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعدهم الكافرين بالويل.

فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالويل؟

قلت: لأن المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد، ويضعجون منه، ويقولون: يا

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا التعليل لا يتم إلا أن يكون أصله الإله، ثم فُعل فيه ما تقدم أول هذا الموضوع». انتهى. الدر المصنوع.

ويلاه؛ كقوله: ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾: مبتدأ خبره: أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على الذم، أو مرفوعاً على أعني الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأنّ المؤثر للشيء على غيره، كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر، وقرأ الحسن: «ويصدّون»: بضم الياء، وكسر الصاد، يقال: صدّه عن كذا، وأصدّه؛ قال [من الطويل]:

أَنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ (١)

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدوداً، لتقلبه من غير التعدي إلى التعدي، وأما صدّه، فموضوع على التعدية كمنعه، وليست بفصيحة كأوقفه؛ لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة، ﴿وَيَقُولُونَ عِوَجًا﴾: ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً، وأن يدلّوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، / ١٨١ والأصل: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل، ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ضلّوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل.

فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟

قلت: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضالّ؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(١) أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السوافي في أنوف الحوايم
لذي الرمة، أنشده عنه الفراء، يقال: صدّه عن كذا، ولغة كلب: أصدّه عنه إذا منعه، فوضع الصدود موضع الإصداد. والسوافي - بالفاء -: الرياح، لأنها تسفو التراب. وقيل: هي بالقف جمع ساق أو ساقية، وهي فوق الجدول. والحوايم: الجمال العطاش؛ لأنها تحوم حول الماء جمع حاييم، ويطلق على طير إذا اشتد عطشه حام حول الماء، فإذا ناله سقط ريشه فيغرق فيه. وجمعه حوايم أيضاً. ويجوز أن يراد هنا، أو الجبال لأنها لارتفاعها تشرف من بعد كأنها حايمة، أو لأن الطير يحوم فوقها فنسبة الفعل إليها مجاز لأنها محله، يقول: قوم منعوا الناس عن أنفسهم بالسيف لمنع الرياح وضربها في أنوف الجمال، أو في أعالي الجبال، أو كمنع السقاة إبل غيرهم عن إبلهم في السقي، أو كمنع الأنهار لبعدها مائها الإبل العطاش أو الطيور العطاش عن الشرب، لأن الطيور تخاف الفرق فيه. ويروى: عن أنوف الحوايم. وفيه تشبيه الأعداء بالعطاش وأصحاب السيوف، أو السيوف بالرياح ضمناً.
ينظر: الدر المصون (٤/٢٥١).

﴿إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله^(١)، ولا يقولوا: لم نفهم ما خاطبنا به؛ كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤].

فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم؛ وإنما بعث إلى الناس جميعاً، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية، لم تكن للعرب حجة، أيضاً؟

قلت: لا يخلو، إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة^(٢)، والأمم المتخلفة، والأجيال المتفاوتة، على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتياب النفوس وكذّ القرائح فيه، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها - مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء، ومعنى: (بلسان قومه): بلغة قومه، وقرئ: «بلسن قومه»، واللسن واللسان: كالريش والرياش، بمعنى: اللغة، وقرئ: «بلسن قومه»: بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة، وهو جمع لسان، كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه

(١) قال محمود: «أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة... إلخ» قال أحمد: جميع الفصل مرضي، لكن في هذه الخاتمة نظر، لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة يتقاصر عن إعجازه، لو قدر منزل بكل لسان، حتى إنه لو ينزل بجميع اللغات لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون إلهاء إلى الإيمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح، فلو نزل القرآن بجميع اللغات، لكان العلم الحاصل منه وقد نزل بلغة واحدة، هو العلم الحاصل منه لو نزل بالجميع، لا تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، هذا هو التحقيق، والله أعلم. والمخشري يبني في كثير من كلامه على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

(٢) قوله: «والأقطار المتنازحة» أي المتباعدة جداً. أفاده الصحاح (ع).

لمحمد ﷺ ورووه عن الضحاك، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية، ثم أذاها كل نبي بلغة قومه، وليس بصحيح؛ لأن قوله ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب، فيؤدي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب، وهذا معنى فاسد، ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ كقوله: ﴿فَنُكِرَ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن، والمراد بالإضلال: التخليّة ومنع الألفاظ^(١)، وبالهداية: التوفيق واللفظ، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان، ﴿وَهُوَ أَعَزُّ﴾: فلا يغلب على مشيئته، ﴿الْحَكِيمُ﴾: فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ بمعنى: أي أخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل؛ وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل: قولهم أوعز إليه بأن افعل، فأدخلوا عليها حرف الجر؛ وكذلك التقدير بأن أخرج قومك، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ﴾: وأنذرهم بوقائع التي وقعت على الأمم قبلهم: قوم نوح، وعاد، وثمود، ومنه أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها، وهو الظاهر، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: نعماءه وبلاؤه، فأما نعماءه: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وقلق لهم البحر، وأما بلاؤه: فإهلاك القرون، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأن الشكر والصبر من سجاياهم؛ تنبيهاً عليهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَلَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

(١) قوله: «والمراد بالإضلال التخليّة ومنع الألفاظ» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فخلق الضلال في القلب، لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة، ويخلقه كالخير عند أهل السنة (ع).

﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ﴾: ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت.

فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب بعلیکم؟

قلت: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة، بمعنى: اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم عمل فيه، ويتبين^(١) الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت: نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة، لم يكن كلاماً حتى تقول فائضة أو نحوها، وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون «إذ»: بدلاً من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهومن بدل الاشتمال.

فإن قلت: في سورة البقرة: (يذبحون)، وفي الأعراف: (يقتلون)، وههنا:

﴿وَيَذَّخَّرُ﴾ مع الواو، فما الفرق؟

قلت: الفرق: أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح؛ لأنه أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قلت: كيف كان فعل/ ١٨١ب آل فرعون بلاء من ربهم؟

قلت: تمكينهم وإمهالهم، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من الله، ووجه آخر وهو: أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً، قال تعالى: ﴿وَنُبَلِّغُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ وقال زهير [من الطويل]:

فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو^(٢)

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠]، كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن ربكم: أذن ربكم، ونظير تأذن وأذن: تواعد وأوعد، تفضل وأفضل، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾، أو أجرى (تأذن): مجرى؛ قال: لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: «وإذ قال ربكم لئن شكرتم»، أي: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح،

(١) قوله: «ويتبين» لعله: ويتبين (ع).

(٢) تقدم.

﴿لَا زَيْدَنَّكُمْ﴾: نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم، ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾: وغمطتم^(١) ما أنعمت به عليكم، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾: لمن كفر نعمتي.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: إن كفرتم أنتم يا بني إسرائيل والناس كلهم؛ فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه وأنتم إليه محايِج، والله غني عن شكركم، حميدٌ: مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، وإن لم يحمدوا الحامدون.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِهٖ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾

﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: جملة من مبتدأ وخبر، وقعت اعتراضاً^(٢)؛ أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: اعتراض، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعني: أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل^(٣)؛ كقوله: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْقَبِيلِ﴾، أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِهٖ﴾ أي: هذا جوابنا

(١) قوله: «وغمطتم ما أنعمت به عليكم» في الصحاح «غمط الشيء» بطره وحقره (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: ورد عليه الشيخ بأن الاعتراض إنما يكون بين جزئين، أحدهما يطلب الآخر، ولذلك لما أعرب الزمخشري «والذين» مبتدأ، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ خبره، قال: «والجملة من المبتدأ والخبر اعتراض». واعترضه الشيخ أيضاً بما تقدم، ويمكن أن يجاب عنه في الموضعين: بأن الزمخشري يمكن أن يعتقد أن «جاءتهم» حال مما تقدم، فيكون الاعتراض واقعاً بين الحال وصاحبها وهذا كلام صحيح. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «معناه عضوا غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل... إلخ» قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك لأن إقناطهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسدتهم في الكفر. وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيظ ولا لتصميم الرسل كمناسبتها لإقناطهم من القبول. ألا ترى أنهم لما أعادوا للرسل القول ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دل على أنهم لم يسكتوهم أولاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

لكم ليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكون، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع: يد، وهي النعمة بمعنى: الأيادي، أي: ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم، وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم؛ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكانهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل، ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾: من الإيمان بالله، وقرئ: «تدعوننا»: بإدغام النون، ﴿مُزَيَّبٍ﴾: موقع في الريبة أو ذي ريبة، من أرابه، وأراب^(١) الرجل، وهي قلق النفس وألاً تطمئن إلى الأمر.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾: أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام ليس في الشك؛ إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة؛ كقوله: دعوته لينصريني، ودعوته ليأكل معي؛ وقال [من المتقارب]: دَعَوْتُ - لِمَا تَابَنِي - مِسُوراً فَلَبَّى فَلَبَّى يَدَنِي مِسُوراً^(٢)

(١) قوله: «وأراب الرجل» لعله: أو أراب (ع).

(٢) لأعرابي من بني أسد. ولبي: بمعنى أجاب، ورسمه ابن حبيب بالالف وإن كان يائياً للفرق بينه وبين المثني بعده. ولبي من الأسماء اللازمة للإضافة إلى الضمير، وشذ إضافته للظاهر كما هنا، من لب بالمكان لباً أقام به والمراد ملازمة إجابته إجابة بعد إجابة لا اثنين فقط، وهو منصوب على المصدرية بفعل محذوف. هذا مذهب سيبويه. وزعم يونس أنه مفرد مقصور، قلبت ألفه مع الضمير ياء كلدی وعلى، فرد عليه سيبويه بأنه لو كان كذلك لم تنقلب ألفه مع الظاهر ياء كلدی وعلى، لكنهم لما أضافوه للظاهر قلبوها ياء كما في البيت. يقول: دعوت مسوراً لما أصابني، فأجابني فلبى يديه، أي أجاب الله دعاءه إجابة بعد إجابة، وأقحم اليدين لأنهما يرفعان عند الدعاء، فكانتاهما المجابتان؛ أو لأن نصره حصل بهما، ففيه إشارة إلى أنه أنقذه. وقيل: إنه دعاه ليغرم عنه الدية، فأجاب، فذكر يديه لأنه بذل بهما. قيل: وكانت عادة العرب ذلك فنهى عنه. روي عن رسول الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: إذا دعا أحدكم أخاه فقال: لبيك، فلا يقولن لبي يديك، وليقل أجايبك الله بما تحب.

ينظر: الدرر ٣/٦٨، شرح التصريح ٢/٣٨، شرح شواهد المغني ٢/٩١٠، لسان العرب (لبي)، =

فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: من ذنوبكم؟

قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين؛ كقوله: ﴿وَأَنفُؤْهُ وَأَطِيعُونَ يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣، ٤]، ﴿يَقُومُواْ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَذُنُكُمْ عَلَىٰ عِزِّرٍ تُنَجِّكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للفرقة بين الخطابين، ولثلاثا يسوي بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره، يبلغكموه إن أمتتم، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، ﴿إِن أَنتُمْ﴾: ما أنتم، ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوة^(١) دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً، لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة^(٢)، ﴿يَسْطَلِّينَ مِيزِينَ﴾: بحجة بينة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج؛ وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاًجاً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْنَاكُمْ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢)

﴿إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون: أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم؛ ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً

= المقاصد النجوية ٣/ ٣٨١، وأوضح المسالك ٣/ ١٢٣، خزانة الأدب ٢/ ٩٢، ٩٣، سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٤٧، شرح أبيات سيبويه ١/ ٣٧٩، شرح الأشموني ٢/ ٣١٢، شرح ابن عقيل ص (٣٨٣، ٣٨٥)، الكتاب ١/ ٣٥٢، المحتسب ١/ ٧٨، ٢/ ٢٣، مغني اللبيب ٢/ ٥٧٨، مع الهوامع ١/ ١٩٠، الدر المصون ٣/ ٦٣.

(١) عاد كلامه. قال: «وقولهم إن أنتم إلا بشر مثلنا: معناه فلم تخصون بالنبوة دوننا؟ ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة؟ قال أحمد: ومن تهالكه على الانتصار لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون كمعتقد القدرية في تفضيل الملك على الرسول، لأنه يدعي ذلك أمراً مركزاً في الطباع معلوماً ضرورة، والله الموفق.

(٢) قوله: «لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» هذا على مذهب المعتزلة، أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل (ع).

منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُمِثُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: بالنبوة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق/ ١٨٢ أ بمشيئة الله، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأمرها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ ومعناه: وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه، ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا﴾: وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فإن قلت: كيف كرّر الأمر بالتوكل^(١)؟

قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ دُنُوسِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾: ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم، وإما عودكم حالفين^(٢) على ذلك.

فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها.

قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى: الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه عادلاً يكلمني، ما عاد لفلان مال، أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد، ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾: حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول؛ لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حية: «ليهلكن»، «وليسكننكم»: بالياء اعتباراً لأوحى، وأن لفظه لفظ الغيبة؛ ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن، والمراد بالأرض، أرض الظالمين وديارهم؛ ونحوه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْخَعُونَ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾.

(١) قال محمود: «إن قلت كيف كرّر ذلك بعد قوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ... إلخ» قال

أحمد: وبهذا يخرج عن وادي «من قتل قتيلاً فله سلبه» والله أعلم.

(٢) قوله: «حالين» حال من فاعل قال: وعبرة النسفي «وحلفوا» (ع).

وَمَكْرِبَهَا ﴿[الأعراف: ١٣٧]﴾، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وعن النبي ﷺ: «مَنْ آذَى جَارَهُ وَرَثَهُ اللَّهَ دَارَهُ» (٨٠٩)، ولقد عاينت هذا في مدة قرية: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنها منها ويؤذي في، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها، ويخرجون، ويأمرون وينهون، فذكرت قول رسول الله ﷺ وحدثتهم به، وسجدنا شكراً لله، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي: ذلك الأمر حق، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: موقفي وهو موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف^(١) فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام، وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله، والمعنى: أن ذلك حق للمتقين؛ كقوله: ﴿وَالْمَقِيَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصص: ٨٣].

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَكِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾: واستنصروا الله على أعدائهم، ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]: أو استحكموا الله، وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهو معطوف على: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ وقرئ: «واستفتحوا»: بلفظ الأمر، وعطفه على: (لنهلكن)، أي: أوحى إليهم ربهم، وقال لهم: لنهلكن، وقال لهم: استفتحوا، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: فنصروا وظفروا وأفلحوا، وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل، ظناً منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه، ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾: من بين يديه، قال [من الوافر]:
عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسِنَتْ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ^(٢)

٨٠٩ - بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٩٩/٢)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

(١) قوله: «يقف فيه عباده» في الصحاح: يتعدى ولا يتعدى (ع).

(٢) يؤرقني اكتئاب أبي نمير فقلبي من كآبته كشيبي

فقلت له: هداك الله مهلاً وخير القول ذو اللب المصيب

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

لهذبة بن خشرم العذري. ويروى: خرشم، وكان مسجوناً للقتل. والتأريق: التسهير، والاكتئاب:

الانكسار وتغير اللون من الحزن، والكآبة كذلك. وأبو نمير كان صديقاً له، فزاره ذلك السجن =

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم، فكأنها بين يديه وهو على سفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف.
فإن قلت: علام عطف: ﴿وَسُقَى﴾؟

قلت: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي ويسقى من ماء صديد، كأنه أشد عذابها، فخصص بالذكر مع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: ﴿مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾؟

قلت: صديد عطف بيان لماء، قال: (ويسقى من ماء)، فأبهمه إبهاماً، ثم بينه بقوله: (صدید)، وهو ما يسيل من جلود أهل النار، ﴿بَجَرَعُهُمْ﴾: يتكلف جرعه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسْقَى﴾: دخل كاد للمبالغة، يعني: ولا يقارب أن يسقيه، فكيف تكون الإساعة؛ كقوله: ﴿لَوْ يَكْدُ رَيْهًا﴾ [النور: ٤٠]، أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾: كأن أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه^(١) وأحاطت به من جميع الجهات، تفضيلاً لما يصيبه من الآلام، وقيل: (من كل مكان): من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة، ﴿وَيَنْزِلُ مِنْ أَلْفِ مَوْجٍ مِنْ فَوْقِهِ﴾: ومن بين يديه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع

= وحزن عليه. ومهلاً: مصدر بدل من اللفظ بفعله. وخبر القول: جملة اعتراضية في أثناء مقول القول. واللب: العقل. وعسى الكرب: تمة مقول القول. ويروى: أمسيت، بالضم والفتح. وقال الجوهري «وراء» يأتي بمعنى خلف، وقد يأتي بمعنى قدام، فهو من الأضداد اهـ؛ لأنه ما وراء الشخص بجرمه عن نفسه أو عن غيره، ومواراته عن نفسه لا يمكن إلا في الخلف، فكثر فيه. أو هو مكان المواراة مطلقاً، وهو في الخلف أكثر. واسم «يكون» ضمير الكرب، ووراء متعلق بمحذوف خبر ليكون، و«فرج» فاعل بالظرف. ويجوز أن «فرج» مبتدأ و«وراء» متعلق بمحذوف خبر له، والجملة خبر ليكون، ويجب كون المحذوف كوناً تاماً لا ناقصاً؛ لثلا يحتاج إلى تقدير محذوف أيضاً، فيتسلسل التقدير، ولم يجعل «فرج» مرفوع ليكون؛ لأن خبر أفعال المقاربة لا يرفع الأجنبي عن أسمائها. وجملة «يكون» خبر ليس، وتجريد خبرها من «أن» قليل أي عسى أن يحصل الفرج بعد الكرب.

ينظر خزانة الأدب ٣٢٨/٩، ٣٣٠، وشرح أبيات سيبويه ١٤٢/١، والدرر ١٤٥/٢، وشرح التصريح ٢٠٦/١، وشرح شواهد الإيضاح ص ٩٧، وشرح شواهد المغني ص ٤٤٣، والكتاب ٣/ ١٥٩، واللمع ص ٢٢٥، والمقاصد النحوية ١٨٤/٢، وأسرار العربية ص ١٢٨، وأوضح المسالك ٣١٢/١، وتخليص الشواهد ص ٣٢٦، وخزانة الأدب ٣١٦/٩، والجنى الداني ص ٤٦٢، وشرح ابن عقيل ص ١٦٥، وشرح عمدة الحفاظ ص ٨١٦، والمقرب ٩٨/١، وشرح المفصل ١١٧/٧، ١٢١، ومغني اللبيب ص ١٥٢، والمقتضب ٧٠/٣، وجمع الهوامع ١٣٠/١ والدرر المصون ١/ ٥٢٦.

(١) قوله: «قد تألبت عليه» أي تجمعت. أفاده الصحاح (ع).

الأنفاس وجسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي: استمطروا - والفتح المطر - في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا؛ فذكر سبحانه ذلك، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد، وأنه يسقى في جهنم بدل سقيه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوا - على هذا التفسير -: كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: وفيما يقص عليك، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾: والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾: جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ ف قيل / ١٨٢ب: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبراً للمبتدأ، أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد؛ كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، أو يكون أعمالهم بدلاً من: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر، وقرئ: «الرياح»، ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح؛ كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة؛ وإنما السكور لريحها^(١)، وقرئ: «في يوم عاصف»: بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفداء الأساري، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجازة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به، وكونها لوجه: برماد طيرته الريح العاصف، ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾: يوم القيامة، ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾: من أعمالهم، ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾: إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾: إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب، ﴿يَالْحَقُّ﴾: بالحكمة والغرض الصحيح^(٢)، والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُوسَ كُفْرًا يَدْعُبُكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩)

- (١) قوله: «وإنما السكور لريحها» في الصحاح: سكرت الريح، تسكر سكوراً: سكنت بعد الهبوب (ع).
(٢) قال محمود: «معناه خلقها بالحكمة والغرض الصحيح... إلخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي وقد تقدمت أمثاله.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

وقرئ: «خالق السموات والأرض»، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس، ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم؛ إعلماً منه باقتداره على إعدام الموجود، وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: بمتعذر، بل هو هين عليه يسير^(١)؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف، تكون من غير توقف: كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف؛ وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله؛ لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَدْ الضُّعْفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنْنا كُنَّا لَكُمْ بَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ﴾: ويبرزون يوم القيامة؛ وإنما جيء به بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد؛ ونحوه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾: ونظائر له، ومعنى بروزهم لله - والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له -: أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة، انكشفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

فإن قلت: لم كتب: ﴿الضُّعْفَتُوا﴾: بواو قبل الهمزة؟

قلت: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو؛ ونظيره: ﴿أَوَّلَ يَكُنْ لَمْ يَأَيَّ أَنْ يَعْلَمُوا عَلِمُوا بَنَى إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، والضعفاء: الأتباع والعوام، والذي استكبروا: ساداتهم وكبرائهم، الذين استبعوهم واستغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم، ﴿بَعًا﴾: تابعين: جمع تابع على تبع؛ كقولهم: خادم وخدم، وغائب

(١) عاد كلامه. قال: معناه وما ذلك على الله بعزیز، أي: هين عليه، لأنه قادر بالذات... إلخ... قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه عن سمع المحققين العارفين بأداب الله تعالى وبما يجب في حق جلاله، وقد تقدم ما فيه كفاية.

وغيب^(١)، أو ذوي تبع، والتبع: الأتباع، يقال: تبعه تبعاً.

فإن قلت: أي فرق بين من في: ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾، وبينه في: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾؟

قلت: الأولى: للتبيين، والثانية: للتبعض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعض معاً، بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أي: بعض بعض عذاب الله؟

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾؟

قلت: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم^(٢)، وعتاباً على استتباعهم واستغوائهم، وقولهم: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُقْنُونَ عَنَّا﴾: من باب التبكيت؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرّون على الإغناء عنهم، فأجابوهم معتردين عما كان منهم إليهم: بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم، ولم يضلّوهم، إما موركين الذنب^(٣) في ضلالهم وإضلالهم على الله، كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا؛ ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]، وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلفظ بنا ربنا واهتدينا، لهديناكم إلى الإيمان، وقيل: معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغينا عنكم وسلطنا بكم طريق النجاة، كما سلطنا بكم طريق الهلكة،

(١) قوله: «خادم وخدم وغائب وغيب» في الصحاح: وإنما ثبت فيه الباء في التحريك، لأنه شبه بصيد وإن كان جمعاً، وصيد مصدر قولك «بعر أصيد» لأنه يجوز أن ينوي به المصدر (ع).

(٢) قال محمود: «الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم... إلخ» قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتملة على أن الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هداية المشركين مما لم يشأ، ولو شاءها لاهتدوا. وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء. والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك شرع في تقرير تخطيطهم في هذا القول في الآخرة كما خطأهم في الدنيا، ليتيم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هداية الكفار فإن الله تعالى يشاؤها في الدنيا، لكنها لم تكن. وأنى له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة، إذ لا ينجع، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه إيمانه، فيقول: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم... إلخ. وإنما سبق تحذيراً وإنذاراً اتفاقاً، والله الموفق.

(٣) قوله: «موركين الذنب» في الصحاح: ورك فلان ذنبه على غيره، أي: قرفه به، أي: اتهمه به (ع).

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾: مستويان علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم للتسوية؛ ونحوه: ﴿فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦]. وروي أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك ثم يقولون: سواء علينا.

فإن قلت: كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟

قلت: اتصاله به من حيث أَنَّ عتابهم لهم كان جزءاً مما هم فيه، فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، يريدون: أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطم، أو لما قالوا: لو هدانا الله طريق النجاة لأغنيا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقناط من/ ١٨٣ النجاة فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: منجى ومهرب، جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنه قيل: قالوا: جميعاً: سواء علينا؛ كقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف: ٥٢]، والمحيص: يكون مصدراً، كالمغيب والمشيّب، ومكاناً، كالمبيت والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض، بمعنى واحد.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار، وروي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً^(١) في الأشقياء

(١) قال محمود: «روي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً... إلخ» قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى على إبطال الانتحال، لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع ولا متعذر بقوله تعالى ﴿فَيُخَوِّتُونَ لَكُمْ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ﴾ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه وإن كان قائله الشيطان؛ كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه وأية سلك. ونحن معاشر أهل السنة الملقبين، عنده بالمجبرة نقول: إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له، ولا مخطيء فيه الشيطان، كما اقتص كلام الكفار في الآية الأولى كذلك. ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك. وحجته البالغة، وقضاؤه الحق. وذلك أنا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبد من الاختيار الذي يجده من نفسه عند تجاذب طرفي الأفعال الإرادية ضرورة؛ وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلينا =

من الجن والإنس فيقول ذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ﴾: وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾: خلاف ذلك، ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾: من تسلط وقهر فأفسركم على الكفر والمعاصي والجنكم إليها، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان؛ ولكنه كقولك: ما تحتيتهم إلا الضرب، ﴿فَلَا تُلْهُمُونِي وَلْتُمْؤَا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه^(١)، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلهموني ولا أنفسكم؛ فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به.

قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً، لبين الله بطلانه، وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالبطل في ذلك المقام؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِيَّ﴾: لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ: الإغاثة، وقرئ: «بمصرخي» بكسر الياء، وهي ضعيفة؛ واستشهدوا لها بيت مجهول [من الرجز]:

قَالَ لَهَا: هَلْ لَكَ يَأْتَا فِي؟ قَالَتْ لَهُ: مَا أَنْتَ بِالْمَرْضِيِّ^(٢)

= عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف، والله الموفق.

(١) قوله: «يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه» هذا مذهب المعتزلة، وقوله: «المجبرة» يعني أهل السنة، ومذهبهم أن الله هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب الشقاوة، لكن العبد له فيها الكسب. ومن هذا يتوجه عليه اللوم، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن العبد هو الخالق لها، وهو الذي يحصل لنفسه. وتحقيقه في علم التوحيد (ع).

(٢) قال لها: هل لك يا تافهي؟ قالت له: ما أنت بالمرضي

ماض إذا ما هم بالمرضي

قائله مجهول. وتا: اسم إشارة، أي: هل لك يا هذه المرأة رغبة في. وأصل ياء المتكلم السكون، فإن حركت فبالفتح، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساغ كسرهما، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين. وقالت: استئناف، كأنه قيل له: فماذا قالت؟ فقال: قالت له لست مرضياً، فإنك رجل ماض في كل أمرتهم فيه، فماض: خبر لمبتدأ محذوف. والجملة: استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا. وعبر بضمير الغيبة في قوله: هم نظراء للخير. ويجوز تقدير المبتدأ =

وكانه قدّ رياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة، فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح؛ لأنّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة؛ حيث قبلها ألف في نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح؛ لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحرّكت بالكسر على الأصل.

قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات، «ما» في: ﴿يَمَّا أَشْرَكْتُمُونِ﴾: مصدرية، و﴿وَمِنْ قَبْلِكَ﴾: متعلقة بأشركتموني، يعني: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المتحنة: ٤] وقيل: (من قبل): يتعلق بكفرت، وما: موصولة، أي: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتموني، وهو الله - عزّ وجلّ - تقول: شركت زيدا، فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركنيه فلان، أي: جعلني له شريكاً، ونحو «ما» هذه «ما» في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان^(١) وغيرها، وهذا آخر قول إبليس، وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾: قول الله - عزّ وجلّ - ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس؛ وإنما حكى الله - عزّ وعلا - ما سيقوله في ذلك الوقت؛ ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم، والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم، وقرئ: «فلا يلوموني»: بالياء على طريقة الالتفات؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَئِمُّونَ فِيهَا سَلَامٌ﴾

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «وأدخل الذين آمنوا»^(٢): على فعل المتكلم، بمعنى:

= لفظ «هو» فيكون التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، دلالة على الإعراض عنه، وذكر السبب لغيره.

البيت للأغلب العجلي في ديوانه ص ١٦٩، حاشية يس (٦٠/٢)، خزنة الأدب (٤/٤٣٠)، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧)، وبلا نسبة في شرح عمدة الحافظ (ص ٥١٣)، المحتسب (٤٩/٢).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ومنّ منع ذلك جعل» «سبحان» علماً للتسبيح، كما جعل «برّة» علماً للمبرّة. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم... إلخ» قال =

وأدخل أنا، وهذا دليل على: أنه من قول الله، لا من قول إبليس، ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قلت: فيم يتعلق في القراءة الأخرى، وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم، كلام غير ملتئم؟

قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله: ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ﴾ بما بعده، أي: ﴿تَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: بإذن ربهم، يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَا ذِينَ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قري: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ساكنة الراء، كما قري: «من يتق»، وفيه ضعف، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾: اعتمد مثلاً ووضع، و﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: نصب بمضمر، أي: جعل كلمة طيبة، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو تفسير لقوله: (ضرب الله مثلاً)؛ كقولك: شرف الأمير زيدا: كساه حلة، وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب (مثلاً)، و(كلمة): بضرب، أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً، بمعنى: جعلها مثلاً، ثم قال: (كشجرة طيبة): على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هي كشجرة طيبة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يعني: في الأرض، ضارب بعروقه فيها، ﴿وَفَرْعُهَا﴾: وأعلاها ورأسها، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، ويجوز أن يريد: وفروعها، على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: «كشجرة طيبة ثابت أصلها». / ١٨٣

فإن قلت: أي فرق بين القراءتين؟

قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالنسيحة، والتحميدة، والاستغفار، والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن

= أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، والرجاء إلى تعليقه بما بعده، وقد كانت له في ذلك مندوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ ولم يقل تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر (أدخل) بلفظ المتكلم، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة، بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإذن يشعر بإضافة الدخول إلى الوساطة، فبينهما تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

لا إله إلا الله، وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار، كالنخلة، وشجرة التين، والعنب، والرمان، وغير ذلك، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلِ الْمُؤْمِنِ شَجَرَةً فَأَخْبِرُونِي مَا هِيَ» ح، فوق الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًا، فوق في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم، وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بني، لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنَّهَا النَّخْلَةُ» (٨١٠). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: شجرة في الجنة، وقوله: (في السماء) معناه: في جهة العلو والصعود، ولم يرد المظلة؛ كقولك في الجبل: طويل في السماء: تريد ارتفاعه وشموخه، ﴿تَوْفِقَ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ﴾: تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها ﴿يَاذِنِ رَبُّهَا﴾: بتيسير خالقها وتكوينه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: كمثل شجرة خبيثة، أي: صفتها كصفتها، وقرئ: «ومثل كلمة بالنصب»: عطفًا على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوت^(١)، ونحو ذلك، وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: في مقابلة قوله: (أصلها ثابت)، ومدنى: ﴿اجْتُثَّتْ﴾: استؤصلت، وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثة كلها، ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: استقرار، يقال: قر الشيء قرارًا؛ كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه، من قولهم: الباطل لجلج^(٢)، وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما

٨١٠ - أخرجه البخاري (٤٨١/٩) كتاب الأطعمة باب أكل الجمار حديث رقم (٥٤٤٤)، ومسلم (١٦٧/٩) - (١٦٨) نووي، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب مثل المؤمن حديث رقم (٢٨١١). وقال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه وله ألفاظ. انتهى.

(١) قوله: «والكشوت» في الصحاح: الكشوت نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. قال الشاعر [من البسيط]:

هو الكشوت فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)

(٢) قوله: «من قولهم: الباطل لجلج» في الصحاح: الحق أبلج، والباطل لجلج، أي: يردد من غير أن ينفذ (ع).

أعلم لها في الأرض مستقرًا، ولا في السماء مصعدًا، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة .

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾: الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة، أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم، لم يتلعثموا ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل: معناه: الثبات عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثُمَّ يُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ»^(١) (٨١١)، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾: الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم؛ وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: ﴿إِنَّا وَحَدَّثَنَا ءَابَاءُنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: ما توجبه الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة، من تثبيت المؤمنين وتأييدهم، وعصمتهم عند

٨١١ - أخرجه أبو داود (٢١٣/٣) كتاب الجنائز باب الجلوس عند القبر حديث (٣٢١٢) من طريق المنهال ابن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

هذا طرف من حديث له طويل، أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبي شيبه وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عند البخاري مرفوعاً في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر: يقال له: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربي الله. ونبي محمد ﷺ، وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا... الآية﴾. انتهى.

(١) قوله: «القول الثابت الذي ثبت بالحجة» لما فسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد والخبيثة بكلمة الشرك، فالمتجه تفسير القول الثابت بقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وإضلال الظالمين بإفنائهم على كلمة الشرك، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وأما التمسك بالحجة وتقليد الشيوخ فبعيد عن السياق. وفيه رد على أهل السنة المكتفين بالتقليد في تحقق الإيمان (ع).

ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَكُ الْفَرَارِ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدْدَااَ لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: شكر نعمة الله، ﴿كَفْرًا﴾؛ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرًا، فكانهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً؛ ونحوه: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: شكر رزقكم؛ حيث وضعتم التكذيب موضعه، ووجه آخر: وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفرًا على أنهم لما كفروا سلبوها، فبقوا مسلوبى النعمة موصوفين بالكفر، حاصلًا لهم الكفر بدل النعمة^(١)، وهم أهل مكة: أسكنهم الله حرمة، وجعلهم قوام بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضر بهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة؛ كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم، وعن عمر - رضي الله عنه -: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية: فتمتعوا حتى حين، وقيل: هم متنصرة العرب: جبلة بن الأيهم وأصحابه، ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾: ممن تابعهم على الكفر، ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾: دار الهلاك، وعطف: ﴿جَهَنَّمَ﴾ على دار البوار عطف بيان، قرئ: (ليضلوا): بفتح الياء وضما.

فان قلت: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟ قلت: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد، / ١٨٤ كما كان الإكرام في قولك: جنتك لتكرمني، نتيجة المجيء، دخلته اللام وإن لم يكن غرضاً، على طريق التشبيه والتقريب، ﴿تَمَتَّعُوا﴾: إيدان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه، وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن دمت على ما أنتم عليه من الامتنال لأمر الشهوة، ﴿فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية؛ ونحوه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةَ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

(١) قال السمين الحلبي: وعلى هذا فلا يحتاج إلى حذف مضاف على هذا. انتهى. الدر المصون.

المقول محذوف^(١)، لأن جواب (قل): يدل عليه؛ وتقديره: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أقيموا الصلاة وأنفقوا، ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا﴾: وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا، بمعنى: ليعيموا ولينفقوا، ويكون هذا هو المقول، قالوا: وإنما جاز حذف اللام؛ لأن الأمر الذي هو (قل): عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام، لم يجز. فإن قلت: علام انتصب: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؟

قلت: على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف، أي وقتي سر وعلانية، أو على المصدر، أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، المعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب، والخلال: المخالة.

فإن قلت: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾^(٢)؟

قلت: من قبل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها، وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً؛ كقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَجَزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال، أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات؛ وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: «لا بيع فيه ولا خلال»، بالرفع.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا

(١) قال محمود: «المقول محذوف... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر، لأن الجواب حينئذ يكون خيراً من الله تعالى، بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قبل لهم فلم يمثل كثير منهم، وخبر الله تعالى يجلب عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الإعراب مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق المنزه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية وكقوله ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا لِّئَلِيَّ مِنْ أَحْسَنَ﴾، ﴿وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾، ﴿وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الثاني: تكرر مجيئه لموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآية من هو بصدد الامتثال وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصدق، إما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(٢) قوله: «بأنه لا بيع فيه ولا خلال» هذه القراءة بالبناء على الفتح (ع).

لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿الله﴾: مبتدأ، و﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: خبره، و﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: بيان للرزق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات، ويجوز أن يكون: (من الثمرات): مفعول أخرج، و﴿رِزْقًا﴾: حالاً من المفعول، أو نصباً على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق، ﴿بِأَمْرِهِ﴾: بقوله كن، ﴿دَائِبَيْنِ﴾: يدأبان في سيرهما وإنارتها ودرئها الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض، والأبدان والنبات، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: يتعاقبان خلفه لمعاشركم وسباتكم^(١)، ﴿وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: من للتبعيض، أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه؛ نظراً في مصالحكم، وقرئ: «من كل بالتثنية»، وما سألتموه نفى ومحلّه النصب على الحال، أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائله، ويجوز أن تكون (ما): موصولة، على: وآتاكم من ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعاشركم إلا به، فكانكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال، ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾: لا تحصروها ولا تطبقوها عليها ولا يعلمه آخرها؛ هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأمّا التفصيل: فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله، ﴿لَظَلُومٌ﴾: يظلم النعمة بإغفال شكرها، ﴿كَفَّارٌ﴾: شديد الكفران لها، وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع، والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَسَلْنَاكَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿هَذَا الْبَلَدَ﴾: يعني: البلد الحرام، زاده الله آمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم، عليه السلام، ﴿آمِنًا﴾: ذا أمن.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، وبين قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾؟

قلت: قد سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرج من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد

(١) قوله: «وسباتكم» في الصحاح: السبات النوم، وأصله الراحة، ومن قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً) (ع).

مخوف، فاجعله آمناً، ﴿وَأَجْنِبْنِي﴾، وقرئ: «وأجنبني»، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه؛ فأهل الحجاز يقولون: «جنبني شره»: بالتشديد، وأهل نجد: «جنبني وأجنبني»، والمعنى: ثبتنا وأدمننا على اجتناب عبادتها، ﴿وَبَيْنِي﴾: أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً؛ واحتج بقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَيْنِي﴾، ﴿أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؛ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم، قالوا: البيت حجر، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقال: دار بالبيت، ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾: فأعوذ بك أن تعصمني^(١)، وبني من ذلك؛ وإنما جعلن مضلات؛ لأن الناس ضلوا بسببهن، فكانهن أضللنهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم، أي: افتتنوا بها واغترروا بسببها، ﴿فَمَنْ يَتَعَنِّي﴾: على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي، ﴿فَإِنَّهُمْ مِنِّي﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» (٨١٢)، أي: ليس بعض المؤمنين، على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم،

٨١٢ - أخرجه مسلم (٣٤٨/١ - الأبي) كتاب الإيمان: باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» حديث (١٠٢/١٦٤)، وأبو داود (٢٩٤/٢) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش حديث (٣٤٥٢)، والترمذي (٥٩٧/٣) كتاب البيوع: باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع حديث (١٣١٥)، وابن ماجه (٧٤٩/٢) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٤)، وأبو عوانة (٥٧/١)، وأحمد (٢٤٢/٢)، والحميدي (٤٤٧/٢) رقم (١٠٣٣)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٥٦٤)، وابن جبان (٤٩٠٥ - الإحسان)، وابن منده في «الإيمان» رقم (٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٣٤/٢)، والحاكم (٨/٢ - ٩)، والبيهقي (٣٢٠/٥) كتاب البيوع، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة به وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. قلت: وقد وهم رحمه الله في ذلك فالحديث في صحيح مسلم كما تقدم في التخريج. وللحديث شواهد من حديث ابن عمر وأبي بردة بن نيار وابن مسعود والحارث بن سويد وقيس بن أبي غرزة وأبي الحمراء وعائشة.

- حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٥٠/٢) والبخاري (٨٢/٢ - كشف) رقم (١٢٥٥) من طريق أبي معشر عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا» والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٢٨٨) وقال: رواه أحمد والبخاري والطبراني في «الأوسط» وفيه أبو معشر وهو صدوق وضعفه جماعة.

وللحديث طريق آخر عن ابن عمر

أخرجه الدارمي (٢٤٨/٢) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٥١) من طريق يحيى بن المتوكل ثنا القاسم بن عبيد الله عن عمه سالم بن عبد الله عن ابن عمر =

(١) قوله: «فأعوذ بك أن تعصمني» لعله أن لا تعصمني (ع).

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه: ومن عصاني فيما دون الشرك.

= به. ويحيى بن المتوكل قال الحافظ في «التقريب» (٣٥٦/٢) ضعيف.

- حديث أبي بردة بن نيار:

أخرجه أحمد (٤٦٦/٣) والبخاري (٦٨/١ - كشف) رقم (٦٨) والطبراني في «الكبير» (١٩٨/٢٢) رقم (٥٢١) وابن أبي شيبه (٢٩٠/٧) كلهم من طريق جميع بن عمير عن عمه يعني أبا بردة مرفوعاً.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣١/٢): رواه البزار وفيه جميع بن عمير وثقه أبو حاتم وضعفه البخاري وغيره.

- حديث ابن مسعود:

أخرجه ابن جبان (٥٦٧) والطبراني في «الكبير» (١٠٢٣٤) وفي «الصغير» (٢٦١/١) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٨٨/٤ - ١٨٩) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٥٣) كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن زر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من غشنا فليس منا، والمكر والخديعة في النار».

- حديث الحارث بن سويد:

أخرجه الحاكم (٩/٢).

- حديث قيس بن أبي غرزة:

أخرجه أبو يعلى (٢٣٣/٢) رقم (٩٣٣) من طريق الحكم بن عتيبة عن قيس بن أبي غرزة مرفوعاً بلفظ: «من غش المسلمين فليس منهم».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٢/٤) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (١٣٦١) وعزاه إلى أبي يعلى.

- حديث أبي الحمراء:

أخرجه ابن ماجه (٧٤٩/٢) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٥) من طريق أبي داود عن أبي الحمراء به مرفوعاً.

وأبو داود هو نفع بن الحارث الأعمى متروك كذبه ابن معين وغيره.

- حديث عائشة:

أخرجه البزار (٨٣/٢ - كشف) رقم (١٢٥٦) وقال البزار: لا نعلمه عن عائشة إلا بهذا الإسناد والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٨١/٤) وقال: ورجاله ثقات.

وقال الحافظ في تخريج الكشف:

أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن جبان من حديث ابن مسعود وإسحاق والبزار من حديث ابن عمر. والبخاري في التاريخ. والطبراني في الأوسط من حديث البراء. والبزار من حديث عائشة. وابن أبي شيبه من حديث أبي الحمراء. والحاكم من رواية عمير بن سعيد النخعي وابن أبي شيبه من رواية جميع بن عمير عن خالد بن برزة، والطبراني من حديث أبي موسى، والبيهقي في الشعب من طريق حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كذلك أخرجه البيهقي في الشعب، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه. فلم يذكر علياً. وأخرجه أبو نعيم عن أنس وعن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي ربيعة عن جده به. انتهى.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٢٧)

﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: بعض أولادي، وهم / ١٨٤ إسما عيل ومن ولد منه، ﴿بِوَادٍ﴾: هو وادي مكة، ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: لا يكون فيه شيء من زرع قط؛ كقوله: ﴿قُرْآنًا غَرِيبًا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير، وقيل: للبيت المحرم، لأن الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنوعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه، أو لأنه حرم على الطوفان، أي: منع منه، كما سمي عتيقاً؛ لأنه أعتق منه فلم يستول عليه، ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: اللام متعلقة بأسكنت، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفع ومرتق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك، ﴿أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾: أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبويض؛ ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لرحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل (من): لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون (من): للابتداء؛ كقولك: «القلب مني سقيم» تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس؛ وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتأكيد أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة^(١)، وقرئ: «أفدة»: بوزن عاقدة، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: آدر، في أدور، والثاني: أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت، أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ: «أفدة»، وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفد ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً؛ من قوله [من الكامل]:

يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِي الْأَجْدَلِ^(٢)

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يظهر كونها للغاية، لأنه ليس لنا فعل يتبدأ فيه بغاية ينتهي إليها، إذ لا يصح جعل ابتداء الأفئدة من الناس»، انتهى. الدر المصون.

(٢) فإذا نبذت له الحصاة رأيته ينزو لوقعتها طمور الأخبل
وإذا يهب من المنام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بزميل
وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوي مخارمها هوي الأجدل

وقرى: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ»، على البناء للمفعول، من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوى إليهم، من هوى يهوى إذا أحب، ضمن معنى تنزع فعدي تعديته، ﴿وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: مع سكتانهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم^(١) ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله - عز وجل - أجاب دعوته، فجعله حراماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لده، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي: بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريها الله بواد غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه^(٢) المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب - متعنا الله بسكنى حرمة - ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم - عليه السلام - ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٨)
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٢٩)

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى، ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾: تعلم السر كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه؛ لأن غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك،

= وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل
 لأبي كبير الهذلي، يصف تأبط شرا بالتيقظ والشجاعة، يقول: إذا رميت له الحصاة مجرباً له هل هو نائم أو صاح، ينزو: أي يشب بسرعة، طمور الأخيل: أي وثوب الأخيل، أي ينهض كنهوضه: وهو طير تتشام منه العرب، وأصله من التخيل، وقيل من الخلاء. ورتب رتباً: انتصب انتصاباً وارتفع ارتفاعاً، أي: رأيته يرتفع عن الأرض كارتفاع كعب الساق. والزمل والزمال والزميل - بتشديد الميم فيها -: هو الضعيف الملتف بشيابه، ثم قال: وإذا قذفته في نواحي الأمكنة المتسعة، رأيته يهوي مخارمها، أي: يسرع في سلوك مسالكها الضيقة، كهوي الأجلد وهو الصقر، أي كإسراعه في الطيران. ويروى: الجنبدل وهو الحجر. والأسرة: خطوط الجبهة جمع سرار. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والمتهلل: اللامع، أو المرتفع الذي سيمطر. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت قاعدة أغزل عند رسول الله ﷺ وهو يخصف نعله، فتحضر جبينه عرقاً، فتولد في عيني نوراً، فجعلت أنظر إليه فقال: ما تنظرين؟ فقلت له ذلك، وقلت: أما والله لو رآك الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، فقال: وما قال؟ قلت: وإذا نظرت... البيت. فوضع ما في يده وقام فقبل ما بين عيني وقال: جزاك الله خيراً، ما سررت كسروري بكلامك.
 ينظر: ديوان الهذليين (٩٤/٢)، البحر المحيط (٤٢٩/٥)، اللسان «خرم»، الدر المصون (٤/٢٧٤).

(١) قوله: «في واد يباب ليس فيه نجم» أي خراب. والنجم: نبات لا ساق له، كذا في الصحاح (ع).

(٢) قوله: «وهي اجتماع البواكير والفواكه» الباكورة: أول الفاكهة، كما في الصحاح (ع).

والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب؛ وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذلاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أباديك، وولهاً إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده؛ رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة، وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح، فأراد أن يذكره فقال: مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته ألا يتكلم فيها، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم، قالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف، ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: من كلام الله - عز وجل - تصديقاً لإبراهيم - عليه السلام - كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، أو من كلام إبراهيم، يعني: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، «ومن»: للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما، (على) في قوله: ﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾، بمعنى: مع؛ كقوله [من المنسرح]:

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَغْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ^(١)
وهو في موضع الحال، معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبير، روي أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق، وهو ابن مائة وثننتي عشرة سنة، وقد روي أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر/ ١٨٥ حال الكبير؛ لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر الله ما أكرمه به من إجابته.

(١) ترين: أصله ترأين كتفعلين، نقلت فتحة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت وحذفت الياء الأولى بعد قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. يقول: إني مع ما نظيرته من كبري وهرمي الموجب للخرف عادة، عارف بالأمور متيقظ لها. وكنى عن ذلك بقوله: أعرف من أين تؤكل الكتف، أي: أعرف جواب هذا الاستفهام، ويروى: من حيث، فلعل من زائدة. قال بعضهم: تؤكل الكتف من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها، وهو مثل يضرب للمجرب المتفطن للأمور.
ينظر: البحر (٤٣٤/٥)، روح المعاني (٢٤٢/١٣)، بلا نسبة في تاج العروس (كتف)، ولقيس بن الخطيم في ديوانه (ص ٢٣٩)، الدر المصون (٤/٢٧٥).

فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه.

قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله، ومنه: سمع الله لمن حمده، وفي الحديث: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ كَأَذْنِهِ لِنَبِيِّ يُتَعَنَّى بِالْقُرْآنِ»^(١) (٨١٣).

فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟

قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميع الدعاء، وقد ذكر سيبويه فعلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل؛ كقولك: هذا ضروب زيداً، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أموراً، ورحيم أباه، ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي، والمراد: سماع الله.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ (٤٠) ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١)

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: وبعض ذريتي، عطفاً على المنصوب في اجعلني؛ وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذريته كفار؛ وذلك قوله: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ أي: عبادتي، ﴿وَأَعِزِّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مریم ٤٨]، في قراءة أبي: «ولأبوي». وقرأ سعيد بن جبیر: «ولوالدي»: على الأفراد، يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي - رضي الله عنهما -: ولولدي، يعني: إسماعيل وإسحاق. وقرئ: «لؤلدي»: بضم الواو، والولد بمعنى: الولد، كالعدم والعدم، وقيل: جمع ولد، كأسد في أسد، وفي بعض المصاحف: «ولذرتي».

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

قلت: هو من مجوزات العقل^(٢)، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل: بشرط الإسلام، ويأباه قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾

٨١٣ - أخرجه البخاري (٥١٨/١٣) كتاب التوحيد باب قول النبي ﷺ: الماهر بالقرآن حديث (٢٥٤٤)، ومسلم (٥٤٥/١) كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن حديث (٢٣٣/٧٩٢)، من حديث أبي هريرة. وقال الحافظ في تخریج الکشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - انتهى.

(١) قوله: «كأذنه لنبي يتعنّى بالقرآن» في الصحاح: كأذنه لمن يتعنّى... إلخ (ع).

(٢) قوله: «هو من مجوزات العقل» يعني على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع، ومذهب أهل السنة أن لا حكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه، فافهم (ع).

[الملتحنة: ٤]؛ لأنه لو شرط الإسلام، لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل؛ والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوءها، كأنها قامت على رجل، ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، أو يكون مثل: (واسئل القرية)، وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، الآية، رفعها الله فوضعها؛ حيث وضعها رزقاً للحرم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤٦﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٧﴾

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً؟﴾

قلت: إن كان خطاباً لرسول الله ﷺ ففيه وجهان:

أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً؛ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، كما جاء في الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

والثاني: أن المراد بالنهي عن حسبانته غافلاً، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد؛ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبته يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقيير والقطمير، وإن كان خطاباً لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، ف قيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه، وقرئ: «يؤخرهم»: بالنون والياء، ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: أبصارهم لا تقف في أماكنها من هول ما ترى، ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: رافعيها، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم، أي: لا يطرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة

غير تحريك للأجفان، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم، الهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به فقيل: قلب فلان هواء: إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جرأة؛ ويقال للأحمق - أيضاً -: قلبه هواء؛ قال زهير [من الوافر]:

..... مِنْ الظَّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءٌ^(١)

لأن النعام مثل في الجبن والحمق؛ وقال حسان [من الوافر]:

..... فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخْبٌ هَوَاءٌ^(٢)

(١) كأن الرجل منها فوق صعل
أصك مصلح الأذنين أجنى
من الظللمان جؤجؤه هواء
له بالسن تئوم وآء

لزهير بن أبي سلمى يصف ناقته. والصعل: المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس. والظللمان: جمع ظليم وهو ولد النعام، والجؤجؤ: الصدر. والهواء: الخالي الفارغ. وجعل صدره فارغاً ليكون أسرع في السير إلى طعامه. والأصك: الذي تصطك ركبته عند المشي لطول رجله. وصلمه: قطعه. والتصليم: مبالغة. ويقال: أجنى الثمر إذا أدرك، وأجنت الأرض: كثر كلؤها وخصبها. والسن، المكان المستوي واسم موضع بعينه. والتئوم - وزن تنور -: شجر تنفلق كمامه عن حب صغير تأكله أهل البادية، يغلب على لونه السواد. قيل: وهو شجر الشهدانج. والآء: جنس من الشجر واحده آءة. وقيل: ثمر ذلك الشجر يطلق على نوع من الصوت: والتئوم: فاعل أجنى، أي كثر له في ذلك المكان هذان النوعان.

ينظر: ديوانه ص ٦٣، ولسان العرب: (أوأ)، (هوا)، ومقاييس اللغة: ١٥/٦، والمخصص: ٣/٦٤، ١٢٠/١٥، ومجمل اللغة ٤/٤٥٥، وتاج العروس (أوأ) (هوى).

(٢) ألا أبلغ أبا سفيان عني
بأن سيوفنا تركت عبيداً
هجوت محمداً فأجبت عنه
أتهجوه ولست له بكفء
فمن يهجو رسول الله منكم
فإن أبى ووالده وعرضي
فأنت مجوف نخب هواء
وعبد الدار سادتها الإماء
وعند الله في ذاك الجزاء
فشركما لخيركما الفداء
ويمدحه وينصره سواء
لعرض محمد منكم وقاء

لحسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه. وإلا للتنبيه، والأمور بالإبلاغ غير معين، وكان الظن أن يقول: فإنه، أي: أبا سفيان، لكن خاطبه بالذم لأنه أغيط. ويجوز أن المأمور أبو سفيان، فهو منادى يحذف حرف النداء. والمجوف والنخب والهواء: خالي الجوف، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة. وروي بدل هذا الشطر «مغلغلة فقد برح الخفاء» والمغلغلة: الحارة من الغلة بالضم، وهي شدة العطش والحرارة. وقيل: المنقولة من مكان لآخر، وبرح كسمع: ذهب وزال. وقيل: ظهر واتضح من براح الأرض وهو البارز منها، فالخفا بمعنى التستر أو السر. وإسناد الترك للسيوف مجاز عقلي، لأنها آلة للفعل. وعبيد بالتصغير قبيلة، وكذلك عبد الدار، وسادتها مبتدأ. والإماء خبره، والجملة في محل المفعول الثاني لتركت، أي صيرت عبيداً لا سادة لها إلا النساء، وصيرت عبد الدار كذلك، يعني: أننا أفنينا رجالهما الرؤساء الأشراف، فأشرافهما النساء لا غير، بل يجوز أنهم سواء الحرائر أيضاً، فلم يبق إلا الرقائق. وأتهجوه: استفهام توبيخي، والواو بعده للحال، أي: لا ينبغي ذلك شر وخير، من قبيل أفعال التفضيل، واختصا بحذف همزتهما تخفيفاً لكثرة =

وعن ابن جريج: ﴿وَأَقْبَدْتُمْ هَوَاءً﴾: صفر من الخير خاوية منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾: مفعول ثان لأنذر، وهو يوم القيامة، ومعنى ﴿أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك، واتباع رسلك، أو أريد باليوم: يوم هلاكهم / ١٨٥ ب بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب؛ كقوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾: على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال؛ حيث بنوا

= استعملهما، لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان، والجملة دعائية، دعا عليه بأن يكون فداءً لرسول الله ﷺ، وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الإنصاف في الكلام، ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا: هذا نصف بيت قالته العرب، فعليك بالإنصاف وأمن يهجو: استفهام إنكاري، أي ليس من يهجو منكم ومن يمدحه وينصره منا مستويين. ويحتمل أن الهمزة للتنبيه، أو للنداء، والماندى محذوف، أي: يا قوم أبي سفيان إن الذي يهجو رسول الله منكم والذي يمدحه وينصره منكم مستويان في عدم الاكتراث بهما وروي: فمن، ولا بد من تقدير، أي: من يهجو ويخذله منكم ليقابل الخذلان النصر كالهجو والمدح، ثم إن في هذا دليلاً على جواز حذف الموصول، وقد أجازوه الكوفيون والأخفش، وتبعهم أبو مالك، وشرط كونه معطوفاً على موصول آخر كما هنا. وقوله: ووالده، أي والد أُمي. ويروى: ووالدتي. والوقاء: ما يتوقى به المكروه. كالترس وزن الحزام والرباط للمفعول به الفعل، فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم الآلة. ورأيت في كلام الزمخشري ما يفيد تسمية هذا الوزن باسم المفعول. وفي الهمع ما يفيد أنه جاء شاذاً من أوزان الآلة، كآراء لما توثرت به النار، أي تضرم به، وسراد لما يسرد به، أي يحز به. ولما سمع ﷺ قوله: «وعند الله في ذلك الجزاء» قال: جزاك الله الجنة بإحسان. ولما سمع قوله: «فإن أبي» قال: وفاق الله حر النار يا حسان. وتقريره ﷺ على المكافأة بالذم، يدل على الجواز.

ينظر: ديوانه ص ٧٥، ولسان العرب: (جوف)، (هوا)، وكتاب العين ١٠٤/٤، وتهذيب اللغة ٦/٤٩٢، ٢٠٩/١١، وأساس البلاغة ص ٧٠ (جوف)، وتاج العروس (برج)، (جوف)، والمخصص ١٢٠/١٥، وديوان الأدب: ١٣٨/٣.

شديداً وأملوا بعيداً، و﴿مَا لَكُمْ﴾: جواب القسم؛ وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: (أقسمتم)، ولو حكى لفظ المقسمين ل قيل: مالنا، ﴿مِنْ زَوَالٍ﴾، والمعنى: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث؛ كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتٍ﴾ [النحل: ٣٨]، يقال: سكن الدار وسكن فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]؛ لأنَّ السكنى من السكون الذي هو اللبث، والأصل: تعذيه بفي؛ كقولك: قر في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه ف قيل: سكن الدار كما قيل: تبوأها وأوطنها، ويجوز أن يكون: سكنوا^(١)، من السكون، أي: قرؤا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائر سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا، ﴿وَبَيَّنَّا لَكُمُ﴾: بالإخبار والمشااهدة، ﴿كَيْفَ﴾: أهلكناهم وانتقمنا منهم، وقرئ: «ونبين لكم»: بالنون، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ أي: صفات ما فعلوا، وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم، ﴿وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾: لا يخلو إما أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأول، على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم^(٢) به، وهو عذابهم^(٣) الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون، ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِزُولٍ مِنْهُ أَلْبَابُ﴾: وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرِب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته، أي: وإن كان مكرهم مسوًى لإزالة الجبال، معداً لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيفْضِيَعِ إِيْمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً؛ وتنصره قراءة ابن مسعود: «وما كان مكرهم»، وقرئ: «للتزول»: بلام الابتداء، على: وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع

(١) قوله: «ويجوز أن يكون سكنوا» لعله: سكتتم. (ع)

(٢) قوله: «وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به» الذي في الصحاح المكر: الاحتيال والخديعة، وقد مكر به. والمكر أيضاً: المغرة، وقد مكره فامتكر، أي خضبه فاخترض به، وهو يفيد أن المكر بمعنى الاحتيال لا يتعدى بنفسه، فتدبر (ع).

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا لا يصح إلا إن كان «مكر» يتعدى بنفسه، كما قال هو إذ قدر: يمكرهم به. والمحفوظ أن «مكر» لا يتعدى إلى مفعول به بنفسه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وتقول: «زيد ممكور به» ولا يحفظ «زيد ممكور بسبب كذا». انتهى. الدر المصون.

من أماكنها، وقرأ علي وعمر - رضي الله عنهما -: وإن كاد مكرهم، ﴿تُخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلُهُ﴾ يعني: قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٥١].

فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأول^(١)؟

قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً؛ كقوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْيَعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]، ثم قال: (رساله): ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد - كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟ وقرئ: «مخلف وعده رسله»: بجزر الرسل، ونصب الوعد، وهذه في الضعف كمن قرأ: ﴿قتل أولادهم وشركائهم﴾ [الأنعام: ١٣٧]. ﴿عَزِيزٌ﴾: غالب لا يماكر، ﴿ذُو أَنْفَاءٍ﴾: لأوليائه من أعدائه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعَنَّى وَجُوهُهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴿

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾: انتصابه على البدل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام، والمعنى: يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة؛ وكذلك السموات، والتبديل: التغيير، وقد يكون في الذوات؛ كقولك: بدلت الدراهم دنانير، ومنه: ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، و﴿وَبَدَلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ﴾ [سبا: ١٦] وفي الأوصاف؛ كقولك: بدلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقليل: تبدل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها، وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير؛ وأنشد [من الطويل]:

(١) قال محمود: «إن قلت لم قدم المفعول الثاني على الأول... إلخ؟» قال أحمد: وفيما قاله نظر؛ لأن الفعل متى تقيّد بمفعول انقطع إطلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية دليلاً على إطلاق الفعل باعتبار الموعود، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبي من الإطلاق الأول، ولا فرق في المعنى الذي ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره ولا يفيد تقديم المفعول الثاني إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم والأمر بهذه المثابة في الآية، لأنها وردت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله تعالى به على السنة الرسل، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد. وأما كونه على السنة الرسل فذلك أمر لا يقف التخويف عليه ولا بد، حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه حسيباً كافياً، والله أعلم.

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَاهَدْتَهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ^(١)

وتبدل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً، وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخرى، وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي - رضي الله عنه -: تبدل أرضاً من فضة، وسموات من ذهب، وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف، وقرئ: «يوم تبدل الأرض» بالنون^(٢).

فإن قلت: كيف قال: ﴿الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾؟

قلت: هو كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ لأن الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدة، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: قرن بعضهم مع بعض، أو مع الشياطين، أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين، وقوله: ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾: إما أن يتعلق بمقرنين، أي: يقرنون في الأصفاد، وإما أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال؛ / ١٨٦ وأنشد لسلامة بن جندل [من الوافر]:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَاقَى صِفَاداً يَعْصُ بِسَاعِدٍ وَيَعْظُمُ سَاقٍ^(٣)

القطران: فيه ثلاثة لغات: قَطْرَان، وقِطْرَان، وقِطْرَان: بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهناً به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون متتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، وتنن الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع

(١) يقول: ليس الناس اليوم هم الناس الذين عاهدتهم سابقاً، لفناء الأحياء من بينهم، وليست الدار اليوم هي الدار التي كنت تعلمها، لتبدل أحوالها وتغير أوصافها.

ينظر: مجالس ثعلب (٤٩/١)، روح المعاني (٢٥٤/١٣)، الدر المنصون (٢٨١/٤).

(٢) قوله: «وقرئ تبدل الأرض بالنون» لعله ونصب الأرض والسموات، فلتحرر القراءة (ع).

(٣) لسلامة بن جندل. وزيد الخيل: هو الذي سماه النبي ﷺ زيد الخير. قد لاقى: أي نال من أعدائه صفاداً، أي قيداً وغلا. واستعار العض لقرص الصفاد اليابس الصلب على طريق التصريحية. والباء للإلصاق، وأقحم لفظ العظم للمبالغة في العض حتى وصل العظم.

نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه، وقرئ: «من قطران»، والقطر: النحاس أو الصفر المذاب، «والآتي»: المتناهي حره، ﴿وَتَقَنَّنَ وُجُوهُمْ النَّارُ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]؛ لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه؛ ولذلك قال: ﴿تَطَّلُعُ عَلَىٰ الْأَفْنَدَةِ﴾ [القمر: ٧]، وقرئ: «وتغشى وجوههم»: بمعنى: تتغشى، أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل، ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾: مجرمة، ﴿مَا كَسَبَتْ﴾: أو كل نفس من مجرمة ومطبعة؛ لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾: كفاية في التذكير والموعظة، يعني: بهذا ما وصفه من قوله: (ولا تحسبن) إلى قوله: (سريع الحساب)، ﴿وَلِيُنْذَرُوا﴾: معطوف على محذوف، أي: لينصحا ولينذروا، ﴿به﴾: بهذا البلاغ، وقرئ: «ولينذروا»: بفتح الياء: من نذر به إذا علمه^(١) واستعدله، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾؛ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أم الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ وَعَدِدَ مَنْ لَمْ يَغْبُذْ» (٨١٤).

٨١٤ - تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة، وقد تكلما عليه وعلى أسانيده عند الحديث رقم (٣٤٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

يأتي تخريجه في آخر الكتاب. انتهى.

(١) قوله: «من نذر به إذا علمه» في الصحاح: نذر القوم بالعدو - بكسر الذال - إذا علموا (ع).

سُورَةُ الْحَجَرِ

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا آيَةٌ ٨٧ فَمَدَنِيَّةٌ]

وَهِيَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ يُوسُفَ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات . والكتاب ، والقرآن المبين : السورة . وتنكير القرآن للتفخيم . والمعنى : تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأي قرآن مبين ، كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان .

﴿زَيْمًا يُوذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

قريء : «ربما» ، «وربما» : بالتشديد ، «وربما» ، «وربما» : بالضم والفتح مع التخفيف . فإن قلت : لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي ؟ قلت : لأن المترقب في إخبار الله - تعالى - بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه ، فكانه قيل : «ربما وذ» .

فإن قلت : متى تكون ودادتهم؟

قلت : عند الموت ، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين ، وقيل : إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار ، وهذا - أيضاً - باب من الودادة . فإن قلت : فما معنى التقليل؟^(١) .

(١) قال محمود : «إن قلت : ما معنى تقليل ودادتهم... إلخ»؟ قال أحمد : لا شك أن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده كثيراً ، ومنه قوله [من البسيط] :

قد أترك القرن مصفراً أنامله

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك ، وقد عبر بقدر المفيدة للتقليل ، ومنه والله أعلم . ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ والمقصود توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام على توفر علمهم برسالته =

قلت: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تدمه، ولا يقصدون تقيله؛ ولكنهم أرادوا: لو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل؛ لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون، كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه، كما من الكثير؛ وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يؤدّون الإسلام مرة واحدة، فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يؤدّونه في كل ساعة، ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: حكاية ودادتهم؛ وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم؛ كقولك: حلف بالله ليفعلن، ولو قيل: حلف بالله لأفعلن، ولو كنا مسلمين، لكان حسناً سديداً، وقيل: تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا؛ فلذلك قل، ﴿ذَرَهُمْ﴾ يعني: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم: ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾: بديانهم^(١) وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، ألا يلقوا في العاقبة إلا خيراً، ﴿فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾: سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما يندرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاضهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندماً في العاقبة، وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أن إثارة التلذذ والتنعيم وما يؤذي إليه طول الأمل، وهذه هجيري أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين/ ١٨٦ ب.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا

يَسْتَفْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

= ومناصحته لهم، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك، فمنهم من وجهه بما ذكره الزمخشري آنفاً من التنبيه بالأدنى على الأعلى، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الضد، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايتها أن يعود إلى عكسه. وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله [من الكامل]:

ولجدت حتى كدت تبخل حائلاً للمنتهي ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام، لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل استيقظ السامع بأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، والله أعلم.

(١) قوله: «ويتمتعوا بديانهم» في الصحاح: سميت الدنيا لدنوها، والجمع دنا، مثل الكبرى والكبر، والصغرى والصغر (ع).

﴿وَمَا كُنَّا بِأَعْيُنِنَا﴾: جملة واقعة صفة لقرية، والقياس ألا يتوسط الواو بينهما؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذَرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب^(١)، كتاب ﴿مَعْلُومٌ﴾: مكتوب معلوم، وهو أجملها الذي كتب في اللوح وبين؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا﴾: في موضع كتابها، وأنت الأمة أولاً ثم ذكرها آخرًا، حملاً على اللفظ، والمعنى: وقال: ﴿وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ﴾: بحذف «عنه»؛ لأنه معلوم.

﴿وَقَالُوا يَتَّيِّبُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾

قرأ الأعمش: «يا أيها الذي ألقى عليه الذكر»^(٢)، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وكيف يقرّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء، والتهكم مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها: ﴿فَنَشِرْهُمْ عَذَابَ آيِهِ﴾ [هود: ٨٧]، ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وقد يوجد كثيراً في كلام العجم، والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله نزل عليك الذكر.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾

«لو»: ركبت مع: «لا»، و«ما»: لمعنيين: معنى امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا نعلم أحداً قاله من النحويين. وفي محفوطي أن ابن جني سبقهما إلى ذلك».

ثم قال الشيخ: «هو مبني على جواز أن ما بعد «إلا» يكون صفة»، وقد منعوا ذلك. قال الأخفش: «لا يفصل بين الصفة والموصوف بـ«إلا» ثم قال: وأما نحو: «ما جاءني رجل إلا راكب»، على تقدير: إلا رجل راكب. ففيه قبح لجعلك الصفة كالاسم، وقال أبو علي: تقول: «ما مررت بأحد إلا قائماً». قائماً حال، ولا تقول: «إلا قائم، لأن «إلا» لا تعترض بين الصفة والموصوف». وقال ابن مالك - وقد ذكر ما ذهب إليه الزمخشري في قوله: «ما مررت بأحد إلا زَيْدٌ خَيْرٌ مِنْهُ» أَنَّ الجملة بعد «إلا» صفة لـ«أحد»: إنه مذهب لا يعرف لبصري ولا كوفي، فلا يلتفت إليه، وأبطل قوله: «إِنَّ الواو توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف». قُلْتُ: قول الزمخشري قوي من حيث القياس، فإنَّ الصفة كالحال في المعنى، وإن كان بينهما فرق من بعض الوجوه، فكما أن الواو تدخل على الجملة الواقعة حالاً، كذلك تدخل عليها واقعة صفة ويقويه أيضاً ما نظَّر به من الآية الأخرى في قوله: ﴿مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذَرُونَ﴾. ويقويه أيضاً قراءة ابن أبي عبلة المتقدمة. وقال منذر بن سعيد: «هذه الواو هي التي تطي أن الحالة التي بعدها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءُوهُمَا وَقُتِحَتْ أُوْبُهُمَا﴾. انتهى. الدر المنصون.

(٢) قوله: «الذي ألقى عليه الذكر» لعله: إليه (ع).

التحضيض، وأما «هل»: فلم تركب إلا مع «لا»: وحدها للتحضيض؛ قال ابن مُقْبِلٍ [من البسيط]:

لَوْ مَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدِّينُ عِبْتُكُمْ بِبَغْضٍ مَا فِيكُمْ إِذْ عِبْتُمَا عَوْرِي^(١)

والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ [الفرقان: ٧]، أو: هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً كما كانت تأتي الأمم المكذبة برسلسها؟

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾

قري: «تنزل»: بمعنى تنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل، ونزل الملائكة: بالنون ونصب الملائكة، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تنزلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتاكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقيل: الحق الوحي أو العذاب، و﴿إِذَا﴾: جواب وجزاء؛ لأنه جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾: رد لإنكارهم واستهزائهم^(٢) في قولهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦]؛ ولذلك قال: إنا نحن، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد، حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة؛ فإنه لم يتول حفظها؛ وإنما استحفظها الربانيين والأخبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه.

(١) لابن مقبل، ولولا ولوما: أصلهما «لو» التي تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره، فركبت مع «لا» و«ما» النافيتين. فأفادت معهما امتناع الشيء لوجود غيره، لأن نفي النفي إثبات، فإن لم يكن لها جواب أفادت معهما في المضارع للتحضيض، وفي غيره التنديم أو التوبيخ، يقول: لولا الحياء موجود، ولوما الدين موجود لعبتكما ببعض ما فيكما من العيوب، لأنكما عبتماني بعوري، أو عددتموه عيياً.

(٢) قال محمود: «هذا رد لإنكارهم واستهزائهم... إلخ» قال أحمد: ويحتمل أن يراد حفظه مما يشينه من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفترى، وذلك أيضاً من الدليل على أنه من عند الله، كما قال تعالى في آية أخرى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

فإن قلت: فحين كان قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾: ردًا لإنكارهم واستهزائهم، فكيف اتصل به قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؟

قلت: قد جعل ذلك دليلاً على أنه منزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية، لتطرق عليه الزيادة والنقصان، كما يتطرق على كل كلام سواه، وقيل: الضمير في (له): لرسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾: في فرقهم وطوائفهم، والشيعه: الفرقة، إذا اتفقوا على مذهب وطريقة، ومعنى أرسلناه فيهم: نبأناه فيهم وجعلناه رسولا فيما بينهم، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾: حكاية حال ماضية؛ لأنّ «ما»: لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقال: سلكت الخيط في الإبرة، وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته، وقرئ: «نسلكه»، للذكر، أي: مثل ذلك السلك، ونحوه: نسلك الذكر في: ﴿قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ على معنى: أنه يلقيه في قلوبهم^(١) مكذباً مستهزئاً به غير مقبول، كما لو أنزلت بلثيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللثام، تعني: مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية،

(١) قال محمود: «معناه يلقيه في قلوبهم مكذباً به... إلخ» قال أحمد: والمراد والله أعلم إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائهم، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين، فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء كل على علم وفهم، ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ ولثلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين، والله أعلم. ولذلك عقبه الله تعالى بقوله ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ أي هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم وقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وشيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاهما إلى الإيمان بضرورة المشاهدة، وذلك بأن يفتح لهم باباً في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منه نهاراً. وإلى ذلك الإشارة بقوله (فظلوا) لأن الظلول إنما يكون نهاراً، لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف: إنما سكرت أبصارنا وسحرنا محمد، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين لأن ذلك كله حاصل لهم وإنما بهم العناد والدد والإصرار لا غير والله أعلم.

ومحل قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: النصب على الحال، أي: غير مؤمن به، أو هو بيان لقوله: (كذلك نسلكه)، ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: طريقتهم التي سنّها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسلمهم وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

قرئ: ﴿يَعْرُجُونَ﴾: بالضم والكسر، و﴿سُكِّرَتْ﴾: حيرت أو حبست من الإبصار، من السكر أو السكر، وقرئ: «سكرت»: بالتخفيف^(١) أي: حبست كما يحبس النهر من الجري، وقرئ: «سكرت»: من السكر، أي: حارت كما يحار السكران، والمعنى: أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد: أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك، وقيل: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك، وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقال: إنما؛ ليدل على أنهم يتون/ ١٨٧ القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ ﴿٢٠﴾

﴿مَنِ اسْتَرَقَ﴾: في محل النصب على الاستثناء، وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها، ﴿شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهر للمبصرين، ﴿مَوْزُونٍ﴾: وزن بميزان الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدّر في أبواب النعمة والمنفعة، وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها، ﴿مَعَاشٍ﴾: بياء صريحة، بخلاف الشماثل والخبائث ونحوهما؛ فإن تصريح الباء فيها خطأ، والصواب: الهمزة، أو إخراج الباء بين بين، وقد قرئ: «معاش»: بالهمزة على التشبيه، ﴿وَمَنْ لَّسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾: عطف على معاش، أو على محل لكم؛ كأنه قيل:

(١) قوله: «وقرئ (سكرت) بالتخفيف»: لعل هذا من السكر بالفتح كما أن ما يأتي من السكر بالضم (ع).

وجعلنا لكم فيها معاش، وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو: وجعلنا لكم معاش ولمن لستم له برازقين، وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون؛ فإن الله هو الرزاق، يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة، مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون، ولا يجوز أن يكون مجروراً عطفاً على الضمير المجرور في: (لكم)؛ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١)

ذكر الخزائن تمثيل، والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له؛ فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَفِّحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُنُوزَهُمْ وَمَا كُنَّا بِنُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

﴿لَوَفِّحَ﴾: فيه قولان: أحدهما: أن الريح لافح إذا جاءت بخير، من إنشاء سحب ماطر كما قيل للتي لا تأتي بخير: ريح عقيم، والثاني: أن اللواقح بمعنى: الملاقح؛ كما قال [من الطويل]:

وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ (١)

(١) لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لَخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

لضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد بن نهشل. وقيل غير ذلك. وليبك: مبني للمفعول، واللام للطلب، ويزيد نائب الفاعل، وضارع فاعل لفعل محذوف، وفي الكلام سؤال مقدر، كأنه قيل: من يبكيه؟ فقيل يبكيه ضارع وهو الدليل، ومختبط وهو السائل، كأنه يختبط أبواب المسئولين. وما مصدرية، وتطيح تهلك. وقال الجوهري: طوحته الطوايح قذفته القواذف، ولا يقال: المطوحات، وهو من النوادر، والقياس المطيحات من أطاح. أو المطوحات من طوح. وقال الأصمعي: هو جمع طائحة. يقال: ذهبت طائحة من العرب أي طائفة منها. أي: يبكيه المختبط من أجل إهلاك الطوائع ماله، فمما متعلق بمختبط. وقيل: يجوز تعلقه بالفعل المقدر، كقوله الخصومة. ونقل العصام عن العارف الرومي: أن يزيد منادى، وحرف النداء محذوف، وضارع نائب الفاعل؛ لأن الضارع والمختبط أحق بالبكاء عليهما بعد يزيد الذي كان يغثهما. وروي ليبيك يزيد بالبناء للفاعل ونصب يزيد، فضارع فاعل للفعل المذكور، ولو ضم يزيد على النداء لجاز هنا أيضاً، أي: ليبيك عليك يا يزيد ضارع ومختبط.

وهو للحارث بن نهيك في خزانة الأدب ٣٠٣/١، وشرح شواهد الإيضاح ص ٩٤، وشرح المفصل لابن عيمش ٨٠/١، والكتاب ٢٨٨/١، وللبيد بن ربيعة في ملحقات ديوانه ص ٣٦٢، ولنهشل بن حري في خزانة الأدب ٣٠٣/١، ولضرار بن نهشل في الدرر ٢٨٦/٢، ومعاهد التنصيص ١/٢٠٢، وللحارث بن ضرار في شرح أبيات سيبويه ١١٠/١، ولنهشل، أو للحارث، أو لضرار، أو لمزرد بن ضرار، أو للمهلhel في المقاصد النحوية ٤٥٤/٢، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/ =

يريد المطاوح جمع مطيحة، وقرئ: «وأرسلنا الريح»: على تأويل الجنس، ﴿فَأَسْقَبَتْكُمْوُ﴾: فجعلناه لكم سقياً. ﴿وَمَا أُنْثَرُ لَهُمْ يَحْزَنُونَ﴾: نفى عنهم ما أثبتته لنفسه في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، كأنه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى: نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين: دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴿

﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي: الباقون بعد هلاك الخلق كله، وقيل للباقي: «وارث»: استعارة من وارث الميت؛ لأنه يبقى بعد فئائه، ومنه قوله ﷺ في دعائه: «وَأَجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا» (٨١٥)، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾: من استقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر من الأولين والآخرين، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر، وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين، وروي أن امرأة حسناء

٨١٥ - أخرجه الترمذي (٥٢٨/٥) كتاب الدعوات باب (٨٠) حديث رقم (٣٥٠٢)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، والنسائي (١٠٧/٦) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب ١١٥ حديث رقم (١٠٢٣٤).

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه الحاكم (١٤٢/٢). وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الترمذي والنسائي والبزار. والحاكم من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات: اللهم اقسم لنا من خشيتك - الحديث»، وفيه: «واجعله الوارث منا». قال الترمذي: حديث حسن وقال البزار: تفرد به عبد الله ابن رواحة. وهو واهي الحديث، وأخرج من رواية حبيب بن أبي ثابت عن عروة عن عائشة: «أنه ﷺ كان يقول: اللهم عافني في جسدي، وعافني في بصري، واجعله الوارث مني»، وأخرجه أبو يعلى أيضاً، وفي الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة قال: «كان من دعاء النبي ﷺ: اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني»، وفي الطبراني والأوسط عن علي - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو» فذكر مثله. انتهى.

= ٣٤٥، ٢٤/٧، وأمالى ابن الحاجب ص ٤٤٧، ٧٨٩، وأوضح المسالك ٩٣/٢، وتخليص الشواهد ص ٤٧٨، وخزانة الأدب ١٣٩/٨، والخصائص ٣٥٢/٢، ٤٢٤، وشرح الأشموني ١/ ١٧١، وشرح المفصل لابن يعيش ٨٠/١، والشعر والشعراء ص ١٠٥، ١٠٦، والكتاب ٣٦٦/١، ٣٩٨، ولسان العرب (طوح)، والمحتسب ٢٣٠/١، ومغني اللبيب ص ٦٢٠، والمقتضب ٣/ ٢٨٢.

كانت في المصليات خلف رسول الله ﷺ فكان بعض القوم يستقدم لثلا ينظر إليها، وبعض يستأخر ليبصرها؛ فنزلت (٨١٦) ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هو وحده القادر على حشرهم، والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علماً بكل شيء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦) ﴿وَلَجَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ (٢٧)

الصلصال: الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مدأ فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، وقيل: هو تضعيف: «صل»: إذا أنتن، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون: المصور، من سنة الوجه^(١)، وقيل: المصبوب المفرغ، أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها، وقيل: المتن، من سنتت الحجر على الحجر إذا حككته به، فالذي يسيل بينهما سنين، ولا يكون إلا منتناً، ﴿مِنْ حَمَلٍ﴾: صفة لصلصال، أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق، ﴿مَسْنُونٍ﴾ بمعنى: مصور، أن يكون صفة لصلصال، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيس حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر، ﴿وَلَجَّانَ﴾: للجن كآدم للناس، وقيل: هو إبليس، وقرأ الحسن وعمر بن

٨١٦ - أخرجه الثرمذي (٢٩٦/٥) كتاب تفسير القرآن باب (١٦) حديث رقم (٣١٢٢)، والنسائي (١/٣٠٢) كتاب الإمامة والجماعة باب المنفرد خلف الصف حديث رقم (٩٤٢)، (٣٧٤/٦) كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ حديث رقم (١١٢٧٣)، وابن ماجه (٣٣٢/١) حديث رقم (١٠٤٦)، أحمد (٣٠٥/١)، ابن خزيمة (٩٦/٣) حديث رقم (١٦٩٦)، البيهقي في شعب الإيمان (٣٧٠/٤) حديث رقم (٥٤٤٢)، والحاكم (٢/٣٥٣)، والطبري في تفسيره (٥٠٩/٧) رقم (٢١١٣٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثرمذي والنسائي وابن ماجه وابن جبان والحاكم وأبو يعلى وأحمد والبخاري وابن أبي حاتم من رواية أبي الجوزاء أوس بن عبد الله عن ابن عباس قال «كانت امرأة حسنة من أحسن الناس تصلي خلف رسول الله ﷺ وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لأن لا يراها، أو يستأخر بعضهم حتى يكون في الصف الآخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه. فأنزل الله هذه الآية. قال البخاري: لا نعلم رواه ابن عباس ولا له طريق إلا هذه وقال الثرمذي: روي عن أبي الجوزاء مرسلاً، وهو أشبه. انتهى.

(١) قوله: «من سنة الوجه» في الصحاح: سنة الوجه صورته (ع).

عبيد: «والجان»؛ بالهمز، ﴿مِنْ تَارِ السَّمُورِ﴾: من نار الحرّ الشديد النافذ في المسام، قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزء من سموم النار التي خلق الله منها الجان.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٧٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ ﴿٧٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٨٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ ﴿٨١﴾ قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ ﴿٨٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٨٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٩١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٩٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٩٤﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: واذكر وقت قوله: ﴿سَوَّيْتُهُمْ﴾: عدلت خلقته، وأكملتها، وهياها لنفخ الروح فيها، ومعنى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي﴾: وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ؛ وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه، واستثنى إبليس من الملائكة؛ لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب؛ كقولك: رأيتهم إلا هندا، و﴿أَبَى﴾: استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه، وقيل: معناه: ولكن إبليس أبى، حرف الجر مع «أن»: محذوف، وتقديره: ﴿مَا لَكَ﴾ في ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ﴾ بمعنى: أي غرض لك في إبتائك السجود، وأي داع لك إليه، اللام في ﴿لَأَسْجُدَ﴾: لتأكيد النفي، ومعناه: لا يصح مني وينافي حالي، ويستحيل أن أسجد لبشر، ﴿رَجِيمٌ﴾: شيطان من الذين يرحمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؛ لأن من يطرد يرحم بالحجارة، ومعناه: ملعون؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها، والضمير في (منها): راجع إلى الجنة أو السماء، أو إلى جملة الملائكة، وضرب يوم الدين حدا للجنة، إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم؛ كقوله/ ١٨٧: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٨]: في التأيد، وإما أن يراد أنك مذموم مدعو عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين، من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه، و(يوم الدين)، و(يوم يبعثون)، و(يوم الوقت المعلوم): في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام بطريقة البلاغة، وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لثلاث يموت؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى

ذلك، وأنظر إلى آخر أيام التكليف، ﴿يَا أَغْوَيْنِي﴾ الباء: للقسمة، و«ما»: مصدرية وجواب القسم ﴿لَأَزَيِّنَنَّ﴾ المعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ومعنى إغوائه إياه: تسببه لغيه، بأن أمره بالسجود لآدم - عليه السلام - فأضى ذلك إلى غيه، وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه^(١) ومن إرادته والرضا به؛ ونحو قوله: ﴿يَا أَغْوَيْنِي لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: في أنه إقسام، إلا أن أحدهما إقسام بصفته والثاني إقسام بفعله، وقد فرق الفقهاء بينهما، ويجوز ألا يكون قسماً، ويقدر قسم محذوف، ويكون المعنى: بسبب تسبيحك لإغوائي أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بي من التسبب لإغوائهم، بأن أزين لهم المعاصي وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: في الدنيا التي هي دار الغرور؛ كقوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَآتَعَ هَوْنَهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] أو أراد أنني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأنا عليّ التزيين لأولاده في الأرض أقدر، أو أراد: لأجعلن مكان التزيين عندهم الأرض، ولأوقعن تزييني فيها، أي: لأزيننها في أعينهم ولأحدثنهم بأن الزينة في الدنيا وحدها، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها؛ ونحوه [من الطويل]:

..... يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيهَا نَضْلِي^(٢)

(١) قوله: «الله تعالى بريء من غيه» هذا على مذهب المعتزلة: أن الله لا يريد الشر ولا يخلقه. ومذهب أهل السنة: أن كل كائن فهو يخلقه تعالى وإرادته، خيراً كان أو شراً، وإن كان لا يرضى الشر من العبد، وتفصيله في التوحيد.

(٢) فما لائم يوماً أخ وهو صادق
إذا كان فيها الرسل لم تأت دونه
إخائي ولا اعتلت على ضيفها إبلي
فصالي ولو كانت عجافاً ولا أهلي
وإن تعتذر بالمحل عن ذي ضروعها
إلى الضيف يجرح في عراقبها نصلي

لذي الرمة يمدح نفسه، والإخاء مصدر آخاه، كالوفاق مصدر وافقه، والصحاب مصدر صاحبه، وزنا ومعنى. يقول: وما لام أخ من يوم أي في يوم. وعبر بمن لإشعارها بالاستغراق. أي: لم نلم، والحال أنه صادق في لومه، أو في أخوته مصاحبة لي معه، وقصر الإخاء للوزن، وضمن لام معنى عاب؛ فعدها إليه. ويجوز أن إيقاع اللوم عليه مجاز عقلي؛ لأن الإخاء كأنه محل اللوم، ولا اعتلت أي أبدت لضيفها علة في التأخر عن قراه، وإسناد الفعل للإبل وإضافة الضيف إليها لأنها محل قراه، وذلك كناية عن غاية كرمه، ويجوز أن إسناد الفعل إليها مجاز عقلي، لأنها سبب في اعتلال صاحبها للضيف عنها إذا كان بخيلاً، وإضافة الضيف إليها ترشيح لذلك. ويحتمل أنه شبه الإبل بالكرماء على طريق المكنية، فذلك تخيل، وبين عدم الاعتلال بقوله: «إذا كان فيها الرسل» وهو اللبن القليل، ويطلق على الجمل السهل، لم تأت دونه: أي قريباً من اللبن. فصالي: جمع فصيل، وهو ولد الناقة. ونفى قربها كناية عن نفى ارتضاعها له، ولو كانت عجافاً: أي مهازبل، ولا أهلي: ولا جيعاً، وإن تعتذر الإبل بالمحل والجذب، عن ذي ضروعها: كناية عن اللبن، لأنه ملازم للضرع يجرح نصلي: أي سيفي أو سهمي في عراقبها، وهي بمنزلة الركب للإنسان، =

استثنى المخلصين؛ لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه، أي: ﴿هذا﴾ طريق حق، ﴿عليهم﴾: أن أراعيه، وهو ألا يكون لك سلطان على عبادي، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته، وقرئ: «علي»، وهو من علو الشرف والفضل، ﴿لَتَوَعَّدُهُمُ﴾ الضمير: للغاوين، وقيل: أبواب النار أطبقها وأدراكها، فأعلاها للموحدين، والثاني: لليهود، والثالث: للنصارى، والرابع: للصابئين، والخامس: للمجوس، والسادس: للمشركين، والسابع: للمنافقين، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولظى: «لعبة النار، والحطمة: لعبدة الأصنام وسقر: لليهود، والسعير: للنصارى، والجحيم: للصابئين، والهاوية: للموحدين، وقرئ: «جزء»: بالتخفيف والتثقيل، وقرأ الزهري: «جزء»؛ بالتشديد؛ كأنه حذف الهمزة، وألقى حركتها على الزاي؛ كقولك: خب في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد؛ كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَغُيُوبٍ﴾ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

المتقي على الإطلاق: من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها، ﴿أَدْخُلُوهَا﴾: على إرادة القول، وقرأ الحسن: «أدخلوها» ﴿بِسَلَامٍ﴾: سالمين أو مسلماً عليكم: تسلم عليكم الملائكة، الغل: الحقد الكامن في القلب، من الغل في جوفه وتغلغل، أي: إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن علي - رضي الله عنه -: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، وعن الحارث الأعور: كنت جالساً عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له علي: مرحباً بك يا ابن أخي، أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ﴾ فقال له قائل: كلا، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد، فقال: فلمن هذه الآية لا أم لك

= وإسناد الاعتذار إليها مجاز، وكذلك إسناد الجرح للنصل، لأنه آتته. ومعنى الجرح في العراقيب: أنه يجعلها مكاناً معداً له، ولو قال: يجرع عراقيها، لفات ذلك المعنى: وقيل: ضمنه معنى يعثر أي يفسد، وكانت عادة العرب أن يفصدوا الإبل ويجمعوا دماءها ويضعوها على النار فتصير كالكدب، ويقرون بها الضيفان في الجذب، فحرمه الله: ويجوز أنه كناية عن نحرها، لأنهم كانوا يعقرون الجمل الصعب قبل نحره ليسهل عليهم، وهذا هو الذي يقتضيه مقام المدح.

ينظر: ديوانه ص ١٥٦، وأساس البلاغة (عذر)، وخزانة الأدب ١٢٨/٢، وشرح المفصل لابن يعيش، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ٢٥١/١، وخزانة الأدب ٢٣٣/١٠، ومغني اللبيب ٢/٥٢١.

(٨١٧)؟ وقيل: معناه: طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غل، وألقى فيها التوأة والتحاب، و﴿إِخْوَانًا﴾: نصب على الحال، و﴿عَلَى سُرُرٍ مُّقَنَّبِينَ﴾: كذلك، وعن مجاهد: تدور بهم الأسرة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

لما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه، ﴿نَبِيُّ عِبَادِي﴾: تقريراً لما ذكر، وتمكيناً له في النفوس، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: غفور لمن تاب، وعذابه لمن لم يتب، وعطف ﴿وَنَبِّئَهُمْ﴾: على نبي عبادي، ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم.

﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَؤْمِلُكَ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَمْثَلُكُمْ لِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشَّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاطِنِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

﴿سَلَمًا﴾ أي: نسلم عليك سلاماً، أو سلمت سلاماً، ﴿وَجِلُونَ﴾: خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل، وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت، وقرأ الحسن: «لا

٨١٧ - أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٢١٠/١)، والطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن سعد في الطبقات؛ كما في «تخريج الكشاف» (٢١٢/٢)؛ كلهم من طريق الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب به، وأخرجه الحاكم (٣٧٦/٣) من طريق أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي... الحديث وصححه.

وأخرجه أيضاً (٣٥٣/٢) من طريق ربعي بن حراش. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبراني في الأوسط والعقيلي وابن سعد من طريق الحارث الأعور قال: كنت عند علي بن أبي طالب إذ جاء عمران بن طلحة فذكره. وفيه: «فقال الحارث - يعني الراوي -: الله أجل وأعدل من ذلك، وله طريق أخرى أخرجه الحاكم من طريق ربعي بن حراش قال: «إني لعند علي جالس إذ جاء ابن طلحة، فسلم عليه فرحب به، فقال: ترحب بي يا أمير المؤمنين، وقد قتلت والذي، وأخذت مالي؟ قال: أما مالك فهو معزول في بيت المال، أعد إليه فخذ، وأما أبوك فإني أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذي قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٍّ - الآية﴾ فقال رجل من همدان: فذكره. ورواه الحاكم أيضاً والطبري من طريق أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران ابن طلحة على علي - رضي الله عنه - وذكر نحوه. انتهى.

توجل: بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه، وقرئ: «لا تأجل»؛ «ولا تواجل»: من واجله بمعنى: أوجله، وقرئ: (نبشرك): بفتح النون والتخفيف، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾: استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل: أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل، يعني ﴿أُبَشِّرُكُمْ﴾: مع مس الكبر، بأن يولد لي، أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر، ﴿فَبَشِّرْهُنَّ﴾ هي: ما الاستفهامية، دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشرونني، أو أراد: أنكم تبشرونني بما هو غير متصور في العادة، فبأي شيء تبشرون، يعني/ ١٨٨: لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء، ويجوز ألا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة، يعني: بأي طريقة تبشرونني بالولد، والبشارة به لا طريقة لها في العادة، وقوله: ﴿بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ﴾: يحتمل أن تكون الباء فيه صلة، أي: بشرك باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشرك بطريقة هي حق وهي قول الله ووعد، وأنه قادر على أن يوجد ولدًا من غير أبوين، فكيف من شيخ فإن وعجوز عاقر، وقرئ: «تبشرون»: بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع، والأصل: تبشرون وتبشرون^(١). بإدغام نون الجمع في نون العماد، وقرئ: «من القنطين» من قنط يقنط، وقرئ: «ومن يقنط» بالحركات الثلاث في النون، أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون؛ كقوله: ﴿لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، يعني: لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ٥٧ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا آءَالَ لُوطٍ﴾ ٥٩ ﴿إِنَّا لَمُتَّجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥٩ ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَدِيرُ﴾ ٦٠ ﴿فَقَا وَبَعَدًا فِيهَا﴾

فإن قلت قوله تعالى: ﴿إِلَّا آءَالَ لُوطٍ﴾: استثناء متصل أو منقطع؟^(٢).

قلت: لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم، فيكون منقطعاً؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين، فيكون متصلاً؛ كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم، كما قال: ﴿فَقَا وَبَعَدًا فِيهَا﴾

(١) قوله: «وتبشرون» بكسر النون والتشديد. قاله النسفي (ع).

(٢) قال محمود: «إن قلت هل الاستثناء الأول متصل... إلخ» قال أحمد: وجعله الأول منقطعاً أولى وأمكن، وذلك أن في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكبين بعداً، من حيث إن موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى في حكم الأول، وهذا الدخول متعذر من التنكير، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى منها إلا في سياق نفي، لأنها حينئذ أعم، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زيداً وحسن ما رأيت أحداً إلا زيداً، والله أعلم.

فإن قلت: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟

قلت: نعم؛ وذلك أن آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً، ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين، كإرسال الحجر أو السهم أو المرمي، في أنه في معنى التعذيب والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم، وأما في المتصل: فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصاً^(١) بمعنى: الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول.

فإن قلت: فقلوه: ﴿إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ﴾ بم يتعلق على الوجهين؟

قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر «لكن» في الاتصال بآل لوط؛ لأن المعنى: لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأن إبراهيم - عليه السلام - قال لهم: فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوههم.

فإن قلت: فقلوه: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُمْ﴾ مم استثني، وهل هو استثناء من استثناء؟

قلت: استثني من الضمير المجزور في قوله: (لمنجوهم)، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؛ لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط، إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثاً. إلا اثنتين، إلا واحدة، وفي قول المقر: لفلان علي عشرة دراهم، إلا ثلاثة، إلا درهماً، فأما في الآية فقد اختلف الحكماء؛ لأن (إلا آل لوط): متعلق بأرسلنا، أو بمجرمين، و(إلا امرأته): قد تعلق بمنجوهم، فأنى يكون استثناء من استثناء، وقرئ: (لمنجوهم): بالتخفيف والتثقيب.

فإن قلت: لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله: ﴿فَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَيْرِ﴾^(٢)،

(١) قوله: «فلا يكون الإرسال مخلصاً» لعله: مختصاً (ع).

(٢) عاد كلامه. قال محمود: «فإن قلت لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله ﴿فَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَيْرِ﴾ الخ» قال أحمد: وهذه أيضاً من دوائيه الاعتزالية في جحد القضاء والقدر، واعتقاد أن الأمر أنف، لأنهم لا يعتقدون أن الله تعالى يريد لأكثر أفعال عبده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبيد، بمعنى أنه يريد لأكثر أفعال عبده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبيد، بمعنى أنه يريد ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته، فالتقدير عندهم هو العلم لا الإرادة، ثم استدل على أن التقدير هو العلم بتقدير فعله عن العمل، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته، فانظر إلى بعد غوره ودقة فطنته في ابتغاء آية يلفقها ويعاند بها البراهين الواضح =

قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير - وهو لله وحده - إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله؟

قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدير والامر هو الملك لا هم؛ وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه، وقرئ: «قَدَرْنَا»: بالتخفيف.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ (١١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿١٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنْ دَابرَهُمْ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿١٦﴾ ﴿

﴿مُسْكِرُونَ﴾ أي: تنكركم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشر؛ بدليل قوله: ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوك، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله، فيمترون فيه ويكذبونك، ﴿بِالْحَقِّ﴾: باليقين من عذابهم، ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾: في الإخبار بنزوله بهم، وقرئ: «فأسر»: بقطع الهمزة ووصلها، من أسرى وسرى، وروى صاحب الإقليد: فسر من السير والقطع في آخر الليل؛ قال [من التخفيف]:

اَفْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي الثُّجُومِ كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعٍ لَيْلٍ بِهِيمٍ^(١)

= فلقها، وفي كلامه شاهد على رده، فإن التقدير عنده مضمن معنى العلم، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر: أن يبقى على معناه الأصلي، مضافاً إليه المعنى الطارئ فيفيدهما جميعاً، فالتقدير إذاً كما أفاد العلم الطارئ يفيد الإرادة أصلاً ووضعاً. والله أعلم؛ على أن من الناس من جعل قوله تعالى ﴿قَدَرْنَا﴾ أي: كُنَّا لَمِنَ الْقَدِيرِينَ من كلامه تعالى غير محكي عن الملائكة، وهو الظاهر؛ فإن الذي يجعله من قول الملائكة يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل، ويجعله من باب قول خواص الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، وإنما يعنون دبر الملك وأمر، وبذلك أوله الزمخشري. وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل، لأنه إذا جعل قدرنا بمعنى علمنا إنها لمن الغابرين، فلا غرو في علم الملائكة ذلك بإخبار الله تعالى إياهم به، وإنما يحتاج إلى التأويل: من جعل قدرنا بمعنى أردنا وقضينا وجعله من قول الملائكة، والله أعلم.

(١) يقول لصاحبه وكان يحب طول الليل ويدعيه: افتحي باب البيت وانظري وتألمي في النجوم، أمالت جهة الغرب أم لا؟ وكم: يحتمل أنها خبرية للتكثير، ويحتمل أنها استفهامية، ثم يحتمل أنها مستأنفة، ويحتمل أن الفعل قبلها معلق عن العمل في لفظها لأن لها الصدارة. والمراد من هذا الأمر طلب إخباره بما تعلمه بعد النظر من جواب الاستفهام المذكور. وقطع الليل: ظلمته. وقال في =

وقيل: هو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل.

فإن قلت: ما معنى: أمره باتباع أدبارهم^(١) ونهيهم عن الالتفات؟

قلت: قد بعث الله الهلاك على قومه، ونجاء وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجراً فلم يكن له بدّ من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأمر بأن يقدّمهم لثلاث يشغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة، ولثلاث يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدّم سره ويفوت به، ونهوا عن الالتفات لثلاث يروا ما ينزل بقومهم من العذاب^(٢) فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة^(٣) ويطيّبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدماً^(٤) غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه/ ١٨٨ ب فلا يزال يلوي إليه أخدعه؛ كما قال [من الطويل]:

تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُني وَجَعْتُ مِنَ الإِضْغَاءِ لَيْتاً وَأَخْدَعَا^(٥)

= الصحاح: ظلمة آخره، والمراد به هنا جزء الليل. والبهيم: شديد الظلام لانبهام الأشياء فيه، ووصفه بذلك ملائم للمقام.

ينظر: لسان العرب (قطع)، وتاج العروس (قطع)، وديوان الأدب (١/١٨٨)، وكتاب العين (١/١٣٩).

(١) قال محمود: «إن قلت: ما معنى أمره باتباع أدبارهم... إلخ» قال أحمد: ولبعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام حيث تقدم قومه فقال ﴿وَمَا أَغْنَاكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْؤُوتُونَ﴾ والله أعلم.

(٢) عاد كلامه. قال: «وإنما نهوا عن الالتفات لثلاث يروا ما ينزل بقومهم من العذاب... إلخ» قال أحمد: ولقد شملت هذه الآية على وجازتها آداب المسافرين لمهم ديني أو دنيوي، من الأمر والمأمور والتابع والمتبوع ﴿مَا قَرَّلْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

(٣) قوله: «وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ويطيّبوها عن مساكنهم» لعل فيه تقدماً، والأصل: على المهاجرة عن مساكنهم ويطيّبوها، فليحرر (ع).

(٤) قوله: «ويمضوا قدماً» في الصحاح «مضى قدماً بضم الدال: لم يعرج ولم يشن (ع).

(٥) ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحزن نزعا

بكنت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلنا معا

تلفت نحو الحي حتى وجدتنني وجعت من الإصغاء ليثا وأخدعا

للصمة بن عبد الله بن طفيل بن الحرث، والبشر: السرور وما به السرور، وأعرض: ظهر أمامنا، وحالت - بالمهملة - أي صارت حائلاً بيننا وبين البشر ومنعتنا عنه، وبكت: جواب لما، وخص اليسرى أولاً؛ لأنه كان أعور. ويروى: جالت، بالجيم أي حامت خواطر القلب الناشئة من الشوق في قلبي، حال كونها تحن إلى المحبوبة، نازعات شائقات إليها، يقال: نزع نزوعاً إذا مال قلبه واشتاق إلى حبه. والنزع: جمع نازع، فشبّه خواطر البنات على طريق التصريح، لتولدها من =

أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف؛ لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة، ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: قيل: هو مصر، وعدّي (وامضوا) إلى (حيث): تعديته إلى الظرف المبهم؛ لأن (حيث): مبهم في الأمكنة، وكذلك الضمير في (تؤمرون)، وعدّي (قضيئا) بإلى؛ لأنه ضمن معنى: أوحينا، كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضيا مبتوتا، وفسر ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾: بقوله: ﴿أَنْتَ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾، وفي إبهامه وتفسيره وتفخيم للأمر وتعظيم له، وقرأ الأعمش: «إن»: بالكسر على الاستئناف، كأن قائلًا قال: أخبرنا عن ذلك الأمر، فقال: إن دابر هؤلاء، وفي قراءة ابن مسعود: «وقلنا إن دابر هؤلاء»، ودابرهم: آخرهم، يعني: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

﴿رَجَاءُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَنْتَشِرُونَ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتُ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبًّا مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْمُتَوَسِّعِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

﴿أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾: أهل سدوم التي ضرب بقاضيه المثل في الجور، مستبشرين بالملائكة، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾: بفضيحة ضيفي؛ لأن من أسيء إلى ضيفه أو جاره فقد أسيء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم، ﴿ولا تخرون﴾: ولا تذلون بإذلال ضيفي، من الخزي وهو الهوان، أو ولا تشؤروا^(١) بي، من الخزية وهي الحياء، ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: عن أن تجير منهم أحداً، أو تدفع عنهم، أو تمنع بيننا وبينهم؛ فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرض له، فأوعده

= الشوق وإثبات الجولان والحنين، والنزوع ترشيح؛ لأن الأول خاص بالمحسوس، والآخران بالمدرک. وإسناد الحنين والنزوع إليها مجاز عقلي؛ لأنهما في الحقيقة لمحلها وهو القلب، بل الشخص وهو سببها. والجهل ضد الحلم. أسبلتا: سالت دموعهما، وإسناد البكاء للعين مجازاً، ومعناه دمت عيني، فيجوز تشبيهها بالإنسان على طريق المكنية، وزجرها ترشيح، وجهلها وحلمها تخييل، وتلفت: أي أكثرت الالتفات جهة الحي، حتى وجع ليتي وأخدعي. يقال: وجع وجعاً كتعب تعباً. والليت - بالكسر -: صفحة العنق. والأخدع: عرق فيها، وهما تمييزان محولان عن الفاعل، وذلك مبالغة في كثرة التلفت.

ينظر: لسان العرب (وجع)، وأساس البلاغة (لفت).

(١) قوله: «ولا تشؤروا بي» في الصحاح «الشوار» فرج المرأة والرجل. ومنه قيل: شور به، أي كأنه أبدى عورته (ع).

وقالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين، وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحداً قط، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتُ﴾: إشارة إلى النساء؛ لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونسأؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهن، وخلوا بني فلا تعرضوا لهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾: شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون، وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم، ﴿لَعَمْرُكَ﴾: على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط - عليه السلام -: لعمرك، ﴿إِنَّهُمْ لَكَايِلُ سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزه مبين الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم، من ترك البنين إلى البنات، ﴿يَمْمَهُونَ﴾: يتحIRON، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك؟ وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمر والعمر واحد؛ إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه؛ وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم؛ ولذلك حذفوا الخبر، وتقديره: لعمرك مما أقسم به، كما حذفوا الفعل في قولك: بالله، وقرئ: في سكرهم وفي سكراتهم، ﴿الضَّيْمَةُ﴾: صيحة جبريل - عليه السلام - ﴿مُشْرِقِينَ﴾: داخلين في الشروق، وهو بزوغ الشمس، ﴿مِنْ سَجِيلٍ﴾ قيل: من طين، عليه كتاب من السجل؛ ودليله قوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مَسْمُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الذاريات: ٣٤٩٣٣]، أي: معلمة بكتاب، ﴿لِلْمُتَفَرِّسِينَ الْمُتَأَمِّلِينَ﴾، وحقيقة المتوسمين: النظار المتشبتون في نظرم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، يقال: توسمت في فلان كذا، أي: عرفت وسمه فيه، والضمير في (عاليها سافلها): لقرى قوم لوط، ﴿وَأَنَّهُمَا﴾: وإن هذه القرى يعني: آثارها ﴿لَيْسَبِيلٌ مُّقْبِلٌ﴾: ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش؛ كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧].

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ ٧٨ ﴿فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ وَايَهُمَا لِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ٧٩ ﴿

﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ قوم شعيب، ﴿وَأَنَّهُمَا﴾ يعني: قرى قوم لوط والأيكة، وقيل: الضمير للأيكة ومدین، لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما، فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدین فجاء بضميرهما ﴿لِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: بطريق واضح، والإمام: اسم لما يؤتم به، فسمي به الطريق ومطر البناء واللوح الذي يكتب فيه؛ لأنها مما يؤتم به.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٨٠ ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا رَكَّبُوا قُلُوبَهُمْ قَانُودِينَ﴾ ٨١ ﴿وَكَانُوا يَنْحُوتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ ٨٢ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ ٨٣ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٨٤ ﴿

﴿أَصَابَ الْحَجَرِ﴾: ثمود، والحجر: واديهم، وهو بين المدينة والشام، ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: بتكذيبهم صالحاً؛ لأن من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين، كما قيل: الخبيون في ابن الزبير وأصحابه، وعن جابر: مررنا مع النبي ﷺ على الحجر فقال لنا: «لا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ هَؤُلَاءِ» ثم زجر النبي ﷺ راحلته فأسرع حتى خلفها (٨١٨)، ﴿آمِنِينَ﴾: لوثافة البيوت، واستحكامها من أن تتهدم ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر، أو آمين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميمهم منه، ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥)

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة، لا باطلاً وعبثاً، أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾: وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم؛ فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك، ﴿فَاصْفَحِ﴾: فأعرض عنهم، واحتمل ما تلقى منهم إغراضاً جميلاً بحلم وإغضاء، وقيل: هو منسوخ بآية السيف، ويجوز أن يراد به المخالقة^(١) فلا يكون منسوخاً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦)

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾: الذي خلقك وخلقهم، وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾: بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم وهو يحكم بينكم، / ١٨٩ أو إن ربك هو الذي خلقكم وعلم

٨١٨ - قال الزيلعي: غريب من حديث جابر، وقال الحافظ: لم أجده من حديث جابر، وللحديث شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه مسلم (٣٣٧/٩) نووي كتاب الزهد والرقائق باب «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم» حديث رقم (٢٩٨٠).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
لم أجده من حديث جابر، وهو في الصحيح من حديث ابن عمر بهذا اللفظ دون قوله: «ناقته»، وفي رواية: إن ذلك كان في غزوة تبوك. انتهى.

(١) قوله: «يراد به المخالقة» أي المعاملة بحسن الخلق. وفي الصحاح: يقال خالص المؤمن، وخالق الفاجر اهـ (ع).

ما هو الأصلح لكم، وقد علم أن الصبح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح، وفي مصحف أبي عثمان: «إن ربك هو الخالق» وهو يصلح للقليل والكثير، والخلاق للكثير لا غير؛ كقولك: قطع الثياب، وقطع الثوب والثياب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧)

﴿سَبْعًا﴾: سبع آيات وهي الفاتحة، أو سبع سور وهي: الطوال، واختلف في السابعة فقليل: الأنفال وبراءة؛ لأنهما في حكم سورة واحدة؛ ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية، وقيل: سورة يونس، وقيل: هي: آل حم، أو سبع صحائف وهي الأسباع، و﴿الْمَثَانِي﴾: من الثنية وهي التكرير؛ لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الثناء، لاشتغالها على ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية، وأما السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الثناء، كأنها تثني على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى، و«من»: إما للبيان أو للتبعض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الأسباع، ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثنائي؛ لأنها تثني عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة، ويكون القرآن بعضها.

فإن قلت: كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟

قلت: إذا عني بالسبع الفاتحة أو الطوال، فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، يعني: سورة يوسف، وإذا عني الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين، وهو الثناء أو الثنية والعظم.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)

أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾: أصنافاً من الكفار.

فإن قلت: كيف وصل هذا بما قبله؟^(١)

(١) قال محمود: «إن قلت كيف وصل هذا بما قبله... إلخ؟ قال أحمد: وهذا هو الصواب في معنى الحديث، وقد حملة كثير من العلماء على الغناء، وادعى هؤلاء أن «تغنى» إنما يبني من الغناء =

قلت: يقول لرسوله ﷺ: «قَدْ أُوتِيَتِ النُّعْمَةُ الْعُظْمَى الَّتِي كُلُّ نِعْمَةٍ وَإِنْ عَظُمَتْ فَهِيَ إِلَيْهَا حَقِيرَةٌ ضَائِلَةٌ، وَهِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَغْنِيَ بِهِ، وَلَا تَمُدُّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا»، ومنه الحديث: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ» (٨١٩)، وحديث أبي بكر: «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي، فقد صغر عظيمًا وعظم صغيراً» (٨٢٠)، وقيل: وافت من بصري وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير،

٨١٩ - أخرجه البخاري (٥١٠/١٣) كتاب التوحيد باب: قوله تعالى ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير». رقم (٧٥٢٧)، وأبو داود (٤٦٤/١) كتاب الصلاة، باب: استحباب الترتيل في القراءة رقم: (١٤٦٩ - ١٤٧٠ - ١٤٧١).
والبيهقي (٥٤/٢) كتاب الصلاة، باب: كيف قراءة المصلي، (٢٢٩/١٠) كتاب الشهادات، باب: تحسين الصوت بالقرآن والذكر، أحمد في «المسند» (١٧٢/١ - ١٧٥ - ١٧٩). والحاكم في «المستدرک» (٥٦٩/١ - ٥٧٠) كتاب: فضائل القرآن، والحميدي في «المسند» (٤١/١)، رقم (٧٦ - ٧٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١٠/٤)، وعبد الرزاق (٤٨٣/٢) رقم: (٤١٧٠ - ٤١٧١). وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٤٠/٢) الترغيب في تعاهد القرآن وتحسين الصوت به رقم (٢١٤٨) والبخاري في «شرح السنة» (٣٣/٣) كتاب فضائل القرآن باب: التغني بالقرآن رقم: (١٢١١) والهندي في «كنز العمال» (٦٠٥/١ - ٦٠٩) رقم (٢٧٦٩ - ٢٧٩٧) والسيوطي في «الدر المثور» (٣٤٩/١).

قال الحافظ:

أخرجه البخاري من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة، وفي الباب عن سعد وأبي لبابة عند أبي داود. قال المخرج ذهل النووي وقيل المنذري، ثم الطيبي فعزوه لأبي داود ولم يعزوه للبخاري، وأخطأ القرطبي فعزاه لمسلم لا للبخاري، ولم يذكره صاحب جامع الأصول، وعزاه الحاكم للشيخين والذي في الصحيحين حديث أبي هريرة: «ما أذن الله لشيء كإذنه لني يتغنّى بالقرآن بجهر به». (فائدة) قال البيهقي في السنن في كتاب الشهادات: أخبرنا الحاكم عن أبي الأصم سمعت الربيع يقول: سمعت الشافعي يقول: ليس منا من لم يتغن بالقرآن. فقال له رجل: يستغن؟ قال: ليس هذا معناه، أي معناه يقرأه تحزينا. انتهى.

٨٢٠ - قال الزيلعي: غريب من حديث أبي بكر، وعزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه في مسنده، ومن طريق ابن راهويه رواه الطبراني في معجمه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. ينظر «تخريج الكشاف» (٢١٨/٢).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجده عن أبي بكر وأخرجه ابن عدي في ترجمة حمزة النصيلي عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة عن ابن مسعود رفعه: «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد حقر عظيمًا وعظم صغيراً»، =

= الممدود لا من الغنى المقصور، وأن فعله استغنى خاصة، وقد وجدت بناء تغنى من الغنى المقصور في الحديث الصحيح في الخيل. وأما التي هي ستر فرجل ربطها تغنيا وتعففا، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعاً واتفاقاً، وهو مصدر تغني، فدل ذلك على أنه مستعمل من البناءين جميعاً على خلاف دعوى المخالف، والله الموفق.

فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله - عز وعلا -: «لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتمنّ أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام وينتفعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء، ﴿وَقُلْ﴾: لهم ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾: أنذركم ببيان وبرهان أنّ عذاب الله نازل بكم.

﴿كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩١) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩٢﴾

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿كَمَا أُنْزِلْنَا﴾؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١)؛ حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقسموه إلى حق وباطل، وعضوه^(١)، وقيل: كانوا يستهزؤون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بالقرآن: ما يقرؤونه من كتبهم، وقد اقساموه بتحريفهم، وبأنّ اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم، وقولهم: سحر وشعر وأساطير، بأنّ غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم.

والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢) أي: وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعني: اليهود، وهو ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان، ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عِضِينَ منصوباً بالنذير، أي: أنذر المعضين الذين يجزؤون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير، مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقساموا مداخل مكة أيام الموسم، ففعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان

= وحمة اتهموه بالوضع. وأخرجه إسحاق والطبري من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: «من أعطي القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظمه الله» - الحديث. انتهى.

(١) قوله: «وعضوه» في الصحاح: عضيت الشاة تعضية، إذا جزأها أعضاء. وعضيت الشيء تعضية، إذا فرقته (ع).

برسول الله ﷺ يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا؛ فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بأفات، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا - صالحاً - عليه السلام - والاقتراس بمعنى: التقاسم.

فإن قلت: إذا عقلت قوله: ﴿كَمَا أُنْزِلْنَا﴾ بقوله: (ولقد آتيناك): فما معنى توسط (لا تتمدن) إلى آخره بينهما؟

قلت: لما كان ذلك تسلياً لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلي، من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين (عضين) أجزاء، جمع عضة، وأصلها عَضْوَةٌ فِعْلَةٌ: من عضى/ ١٨٩ ب الشاة إذا جعلها أعضاء؛ قال رؤبة [من الرجز]:

وَلَيْسَ دِينَ اللَّهِ بِأَلْمَعْضَى

وقيل: هي فعلة، من عضهته إذا بهته^(١)، وعن عكرمة: العضة: السحر، بلغة قريش، يقولون للساحر: عاضه، ولعن النبي ﷺ العاضه والمستعضه (٨٢١)، نقصانها على الأول: واو، وعلى الثاني: هاء.

﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْزَمَهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾ ٩٢ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٩٣

﴿لَنَسْتَلْزَمَهُنَّ﴾: عبارة عن الوعيد، وقيل: يسألهم سؤال تقييد، وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٤

﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً؛

٨٢١ - أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٦٧/٤) من طريق زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس به.

وأخرجه أبو يعلى من هذا الطريق؛ كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢١٨/٢).

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو يعلى وابن عدي من حديث ابن عباس، وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام وهما ضعيفان، وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء. انتهى.

(١) قوله: «إذا بهته» أي اتهمته (ع).

كقولك: صرح بها، من الصديق وهو الفجر، والصدع في الزجاجة: الإبانة، وقيل: (فاصدع) فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر، والمعنى: بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجاز؛ كقوله [من البسيط]:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلُ مَا أُمِرْتُ بِهِ (١)

ويجوز أن تكون (ما): مصدرية، أي: بأمرك مصدر من المبني للمفعول.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر ذوو أَسنان وشرف: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن الطلائطة، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: ماتوا كلهم قبل بدر، قال جبريل - عليه السلام - للنبي ﷺ: أمرت أن أكفيكمهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم، فلم ينعطف؛ تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل، فدخلت فيها شوكة، فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله، حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب، فعمي، وأشار إلى أنف الحارث بن قيس، فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (٨٢٢).

٨٢٢ - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣١٦/٢) عن ابن عباس، وابن هشام في سيرته (٢٠/٢) عن ابن إسحاق.

=

(١) فقال لي قول ذي رأي ومقدرة
أمرتك الخير فافعل ما أمرت به
محرو نزه خال من الريب
فقد تركتك ذا مال وذا نسب

لخفاف بن ندبة، وقيل: لعباس بن مرداس. وقيل: لعمر بن معد يكرب. وقيل: لإياس بن موسى، والمقدرة: مثلث الدال: القوة، والمحرو النزه - كحذر -: الخالص من الغش. والريب، أي الشبه، وهو نعت لذي رأي. ولو جعلته نعتاً للرأي لكان فيه الفصل بين النعت والمنعوت بالعطف. ويجوز رفعه على أنه نعت مقطوع للقول. والنشب: المال الأصل صامتاً أو ناطقاً، فهو من عطف الخاص على العام. ويروى: ذا نسب، بالمهملة: أي نسب عظيم، وأمر: يتعدى للثاني بالباء. ويقال: أمرتك الخير على التوسع، أو تضمين التكليف، وجمعهما الشاعر في البيت.

البيت للعباس بن مرداس. ينظر: ديوانه ٤٧، قصيدة رقم ٢، ص ٣١، المقتضب، ٣٥/٢، الكتاب ٣٧/١، المحتسب ٥١/١، أمالي ابن الشجري ١٦٥/١، الهمع ٨٢/٢، الدرر ١٠٦/٢، شرح المفصل لابن يعيش ٤٢/٢، ٥٠/٨، الخزانة ٣٣٩/١، الشذور ٣٦٩، المغني ٣١٥/١، ونسب البيت إلى خفاف بن ندبة وهو في ملحقات ديوانه ص ١٢١، ونص (أمرتك الرسن) ونسب لعمر بن معد يكرب الزبيدي، وهو في ديوانه ٦٣، الأصول ١٧٨/١، شرح الجمل لابن عصفور ٣٠٥/١، الدرر ١٠٦/٢، الدر ١٣٣/١.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾
وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾: من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن، ﴿فَسَبِّحْ﴾: فافزع فيما نابك إلى الله، والفزع إلى الله: هو الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم، ودم على عبادة ربك، ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: الموت، أي: ما دمت حيًا فلا تخل بالعبادة، وعن النبي ﷺ: أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (٨٢٣).

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجْرِ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالْمُسْتَهْزِئِينَ بِمُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٨٢٤).

== وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجده بهذا السياق. وأخرجه الطبراني في معجمه. وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل لهما. وابن مردويه كلهم من طريق جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، قال: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود ابن المطلب، وأبو زمعة والحرث بن عيطل السهمي، قال: أتاه جبريل فشكاهم إليه. فأراه الوليد ابن المغيرة فأوماً جبريل إلى أكحله. فقال: ما صنعت؟ قال: كفيته. فساق الحديث. قال: فأما الوليد بن المغيرة فمر برجل من خزاعة وهو يریش نبلاً له فأصاب أكحله فقطعها. وأما الأسود بن المطلب فعمي. وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها. وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف فربط به حماره على شبرقة يعني شوكة. فدخلت في أخمص قدمه فقتلته. وأما الحرث بن عيطل فأخذه ألم الأصفر في بطنه حتى خرج خروء من فيه فمات منها. انتهى.

٨٢٣ - قال الحافظ:

تقدم في البقرة. انتهى.

٨٢٤ - أخرجه الواحد في تفسيره الوسيط (٣/٣٨)، وعزاه الزيلعي للثعالبي، وابن مردويه في تفسيره بسنده في آل عمران. وينظر حديث رقم (٣٤٦).

قال الحافظ:

رواه الثعلبي من طريق أبي الخليل عن علي بن زيد عن زر بن حبیش عن أبي بن كعب، وقد تقدمت أسانيده في آخر آل عمران. انتهى.

سُورَةُ النَّحْلِ

مَكِّيَّةٌ، غَيْرُ ثَلَاثِ آيَاتٍ فِي آخِرِهَا

وَتُسَمَّى سُورَةُ النَّعَمِ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَمَانٍ وَعِشْرُونَ آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْكَهْفِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا سَتَعِجِلُوهُ سَخِرَ لَكُمْ وَفَعَلَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر؛ استهزاء وتكذيباً بالوعد، ف قيل لهم: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾: الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه، ﴿فَلَا سَتَعِجِلُوهُ﴾: روي أنه لما نزلت: (اقتربت الساعة) قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً؛ فنزلت: ﴿فَقَرَّبَ إِلَهُكُمُ الْحَسْبَ﴾، فأشفقوا وانتظروا قريبا، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به؛ فنزلت: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾، فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رءوسهم؛ فنزلت: ﴿فَلَا سَتَعِجِلُوهُ﴾: فاطمأنوا، وقرئ: «تستعجلوه»: بالثناء والياء، ﴿سَخِرَ لَكُمْ وَفَعَلَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تبرأ - عز وجل - عن أن يكون له شريك، وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم، على أن «ما»: موصولة أو مصدرية.

فإن قلت: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟

قلت: لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك، وقرئ: «تشركون»: بالثناء والياء.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ رَسُولٍ وَلَا تُدْرِكُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاتَّقُوا﴾

قرئ: (ينزل): بالتخفيف والتشديد، وقرئ: (تنزل الملائكة) أي: تنزل، ﴿بِالرُّوحِ مِنْ

أَمْرِي: بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، و﴿أَنْ أُنْذِرُوا﴾: بدل من الروح، أي: ينزلهم بأن أُنْذِرُوا، وتقديره: بأنه أُنْذِرُوا، أي: بأن الشأن أقول لكم أُنْذِرُوا، أو تكون «أن»: مفسرة؛ لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول، ومعنى أُنْذِرُوا: ﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: اعلّموا بأنّ الأمر ذلك، من نذرت بكذا إذا علمته، والمعنى: يقول لهم: اعلّموا الناس قولي لا إله إلا أنا ﴿فَاتَّقُون﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بدّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجرّ أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه؛ ومثله متعال عن أن يشرك به غيره، وقرئ: «تشركون»: بالتاء والياء، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، فيه معنيان:

أحدهما: فإذا هو منطبق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من مني جماداً لا حس به ولا حركة؛ دلالة على قدرته.

والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: من يحيي العظام وهي رميم؛ وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتماذي في كفران النعمة، وقيل: نزلت في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما قد رم؟ (٨٢٥).

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾

﴿وَالْأَنْعَمَ﴾ / ١٩٠: الأزواج الثمانية، وأكثر ما تقع على الإبل، وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر، كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْتَهُ﴾ [يس: ٣٩]، ويجوز أن يعطف على الإنسان، أي: خلق الإنسان والأنعام، ثم قال: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي: ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان، والدفع: اسم ما يدفأ به، كما أنّ الملاء اسم ما يملأ به، وهو الدفء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر، وقرئ: «دف»: بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على

٨٢٥ - قال الحافظ:

سيأتي في سورة يس. انتهى.

الفاء، ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ هي: نسلها ودرّها وغير ذلك.

فإن قلت: تقديم الظرف في قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها.

قلت: الأكل منها هو الأصل^(١) الذي يعتمده الناس في معاشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التي تأكلونها منها وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾

من الله بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها؛ لأنه من أغراض أصحاب المواشي، بل هو من معازمها؛ لأنّ الرعيان إذا رَوّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة - فزينت بإراحتها وتسريحها الألفية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء^(٢) - أنست أهلها وفرحت أربابها، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس؛ ونحوه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، ﴿يُورَى سَوَاءٌ بَكُمْ وَرَيْشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

فإن قلت: لم قدّمت الإراحة على التسريح؟

قلت: لأنّ الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها، وقرأ عكرمة: «حيناً تريحون وحيناً تسرحون»: على أن (تريحون وتسرحون): وصف للحين، والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمًا لَا يَجْزَى وَاللَّهُ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ

رَحِيمٌ﴾

قري: «بشق الأنفس»: بكسر الشين وفتحها، وقيل: هما لغتان في معنى المشقة، وبينهما فرق: وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقاً، وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع، وأما الشق فالنصف، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد.

(١) قال محمود: «إن قلت لم قدم المجرور وأجاب بأن الأكل منها هو الأصل... إلخ»؟ قال أحمد:

ومدار هذا التقرير على أن تقديم معمول الفعل يوجب حصره فيه فكأنه قال وإنما تأكلون منها.

(٢) قوله: «وتجاوب فيها الثغاء والرغاء» الثغاء صوت الشاء والمعز وما شاكلهما. والرغاء صوت ذوات الخف، كذا في الصحاح.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ﴾: كأنهم كانوا زماناً يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم.

قلت: معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة.

فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ﴾ قوله: (وتحمل أثقالكم)، وهلا قيل: لم تكونوا حامليها إليه^(١)؟

قلت: طباقه من حيث إن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم، ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس، وقيل: أثقالكم أجرامكم، وعن عكرمة: البلد مكة، ﴿كَرَهُوا رَجِيئاً﴾؛ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾: عطف على الأنعام، أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام.

فإن قلت: لم انتصب ﴿وَزِينَةً﴾؟

قلت: لأنه مفعول له، وهو معطوف على محل لتركبوها.

فإن قلت: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد^(٢)؟

(١) قال محمود: «إن قلت كيف طابق قوله لم تكونوا بالغيه قوله وتحمل أثقالكم... إلخ؟ قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس واستغنى بذكر البلوغ عن ذكر حملها لأن العادة أن المسافر لا يستغني عن أثقال يستصحبها والمعنى الأول أعلى، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «إن قلت هلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سن واحد... إلخ؟ قال أحمد: يعني فجاز أن ينتصب مجرداً من لام التعليل لأنه فعل فاعل الفعل الأول، ويعينه اقتران الركوب باللام لأنه فعل المخاطبين، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام، وفي هذا الجواب نظر، فإن لقاتل أن يقول: كان من الممكن مجيئهما معاً باللام فيأتيان على سنن واحد. ولا غرو في ذلك فالسؤال قائم، والجواب العتيد عنه: أن المقصود المعتبر الأصلي في هذه الأصناف هو الركوب. وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب «فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة التعليل، تنبيهاً على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين وتجرد التزين منها تنبيهاً على تبعيته أو قصوره عن الركوب، والله أعلم.

قلت: لأنَّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة: ففعل الزائن وهو الخالق، وقرئ: «لتركبوها زينة»: بغير واو، أي: وخلقها زينة لتركبوها، أو تجعل زينة حالاً منها، أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: يجوز أن يريد به: ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفصيله ويمنَّ علينا بذكره كما منَّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته، ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة النار، مما لم يبلغه وهم أحد، ولا خطر على قلبه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

المراد بالسبيل: الجنس؛ ولذلك أضاف إليها القصد وقال: (ومنها جائر)، والقصد مصدر بمعنى: الفاعل وهو القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد، أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، ومعنى قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾: أن هداية الطريق الموصل^(١) إلى الحق واجبة عليه^(٢)؛ كقوله: ﴿إِنَّ عَيْنَنَا لِلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢].
فإن قلت: لم غير أسلوب الكلام في قوله: ﴿وَمِنْهَا جَايزٌ﴾؟

قلت: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة^(٣) لقليل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر، وقرأ عبد الله:

(١) قال محمود: «ومعناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة... إلخ» قال أحمد: أين يذهب به عن تنمة الآية. وذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام: وقد هداكم أجمعين. وما كأنهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإلجاء، فما كأنهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه. وأما المخالفة بين الأسلوبين، فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر، وهدى قوماً اختاروا الهدى، وأضل قوماً اختاروا الضلالة لأنفسهم. وقد تقدم في غير ما موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران، هو من حيث كونه موجوداً. مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار، هو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له وبتأنيه له وتيسره عليه يضاف إلى العبد، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له، والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر، ليناسب ذلك إقامة الحجة ﴿إِلَّا لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ والله الموفق للصواب.

(٢) قوله: «الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه» هذا مذهب المعتزلة ولا وجوب عليه تعالى عند أهل السنة، بل ذلك فضل منه تعالى؛ لكن الكريم يبرز الوعد بالخير في صورة الواجب (ع).

(٣) قوله: «ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقليل» وعلى الله قصد السبيل يعني أهل السنة من أنه تعالى يخلق الشر كالخير. وقوله: «لقليل» إلخ: الملازمة ممنوعة لأن الكريم يحب الخير دون الشر، وإن كان كل منهما من عنده (قل كل من عند الله). (ع).

«ومنكم جائر»، يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره، والله بريء منه، ﴿وَلَوْ سَاءَ مَا يَحْكُمُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: قسراً وإلجاءاً^(١)

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾^(١١) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١٢)

﴿لكم﴾: متعلق بأنزل، أو بشراب؛ خبراً له، والشراب ما يشرب، ﴿شَجَرٌ﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي، وفي حديث عكرمة: لا تأكلوا ثمن الشجر؛ فإنه سحت (٨٢٦)، يعني: الكلاء، ﴿تُسِيمُونَ﴾: من سامت الماشية إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهو من السومة وهي العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض، وقرئ: «ينبت»: بالياء والنون.

فإن قلت: لم قيل: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ / ١٩٠ ب؟

قلت: لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة؛ وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للذكورة، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: ينظرون فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته، والآية: الدلالة الواضحة، وعن بعضهم: «يُنْبِتُ»: بالتشديد، وقرأ أبي بن كعب: «ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب»: بالرفع.

٨٢٦ - قال الزيلعي: غريب.

وبمعناه ما رواه عبد الرزاق في مُصنّفه، عن وهب بن منبه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا السحت»، قالوا: وما السحت يا رسول الله؟ قال: «بيع الشجر وثمر الخمر، وإجارة الأمة المساحقة». وذكره عبد الحق في أحكامه، في البيوع من جهة عبد الرزاق، وقال: هذا مرسل، وحديث عكرمة أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال موقوفاً عليه. قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو عبيد في الأصول عنه موقوفاً وزاد نحوه، وروى عبد الرزاق من طريق وهب بن منبه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا السحت قالوا: وما السحت؟ قال: بيع الشجر وثمر الخمر وإجارة الأمة المساحقة». انتهى.

(١) قوله: «ولو شاء لهداكم أجمعين قسراً وإلجاءاً» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فإنه لو شاء لهدى الكل اختياراً، وذلك أن المعتزلة أوجبوا على الله الصلاح، وهداية الكل صلاح؛ فظاهر الآية يخالف مذهبهم. ولذا قالوا: إنه أراد هداية الكل، لكن إرادة لا تنافي تخيير العبد، لئلا يبطل تكليفه. وهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد. وأهل السنة لم يوجبوا على الله تعالى شيئاً، وكل ما أراده الله لا بد من وقوعه. وهذه الإرادة لا تنافي اختيار العبد عندهم لما تقرر له من الكسب، كما بين في علم التوحيد (ع).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٧)

قرئت كلها بالنصب على: وجعل النجوم مسخرات، أو على أن معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم؛ حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم، فكانه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره، ويجوز أن يكون المعنى: أنه سخرها أنواعاً من التسخير جمع مسخر، بمعنى: تسخير، من قولك: سخره الله مسخراً؛ كقولك: سرحه مسرحاً، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره، وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر، وقرئ: «والنجوم مسخرات»: بالرفع، وما قبله بالنصب، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: فجمع الآية، وذكر العقل؛ لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ (١٨)
﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾: معطوف على الليل والنهار، يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيئات والمناظر.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٩)
﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾: هو السمك، ووصفه بالطراوة؛ ^(١) لأن الفساد يسرع إليه ^(٢)، فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه.

فإن قلت: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحماً. فأكل سمكاً، لم يحنث، والله - تعالى - سماه لحماً كما ترى؟

قلت: مبني الإيمان على العادة، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق ألا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار، ومثاله: أن الله - تعالى - سمى الكافر دابة في قوله: إن شر الدواب عند الله

(١) قوله: «بالطراوة» في الصحاح: طرو اللحم. وطرى طراوة وطراء وطراة (ع).

(٢) عاد كلامه. قال: «هو السمك، ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه... إلخ» قال أحمد: فكان ذلك تعليم لأكله وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً. والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون، والله أعلم.

الذين كفروا، فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث، ﴿حَلِيلَةً﴾: هي اللؤلؤ والمرجان^(١)، والمراد بلبسهم: لبس نسائهم؛ لأنهن من جملتهم، ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم، فكانها زينتهن ولباسهم، المخر: شق الماء بحيزومها، وعن الفراء: هو صوت جري الفلك بالرياح، وابتغاء الفضل: التجارة.

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتَرَا وَسِيلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْجِبَالُ أُوتِاقًا ﴿١٦﴾﴾
وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: كراهة أن يميل بكم وتضطرب، والمائد: الذي يدار به إذا ركب البحر، قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدر الملائكة مم خلقت، ﴿وَأَنْتَرَا﴾: وجعل فيها أنهاراً؛ لأن: (القي): فيه معنى: جعل؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿أَلَّا يَجْعَلَ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿١٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَاقًا ﴿١٧﴾﴾ [النبا: ٦، ٧]، ﴿وَعَلَّمَتِ﴾: هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك، والمراد بالنجم: الجنس؛ كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس، وعن السدي: هو الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي، وقرأ الحسن: «وبالنَّجْم»: بضميتين، وبضمة وسكون، وهو جمع نجم، كرهن ورهن، والسكون تخفيف، وقيل: حذف الواو من النجوم تخفيفاً.

فإن قلت: قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾: مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه؛ (النجم)، مقحم فيه (هم)، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فمن المراد بـ (هم)؟

قلت: كأنه أراد قريشاً: كان لهم اهتداء بالنجوم في مسائرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

فإن قلت: (من لا يخلق) أريد به الأصنام^(٢)، فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟

(١) قال محمود: «الحلية هي اللؤلؤ والمرجان... إلخ» قال أحمد: والله در مالك رضي الله عنه حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن، حتى جعل المرأة من مالها وزيتها حلية له، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظها سواء، مؤيداً بالحديث المروي في الباب، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «إن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام... إلخ» قال أحمد: وهو تحوم على أن العباد يخلقون أفعالهم، وأن المراد إظهار التفاوت بين من يخلق منهم ومن لا يخلق كالعاجزين والزمنى، =

قلت: فيه أوجه:

أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم؛ ألا ترى إلى قوله على أثره: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والثالث: أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده؛ كقوله: ﴿أَلَمْ أَزِجْ لَهُم مِّن مَّاءٍ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، يعني: أن الآلهة حالهم منحة عن حال من لهم أرجل وأيد وأذان وقلوب؛ لأن هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا.

فإن قلت: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان^(١)، وسموها آلهة؛ تشبيهاً بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟

قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله - تعالى - من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٨] وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ [١٩]

﴿لَا تُحْصُوهَا﴾: لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطبقوا القيام بحقها من أداء الشكر، أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهاً على أن وراءها ما لا ينحصر ولا ينعّد، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [١٩]: من أعمالكم، وهو: وعيد.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [٢٠] أَمُوتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [٢١]

= حتى ثبت التفاوت بين من يخلق منهم وبين الأصنام بطريق الأولى، ولقد تمكن منه الطمع حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتزيله الآية على هذا التأويل، ويتمنى له تم لو ذلك. [من البسيط]:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله تعالى وكان من حق الإلزام... إلخ» قال أحمد: وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ فجدد بها عهداً.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: والآلهة الذين يدعوهم الكفار، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقرئ: «بالتاء»، وقرئ: «يدعون»: على البناء للمفعول، نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم/ ١٩١ أ صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب، ومعنى: ﴿أَتُوتُ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾: أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي غير جائز عليها الموت كالحَيِّ الذي لا يموت، وأمرهم على العكس من ذلك، والضمير في (يبعثون): للداعين، أي: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم، وفيه تهكم بالمشركون وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم، وفيه دلالة على أنه لا بدّ من البعث وأنه من لوازم التكليف، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير، وهم لا يقدرّون على نحو ذلك، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها، غير أحياء يعني: أن من الأموات ما يعقب موته حياة، كالنطف التي ينشئها الله حيواناً، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، وأما الحجارة فأمووات لا يعقب موتها حياة؛ وذلك أعرق في موتها، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكماً بحالها؛ لأنّ شعور الجماد محال^(١)، فكيف بشعور ما لا يعلمه حيّ إلا الحيّ القيوم سبحانه، ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات، أي: لا بدّ لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم، وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثهم، وقرئ: «إيان»: بكسر الهمزة.

﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: لا يؤمنون بالآخرة فقلوبهم منكروة وهم مستكبرون ﴿٢٢﴾ لا جرم

أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره، وأنها له وحده لا شريك له فيها، فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها: استمرارهم على شركهم، وأن قلوبهم منكروة للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها، ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾: سرهم وعلاانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾: يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني المشركين، ويجوز أن يعم كل مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ

(١) قوله: «لأن شعور الجماد محال» أي شعوره بما يشعر به الحيوان محال، فكيف بشعوره بما لا يعلمه حيوان وإنما يعلمه الحي القيوم، وهو وقت البعث. ولعل في عبارة المصنف سقطاً تقديره: شعور الجماد بما يشعر به الحيوان (ع).

الْفَيْكَمَةَ وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُّوكَ ﴿٢٥﴾

﴿مَآذًا﴾: منصوب بأنزل، بمعنى: أي شيء، ﴿أَنْزَلَ رُكُوزًا﴾: أو مرفوع بالابتداء، بمعنى: أي شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى: ﴿أَسْطِيرُ الْأُولَى﴾: ما يدعون نزوله أساطير الأولين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأولين؛ كقوله: ﴿مَآذًا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَوْ﴾ [البقرة: ٢١٩] فيمن رفع.

فإن قلت: هو كلام متناقض؛ لأنه لا يكون منزل ربهم وأساطير؟

قلت: هو على السخرية؛ كقوله: إن رسولكم^(١) وهو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين: الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا أحاديث الأولين وأباطيلهم، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس وصداً عن رسول الله ﷺ فحملوا أوزار ضلالهم، ﴿كَايِلَةً﴾: وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم، وهو وزر الإضلال؛ لأن المضل والضال شريكان: هذا يضلّه، وهذا يطاوعه على إضلاله، فيتحاملان الوزر، ومعنى اللام: التعليل من غير أن يكون غرضاً؛ كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: حال من المفعول أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال؛ وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم؛ لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقَيْكَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكِنُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أَوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

القواعد: أساطين البناء التي تعمد، وقيل: الأساس، وهذا تمثيل، يعني: أنهم سؤوا منصوبات ليمكروا^(٢) بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعفت، فسقط عليهم

(١) قوله: «على السخرية كقوله إن رسولكم» لعله: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون (ع).

(٢) قوله: «ليمكروا بها الله ورسوله» لعل تعدية فعل المكر إلى مفعول لتضمنه معنى الخديعة (ع).

السقف وهلكوا؛ ونحوه: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً، وقيل: هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل فرسخان، فأهبط الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا، ومعنى إتيان الله: إتيان أمره، ﴿يَتْلُو الْقَوَاعِدَ﴾: من جهة القواعد، ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، وقرئ: «فأتى الله بيتهم»، «فخر عليهم السقف»: بضمين، ﴿يُخْزِيهِمْ﴾: يذلهم بعذاب الخزي، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ يعني: هذا لهم في الدنيا، ثم العذاب في الآخرة، ﴿شُرَكَاءِي﴾: على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليؤيخهم بها على طريق الاستهزاء بهم، ﴿تَشَقُّوْنَ فِيهِمْ﴾: تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم، وقرئ: «تشاقون»: بكسر النون، بمعنى: تشاقوني؛ لأن مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله، ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾: هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم؛ يقولون ذلك شماتة بهم، وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه، وقيل: هم الملائكة، قرئ: «تتوفاهم»: بالتاء والياء، وقرئ: «الذين توفاهم»: بإدغام التاء في التاء، ﴿فَالْقَوْمَ الْأَسَافَةَ﴾: فسالموا وأخبتوا، وجأؤا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ﴾، وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فردّ عليهم أولو العلم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فهو يجازيكم عليه، وهذا - أيضاً - من السماتة وكذلك: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿خَيْرٌ﴾ أنزل خيراً.

فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟

قلت: فصلاً بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيراً، أي: أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال / ١٩١ ب فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء، وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف، وقالوا: إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه،

فيلقى أصحاب رسول الله ﷺ فيخبرونه بصدقه، وأنه نبي مبعوث، فهم الذين قالوا خيراً، وقوله: ﴿لَذِيكَ أَحْسَنُوا﴾، وما بعده بدل من «خيراً»؛ حكاية لقوله الذين اتقوا، أي: قالوا هذا القول، فقدم عليه تسميته خيراً ثم حكاها، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوا عليه، ﴿حَسَنٌ﴾: مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها؛ كقوله: ﴿فَقَالَهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]. ﴿وَلَنَعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾: دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره، ﴿وَجَنَّتٌ عَدْنٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح: ﴿طَيِّبِينَ﴾: طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي؛ لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم، ﴿يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾: قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

﴿تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: قرئ بالتاء والياء، يعني: أن تأتيهم لقبض الأرواح، و﴿أَمْرٌ رَبِّكَ﴾: العذاب المستأصل، أو القيامة، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب، ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾: بتدميرهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير، ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾: جزاء سيئات أعمالهم، أو هو كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥)

هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله؛ استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم، واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا بالله وحرّموا ما أحل الله، من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه^(١)، ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: أشركوا وحرّموا

(١) قوله: «وقالوا لو شاء الله لم نفعل»، وهذا مذهب المجبرة بعينه يعني أهل السنة، وليس كما قال، =

حلال الله^(١)، فلما نهوا على قبح فعلهم وزكوه على ربهم^(٢)، ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ﴾: إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله - تعالى - من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله - تعالى - باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشينة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: لطف به؛ لأنه عرفه من أهل اللطف، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ

بل قاله المشركون استهزاء، وأهل السنة اعتقاداً، كما أفاده النسفي. وكل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، شراً كان أو خيراً. وكل أمر بقضائه تعالى وقدره، شراً كان أو خيراً. وهو الخالق لأفعال العباد وإن كانت بكسبهم واختيارهم، خلافاً للمعتزلة في جميع ذلك، كما أطال به فيما سيأتي هنا انتصاراً للمعتزلة (ع).

(١) قال محمود: «يعني أنهم أشركوا بالله وحرّموا ما أحل الله... إلخ» قال أحمد: قد تكرر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المتقدمة في سورة الأنعام، وقد قدمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء الله، والذي زاده هنا يثبت معتقده على زعمه بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وجه تمسكه به أن الله تعالى قسم العبادة إلى قسمين: مأمور به ومنهي عنه. والأمر والنهي عند المصنف راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية في إنكار كلام النفس وحمل الاقتضاء على الإرادة، فالحاصل حينئذ من هذه التهمة أن الله شاء عبادة الخلق له وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت، ولم يشأ منهم أن يشركوا به، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمة من الأمم، فجاءت التهمة مترجمة عن معنى صدر الآية، مؤكدة بمقتضاها. هذا هو الذي زاده المصنف ههنا، وقد بينا أن مناه على إنكار كلام النفس الثابت قطعاً، فهو باطل جزماً. والعجب أن الله تعالى أوضح في الآيتين جميعاً أن الذي أنكره من القائلين ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا﴾ إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها، مع ما خلق لهم من الاختيار بقوله ههنا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وبقوله في آخر آية الأنعام ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فتبين أنه هو الذي شاء منهم الإشراك والضلالة، ولو شاء هدايتهم أجمعين لاهتدوا عن آخرهم. وحصل من هذا البيان: صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى، وذلك هو الذي قدمناه في إقامتهم الحجة على الله بمشيئته، مع أن حجتهم في ذلك داحضة، والله عليهم الحجة البالغة الواضحة، والله الموفق.

(٢) قوله: «وركوه على ربهم» أي اتهموه به.

أَضَلَّكَ أَي: ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف؛ لأنه عرفه مصمماً على الكفر لا يأتي منه خير، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾: ما فعلت بالمكذبين حتى لا يبقى لكم شبهة في أنني لا أقدر الشر ولا أشاؤه؛ حيث أفعل ما أفعل بالأشوار.

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٧)

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وعزفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة، وأنه ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي: لا يلطف ممن يخذل؛ لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث؛ لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه، وقرئ: «لا يَهْدِي»^(١) أي: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾: دليل على أن المراد بالإضلال: الخذلان الذي هو نقيض النصر، ويجوز أن يكون: (لا يهدي) بمعنى: لا يهتدي، يقال: هداه الله فهدي، وفي قراءة أبي: «فإن الله لا هادي لمن يضل»، «ولمن أضل»^(٢)، وهي معاضدة لمن قرأ: ﴿لَا يَهْدِي﴾: على البناء للمفعول، وفي قراءة عبد الله: «يهدي»: بإدغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى، وقرئ: (يضل): بالفتح، وقرأ النخعي: «إن تحرص»: بفتح الراء، وهي لغية.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٢٩)

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾: معطوف على: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان، حقيقتان بأن تحكيا وتدونا: توريك ذنوبهم على مشيئة^(٣) الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه، و﴿بَلَىٰ﴾: إثبات لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم، ووعد الله: مصدر مؤكد لما دلَّ عليه بلى؛ لأن يبعث موعد من الله، وبين أن الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنهم يبعثون أو أنه وعد واجب^(٤) على الله؛ لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل ولا غيره من

(١) قوله: «وقرئ لا يهدي» بالبناء للمجهول، كما أفاده النسفي (ع).

(٢) قوله: «وفي قراءة أبي: فإن الله لا هادي لمن يضل ولمن أضل» ظاهره أن هذه قراءة أخرى لأبي. فليحرر.

(٣) قوله: «توريك ذنوبهم على مشيئة الله» أي نسبة ذنوبهم إلى مشيئة تعالى واتهامها بها.

(٤) قوله: «أو أنه وعد واجب على الله... إلخ» الكلام في الكفار. وعرض فيه المصنف بأهل السنة تعصباً للمعتزلة في قولهم بوجوب الصلاح عليه تعالى فافهم (ع).

مواجب الحكمة، ﴿لَيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾: متعلق بما دل عليه «بلى» أي: يبعثهم ليبين لهم، والضمير: لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذي اختلفوا فيه هو الحق، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ﴾: كذبوا في قولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، وفي قولهم: لا يبعث الله من يموت، وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أي: بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وأنهم كانوا على الضلالة قبله، مفترين على الله الكذب.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٠)

﴿قَوْلُنَا﴾: مبتدأ، و﴿أَنْ نَقُولَ﴾: خبره، ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾: من كان التامة التي بمعنى: الحدوث والوجود، / ١٩٢ أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأن مراداً لا يمتنع عليه، وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممثل، ولا قول: ثم، والمعنى: أن إيجاد كل مقدور على الله - تعالى - بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات، وقرئ: «فيكون»: عطفاً على: (نقول).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: هم رسول الله ﷺ وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله، منهم: من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين، ومنهم: من هاجر إلى المدينة، وقيل: هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول الله ﷺ وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم، منهم: بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر - رضي الله عنه - قال له: ربح البيع يا صهيب، وقال له عمر: نعم، الرجل صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم: يريد لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه^(١)، فكيف: ﴿فِي اللَّهِ﴾: في حقه ولوجهه، ﴿حَسَنَةً﴾: صفة للمصدر، أي: لنبوانهم تبوئة حسنة، وفي قراءة علي - رضي الله عنه -: «لنثوينهم»، ومعناه: أثواة حسنة، وقيل: لتنزلهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة على

(١) قوله: «لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه فكيف» أي فكيف لا يطيعه. وقد خلقها لمن عصى (ع).

أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر - رضي الله عنه - أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء، قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكثر، وقيل: لنبؤأنهم مباءة حسنة، وهي: المدينة؛ حيث آواهم أهلها ونصروهم، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير: للكفار، أي: لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة، لرغبوا في دينهم، ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين، أي: لو كانوا يعلمون ذلك، لزدادوا في اجتهداهم وصبرهم، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على: هم الذين صبروا، أو: أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح، أي: صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم، وعلى المجاهدة، وبذل الأرواح في سبيل الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ** (٤٤) قالت قریش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فقيل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾: على السنة الملائكة، ﴿فَتَشَاءُ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: وهم أهل الكتاب، ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً.

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟

قلت: له متعلقات شتى، فإما أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجلاً، أي: وما أرسلنا إلا رجلاً بالبينات؛ كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط؛ لأن أصله: ضرب زيداً بالسوط وإما: برجلاً، صف له: أي: رجلاً ملتبساً بالبينات، وإما بأرسلنا مضمراً؛ كأنما قيل: بم أرسلوا؟ فقلت: «بالبينات»، فهو على كلامين، والأوّل على كلام واحد، وإما بيوحي، أي: يوحى إليهم بالبينات، وإما: بلا تعلمون، على أن الشرط في معنى التبييت والإلزام؛ كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي، وقوله: ﴿تَشَاءُ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: اعتراض على الوجوه المتقدمة، وأهل الذكر: أهل الكتاب، وقيل: للكتاب الذكر؛ لأنه موعظة وتنبيه للغافلين، ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾: وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ

﴿مَكْرُؤًا أَلَسَّيْتَنَ﴾ أي: المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله، ﷺ^(١)، ﴿فِي نَفْلَيْهِمَا﴾: متقلبين في مسائرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم، ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾: متخوفين، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقيل: هو من قولك: تخوفته وتخونته، إذا تنقصته؛ قال زهير [من البسيط]:

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عَوْدَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ^(٢)
أي: يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر - رضي الله عنه - أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا: التخوف: التنقص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا، وأنشد البيت، فقال عمر: أيها الناس، عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية؛ فإن فيه تفسير كتابكم، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرْؤُوفٌ رَّجِيءٌ﴾؛ حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيْتُوهُ ظُلُمًا فِي الظُّلُمِ وَالشَّمَالِ سُبْحًا لِلَّهِ وَهُوَ

دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾

قرئ: «أو لم يروا»، «ويتفَيَّؤا»: بالياء والتاء، و(ما): موصولة بخلق الله، وهو مبهم

- (١) قوله: «وما مكروا به رسول الله ﷺ» ضمن المكر معنى الخداع، فعدى إلى المفعول (ع).
(٢) لأبي كبير الهذلي. وقيل لزهير. والتخوف: التنقص شيئاً فشيئاً. والتامك: السنام المرتفع. والقرد: الذي أكله القرد من كثرة أسفارها. أو الذي تنقب وفسد من الرحل في السفر. والنبعة: واحدة النبع، وهو شجر تتخذ منه القسي. ويروى: ظهر النبعة. والسفن: المبرد الحديد الذي ينحت به الخشب، يقول: تنقص رحلها سنامها المرتفع الذي تنقب من كثرة السفر، كما تنقص المبرد عود النبعة. وفيه تشبيه بها في الصلابة. وروي أن عمر قال على المنبر: ما تقولون في قوله تعالى ﴿أَوْ يَأْخُذْكُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فسكتوا، فقال شيخ من هذيل: هذه لغتنا: التخوف: التنقص، وأنشد البيت، فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما دايواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم.

البيت لابن مقبل في ملحق ديوانه ص ٤٠٥، ولسان العرب (خوف)، وتهذيب اللغة ٥٩٤/٧، ٤/١٣، ولذي الرمة في ملحق ديوانه ص ١٩١٧، ولسان العرب (سفن)، ولذي الرمة أو لابن مقبل في تاج العروس (سفن)، ولزهير في أساس البلاغة (خوف)، وليس في ديوانه، ولعبد الله بن عجلان النهدي في تاج العروس (خوف)، ولقنن بن أم صاحب في سبط اللاك ص ٧٣٨، وبلا نسبة في المخصص ٢٧٧/١٣، وتاج العروس (خوف)، وأمالي القالي ١١٢/٢.

بيانه، ﴿مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُ زُلْزَلُهُ﴾، واليمين: بمعنى الإيمان، و﴿سُجَّدًا﴾: حال من الظلال، ﴿وَهُمْ دَخِرُونَ﴾: حال من الضمير في ظلاله؛ لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو؛ لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب، والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها/ ١٩٢ ب ظلال متفيسة عن أيمانها وشمائلها، أي: عن جانبي كل واحد منها، وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء، أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقاداً لله، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة - أيضاً - صاغرة منقاداً لأفعال الله فيها، لا تمتنع.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩)
يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿

﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾: يجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما في الأرض جميعاً، على أن في السموات خلقاً لله يدبون فيها كما يدب الأناسي في الأرض، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الخلق الذي يقال له: الروح، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الملائكة، وكرر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصاً من بين الساجدين؛ لأنهم أطوع الخلق وأعبدتهم، ويجوز أن يراد بما في السموات: ملائكتهم، وبقوله والملائكة: ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم.

فإن قلت: سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم^(١)، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟

قلت: المراد بسجود المكلفين: طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم: انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعها معنى الانقياد فلم يختلفا؛ فلذلك جاز

(١) قال محمود: «إن قلت سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد... إلخ؟ قال أحمد: وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته ومجازه شمولاً ولم يرد ذلك متناقضاً، فإن السجود يتناول هل المكلف حقيقة يتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه، وقد أريد جميعاً من الآية، والزمخشري ينكر ذلك في مواضع مررت عليها من كتابه، هذا وظاهر مراده ههنا أن السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف وحال غير المكلف، وهو عدم الامتناع عند القدرة، وغرضه من ذلك أن يكون اللفظ متواطئاً فيهما جميعاً، ليسلم من الجمع بين الحقيقة والمجاز، لأنه يأبى ذلك، ولا يتم له هذا المقصد في الآية - والله أعلم - لأن كونها آية سجدة يدل على أن المراد من السجود المذكور فيها منسوباً للمكلفين هو الفعل الخاص المتعارف شرعاً، الذي يكون ذكره سبباً لفعله سببية معتادة في عزائم السجود، لا القدر الأعم المشترك، والله أعلم.

أن يعبر عنهما بلفظ واحد.

فإن قلت: فهلا جيء بمن دون «ما»: تغليياً للعقلاء من الدواب على غيرهم؟
قلت: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب، فكان متناولاً للعقلاء خاصة،
فجاء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم، إرادة العموم، ﴿يَخَافُونَ﴾: يجوز أن يكون حالاً من
الضمير^(١) في (لا يستكبرون)، أي: لا يستكبرون خائفين، وأن يكون بياناً لنفي الاستكبار
وتأكيداً له؛ لأن من خاف الله لم يستكبر عن عبادته، ﴿مِنْ قَوْعِهِمْ﴾: إن علقته ببيخافون،
فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقته بربهم حالاً منه فمعناه:
يخافون ربهم عالياً لهم قاهراً؛ كقوله: ﴿وَهُوَ أَلْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿وَإِنَّا
قَوَّعْنَاهُ قَهْرُونَ﴾: وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي والوعد
والوعيد كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا إِلَهِينِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾

فإن قلت: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا عندي
رجال ثلاثة وأفراس أربعة؛ لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل
ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل
واحد ورجلان اثنان، فما وجه قوله إلهين اثنين^(٢)؟

قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية والعدد
المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما، والذي يساق إليه الحديث هو
العدد شفع بما يؤكده، فدل به على القصد إليه والعناية به؛ ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو
إله، ولم تؤكده بواحد: لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوجدانية، ﴿فَأَنزَلْنَا
فَازَهُبُونَ﴾: نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم؛ وجاز لأن الغالب هو المتكلم، وهو من
طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله
على لفظ المتكلم.

﴿وَلَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾

(١) قال محمود: «يجوز أن يكون حالاً من الضمير... إلخ» قال أحمد: هذا الثاني هو الوجه ليس
الأول، وأما الحال فيعطي انتقالاً، ويوهم تقيد عدم استكبارهم، مع أن الواقع أو عدم استكبارهم
مطلق غير مقيد بحال، والله الموفق.

(٢) قال محمود: «إن قلت ما فائدة قوله اثنين مع إغناء التثنية عن ذلك... إلخ» قال أحمد: وهذا
الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها، والله الموفق.

﴿الَّذِينَ﴾: الطاعة، ﴿وَأَمَّا﴾: حال عمل فيه الظرف، والواصب: الواجب الثابت؛ لأن كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه، ويجوز أن يكون من الوصب، أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة؛ ولذلك سمي تكليفاً، أو: وله الجزاء ثابتاً دائماً سرمداً لا يزول، يعني: الثواب والعقاب.

﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهُم فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) ﴿

﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ﴾: وأي شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة، فهو من الله، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾: فما تتضرعون إلا إليه، والجوار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة؛ قال الأعشى يصف راهباً [من المتقارب]:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيبِ لَكَ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارًا^(١)

وقرى: «تجرون»: بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم، وقرأ قتادة: كاشف الضر على: فاعل بمعنى فعل، وهو أقوى من كشف؛ لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾؟

قلت: يجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ عاماً، ويريد بالفريق: فريق الكفرة، وأن يكون الخطاب للمشركين، ومنكم للبيان، لا للتبعض؛ كأنه قال: فإذا فريق كافر، وهم أنتم، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمُ الْحُلُمَ فَإِنَّهُمْ يُكْفَرُونَ﴾ [لقمان: ٣٢]، ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهُم﴾: من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة، ﴿فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تخلية ووعيد، وقرئ: «فيمتعو»: بالياء مبنيًا للمفعول، عطفاً على: (ليكفروا)، ويجوز أن يكون: ليكفروا

(١) وما أبلي على هيكلي بناه وصلب فيه وصارا
يرواح من صلوات الملب لك طوراً سجوداً وطوراً جواراً
بأعظم منك تقى في الحساب إذا النسمات نفضن الغبارا

للأعشى. والآبلي: الراهب، نسبة إلى آبل وهو قيم البيعة. والهيكل: بيت الصنم. وصلب: أي صور الصليب. وألف صاراً للإطلاق. ويرواح: خبره، وإن لزم عليه التضمين مراعاة لجزالة المعنى، والمراوحة في العمل: الانتقال من حالة إلى أخرى. والصلوات: الدعوات. والسجود: الانخفاض والخشوع. والجوار: رفع الصوت بالدعاء. وبأعظم: خبر آبلي. وتقى: تمييز. يقول ليس الراهب العاكف على هيكله الذي صور فيه الصليب، وصار يتابع ويتنقل من بعض دعوات الله إلى بعض، فتارة يسجد سجوداً، وتارة يجار جواراً، تفاه أعظم من تفاه يوم الحساب إذا قام الناس من قبورهم، فنفضهم الغبار كناية عن ذلك.

فيمتصوا، من الأمر الوارد في معنى: الخذلان والتخلية؛ واللام: لام الأمر.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْزَنَ عَمَّا كُنتُمْ تَقْرَوْنَ﴾ (٥٦)

﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآلهتهم، ومعنى: لا يعلمونها: أنهم يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله، وليس كذلك؛ وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذا جاهلون بها، وقيل: الضمير في (لا يعلمون): للآلهة، أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم، ولا تشعر أجمعوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقريباً إليهم/ ١٩٣ أ، ﴿لَتَسْتَلْزَنَ﴾: وعيد، ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَقْرَوْنَ﴾: من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهُ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٩)

كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه، أو تعجب من قولهم: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين، ويجوز في: (ما يشتَهُون): الرفع على الابتداء، والنصب على أن يكون معطوفاً على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتَهُون من الذكور، و﴿ظَلَّ﴾ بمعنى: صار^(١)، كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى: الصيرورة، ويجوز أن يجيء ظل؛ لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتماً مريد الوجه^(٢) من الكآبة والحياء من الناس، ﴿هُوَ كَظِيمٌ﴾: مملوء حقاً على المرأة، ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾: يستخفي منهم، ﴿مِنَ﴾: أجل، ﴿سُوءِ﴾: المبشر به، ومن أجل تعبيرهم ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به، ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: على هوان وذل، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾: أم يثده^(٣)، وقرئ: «أيمسكها على هون أم يدسها»: على التأنيث، وقرئ: «على هوان» ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

(١) قال محمود: «ظل بمعنى صار» قال أحمد: وجاز أن يراد الظلول نهاراً لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار وأنهم لو عرجوا نهاراً في الوقت الذي لا يتغابى على البصر فيه شيء إلى السماء لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم، والله أعلم.

(٢) قوله: «ويجوز أن يجيء ظل... إلخ» قال أحمد: أي يرد ويستعمل في الآية بمعناه الأصلي، وهو اتصاف الشيء بصفة نهاراً فقط، لأن أكثر الوضع... إلخ. ومريد الوجه: متعبه من الغضب، كما يفيد الصراح (ع).

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٦)

﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾: صفة السوء: وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكرهة الإناث وأدمن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ، ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾: وهو الغني عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين وهو الجواد الكريم.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦٦)

﴿يُظْلِمُهُمْ﴾: بكفرهم ومعاصيهم، ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: على الأرض، ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾: قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، وعن أبي هريرة: أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضُرُّ إلا نفسه، فقال: بلى والله، حتى أنَّ الحباري لتموت في وكرها بظلم الظالم (٨٢٧)، وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في حجره بذنب ابن آدم (٨٢٨)، أو من دابة ظالمة، وعن ابن عباس، (من دابة): من مشرك يدب عليها، وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

٨٢٧ - أخرجه الطبري (٦٠١/٧) رقم (٢١٦٦٩)، البيهقي في الشعب (٥٤/٦) حديث رقم (٧٤٧٩).

قال الحافظ في تخريج الكشف:

أخرجه الطبري والبيهقي في الشعب التاسع والأربعين، وفي إسناده محمد بن جابر التمامي وهو متروك. انتهى.

٨٢٨ - أخرجه الطبري (٦٠١/٧) رقم (٢١٦٧١)، الحاكم (٤٢٨/٢).

قال الحافظ في تخريج الكشف:

أخرجه ابن أبي شيبة والحاكم والطبراني من طريق أبي الأحوص قال: قرأ ابن مسعود: ولو يؤاخذ الله الناس - الآية قال: كاد الجعل يعذب في حجره بذنب ابن آدم. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «قوله معطوفان على محل «لَتَنِينَ» ليس بصحيح، لأن محله ليس نصباً، فيعطف منصوباً ألا ترى أنه لو نصبه لم يجز لاختلاف الفاعل». قُلْتُ: الزمخشري لم يجعل النصب لأجل العطف على المحل، إنما جعله بوصول الفعل إليهما. لاتحاد الفاعل كما صرَّح به فيما حكى عنه أئفناً، وإنما جعل العطف لأجل التشريك في العليلة لا غير، يعني أنهما علتان، كما أن «لَتَنِينَ» عِلَّةٌ. ولئن سلمنا أنه نصب عطفاً على المحل، فلا يضر ذلك. قوله: «لأنَّ محله ليس نصباً» ممنوع، وهذا ما لا خلاف فيه، من أن محل الجار والمجرور النصب، لأنه فضلة إلا أنَّ يقوم مقام مرفوع، ألا ترى إلى تخريجهم قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ في قراءة النصب على العطف على محل «بَرْؤُوسِكُمْ» ويجيزون «مررت بزيد وعمراً»، على خلاف في ذلك بالنسبة إلى القياس وعدمه، لا في أصل المسألة، وهذا بحث حسن تركه المردود عليه. انتهى. الدر المصون.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ^١ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ

النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلمهم^(١)، والتهاون برسالاتهم، ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾: مع ذلك، ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾: عند الله؛ كقوله: ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم، فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة، وإذا قال: هاتوا ما دفع إلي فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية، وعن مجاهد: أن لهم الحسنى، هو قول قريش: لنا البنون، وأن لهم الحسنى: بدل من الكذب، وقرئ: (الكذب): جمع كذوب، صفة للألسنة، ﴿مُفْرَطُونَ﴾ قرئ: مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدداً، فالمفتوح بمعنى: مقدّمون إلى النار معجلون إليها، من أفرطت فلاناً، وفرطته في طلب الماء، إذا قدمته، وقيل: منسيون متروكون، من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته، والمكسور المخفف، من الإفراط في المعاصي، والمشدّد، من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

﴿ثُمَّ لَئِنْ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزْنَاهُمْ لِهُمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾: حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا، ومعنى (وليهم): قرينهم وبش القرين، أو يجعل: (فهو وليهم اليوم): حكاية للحال الآتية، وهي حال كونهم معذبين في النار، أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره، نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش، أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم، فهو ولي وهؤلاء؛ لأنهم منهم، ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

(١) قال محمود: «المراد بما يكرهونه البنات، وشركاء في رياستهم، واستخفاف برسلمهم... إلخ» قال أحمد: ونقيض هؤلاء من إذا أعجبه شيء من ماله جعله لله، بل إذا أحب أمة له اعتقها، وإذا اشتهى طعاماً قدم إليه تصدق به على حبه، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة، كابن عمر ونظرائه ومن تابعهم فيها، ويجعلون لله ما يشتهون. اللهم إن لم ننل رتبة أوليائك فأنلنا محبتهم، فمن أحب قوماً حشر معهم.

﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على محل، (التبيين): إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما؛ لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب، ودخل اللام على لتبين، لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل؛ وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلن، والذي اختلفوا فيه: البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به، ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: سماع إنصاف وتدبر؛ لأن من لم يسمع بقلبه؛ فكأنه أصم لا يسمع.

﴿وَإِنَّ لَكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحُوا بِهَا فِي بُطُونِهِمْ مَنْ يَنْ قَرَّثَ وَدَمَّرَ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا

لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦)

ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال؛ كقولهم: ثوب أكياش؛ ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً، وأما (في بطونها): في سورة المؤمنين؛ فلا أن معناه: الجمع، ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان، أحدهما: أن يكون تكثير نعم^(١) كأجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم، فإذا ذكر فكما يذكر «نعم» في قوله [من الرجز]:

فِي كُلِّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونُهُ يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتَنْتِجُونَهُ^(٢)

(١) قوله: «أن يكون تكثير نعم» لعله «تكسير» بالسین (ع).

(٢) في كل عام نعم تحوونه يلقحه قوم وتنتجونه

أربابه نوكي فلا يحمونه ولا يلاقون طعاناً دونه

أنعم الأبناء تحسبونونه؟ هيهات هيهات لما ترجونه

لصبي من بني أسد اسمه قيس بن الحصين الحارثي. والنعم: اسم جمع يعامل معاملة المفرد. وقد يراعى معناه فيعامل كالجمع. والأنعام عده سيبويه من المفردات المبنية على أفعال، كأخلاق وأمشاج، فيعامل بالتذكير تارة اعتباراً بلفظه، وبالتأنيث أخرى اعتباراً بمعناه. وقيل: هو جمع نعم كأسباب وسبب، والكلام تحسر وتحزن في صورة الأخبار، ويحتمل تقدير همزة الاستفهام التوبيخي أو التعجبي قبل في، أي: أفى كل عام تفعلون ذلك. وروي: أكل عام، بالاستفهام. وكل: نصب على الظرفية. وفيه الأخبار بالزمان عن اسم العين وهو نعم. إما لأنه يشبه المعنى لتجده كل عام كما قاله ابن مالك وغيره في مثله. أو على تقدير مضاف كما ذهب إليه جمهور البصريين، أي: نهب نعم. وجملة تحوونه: صفة نعم، ويجوز أنها خبره، وكل عام: ظرف لتحوونه، وقدم لأنه =

وإذا أنت ففيه وجهان: أنه تكسير نعم، وأنه في معنى الجمع^(١)، وقرئ: ﴿شَقِيكَ﴾:

= محط الاستفهام. وعليه فالمسوخ للابتداء بنعم وقوعه في حيز الاستفهام. أو تقديم معمول الخبر عليه لأنه كتقديم الخبر. يلحقه قوم أي يطلقون فحوله على إنائه فتحمل عندهم. وتتجونه أنتم: أي تستولدونه عندكم، كناية عن نهبه منهم. والأرباب الأصحاب. والنوكى: جمع أنوك كحمقى جمع أحقق وزنا ومعنى. والطعان: المطاعنة بالرماح، أي: لا يحاربون أمامه ويصبرون للحرب. وقوله أنعم: استفهام إنكاري توبيخي، أي: لا تحسبوا نعمنا نعم أولئك الحمقى الضعاف. وهيهات بمعنى بعد، وكرره للتوكيد وقطع الأطماع. وقوله: «لما ترجونه» متعلق بمحذوف، أي: أقول ذلك لما ترجونه، واللام فيه لتبيين الفاعل. ويجوز أنها زائدة فيه، والرجا: الطمع، ويجوز أنه الظن.

لقيس بن حصين في خزانة الأدب ٤٠٩/١، والكتاب ١٢٩/١، ولصبي من بني سعد قيل إنه قيس بن الحصين في المقاصد النحوية ٥٢٩/١، ولحصين بن زيد في شرح أبيات سيبويه ١١٩/١، ولرجل ضبي في الأغاني ٢٥٦/١٦، وبلا نسبة في لسان العرب (أبل)، (نعم)، والأشباه والنظائر ١٠٢/٣، والإنصاف ص ٦٢، وتخليص الشواهد ص ١٩١، والردي على النحاة ص ١٢٠، واللمع في العربية ص ١١٣، والمخصص.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: أما ما ذكره عن سيبويه ففي كتابه في: «هذا باب ما كان على مثال مَفَاعِل ومفاعيل»، ما نُصِّه: «وَأَمَّا أَجْمَلٌ وَفُلُوسٌ» فإنها تنصرف وما أشبهها؛ لأنها ضارعت الواحِدَ لَا تَرَى أَنَّكَ تقول: أَقْوَالٌ وَأَقَارِيل، وَأَعْرَابٌ وَأَعَارِب، وَأَيْدٍ وَأَيَادٍ. فهذه الأحرف تخرج إلى مثال مَفَاعِل ومَفَاعِيل، كما يُخْرَجُ إليه الواحد إذا كُثِّرَ للجمع، وأما مَفَاعِل ومفاعيل فلا يكسر، فلا يخرج الجمعُ إلى بناءٍ غير هذا؛ لأنَّ هذا البناء هو الغاية، فلما ضارعت الواحد صُرِفَتْ. ثم قال: «وكذلك الفُعُولُ لو كُسِّرَتْ، مثل الفُلُوسِ، لأنَّ تُجْمَعُ جميعاً لأخرجته إلى فَعَائِلٍ، كما تقول جدودٌ وجَدَانَدٌ، وَرَكُوبٌ وَرَكَائِبُ. ولو فعلت ذلك بِـمَفَاعِلٍ، وَمَفَاعِيلٍ لم تجاوز هذا البناء. ويقوي ذلك أن بعض العرب تقول أبِي للواحد، فيضُمُّ الألف، وَأَمَّا أَفْعَالٌ فقد يقع للواحد، من العرب من يقول: هو الأَنْعَامُ، قال الله عز وجل: ﴿شَقِيكَرٌ يَمَّا فِي بَطْنِهِ﴾ وقال أبو الخطاب: «سمعتُ من العَرَبِ مَنْ يقول: هَذَا ثَوْبٌ أَكْيَاشٌ». قال: «والذي ذكر سيبويه هو الفرق بين مَفَاعِلٍ وَمَفَاعِيلٍ، وبين أَفْعَالٍ وفُعُولٍ، وإن كان الجميع أبنية للجمع، من حيث إن مفاعِل ومفاعيل لا يجمعان، وأَفْعَالاً وفُعُولاً قد يخرجان إلى بناء يشبه مَفَاعِلٍ أو مَفَاعِيلٍ، فَلَمَّا كَانَا قد يخرجان إلى ذلك انصرفا، ولم ينصرف مَفَاعِلٌ وَمَفَاعِيلٌ لشبه ذَيْنِكَ بالمفرد من حيثُ إِنَّهُ يمكن جمعهما، وامتناع هذين مِنَ الجمعِ ثُمَّ قَوِيَ شَبَهُهُمَا بالمفرد بَأَنَّ بعض العرب يقول في أُتِيَّ» أتى بضم الهمزة، يعني أنه قد جاء نادراً «فُعُولٌ» من غير المصدر للمفرد، وبأن بَعْضَ العرب قد يوقع أَفْعَالاً للمفرد من حيث أفرد الضمير، فيقول: «هو الأَنْعَامُ»، وإنما ذلك على سبيل المجاز؛ لأن الأَنْعَامَ في معنى الثَّعْمِ، والثَّعْمُ مُفْرَدٌ كما قال [من الواقف]:

تَرَكْنَا الْحَيْلَ وَالثَّعْمَ الْمُفَقْدَى وَكُنَّا لِلنِّسَاءِ بِهَا أَقْيَمِي.

وذلك قال سيبويه: «وإنما أفعال فقد يقع للواحد». فقوله: «قد يقع للواحد» دليل على أنه ليس ذلك بالوضع، فقول الزمخشري: «أنه ذكره في الأسماء المفردة على أفعال» تحريف في اللفظ. وفهم عن سيبويه ما لم يرد، ويدل على ما قلناه أن سيبويه حين ذكر أبنية الأسماء المفردة نصَّ على أَنَّ أَفْعَالاً ليس من أبنتها. قال سيبويه في باب ما لحقته الزيادة من بنات الثلاثة: «وليس في الكلام» «أفْعِيلٌ»، ولا أَفْعُولٌ، ولا أَفْعَالٌ، ولا أَفْعِيلٌ، ولا أفعال. إلا أن تُكْسَرَ عليه اسماً للجمع». قال: «فهذا نصُّ منه على أَنَّ «أَفْعَالاً» لا يكون في الأسماء المفردة». قُلْتُ: الذي ذكره الزمخشري هو =

بالفتح والضم، وهو استئناف، كأنه قيل: كيف العبرة، فقليل نسقيكم، ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَرٍ﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا ينبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله، قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته، فكان أسفلها فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، وتبقى الفرث في الكرش - فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته/ ١٩٣ ب لمن تفكر وتأمل - وسئل شقيق عن الإخلاص؟ فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم، ﴿سَائِغًا﴾: سهل المرور في الحلق، ويقال: لم يغص أحد باللبن قط، وقرئ: «سيغاً»: بالتشديد. «وسيغاً»: بالتخفيف، كهين ولين.

فإن قلت: أي فرق بين «من» الأولى والثانية؟

قلت: الأولى للتبعض؛ لأن اللبن بعض ما في بطونها؛ كقولك: أخذت من مال زيد ثوباً، والثانية: لابتداء الغاية؛ لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ، فهو صلة لنسقيكم؛ كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالاً من قوله: (لبناً): مقدماً عليه، فيتعلق بمحذوف، أي: كائناً من بين فرث ودم؛ ألا ترى أنه لو تأخر فليل: لبناً من بين فرث ودم كان صفة له؛ وإنما قدم لأنه موضع العبرة، فهو قمن بالتقديم، وقد احتج بعض من يرى أن المني طاهر على من جعله نجساً، لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾؟

قلت: بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أي: من عصيرها؛ وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: ﴿نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾: بيان وكشف عن كنه الإسقاء، أو يتعلق بتخذون، ومنه من تكرير الظرف للتوكيد؛ كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون: (تتخذون): صفة موصوف محذوف؛ كقوله [من الرجز]:

= ظاهر عبارة سيبويه، وهو كاف في تسويغ عود الضمير مفرداً، وإن كان «أفعال» قد يقع موقع الواحد مجازاً، فإن ذلك ليس بضائر فيما نحن بصده، ولم يحرف لفظه، ولم يفهم عنه غير مراده، لما ذكرته من هذا المعنى الذي قصده، وقيل: إنما دُكر الضمير، لأنه يعود على البعض، وهو الإناث. لأن الذكور لا ألبان لها، فكان العبرة هي في بعض الأنعام. انتهى. الدر المصون.

بِكَفِّي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرِ^(١)

تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا؛ لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر.

فإن قلت: فإلام يرجع الضمير في منه إذا جعلته ظرفًا مكرراً؟

قلت: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سَكِرَ سُكْرًا أو سَكْرًا؛ نحو: رَشِدَ رُشْدًا وَرَشْدًا؛ قال [من الوافر]:

وَجَاءُوا بِهُمْ سَكْرًا عَلَيْنَا فَأَجَلَى الْيَوْمَ وَالسُّكْرَانُ صَاحِبِي^(٢)

وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون منسوخة، وممن قال بنسخها: الشعبي والنخعي، والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة، وقيل: السكر: النبيذ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه، ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر ويحتج بهذه الآية ويقوله ﷺ: «الْخَمْرُ حَرَامٌ لِعَيْنَيْهَا وَالسُّكْرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ» (٨٢٩)، وبأخبار جمعة، ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي - قدس الله روحه - غير كتاب في

٨٢٩ - أخرجه العقيلي في الضعفاء (١٢٤/٤) عن علي مرفوعاً، وأخرجه الثنائي (٣٢١/٨) رقم (٥٦٨٣)، =

(١) مالك عندي غير سوط وحجر وغير كبداء شديدة الوتر

جادت بكفي كان من أرمى البشر

السوط: آلة للضرب، معمولة من الجلد. وكبداء صفة لمحذوف، أي قوس كبداء غليظة الكبد، أي المقبض. وقيل: واسعته. والوتر: جبل تشد به القوس. وجادت: صارت جيدة. ويروى بدله: ترمى. وشبه الرمي لها مجاز عقلي. وكفي مضاف لمحذوف قامت صفته في اللفظ مقامه، وهي جملة «كان» وحذف المنعوت الأول مطرد، والثاني ضرورة؛ لأنه لا يجوز حذف المنعوت إلا إذا كان بعض اسم مجرور بمن أو «في»، أو صلح نعته لمباشرة العامل. و«كان» هنا ليس للمضي، بل لمجرد الثبوت والدوام، أي: بكفي رجل متصف بأنه دائماً من أشد الناس رمياً، يعني نفسه. ففيه تجريد. يقول لعدوه: ليس لك عندي غير هذه الأشياء، وهو ضرب من التهديد والتفريع: هدده بالسوط عند القرب، وبالحجر عند المفارقة، وبالسهم عند البعد: ويروى «سهم» بدل سوط، فيضج الترتيب.

ينظر: الخصائص (٣٦٧/٢)، وابن يعيش (٥٩/٣)، والإنصاف (١١٥/١١)، والمغني (١٦٠/١)، والتصريح (١١٩/٢)، خزانة الأدب (٦٥/٥)، الدرر (٢٢/٦)، شرح الأشموني ٤٠١/٢، شرح المفصل (٦٢/٣)، لسان العرب (كون)، (منن)، مجالس ثعلب (٥١٣/٣)، المحتسب ٢٢٧/٢، المقاصد النحوية (٦٦/٤)، المقتضب (٣٩/٢)، المقرب (٢٢٧/١)، همع الهوامع (١٢٠/٢)، تاج العروس (كون، منن) الدر المصون (٢٠٦/٣).

(١) تقدم.

تحليل النبيذ، فلما شيخ^(١) وأخذت منه السنّ العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به، فأبى. فقيل له: فقد صنفت في تحليله، فقال: تناولته الدعارة^(٢) فسمح في المروءة، وقيل: السكر: الطعم^(٣)؛ وأنشد [امن الرجز]:

جَعَلْتُ أَغْرَاضَ الْكِرَامِ سَكْرًا

أي: تنقلت بأعراضهم^(٤)، وقيل: هو من الخمر، وإنه إذا ابتكر^(٥) في أعراض الناس، فكأنه تخمر بها، والرزق الحسن: الخل، والرب، والتمر، والزبيب، وغير ذلك، ويجوز أن يجعل السكر رزقاً حسناً، كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنيقتها^(٦) في صنعتها، ولطفها في تدبير أمرها، وإصابتها فيما يصلحها، دلائل بينة شاهدة على أن الله أودعها علماً بذلك وفطنها، كما أولى أولي العقول عقولهم، وقرأ يحيى بن وثاب: (إلى النحل): بفتحيتين، وهو مذكر كالنخل، وتأنيثه على المعنى: ﴿إِنِ اتَّخِذِي﴾ هي: أن المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول، وقرئ: ﴿بُيُوتًا﴾: بكسر الباء لأجل الياء، و﴿يَعْرِشُونَ﴾: بكسر الراء وضمها، يرفعون من سقوف البيوت، وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي

= (٥٦٨٤) من حديث ابن عباس مرفوعاً.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثَّسَنَانِي من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعاً، ورواه العَقِيلِي من وجه آخر عن علي مرفوعاً وفيه محمد بن الفرات الكوفي وهو منكر الحديث. انتهى.

- (١) قوله: «فلما شيخ وأخذت منه السنّ العالية» في الصحاح: شاخ الرجل يشيخاً بالتحريك، وشيخ تشيخاً: أي شاخ (ع).
(٢) قوله: «فقال تناولته الدعارة» في الصحاح: الدعارة الفسق والخيث (ع).
(٣) قوله: «وقيل السكر الطعم» في الصحاح: الطعم بالضم: الطعام (ع).
(٤) قوله: «أي تنقلت بأعراضهم» في الصحاح: النقل بالضم ما ينتقل به على الشراب (ع).
(٥) قوله: «وإنه إذا ابتكر» في الصحاح: ابتكر، أي أسرع في العدو وجد (ع).
(٦) قوله: «ولا فنيقتها» أي تأنقها. أفاده الصحاح (ع).

تتعسل فيها، والضمير في (يعرشون): للناس.

فإن قلت: ما معنى «من» في قوله: ﴿أَنْ أَتَّخِذَ مِنْ لِبَالِ يَبُوتَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟

قلت: أريد معنى البعضية، وألاً تبنى بيوتها^(١) في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها، ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل^(٢)، وتعتاد أكلها، أي: أنبي البيوت، ثم كلي من كل ثمرة تشتهينها، فإذا أكلتها: ﴿فَاسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ﴾ أي: الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو: فاسلكي ما أكلت في سبل ربك، أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المرّ عسلاً من أجوافك ومنافذ مأكلك، أو: إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك، فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجذب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة، أو أراد بقوله: (ثم كلي) ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك، ﴿ذُلُّوا﴾: جمع ذلول، وهي: حال من السبل؛ لأن الله ذللها لها ووطأها وسهلها؛ كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ [الملك: ١٥]، أو من الضمير في (فاسلكي) أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة، / ١٩٤ ﴿شَرَابًا﴾: يريد العسل؛ لأنه مما يشرب: ﴿تُخَلِّفُ لَوْلُوكُمْ﴾: منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر، ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره: إما لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو: لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، وعن النبي ﷺ أن رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكى بطنه، فقال: «أَذْهَبْ وَأَسْقِهِ الْعَسْلَ» فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: «أَذْهَبْ وَأَسْقِهِ عَسَلًا» فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله فبرأ؛ كأنما أنشط من عقال،

(١) قال محمود: «قلت أريد معنى البعضية وأن لا تبنى بيوتها... إلخ» قال أحمد: ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الزمخشري في تبعض «من» المتعلقة باتخاذ البيوت بإطلاق الأكل، كأنه تعالى وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجر عليها فيه وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض؛ لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه. وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع. ولهذا المعنى دخلت ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت والإطلاق لها في تناول الثمرات، كما تقول: راع الحلال فيما تأكله، ثم كل أي شيء شئت، فتوسط ثم لتفاوت الحجر والإطلاق، فسبحان اللطيف الخبير.

(٢) قوله: «بالثمرات التي تجرسها النحل» في الصحاح «الجرس» الصوت الخفي، وجرست النحل العرفط إذا أكلته. وفيه أيضاً «العرفط» شجر من العضاء. وفيه «العضاء» كل شجر يعظم وله شوك (ع).

(٨٣٠) وعن عبد الله بن مسعود: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآن والعسل، (٨٣١) ومن بدع تأويلات الرافضة: أن المراد بالنحل: عليّ وقومه، وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل: بنو هاشم، يخرج من

٨٣٠ - أخرجه البخاري (١٤٦/١٠) كتاب الطب، باب الدواء بالعسل حديث رقم (٥٦٨٤)، ومسلم (٧/٤٦٠) نووي كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل حديث رقم (٢٢١٧)، والبغوي في شرح السنة (٢٤٩/٦)، كتاب الطب والرقي باب مداواة بالعسل، والحاكم (٤٠٢/٤). وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث أبي سعيد وغفل الحاكم فاستدركه.

٨٣١ - رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢٦/٦) (٣٠٠١٩ - ٣٠٠٢٠) من طريقين: الأولى: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن خيشمة عن الأسود قال: قال عبد الله: «عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل».

الثانية: حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال «العسل...» قلت: وقع في المطبوع من «المصنف» عن أبي إسحاق عن أبي الأسود، وليس كذلك إنما هو أبو الأحوص؛ كما يأتي تحقيقه.

وأخرجه ابن ماجه في سننه (١١٤٢/٢) - كتاب الطب (٣١) - باب العسل (٧) (٣٤٥٢)، وابن عدي في الكامل في ترجمة زيد بن الحباب (٣/١٠٦٥)، (٣/١٢٥٣)، والحاكم في المستدرک (٢٠٠/٤) - كتاب الطب.

وأبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري (٧/١٣٣). والخطيب في تاريخ بغداد (١١/٣٨٥). كلهم من طريق زيد بن الحباب، ثنا سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين...» فذكره مرفوعاً. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث الثوري تفرد به عنه زيد بن الحباب. وزيد بن الحباب هذا قال فيه الحافظ في التقریب (١/٢٧٣): صدوق يخطئ في حديث الثوري. قلت: وأخرجه موقوفاً أيضاً الحاكم في مستدرکه (٤/٢٠٠) من طريق وكيع عن سفيان به، والطبراني في «معجمه الكبير» (٩/٢٥٢) (٩٠٧٦) من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق به، والدارقطني في العلل (٥/٣٢٣) من طريق يحيى عن سفيان عن أبي إسحاق به.

وقال: ووقفه يحيى القطان وأبو حذيفة عن الثوري وهو الصحيح.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أره هكذا. وفي الكامل لابن عدي من رواية لابن إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله رفعه: «عليكم بالشفاءين: العسل شفاء من كل داء. والقرآن شفاء لما في الصدور»، وقال: لم يرفعه عن وكيع عن الثوري إلا سفيان بن وكيع. قال: ورواه زيد بن الحباب عن الثوري أيضاً مرفوعاً اهـ. وأخرجه ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من رواية زيد بن الحباب بهذا الإسناد مرفوعاً بلفظ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»، وابن أبي شيبة عن وكيع مرفوعاً ولفظه: «العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور»، ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم والثعلبي أيضاً. قال ابن أبي شيبة: وحدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حية عن الأسود عن عبد الله قال: «عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل». انتهى.

بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدي وحدث به المنصور، فاتخذوه أضحوة من أضحكهم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْكُمْ وَيُنَكِّرُ مَن يَرُدُّ إِلَيْكَ أَزْدَلِ الْعُمَرِ لِيَكُنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

قَدِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾

﴿إِلَّا أَزْدَلِ الْعُمَرِ﴾: إلى أخسه وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة عن عليّ - رضي الله عنه - وتسعون سنة عن قتادة؛ لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم، ﴿لِيَكُنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾: ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه، وقيل: لثلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً، وقيل: لثلا يعلم زيادة علم على علمه.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَازِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٦﴾﴾

أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق ممالككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساواوا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ، فَأَكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تُطْعَمُونَ» (٨٣٢) فما روي عبده عبد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت، ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: فجعل ذلك من جملة جحود النعمة، وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء، فقال لهم: أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم،

٨٣٢ - أخرجه البخاري في صحيحه (٨٣/١٢) - كتاب الأدب (٧٨) باب ما ينهى عن السباب واللعن (٤٤) - حديث رقم (٦٠٥٠). ومسلم (١٤٦/٦) - نووي) كتاب الإيمان (٢٧) - باب إطعام المملوك مما يأكل وللإبسة (١٠) حديث رقم (٣٨) (١٦٦١).

وأبو داود (٣٤٠/٤) - كتاب الأدب - باب في حق المملوك - (٥١٥٧)، والثرمذي (٣٣٤/٤) - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الإحسان إلى الخدم - (١٩٤٥)، وابن ماجه (١٢١٦/٢) - كتاب الأدب (٣٣) - باب الإحسان إلى الممالك (١٠) (٣٦٩٠)، وأحمد في المسند (١٥٨/٥) - (١٦٦١)؛

كلهم من حديث المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه صلة وعلى غلامه مثلها... الحديث. وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه وأخرجه أصحاب السنن. انتهى.

وعن الزيادة المشار إليها عقب الحديث قال: لم أره.

فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء، وقيل: المعنى: أن الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على ممالكهم من عندهم شيئاً من الرزق؛ فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم، وقرئ: «يجحدون»: بالتاء والياء.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٧)

﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾: من جنسكم، وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم، والحفدة: جمع حافد، وهو الذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة والخدمة، ومنه قول القانت: وإليك نسعى ونحفد؛ وقال [من الكامل]:

حَفَدَ الْوَلَانِدُ بَيْنَهُنَّ وَأَسْلِمَتْ بِأَكْفُفِهِنَّ أَزْمَةً الْأَجْمَالِ^(١)

واختلف فيهم فقيل: هم الأختان على البنات^(٢)؛ وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأول، وقيل المعنى: وجعل لكم حفدة، أي: خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم، ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم؛ كقوله: ﴿سَكَّرَ وَرَزَقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، كأنه قيل: وجعل لكم منهن أولاداً هم بنون وهم حافدون، أي: جامعون بين الأمرين، ﴿بَيْنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: يريد بعضها؛ لأن كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها، ﴿أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو: ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمانة، فليس لهم إيمان إلا به، كأنه شيء معلوم مستيقن، ونعمة الله المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييز: هم كافرون بها منكرون لها، كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول، وقيل: الباطل ما يسؤل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحل لهم.

(١) يقول: حفد من باب ضرب، أي أسرع الولائد: جمع وليد وهي البنت الصغيرة، بينهن: أي بين النساء الطاعنات. وأسلمت: مبني للمجهول، أي تركت في أكف الطعائن والولائد. أزمة الأجمال: جمع زمام، وذلك دليل على حفظهن وصونهن، حتى لا يتخلل ركبهن إلا الولائد.

البيت للفرزدق، ينظر زيادات الطبعة الأولى من جمهرة اللغة ص (٥٠٤)، لجميل بثينة في ملحق ديوانه ص (٢٤٦)، بلا نسبة في لسان العرب (حفد)، جمهرة اللغة ص (٥٠٤)، كتاب العين (١٨٥/٣).

(٢) قوله: «فقيل هم الأختان على البنات» في الصحاح: الحفدة الأعوان والخدم. وفيه أيضاً: الختن بالتحريك كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ، وهم الأختان، كذا عند العرب وأما عند العامة فختن الرجل زوج ابنته اهـ فلعلة أيضاً ضمن الأختان معنى الأعوان أو الخلفاء فعدها بعلی. وفي الخازن عن ابن مسعود: الحفدة أختان الرجل على بناته (ع).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٢)

الرزق يكون بمعنى: المصدر، وبمعنى: ما يرزق، فإن أردت المصدر نصبت به ﴿شَيْئًا﴾؛ كأي: ﴿أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْفَرَةٍ﴾ [البلد: ١٤، ١٥] على: لا يملك أن يرزق شيئاً، وإن أردت المرزوق كان شيئاً بدلاً منه، بمعنى: قليلاً، ويجوز أن يكون تأكيداً للاملك: أي لا يملك شيئاً من الملك، و﴿يَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: صل للرزق إن كان مصدراً بمعنى: لا يرزق من السموات مطراً، ولا من الأرض نباتاً، أو صفة إن كان اسماً لما يرزق، والضمير في ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: لما؛ لأنه في معنى: الآلهة، بعد ما قيل: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾: على اللفظ، ويجوز أن يكون للكفار، يعني: ولا يستطيع هؤلاء - مع أنهم أحياء متصرفون أوولو ألباب - من ذلك شيئاً، فكيف بالجماد الذي لا حس به؟

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بعد قوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾؟ وهل هما إلا شيء واحد؟

قلت: ليس في (لا يستطيعون): تقدير راجع؛ وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، منفية عنهم أصلاً؛ لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد أو يراد: أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٦)

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾: تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به^(١)؛ لأن من يضرب الأمثال مشبه حالاً بحال، وقصة بقصة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾: كنه ما تفعلون وعظمه، / ١٩٤ ب وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم؛ لأن العقاب على مقدار الإثم، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: كنهه وكنه عقابه؛ فذاك هو الذي جرّكم إليه وجرّاكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك، ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون.

(١) قال محمود: «تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به... إلخ» قال أحمد: فعلى تفسيره الأول يكون حموله (الله) متعلقاً بالأمثال، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله ولا تشبهوه. وعلى الثاني يكون متعلقاً بالفعل الذي هو تضربوا، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله الأمثال، فإن ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم، ليبين له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالم وأنتم لا تعلمون، فتمثيل غير العالم للعالم عكس للحقيقة، والله أعلم.

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان: مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حرّ مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قلت: لم قال: ﴿مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾^(١)، وكل عبد مملوك، وغير قادر على التصرف؟

قلت: أما ذكر المملوك: فليميز من الحرّ؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً؛ لأنهما من عباد الله، وأما ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾: فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له؛ لأنهما يقدران على التصرف، واختلفوا في العبد، هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصح له.

(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت لم قال مملوكاً لا يقدر على شيء... إلخ» قال أحمد: والقول بصحة ملكه هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه. وفي هذه الآية له معتمد، لأن الله تعالى مثل بالمملوك لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالباً، ثم أفصح عن المعنى المقصود: وهو أن هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده فملك وقدر، بل هو على الأصل المعهود في الممالك عاجز غير قادر، ولو لم يكن ملك العبد متصوراً ومعهوداً شرعاً وعرفاً، لكان قوله تعالى ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ كالتكرار لما فهم من قوله ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ وقول القائل يقول إنه احتراز من المكاتب، بعيد من فصاحة القرآن: فإنه لو كان العبد لا يصح منه ملك البتة إلا في حال الكتابة، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ، كالإلغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن واستيلائه على صنوف البلاغة. ومثل هذا أنكره الإمام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتب لبعدها قصد إليها على شذوذها. وأما الاحتراز به عن المأذون له فينبني على القول بأن المراد بعدم القدرة عدم المكنة من التصرف، وإن لم يكن المأذون له مالكاً عند هذا القائل. وهذا بعيد عن مطابقة قوله ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ فإنها توجب أن يكون المراد بقوله ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لا يملك شيئاً من الرزق، كما تقول في الحر المفلس: فلان لا يقدر على شيء، أي لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه. فتلخص من هذا البحث أن في الآية مجازاً لنصرة مذهب مالك، وإن كان لقائل أن يقول: هذه الصفة لازمة كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك، كأنه قيل: وإنما ضربنا المثل بالمملوك؛ لأن صفته اللازمة له وسمته المعروفة به، أنه لا يقدر على شيء. أي لا يصح منه ملك، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة لا يقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص، ولكن إيضاح وتفسير. ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى﴾ لا برهان له به؛ فقوله لا برهان له به. لا يقصد به تمييز له سوى (الله) من (إله) لأن كل مدعو إلهاً غير الله تعالى، لا برهان به. وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى، فهذا أقصى ما يمكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد. ولنا أن نقول في دفعه أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقييد. وأما الوارد من ذلك لازماً فنادر على خلاف الأصل، والله الموفق.

فإن قلت: (من) في قوله: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ ما هي؟

قلت: الظاهر أنها موصوفة، كأنه قيل: وحرراً رزقناه؛ ليطابق عبداً، ولا يمتنع أن تكون موصولة.

فإن قلت: لم قيل: ﴿يَسْتَوِي﴾ على الجمع؟

قلت: معناه: هل يستوي الأحرار والعبيد؟

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

الأبكم: الذي ولد أخرس، فلا يفهم ولا يفهم، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي: ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾: حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لم ينفع ولم يأت بنجح، ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ﴾: هو سليم الحواس نفاعاً ذو كفايات، مع رشد وديانة، فهو: ﴿يَأْتِي أَمْرٌ﴾: الناس ﴿بِالْعَدْلِ﴾، والخير، ﴿وَهُوَ﴾: في نفسه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع، وقرئ: «أينما يوجه»: بمعنى: أينما يتوجه، من قولهم: أينما أوجه ألقى سعداً، وقرأ ابن مسعود: «أينما يوجه»: على البناء للمفعول.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه، أو أراد بغيب السموات والأرض: يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم، ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: هو عند الله وإن تراخى، كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر أو هو أقرب، إذا بالغمتم في استقرايه؛ ونحوه قوله: ﴿يَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٤٧]، أي: هو عنده دان وهو عندكم بعيد، وقيل: المعنى: أن إقامة الساعة، وإماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه^(١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق؛ لأنه بعض المقدورات، ثم دل على قدرته بما بعده.

(١) قوله: «وأوحاه» أي: وأسرع. أفاده الصحاح (ع).

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

قرئ: ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾: بضم الهمزة وكسرهما، والهاء مزيدة في أمات، كما زيدت في أراق، فقيل: أهراق، وشذت زيادتها في الواحدة؛ قال [من الرجز]:
أُمَّهَاتِي خِنْدِفٌ وَأَلْيَاسُ أَبِي^(١)

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾: في موضع الحال، ومعناه: غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون، وسواكم وصوركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم، والأفئدة في فؤاد، كالأغربة في غراب، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير، فجرت ذلك المجرى.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩)

قرئ: «لم يروا»: بالتاء والياء، (مسخرات): مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية^(٢) لذلك، والجو: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو

(١) إني لدى الحرب رخي اللبب معتزم الصولة عالي النسب
أمهاتي خندف وإلياس أبي

لقصي بن كلاب بن مرة جد النبي ﷺ. ورخي اللبب. رحب الصدر واسع البال. واللبب في الأصل جبل في صدر المطية يمنع الرحلة من الاستنخار، أطلق على ذلك للمجاورة. ومعتزم: مصمم. والصولة: تجشم المكروه واقتحامه. وزيادة الهاء في أمهة شاذ. وخندف، بكسر الخاء والداد: امرأة إلياس بن مضر، وهذا لقبها، واسمها ليلي. والخندفة: مشية كالهرولة. وإطلاق الأم والأب على الجدة والجد: مجاز لمطلق الأصالة.

ينظر: خزانة الأدب ٣٧٩/٧، والدرر: ٨٣/١، وسمط اللآلي ص ٩٥، وشرح شواهد الشافية ص ٣٠١، ولسان العرب: (سلك)، (أمه)، والمقاصد النحوية: ٥٦٥/٤، وديوان الأدب: ١٧٥/٤، ٤١٩/٣، وتاج العروس (هول)، (أمم)، وأمالى القالي: ٣٠١/٢، وسر صناعة الإعراب: ٢/٥٦٤، وشرح التصريح: ٣٦٢/٢، وشرح المفصل لابن يعيش: ٤/١٠، والمحتسب: ٢٢٤/٢، والممتنع في التصريف: ٢١٧/١، وجمع الهوامع: ٢٣/١، وتهذيب اللغة: ٤٧٥/٦، ٦٣١/١٥، وجمهرة اللغة ص ١٠٨٤، ١٣٠٨، والمخصص: ١٧١/١٣.

(٢) قوله: «والأسباب المواتية لذلك» في الصحاح آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقته والعامة تقول: وآتيته (ع).

والسكاك^(١) أبعد منه، واللوح مثله: ﴿مَا يُنْسِكُنُّ﴾: في قبضهن وبسطهن ووقوفهن، ﴿إِلَّا﴾: بقدرته.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ (٨٠)

﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾: التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها، والسكن: فعل بمعنى: مفعول، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو ألف، ﴿بُيُوتًا﴾: هي القباب والأبنية من الأدم والأنطاع، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي: يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها^(٢)، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها، أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً، على أن اليوم بمعنى: الوقت، ﴿وَمِئَةً﴾: شيئاً ينتفع به، ﴿إِلَى حِينٍ﴾: إلى أن تقضوا منه أوطاركم، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا، وقرئ: «يوم ظعنكم»: بالسكون.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨١)

﴿مِمَّا خَلَقَ﴾: من الشجرة وسائر المستظلات، ﴿أَكْنَانًا﴾: جمع كن، وهو ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال والغيان والكهوف، ﴿سَرَابِيلَ﴾: هي القمصان والثياب من الصوف والكتان^(٣) والقطن وغيرها، ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾: لم يذكر البرد؛ لأن الوقاية من الحر أهم عندهم، وقلما يهتمم البرد؛ لكونه يسيراً محتملاً، وقيل: ما بقي من الحر يقي من البرد^(٤)، فدل ذكر الحر على البرد، ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ﴾ يريد:

(١) قوله: «والسكاك أبعد منه» في الصحاح السكاك والسكاكة الهواء الذي يلاقي أعنان السماء وفيه أيضاً أعنان السماء صفائحها وما اعترض من أقطارها. والعنان بالفتح السحاب (ع).

(٢) قال محمود: «المراد يخف عليكم حملها ونقلها... إلخ» قال أحمد: والتفسير الأول أولى؛ لأن ظهور المنة في خفتها إنما يتحقق في حال السفر. وأما المستوطن غير مثقل، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم: أن المراد خفة ضربها وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم.

(٣) قال محمود: «هي القمصان والثياب من الصوف والكتان وغيرها... إلخ» قال أحمد: يعني عند العرب وخصوصاً قطان الحجاز، وهم الأصل في هذا الخطاب.

(٤) عاد كلامه. قال: «وقيل إن ما يقي الحر يقي البرد فدل ذكره عليه» قال أحمد: والأول أظهر. ألا =

الدروع والجواشن^(١) والسربال عام يقع على كل ما كان من حديد وغيره، ﴿لَمَلَكُمُ تُسْلِمُونَ﴾ أي: تنظرون في نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له، وقرئ: «تسلمون»: من السلامة، أي: تشركون فتسلمون من العذاب، أو تسلم قلوبكم / ١٩٥ من الشرك، وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٧) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: فلم يقبلوا منك فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ، فذكر سبب العذر، وهو البلاغ؛ ليدل على المسبب، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: التي عددناها؛ حيث يعترفون بها وأنها من الله، ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾: بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم: هي من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا. وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله؛ وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً في نيلها، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين، وقيل: (نعمة الله): نبوة محمد عليه السلام - كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم.

فإن قلت: ما معنى: ثم؟

قلت: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٨) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿شَهِيدًا﴾: نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق، والكفر والتكذيب، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر، وكذا عن الحسن، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: ولا هم يسترضون، أي: لا يقال لهم أرضوا ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل.

= ترى إلى تقديم المنة بالظلال التي تقي من الضحا، في قوله تعالى ﴿جَعَلْ لَكُمْ يَمًا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ فدل على أن الأهم عند المخاطبين وقاية الحر، فامتن الله عليهم بأعظم نعمه موقعاً عندهم. وقول القائل «إن ما بقي الحريق البرد» مشهود عليه بالعرف، فإن الذي يتقى به الحر من القمصان رقيقها ورفيعها، وليس ذلك من لبوس البرد، بل لو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين - القيظ والبرد - لباس الآخر، يعد من الثقل.

(١) قوله: «والجواشن» في الصحاح: الجوشن الصدر. والجوشن الدرع (ع).

فإن قلت: فما معنى ثم هذه؟

قلت: معناها: أنهم يمنون^(١) بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة، وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره: واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم، ﴿فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾؛ كقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠].

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦) ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّمَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ (٨٧)

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم، فمعنى: ﴿شُرَكَاءُنَا﴾: آلهتنا التي دعوناها شركاء، وإن أرادوا الشياطين، فلائهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغي، و﴿نَدْعُوا﴾ بمعنى: نعبد. فإن قلت: لم قالوا: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وكانوا يعبدونهم على الصحة؟

قلت: لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكان عبادتهم لم تكن عبادة، والدليل عليه قول الملائكة: ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعنون: أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، فهم المعبودون دوننا، أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة؛ تنزيهاً لله من الشريك، وإن أريد بالشركاء: الشياطين، جاز أن يكون «كاذبين» في قولهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، كما يقول الشيطان: إني كفرت بما أشركتموني من قبل، ﴿وَأَلْقَوْا﴾ يعني: الذين ظلموا، وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾، وبطل عنهم: ﴿مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾: من أن الله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨)

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم، وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها^(٢) أربعين خريفاً، وقيل: يخرجون من النار إلى

(١) قوله: «يمنون» في الصحاح: منوته ومنيته إذا ابتليته (ع).

(٢) قوله: «حمتها» حمة العقرب بالتخفيف، والهاء عوض عن اللام وهي سمها. وأما حمة الحر، =

الزهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار، ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾: بكونهم مفسدين الناس بصدّهم عن سبيل الله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

﴿شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾: يا محمد، ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾: على أمتك، ﴿تِبْيَانًا﴾: بياناً بليغاً ونظير «تبيان»؛ «تلقاء» في كسر أوله، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن.

فإن قلت: كيف كان القرآن تبياناً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾؟

قلت: المعنى: أنه بين كل شيء من أمور الدين؛ حيث كان نصّاً على بعضها وإحالة على السنة؛ حيث أمر فيه باتباع رسول الله ﷺ وطاعته، وقيل: وما ينطق عن الهوى، وحثاً على الإجماع في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد رضي رسول الله ﷺ لأمره اتباع أصحابه، والافتداء بآثارهم في قوله ﷺ: «أَصْحَابِي كَالنَّجُومِ بَأْيُهُمْ أَفْقَدُنْتُمْ أَهْتَدَيْتُمْ» (٨٣٣)، وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤوا طرق القياس والاجتهاد، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد، مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثم كان تبياناً لكل شيء.

٨٣٣ - أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٩٢٥/٢) وابن حزم في «الإحكام» (٨٢/٦) وابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (١٤٦/١) من طريق سلام بن سليمان ثنا الحارث بن غصين عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر به.

قال ابن عبد البر: هذا إسناد لا تقوم به حجة؛ لأن الحارث بن غصين مجهول.

وقال ابن حزم: هذه رواية ساقطة، أبو سفيان ضعيف والحارث بن غصين هذا هو أبو وهب الثقفي وسلام بن سليمان يروي الأحاديث الموضوعة وهذا منها بلا شك.

وقال الحافظ: حديث غريب... وأخرجه ابن عبد البر من هذا الوجه وقال: هذا إسناد لا تقوم به حجة والحارث مجهول قلت - أي الحافظ - الآفة فيه من الراوي عنه وإلا فالحارث ذكره ابن جبان في الثقات وقال: روى عنه حسين الجعفي اهـ وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص ٢٥٠، ٢٥١) رقم (٧٨٣) وابن عدي في «الكامل» (٢/٧٨٥ - ٧٨٦) كلاهما من طريق أبي شهاب عن حمزة الجزري عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مثل أصحابي مثل النجوم يهتدى به فأبهم أخذتم بقوله اهتديتم».

وذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٩٢٤/٢) معلقاً عن أبي شهاب به وقال: وهذا إسناد لا يصح ولا يرويه عن نافع من يحتج به.

وقال ابن حزم في «الإحكام» (٨٣/٦): فقد ظهر أن هذه الرواية لا تثبت أصلاً، بل لا شك أنها

= فبالتشديد، وهي معظمه، أفاده الصحاح (ع).

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ ﴾

= مكذوبة لأن الله تعالى يقول في صفة نبيه ﷺ: (وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى) [النجم ٣، ٤]... أهـ.

ومن طريق عبد بن حميد أخرجه الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (١/١٤٥) وقال: هذا حديث غريب وذكره ابن عبد البر في كتاب بيان العلم عن أبي شهاب بسنده وقال: هذا إسناد ضعيف الراوي له عن نافع لا يحتج به قلت: هو متفق على تركه بل قال ابن عدي: إنه يضع. أهـ. وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/١٠٥٧) والبيهقي في «المدخل» (١٥١) وابن عساكر (٥/٦ - تهذيب) من طريق نعيم بن حماد ثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد ابن المسيب عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي عما يختلف فيه أصحابي من بعدي فقال: يا محمد إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم بعضها أضوأ من بعض فمن أخذ بشيء مما اختلفوا فيه فهو عندي على هذا».

قال الحافظ في «تخريج أحاديث المختصر» (١/١٤٧): هذا حديث غريب... وزيد العمي بفتح المهملة وتشديد الميم وابنه أضعف منه، وقد سئل البزار عن هذا الحديث فقال: لا يصح هذا الكلام عن النبي ﷺ وقد رواه عبد الرحيم مرة أخرى فقال عن أبيه عن ابن عمر... أهـ. وأخرجه البيهقي في «المدخل» (١٥٢) والخطيب في «الكفاية» (ص ٤٨) من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس بلفظ: «إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأبها أخذتم به اهتديتم» قال الحافظ في «تخريج المختصر» (١/١٤٦): وجوير ضعيف جدا والضحاك لم يلق ابن عباس.

وأخرجه البيهقي في «المدخل» أيضاً (١٥٣) من طريق جوير عن جواب بن عبد الله عن النبي ﷺ.

وهو مرسل أو معضل كما قال الحافظ.

وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٤٦) من طريق جعفر بن عبد الواحد قال: قال لنا وهب ابن جرير بن حازم عن أبيه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مثل أصحابي مثل النجوم من اقتدى بشيء منها اهتدى». وجعفر بن عبد الواحد كذاب كذبه غير واحد. فذكره برهان الدين الحلبي في «كتابه الكشف الحثيث عمن رمى بوضع الحديث» (ص ١٢٧) رقم: (١٩٧) وقال: قال الدارقطني: يضع الحديث، وساق له ابن عدي أحاديث وقال: كلها بواطيل وبعضها سرقة من قوم انتهى ونقل ابن الجوزي عن ابن عدي أنه متهم بوضع الحديث ذكر ذلك في غير مكان من الموضوعات.

وقال الحافظ في تخريج الكشف:

أخرجه الدارقطني في المؤلف من رواية سلام بن سليم عن الحرث بن غصن عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعاً. وسلام ضعيف. وأخرجه في غرائب مالك من طريق حميد بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر في أثناء حديث: وفيه: «فبأي قول أصحابي أخذتم اهتديتم، إنما مثل أصحابي مثل النجوم من أخذ بنجم منها اهتدى»، وقال: لا يثبت عن مالك. ورواه دون مالك مجهولون. ورواه عبد بن حميد، والدارقطني في الفضائل من حديث حمزة الحريري عن نافع عن ابن عمر. وحمزة اتهموا بالوضع. ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي هريرة، وفيه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وقد كذبه. ورواه ابن طاهر من رواية بشر ابن الحسين عن الزبير بن عدي عن أنس. وبشر كان متهماً أيضاً. وأخرجه البيهقي في المدخل من =

وَالْبَغْيَ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٦﴾

العدل هو الواجب^(١)؛ لأن الله - تعالى - عدل فيه على عباده^(٢)، فجعل ما فرضه عليهم واقعاً تحت طاعتهم، ﴿وَالْإِحْسَانَ﴾: الندب؛ وإنما علق أمره بهما جميعاً؛ لأنَّ الفرض لا بدَّ من أن يقع فيه تفریط^(٣) فيجبره الندب؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ لمن علمه الفرائض فقال: والله لا زدت فيها ولا نقصت -: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ» (٨٣٤)، فعقد الفلاح

= رواية جوير عن الضحاك عن ابن عباس وجوير متروك. ومن رواية جوير أيضاً عن حواب بن عبد الله مرفوعاً وهو مرسل، قال البيهقي: هذا المتن مشهور وأسانيده كلها ضعيفة. وروى في المدخل أيضاً عن عمر ورفعه: «سألت ربي فيما يختلف فيه أصحابي من بعدتي. فأوحى إلي: يا محمد إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء، بعضها أضوأ من بعض، فمن أخذ بشيء مما هو عليه من اختلافهم فهو عندي على هدى»، وفي إسناده عبد الرحيم بن زيد السهمي، وهو متروك. انتهى.

٨٣٤ - أخرجه مالك في الموطأ (٩٤/١٧٥/١) - كتاب قصر الصلاة في السفر (٩) - باب جامع الترغيب في الصلاة، والبخاري في صحيحه (١٤٦/١) - كتاب الإيمان (١) - باب الزكاة من الإسلام (٣٤) - (٤٦)، ومسلم (١٩٨/١ - نووي) - كتاب الإيمان (١) - باب بيان الصلوات (٢) - (١١/٨)، وأبو داود (١٠٦/١) - كتاب الصلاة - حديث رقم (٣٩١)، والنسائي (٢٢٦/١ - ٢٢٧ - ٢٢٨) - كتاب الصلاة - باب لم رضى في اليوم واللييلة - (٤٥٨)، والدارمي (٣٧٠/١) - كتاب الصلاة - باب «في الوتر»، وابن خزيمة (١٥٨/٢) حديث رقم (٣٠٦)، وأحمد (١٦٢/١)، والبيهقي في =

(١) قال محمود: «العدل: الواجب. والإحسان: الندب» قال أحمد: وفي جمعهما تحت الأمر ما يدل لمن قال إن صيغة الأمر - أعني هذه المبنية من الهزمة والميم والراء لا صيغة أفعّل - تتناول القيلين بطريق التواطؤ وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب والله أعلم.

(٢) عاد كلامه. قال: «وإنما كان الواجب عدلاً لأن الله تعالى عدل فيه على عباده... إلخ» قال أحمد: وهذه وليجة من الاعتزال. ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق لأنه ظلم وجور، وذلك على الله محال. والحق والسنة أن كل قضاء الله عدل، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه وعدل منه ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسألون﴾ بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة، على مقتضى توحيد أهل السنة، المعتقدين أن كل موجود بقدره الله تعالى حدث ووجد، لا شريك له في ملكه، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه، هذا هو التوحيد المحض. وإذا كان العبد مكلفاً بما هو من فعل الله، فهذا عين التكليف بما لا يطاق، ولكن ذلك عدل من الله تعالى، وحجته البالغة قائمة على المكلف بما خلقه له من التأتّي والتيسر في الأفعال الاختيارية التي هي محال التكاليف.

(٣) عاد كلامه. قال: «وإنما قرنهما في الأمر، لأن الفرض لا يخلو من خلل وتفریط يجبره الندب... إلخ» قال أحمد: وهذه نكتة حسنة يجاب بها عن قول القائل: لم حكم عليه الصلاة والسلام بفلاح المصر على ترك السنن، فيقال: المحكوم بفلاحه لأجله إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة، والله أعلم.

بشرط الصدق والسلامة من التفریط، وقال ﷺ: «أَسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا» (٨٣٥). فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفریط من النوافل، والفواحش: ما جاوز حدود الله،

= الكبرى (٤٦٦/٢)، من طرق عن أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول...

وقال الحافظ في تخریج الكشاف:

متفق عليه من رواية طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم.

٨٣٥ - ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة هم:

ثوبان، جابر، عبد الله بن عمرو بن العاص، سلمة بن الأكوع، أبو أمامة.

- أما حديث ثوبان:

فأخرجه أحمد (٢٨٦/٥ - ٢٧٧)، وابن ماجه (١٠١/١) كتاب الطهارة وسننها - باب المحافظة على الوضوء (٢٧٧)، والحاكم في مستدرکه (١٣٠/١)، والبيهقي في الكبرى (٨٢/١ و ٤٥٧)، والطبراني في «الصغير» (٨٨/٢)، والدارمي في سننه (١٦٨/١)، والخطيب في تاريخه (٢٩٣/١)، والطالسي في مسنده (٢٩/١ - منحة) (٤٦)، من طرق عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان مرفوعاً: «استقيموا ولن تحصوا...» وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولست أعرف له علة يعلل بمثلها ووافقه الذهبي.

قلت: وفي ذلك نظر، فإن سالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان كما قرر ذلك عدد من أهل العلم فعند الترمذي في جامعه (٢٧٨/٥) (٣٠٩٤) قال: سألت محمد بن إسماعيل فقلت له: سالم ابن أبي الجعد سمع من ثوبان؟ فقال: لا... وقال محمد بن يحيى الذهلي: سمعت أحمد بن حنبل - وذكر أحاديث سالم بن أبي الجعد عن ثوبان، فقال: لم يسمع سالم من ثوبان ولم يلقه، وبينهما معدان بن أبي طلحة، وليست هذه الأحاديث بصحاح. تهذيب الكمال (١٣٢/١٠) ترجمة (٢١٤٢). وقد صرح بذلك البوصيري في «الزوائد» (١٢٢/١).

قلت: وللحديث طريق آخر عن ثوبان:

أخرجه أحمد (٢٨٢/٥)، والدارمي (١٦٨/١) كتاب الوضوء: باب ما جاء في الطهور، وابن جبان (١٦٤ - موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٠١/٢) رقم (١٤٤٤)، والبيهقي (٤٥٧/١) كتاب الطهارة: باب خير أعمالكم الصلاة، من طريق الوليد بن مسلم ثنا ابن ثوبان عن حسان بن عطية عن أبي كبشة السلولي عن ثوبان به. وقع عند الطبراني «أبو كبشة السولي» وهو تصحيف واسمه «أبو كبشة السلولي» انظر تهذيب الكمال (٢١٥/٣٤) ترجمة (٧٥٨٣) والوليد بن مسلم مدلس، وقد عنعن - ووجدت تصريحه بالتحديث عند ابن جبان في صحيحه (٣١١/٣) (١٠٣٧) بلفظ «سدوا وقاربوا...» وابن ثوبان اسمه عبد الرحمن وهو حسن الحديث، والحديث أخرجه مالك في الموطأ (٣٤/١) - كتاب الطهارة - باب جامع الوضوء - بلاغاً وقال ابن عبد البر في التقيص: هذا يستند ويتصل من حديث ثوبان عن النبي ﷺ من طرق صحاح.

- وأما حديث جابر فأخرجه الحاكم في مستدرکه (١٣٠/١) من طريق محمد بن خازم عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعاً...

- وأما حديث عبد الله بن عمرو:

فأخرجه ابن ماجه (١٠٢/١) - كتاب الطهارة - باب المحافظة على الوضوء - (٢٧٨)، والبيهقي في الشعب (٥٠٤/٣) (٢٧١٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/١) (٣٦) مختصراً، كلهم من طريق =

﴿وَالْمُنْكَرِ﴾: ما تنكره العقول^(١)، ﴿وَالْبَغْيِ﴾: طلب التناول بالظلم^(٢)، وحين أسقطت من الخطب^(٣) لعنة الملاعين على أمير المؤمنين عليّ - رضي الله عنه - أقيمت هذه الآية

ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً، وهذا إسناد ضعيف، علته
ليث بن أبي سليم.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٣٣) (٦٨٠) لإسحاق بن راهويه والبخاري في معجمه - ونقل عن البزار قوله: لا نعلمه يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

- وحديث سلمة بن الأكوع:

أخرجه الطبراني في الكبير (٧/٢٨) (٦٢٧٠)، والعقيلي في الضعفاء (٤/١٦٨) كلاهما من طريق محمد بن عمر الوادي عن موسى بن محمد بن إبراهيم أنه سمع إياس بن سلمة بن الأكوع يحدث عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ ... فذكره.

ومحمد بن عمر الواقدي متروك مع سعة علمه، وموسى بن محمد لا يتابع؛ لما قال العقيلي، وقال الهيثمي في المجمع (٢/٢٥٣): رواه الطبراني في الكبير عن محمد بن عباد عن أبيه، ولم أجده من ترجمه. أهـ.

قلت: وليس في إسناده عند الطبراني محمد بن عباد هذا.

- وحديث أبي أمامة: أخرجه ابن ماجه (١/١٠٢) - كتاب الطهارة وسننها - باب المحافظة على الوضوء - (٢٧٩) حدثنا محمد بن يحيى. ثنا ابن أبي مريم ثنا يحيى بن أيوب حدثني إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عن أبي أمامة يرفع الحديث ...

وقال البوصيري في الزوائد (٢/١٢٣) هذا إسناد ضعيف لضعف تابعيه، وقال البيهقي: أبو حفص هذا مجهول، تهذيب الكمال (٣٣/٢٥٣) (٧٣٢١)، وقال الذهبي في الميزان (٤/الترجمة ١٠١١٠): لا يعرف أبداً. وقال الحافظ ابن حجر (٢/٤١٣) (٦٠): مجهول.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن ماجه، والحاكم، وأحمد، وابن أبي شيبة، والدارمي، وأبو يعلى من رواية سالم بن أبي الجعد عن ثوبان. وهو منقطع. ورواه ابن جبان، والطبراني من وجه آخر عن ثوبان، ورواه الحاكم من رواية الأعمش عن أبي سفيان عن جابر، ورواه الطبراني. والعقيلي من حديث سلمة بن الأكوع وفيه الواقدي، وأخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والبزار والطبراني عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو. وليث ضعيف وأشار البزار إلى أنه تفرد به. انتهى.

(١) عاد كلامه. قال: «والفواحش ما جاوز حدود الله، والمنكر ما تنكره العقول» قال أحمد: وهذه أيضاً لفظة إلى الاعتزال، ولو قال: والمنكر ما أنكره الشرع لوافق الحق. ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقيح بالعقل، والله الموفق.

(٢) عاد كلامه. قال: «والبغي طلب التناول بالظلم» قال أحمد: وأصل موضوعه الطلب، ومن ابتغاء وجه الله، ابتغاء مرضاة الله، ولكن صار مطلقاً خاصة بطلب الظلم عرفاً.

(٣) عاد كلامه. قال: «وحيث أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه... إلخ» قال أحمد: ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة، لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغي فيها، وبين الحديث الوارد: في أن المناصب لعلي باغ، حيث يقول عليه =

مقامها، ولعمري، إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً، ضاعف الله لمن سنها غضباً ونكالاً وخزياً، إجابة لدعوة نبيه: «وَعَادَ مَنْ عَادَاهُ» (٨٣٦)، وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

٨٣٦ - قلت هذا حديث صحيح متواتر، وقد رواه جمع كبير من الصحابة هم:

(١) زيد بن أرقم أخرجه الثَّسائي في الكبير (١٣٠/٥ - ١٣١) - كتاب الخصائص - حديث رقم (٨٤٦٤ و ٨٤٦٨)، وأحمد (١١٨/١)، والحاكم في مستدركه (١٠٩/٣)، وابن أبي عاصم في السنة (ص ٦٠٦ / ١٣٦٥)، والطبراني في «الكبير» (١٦٦/٥) (٤٩٦٩)؛ كلهم من طريق سليمان الأعمش قال: حدثنا حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله ﷺ عن حجة الوداع...

وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» وأقره الذهبي. قلت: وحبيب بن أبي ثابت وهو أبو يحيى الكوفي ثقة فقيه جليل، ولكنه كثير الإرسال والتدليس، كما قال الحافظ في التقریب (١/ ١٤٨) وقد عنعن هنا وتابع حبيب... فطر بن خليفة عن أبي الطفيل قال...

أخرجه أحمد (٣٧٠/٤)، وابن جبان في صحيحه (٣٧٥/١٥ - ٣٧٦) (٦٩٣١)، وفي الموارد أيضاً (١٣٨/٧ - ١٣٩) (٢٢٠٥)، والبخاري (١٩١/٣ - ١٩٢) (٢٥٤٤)، وابن أبي عاصم في السنة (ص ٦٠٦ / ١٣٦٨)، والطبراني في «الكبير» (١٦٥/٥ - ١٦٦) (٤٩٦٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠٧/٩): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة»، وأخرجه الترمذي (٦٣٣/٥) - كتاب المناقب (٥٠) - باب مناقب علي - (٣٧١٣) من طريق شعبة عن سلمة بن كهيل قال: سمعت أبا الطفيل يحدث عن أبي سريحة أو زيد بن أرقم شك شعبة عن النبي ﷺ قال «من كنت مولاه...».

وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٣٦٨/٤ - ٣٧٢)، (٣٧٠/٥)، والطبراني (٤٩٨٣، ٤٩٨٥، ٤٩٨٦، ٥٠٥٨، ٥٠٥٩، ٥٠٩٢) من طرق عن زيد بن أرقم به.

(٢) البراء بن عازب:

أخرجه الثَّسائي (١٣٢/٥) - كتاب الخصائص - حديث رقم (٨٤٧٣) من طريق عمران بن أبان قال: حدثنا شريك: فقلت لأبي إسحاق: هل سمعت البراء بن عازب... قلت: وشريك بن عبد الله القاضي كثير الخطأ، وعمران بن أبان هو أبو موسى الطحان الواسطي: ضعيف الحديث كما في التقریب (٨٢/٢)، وأخرجه أحمد (٢٨١/٤)، وابن ماجه في سننه (٤٣/١) - المقدمة - فضل علي ابن أبي طالب (١١٦) كلاهما من طريق حماد بن سلمة أنا علي بن زيد عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر...».

وقال البوصيري في الزوائد (٦٩/١) هذا إسناد ضعيف.

(٣) سعد بن أبي وقاص: أخرجه الثَّسائي (١٣١/٥) - كتاب الخصائص - (٨٤٦٨) من طريق عبد الواحد بن أيمن عن أبيه أن سعداً قال: قال رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه، فعلي مولاه» وابن ماجه (٤٥/١) المقدمة (١٢١) من طريق عبد الرحمن بن سابط عن سعد... والحاكم في المستدرك (١١٦/٣) من طريق مسلم الملائي عن خيثمة بن عبد الرحمن قال: سمعت سعد بن

== الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب علي: تقتلك الفئة الباغية، والله أعلم، فقتل مع علي يوم صفين.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ

مالك... وقال الذهبي: سكت الحاكم عن تصحيحه، ومسلم متروك.

قلت: وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٣٥): - رواه النسائي - من طرق ثلاثة دائرة على المهاجر بن مسمار، عن عائشة بنت سعد عن سعد... ولم أجده في النسائي من هذا الطريق، وإنما وجدته فقط من الطريق الذي ذكرناه آنفا والله أعلم.

(٤) حديث بريدة:

أخرجه النسائي (٥/١٣٠) - كتاب الخصائص ٨٤٦٥ و ٨٤٦٦ و ٨٤٦٧)، وأحمد (٥/٣٥٠) من طريق أبي معاوية حدثنا الأعمش، عن سعد بن عبيدة عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «من كنت مولاه...»، والبخاري (٣/١٨٨) (٢٥٣٥) من طريق محمد بن المثنى حدثنا أبو معاوية به، وأحمد (٥/٣٥٨، ٣٦١) من طريق وكيع عن الأعمش به، وأخرجه أحمد (٥/٣٤٧) والحاكم (٣/١١٠) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، وأخرجه عبد الرزاق (٢٢٥١١) برقم (٢٠٣٨٨) عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: لما بعث النبي ﷺ علياً إلى اليمن، خرج بريدة الأسلمي معه... ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الطبراني في الأوسط (١/٢٢٩) (٣٤٨)، وأخرجه أيضاً في «الصغير» (١/٧١) من طريق... عبد الرزاق أنبأنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاووس عن بريدة بن الحصيب عن النبي ﷺ...

وأبو نعيم في الحلية (٤/٢٣) من طريق سفيان بن عيينة به وقال «غريب من حديث طاووس لم نكتبه إلا من هذا الوجه».

(٥) حديث أبي هريرة:

أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (١١/٣٠٧) (٦٤٢٣)، والطبراني في الأوسط (٢/٦٨ - ٦٧) (١١١٥)، وقال: لم يرو هذا الحديث عن إدريس إلا عكرمة، وقال الهيثمي في المجمع (٩/١٠٩): رواه أبو يعلى والبخاري بنحوه والطبراني في الأوسط وفي أحد إسناده البخاري بنحوه مسمى، وبقي رجاله ثقات في الآخر، وفي إسناده أبي يعلى داود بن يزيد وهو ضعيف» أهـ.

(٦) حديث أبي أيوب:

أخرجه أحمد (٥/٤١٩) والطبراني في الكبير (٤/١٧٣) (٤٠٥٢، ٤٠٥٣، ٤٠٥٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠٧١٩). رجال أحمد ثقات.

(٧) جرير بن عبد الله أخرجه الطبري في «الكبير» (٢/٣٥٧) (٢٥٠٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/١٠٩): وفيه بشر بن حرب وهو لين ومن لم أعرفه أيضاً، وللحديث طرق أخرى كثيرة، جمع طائفة منها الهيثمي في المجمع (٩/١٠٦ - ١١٢)، والحديث ذكره السيوطي في الأذهار المتناثرة عن ثمانية عشر نفساً، وأورده الكتاني في نظم المتناثر كتاب المناقب، والزبيدي في لقط اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة (ص ٢٠٥) وقال: رواه من الصحابة واحد وعشرون نفساً وذكرهم، وقال الحافظ في الفتح (٧/٤٣٨) - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب علي - وأما حديث «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقد أخرجه الترمذي والنسائي، وهو كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدنا صحاح وحسان أ.هـ.

وانظر الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٣٤ و ٢٤٤) فقد استوعب كثيراً من طرقه.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

هذا طرف من حديث غدير خم الوارد في فضل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد أخرجه =

عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ تَلْخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْثَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿

عهد الله: هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ / ١٩٥ ب [الفتح: ١٠]، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا﴾: أيمان البيعة، ﴿بَعْدَ تَوَكُّدِهَا﴾ أي: بعد توثيقها باسم الله، وأكد ووكد: لغتان فصيحتان، والأصل: الواو، والهمزة: بدل، ﴿كَفِيلًا﴾: شاهدًا ورقبياً؛ لأن الكفيل مراعى لحال المكفول به مهيمن عليه، ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾: في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته، ﴿أَنْكَبَتْ﴾: جمع نكث، وهو ما ينكث فتله، قيل: هي ربطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء، اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواربها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن، ﴿تَلْخِذُونَ﴾: حال

 الثنائي، وابن جبان، والحاكم من رواية الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن الطفيل عن زيد بن أرقم، وفيه هذا اللفظ، ورواه الثنائي أيضاً من رواية شريك: قلت لأبي إسحاق: أسمعت البراء يحدث عن رسول الله ﷺ؟ قال يوم غدیر خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» قال: نعم. وأخرجه ابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والبزار من وجه آخر، عن شريك، عن إدريس بن يزيد الأشددي، عن أبيه، عن أبي هريرة، وتابعه عكرمة بن إبراهيم عن إدريس عند الطبراني، ورواه الطبري أيضاً من طريق سليمان بن قرم عن أبي إسحاق عن حبشي بن جنادة. وأخرجه الثنائي أيضاً من طريق مهاجر بن مسمار عن عائشة بنت سعد عن أبيها أن النبي ﷺ: «أخذ بيد علي يوم غدیر خم فقال: من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وأخرجه الحاكم من رواية مسلم الملائي عن خثمة بن عبد الرحمن عن سعد بن مالك نحوه. وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني من طريق عطية عنه، والبزار من طريق جميل بن عمار، عن سالم عن أبيه، وعن أنس وغيره أخرجه الطبراني في الصغير من رواية طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد قال: شهدت علياً على المنبر ناشد الصحابة: من سمعه يقول يوم غدیر خم ما قال؟ فقام اثنا عشرة، منهم أبو هريرة، وأبو سعيد، وأنس، وعن جرير أخرجه الطبراني مطولاً: وعن طلحة أخرجه الحاكم من رواية رفاعة بن إياس العمي عن أبيه عن جده قال: «كنا مع علي يوم الجمل فبعث إلى طلحة فقال له: أنشدك الله، ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول - فذكره - فقال: نعم. قال: فلم تقتلني؟ قال: لم أذكره وانصرف طلحة» وعن جابر أخرجه أبو يعلى، والطبراني في مسند الشاميين من طريق ابن لهيعة عن بكر بن سودة عن قبيصة بن ذؤيب وأبي سلمة عن جابر، وعن حذيفة بن أسيد أخرجه الطبراني وجمع ابن عقدة طرف حديث غدیر خم، فأخرجه من رواية جماعة آخرين من الصحابة مع هؤلاء: منهم عمار بن ياسر، والعباس وابنه، والحسن بن علي والحسين بن علي، وعبد الله بن جعفر، وسلمان الفارسي، وسمرة بن جندب، وسلمة بن الأكوع، وزيد بن حارثة، وأبو رافع، وزيد بن ثابت الأنصاري، ويعلى بن مرة وآخرون. انتهى.

﴿دَخَلًا﴾: أحد مفعولي اتخذ، يعني: ولا تنقضوا أيمانكم متخذوها دخلاً ﴿يَبْتَغِيكُمْ﴾ أي: مفسدة ودغلاً^(١)، ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾: بسبب أن تكون أمة، يعني: جماعة قريش، ﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ هي: أزيد عدداً وأوفر مالاً، من أمة من جماعة المؤمنين، ﴿إِنَّمَا يَبْتَغِيكُمْ اللَّهُ بِذِهِ﴾: الضمير لقوله: أن تكون أمة؛ لأنه في معنى: المصدر، أي: إنما يختبركم بكونهم أربى؛ لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ أم تغتربون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم، وقلة المؤمنين وفقيرهم وضعفهم؟ ﴿وَلَيَبْتَغِينَ لَكُمْ﴾: إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١٣)

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار^(٢)، وهو قادر على ذلك، ﴿وَلَكِنْ﴾: الحكمة اقتضت أن يضل، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾: وهو أن يخذل من علم أنه يختار^(٣) الكفر ويصمم عليه، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: وهو أن يلفظ بمن علم أنه يختار الإيمان، يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان، والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإلجاء الذي لا يستحق به شيء من ذلك؛ وحققه بقوله: ﴿وَلَتَسْتَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ولو كان هو المضطر إلى الضلال^(٤) والاهتداء، لما أثبت لهم عملاً يسألون عنه^(٥).

(١) قوله: «ودغلاً» في الصحاح «الدغل» بالتحريك: الفساد، مثل الدخل (ع).

(٢) قال محمود: «معناه على طريقة الإلجاء والقسر» قال أحمد: وهذا تفسير اعتزالي قد قدم أمثاله في أخوات هذه الآية، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشينة بلو، الدالة على أن مشينة الله تعالى لإيمان الخلق كلهم ما وقعت، وأنه إنما شاء منهم الانتراق والاختلاف، فإيمان وكفر، وتصديق وتكذيب كما وقع منهم، ولو شاء شمولهم بالإيمان لوقع، فيصادم الزمخشري هذا النص ويقول: قد شاء جعلهم أمة واحدة حنيفة مسلمة، ولكن لم يقع مراده. فإذا قيل له: فعلم تحمل المشينة في الآية؟ قال: على مشينة إيمانهم قسراً لا اختياراً، وهذه المشينة لم تقع اتفاقاً.

(٣) قوله: «وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة، فالإضلال: خلق الضلال في القلب؛ لأنه يجوز على الله خلق الشر عندهم دون المعتزلة، كما بين في محله (ع).

(٤) قوله: «ولو كان هو المضطر إلى الضلال» على معنى اسم الفاعل، أي الذي يضطر العباد ويلجئهم. وقوله: «لما أثبت... إلخ» مسلم، ولكنه لم يضطرهم ولم يلجئهم ولو كان هو الخالق لأعمالهم في الحقيقة، لما لهم فيها من الكسب كما قرره أهل السنة في علم التوحيد، فلينظر (ع).

(٥) عاد كلامه. قال محمود: «ومما يدل على أن الله لم يبين الأمر على الإلجاء وإنما بناء على الاختيار قوله تعالى ﴿وَلَتَسْتَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولو كان هو المضطر للهداية والضلال لما أثبت لهم ما =

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤)

ثم كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم؛ تأكيداً عليهم، وإظهاراً لعظم ما يركب منه، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾: فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها، ﴿وَتَذُوقُوا أَلْسُوَ﴾: في الدنيا بصدودكم، ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وخروجكم من الدين، أو بصدكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا، لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها، ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: في الآخرة.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥)

كان قوماً ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان - لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين، وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد - أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ فثبتهم الله، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾: ولا تستبدلوا، ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾: وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عرضاً من الدنيا يسيراً، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا، ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: من إظهاركم وتغنيمكم، ومن ثواب الآخرة: ﴿خَيْرٌ لِّكُمْ﴾.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾: من أعراض الدنيا، ﴿يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: من خزائن رحمته، ﴿بَاقٍ﴾: لا ينفد، وقرئ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ﴾: بالنون والياء، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: على أذى المشركين ومشاق الإسلام.

فإن قلت: لم وحدت القدم ونكرت^(١)؟

= يسألون عنه: قال أحمد: أما أهل السنة الذين يسميهم المصنف مجبرة فهم من الإيجاب بمعزل، لأنهم يشتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالاً، وهم مع ذلك يوحدون الله حق توحيده، فيجعلون قدرته تعالى هي الموجدة والمؤثرة، وقدرة العبد مقارنة فحسب، تمييزاً بين الاختياري والقسري وتقوم بها حجة الله على عبده، والله الموفق.

(١) قال محمود: «إن قلت لم وحدت القدم ونكرت... إلخ» قال أحمد: ومن جنس إفادة التنكير ههنا للتقليل: إفادته له في قوله تعالى ﴿وَتَبَيَّنَ أَذُنٌ وَعِيَةٌ﴾ وفي قوله عز وجل ﴿أَتَقُوا اللَّهَ وَتَنْتَظَرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِقْبٍ﴾ فنكر الأذن والنفس تقيلاً للواعي من الناس لما يقضي بسداده، وللناظر من الخلق في أمر معاده، والله الموفق.

قلت: لاستعظام أن تنزل واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧)

فإن قلت: ﴿مَنْ﴾ متناول في نفسه للذكر والأنثى، فما معنى تبيينه بهما؟

قلت: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للمذكور، ف قيل: ﴿مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾: على التبيين؛ ليعم الموعد النوعين جميعاً، ﴿حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ يعني: في الدنيا وهو الظاهر؛ لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: وعده الله ثواب الدنيا والآخرة؛ كقوله: ﴿فَنُكَلِّهِمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً، فلا مقال فيه، وإن كان معسراً، فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأما الفاجر فأمره على العكس: إن كان معسراً فلا إشكال في أمره، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: الحياة الطيبة: الرزق الحلال، وعن الحسن: القناعة، وعن قتادة: يعني: في الجنة، وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُمْ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه، وصل به قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: إيذاناً بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب، والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ؛ كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وكقولك: إذا أكلت فسم الله.

فإن قلت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟

قلت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه، فكان منه بسبب قوتي وملابسة ظاهرة، وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «يَا أَبْنَى أُمِّ عَبْدِي، قُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، هَكَذَا أَقْرَأْنِيهِ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنِ الْقَلَمِ عَنِ اللُّوحِ

الْمَحْفُوظُ» (٨٣٧)، ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي: تسلط وولاية على أولياء الله، يعني: انهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه/ ١٩٦ فيما يريد منهم من اتباع خطواته، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ﴾: على من يتولاه ويطيعه، ﴿بِهِ تُشْرَكُونَ﴾: الضمير يرجع إلى ربهم، ويجوز أن يرجع إلى الشيطان، على معنى: بسببه وغروره ووسوسته.

﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١٢)

تبديل الآية مكان الآية: هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع؛ لأنها مصالح وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصلحة، والله - تعالى - عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته، وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾، وجدوا مدخلاً للطعن فطعنوا؛ وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ، وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه: يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، والأهون بالأهون، والأشق بالأشق؛ لأن الغرض المصلحة، لا الهوان والمشقة.

فإن قلت: هل في ذكر تبدل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله، ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟

قلت: فيه أن قرآننا ينسخ بمثله، وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأما الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها، فلا يصح نسخ القرآن بها.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١١٢)

في (ينزل) و﴿نَزَّلَهُ﴾: وما فيهما من التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح: إشارة إلى أن التبدل من باب المصالح كالتنزيل، وأن ترك النسخ بمنزلة إنزاله

٨٣٧ - أخرجه الواحدي في تفسير الوسيط (٨٤١٣) من طريق الثعلبي مسلسلاً، وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة (٣٠٩/١) (٨٥) وعزاه لابن النجار من طريق هناد النسفي الشافعي مسلسلاً. وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

رواه الثعلبي مسلسلاً عن شيخة أبي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي إلى ابن مسعود، ورواه الواحدي من الوسيط عن الثعلبي... انتهى.

دفعه واحدة في خروجه عن الحكمة، و﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: جبريل - عليه السلام - أضيف إلى القدس وهو الطهر، كما يقال: حاتم الجود وزيد الخير، والمراد: الروح المقدس، وحاتم الجواد، وزيد الخير، والمقدس: المطهر من المآثم، وقرئ: بضم الدال وسكونها، ﴿بِالْحَقِّ﴾: في موضع الحال، أي: نزله ملتبساً بالحكمة، يعني: أن النسخ من جملة الحق، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: ليلوهم بالنسخ، حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا والحكمة، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب، ﴿وَهَذَى وَشَرَّكَ﴾: مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت، والتقدير: تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضرار هذه الخصال لغيرهم، وقرئ: «ليثبت»: بالتخفيف.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيْهُ
وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢٢)

أرادوا بالبشر: غلاماً كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه، اسمه: عائش أو يعيش، وكان صاحب كتب، وقيل: هو جبر: غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي، وقيل: عبدان: جبر ويسار، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ إذا مرّ وقف عليهما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه فقيل لأحدهما، فقال: بل هو يعلمني، وقيل: هو سلمان الفارسي، واللسان: اللغة، يقال: ألحد القبر ولحده، وهو ملحد وملحد، إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شئ منه ثم استعير لكل إمالة عن استقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه، ومنه الملحد؛ لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، لم يمله عن دين إلى دين، والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان، ﴿أَعْجَبِيْهُ﴾: غير بين، ﴿وَهَذَا﴾: القرآن، ﴿لِسَانٌ عَكْرٌ مُّبِينٌ﴾: ذو بيان وفصاحة ردّاً لقولهم وإبطالاً لطعنهم، وقرئ: (يلحدون): بفتح الياء والحاء، وفي قراءة الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قلت: الجملة التي هي قوله: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيْهُ﴾ ما محلها؟ قلت: لا محل لها؛ لأنها مستأنفة جواب لقولهم؛ ومثله قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بعد قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٢٣) إِنَّمَا يَقْرَأُ

الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١١٥﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ لا يُلطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة، لا من أهل اللطف والثواب، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾: رد لقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾، يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقاباً عليه، ﴿وَأُولَئِكَ﴾: إشارة إلى قريش، ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي: هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون، أو إلى الذين لا يؤمنون، أي: أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب، أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يباليون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين، أو أولئك هم الكاذبون في قولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١].

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٦﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١١٧﴾ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَوْ نَبَذَ فِي السَّمَاءِ فَجَعَلَهُمُ الْعُقُلُوفُونَ ﴿١١٨﴾ لَا جُرْمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٩﴾

﴿مَنْ كَفَرَ﴾: بدل من الذين لا يؤمنون بآيات الله، على أن يجعل: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾: اعتراضاً بين البدل والمبدل منه، والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه، واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طاب به نفساً واعتقده، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾: ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو: (أولئك) على: ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو من الخبر الذي هو الكاذبون، على: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه، ويجوز أن ينتصب على الذم، وقد جوزوا أن يكون: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾: شرطاً مبتدأ، ويحذف جوابه؛ لأن جواب: (من شرح) دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب، إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب، روي أن ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه / ١٩٦هـ، وكان فيهم من أكره، فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم: عمار، وأبواه - ياسر وسمية - وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: عذبوا، فأما سمية: فقد ربطت بين بعيرين ووجيء في قبلها بحرية، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار: فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فقيل: يا رسول الله،

إن عماراً كفر، فقال: «كلاً، إنَّ عَمَّاراً مُلِيََ إِيمَاناً مِنْ قَرْزِهِ إِلَى قَدَمِهِ، وَأَخْتَلَطَ الْإِيمَانُ بِلُخْمِهِ وَدَمِهِ» ح فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «مَالَكَ! إِنَّ عَادُوا لَكَ فَقَدْ لَهُمْ بِمَا قُلْتَ»، ومنهم جبر مولى الحضرمي، أكرهه سيده، فكفر، ثم أسلم مولاة وأسلم، وحسن إسلامهما، وهاجرا (٨٣٨).

فإن قلت: أي الأمرين أفضل، أفعل عمار أم فعل أبويه؟

قلت: بل فعل أبويه؛ لأن في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام وقد روي أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت - أيضاً - فخلاه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أَمَّا الْأَوَّلُ: فَقَدْ أَخَذَ بِرُخْصَةِ اللَّهِ، وَأَمَّا الثَّانِي: فَقَدْ صَدَعَ بِالْحَقِّ فَهَنِيئاً لَهُ» (٨٣٩). ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى الوعيد، وأن الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب

٨٣٨ - ذكره البغوي في تفسيره (٨٦/٣) من حديث ابن عباس، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٤٦) للواحدي في أسباب النزول والثعلبي في تفسيره، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٣٥٧/٢) - كتاب التفسير - سورة النحل، وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي والبيهقي في السنن (٢٠٨/٨ - ٢٠٩) - كتاب المرتد - باب المكروه على الردة، وأخرجه في «الدلائل» أيضاً (٤/ ٣٠١ - ٤٠٤)؛ وابن سعد في الطبقات (١٧٨/١/٣)، وقوله ﷺ: «إن عماراً» إلى قوله «قدمة» أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٣٩/١) في ترجمة «عمار بن ياسر».

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند، وروى الحاكم من حديث زر عن ابن مسعود قال: «أول من أظهر إسلامه سبعة: فذكرهم إلى أن قال: فأخذهم المشركون فلبسوهم أذراع الحديد - الحديث» ورواه ابن سعد من طريق منصور عن مجاهد قال: «أول من أظهر فذكر مثله - وزاد فجاء أبو جهل يشتم سمية ويرقت ثم طعنها فقتلها. فهي أول شهيد في الإسلام. قلت: قوله ﷺ: «إن عماراً مليء إيماناً» رواه ... وقوله «اختلط الإيمان بلحمه ودمه» رواه ... وقوله «إن عادوا لك فعدلهم» رواه انتهى.

٨٣٩ - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٧٣/٦) (٣٣٠٣٧) حدثنا ابن علي عن يونس عن الحسن أن عيوناً لمسلمة أخذوا رجلين ... وعبد الرزاق في تفسيره (٣٦٢/٢) عن معمر قال: سمعت أن لمسلمة ... فذكره قلت: وهذا إسناد معضل.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن أبي شيبة قال: حدثنا إسماعيل بن علي، عن يونس، عن الحسن «أن عيوناً لمسلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه وقال: إني أصم، فأعاد عليه، فقال مثله، فأمر بقتله. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فأرسله. فأتى النبي ﷺ فقال: هلكت. فقال: وما شأنك؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه فقال: أما صاحبك فمضى على إيمانه. وأما أنت فأخذت بالرخصة. وأخرجه عبد الرزاق في التفسير عن =

استحبابهم الدنيا على الآخرة، واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾: الكاملون في الغفلة، الذين لا أحد أغفل منهم؛ لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومتناها.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾: دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، ومعنى: إِنَّ رَبَّكَ لَهُمْ، أنه لهم لا عليهم، بمعنى: أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محمياً منفعاً غير مضرور، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾: بالعذاب والإكراه على الكفر، وقرئ: (فتنوا): على البناء للفاعل، أي: بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه، ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾: من بعد هذه الأفعال وهي الهجرة والجهاد والصبر، ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾: منصوب برحيم. أو بإضمار اذكر.

فإن قلت: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟

قلت: يقال لعين الشيء وذاته نفسه، وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها وذاتها، فكانها قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره، كل يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها؛ كقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَصْلُونَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ونحو ذلك.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا؛ فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن تراد قرية مقدرة على

 = معمر قال: سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه. وذكر الواحد في المغازي أن اسم المقتول: حبيب بن زيد عم عباد بن تميم، واسم الآخر: عبد الله بن وهب الأسلمي. قال: وكان في الساقة. وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار.

هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها، فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها، ﴿مُطْمَئِنَّةٌ﴾: لا يزعجها خوف؛ لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج والقلق مع الخوف، ﴿رَعْدًا﴾: واسعاً، والأنعم: جمع نعمة، على ترك الاعتداد بالثناء، كدرع وأدرع، أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس، وفي الحديث، نادى منادي النبي ﷺ بالموسم بمنى: «إِنَّهَا أَيَّامُ طَعْمٍ وَنَعْمٍ فَلَا تَصُومُوا» (٨٤٠).

فإن قلت: الإذاقة واللباس استعارتان، فما وجه صحتهما؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار، فما وجه صحة إيقاعها عليه^(١)؟

٨٤٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٤٨) غريب جداً، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا.

(١) قال محمود: «إن قلت الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحة إيقاع الإذاقة على اللباس... إلخ؟» قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالجر، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رِيحَتْ بِحَنَرُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها، ثم جاء ملاحظاً للشراء المستعار قوله ﴿فَمَا رِيحَتْ بِحَنَرُهُمْ﴾ فاستعمل التجارة والربح ليناسب ذلك لاستعارة الشراء، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة الأصلية المستعار لها قوله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فإنه مجرد عن الاستعارة، إذ لو قيل أولئك الذين ضلوا وما كانوا مهتدين، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة والنظر إلى المستعار في بابه، كترشيع المجاز في بابه. ومنه [من الوافر]:

إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقناه بالحبل التوام
فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً ثم نافقاً، ثم جعله مستخرجاً بالحبل المحكم المثني كما يستخرج الحيوان من جحره، والشوط في هذا الفن البديع فطين، والله الموفق. انتهى.

من قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَإِذَا قَهَّ اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ يَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. استعارة في «الإذاقة واللباس» وقد بين المفسر العلامة هذه الاستعارة بما لها وما عليها.

ولكن ما معنى الترشيح والتجريد؟

الترشيح: ذكر ملائم المستعار منه أي المعنى الحقيقي وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رِيحَتْ بِحَنَرُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

فقوله سبحانه: «اشترؤا» استعارة للاستبدال ثم مضى على هذا المعنى فذكر «ريحت» و«تجارتهم» وبهذا يكون قد نظر إلى المستعار منه.

وفي الترشيح تقوية لأنه تصور للمستعار له كأنه داخل في دائرة المستعار منه بهذا الترشيح. وبهذه التقوية تكون المبالغة، ولهذا كان مبناء التناسي للتشبيه، وعلينا أن ننظر في الآية السابقة، وكذلك قول أبي تمام [من المقارب]:

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء.

التجريد: عكس الترشيح أي الإتيان بما يلائم المستعار له ومنه الآية التي في صدر البحث.

يقول القزويني - رحمه الله -:

قال - أذاقها - ولم يقل - كساها - فإن المراد بالإذاقة أصابتهم بما استعير له اللباس، كأنه قال: =

قلت: أما الإذاقة: فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة؛ لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر، وأذاقه العذاب: شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع^(١)، وأما اللباس: فقد شبه به؛ لاشتماله على اللابس: ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة: «عما يغشى منهما» ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيهما من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان لا بد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدتهما:

أحدهما: أن ينظروا فيه المستعار له، كما نظر إليه ههنا؛ ونحوه قول كُتِبَ [من الكامل]:
عَمُرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلِقَتْ لِضِخْكَيْهِ رِقَابُ الْمَالِ^(٢)

= «فأصابها الله بلباس الجوع والخوف»، ثم ذكر كلام الزمخشري في الآية ثم أورد اعتراضاً فقال: «فإن قيل: الترشيح أبلغ من التجريد فهلا قيل: فكساها الله لباس الجوع والخوف؟ قلنا: لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس، فكان في الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة».

فإن قيل: «لم لم يقل - فأذاقها الله طعم الجوع والخوف؟ قلنا لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة فهو مفوت لما يفيد لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عمّ أثرهما جميع البدن عموم الملابس» فإذا لم يوجد الملائم أصلاً أو وجد ملائم للمستعار منه وللمستعار له فالمجاز «الاستعارة» تكون مطلقة، وقد جعلها البلاغيون قسماً ثالثاً لهذا التقسيم باعتبار الملائم الخارجي ومثالها: «عندي أسد».

هذا، وكلام الزمخشري في هذا الملائم يشعر بأن هذا الفن من أجمل الفنون وأبلغها، وإنه يبلغ من الحسن والرونق - إذا وقع موقعه - ما لا تراه لسواه، وينظر كلامه في آية البقرة المرسحة وسواء كان الترشيح للمجاز المفرد أو المركب

والترشيح عند الزمخشري وتبعه أبو السعود من لف نحوهم لا يكون استعارة، وهو كلام صحيح لأن مبنى هذا على التقوية التي لا تكون إلا بالحقيقة كما صدرت نحوه أول الكلام.

والعلامة المفسر قد بين هذه المعاني كلها في عرضه للآيات التي يرد منها الاستعارة بهذا المفهوم الذي عرضه، والله الموفق للصواب.

«ينظر الإيضاح ٩٩/٥ وما بعدها، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥٠٢ وما بعدها والمفتاح للسكاكي ١٨٢، والمطول للسعد ٣٧٧ وما بعدها. وفتح القدير للشوكاني ٢٠٠/٣، وروح المعاني للألوسي ٢٤٣/١٤، ٢٤٤».

(١) قوله: «بما يدرك من الطعم المر والبشع» عبارة غيره: طعم المر والبشع، ولعله المر البشع بدون واو (ع).

(٢) لكثير. والغمر: الكثير. وشبه العطاء بالرداء، لأنه يصون عرض صاحبه أو يستر فقر السائل، فاستعاره له على سبيل التصريحية وإضافة الغمر إليه تجريد، لأنه يلائم المشبه. هذا وقد يقال الغمر، يطلق على الماء الذي يغمر قامة المنغمس فيه، فيجوز أنه يشبه العطاء من حيث صونه عرض صاحبه بالرداء، فيكون استعارة مصرحة، وتكون إضافة الغمر إليه من إضافة المشبه به =

استعارة الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقي عليه، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف^(١) والنوال، لا صفة الرداء، نظر إلى المستعار له.

والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار؛ كقوله [من الوافر]:

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرٍو بْنَ بَكْرِ
لِي الشُّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونَكَ فَأَعْتَجِزْ مِنْهُ بِشُطْرٍ^(٢)

أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقليل: فكساهم لباس الجوع والخوف، ولقال كثير: ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكاً، ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾: في حال/ ١٩٧ أ التباسهم بالظلم؛ كقوله: ﴿الَّذِينَ تَوَقَّعْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨]، نعوذ بالله من مفاجأة النعمة والموت على الغفلة، وقرئ: (والخوف): عطفاً على اللباس، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله: ولباس الخوف، وقرئ: «لباس الخوف والجوع».

﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ
فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها: وسوء صنيعها، وصل

للمشبه، بجامع عموم كل ونفعه، والقرينة على كل ذلك قوله: إذا تبسم. شارعاً في الضحك. غلقت لضحكته رقاب المال: يقال: غلق الرجل إذا ضجر وغضب، وغلق الرهن إذا ملكه المرتهن ولم يقدر صاحبه على فكه، وكانت تلك عادتهم. فالمعنى: إذا ضحك غضبت الأموال لعلمها أنها ستؤخذ ويملكها غيره، أو ثبتت في أيدي السائلين وملوكها. ورقاب المال: مجاز مرسل، أي أعيانه.

ينظر: ديوانه ص ٢٨٨، ولسان العرب (غمر) (ضحك) (ردى)، وتهذيب اللغة ٨/ ١٢٨.

(١) قوله: «ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف» في الصحاح الغمر الماء الكثير. وفيه «الاعتجار» لف العمامة على الرأس، وفيه «الضافي» السابغ (ع).

(٢) استعار المنازعة لتسبيه في امتداد السيف إليه حتى توسط بينهما، كالشيء يتجاذبه اثنان. واستعار الرداء للسيف بجامع حفظ كل لصاحبه وعدم الاستغناء عنه. والاعتجار ترشيح، ومعناه: التعمم أو التلغف، فهو ملائم للرداء. ويحتمل أن التركيب كله من باب التمثيل. وعبد عمرو: فاعل. ورويدك: اسم فعل، بمعنى أمهل، والكاف حرف خطاب، قاله الجوهري. وبالنظر لأصله فهو مصدر، والكاف مضاف إليه، وفيه التفات. وبكر: أبو قبيلة. والشطر الذي ملكته يمينه: هو مقبض السيف. ودونك: اسم فعل بمعنى خذ، أي خذ فتلفع منه بالشطر الآخر وهو صدره، والأمر للإباحة، وفيه نوع تهكم.

بذلك بالفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا﴾: صدّهم عن أفعال الجاهلية، ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب، وشكر إنعامه بذلك، وقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: تطيعون، أو: إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة؛ لأنها شفعاؤكم عنده، ثم عدد عليهم محرمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم، دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١١٧) مَنَعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٨﴾

وانتصاب ﴿الْكَذِبَ﴾: بلا تقولوا، على: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئَةِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله أو إلى قياس مستند إليه، واللام مثلها في قولك: ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام، وقوله: ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾: بدل من الكذب، ويجوز أن يتعلق بـ «تصف» على إرادة القول، أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم، فتقول هذا حلال وهذا حرام، ولك أن تنصب الكذب بـ «تصف»، وتجعل «ما»: مصدرية، وتعلق: (هذا حلال وهذا حرام): بلا تقولوا، على: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب، أي: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم، لا لأجل حجة وبينه؛ ولكن قول ساذج ودعوى فارغة.

فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟

قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم، فقد حلت الكذب بحليته وصوّرت بصورته؛ كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، وقرئ: (الكذب): بالجرّ صفة لما المصدرية، كأنه قيل: لوصفها الكذب، بمعنى: الكاذب؛ كقوله تعالى: (بدم كذب)، والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة، وقرئ: (الكذب): جمع كذوب بالرفع؛ صفة للآلئسة، وبالنصب على الشتم، أو بمعنى: الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذاباً: ذكره ابن جني، واللام في ﴿لِنُفْتَرُوا﴾: من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض، ﴿مَنَعٌ قَلِيلٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨)

﴿مَا فَصَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يعني: في سورة الأنعام.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ يَجْعَلُهُمْ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩)

﴿يَجْعَلُهُمْ﴾: في موضع الحال، أي: عملوا سوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم، ﴿وَمِنْ بَعْدِهَا﴾: من بعد التوبة.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢١) ﴿وَمَا تَكُنْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٢) ﴿كَانَ أُمَّةً﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أنه كان وحده أمة من الأمم^(١)؛ لكمالها في جميع صفات الخير؛ كقوله [من السريع]

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(٢)
وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار.

والثاني: أن يكون أمة بمعنى: مأموم، أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى: مؤتمر به كالرحلة^(٣) والنخبة، وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى: مفعول،

(١) قال محمود: «في قوله أمة وجهان، أحدهما: أنه كان وحده أمة من الأمم... إلخ» قال أحمد: ويقوي هذا الثاني قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي كان أمة تؤمّه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته ووافق سيرته، والله أعلم.

(٢) قولاً لهرون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد أنت على ما بك من قدرة
ليس على الله بمستنكر
فلمست مثل الفضل بالوجد أن يجمع العالم في واحد

لأبي نواس يعطف هرون الرشيد على الفضل البرمكي حين توعده بالقتل، غيرة منه لما سمع من نهايته في الكرم، وخاطب الاثنين تأسيساً بعبادة العرب، والاحتفال: الاجتماع. والحاشد الجامع، وعلى بمعنى مع. أي: أنت مع كونك في غاية الاقتدار لست واجداً مثل الفضل في العالم كله، ودخلت الفاء في خبر المبتدأ لما فيه خبره من رائحة الشرط، أي: وإن كنت قادراً، ودخلت الباء في خبر ليس لتوكيد النفي، واستدل على ذلك بقوله: ليس مستنكراً على الله جمعه خصال العالم كلها في رجل واحد كالفضل، هذا ما يتبادر منه ظاهر النظم، لكنه خلاف مقتضى مقام الاستعفاف، فالمعنى فلا يكن منك غيرة من الفضل، فإن كرمه بعض صفاتك، فإن الله قادر على جمع صفات العالم كلها فيك، وقد فعل. ويروى: من الله بدل على الله. ويروى: بمستبدع، بدل بمستنكر.

ينظر ديوانه (٣٤٩/١)، وشرح قطر الندى ص ١١٤.

(٣) قوله: «كالرحلة» في الصحاح «الرحلة» بالضم: الوجه الذي تريده، وبالكسر: الارتحال (ع).

فيكون مثل قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وروى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعي عن ابن مسعود أنه قال: إِنْ مَعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانَتْهُ اللَّهُ، فَقُلْتُ: غَلَطْتُ؛ إِنَّمَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ: الْأُمَّةُ: الَّذِي يَعْلَمُ الْخَيْرَ، وَالْقَانَتْ الْمَطِيعَ لِلَّهِ وَرَسُولَهُ، وَكَانَ مَعَاذَ كَذَلِكَ (٨٤١)، وَعَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ - حِينَ قِيلَ لَهُ: أَلَا تَسْتَخْلِفُ؟ -: لَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ حَيًّا لَأَسْتَخْلَفْتُهُ، وَلَوْ كَانَ مَعَاذَ حَيًّا لَأَسْتَخْلَفْتُهُ، وَلَوْ كَانَ سَالِمٌ حَيًّا لَأَسْتَخْلَفْتُهُ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «أَبُو عُبَيْدَةَ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَعَاذُ أُمَّةٍ قَانَتْ لِلَّهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الْمُرْسَلُونَ، وَسَالِمٌ شَدِيدُ الْحُبِّ لِلَّهِ، لَوْ كَانَ لَا يَخَافُ اللَّهَ لَمْ يَغْصِهِ» (٨٤٢)، وَهُوَ ذَلِكَ الْمَعْنَى، أَي: كَانَ

٨٤١ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٦٠/٢)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٦٦١/٧) (٢١٩٨٤)، والحاكم في مستدركه (٢٧٢/٣)، والطبراني في «الكبير» (٧٠/١٠ - ٧١) (٩٩٤٣ و ٩٩٤٤) من طرق عن فراس عن الشعبي عن مسروق قال: قرئت عند ابن مسعود ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمُ كَانَ...﴾

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

قلت: وفراس هو ابن يحيى أبو يحيى الخارفي الكوفي المُكْتَب، وثقه أحمد، ويحيى بن معين، والثَّسائي، والعجلي وآخرون. وقال علي ابن المديني عن يحيى بن سعيد القطان: ما أنكرت من حديثه إلا حديث الاستبراء... واحتج به الجماعة وحديثه في الاستبراء لم يخرجه الشيخان. راجع تهذيب الكمال (١٥٢/٢٣) (٤٧١٢) وأخرجه أيضاً الحاكم (٢٧١/٣ - ٢٧٢)، والطبراني في الكبير (٧٢/١٠) (٩٩٤٧)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٦٦٠/٧) (٢١٩٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٠/١)، من طريق إسماعيل بن علي عن منصور بن عبد الرحمن عن الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إِنْ مَعَاذًا كَانَ أُمَّة... وقال الهيثمي في المجمع (٧/٥٢)...

رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية، من رواية علي عن منصور عن عبد الرحمن عن الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود، فذكره. لكن ليس فيه: فقلت له: «غلطت» بل فيه فقليل له: إِنْ إِبْرَاهِيمُ. وفيه: «وكان معاذ بن جبل يعلم الناس الخير. وكان مطيعاً لله ورسوله»، ورواه الحاكم أيضاً من رواية شعبة عن فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله قال: «إِنْ مَعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانَتْهُ اللَّهُ» فقال رجل من أشجع يقال له: فروة بن نوفل: إِنَّمَا ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ. فقال عبد الله: إِنَّا كُنَّا نَشْبِهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ - الْحَدِيثُ - وأخرجه عبد الرزاق. ومن طريق الحاكم قال: أخبرنا الثوري عن فراس نحوه. انتهى.

٨٤٢ - بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٥٠/٢)، وقال ابن حجر: لم أجده. قلت: وبعض فقرات الحديث صحيحة. قوله: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة».

أخرجه البخاري (١١٦/٧) كتاب فضائل الصحابة باب مناقب أبي عبيدة حديث (٣٧٤٤) وفي (٧/٦٩٦) كتاب المغازي: باب قصة أهل نجران حديث (٤٣٨٢) وفي (٢٤٥/١٣) كتاب أخبار الآحاد: باب ما جاء في إجازة خبر الواحد... حديث (٧٢٥٥)، ومسلم (١٨٨١/٤) كتاب فضائل الصحابة: باب فضل أبي عبيدة بن الجراح حديث (٢٤١٩/٥٣)، والترمذي (٦٦٥/٥) كتاب =

إماماً في الدين؛ لأن الأئمة معلمو الخير، والقانت: القائم بما أمره الله، والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه، ونفي عنه الشرك؛ تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم، ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾: روي أنه كان لا يتغذى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخلعوا له أن بهم جذاماً؟ فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاككم، ﴿أَجَبْتُهُ﴾: اختصه واصطفاه للنبوّة، ﴿وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: إلى ملة الإسلام، ﴿حَسَنَةً﴾: عن قتادة: هي تنوبه الله بذكره، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه، وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم، ﴿لَيْنَ الصَّلَاتِينَ﴾: لمن أهل الجنة.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٢)

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: في «ثم»: هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجل ما أولي من النعمة: اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

= المناقب: باب مناقب معاذ بن جبل... حديث (٣٧٩١)، وأحمد (١٣٣/٣)، ١٨٩، ٢٤٥، (٢٨١)، وأبو يعلى (١٩٠/٥) رقم (٢٨٠٨)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢٩٩/١/٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٧٥/٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٢١٤/٧) - بتحقيقنا) كلهم من طريق خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس مرفوعاً بلفظ: «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح» وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه مسلم (١٨٨١/٤) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح حديث (٥٤/٢٤١٩) وأحمد (١٢٥/٣)، ١٤٦، ١٧٥، ٢١٢، (٢٨٦) من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به.
قال الحافظ: لم أجده. انتهى.

(١) عاد كلامه. قال محمود: «وفي ثم هذه ما فيها من تعظيم منزلة محمد ﷺ... إلخ» قال أحمد: وإنما تفيد ذلك ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلاً مما عطف عليه، فكانه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى: وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً وأرفع رتبة وأبعد رفعة، وهو أن النبي الأمي الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلو أمره بذلك في القرآن العظيم. ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً، لكن نصيب النبي ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر على ما مهدناه، والله الموفق للصواب.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١١٢)

﴿السَّبْتُ﴾: مصدر سبنت اليهود إذا عظمت سبتها، والمعنى: إنما جعل وبال السبت وهو المسخ ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه، والمعنى في ذكر ذلك، نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً، / ١٩٧ ب وغير ما ذكر، وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته.

فإن قلت: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرمين؟

قلت: معناه: أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرمين أخرى، ووجه آخر: وهو أن موسى - عليه السلام - أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت؛ لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك، وهو يحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه، ومعنى: «جعل السبت»: فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه، وقرئ: «إنما جعل السبت»: على البناء للفاعل، وقرأ عبد الله: «إنا أنزلنا السبت».

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّلْهُمْ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنَّةِ ﴾ (١٢٥)

﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: إلى الإسلام، ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾: بالمقالة المحكمة الصحيحة؛ وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾: وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها، ويجوز أن يريد القرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة، ﴿وَحَدِّلْهُمْ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ﴾: بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الفرق واللين، من غير فظاظ ولا تعنيف، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾: بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الجليل، وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَصْبِرْ
وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

سمي الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة، والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه، وقرئ: «وإن عقبتهم فعقبوا» أي: وإن قفيتهم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم، روي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به، وروي: فرآه بمقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به، لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك» (٨٤٣)؛ فنزلت، فكفر عن يمينه وكفَّ

٨٤٣ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٥٠) (٦٨٨): غريب بهذا اللفظ وذكره الثعلبي هكذا من غير سند.

قلت: وقصة حمزة وردت عن:

- أبي هريرة:

أخرجه ابن سعد في الطبقات (٩/٣)، والحاكم في المستدرک (٣/١٩٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/٢٨٨)، كلهم من طريق صالح المري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة، وسكت عنه الحاكم: وقال الذهبي صالح واه، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/١٢٢) وقال: رواه البزار والطبراني، وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف.

قلت: وتحرف في المطبوع من «المجمع» «صالح بن بشير المري» إلى «صالح بن بشير المزني» والصحيح ما أثبتناه. والله المستعان.

والحديث عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٥٥) وابن المنذر وابن مردويه.

- عبد الله بن عباس:

أخرجه الدارقطني في سننه (٤/١١٨) من حديث إسماعيل بن عياش عن عبد الملك بن أبي عتبة أو غيره عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد عن ابن عباس... فذكره، والحاكم في المستدرک (٣/١٩٧) - (١٩٨) من طريق أبي بكر بن عباس عن يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس به، وسكت عنه الحاكم - وقال الذهبي: سمعه أبو بكر بن عياش من يزيد وليس بمعتدين. وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/٦٢) (١١٠٥٠ و ١١٠٥١) من طريقين عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد عن ابن عباس به.

قلت: وكلا الطريقين عند الطبراني فيهما ضعف.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثعلبي بغير سند. وقصة حمزة أخرجه البزار والطبراني من رواية سليمان التيمي عن ابن عثمان عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ نظر يوم أحد إلى حمزة وقد قُتل ومثل به، فرأى منظراً لم ير قط أوجع لقلبه منه، وذكر باقي الحديث أتم مما ذكره هنا ورواية صالح سهو عن سليمان، وصالح ضعيف، وله طريق أخرى أخرجه الدارقطني من رواية إسماعيل بن عباس قال: «لما انصرف =

عما أَرادَه، ولا خلاف في تحريم المثلة، وقد وردت الأخبار بالنهي عنها (٨٤٤) حتى

= المشركون عن قتلي أحد فرأى رسول الله ﷺ بعِمه حمزة منظرًا أَساءه، وقد شق بطنه واصطلم أنفه - فذكر القصة «فيها:» لأمثلن مكانه بسبعين رجلاً. وذكر الصلاة عليه وعلى القتلى. قال: فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة - الآية) فصبر ولم يمثل بأحد قال الدارقطني: تفرد به إسماعيل وهو ضعيف عن غير الشاميين. قلت: وأما أول الكلام فذكره. انتهى.

٨٤٤ - ورد من حديث جماعة منهم: عمران بن الحصين، سمرة بن جُندب، وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن يزيد الأنصاري وأنس وبريدة والمغيرة بن شعبة وأسماء بنت أبي بكر وعلي بن أبي طالب وابن عباس وصفوان بن عسال وجريز بن عبد الله البجلي وأبو موسى الأشعري وأبو أيوب الأنصاري وزيد بن خالد الجهني ويعلی بن مرة والحكم بن عمير وعائذ بن قرط وعمر بن الخطاب.

- أما حديث عمران:

أخرجه أبو داود الطيالسي (ص ١١٢) حديث (٨٣٦) والخطيب في التاريخ (٣٠٧/٧) من طريق الحسن عن عمران بن حصين قال: «قلما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا فيها بالصدقة ونهانا عن المثلة» وقال: إن من المثلة أن ينذر أن يخرم أنفه ومن المثلة أن ينذر أن يحج ماشياً، فإذا نذر أحدكم أن يحج ماشياً فليهد هدياً وليركب. وهذا الإسناد منقطع. الحسن لم يسمع هذا الحديث من عمران وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٢٣/٩): كتاب الديات - باب المثلة في القتل حديث (٧٩٨٤) وأحمد (٤٢٨/٤) والبخاري في التاريخ الكبير (٢٤٢/٨) وأبو داود (١٢٠/٣) كتاب الجهاد - باب في النهي عن المثلة - حديث (٢٦٦٧) والبيهقي (٦٩/٩) كتاب السير - باب قتل المشركين بعد الأسار بضرب الأعناق دون المثلة. كلهم من رواية قتادة عن الحسن عن الهياج بن عمران عن عمران بن حصين قال: «كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة. واللفظ لأبي داود وقال أحمد: كان يحث في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة.

- وحديث سمرة:

أخرجه أحمد (١٢/٥، ٢٠) وأبو داود (١٢٠/٣)، كتاب الجهاد باب في النهي عن المثلة حديث (٢٦٦٧) والبيهقي (٦٩/٩) من قتادة عن الحسن عن الهياج بن عمران البرجمي أن عمران أبى له غلام فجعل الله عليه لثن قدر عليه ليقطعن يده فأرسلني لأسأل له فأتيت سمرة بن جندب فسألته فقال: «كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة» فأتيت عمران بن حصين فسألته فقال مثل ذلك.

- وحديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (١٣/٢، ١٠٣) والبخاري (٦٤٣/٩) كتاب الذبائح والصيد باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة حديث (٥٥١٥) والحاكم (٢٣٤/٤): كتاب الذبائح - باب النهي عن مثلة الحيوان. والبيهقي (٨٧/٩): كتاب السير - باب تحريم قتل ماله روح إلا بأن يذبح فيؤكل. من طريق سعيد بن جبير عن ابن عمر قال: «لعن رسول الله ﷺ من مثل الحيوان». وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين يخرجاه بهذه السياقة ووهم في ذلك فإنه عند البخاري بهذا اللفظ.

- وحديث عبد الله بن يزيد:

أخرجه البخاري (٦٤٣/٩)، كتاب الذبائح والصيد - باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة - حديث (٥٥١٦) والبيهقي (٦٩/٩) كتاب السير - باب قتل المشركين بعد الأسار بضرب الأعناق =

بالكلب العقور، إما أن رجع الضمير في ﴿فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ﴾ إلى صبرهم وهو مصدر

= دون المثلة وأحمد (٣٠٧/٤) عنه «أن رسول الله ﷺ نهى عن النبهة والمثلة».

- حديث أنس:

أخرجه النسائي (١٠١/٧) كتاب تحريم الدم - باب النهي عن المثلة. من طريق عبد الصمد ثنا هشام عن قتادة عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يحث في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة» ورواه أبو داود (٥٣٥/٤) كتاب الحدود - باب ما جاء في المحاربة حديث (٤٣٦٨) والبيهقي (٩/٦٩) كتاب السير - باب قتل المشركين بعد الأسار. من رواية ابن أبي عدي عن هشام عن قتادة عن أنس في قصة العرنيين وقال في آخره (ثم نهى عن المثلة).

ورواه البخاري (٤٥٨/٧): كتاب المغازي - باب قصة عكل وعرينة حديث (٤١٩٢) طريق يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بالقصة وفي آخره قال قتادة «وبلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة».

قال الحافظ في الفتح (٤٥٨/٧، ٤٥٩) وتبين بهذا أن في الحديث الذي أخرجه النسائي من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن هشام عن قتادة عن أنس إدراجاً وأن هذا القدر من الحديث لم يسنده قتادة عن أنس وإنما ذكره بلاغاً ولما نشط لذكر إسناده ساقه بوسائط إلى النبي ﷺ.

- حديث بريدة:

أخرجه أحمد (٣٥٨/٥) ومسلم (١٣٥٧/٣): كتاب الجهاد. باب تأمير الإمام الأمراء على البعث حديث (١٧٣١/٣) وأبو داود (٨٣/٣): كتاب الجهاد - باب في دعاء المشركين حديث (١٦١٢) والترمذي (٨٥/٣) كتاب السير. باب ما جاء في وصية النبي ﷺ في القتال حديث (١٦٦٦). وابن ماجه (٩٥٣/٢): كتاب الجهاد - باب وصية الإمام - حديث (٢٨٥٨) والبيهقي (٩/٦٩): كتاب السير - باب قتل المشركين بعد الأسار بضرب الأعناق دون المثلة. عنه قال «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً»

وقال الترمذي حسن صحيح.

- حديث المغيرة:

أخرجه ابن أبي شيبه (٤٢١/٩): كتاب الديات - باب المثلة في القتل - حديث (٧٩٧٩) وأحمد (٢٤٦/٤) والطبراني كما في مجمع الزوائد (٢٤٨/٦) عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن المثلة».

- حديث أسماء بنت أبي بكر:

أخرجه الطبراني كما في المجمع (٢٥٢/٦) عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن المثلة».

وقال الهيثمي ورجاله ثقات

- وحديث علي:

رواه الطبراني كما في المجمع (٢٥٢/٦) ولفظه «سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن المثلة ولو بالكلب العقور». وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده متقطع.

وحديث ابن عباس تقدم.

- وحديث صفوان بن عسال:

أخرجه أحمد (٢٤٠/٤) وابن ماجه (٩٥٣/٢): كتاب الجهاد - باب وصية الإمام - حديث (٢٨٥٧). =

صبرتم، ويراد بالصابرين: المخاطبون، أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع

= من طريق عبيد الله بن خليفة عن صفوان بن عسال قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فقال: سيروا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا». وذكره البوصيري في «الزوائد» (٤٢١/٢) وقال: هذا إسناد حسن. - حديث جرير:

أخرجه أبو يعلى (٤٩٣/١٣ - ٤٩٤) رقم (٧٥٠٥) والطبراني في الكبير (٢١٣/٢) رقم (٢٣٠٤) وفي الصغير (٤٤/١ - ٤٥) من طريق ابن لهيعة عن عبد ربه بن سعيد عن سلمة بن كهيل عن شقيق بن سلمة عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كان النبي ﷺ إذا بعث سرية قال: باسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان.

قال الطبراني: لا يروى عن جرير إلا بهذا الإسناد تفرد به ابن لهيعة. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٠/٥) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني في الثلاثة وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف وبقي رجاله ثقات وله طريق في «الكبير» ضعيفه ١. هـ قلت: وهذا الطريق أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٠٥) وفيه عبد الغفار بن القاسم أبو مريم وهو متروك. والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (١٥٠/٢) رقم (٩٦٠) وعزاه إلى أبي يعلى. وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١٥١/٢ - ١٥٢) رقم (١٩٤٨): سألت أبي عن حديث رواه أبو هارون البكاء عن ابن لهيعة عن عبد ربه بن سعيد عن سلمة بن كهيل عن شقيق بن سلمة عن جرير قال: كان رسول الله ﷺ إذا بايع بايع على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة لله ولرسوله والنصح لكل مسلم وإذا بعث سرية قال بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان. قال أبي ليس لهذا الحديث أصل بالعراق وهو حديث منكر.

وحديث أبي موسى الأشعري.

أخرجه البزار (٢٦٧/٢) رقم (١٦٧٤) والطبراني في «الصغير» (١٨٧/١) من طريق أحمد بن عثمان ابن حكيم الأودي ثنا عثمان بن سعيد المري ثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية قال: اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا ولا شيخاً كبيراً. وقال الطبراني: لم يروه عن أبي إسحق إلا إسرائيل ولا عنه إلا عثمان تفرد به أحمد بن عثمان بن حكيم.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٠/٥) وقال: رواه البزار والطبراني في الصغير والكبير ورجال البزار رجال الصحيح غير عثمان بن سعيد المسري وهو ثقة.

- حديث أبي أيوب:

أخرجه الطبراني كما في المجمع (٢٥٣/٦) من حديث يعقوب بن إسحاق الحضرمي ثنا شعبة بن عدي بن ثابت عن عبد الله بن يزيد الخطمي عن أبي أيوب الأنصاري قال: «نهى رسول الله ﷺ عن النهبة والمثلة» وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

- حديث زيد بن خالد:

أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٢٤٩/٦) من رواية ابن أبي ذئب عن مولى الجهينة عن عبد الرحمن بن زيد بن خالد عن أبيه عن النبي ﷺ «أنه نهى عن النهبة والمثلة» وقال الهيثمي: وفيه رواه لم يسم.

= - حديث يعلى بن مرة:

الصابرون موضع الضمير؛ ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، وإما أن يرجع إلى جنس الصبر - وقد دل عليه صبرتم - ويراد بالصابرين جنسهم، كأنه قيل: وللصبر خير للصابرين؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْسَحَ فَأَجْزَأُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَنْ تَقُفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ثم قال لرسوله ﷺ: ﴿وَأَصْبِرُوا﴾: أنت فعزم عليه بالصبر، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه وتثبيتته وربطه على قلبك، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الكافرين؛ كقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، أو على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾، وقرئ: «ولا تكن في ضيق»، أي: ولا يضيقن صدرك من مكرهم، والضيق: تخفيف الضيق، أي: في أمر ضيق، ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين، كالقيل والقول، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: هو ولي الذين اجتنبوا المعاصي، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾: في أعمالهم، وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّحْلِ لَمْ يُحَاسِبْهُ اللَّهُ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَإِنْ مَاتَ فِي يَوْمٍ ثَلَاثًا أَوْ لَيْلَةً، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَالَّذِي مَاتَ وَأَخْسَنَ الْوَصِيَّةِ» (٨٤٥).

= رواه أحمد (١٧٣/٤) قال: حدثنا عفان ثنا وهيب ثنا عطاء بن السائب عن يعلى بن مرة النعني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله عز وجل لا تمثلوا بعبادي». ورواه الطبراني من هذا الوجه أيضاً من رواية عطاء بن السائب كما في المجمع (٢٥١/٦) وقال: عطاء بن السائب اختلط حديث الحكم بن عمير وعائذ بن قرط. رواه الطبراني في الكبير عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «لا تمثلوا بشيء من خلق الله فيه الروح». وقال الهيثمي (٢٥٢/٦): رواه الطبراني وفيه سليمان بن سلمة الخبائري وهو متروك. - وحديث عمر:

رواه الطبراني في الصغير (٢٣٣/١): قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عيسى المعدي أبو عبد الرحمن ثنا عبد الله بن يزيد ثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعي ثنا يونس بن عبيد عن الحسن عن عمران بن حصين قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خطبنا رسول الله ﷺ فأمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة» قال الطبراني لم يروه عن الحسن عن عمران عن عمر إلا يونس بن عبيد ولا عنه إلا إسماعيل تفرد به عبد الله بن عمر بن يزيد، ورواه هشيم وغيره عن يونس عن الحسن عن عمران فقط.

وقال الهيثمي في المجمع (٢٥٢/٦) رواه الطبراني في الصغير وفيه من لم أعرفه.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

قلت روي ذلك عن جماعة من الصحابة.

٨٤٥ - ينظر حديث رقم (٣٤٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

رواه الثعلبي وابن مردويه وقد تقدم سنده في آل عمران.

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ ٢٦ وَ ٣٢ وَ ٣٣ وَ ٥٧،

وَمِنْ آيَةِ ٧٣ إِلَى غَايَةِ آيَةِ ٨٠ فَمَدَنِيَّةٌ] وَآيَاتُهَا ١١١ [نَزَلَتْ بَعْدَ الْقَصَصِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُم مِّنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١﴾

﴿سُبْحَنَ﴾: علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحانه، ثم نزل سبحانه منزلة الفعل فسد مسدده، ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله^(١)، و﴿أَسْرَى﴾: وسرى لغتان، و﴿لَيْلًا﴾: نصب على الظرف.

فإن قلت: الإسرائ لا يكون إلا بالليل، فما معنى: ذكر الليل^(٢)؟

(١) قوله: «القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله» يريد بهم أهل السنة القائلين بأنه تعالى هو الخالق لجميع الحوادث من أفعال العباد وغيرها، خيراً كانت أو شراً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن العبد هو الخالق لفعل نفسه حتى يكون مقدوراً له، فيصح تكليفه به، ولكن استند أهل السنة لمثل قوله تعالى ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وهذا لا ينافي اختيار العباد في أفعالهم، لأنهم أثبتوا لهم الكسب فيها، كما تقرر في علم التوحيد (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: الإسرائ لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل... إلخ؟» قال أحمد: وقد قرن الإسرائ بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله ﴿فَأَنزِلْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ وكقوله تعالى ﴿فَأَنزِلْ بِبَيْدَى لَيْلًا﴾ فالظاهر - والله أعلم - أن الغرض من ذكر الليل وإن كان الإسرائ يفيد تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكان الإسرائ لما دل على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً. أريد أفراد أحدهما بالذكر تثبيتاً في نفس المخاطب، وتنبهياً على أنه مقصود بالذكر. ونظيره في أفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره قوله تعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلَّهِ تَتَذَكَّرُونَ﴾ فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فأريد التنبيه لأن أحد المعنيين وهو التثنية مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأن الوجدانية هي المقصودة في قوله ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ ﴿١﴾ ولو اقتصر على قوله (إنما هو إله) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له، والغرض من الكلام ليس إلا الإثبات للوحدانية، والله أعلم.

قلت: أراد بقوله: (ليلاً) بلفظ التنكير: تقليل مدة الإسرائ، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة؛ وذلك أنَّ التنكير فيه قد دلَّ على معنى البعضية؛ ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: «من الليل»، أي: بعض الليل؛ كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً﴾ [الإسرائ: ٧٩]، يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل، واختلف في المكان الذي أسري منه فقيل: هو المسجد الحرام بعينه، وهو الظاهر، وروي عن النبي ﷺ: «بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحَجْرِ عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبُرَاقِ» (٨٤٦)، وقيل: أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام: الحرم؛ لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن/ ١٩٨ عباس: الحرم كله مسجد، وروي أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به^(١) ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانئ، وقال: «مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبت أم هانئ بثوبه فقال: مالك؟ قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: وإن كذبوني، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسرائ، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلم فحدثهم، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان قد آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك (٨٤٧)؛ فسمي الصديق، وفيهم من

٨٤٦ - أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤٥/٦) - كتاب بدء الخلق (٥٩) - باب ذكر الملائكة عليهم السلام (٦) - (٣٢٠٧). ومسلم (٤٩٠/١ - نووي) - كتاب الإيمان (١) - باب الإسرائ برسول الله ﷺ (٢٦٤) والترمذي (٤٤٢/٥) - كتاب تفسير القرآن (٤٨) - سورة «الم نشرح» (٣٣٤٦) مختصراً والتسائي (٢١٧/١) - كتاب الصلاة (٥) - باب فرض الصلاة - (٤٤٨). وفي الكبرى (١٣٨/١) - كتاب الصلاة الأول (٢) - باب فرض الصلاة (١) - (٣١٣) وابن خزيمة في صحيحه (١٥٣/١) - كتاب الصلاة - باب بدء فرض الصلوات الخمس (٣٠١). وقال الحافظ في الكشف: متفق عليه من حديث مالك بن صعصعة مطولاً. انتهى.

٨٤٧ - قال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند، وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.

وأخرجه التسائي في الكبرى (٣٧٧/٦ - ٣٧٨) - كتاب التفسير - سورة الإسرائ - (١١٢٨٥) من طريق عوف بن أبي جميلة عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس مرفوعاً «لما كان ليلة أسري...» وأخرجه الحاكم في المستدرک (٧٦/٣ - ٧٧) - كتاب معرفة الصحابة - من حديث عائشة وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٣٢/٢٤) (١٠٥٩)، وابن سعد في الطبقات (١٦٦/١ - ١٦٧) كلاهما من حديث أم هانئ من طرق مختلفة. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشف (٢٥٨/٢) لأبي يعلى الموصلي في مسنده ولم أجده، فلعله من المفقود - والله المستعان -.

ونقل الزيلعي عن ابن دحية في كتابه المسمى «بالتنوير في مولد السراج المنير» قال: وقد ورد =

سافر إلى ماثم، فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورك، فخرجوا يشهدون ذلك اليوم نحو الشية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورك كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشاً - أيضاً - بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى، واختلفوا في وقت الإسراء، فقل: كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام، فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «والله، ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه» (٨٤٨)، وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رآها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك، والمسجد الأقصى: بيت المقدس؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾: يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وقرأ الحسن: «ليريه»: بالياء، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم، فقل: أسرى ثم باركنا ثم ليريه، على قراءة الحسن: «ثم من آياتنا»، «ثم إنه هو»، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لأقوال محمد ﴿الْبَصِيرُ﴾: بأفعاله، العالم بتهذيبها وخلوصها، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

= حديث الإسراء من رواية عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قرط، وأبي حبة، وأبي ليلي الأنصاري، وعبد الله بن عمرو، وجابر الأنصاري وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وعائشة وأختها أسماء، وأم هاني. منهم من رواه بطوله ومنهم من اختصره. أ.هـ.

٨٤٨ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٦/٨) (٢٢٠٣٣)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٨٨) لابن إسحاق، وذكره ابن هشام في سيرته (٧/٢)، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/١١٠). قلت: وهذا متن منكر، فقد صحت الروايات المرفوعة والموقوفة بالإسراء جسداً وروحاً. وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف:

ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند، وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، ثم رأيت من رواية جرير عن الضحاك عن ابن عباس. أخرجه الحاكم والبيهقي عنه، لكن لم يسبق لفظه. وقد رواه الثنائي باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس، وأورده ابن سعد وأبو يعلى والطبراني من حديث أم هانئ مطولاً. انتهى.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾: قرئ بالياء على: «لثلا يتخذوا»، وبالتاء على: أي لا تتخذوا؛ كقولك: كتبت إليه أن أفعل كذا، ﴿وَكِيلًا﴾: ربا تكلون إليه أموركم، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾: نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ: ﴿لا تتخذوا﴾: بالتاء على النهي، يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلًا يا ذرية من حملنا، ﴿مَعَ نُوحٍ﴾: وقد يجعل (وكيلًا ذرية من حملنا) مفعولي تتخذوا، أي: لا تجعلوهم أربابًا؛ كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ آزِبًا﴾ [آل عمران: ٨٠] ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير - عليهم السلام - وقرئ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾: بالرفع بدلًا من واو (تتخذوا)، وقرأ زيد بن ثابت: «ذرية»: بكسر الذال، وروي عنه أنه قد فسرهما يولد الولد، ذكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق، ﴿إِنَّهُمْ﴾: إن نوحًا ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظماني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني، ولو شاء أعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني، ولو شاء أحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية، ولو شاء حبسه، وروي أنه كان إذا أراد الإفطار، عرض طعامه على من آمن به، فإن وجده محتاجًا أثره به.

فإن قلت: قوله: «إنه كان عبدًا شكورًا» ما وجه ملاءمته لما قبله؟

قلت: كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلًا، ولا تشركوا بي؛ لأن نوحًا - عليه السلام - كان عبدًا شكورًا، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آبائكم أسوتهم، ويجوز أن يكون تعليقًا لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح، فهم متصلون به، فاستأهلوا لذلك الإختصاص، ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَّ عَلُورًا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيكَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ

نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾: وأوحينا إليهم وحياً مقضياً، أي: مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة، ويعلون، أي: يتعظمون ويبغون، ﴿في الكتاب﴾: في

التوراة، و﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾: جواب قسم محذوف، ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم، فيكون (لتفسدن): جواباً له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن، وقرئ: «لتفسدن»، على البناء للمفعول، «ولتفسدن»: بفتح التاء من فسد، ﴿مَرَّتَيْنِ﴾: أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخر: قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم، ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾: وقرئ: «عبيداً لنا»، وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده^(١)، وقيل بختنصر، وعن ابن عباس: جالوت: قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة، وخرّبوا المسجد، وسبوا منهم سبعين ألفاً.

فإن قلت: كيف جاز أن يبعث الله الكفرة^(٢) على ذلك ويسلطهم عليه^(٣)؟

قلت: معناه: خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم، على أن الله - عزّ وعلا - أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] وكقول الداعي، / ١٩٨ ب وخالف بين كلمهم، وأسند الجوس وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد، وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم، وقرأ طلحة: (فحاسوا): بالحاء وقرئ: «فجوسوا»، وخلل الديار.

فإن قلت: ما معنى: ﴿وَعَدُ أُولَئِهِمَا﴾؟

قلت: معناه وعد عقاب أولاهما ﴿وَكَاثَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ يعني: وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا﴾ أي: الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، قيل هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم، ورجوع الملك إليهم، وقيل: هي قتل داود جالوت، ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾: مما كنتم، والتنفير، من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نفر كالعبيد والمعيز.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْئَلُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ ﴿٧﴾

(١) قوله: «سنحاريب وجنوده» كان ملك بابل، وبختنصر هو ابن ابنه، وكان من كتابه. كذا في الخازن (ع).

(٢) قوله: «فإن قلت كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك» مبني على أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده. وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة كل كائن فهو فعله ومراده ولو شراً، فلا سؤال (ع).

(٣) قال محمود: «إن قلت كيف جاز أن يبعث الله الكفرة... إلخ» قال أحمد: هذا السؤال إنما يتوجه على قدر يوجب على الله تعالى بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة. وأما السني إذا سئل هذا السؤال أجاب عنه بقوله: ﴿لا يسئل عما يفعل﴾ والله الموفق.

أي: الإحسان والإساءة: كلاهما مختص بأنفسكم، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم، وعن عليّ - رضي الله عنه -: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه، وتلاها، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ﴾: المرة ﴿الْآخِرَةَ﴾: بعثناهم^(١)، ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾: حذف لدلالة ذكره أولاً عليه، ومعنى ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها؛ كقوله: ﴿سَيَبْتَ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٢٧] وقرئ: «ليسوء» والضمير لله تعالى؛ أو للوعد، أو للبعث، «ولنسوء»: بالنون، وفي قراءة عليّ: «لنسوان»، «وليسو أن» وقرئ: «لنسو أن»: بالنون الخفيفة، واللام في ﴿وَلِيَدْخُلُوا﴾: على هذا متعلق بمحذوف، وهو: وبعثناهم ليدخلوا، ولنسوان: جواب إذا جاء، ﴿مَا عَلُوا﴾: مفعول ليتبروا، أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه، أو بمعنى: مدة علوهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾: بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي، ﴿وَإِنْ عُذْتُمْ﴾: مرة ثالثة؛ ﴿عُدْنَا﴾: إلى عقوبتكم وقد عادوا، فأعاد الله إليهم النقمة، بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم، وعن الحسن عادوا فبعث الله محمداً، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحي من العرب، فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾: محصر وحصير، وعن الحسن: بساطاً كما يسط الحصير المرمول^(٢).

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾

﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾: للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها، أو للملة، أو للطريقة، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه، وقرئ: «ويبشر»: بالتخفيف.

(١) قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ﴾ المرة (الآخرة) بعثناهم: أي عبادنا وهم في هذه المرة؛ الفرس والروم، بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له خروش. حتى دخل الشام بجنود فقتل وسبى. حتى كاد يفني بني إسرائيل، وبقي منهم بقايا حتى كثروا، وكانت لهم الرياسة في بيت المقدس إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم ططوس بن أسبانيوس الرومي فحرب بلادهم وطردهم عنها، وبقي بيت المقدس خراباً إلى خلافة عمر بن الخطاب، فعمره المسلمون بأمره. اهـ من الخازن (ع).

(٢) قوله: «كما يسط الحصير المرمول» أي المنسوج، أفاده الصحاح (ع).

فإن قلت: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة؟

قلت: كان الناس حينئذ إما مؤمن تقي، وإما مشرك؛ وإنما حدث أصحاب المنزل^(١) بين المنزلتين بعد ذلك.

فإن قلت: علام عطف: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ؟﴾

قلت: على ﴿أَنَّ لَمْ أَجْزَأَ كَيْدًا﴾: على معنى: أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بشوابهم، وبعقاب أعدائهم، ويجوز أن يراد: ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْغُولًا﴾ ﴿١١﴾

أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله، كما يدعوهم للخير؛ كقوله: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَاهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ يونس: ١١. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْغُولًا﴾: يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله، لا يتأنى فيه تأني المتبصر، وعن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً، فأقبل يثن بالليل، فقالت له: مالك تنن؟ فشكا ألم^(٢) القد، فأرخت من كتافه، فلما نامت، أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي ﷺ دعا به فأعلم بشأنه، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَقْطَعْ يَدَيْهَا» فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة، وأن يقطع الله يديها، فقال النبي ﷺ: «إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لَعْنَتِي وَدُعَائِي عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ مِنْ أَهْلِي رَحْمَةً لَأَنِّي بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَلْتَرُدَّ سَوْدَةُ يَدَيْهَا» (٨٤٩) ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر، وأنه يدعو بالعذاب استهزاء

٨٤٩ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٦٠): غريب من حديث سودة. وقال ابن حجر: لم أجده من هذه الجهة. قلت: وأخرج أحمد في المسند (٣/١٤١) ثنا زيد بن الحباب حدثني حسين بن واقد حدثني ثابت البناني حدثني أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ دفع إلى حفصة ابنة عمر رجلاً فقال احتفظي به... فذكر الحديث.

وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢٦٩ - ٢٧٠): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح وأخرجه البيهقي في الكبرى (٩/٨٩) - كتاب السير - باب الأسير يوثق - من حديث عائشة أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير وعندها نسوة... وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف، للواقدي في كتاب المغازي، وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجده من هذه الجهة، وقد أخرجه الواقدي في المغازي من رواية ذكوان عن عائشة «أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير، وقال لها: احتفظي به. قالت: فلهوت مع امرأة فخرج ولم أشعر. فدخل يسأل عنه فقلت: والله ما أدري. فقال: قطع الله يدك، فذكر نحو ما تقدم. ورويناه في الجزء =

(١) قوله: «وإنما حدث أصحاب المنزل» يعني الفسقة. وإثبات الوساطة مذهب المعتزلة دون أهل السنة، فإن الفسق لا يزيل الإيمان عندهم (ع).

(٢) قوله: «فشكا ألم القد» في الصحاح «القد» بالكسر: سير يقدر من جلد غير مدبوغ (ع).

ويستعجل به، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة، وكان الإنسان عجولاً، يعني: أن العذاب آتية لا محالة، فما هذا الاستعجال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية، فأجيب له، فضربت عنقه صبراً.

﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (١٢)

فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين، كإضافة العدد إلى المعداد، أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة.

والثاني: أن يراد: وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين، يريد الشمس والقمر، فمحونا آية الليل، أي: جعلنا الليل ممحو الضوء مظموسه مظلماً، لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح المحو، وجعلنا النهار مبصراً، أي: تبصر فيه الأشياء وتستبان، أو فمحونا آية الليل: التي هي القمر؛ حيث لم يخلق لها شعاعاً كشعاع الشمس، فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء، ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معاشكم، ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾: باختلاف الجديدين، ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾: جنس، ﴿وَالْحِسَابَ﴾: وما تحتاجون إليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات، ولتعطلت الأمور، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾: مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم، ﴿فَضَّلْنَاهُ﴾: بيناه بياناً غير ملتبس، فأزحنا علكم؛ وما تركنا لكم حجة علينا.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْفِهِ وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

﴿طَلْعَهُ﴾: عمله، وقد حققنا القول فيه في سورة النمل، وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم، إذا خرج، يعني: ألزمناه ما طار من عمله، والمعنى أن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم:

التاسع من حديث المخلص تخريج البقال. قال: حدثنا ابن أبي داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا. انتهى.

الموت/ ١٩٩ أ في الرقاب، وهذا ربة في رقبته، عن الحسن: يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدها في عنقك، وقرئ ﴿فِي عُنُقِهِ﴾: بسكون النون، وقرئ: ﴿وَنُخْرَجُ﴾: بالنون، و «يخرج»: بالياء، والضمير لله - عز وجل - ويخرج، على البناء للمفعول، ويخرج من خرج، والضمير للطائر، أي: يخرج الطائر كتاباً، وانتصاب: ﴿كَتَبْنَا﴾: على الحال، وقرئ: «يلقاه»: بالتشديد مبنياً للمفعول، و ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾: صفتان للكتاب، أو (يلقاه): صفة و (منشوراً): حال من يلقيه، ﴿أَقْرَأُ﴾: على إرادة القول، وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً، و ﴿بِنَفْسِكَ﴾: فاعل كفى، و ﴿حَسِيبًا﴾: تمييز، وهو بمعنى: حاسب كضرب القداح بمعنى: ضاربها، وصرم بمعنى: صارم: ذكرهما سيويه، وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا، ويجوز أن يكون بمعنى: الكافي وضع موضع الشهيد فعدي بعلى؛ لأن الشاهد يكفي المدعي ما أمه.

فإن قلت: لم ذكر حسيباً؟

قلت: لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير؛ لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجال، فكانه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيباً، ويجوز أن يتأول النفس بالشخص، كما يقال: ثلاثة أنفس، وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم، أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا نُزِرُ ۖ وَأَزِرُّ ۖ وَزَرَ ۖ أُخْرَىٰ ۖ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ۖ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۖ﴾

أي: كل نفس حاملة وزراً؛ فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾: وما صح منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب^(١) قوماً إلا بعد أن ﴿نَبْعَثَ﴾: إليهم ﴿رَسُولًا﴾: فتلزمهم الحجة.

فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف

(١) قال محمود: «معناه وما صح مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوماً حتى تلزمهم الحجة يبعث الرسول... إلخ» قال أحمد: وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدري يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر وإلى كثير من أحكام الله تعالى، وإن لم يبعث رسول فيكلف بعقله ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة بل في جميع الأحكام، بناء على قاعدة التحسين والتقيح العقليين. وأما السني فلا يتوجه عليه هذا السؤال، فإن العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع وبعث الأنبياء، وحينئذ ثبت الحكم وتقوم الحجة، كما أنبأت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها فتعتاص عليه وتسد طرق الحبل بين يديه، لأنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نعم العقل عمدة في حصول المعرفة لا في وجوبها، وبين الحصول والوجوب بون بعيد، والله الموفق.

الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب؛ لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان.

قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة؛ لئلا يقولوا: كنا غافلين، فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝﴾

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا﴾: وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل، أمرناهم^(١) ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازاً^(٢)، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكانهم مأمورون بذلك؛ لتسبب إيلاء النعمة فيه؛ وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر، كما خلقهم أصحاب أقياء، وأقدرهم على الخير والشر، وطلب منهم إثبات الطاعة على المعصية فأثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم.

فإن قلت: هلا زعمت أن معناه: أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟

قلت: لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه؛ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض، يقال: أمرته فقام، وأمرته، فقراً لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم: أمرته فعصاني، أو فلم يمثل أمري؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي؛ لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به، وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول.

(١) قوله: «أمرناهم ففسقوا» في النسخة: أمرنا مترفيها: متنعيمها وجابرتها (ع).

(٢) قال محمود: «حقيقة أمرهم أن يقول لهم: افسقوا. ولا يكون هذا، فبقي أن يكون مجازاً... إلخ» قال أحمد: نص حسن إلا قوله أنهم خولوا النعم ليشكروا، فإنه فرعه، على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة. والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر، ففسقوا وكفروا على خلاف الأمر، والأمر غير الإرادة على قاعدة أهل الحق، والله الموفق.

فإن قلت: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقصد والخير؛
دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟

قلت: لا يصح ذلك؛ لأن قوله (ففسقوا): يدافعه، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعي
إضمار خلافه فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه ونظير «أمر»: شاء، في أن مفعوله
استفاض في الحذف للدلالة ما بعده عليه، تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لأساء
إليك، تريد: لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضمّر خلاف ما أظهرت -
وقلت: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الإساءة،
فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة - لم تكن على سداد،
وقد فسر بعضهم (أمرنا): بكثرتنا، وجعل أمرته فأمر من باب فعلته ففعل، كثيرته فثبر،
وفي الحديث: «خَيْرُ الْمَالِ سَكَّةٌ مَأْبُورَةٌ وَمَهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ»^(١) (٨٥٠) أي: كثيرة النتائج، وروي
أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله ﷺ: إني أرى أمرك هذا حقيراً، فقال ﷺ: «إِنَّهُ
سَيَأْمُرُ» (٨٥١). أي: سيكثر وسيكبر.

٨٥٠ - أخرجه أحمد (٤٦٨/٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٧/٧) (٦٤٧٠ - ٦٤٧١)، والبخاري
في «التاريخ الكبير» (٤٣٨/١ - ٤٣٩) (١٤٠٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٦١/٥): رواه أحمد
والطبراني، ورجال أحمد ثقات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف (٦٥٥/٢): أخرجه أحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبه، والحاثر،
والطبراني، أبو عبيد من رواية مسلم بن بديل عن إياس بن زهير، عن سويد، عن النبي ﷺ فذكره.
قال ابن إسحاق: ومعه النضر بن شميل وغيره يرفعه. أ.هـ. قال الحافظ بن حجر في تخريج
الكشاف: أخرجه أحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبه، والحاثر، والطبراني، وأبو عبيدة من رواية
مسلم بن بديل، عن إياس بن زهير، عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال المرأة مهرة
مأمورة أو سكة مهرة: قال ابن إسحاق: ومعه النضر بن شميل وغيره يرفعه. انتهى.

٨٥١ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٦٢/٢):
غريب جداً، ولو استشهد المصنف بحديث الصحيحين، لكان أولى؛ أخرجه في كتاب النبي ﷺ
إلى هرقل، وفيه قال أبو سفيان: فلما خرجنا قلت لأصحابي: لقد أمرَ أمرُ ابن أبي كبشة، إنه
ليخافه ملك بني الأصفر، والله ما زلت مستيقناً أن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام...
الحديث بطوله.
والمصنف استدلل بهذا الحديث والذي قبله لمن فسر قوله «أمرنا مترفيها» بمعنى: كثرتنا. أخرجه
عن ابن عباس، عن أبي سفيان.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده. انتهى.

(١) قوله: «كثيرته فثبر، وفي الحديث خير المال سكة مأبورة» في الصحاح «ثبرته» أي حبسته. وفيه
«السكة» الطريقة من النخل. وفيه «أبر نخلة» أي لقحه وأصلحه (ع).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٧﴾

وقرئ: «آمرنا»: من أمر وأمره غيره، وأمرنا بمعنى: أمرنا، أو من أمر إمارة، وأمره الله، أي: جعلناهم أمراء وسلطانهم، ﴿كم﴾: مفعول ﴿أهْلَكْنَا﴾، و ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾: بيان لكم وتمييز له، كما يميز العدد بالجنس، يعني: عاداً وثموداً وقرونأً بين ذلك كثيراً، ونبه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾: على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير، وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ

مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

من كانت ١٩٩/ ب العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة^(١)، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقيدين، أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال: ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقى، فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالي: أوتي حظاً من الدنيا أو لم يوت، فإن أوتي فيها وإلا فربما كان الفقر خيراً له وأعون على مراده، وقوله: ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾: بدل من له، وهو بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى: «من»، وهو في معنى الكثرة، وقرئ: «يشاء»، وقيل: الضمير لله تعالى، فلا فرق إذاً بين القراءتين في المعنى، ويجوز أن يكون للعبد، على أن للعبد ما يشاء من الدنيا، وأن ذلك لواحد مع الدهماء^(٢) يريد به الله ذلك، وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة، كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهد للغنيمة والذكر، كما قال ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ أَمْرًا يَتَزَوَّجُهَا فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» ح (٨٥٢) ﴿مَدْحُورًا﴾: مطروداً من رحمة الله،

٨٥٢ - أخرجه البخاري (٩/١) كتاب بدء الوحي: باب كيف كان بدء الوحي حديث (١)، (١٩٠/٥)، =

(١) قال محمود: «أي من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة... إلخ» قال أحمد: ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى، وهو قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُفِثْ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ﴿١٧﴾ فأدخل «من» المبغضة على حرت الدنيا. ونحل الطالب حرت الآخرة مراده، وزاد عليه.

(٢) قوله: «لواحد من الدهماء» في الصحاح «دهماء الناس» جماعتهم (ع).

﴿سَعْيَهَا﴾: حقها من السعي وكفائها من الأعمال الصالحة، اشترط ثلاث شرائط في كون

كتاب العتق: باب الخطأ والنسيان حديث (٢٥٢٩)، (٢٦٧/٧)، كتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة حديث (٣٨٩٨)، (١٧/٩) كتاب النكاح: باب من هاجر أو عمل خيراً لتزوج امرأة فله ما نوى حديث (٥٠٧٠)، (٥٨٠/١١)، كتاب الإيمان والنذور: باب النية في الإيمان حديث (٦٦٨٩)، (٣٤٢/١٢ - ٣٤٣)، كتاب الحيل: باب من ترك الحيل حديث (٦٩٥٣)، ومسلم (١٥١٥/٣) كتاب الإمارة: باب قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات حديث (١٥٥/١٩٠٧)، وأبو داود (٦٥١/٢) كتاب الطلاق: باب فيما عني به الطلاق والنيات حديث (٢٢٠١)، والثسائي (٥٨/١ - ٥٩) كتاب الطهارة: باب النية في الوضوء، والتِّرْمِذِي (١٧٩/٤) كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء فيمن يقاتل رياء حديث (١٦٤٧)، وابن ماجه (١٤١٣/٢) كتاب الزهد باب النية حديث (٤٢٢٧)، وأحمد (٢٥/١ - ٤٣)، والحميدي (١٦/١ - ١٧) رقم (٢٨)، وأبو داود الطيالسي (٢٧/٢ - منحة) رقم (١٩٩٧)، وابن خزيمة (٧٣/١ - ٧٤) رقم (١٤٢)، وابن جبان (٣٨٨، ٣٨٩ - الإحسان)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٦٤)، وابن المبارك في الزهد (ص - ٦٢، ٦٣)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص - ١٠١) رقم (٢٠٦)، وهناد بن السري في «الزهد» (٢/٤٤٠) رقم (٨٧١)، ووكيع في «الزهد» رقم (٣٥١)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/٣٦٩)، وابن أبي حاتم في «مقدمة الجرح والتعديل» (ص - ٢١٣)، والدارقطني (٥٠/١ - ٥١) كتاب الطهارة: باب النية حديث (١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٩٦/٣) كتاب الطلاق: باب طلاق المكروه، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/٤٢) وفي «تاريخ أصبهان» (٢/١١٥)، (٢٢٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/٤٠٣ - تهذيب)، والقضاعى في «مسند الشهاب» (١، ٢، ١١٧٢، ١١٧٣)، وابن حزم في «المحلى» (١/٧٣)، والبيهقي (١/٤١) كتاب الطهارة: باب النية في الطهارة، وفي «معركة السنن والآثار» (١/١٥٢)، و«شعب الإيمان» (٥/٣٣٦) رقم (٦٨٣٧) و«الاعتقاد» رقم (٢٥٤) وفي «الزهد الكبير» (ص - ١٣٢) رقم (٢٤١) وفي «الأدب» رقم (١١٣٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/٢٤٤، ١٥٣/٦، ٣٤٥/٩ - ٣٤٦)، والقاضي عياض في الإلماع (ص - ٥٤ - ٥٥) باب ما يلزم من إخلاص النية في طلب الحديث وانتقاد ما يؤخذ عنه، وابن جميع في «معجم شيوخي» (ص - ١١٧) رقم (٦٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١/٥٤ - بتحقيقنا)، والرافعي في «تاريخ قزوين» (٤/٧٧)، والنووي في «الأذكار» (ص - ٣٣)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٢/٧٧٤)، والحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/٢٤٢، ٢٤٣) كلهم من طريق يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص عن عمر ابن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإن لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» قال التِّرْمِذِي: هذا حديث حسن صحيح. إ.هـ.

وقال أبو نعيم: هذا الحديث من صحاح الأحاديث وعيونها. إ.هـ وقال ابن عساكر: هذا حديث صحيح من حديث أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب، وثابت من حديث علقمة بن وقاص الليثي، لم يروه عنه غير أبي عبد الله محمد بن إبراهيم التيمي، واشتهر عنه برواية أبي سعد يحيى ابن سعيد بن قيس الأنصاري، المدني القاضي، وهو ممن انفرد به كل واحد من هؤلاء عن صاحبه ورواه عن يحيى العدد الكثير والجم الغفير. أ.هـ
قال الحافظ في «التلخيص» (١/٥٥): وقال الحافظ أبو سعيد محمد بن علي الخشاب: رواه عن =

السعي مشكوراً: إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما

= يحيى بن سعيد نحو من مائتين وخمسين إنساناً، وقال الحافظ أبو موسى: سمعت عبد الجليل بن أحمد في المذاكرة يقول: قال أبو إسماعيل الهروي عبد الله بن محمد الأنصاري: كتبت هذا الحديث عن سبعمائة نفر من أصحاب يحيى بن سعيد. قلت - أي الحافظ - تتبعه من الكتب والأجزاء حتى مررت على أكثر من ثلاثة آلاف جزء فما استطعت أن أكمل له سبعين طريقاً. وقال البزار، والخطابي، وأبو علي بن السكن، ومحمد بن عتاب، وابن الجوزي وغيرهم: إنه لا يصح عن النبي ﷺ إلا عن عمر بن الخطاب... إل.هـ.

قلت: وقد روى هذا الحديث غير يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم؛ أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٣٦/٣) من طريق الربيع بن زياد أبو عمرو الضبي، عن محمد بن عمرو، عن محمد ابن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص، عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه قال ابن عدي: وهذا الأصل فيه يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم، وقد رواه عن يحيى أئمة الناس، وأما عن محمد بن عمرو عن محمد بن إبراهيم لم يروه عنه غير الربيع بن زياد، وقد روى الربيع بن زياد عن غير محمد بن عمرو من أهل المدينة بأحاديث لا يتابع عليها إل.هـ.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة؛ وهم أبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، وهزال بن يزياد الأسلمي.

١ - حديث أبي سعيد الخدري

أخرجه الخليلي في «الإرشاد» (٢٣٣/١)، والدارقطني في «غرائب مالك»، والحاكم في «تاريخ نيسابور» كما في «تخريج أحاديث المختصر» لابن حجر (٢٤٧/٢ - ٢٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٤٢/٦)، والفضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٧٣) كلهم من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد ثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات. ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». قال الخليلي: وعبد المجيد قد أخطأ في هذا الحديث الذي يرويه عن مالك في الحديث الذي يرويه مالك والخلق عن يحيى بن سعيد الأنصاري، وهو غير محفوظ من حديث زيد بن أسلم بوجه أ.هـ.

وقال الدارقطني: تفرد به عبد المجيد عن مالك أ.هـ. وقال أبو نعيم: غريب من حديث مالك عن زيد، تفرد به عبد المجيد ومشهوره، وصحيحه ما في الموطأ مالك عن يحيى بن سعيد أ.هـ. وقد حكم بطلان هذا الطريق أبو حاتم الرازي فقال ولده في «العلل» (١٣١/١) رقم (٣٦٢): سئل أبي عن حديث رواه نوح بن حبيب، عن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، عن مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فقال أبي: هذا حديث باطل لا أصل له؛ إنما هو مالك عن يحيى بن سعيد، عن محمد ابن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص، عن عمر عن النبي ﷺ أ.هـ.

وقد أخرجه الحافظ بن حجر في «تخريج المختصر» (٢٤٧/٢) من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز عن مالك عن زيد... به. وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال أيضاً: وعبد المجيد وثقه أحمد، وابن معين، والنسائي، وتكلم فيه أبو حاتم، والدارقطني، وقيل: إن هذا مما أخطأ فيه على مالك، والمحمفوظ عن ماك عن يحيى بن سعيد بالسند المعروف المتقدم أ.هـ.

كلف من الفعل والترك، والإيمان الصحيح الثابت، وعن بعض المتقدمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية،

قلت: وقد حاول بعضهم إلصاق الخطأ بنوح بن حبيب الراوي عن عبد المجيد كالبزار مثلاً. فقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣٠٢/١): وقال - يعني البزار - في مسند الخدري: حديث روي عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال:

١ - الأعمال بالنية» أخطأ فيه نوح بن حبيب، ولم يتابع عليه، وليس له أصل عن أبي سعيد أ. هـ. قلت: وفي كلام البزار نظر؛ أما إن الحديث ليس له أصل عن أبي سعيد فهذا صواب، أما إلصاق الخطأ بنوح بن حبيب ودعواه أنه تفرد به ولم يتابع عليه، فهذا خطأ؛ فقد تويع نوح بن حبيب على هذا الحديث؛ تابعه إثنان وهما إبراهيم بن محمد بن مروان بن هشام عند الدارقطني في «غرائب مالك» وعلى بن الحسن الذهلي عند الحاكم في «تاريخ نيسابور» ينظر «تخريج المختصر» لابن حجر (٢٤٧/٢ - ٢٤٨).

ومنه نعلم أن نوحاً لم يتفرد به، بل تابعه اثنان، وأن الذي تفرد به هو عبد المجيد بن عبد العزيز ابن أبي رواد، وهو الذي أخطأ في الحديث.

٢ - حديث أنس بن مالك:

أخرجه ابن عساكر في أماليه؛ كما في «تخريج المختصر» لابن حجر (٢٤٦/٢) وقال الحافظ: وفي سنده ضعف. وقال الحافظ العراقي في «طرح الثريب» (٤/٢): رواه ابن عساكر من رواية يحيى ابن سعيد، عن محمد بن إبراهيم، عن أنس بن مالك، وقال: هذا حديث غريب جداً، والمحمول حديث عمر.

٣ - حديث أبي هريرة:

قال العراقي في «طرح الثريب» (٤/٢): رواه الرشيد العطار في بعض تخاريجيه، وهو وهم أيضاً. وقال ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢٤٦/٢): أخرجه الرشيد العطار في فوائده بسند ضعيف.

٤ - حديث علي بن أبي طالب:

قال الحافظ العراقي في «طرح الثريب» (٤/٢): رواه محمد بن ياسر الجبائي في نسخة من طريق أهل البيت، إسنادها ضعيف. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢٤٦/٢): أخرجه أبو علي بن الأشعث، وهو واه جداً.

٥ - حديث هزال بن يزياد الأسلمي:

أخرجه الحاكم في «تاريخ نيسابور» كما في «تخريج أحاديث المختصر» (٢٤٨/٢) في ترجمة أبي بكر محمد بن أحمد بن بالويه، من طريق محمد بن يونس، عن روح بن عبادة، عن شعبة، عن محمد بن المنكدر، عن ابن هزال، عن أبيه عن النبي ﷺ ... فذكره قال الحاكم: ذكرته لأبي علي الحافظ، فأنكره جداً، وقال لي: قل لأبي بكر لا يحدث به بعد هذا. إ. هـ.

قال الحافظ: محمد بن يونس شيخه هو الكديمي، وهو معروف بالضعف، والمحمول بالسند المذكور قصة ماعز، فلعله دخل عليه حديث في حديث، وهزال هو ابن يزياد الأسلمي وهو صحابي معروف، واسم ابنه نعيم، وهو مختلف في صحبته إ. هـ.

قلت: مما سبق تبين أن حديث «إنما الأعمال بالنيات» لم يصح إلا من حديث عمر، قال الحافظ في الكشف: متفق عليه من حديث عمر. انتهى.

وشكر الله: الثواب على الطاعة.

﴿كُلَّا نُمِدُّ هُنُوْلًا وَهُنُوْلًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿كُلَّا﴾: كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه، ﴿نُمِدُّ﴾ هم: نزيدهم من عطائنا، ونجعل الأنف منه مدداً للسالف لا نقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل، ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ﴾: وفصله ﴿مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعاً، لا يمنعه من عاص لعصيانه.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

﴿أَنْظُرْ﴾: بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ﴾: جعلناهم متفاوتين في التفضل، وفي الآخرة التفاوت أكبر؛ لأنها ثواب وأعواض وتفضل، وكلها متفاوتة، وروي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر - رضي الله عنه - فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا، إنهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام، فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة؛ ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر، وقرئ: «وأكثر تفضيلاً»، وعن بعضهم: أيها المباهى بالرفع منك في مجالس الدنيا، أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة وهي أكبر وأفضل؟

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿تَقَعُدَ﴾: من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت، كأنها حربة بمعنى: صارت، يعني: فتصير جامعاً على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إهلك، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكاً له.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِؤُلَدِينَ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾: وأمر أمراً مقطوعاً به، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾: أن مفسرة ولا تعبدوا نهى، أو بالاً تعبدوا؛ ﴿وَيَالِؤُلَدِينَ إِحْسَنًا﴾: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، وقرئ: «وأوصى»، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: و «وصى»، وعن بعض ولد معاذ بن جبل: «وقضاء ربك»، ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان؛ لأن

المصدر لا يتقدم عليه صلته، ﴿إِمَّا﴾: هي «إن» الشرطية زيدت عليها «ما»؛ تأكيداً لها؛ ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت «إن»: لم يصح دخولها، لا تقول: إن تكرمن زيداً يكرمك، ولكن إما تكرمنه، و ﴿أَحَدُهُمَا﴾: فاعل يبلغن، وهو فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف. الضمير الراجع إلى الوالدين، و ﴿كِلَاهُمَا﴾: عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً.

فإن قلت: لو قيل إما يبلغان كلاهما، كان كلاهما توكيداً لا بدلاً، فما لك زعمت أنه بدل؟

قلت: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيداً للاثنتين، فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله.

فإن قلت: لو أريد توكيد التثنية لقل: كلاهما، فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما، علم أن التوكيد غير مراد، فكان بدلاً مثل الأول، ﴿أَف﴾: صوت يدل على تضجر، وقرئ: «أف»: بالحركات الثلاث منوناً وغير منون: الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم، والضم إتباع كمنذ.

فإن قلت: ما معنى عندك؟

قلت: هو أن يكبرا ويعجزا، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه؛ وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً، وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما أو يستثقل من مؤنهما: أف، فضلاً عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما؛ حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال / ٢٠٠ أ لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في استطاعة، ﴿وَلَا تُبَرِّهُمَا﴾: ولا تزجرهما عما يتعاطيان مما لا يعجبك، والنهي والنهر والنهم: أخوات، ﴿وَقُلْ لَهُمَا﴾: بدل التأفيف والنهر، ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾: جميلاً، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة، وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه، يا أماه، كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت، مع كفره، ولا يدعوهما بأسمائهما؛ فإنه من الجفاء وسوء الأدب وعادة الدعار^(١)، قالوا: ولا بأس به في غير

(١) قوله: «سوء الأدب وعادة الدعار» من الدعارة وهي الفسق والخبث والفساد. كذا في الصحاح (ع).

وجهه، كما قالت عائشة - رضي الله عنها -: نحلني أبو بكر كذا (٨٥٣). وقرئ: «جناح الذل»، والذل: بالضم والكسر.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿جَنَاحَ الذَّلِّ؟﴾

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك؛ كما قال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، فأضافه إلى الذل أو الذل، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول.

والثاني: أن تجعل لذه أو لذه لهما جناحاً خفيضاً، كما جعل لبيد للشمال^(١) يداً، وللقوة زمناً، مبالغة في التذلل والتواضع لهما، ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾: من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما؛ لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعل ذلك ذلك لرحمتكما عليك في صغرك وتربيتكما لك.

فإن قلت: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين.

قلت: وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان؛ وأن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزاً ثم نسخ، وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت، فقال: كل ذلك واصل إليه، ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين، ولقد كرر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبي ﷺ: «رَضَا اللَّهُ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُهُ فِي سَخَطِهِمَا» (٨٥٤) وروي: «يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَيَفْعَلَ الْعَاقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ

٨٥٣ - يأتي تخريجه في سورة «فاطر»، وقال الحافظ في الكشاف: أخرجه في الموطأ عن الزهري، عن عائشة قالت: «إن أبا بكر كان نحلني جداد عشرين من ماله بالعالية فلما حضرته الوفاة، قال: ما من الناس أحب إليّ منك». انتهى.

٨٥٤ - أخرجه الثرمذي (٣١٠/٤) - كتاب البر والصلة (٢٨) - باب ما جاء من الفضل في رضا الوالدين - (١٨٩٩)، وابن جبان في صحيحه (١٧٢/٢) (٤٢٩)، والبغوي في شرح السنة (٤٢٩/٦ - ٤٣٠) (٣٣١٨)، كلهم من طريق خالد بن الحارث، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «رضى الرب...» الحديث فذكره مرفوعاً وأخرجه الثرمذي (٣١١/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١١) حديث رقم (٢)، والبغوي في شرح السنة (٦/٤٢٩) (٣٣١٧) من طرق، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر موقوفاً. =

(١) قوله: «كما جعل لبيد للشمال يداً» في قوله [من الكامل]:

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (ع).

يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» (٨٥٥)، وروى سعيد بن المسيب: إن البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل لرسول الله ﷺ: إن أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر، فهل قضيتهما؟ قال: لا؛ فإنهما كان يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما (٨٥٦)، وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أنه يأخذ ماله، فدعا به فإذا شيخ

= وقال الترمذي: وهذا أصح - أي الموقوف - وهكذا روى أصحاب شعبة عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً ولا نعلم أحداً رفعه غير خالد بن الحارث، عن شعبة، وخالد بن الحارث ثقة مأمون. قلت: وفي كلام الترمذي نظراً؛ فقد وجدت متابعات لـ «خالد بن الحارث»، فأخرجه الحاكم في المستدرك (١٥١/٤ - ١٥٢) من طريق عبد الرحمن بن مهدي ثنا شعبة عن يعلى بن عطاء به، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٧٧/٦) (٧٨٢٩ - ٧٨٣) من طريقين: الأولى: من طريق القاسم بن سليم الصواف، قال: شهدت الواسطيين أبا بسطام شعبة بن الحجاج، وأبا معاوية هشيم بن بشير يحدثان عن يعلى بن عطاء عن أبيه به.

الثانية: من طريق الحسين بن الوليد نا شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه به. وقال البيهقي: ورويناه أيضاً من حديث خالد بن الحارث وأبي إسحاق الفزاري وزيد بن أبي الزرقا وغيرهم مرفوعاً، ورواه آدم بن أبي إياس ومسلم بن إبراهيم، وجماعة عن شعبة موقوفاً. إ.هـ. وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣٦٦/٢) (١٨٦٥) من طريق عصمة بن محمد بن فضالة بن عبيد الأنصاري، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عن النبي ﷺ قال..

وقال البزار: لا نعلم رواه عن يحيى بن سعيد إلا عصمة، وعصمة هذا قال فيه الهيثمي في المجمع (١٣٩/٨): متروك، وله طريق أخرى عند أبي نعيم في الحلية (٢١٥/٨).

- قال الحافظ في تخريج الكشف: أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: روى من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة مرفوعاً وكذا أخرجه الطبراني، والبيهقي من رواية القاسم بن سليم عن شعبة مرفوعاً. وللبيهقي أيضاً من رواية الحسين بن الوليد عن شعبة مرفوعاً. قال وروينا أيضاً من رواية أبي إسحاق الفزاري وزيد بن أبي الرها وغيرهم مرفوعاً. ورواية أبي إسحاق عند أبي يعلى. وقال البخاري. في الأدب المفرد: حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شعبة فذكره موقوفاً. وفي الباب عن ابن عمر أخرجه البزار وقال: تفرد به عصمة بن محمد الأنصاري عن يحيى بن سعيد. انتهى.

٨٥٥ - أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢١٥/١٠ - ٢١٦) في ترجمة أبي العباس الطوسي، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشف (٢٦٥/٢) للثعلبي في تفسيره من حديث أحمد بن غالب غلام الخليل بن أحمد ثنا محمد بن سلام السلمي ثنا محمد بن سماك الكوفي، عن حامد بن شريح، عن عطاء عن عائشة. وقال ابن حجر: فيه أحمد بن محمد بن غالب غلام خليل، وهو كذاب. والحديث ذكره الهندي في كنز العمال (٤٧٦/١٦) (٤٥٥٢٨) وعزاه للحاكم في تاريخه.

- قال الحافظ في تخريج الكشف: أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن السماك عن عابد بن شريح عن عطاء عن عائشة. وفيه أحمد بن محمد بن غالب غلام الخليل. وهو كذاب، ولكن رواه أبو نعيم في الحلية من وجه آخر عن سحنون السماك بلفظ «فإني أغفر لك» ولفظ «فإني لا أغفر لك» انتهى.

٨٥٦ - يبض له الزيلعي في تخريج الكشف (٢٦٥/٢) (٧-١)، وقال ابن حجر، لم أجده.

يتوكأ على عصا، فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويخل عليّ بماله؛ فبكى - رسول الله ﷺ -: وقال: «مَا مِنْ حَجَرٍ وَلَا مَدَرٍ يَسْمَعُ هَذَا إِلَّا بَكَى»، ثم قال للولد: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ، أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ» (٨٥٧)، وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال: «لَمْ تَكُنْ سَيِّئَةَ الْخُلُقِ حِينَ حَمَلْتِكَ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ؟ قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ حِينَ تَكُنْ كَذَلِكَ حِينَ أَرْضَعْتِكَ حَوْلَيْنِ؟ قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ حِينَ أَشْهَرْتَ لَكَ لَيْلَهَا وَأَظْمَأْتَ نَهَارَهَا؟ قال: لقد جازيتها، قال: «مَا فَعَلْتَ؟» قال: حججت بها على عاتقي، قال: «مَا جَزَيْتَهَا وَلَوْ طَلَقَهُ»^(١) (٨٥٨). وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمه، ويقول [من الرجز]:

إِنِّي لَهَا مَطِيَّةٌ لَا تُذَعَّرُ إِذَا الرُّكَّابُ نَفَرَتْ لَا تَنْفِرُ
مَا حَمَلْتُ وَأَرْضَعْتَنِي أَكْثَرُ اللَّهُ رَبِّي ذُو الْجَلَالِ الْأَكْبَرِ^(٢)

تظنني جازيتها يا ابن عمر^(٣)؟ قال: لا، ولو زفرة واحدة (٨٥٩)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إِيَّاكُمْ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ تُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ، وَلَا يَجِدُ رِيحَهَا عَاقٍ وَلَا قَاطِعٍ رَجِمَ وَلَا شَيْخَ زَانٍ، وَلَا جَارَ إِزَارِهِ خِيَلَاءَ؛ إِنَّ الْكِبْرِيَاءَ لِلَّهِ رَبِّ

٨٥٧ - بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٦٦) (٧٠٢)، وقال ابن حجر لم أجده. ثم قال: قلت: أخرجه البغوي في معجم الصحابة من طريق. وبيض له ولم يعزه، ولم يخرججه.
٨٥٨ - بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٦٦) (٧٠٣)، وقال ابن حجر: لم أجده.
٨٥٩ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٢) حديث رقم (١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٢٠٩) (٧٩٢٦)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٦٧) لابن المبارك في كتاب البر والصلة - كلهم من طريق شعبة عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه قال: كان ابن عمر...
وقال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن المبارك في البر والصلة: أخبرنا سعيد بن أبي بردة عن أبيه قال: كان ابن عمر يطوف بالبيت فرأى رجلاً - فذكره. وهذا إسناد صحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب في الخامس والخمسين، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد عن آدم عن سعيد مختصراً. انتهى.

(١) قوله: «قال ما جزيتها ولو طلقه» في الصحاح الطلق وجع الولادة اهـ فالطاقة المرة منه (ع).
(٢) أنشده ابن عمر عن رجل يحمل أمه في الحج: شبه نفسه بالمطية تشبيهاً بليغاً، و«إذا الركاب نفرت» صفة لها، يعني أنه خافض لها جناح الذل من الرحمة، ولا يسأم منها كغيره، فإن حملها إياه وإرضاعها إياه أكثر من بره بها، وذعر يذعر كتعب يتعب: خاف وفزع، والمراد لازم الفزع والنفرة وهو الجزع والضجر وعدم إقراره على ظهره، ثم كبر لأنه شعار الحج من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق.

(٣) قوله: «تظنني جازيتها يا ابن عمر» لعله ثم قال تظنني (ع).

الْعَالَمِينَ» (٨٦٠)، وقال الفقهاء: لا يذهب بأبيه إلى البيعة^(١)، وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل، ولا يناوله الخمر، ويأخذ الإناء منه إذا شربها، وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد، وعن حذيفة أنه استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه وهو في صف المشركين، فقال: دعه يليه غيرك (٨٦١)، وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: ألا تقوم إلى خدمتهما عن كسل، وسئل بعضهم فقال: ألا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شزراً إليهما^(٢)، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن ترحم عليهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما، فعن النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدَّ أَبِيهِ» (٨٦٢).

﴿رَبِّكُمْ أَتَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾: بما في ضمائرکم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير، ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾: قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم - في حال الغضب، وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر، أو لحماية الإسلام - هنة تؤدي إلى أذاهما، ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم منها؛ فإن الله غفور، ﴿لِلْأَوَّابِ﴾: للتوابين، وعن

٨٦٠ - أخرجه ابن عدي في الكامل (٢١٤٩/٦) من حديث محمد بن الفرات عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي مرفوعاً «احذروا البغي...» وأعله بمحمد بن الفرات، وضعفه عن البخاري والنسائي وابن معين، ووافقهم، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣١٠/٦) (٥٦٦٠) من طريق جابر الجعفي، عن أبي جعفر بن علي بن حسين عن جابر بن عبد الله... وجابر الجعفي هو أبو عبد الله الكوفي ضعيف؛ كما قال الحافظ في التقریب (١٢٣/١).

- وقال الحافظ في تخریج الکشاف: أخرجه ابن عدي من رواية محمد بن الفرات عن أبي إسحاق عن الحرث عن علي بهذا وأتم منه. وفيه مسيرة خمسمائة بدل ألف. ورواه الطبراني في الأوسط من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر عن جابر بن عبد الله فذكره بلفظ «ألف عام» وجابر ومحمد ابن الفرات متروكان. انتهى.

٨٦١ - بیض له الزیلعی فی تخریج الکشاف (٢٦٨/٢) (٧٠٦)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده، ولا یصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين؛ فإنه استشهد بأحد مع المسلمين بأيدي المسلمين خطأ. وهم يحسبونه من الكفار، كما في صحيح البخاري، لكن نحو القصة المذكورة، وردت لأبي عبيدة بن الجراح. إ.هـ.

٨٦٢ - أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥١/٨ - نووي) - كنا البر والصلة والآداب (٤٥) باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما (٤) (٢٥٥٢) (١٣)، من حديث ابن عمر، وفيه قصة. - قال الحافظ في تخریج الکشاف: أخرجه مسلم من حديث ابن عمر مرفوعاً، وفيه قصة. انتهى.

(١) قوله: «لا يذهب بأبيه إلى البيعة» في الصحاح: البيعة بالكسر للنصاري (ع).

(٢) قوله: «ولا تنظر شزراً إليهما» هو نظر الغضببان بمؤخر العين، كذا في الصحاح (ع).

سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير، وعن سعيد بن المسيب: الأبواب الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة، ويجوز أن يكون هذا عاماً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته، لوروده / ٢٠٠ ب على أثره.

﴿وَمَاتِ ذَا الْقَرْبَىٰ حَقًّا وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّزْ تَبَذِّرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَمَاتِ ذَا الْقَرْبَىٰ حَقًّا﴾: وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم: وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب، وكان الرجل موسراً: أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب، وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم: كأبناء العم، فحقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاوضة ونحو ذلك، ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يعني: وآت هؤلاء حقهم من الزكاة؛ وهذا دليل على أن المراد بما يؤتى ذوي القرابة من الحق: هو تعهدهم بالمال، وقيل: أراد بذوي القربى أقرباء رسول الله ﷺ.

التبذير: تفريق المال فيما لا ينبغي، وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتيأسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله بالنفقة في وجوها بما يقرب منه ويزلف، وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه، وعن مجاهد: لو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمرو: مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: «مَا هَذَا السَّرْفُ يَا سَعْدُ؟» قال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: «نَعَمْ وَإِنْ كُنْتُ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ» ح (٨٦٣) ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾: أمثالهم

٨٦٣ - أخرجه ابن ماجه (١/١٤٧) - كتاب الطهارة وسننها (١) - باب ما جاء في القصد في الوضوء وكرهية التعدي فيه (٤٨) (٤٢٥)، وأحمد في المسند (٢/٢٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٠) (٢٧٨٨) - باب في الطهارات (٢٠) - كلهم من طريق ابن لهيعة عن حيي بن عبد الله المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مر بعد... وقال البوصيري في الزوائد (١/١٧٣) إسناده ضعيف؛ لضعف حيي بن عبد الله وعبد الله بن لهيعة. والحديث عزاه الزيلعي وابن حجر لأبي يعلى الموصلي في مسنده، ولم أجده، فلعله من المفقود لا سيما أنه من مسند عبد الله بن عمرو، وهو مفقود، والله أعلم. قال الحافظ في تخریج الکشاف: أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي من حديثه. وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف. انتهى.

في الشرارة وهي غاية المذمة؛ لأنه لا شر من الشيطان، أو هم إخوانهم وأصدقائهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾: فما ينبغي أن يطاع؛ فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله، وقرأ الحسن: إخوان الشيطان.

﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (٢٨)

وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد، ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾: فلا تتركهم غير مجابين إذا سألك، وكان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء (٨٦٤). قوله: ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه، أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً؛ رحمة لهم وتطيباً لقلوبهم، ابتغاء رحمة من ربك، أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط، أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك، فسمى الرزق رحمة، فردهم رداً جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأن فاقده الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبب موضع السبب، ويجوز أن يكون معنى: (وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ)؛ وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصائصهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؛ لأن من أبي أن يعطى: أعرض بوجهه، يقال: يسر الأمر وعسر، مثل سعد الرجل ونحس^(١) فهو مفعول، وقيل: معناه: فقل لهم رزقنا الله، وإياكم من فضله، على أنه دعاء لهم ييسر

٨٦٤ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٠): غريب. قلت: وأخرج ابن حبان في (١١/ ١٦٦) (٤٨٣٦)، والحاكم في المستدرک (٢/ ١٣٠)، من طريق حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن هوازن جاء يوم حنين بالنساء والصبيان... الحديث وفيه «وكان لا يسئل شيئاً إلا أعطاه أو سكت».

وعند الطبراني في الأوسط (٨/ ٣٧٦ - ٣٧٧) (٧٧٦٣) من حديث علي قال: «كان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً فأراد أن يفعله قال: نعم. وإذا أراد ألا يفعل سكت...». وفيه قصة طويلة. قال الحافظ ابن حجر: وإسناده ضعيف.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن حبان والحاكم عن أنس: قال كان النبي ﷺ لا يسأل شيئاً إلا أعطاه أو سكت. وفيه قصة وفي الطبراني الأوسط عن علي - رضي الله عنه - «كان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً فأراد أن يفعله قال: نعم. وإذا أراد ألا يفعل سكت ولم يقل قط لشيء: لا. فذكر قصة، وإسناده ضعيف. انتهى.

(١) قوله: «مثل سعد الرجل ونحس» في الصحاح: سئل الرجل بالكسر فهو سعيد: مثل سلم فهو سليم. وسعد بالضم فهو مسعود (ع).

عليهم فقرهم؛ كان معناه: قولاً ذا ميسور، وهو اليسر^(١)، أي: دعاء فيه يسر.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩)

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾: فتصير ملوماً عند الله؛ لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس، يقول المحتاج: أعطى فلاناً وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة، وعند نفسك: إذا احتجت فندمت على ما فعلت، ﴿مَحْسُورًا﴾: منقطعاً بك لا شيء عندك، من حسرة السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة، وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إن أُمِّي تستكسيك درعاً، فقال: «مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ يَظْهَرُ، فَعُدْ إِلَيْنَا»، فذهب إلى أمه فقالت له قل له: إن أُمِّي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة (٨٦٥). وقيل: أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن^(٢)؛ فجاء عباس بن مرداس، وأنشأ يقول [من المقارب]:

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ بِدَيْنِ غُيَيْثَةٍ وَالْأَقْرَعِ؟
وَمَا كَانَ حَصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ جُدِّي فِي مَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ^(٣)

فقال: يا أبا بكر، اقطع لسانه عني، أعطه مائة من الإبل (٨٦٦)؛ فنزلت.

٨٦٥ - بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٧١) (٧١٠)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. قلت: ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٣٦) عن جابر بدون إسناد. انتهى.
٨٦٦ - أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٦٥) - كتاب الزكاة (١٢) - باب إعطاء المؤلفلة قلوبهم على الإسلام =

(١) قوله: «قولاً ذا ميسور وهو اليسر» في الصحاح: المعسور ضد الميسور. وهما مصدران. وقال سيبويه: هما صفتان (ع).

(٢) قوله: «مائة من الإبل وعيينة بن حصن» لعل بعده سقطاً تقديره: مائة.

(٣) للعباس بن مرداس رضي الله عنه يخاطب النبي ﷺ، روي أنه أعطى كلا من الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة من الإبل تأليفاً لقلوبهما، فأنشأ العباس ذلك، فرفعه أبو بكر للنبي ﷺ فقال: اقطعوا عني لسانه، ففزع وفزع أناس وإنما أراد إعطاء تأليفاً لقلبه أيضاً. والاستفهام للتعجب. ويحتمل أنه للإنكار، لكنه بعيد من الصحابي، أي: أنقسم نهبي ونهب العبيد فرسي بين هذين، والحال أن أبويهما ما كانا يفوقان أبي مرداس بمنع الصرف للضرورة. وقد يروى «العبيد» مصغراً. ويروى بدله «جدي» ويروى «شيخني في مجمع» من مجامع الحرب، وأنا لست أقل من واحد منهما، فنحن سواء أصلاً وفرعاً، فكيف تفاوت بيننا الآن؟ مع أن من تخفض قدره لا يرتفع عمره. وروي «منهم» أي من الأربعة. وروي «ومن يخفض» مبني للمجهول. وفي ذكر حصن وحابس بعد عيينة والأقرع: لف ونشر مرتب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠)

ثم سلى رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة، بأن ذلك ليس لهوان منك عليه، ولا لبخل به عليك؛ ولكن لأن مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها^(١) تابعة للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزان في يده، أما العبيد فعليهم أن يقتصدوا، ويحتمل أنه - عز وعلا - بسط لعباده أو قبض؛ فإنه يراعي أوسط الحالين، لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه، فاستنوا بسنته.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيراً﴾ (٣١)

قتلهم أولادهم: هو وأدهم بناتهم^(٢)، كانوا يثدونهن خشية الفاقة وهي الإملاق، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم، وقرئ (خشية): بكسر الخاء، وقرئ / ٢٠١ (خطأ) وهو الإثم، يقال: خطيء خطأ، كإثم إثمًا، وخطأ وهو ضد الصواب، اسم من أخطأ، وقيل: هو والخطأ كالحذر والحذر، و «خطأ» بالكسر والمد، و «خطاء» بالفتح والمد، و «خطأ» بالفتح والسكون، وعن الحسن: «خطأ» بالفتح وحذف الهمزة كالخب، وعن أبي رجاء: بكسر الخاء غير مهموز.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْجَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)

﴿فَرْجَةً﴾: قبيحة زائدة على حد القبح، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: وبئس طريقاً طريقه، وهو

= (٤٦) (١٣٧/١٠٦٠) والبيهقي في دلائل النبوة (١٧٨/٥ - ١٧٩)؛ وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٠٦) وقال ابن حجر: وكذا ذكره موسى بن عقبة والواقدي وابن سعد، وليس في شيء من فوقهم أن المخاطب بذلك كان أبا بكر.

وقال الحافظ في تخريج الكشف:

أخرجه مسلم من رواية عتبة بن رفاع بن رافع عن رافع بن خديج قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل. وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك. فقال عباس - فذكر الشعر. قال: فأتى له رسول الله ﷺ مائة. وأخرجه ابن إسحاق في المغازي حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيره - فذكر القصة وقال في آخرها: اذهبوا فاقطعوا لسانه. فزادوه حتى رضي. وكذا ذكره موسى بن عقبة والواقدي وابن سعد، وليس في شيء من عرقهم أن المخاطب بذلك كان أبا بكر. انتهى.

(١) قوله: «في بسط الأرزاق وقدرها» أي تضيقها. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «هو وأدهم بناتهم» وأد البنت: دفنها في القبر وهي حية، كما في الصحاح (ع).

أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله^(١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُمْ كَانَ مَنصُورًا﴾ (٣٣)

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: إلا بإحدى ثلاث: إلا بأن تكفر؛ أو تقتل مؤمناً عمداً، أو تزني بعد إحصان، ﴿مَظْلُومًا﴾: غير راكب واحدة منهم، ﴿لَوْلِيَّهِ﴾: الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه، ﴿سُلْطَانًا﴾: تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه، أو حجة يشب بها عليه، ﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الضمير: للولي، أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية: كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة، حتى قال مهلهل حين قتل بحير بن الحارث بن عباد: بؤ بشسع نعل كليب^(٢)؛ وقال [من الرجز]:

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُليبٍ غُرَّةٌ حَتَّى يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّةٍ^(٣)

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء، وقيل: الإسراف المثلة، وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: «فلا يسرف»: بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر، وفيه مبالغة ليست في الأمر، وعن مجاهد: أن الضمير للقاتل الأول، وقرئ: «فلا تسرف»: على خطاب الولي أو قاتل المظلوم، وفي قراءة أبيّ: «فلا تسرفوا»، ردّه على: ولا تقتلوا؛ ﴿إِنَّهُمْ كَانَ مَنصُورًا﴾: الضمير إما للولي، يعني: حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأن الله قد نصره^(٤) بمعونة السلطان. ويأظهار المؤمنين على استيفاء الحق، فلا يبيع ما وراء حقه، وإما للمظلوم؛ لأن الله ناصره، وحيث أوجب القصاص بقتله، وينصره في الآخرة بالثواب، وإما للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله؛ فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف.

(١) قوله: «وهو الصهر الذي شرعه الله» أي التزوج. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «بؤ بشسع نعل كليب» في الصحاح يقال بؤ به أي كن ممن يقتل به وفيه البواء: السواء. وفيه الشسع: واحد شسوع النعل التي تشد إلى زمامها. وفيه الغرة: العبد أو الأمة (ع).

(٣) الغرة: الرقيق، يعني: كل قتيل قتلناه في هذه القبيلة ليس كفؤاً لمن قتلوه منا، حتى يصل قتلنا آل مرة فهم كفؤه.

ينظر: جهمرة اللغة ص (١٢٤)، الأغاني (٥٢/٥)، وبلا نسبة في لسان العرب (غرر)، تاج العروس (غرر)، مقاييس اللغة (٣٨١/٤)، (كتاب العين (٣٤٧/٤).

(٤) قوله: «وبأن الله قد نصره» لعله أو أن (ع).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ

مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾

﴿يَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن، وهي حفظه عليه وتشميره،
﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مطلوباً يطلب من المعاهد ألا يضيعه ويفي به^(١)، ويجوز
أن يكون تخيلاً، كأنه يقال للعهد: لم نكث؟ وهلا وفي بك؟ تبكيتاً للنكث، كما يقال
للموودة: «بأي ذنب قتلت؟» ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

وقرئ: ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾: بالضم والكسر، وهو القرسطون^(٢)، وقيل: كل ميزان صغر أو
كبر من موازين الدراهم وغيرها، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: وأحسن عاقبة، وهو تفعيل، من آل إذا
رجع، وهو ما يؤول إليه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: ولا تتبع، وقرئ: «ولا تقف»، يقال: قفا أثره وقافه، ومنه: القافة،
يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل، كمن يتبع مسلماً لا يدري
أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال، والمراد: النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن
يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهراً؛ لأنه اتباع لما لا يعلم
صحته من فساده، وعن ابن الحنفية: شهادة الزور، وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم
إذا مر بك، فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيتَه يفعل، وسمعتَه، ولم تر ولم تسمع، وقيل:
القفو شبيه بالعضية^(٣)، ومنه الحديث: «مَنْ قَفَى مُؤْمِنًا بِمَا لَيْسَ فِيهِ حَبْسُهُ اللَّهُ فِي رَدْعَةِ
الْخَبَالِ^(٤) حَتَّى يَأْتِيَ بِالْمَخْرَجِ» (٨٦٧)؛ وأنشد [من الطويل]:

٨٦٧ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٧٢) (٧١٢)، وقال ابن حجر: لم أره بهذا اللفظ مرفوعاً. =

(١) قال محمود: «أي يطلب من المعاهد أن يفى به ولا ينكثه... إلخ» قال أحمد: كلام حسن إلا
لفظة التخييل فقد تقدم إنكارها عليه، وينبغي أن يعوض بالتمثيل. والظاهر التأويل الأول، ويكون
المجور الذي هو «عنه» حذف تخفيفاً، وقد ذكر في بقية الآية «كل أولئك كان عنه مسؤولاً» والله
أعلم. وبعض تأويل سؤال العهد نفسه على وجه التمثيل وقوف الرحم بين يدي الله وسؤالها فيمن
وصلها وقطعها. وقد ورد ذلك في الحديث الصحيح، والله الموفق.

(٢) قوله: «بالقسطاس بالضم والكسر وهو القرسطون» أي القبان، كذا في النسفي (ع).

(٣) قوله: «وقيل القفو شبيه بالعضية» في الصحاح العضية البهية، وهي الإفك والبهتان (ع).

(٤) قوله: «حبسه الله في ردغة الخبال» في الصحاح الردغة - بالتحريك -: الماء والطين والرحل الشديد =

قلت: وأخرج أبو داود في سننه (٣/٣٠٥) - كتاب الأقضية - باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها - (٣٥٩٧)، والحاكم في المستدرک (٢/٢٧)، كلاهما من طريق عمارة بن غزية عن يحيى بن راشد عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ من حالت شفاعته... وفيه «ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، حبس في ردة الخبال حتى يأتي بالمخرج مما قال».

وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: وفي ذلك نظر؛ فإن «عمارة بن غزية» وثقه أحمد وأبو زرعة والعجلي، وقال: يحيى بن معين: صالح، وقال أبو حاتم: ما بحديثه بأس، كان صدوقاً. وقال النسائي: ليس به بأس، فالحديث حسن فحسب، والله تعالى أعلم.

فائدة: وقع تصحيف في المستدرک في اسم الصحابي، فوقع هناك «عبد الله بن عمرو» وكذلك عند الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٧٣) وابن حجر وليس كذلك، وإنما هو «عبد الله بن عمر»؛ فإن يحيى بن راشد لم يرو عن عبد الله بن عمرو البتة، وإنما يروى عن «عبد الله بن عمر» راجع تهذيب الكمال (٣١/٢٩٨) (٢٨٢٢). وله شاهد عند الطبراني في الكبير (١٢/٣٨٨) (١٣٤٣٥) من حديث ابن عمر أيضاً مرفوعاً: «من قال سبحان الله والحمد لله... وفيه: «ومن بهت مؤمناً أو مؤمنة حبسه الله في ردة الخبال يوم القيامة حتى يخرج مما قال، وليس بخارج».

قال الهيثمي في المجمع (١٠/٩٤): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجالهما رجال الصحيح، غير محمد بن منصور الطوسي وهو ثقة. ووجدته عند أحمد أيضاً في المسند (٢/٨٢) من حديث ابن عمر مرفوعاً: «ومن قفى مؤمناً أو مؤمنة، حبسه الله في ردة الخبال...» وفي الباب حديث معاذ بن أنس. أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد (ص ٢٣٩/٦٨٦) من طريق يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان أن إسماعيل بن يحيى المعافري أخبره عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ.. فذكره.

ومن طريق ابن المبارك أخرجه أحمد في المسند (٢/٤٤١). والطبراني في الكبير (٢٠/١٩٤) (٤٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/١٠٩) (٧٦٣١)، وإسماعيل بن يحيى المعافري قال الحافظ في التقریب (١/٧٥): مجهول. ويحيى بن أيوب قال الحافظ: صدوق ربما أخطأ. وعبد الله بن سليمان قال الحافظ: صدوق يخطئ.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أره بهذا اللفظ مرفوعاً؛ وإنما ذكره أبو عبيد في الغريب من قول حسان بن عطية، فقال: حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عنه بهذا. وروى أحمد والطبراني من رواية معاذ بن أنس - رفعه: «من قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شينه به، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» وفي مسند الشاميين للطبراني من طريق مطر الوراق، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر: «من قذف مؤمناً أو مؤمنة، حبس في ردة الخبال حتى يأتي بالمخرج» وهو عند أبي داود من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ: «من قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله ردة الخبال حتى يأتي بالمخرج. وهو يخرج مما قال» وأخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رفعه: «من قال في مؤمن ما ليس فيه، حبسه الله في ردة الخبال حتى يأتي بالمخرج». انتهى.

وكذلك الردغة بالتسكين. وفيه الخبال: العناء والفساد وأما الذي في الحديث من قفا مؤمناً بما ليس فيه وقفه الله تعالى في ردة الخبال حتى يجيء بالمخرج منه، فيقال: هو صديد أهل النار.

(١) يصف نساء بأنهن جميلات مثل الدمى، جمع دمية بالضم، وهو الصنم والصورة من العاج المرصعة =

أي: التقاذف، وقال الكميت [من الوافر]:

وَلَا أَرْمِي الْبَرِيَّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَا أَقْفُو الْحَوَاصِينَ إِنْ قُفِينَا^(١)

وقد استدل به سبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأن ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم، وأمر بالعمل به، ﴿فَأُولَئِكَ﴾: إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد؛ كقوله [من الكامل]:

وَالْعَيْشَ بَعْدَ أَوْلَيْكَ الْآيَامَ..... والعيشَ بَعْدَ أَوْلَيْكَ الْآيَامَ^(٢)

بالجواهر والشم؛ جمع شماء كحمر وحمرء، والعرائن: الأنوف، أي مرتفعات الأنوف كناية عن شرفهن وارتفاع قدرهن. أو كناية عن كونهن كرائم حرائر؛ لأن انخفاض الأنف خاص بالعبيد والإماء. وشبههن بالبيوت. وشبه الحياء بقوم يسكنونها على طريق المكنية والسكنى تخيل لذلك، وهو كناية ومبالغة في ملازمة الحياء لهن، لا يشعن: أي لا يظهرن التقافي، أي المتابعة بالقذف، من قفوته إذا اتبعته بالغيبة. وفي إشاعته: كناية عن نفيه، لأنها لازمة له، حيث إنه لا يكون إلا بين اثنين فأكثر.

(١) يقال: حصنت المرأة بالضم حصانة، فهي حاصن وحصناء وحصان. والحواصن: جمع حاصن: أي عفت فهي عفيفة، يقول: لا أتهم البريء بشيء زور، بل بذنب محقق. والظاهر أن هذا في معنى الاستثناء المنقطع؛ لأن البريء ما دام بريئاً لا ذنب له، ولا أتبع العفاف وأتكلّم فيهن بفحش ما دمن عفافهن إن قفاهن الناس، فتكلّموا فيهن فكيف إذا لم يتكلّم فيهن أحد؟.

(٢) لولا مراقبة العيون أريننا مقل المها وسوالف الآرام
هل ينهينك أن تقتلن مرقشاً أو ما فعلن بعروة بن حزام؟
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

لجبرير بن عطية يخاطب نفسه على طريق التجريد، يقول: لولا مراقبة النساء للعيون، أي الرقيب المتطلعين علينا، لبرزن لنا وأريننا عيونهن التي هي كعيون بقر الوحش، فمقل المها: استعارة مصرحة، وكذلك سواف الآرام. والسالفة: مقدم العنق وصفحته. والآرام: جمع رثم بالكسر والهمز، وهو الغزال الأبيض، وأصله «آرام» بهمز ممدود بعد الراء وزن أحمال، فقلب إلى ما قبلها. ويجوز أنه جمع ريم بالفتح وهو الغزال الأبيض، فهمز وقلب. وهل بمعنى قد. أو للتقرير. أي: أنه ينهاك عنهن مقتلهن مرقشاً العاشق المشهور. أو فعلهن بعروة العاشق أيضاً. وذم: فعل أمر، كأنه تذكر محبوبته في تلك الديار وتلك الأيام، فقال: ذم المنازل كلها حال كونها بعد، أي: غير منزلة اللوى. أو بعد مجاوزتك منزلة اللوى بلازم. واللوى: موضع بعينه من الرمل الملثوي، وذم الحياة كلها بعد حياتنا في تلك الأيام، أو ذم مدة الحياة كلها بعد تلك الأيام السابقة، وأشار لها بما للعقلاء لعظمتها عنده، ولأن تخصصه بالعقلاء طارئ في الاستعمال كما قيل ويجوز أن بعد ظرف المنازل وللعيش وبعض النحاة جعل «ذم» مبنياً للمجهول، وما بعده مرفوع به على النية.

ينظر: ديوانه ص ٩٩٠ (وفيه «الأقوام» مكان «الأيام»، وتخليص الشواهد ص ١٢٣، وخزانة الأدب ٤٣٠/٥، وشرح التصريح ١٢٨/١، وشرح شواهد الشافية ص ١٦٧، وشرح المفصل لابن يعيش، ولسان العرب (أولى)، والمقاصد النحوية ٤٠٨/١، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١٣٤/١، وشرح الأشموني ٦٣/١، وشرح ابن عقيل ص ٧٢، والمقتضب ١٨٥/١.

و ﴿عَنْهُ﴾: في موضع الرفع بالفاعلية؛ أي: كل واحد منها كان مسؤولاً عنه، فمستؤول: مسند إلى الجار والمجرور، كالمغضوب في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه، ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ: (والفؤاد): بفتح الفاء والواو، قلبت الهمزة واواً بعد الضمة في الفؤاد؛ ثم استصحب القلب مع الفتح.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٢٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢٨﴾

﴿مَرَحًا﴾: حال، أي: ذا مرح، وقرئ: (مرحاً)، وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل؛ لما فيه من التأكيد، ﴿لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾: لن تجعل فيها خرقاً^(١) بدوسك لها وشدة وطأتك، وقرئ: «لن تخرق»؛ بضم الراء، ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾: بتناولك، وهو تهكم بالمختال، قرئ: «سيئة وسيئه»، على إضافة سيء إلى ضمير كل، و «سيئاً» في بعض المصاحف، و «سيئات»، وفي قراءة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -: «كان شأنه».

فإن قلت: كيف قيل: سيئه مع قوله مكروهاً؟

قلت: السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبار بتأنيته، ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئاً؛ ألا تراك تقول: الزنا سيئة، كما تقول: السرقة سيئة، ٢٠١ ب فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث.

فإن قلت: فما ذكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن؛ ولذلك قرأ من قرأ: (سيئه): بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئة؟

قلت: كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٩)

﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: إلى هذه الغاية؛

(١) قال محمود: «معناه لن تجعل فيها خرقاً... إلخ» قال أحمد: وفي هذا التهكم والتفريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية في الانزجار عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين، أو شدا طرفاً من رياسة الدنيا، إذ هو يتبختر في مشيه ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يَمْرُون عليها وهم عنها معرضون، وماذا يفيد أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل، والله ولي التوفيق.

وسماه حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه، وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى، أولها؛ لا تجعل مع الله إلهاً آخر، قال الله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَمْ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه، وإن بذ فيها الحكماء^(١) وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضل من النعم.

﴿أَفَاصْفَكُمْ بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتَابًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤١)

﴿أَفَاصْفَكُمْ﴾: خطاب للذين قالوا: (الملائكة بنات الله)، والهمزة للإنكار، يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذ أدونهم وهي البنات؟ وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم؛ فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفها من الشوب، ويكون أردأها وأدونها للسادات، ﴿إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾: بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم؛ حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم^(٢) أدون خلق الله وهم الإناث.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾: يجوز أن يزيد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكرر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكاناً للتكرير، ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد، «ولقد صرفناه»، يعني: هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فترك الضمير؛ لأنه معلوم، وقرئ: «صرفنا»: بالتخفيف، وكذلك، ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾؛ قرئ مشدداً ومخففاً، أي: كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾: عن الحق وقلة طمأنينة إليه، وعن سفيان: كان إذا قرأها قال: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَيَّ الْغَرَسِ سَبِيلًا﴾ (٤٣) سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

(١) قوله: «وإن بذ فيها الحكماء» في الصحاح «بذه» غلبه وفاقه (ع).

(٢) قوله: «وهم أعلى خلق الله وأشرفهم» هذا على مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل من الملاك (ع).

قرئ: «كما تقولون»؛ بالتاء والياء، و ﴿فَإِذَا﴾: دالة على أن ما بعدها، وهو (لابتغوا): جواب عن مقالة المشركين وجزاء لـ «لو»، ومعنى ﴿لَا تَبْتَغُوا إِلَيَّ أَلَّهِ سَبِيلًا﴾: لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض؛ كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ فَسَدَّتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقيل: لتقربوا إليه؛ كقوله: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) [الإسراء: ٥٧]. ﴿وَأَفْعَلُوا﴾: في معنى: تعالياً، والمراد البراءة عن ذلك والنزاهة، ومعنى وصف العلو بالكبر: المبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به.

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال^(١)؛ حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تنطلق بذلك؛ وكأنها تنزه الله - عز وجل - مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها. فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ قلت: الخطاب للمشركين، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا: الله؛ إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم، فكأنهم لم ينظروا ولم يقرؤا؛ لأن نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق.

فإن قلت: من فيهن يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة^(٢) والثقلان، وقد عطفوا

(١) قال محمود: «المراد تسبيحها بلسان الحال من حيث تدل على الصانع... إلخ» قال أحمد: ولقائل أن يقول: فما يصنع بقوله ﴿كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وهو لا يغفر للمشركين ولا يتجاوز عن جهلهم وكفرهم وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنين، والظاهر أن المخاطب المؤمنون. وأما عدم فقهن للتسبيح الصادر من الجمادات، فكأنه - والله أعلم - من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من ذرات الكون تسبح الله وتنزهه وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره، وعمر خاطره بهذا الفهم، لكان ذلك يشغله عن القوت فضلاً عن فضول الكلام والأفعال، والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا، لو استشعر حال إفاضته فيها أن كل ذرة وجوهر من ذرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالى عليه، مشغولة مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته، وتيقظ لذلك حق التيقظ، لكاد أن لا يتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم أن الآية إنما وردت خطاباً على الغالب في أحوال الغافلين وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق. فالحمد لله الذي كان حليماً غفوراً.

(٢) عاد كلامه. قال: إن قلت «من فيهن يسبحون حقيقة وهم الملائكة... إلخ» قال أحمد: وقد تقدم نقلي عنه أنه يأبى حمل اللفظ على حقيقته ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة في النحل، ولكن ظهر من كلامه ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متناولاً =

على السموات والأرض، فما وجهه؟

قلت: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه، وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز، ﴿إِنَّكُمْ كَأَن حُلُمًا عَفْوًا﴾: حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾

﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾: ذا ستر؛ كقولهم: سيل مفعم ذو إفعام، وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور، ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب، فهو مستور بغيره، أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه: (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) [فصلت: ٥] كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾: كراهة أن يفقهوه، أو لأن قوله: (وجعلنا على قلوبهم أكنة): فيه معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه، يقال: وحد يحد وحدا وحدة؛ نحو: وعد يعدو عدا وعدة، و ﴿وَحَدَّوْهُ﴾: من باب رجع عوده على بدئه، وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر ساد مسد الحال، أصله: يحدو حده بمعنى واحداً؛ وحده، والنفور: مصدر، بمعنى: التولية، أو جمع نافر كقاعد وعود، أي: يحبون أن تذكر معه آلهتهم؛ لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا، ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾: من الهزوء بك وبالقرآن، ومن اللغو: كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلاً من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، و (به): في موضع / ٢٠٢ | الحال؛ كما تقول: يستمعون بالهزوء، أي: هازئين، و ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ﴾: نصب بأعلم، أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون، ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾: وبما يتناجون به، إذ هم ذوو نجوى، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: بدل من إذ هم، ﴿مَسْحُورًا﴾: سحر فجن، وقيل: هو من السحر وهو الرثة، أي: هو بشر مثلكم، ﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: مثلك بالشاعر والساحر والمجنون، ﴿فَضَلُّوا﴾: في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

= للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ، وقد يكون أراد ثم المجاز، والله الموفق.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَسْأَلُونَكَ عَنِ أَهْلِ كُوفٍ قُلْ هُوَ قُلٌّ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴿

لما قالوا: أنذا كنا عظاماً قيل لهم: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾: فرد قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً؛ فإنه يقدر على إحيائكم، والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وغضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائرته، فليس بيدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر - وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الجسارة والصلابة - لكان قادراً أن يردكم إلى حال الحياة، ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني: أو خلقاً مما يكبر عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياءه؛ فإنه يحييه، وقيل: ما يكبر في صدورهم الموت، وقيل: السموات والأرض، ﴿فَيَسْأَلُونَكَ عَنِ أَهْلِ كُوفٍ قُلْ هُوَ قُلٌّ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾: فسيحركونها نحوكم تعجباً واستهزاء.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٢﴾

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز، والمعنى: يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين متقادين لا تمتنعون؛ وقوله ﴿بِحَمْدِهِ﴾: حال منهم، أي: حامدين، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث؛ كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع، ستركبه وأنت حامد شاكر، يعني: أنك تحمل عليه وتفسر قسراً حتى أنك تلين لين المسموح^(١) الراغب فيه الحامد عليه، وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، ﴿وَتَظُنُّونَ﴾: وترون الهول؛ فعنده تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا، وتحسبونها يوماً أو بعض يوم، وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ يَنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿٥٤﴾

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾: وقل للمؤمنين، ﴿يَقُولُوا﴾: للمشركين الكلمة ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: وألين

(١) قوله: «المسموح» في الصحاح «أسمحت قروفته» أي ذلت نفسه وتابعت على الأمر (ع).

ولا يخاشنهم؛ كقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن، وفسر التي هي أحسن بقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ يُعَذِّبَكُمُ﴾، يعني: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر، وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾: اعتراض، يعني: يلقي بينهم الفساد، ويغري بعضهم على بعض؛ ليقع بينهم المشاركة والمشاقة، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: رباً موكولاً إليك أمرهم تقصرهم على الإسلام وتجبرهم عليه؛ وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمدارة والاحتمال وترك المحاق والمكاشفة؛ وذلك قبل نزول آية السيف، وقيل: نزلت في عمر - رضي الله عنه -: شتمه رجل فأمره الله بالعفو، وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: الكلمة التي هي أحسن: أن يقولوا يهديكم الله، يرحمكم الله، وقرأ طلحة: «ينزع»، بالكسر، وهما لغتان، نحو: يعرشون ويعرشون^(١).

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾

هو رد على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن تكون العراة الجوع أصحابه، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم، يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾: إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾: دلالة على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داود؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمد وأمه.

فإن قلت: هلا عرّف الزبور كما عرّف في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ﴾؟

قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس، والفضل وفضل، وأن يريد: وآتينَا داود بعض الزبور وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبوراً؛ لأنه بعض الزبور، كما سمي بعض القرآن قرآناً.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أُولَئِكَ

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولو مثل بـ» يَنْطِخُ «، و» يَنْطِخُ « وكأنه يعني من حيث إن لام كل منهما حرف حلق، وليس بطنال. انتهى. الدر المنصور.

الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل: نفر من الجن؛ عبداهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا، أي: ادعواهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه، و﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ، و﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: صفته، و﴿يَبْتَغُونَ﴾: خبره، يعني أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القرية إلى الله تعالى، و﴿أَيُّهُمْ﴾: بدل من واو يبتغون، وأي: موصولة، أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلق الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب، أو ضمن يبتغون / ٢٠٢ ب الوسيلة معنى: يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله؛ وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح، ويرجون، ويخافون، كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ﴾: حقيقة بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل، فضلاً عن غيرهم.

﴿وَلَنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي

الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

﴿نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾: بالموت والاستئصال، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾: بالقتل وأنواع العذاب، وقيل: الهلاك للمصالحة، والعذاب للطالحة، وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فعذابها ضروب، ثم ذكرها بلداً بلداً، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾: في اللوح المحفوظ.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا

بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة، و«أن» الأولى منصوبة، والثانية مرفوعة، تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والمراد: الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمرود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك، وقالوا: هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل، وقد عزمنا أن نؤخر

أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة، ثم ذكر من تلك الآيات - التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فاهلكوا - واحدة: وهي ناقة صالح؛ لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم، ﴿مُبْصِرَةٌ﴾: بينة، وقرئ: «مبصرة»: بفتح الميم، ﴿فَطْلَمُوا بِهَا﴾: فكفروا بها، ﴿وَمَا تُرْسِلُ إِلَّا نَذِيرًا﴾: إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى: لا نرسلها، ﴿إِلَّا تَخَوِيفًا﴾: من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم، وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّجَالَ الْيَمِينِ أَلْفًا فَتَنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفِثُوهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ ﴿٦٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾: واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش، يعني: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم؛ وذلك قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿٦٠﴾ [القمر: ٤٥]، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] وغير ذلك، فجعله كأن قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبى ﷺ في العريش مع أبي بكر - رضي الله عنه - كان يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ» ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (٨٦٨) ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: «وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» (٨٦٩)، وهو يومئذ إلى الأرض ويقول:

٨٦٨ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٧٤): غريب بهذا اللفظ. وقال ابن حجر: لم أجده هكذا. قلت: وأخرج البخاري بعضه في صحيحه (٨/١٣) - كتاب المغازي (٦٤) باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾ حديث رقم (٣٩٥٣) من حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك...

لم أجده هكذا، فاما أوله ففي البخاري عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبته يوم بدر: «اللهم إنني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إنني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد اليوم». فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ انتهى.

٨٦٩ - أخرجه مسلم في صحيحه (٦/٣٦٥ - ٣٦٦) - كتاب الجهاد والسير (٣٢) باب غزوة بدر (٣٠) حديث رقم (١٧٧٩/٨٣) من حديث أنس قال: إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان وفيه «هذا مصرع فلان» قال: ويضع يده على الأرض، ههنا وههنا. قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

«هَذَا مَضْرَعُ فَلَانٍ، هَذَا مَضْرَعُ فَلَانٍ»، فَتَسَامَعَتْ قَرِيشٌ بِمَا أَوْحَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَمْرِ يَوْمِ بَدْرٍ وَمَا أَرَى فِي مَنَامِهِ مِنْ مَصَارِعِهِمْ، فَكَانُوا يَضْحَكُونَ وَيَسْتَسْخِرُونَ وَيَسْتَعْجِلُونَ بِهِ اسْتِهْزَاءً وَحِينَ سَمِعُوا بِقَوْلِهِ: «إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْآثِمِينَ»^(١) جَعَلُوهَا سَخِرِيَّةً وَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّ الْجَحِيمَ تَحْرَقُ الْحَجَارَةُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَنْبَتُ فِيهَا الشَّجَرُ، وَمَا قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ. مِنْ قَالَ ذَلِكَ، وَمَا أَنْكَرُوا أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ الشَّجَرَةَ مِنْ جَنْسٍ لَا تَأْكُلُهُ النَّارُ! فَهَذَا وَبَرِ السَّمْنَدِلُ وَهُوَ دَوْبِيَّةٌ بَبِلَادِ التَّرَكِّ تَتَخَذُ مِنْهُ مَنَادِيلٌ، إِذَا اتَّسَخَتْ طَرَحَتْ فِي النَّارِ فَذَهَبَ الْوَسْخُ وَبَقِيَ الْمَنَدِيلُ سَالِمًا لَا تَعْمَلُ فِيهِ النَّارُ، وَتَرَى النِّعَامَةَ تَبْتَلِعُ الْجَمْرَ وَقَطْعَ الْحَدِيدِ الْحَمْرَ كَالْجَمْرِ بِإِحْمَاءِ النَّارِ فَلَا تَضُرُّهَا، ثُمَّ أَقْرَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَ فِي كُلِّ شَجَرَةٍ نَارًا فَلَا تَحْرَقُهَا، فَمَا أَنْكَرُوا أَنْ يَخْلُقَ^(٢) فِي النَّارِ شَجَرَةً لَا تَحْرَقُهَا، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْآيَاتِ إِنَّمَا يَرْسُلُ بِهَا تَخْوِيفًا لِلْعِبَادِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ خَوْفُوا بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَهُوَ الْقَتْلُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَمَا كَانَ مَا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾: مِنْهُ فِي مَنَامِكَ بَعْدَ الْوَحْيِ إِلَيْكَ، ﴿إِلَّا نَفْتَنَهُ﴾: لَهُمْ؛ حَيْثُ اتَّخَذُوهُ سَخِرِيَّةً وَخَوْفُوا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ وَشَجَرَةَ الزُّقُومِ فَمَا أَثَرُ فِيهِمْ، ثُمَّ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَتَخَوَّفُوهُمْ﴾ أَي: نَخَوْفُهُمْ بِمَخَافِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾: التَّخْوِيفَ ﴿إِلَّا طَغَيْنَا كَيْدًا﴾: فَكَيْفَ يَخَافُ قَوْمٌ هَذِهِ حَالَهُمْ بِإِرْسَالِ مَا يَقْتَرِحُونَ مِنَ الْآيَاتِ، وَقِيلَ: الرَّؤْيَا: هِيَ الْإِسْرَاءُ^(٣)، وَبِهِ تَعَلَّقَ مِنْ يَقُولُ: كَانَ الْإِسْرَاءُ فِي الْمَنَامِ، وَمَنْ قَالَ: كَانَ فِي الْيَقِظَةِ، فَسَرِ الرَّؤْيَا بِالرَّؤْيَةِ، وَقِيلَ: إِنَّمَا سَمَاهَا رُؤْيَا عَلَى قَوْلِ الْمَكْذِبِينَ؛ حَيْثُ قَالُوا لَهُ: لَعَلَّهَا رُؤْيَا رَأَيْتَهَا، وَخِيَالُ خَيْلٍ إِلَيْكَ؛ اسْتَبْعَادًا مِنْهُمْ، كَمَا سَمِيَ أَشْيَاءُ بِأَسَامِيهَا عِنْدَ الْكُفَرَةِ؛ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿قَرَأَ إِلَى ءَالِهِمْ﴾، ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدَّخَانُ: ٤٩] وَقِيلَ: هِيَ رُؤْيَاهُ أَنَّهُ سَيَدْخُلُ مَكَّةَ، وَقِيلَ: رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّ وَلَدَ الْحَكَمِ يَتَدَاوِلُونَ مِنْبَرَهُ كَمَا يَتَدَاوِلُ الصَّبِيَّانِ الْكِرَّةَ.

= أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا مَضْرَعُ فَلَانٍ، وَيُضَعُّ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ هَهُنَا». قَالَ: فَمَا مَاطَ أَحَدٌ عَنْ مَوْضِعِ يَدِهِ. انْتَهَى.

- (١) قَالَ مُحَمَّدٌ: «افْتَتَانَهُمْ بِالشَّجَرَةِ أَنَّهُمْ حِينَ سَمِعُوا بِقَوْلِهِ: إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ... إلخ» قَالَ أَحْمَدُ: وَالْعَمْدَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّارَ لَا تُؤْثِرُ إِحْرَاقًا فِي شَيْءٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجْرَى الْعَادَةَ أَنَّهُ يَخْلُقُ الْحَرَقَ عِنْدَ مَلَاقَاةِ جِسْمِ النَّارِ لِبَعْضِ الْأَجْسَامِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ لَا مِنْ فِعْلِ النَّارِ فَلِلَّهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَفْعَلَ الْحَرَقَ فِي الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ.
- (٢) قَوْلُهُ: «فَمَا أَنْكَرُوا أَنْ يَخْلُقَ» عِبَارَةٌ نَفْسِيَّةٌ: فَجَازَ أَنْ يَخْلُقَ (ع).
- (٣) عَادَ كَلَامُهُ. قَالَ: «وَأَمَّا الرَّؤْيَا فَقِيلَ الْإِسْرَاءُ، وَتَعَلَّقَ مِنْ جَعَلَهُ مَنَامًا بِهَذِهِ الْآيَةِ. وَقِيلَ: إِنَّمَا سَمَاهَا رُؤْيَا عَلَى زَعْمِ الْمَكْذِبِينَ... إلخ» قَالَ أَحْمَدُ: وَيَبْعَدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿طَلَّهَا كَأَنَّ رُؤْيُ السَّيِّطِينَ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنَّا﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟

قلت: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأن الشجرة لا ذنب لها/ ٢٠٣
أحتى تلعن على الحقيقة؛ وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز، وقيل: وصفها الله
باللعن؛ لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة،
وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم الطعام
الملعون: القشب المحقوق^(١). وعن ابن عباس: هي الكشوت التي تتلوى بالشجر يجعل
في الشراب، وقيل: أبو جهل، وقرئ: «والشجرة الملعونة»: بالرفع، على أنها مبتدأ
محذوف الخبر، كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١١﴾ قَالَ
أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ قُوْرًا ﴿١٣﴾ وَاسْتَفْزَزَ مِنْ
أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ يَصْوْنَكَ وَاجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ
وَكِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿طِينًا﴾: حال، إما من الموصول والعامل فيه: أسجد، على: أسجد له وهو طين،
أي: أصله طين، أو من الراجع إليه من الصلة على: أسجد لمن كان في وقت خلقه
طينًا، ﴿أَرَأَيْتَ﴾: الكاف: للخطاب، و﴿هَذَا﴾: مفعول به، والمعنى: أخبرني عن هذا،
﴿الذي كرمته﴾: ﴿عَلَيْكُمْ﴾: أي: فضله، لم كرمته علي وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام
بحذف ذلك، ثم ابتدأ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾: واللام: موطئة للقسم المحذوف،
﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾: لاستأصلهم بالإغواء، من احتنك الجراد الأرض: إذا جرد ما عليها
أكلًا، وهو من الحنك؛ ومنه ما ذكر سيويه من قولهم: أحنك الشاتين، أي: أكلهما.

فإن قلت: من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو الغيب؟

قلت: إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرج من قولهم: أتجعل
فيها من يفسد فيها، أو نظر إليه فتوسم في مخيله أنه خلق شهواني، وقيل: قال ذلك لما

(١) قوله: «الطعام الملعون القشب المحقوق» الخلط الضار يمزج بالطعام أو الشراب كالسم.
والمحقوق المذاب حتى يذهب عينه. أفاده الصحاح. وفيه «الكشوت» نبت يتعلق بأغصان الشجر
من غير أن يضرب بعرق في الأرض، قال الشاعر:

هو الكشوت فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)

عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة، ﴿أَذْهَبَ﴾: ليس من الذهب للذي هو نقيض المجيء؛ إنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخليه، وعقبه بذكر ما جره سوء اختياره في قوله: ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾، كما قال موسى - عليه السلام - للسامري: ﴿فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧].

فإن قلت: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟

قلت: بلى؛ ولكن التقدير: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب: ﴿جَزَاءَ مَوْفُورًا﴾، بما في ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ من معنى: تجازون، أو بإضمار تجازون، أو على الحال؛ لأن الجزاء موصوف بالموفور، والموفور الموفر، يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

استفزه: استخفه، والفز: الخفيف، ﴿وَأَجْلَبَ﴾: من الجلبة وهي الصياح^(١)، والخيل: الخيالة، ومنه قول النبي ﷺ: «يَا خَيْلَ اللَّهِ ازْكَبِي» (٨٧٠)، والرجل: اسم جمع للرجال؛

٨٧٠ - أخرجه الحازمي في كتابه «الناسخ والمنسوخ» (ص ٤٦٦) - باب المثلة ونسخها من طريق حمزة عن عبد الكريم، وسئل عن أبوالإبل فقال: حدثني سعيد بن جبيرة عن المحاربين فقال: كان ناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام فبايعوه وهم كذبة... وذكر قصة وفيها فأمر رسول الله ﷺ فتودي في الناس «يا خيل الله اركبي فركبوا لا ينتظر فارساً...». والبيهقي في دلائل النبوة (١٨٦/٤ - ١٨٧) وأخرجه الحاكم في المستدرک (٣٦٥/٢ - ٣٦٦) موقوفاً على علي بن أبي طالب. وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وعزاه ابن حجر في تخريج الكشاف لابن عائذ في المغازي عن الوليد بن مسلم عن سعيد ابن بشير عن قتادة قال: «بعث رسول الله ﷺ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب منادياً ينادي «يا خيل الله اركبي» وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٧٥/٢) للواقدي في كتاب الردة من قول خالد بن الوليد. وقال: وعجيب من السهيلي كيف عزا هذه اللفظة لمسلم، ذكره في الروض الآنف، في أول غزوة حنين... وقال: وأما أبو داود فإنه قال في كتاب الجهاد في سنته - باب النداء عند النفير «يا/خيل الله اركبي» ثم روى بسنده عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سمى خيلنا، خيل الله وفيه نظر لمن تأمله. فقال ابن حجر: فكأنه لم يتجه له مطابقة الحديث للترجمة، وهو ظاهر هنا؛ لأن المراد صحة هذه الإضافة.

أخرجه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ من طريق أبي حمزة السكري عن عبد الكريم: حدثني سعيد بن جبيرة عن قصة المحاربين قال: «كان ناس أتوا النبي ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام - =

(١) قوله: «من الجلبة وهي الصياح» في الصحاح: جلب على فرسه وأجلب عليه: صاح به من خلفه واستحثه للسبق اهـ (ع).

ونظيره: الركب والصحب، وقرئ: «ورجلك»؛ على أن فعلاً بمعنى: فاعل، نحو: تعب وتعب، ومعناه: وجمعتك الرجل، وتضم جيمه - أيضاً - فيكون مثل حدث وحدث، وندس وندس^(١)، وأخوات لهما، يقال: رجل رجل، وقرئ: «ورجالك، ورجالك».

فإن قلت: ما معنى: استفزاز إبليس بصوته وإجلاله بخيله ورجله؟

قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، وقيل: بصوته: بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله: كل راكب وماش من أهل العيث^(٢)، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال، وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما، كالربا والمكاسب المحرمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق، والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحارث، والتهود والتنجير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة، وغير ذلك، **وَعَدَهُمْ**: المواعيد الكاذبة^(٣)، من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة،

= وذكر القصة وفيها فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس: يا خيل الله اركبي: فركبوا، لا ينتظر فارس فارساً. وروى ابن عائد في المغازي عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي وعزا السهيلي في الروض في غزوة حنين هذه اللفظة في صحيح مسلم. فينظر فيه. وقال أبو داود في السنن: باب النداء عند التنفير: يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب «أن النبي ﷺ سمي خيلنا خيل الله» قلت: أشكل هذا على المخرج فقال: فيه نظر لمن تأمله. فكانه لم يتجه له مطابقة الحديث للترجمة. وهو ظاهر هنا؛ لأن المراد صحة هذه الإضافة. وقد وردت عن علي وخالد بن الوليد؛ ففي المستدرك للحاكم في قصة أويس من حديث أبي نضرة عن أسيد بن جابر، فذكر القصة، فقال في آخرها: فنادى علي: يا خيل الله اركبي وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة: «يا خيل الله اركبي، فركبوا وساروا إلى بني حنيفة» انتهى.

(١) قوله: «مثل حدث وحدث، وندس وندس» في الصحاح: رجل حدث وحدث، بضم الدال وكسرهما أي حسن الحديث. وفيه: رجل ندس وندس، أي: فهم (ع).

(٢) قوله: «العيث» في الصحاح «العيث» الإفساد (ع).

(٣) قال محمود: «المراد وعدهم المواعيد الكاذبة... إلخ» قال أحمد: وهذا من تجري المصنف على السنة ومتبعتها، فإنه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعداً من الرحمن، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة =

وتسوية التوبة ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة، وشفاعة الرسول في الكبائر والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً^(١)، وإيثار العاجل على الآجل، ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾: يريد الصالحين، ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: لا تقدر أن تغويهم، ﴿وَكَفَىٰ بَرِيكَ وَكِيلًا﴾: لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك؛ ونحوه قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويًا مضلاً، داعياً إلى الشر، صادًا عن الخير؟

قلت: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية، كما قال للعصاة: اعملوا ما شئتم.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُرِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنْكُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فُجِّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝٦٧﴾

﴿يُرِيحُ﴾: يجري ويسير، والضر: خوف الغرق، ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾: ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده؛ فإنكم لا تذكرن سواه، ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطر ببالكم أن غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوين، ويجوز أن يراد: ضل من تدعون/ ٢٠٣ ب من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده هو الذي ترجونه وحده^(٢) على الاستثناء المنقطع.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَفِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِعًا ۝٦٩﴾

﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾: الهمزة: للإنكار، والفاء: للعطف على محذوف تقديره: أنجوتهم فأمتم،

= والجماعة التي وعد بها الصادق المصدق، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق، من مواعيد الشيطان الباطلة وأمانيه الماحلة. اللهم ارزقنا الشفاعة، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(١) قوله: «بعد أن يصيروا حمماً» في الصحاح: الحمم: الرماد والفحم: الواحدة حممة، ثم ما أفاده من توقف المغفرة على التوبة وعدم الشفاعة في الكبائر، وعدم خروج أهلها من النار بعد احتراقهم هو مذهب المعتزلة. وأهل السنة على خلاف ذلك، كما تقرر في علم التوحيد (ع).

(٢) قوله: «ولكن الله وحده هو الذي ترجونه وحده» كأنه تكرر، وأسقطه الخازن في عبارته (ع).

فحملكم ذلك على الإعراض.

فإن قلت: بم انتصب ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾؟

قلت: بيخسف مفعولاً به، كالأرض في قوله: ﴿نَحْسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضُ﴾، و (بكم): حال، والمعنى: أن يخسف جانب البر، أي: يقلبه وأنتم عليه.

فإن قلت: فما معنى ذكر الجانب؟

قلت: معناه: أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برأ كان أو بحرأ سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك؛ بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف؛ لأنه تغييب تحت التراب كما أن الغرق تغييب تحت الماء، فالبر والبحر عنده سيان يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان، ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: وهي: الريح التي تحصب، أي: ترمي بالحصباء، يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرمحكم بها، فيكون أشد عليكم من الغرق في البحر، ﴿وَكَيْلًا﴾: من يتوكل بصرف ذلك عنكم، ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾: أن يقوّي دواعيكم، ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم، فينتقم منكم بأن يرسل: ﴿عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾: وهي: الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد، كأنها تقتصف أي: تتكسر، وقيل: التي لا تمر بشيء إلا قصفته، ﴿فَيَغْرِقْكُمْ﴾: وقرئ بالتاء، أي: الريح، وبالنون، وكذلك: نخسف، ونرسل، ونعيدكم، قرئت بالياء والنون، التبيع: المطالب، من قوله: ﴿فَالْيَبِيعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: مطالبة؛ قال الشماخ [من الوافر]:

كَمَا لَاذَ الْغَرِيمُ مِنَ التَّبِيعِ^(١)

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه، أي مصيطر عليه مطالب له بحقه. والمعنى: أنا نفعل ما نفعل بهم، ثم لا تجد أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودركاً للثأر من جهتنا. وهذا نحو قوله ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾^(٢). ﴿يَمَّا كَفَرْتُمْ﴾ بكفرانكم النعمة، يريد: إعراضهم حين نجاهم.

(١) يلوذ ثعالب الشرقيين منها كما لاذ الغريم من التبيع
للشماخ، يصف عقاباً تهرب منها ثعالب الشرقيين، وهو اسم موضع، أو جهة الجنوب وجهة الشمال، كالمشرقيين، كما لاذ: أي هرب والتجأ، الغريم: أي المدين، من التبيع: أي الدائن المطالب.

ينظر: ديوانه ص ٢٢٧، ولسان العرب (تبع).

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٧٠)

قيل في تكريمة ابن آدم: كرمه الله بالعقل، والنطق، والتميز، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد، وقيل: بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيرها لهم، وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد: أنه أحضر طعاماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾: جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، فأحضرت الملاعق فردّها وأكل بأصابعه، ﴿ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾: هو ما سوى الملائكة^(١)، وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم، والعجب من المجبرة كيف عكسوا^(٢) في كل شيء وكابروا، حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك؛ وذلك بعد ما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم، وأنى قريبهم، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة انبيائه من أممهم، ثم جرهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخباراً منهم: «قالت الملائكة^(٣): ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك، فأعطناه في الآخرة، فقال: وعزتي وجلالي، لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له:

(١) قال محمود: «المراد فضلناهم على ما سوى الملائكة... إلخ» قال أحمد: وقد بلغ إلى حد من السفه يوجب الحد، ولسنا لمساجلته إلا من حيث العلم، لا من حيث السفه. والقدر الذي تختص به هذه الآية أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر. ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم. والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وأشباهه كثير. وقد لمح الشاعر ذلك في قوله [من الطويل]:

قليل بها الأصوات إلا بغامها

أي لا أصوات بها، ولنا أن نقيه على ما هو عليه، ونقول: إن المخلوق قسمان: بنو آدم أحدهما وغيرهم من جميع المخلوقين القسم الآخر، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيراً، فمعنى قوله ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي على غيرهم من جميع المخلوقين، وتلك الأغيار كثير بلا مراء، وذلك مرادف لقولك: وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا، فظاهر الآية إذاً مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة، وتمشّدق في سبهم وشقشّق العبارات في ثلبهم، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، والله ولي التوفيق والتسديد.

(٢) قوله: «والعجب من المجبرة كيف عكسوا» يعني أهل السنة. وقوله: «تفضيل الإنسان» يعنون المؤمن. ويدل لمذهبهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ﴾ (٧٠) وأما الذين كفروا فهم شر البرية، ودعوى العكس من فرط التعصب للمعتزلة (ع).

(٣) قوله: «قالت الملائكة ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا» صدره كما في الخازن. لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة، وقوله: «خلقت بيدي» في الخازن: ونفخت فيه من روحي (ع).

كن فكان (٨٧١)، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن^(١) أكرم على الله من الملائكة

٨٧١ - ورد من حديث ابن عمر وجابر بن عبد الله:

- أما حديث ابن عمر، فأخرجه الطبراني في الأوسط (٩٩/٧ - ١٠٠) (٦١٦٩) من طريقة طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا...» وقال: لم يرو هذا الحديث عن صفوان بن سليم إلا طلحة بن زيد... قلت: وقع تصحيف في المطبوع من الأوسط «عبد الله بن عمرو» بدلاً من «عبد الله بن عمر» وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٧٦/٢) وابن حجر للطبراني في الكبير وقال ابن حجر: ورجاله ثقات. وله شاهد عند عبد الرزاق في تفسيره (٣٨٢/٢) أنا معمر عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم...﴾ الآية: قال: قالت الملائكة... فذكره موقوفاً عليه، وقال الدارقطني في علله: روى عبد المجيد بن أبي رواد عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «قالت الملائكة...» فذكره وقال: وقد رواه سريج بن يونس عن عبد المجيد فوقه وهو أصح. أ.هـ.

- ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية كذلك، وقال: هذا حديث لا يصح، وكان الحميدي يتكلم في عبد المجيد، وقال ابن حبان: يقلب الأخبار ويروي المناكير عن المشاهير؛ فاستحق الترك.
- وأما حديث جابر، فأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، والطبراني في مسند الشاميين؛ كما في «تخريج الكشاف للزيلعي (٢٧٧/٢).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن مهران: حدثنا طلحة بن زيد، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: رب، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها، ويشربون، ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك، لا نأكل، ولا نشرب، ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان» قال: لم يروه عن صفوان إلا طلحة وأبو غسان تفرد به طلحة محمد بن مهران. وعن أبي غسان حجاج الأعور؛ أخرج طريق حجاج في المعجم الكبير ورجاله ثقات. وله شاهد عند عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة فذكر نحوه موقوفاً عليه. وقال الدارقطني في العلل: روى عبد المجيد بن أبي داود، عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر. فذكر نحوه قال: ورواه شريح بن يونس عن عبد المجيد موقوفاً، وهو أصح، وله شاهد آخر أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، والبيهقي في الأسماء والصفات من رواية عبد ربه بن صالح عن عروة بن رويح أنه سمعه يحدث عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم وذريته، قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون، ويشربون، وينكحون، ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال تعالى: لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان» ومنها ما رواه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده» البيهقي في الشعب. من رواية حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة موقوفاً. وأخرجه ابن ماجه من هذه الطريق موقوفاً. وأبو المهزم متروك: وله شاهد أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من رواية عبيد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله =

(١) قوله: «قال لمؤمن أكرم على الملائكة» في الخازن: المؤمن (ع).

الذين عنده (٨٧٢)، ومن ارتكابهم أنهم فسروا: (كثيراً) بمعنى: «جميع» في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: وفضلناهم على جميع ممن خلقنا، على أن معنى قولهم: «على جميع ممن خلقنا»: أشجى لحلوهم وأقذى لعيونهم، ولكنهم لا يشعرون، فانظر إلى تمحلهم وتشبههم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملائكة الأعلى، كأن جبريل - عليه السلام - غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم^(١).

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٦)

قرئ: «يدعو»: بالياء والنون، ويدعى كل أناس، على البناء للمفعول، وقرأ الحسن: «يدعو كل أناس»: على قلب الألف واواً في لغة من يقول: افعوا، والظرف نصب بإضمار

يوم القيامة من بني آدم. قيل: ولا الملائكة. قال: ولا الملائكة. الملائكة مجبورون كالشمس والقمر قال البيهقي: تفرد به عبيد الله بن تمام يروي أحاديث معاوية وهو ضعيف. انتهى.

٨٧٢ - روي موقوفاً ومرفوعاً.

أما المرفوع: فأخرجه ابن ماجه (١٣٠١/٢ - ١٣٠٢) - كتاب الفتن (٣٦) - باب المسلمون في ذمة الله عز وجل (٦) (٣٩٤٧)، وابن حبان في كتاب الضعفاء (٩٩/٣)، كلاهما من طريق الوليد بن مسلم قال: حدثنا حماد بن سلمة قال: سمعت أبا المهزم. سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فذكره. وفي الزوائد للبوصيري (٢٢٧/٣): إسناده ضعيف؛ لضعف يزيد بن سفيان. قال ابن حبان في «يزيد بن سفيان»: كان ممن يهيم ويخطئ فيما يروي، فلما كثر في روايته مخالفة الأثبات، خرج عن حد العدالة. قد تركه شعبة. وضعفه يحيى بن معين وأبو حاتم، وقال النسائي: متروك. ينظر تهذيب الكمال (٣٢٨/٣٤) وعزاه الهيثمي في المجمع (٨٧/١) للطبراني في الأوسط وقال: فيه أبو المهزم وهو متروك. وأما الموقوف:

فأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٧٤/١) (١٥٢)، وقال: كذا رواه أبو المهزم عن أبي هريرة موقوفاً وأبو المهزم متروك. وله شاهد أخرجه البيهقي في الشعب (١٧٤/١) (١٥٣) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٠٣/١) (٤٨٦)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤٥/٤) كلهم من طريق عبيد الله ابن تمام السلمي، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شغاف، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. «ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم...».

قال ابن الجوزي: حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ؛ قال الدارقطني: عبيد الله بن تمام يروي أحاديث مقلوبة، وهو ضعيف، وقال ابن حبان: لا يحتج بخبره، وقال الهيثمي في المجمع (٨٧/١) رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف.

(١) قوله: «فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم» في الصحاح «السخيمة» الضغينة والموجدة في النفس (ع).

اذكر، ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع؛ كما في: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والرفع مقدر كما في: يدعى، ولم يؤت بالنون؛ قلة مبالاة بها؛ لأنها غير ضمير، ليست إلا علامة، ﴿يَا مَعْشَرَ﴾: بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين، أو كتاب، أو دين^(١)، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا، وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر، وفي قراءة الحسن: «بكتابهم»، ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأسمائهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأسماء دون الأباء رعاية حق عيسى - عليه السلام - وإظهار شرف الحسن والحسين، وألاً يفتضح أولاد الزنا، وليت/ ٢٠٤ أ شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظة أم بهاء حكمته^(٢)؟ ﴿فَمَنْ أَوْتَى﴾: من هؤلاء المدعويين، ﴿كَتَبَهُ يَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ قيل: أولئك؛ لأن من أوتي في معنى الجمع.

فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرءون كتابهم.

قلت: بلى، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جنائياته، والاعتراف بمساويه، أمام التنكيل به والانتقام منه، من الحياء والخجل والانخزال، وحبسة اللسان، والتتعتع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكان قراءتهم كلا قراءة، وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرءون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿هَؤُلَاءِ اقْرَءُوا كِتَابَهُمْ﴾، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء؛ كقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠]، ﴿فَلَا يَخَافُ عُظْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٦)

(١) قال محمود: «بإمامهم معناه بمن ائتموا به من نبي أو كتاب أو دين... إلخ» قال أحمد: ولقد استبدع بدعاً لفظاً ومعنى، فإن جمع الأم المعروف أمهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق ليدكر بأمه، فيستدعي أن خلق عيسى من غير أب غميمة في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فإن خلقه من غير أب كان آية له، وشرفاً في حقه، والله أعلم.

(٢) قال السمين الحلبي: «قلت: وهو معذور، لأن «أماً» لا تجمع على «إمام» هذا قول من لا يعرف الصناعة، ولا لغة العرب، وأما ما ذكره من المعنى فإن الله تعالى نادى عيسى باسمه مضافاً لأمه في عدة مواضع من قوله: ﴿يُحْيِي ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وأخبر عنه كذلك نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وفي ذلك غضاضة من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه - وكرم الله وجهه - قوله: ﴿فَمَنْ أَوْتَى﴾ يجوز أن تكون شرطية، وأن تكون موصولة، والفاء لشبهه بالشرط، وحمل على اللفظ أولاً، في ذلك قوله: «أوتي كتابه يمينه»، فأفرد، وعلى المعنى ثانياً في قوله: «فأولئك» فجمع. انتهى. الدر المصون.

معناه: ومن كان في الدنيا أعمى، فهو في الآخرة أعمى كذلك، ﴿وأضل سبيلاً﴾: من الأعمى، والأعمى: مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة: أما في الدنيا فللفقد النظر، وأما في الآخرة؛ فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى: التفضيل^(١)، ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول: مما لا، والثاني مفخماً^(٢)؛ لأن أفعال التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام^(٣)؛ كقولك: أعمالكم، وأما الأول: فلم يتعلق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً (٧٦) وَلَوْلَا أَن تَبْتَئِنَّاكَ لَكَدَّتْ رِجْلُكَ وَلَئِن تَرَكْنَا فِلْسًا (٧٧) إِذَا لَا ذَقْنَكَ ضَعُفَ الْحَيَوةِ وَضَعُفَ أَلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا (٧٨)﴾

روي أن ثقيفاً قالت للنبي ﷺ: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصلاً نفتخر بها على العرب: لا نعشر، ولا نحشر، ولا نجبي^(٤) في صلاتنا، وكل رباً لنا فهو لنا، وكل رباً علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا نكسرهما بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمنع من قصد وادينا وجّ فعضد شجره، فإذا سألتك العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني به، وجاءوا بكتابهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف: لا يعشرون ولا يحشرون، فقالوا: ولا يجبون، فسكت رسول الله ﷺ ثم قالوا للكاتب: اكتب: ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فسل سيفه، وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف، أسعر الله قلوبكم ناراً، فقالوا: لسنا نكلم إياك؛ إنما نكلم محمداً (٨٧٣)؛ فنزلت، وروي أن قريشاً قالوا له:

٨٧٣ - بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٧٩)، وقال ابن حجر: لم أجده، وذكره الثعلبي عن ابن =

- (١) عاد كلامه. قال: «وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل... إلخ» قال أحمد: أي لأنه من عمي القلب لا من عمي البصر، فجاز أن يبنى منه أفعّل.
- (٢) عاد كلامه. قال: «ومن ثم أمال أبو عمرو الأولى وفخم الثانية... إلخ» قال أحمد: يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى، أي: فمن أوتي كتابه يمينه فهو الذي يبصره ويقروءه، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك غير مبصر في كتابه، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا على اختلاف التأويلين، والله أعلم.
- (٣) قوله: «الواقعة في وسط الكلام» لعله الكلمة، كعبارة النسفي (ع).
- (٤) قوله: «لا نعشر ولا نحشر ولا نجبي» في الصحاح «التجبية» أن يقوم الإنسان قيام الراكع. وقال أبو عبيدة: تكون في حالين، أحدهما: أن يضع يديه على ركبتيه، والآخر ينكب على وجهه باركاً وهو السجود، وفيه «وج» بلد الطائف: وفيه أيضاً: عضدت الشجر، أي قطعتة (ع).

اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى تؤمن بك؛ فنزلت، ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ﴾: إن مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فانتين، ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: من أوامرنا ونواهيها ووعدنا ووعدنا، ﴿لِنَفْتِنَ عَلَيْكَ﴾: لتقول علينا ما لم نقل، يعني: ما أرادوه عليه من تبديل الوعد وعيداً والوعيد وعداً، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزله عليه، ﴿وَإِذَا لَاتَخْذُوكَ﴾ أي: ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك ﴿عَلَيْكَ﴾، ولكنت لهم ولياً، وخرجت من ولايتي، ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾: ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا، ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهيج من الله له وفضل تثبيت، وفي ذلك لطف للمؤمنين، ﴿إِذَا﴾: لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة، ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين.

فإن قلت: كيف حقيقة هذا الكلام؟

قلت: أصله: لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأن العذاب عذابان: عذاب في الممات، وهو عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار، والضعف يوصف به، نحو قوله: ﴿فَتَأْتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، بمعنى: مضاعفاً، فكان أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات^(١)، ثم حذف الموصوف

عباس من غير سند. انتهى.

(١) قال محمود: المراد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات... إلخ قال أحمد: أما تقليل الكيدودة فالذي ينبغي أن يحمل عليه كونه الواقع في علم الله تعالى؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فعلم تعالى أن الركون الذي كاد يحصل منه عليه السلام وإن كان ما حصل أمر قليل وخطب يسير، فذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع في علمه تقديراً، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتنبيه. فإن ذلك لا يكون في الإخبار. ألا ترى أنه لو كان الواقع كيدودة ركون كثير، لكان تقليله خلفاً في الخبر، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله على ما ورد: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبايح إلى الله عز وجل، فلقد استعظموا عظيماً حق على كل مسلم أن يستفطعه، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفاً ذاتياً للقبح، فلزمهم على ذلك أن كل فعل استقبح من العبد استقبح من الله تعالى، وهم غالطون في ذلك، فمعنى كون الفعل قبيحاً أن الله تعالى نهى عنه عبده، وإن كان الله تعالى أن يفعله، وهو حسن بالنسبة إليه ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسي الملك، ونهاه عن ذلك، ولا يستقبح ذلك من نفسه، بل هو منه حسن جميل. ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام ما لزمهم من الإشراك، عن استعظام غيره مما هو توحيد محض وإيمان صرف، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم فأروه حسناً، والله الموفق.

وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات، ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما تؤخره لما بعد الموت، وفي ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين - دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد^(١) - رضوان الله عليهم - نسبة المجبرة القبايح إلى الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - وفيه دليل على أن أدنى مدهانة للغواية مضادة لله وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها، فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها خشية وازدياد التصلب في دين الله، وعن النبي ﷺ أنها لما نزلت كان يقول: «اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»/ ٢٠٤ ب (٨٧٤).

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (٧٦) سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

﴿وَإِنْ كَادُوا﴾: وإن كاد أهل مكة، ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾: ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم، ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾: من أرض مكة، ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾: لا يبقون بعد إخراجك، ﴿إِلَّا﴾: زماناً ﴿قَلِيلًا﴾: فإن الله مهلكهم وكان كما قال، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجهم بقليل، وقيل: معناه: ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، وقيل: من أرض المدينة؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم، فاجتمعوا إليه، وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لأمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم، فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة، وقيل: بذئ الحليفة، حتى يجتمع إليه أصحابه، ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام، لحرصه على دخول

٨٧٤ - عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٧٩/٢) للثعلبي في تفسيره عن قتادة مرسلأ، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف: لم أجده، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلأ. انتهى.

(١) قوله: «ومن ثم استعظم مشايخ العدل» يعني المعتزلة. ويريد بالمجبرة: أهل السنة. حيث قالوا: إن الخير والشر كلاهما من عند الله يخلقه وإرادته، ولو كان من فعل العبد ظاهراً (ع).

الناس في دين الله (٨٧٥)؛ فنزلت، فرجع، وقرئ: «لا يلبثون»، وفي قراءة أبي: «لا يلبثوا» على إعمال «إذا».

فإن قلت: ما وجه القراءتين؟

قلت: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل، وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم، وأما قراءة أبي، ففيها الجملة برأسها التي هي: «إذا لا يلبثوا»، عطف على جملة قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾، وقرئ: «خلافك»^(١)؛ قال [من الكامل]:

عَفَّتِ الدِّيَارُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا^(٢)

أي بعدهم ﴿سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ يعني: أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد، أي: سن الله ذلك سنة.

﴿أَفِرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنْ آيَاتِ فَتْحِجَدٍ بِهِ نَافِلَةٌ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾

دلكت الشمس: غربت، وقيل: زالت، وروي عن النبي ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام لِذُلُوكِ الشَّمْسِ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، فصلَّى بي الظهر» (٨٧٦). واشتقاقه من

٨٧٥ - بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٨٠)، وقال ابن حجر: لم أجده، وذكره السهيلي في الروض عن عبد المجيد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم «أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام... فذكر نحوه... لكن قال: فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى - فذكره وزاد: وأمره بالرجوع، وقال: «فيها محياك ومماتك ومنها تبعث» وحديث عبد الرحمن بن غنم عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/٣٥٣) لابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل وابن عساكر.

٨٧٦ - أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١/٤٠١) (٥١٨) من طريق أيوب بن عتبة، عن أبي بكر ابن أبي عمرو بن حزم، عن عروة بن الزبير عن ابن أبي مسعود الأنصاري، عن أبيه أن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله ﷺ حين دلكت الشمس... وقال: وأيوب بن عتبة ليس بالقوي وأخرجه الطبري في تفسيره (٨/١٢٥) (٢٢٥٨١) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/٢٦٣) (٧٢٤) مطولاً. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٨١) لابن مردويه في تفسيره، وعزاه ابن حجر: لإسحاق في مسنده. كلهم من طريق يحيى بن سعيد، حدثني أبو بكر بن حزم، عن أبي =

(١) قوله: «وقرئ خلافك» كانت القراءة التي سبق تفسيرها: خلفك.

(٢) عفت: درست وهلكت، خلافهم: أي بعدهم. والشواطب: النساء يشققن شطب النخل: أي سعفه الأخضر، يعملنه حصيراً: يصف ديارهم بعدهم بدروسها وكثرة قمامتها لعدم كنسها.

الدلك؛ لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال، فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب، فقد خرجت منها الظهر والعصر، والغسق: الظلمة، وهو وقت صلاة العشاء، ﴿وَقَرَأَ الْقَجْرَ﴾: صلاة الفجر، سميت قرآناً وهو القراءة؛ لأنها ركن، كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً، وهي حجة على ابن علي والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن، ﴿مَشْهُوداً﴾: يشهده ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء، ويصعد هؤلاء؛ فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة، أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة، ويجوز أن يكون: (وَقَرَأَ الفجر): حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر؛ لكونها مكثوراً عليها؛ ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب؛ ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة، ﴿وَمِنَ الْإِيلِ﴾: وعليك بعض الليل، ﴿فَتَهَجَّ بِهْ﴾: والتهجد: ترك الهجود للصلاة؛ ونحوه: التأثم والتحرج، ويقال - أيضاً - في النوم: تهجد، ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تهجد؛ لأن التهجد عبادة زائدة، فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد، والمعنى: أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوع لهم، ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: نصب على الظرف، أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً، أو ضمن يبعثك معنى: يقيمك، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أن يبعثك ذا مقام محمود، ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه، وكل من رآه وعرفه، وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل:

 مسعود الأنصاري.. فذكره وقال ابن حجر: وهذا منقطع. قلت: وذلك؛ لأن أبا بكر لم يسمع من أبي مسعود.

وبمعناه ما أخرجه البزار في مسنده (٢٢٢٧) من حديث عمر بن قيس، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «دلوك الشمس زوالها» وقال: إنما يروى هذا الحديث موقوفاً على ابن عمر، ولم يسنده عن الزهري إلا عمر بن قيس، وكان لئيم الحديث. أ.هـ.
 وأخرج الطبري في تفسيره (١٢٥/٨) (٢٢٥٨٣) من حديث جابر بن عبد الله قال: دعوت نبي الله ﷺ ومن شاء من أصحابه، فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس فخرج النبي ﷺ فقال: «أخرج يا أبا بكر، قد دلكت الشمس».

وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه البيهقي من طريق أيوب بن عتبة، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عروة، عن ابن مسعود قال: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ حين دلكت الشمس - يعني حين زالت - فقال: قم فصل، فقام فصلى الظهر» قال إسحاق في مسنده: حدثنا بشر بن عمر حدثنا سليمان بن بلال حدثنا يحيى بن سعيد حدثني أبو بكر بن حزم عن أبي مسعود قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال له: قم فصل. وذلك لدلوك الشمس حين مالت. فقام فصلى الظهر أربعاً. ومن هذا الوجه أخرجه ابن مردويه. وهذا منقطع. انتهى.

المراد: الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناوله، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون، وتشرف فيه على جميع الخلائق: تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، ليس أحد إلا تحت لوائك، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ فِيهِ لِأُمَّتِي» (٨٧٧). وعن حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأول

٨٧٧ - ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة: فورد من حديث

١ - أبو هريرة، أخرجه الترمذي (٣٠٣/٥) - كتاب تفسير القرآن (٤٨) - باب «ومن سورة بني إسرائيل» - (٣١٣٧)، وأحمد في المسند (٤٤٤/٢ - ٤٧٨)، والواحدي في تفسير الوسيط (٣/ ١٢٢)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٨٤/٢) لابن أبي شيبة في مسنده، وابن مردويه في تفسيره كلهم من طريق داود بن يزيد الزغافري عن أبيه، عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ... قال الترمذي: حديث حسن، وداود الزغافري هو داود الأودي بن يزيد بن عبد الله قلت: وداود بن يزيد هو أبو يزيد الكوفي الأعرج، قال الحافظ في التقریب (٢٣٥/١): ضعيف.

٢ - وفي الباب حديث أنس

أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٣/١٥) - كتاب التوحيد (٩٧) - باب قول الله تعالى: ﴿وَجْهَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرٌ﴾ (٢٤) (٧٤٤٠) معلقاً.

٣ - وعن ابن عمر

وهو عند البخاري أيضاً (٣١٦/٩) - كتاب التفسير (٦٥) - باب قوله ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٤٧١٨).

٤ - وعن ابن مسعود

أخرجه النسائي في التفسير (٣٨٢/٦) (١١٢٩٦) مختصراً، والحاكم في المستدرک (٤٩٦/٤): ٤٩٨ مطولاً، كلاهما من طريق سلمة بن كهيل ثنا أبو الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال: ... وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. قلت: وفي ذلك نظر، فإن أبا الزعراء - واسمه عبد الله بن هانئ الكندي - لم يرو عنه إلا سلمة بن كهيل. قال البخاري في التاريخ الكبير (٥/ الترجمة ٧٢٠): لا يتابع في حديثه. وذكره العقيلي في الضعفاء وقال: سمع ابن مسعود، وفيه كلام ليس في حديث الناس، وساق له حديث الشفاعة بطوله، ووثقه العجلي وابن سعد. تهذيب الكمال (١٦/ ٢٤٠) وأخرج أحمد في المسند (١/ ٣٩٨ - ٣٩٩)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥) كتاب التفسير. كلاهما من طريق علي بن الحكم، عن عثمان بن عمير، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، وعن ابن مسعود، وعند الحاكم، عن عثمان، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: «جاء ابننا مليكة إلى النبي ... فذكره». وفيه قال النبي ﷺ: «ما شاء الله ربي، وما أطعمني فيه، وإنني لأقوم المقام المحمود يوم القيامة» ... وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعثمان بن عمير هو ابن اليقظان. وتعبه الذهبي فقال: «لا والله، فعثمان ضعفه الدارقطني، والباقون ثقات.

قلت: وقع تصحيح في المطبوع من تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٢٨٣)، فوقع «عثمان بن عمر أبي القظان» والصحيح ما تقدم.

٥ - حديث كعب بن مالك:

أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٣٦٣) - كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

مدعو محمد ﷺ فيقول: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالشَّرَّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَبِكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ النَّبِيِّ» (٨٧٨)^(١). قال: فهذا قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

= ٦ - حديث جابر

أخرجه مسلم في صحيحه (٥٠/٢) - كتاب الإيمان (١) - باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) (٣٢٠) عن يزيد الفقيه، قال: كنت قد شغفني رأي... وفيه - قال جابر - «فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام...».

٧ - وحديث أبي سعيد الخدري أخرجه الترمذي (٣٠٨/٥ - ٣٠٩) - كتاب تفسير القرآن (٤٨) (٣١٤٨)، وابن ماجه (١٤٤٠/٢) - كتاب الزهد (٣٧) - باب ذكر الشفاعة (٣٧) (٤٣٠٨)، كلاهما من حديث علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله... وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قلت: وتصحيح الترمذي فيه نظر؛ فإن علي بن زيد بن جدعان ضعيف. التقريب (٣٧/٢). وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، والترمذي من طريق داود بن يزيد الأودي، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ وسئل عنه فقال: «هي الشفاعة» وفي الباب عن أنس عند البخاري في التوحيد، وعن ابن عمر عنده في الزكاة. وعن ابن مسعود عند النسائي والحاكم، وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولاً. وعن كعب بن مالك عند الحاكم. وأصله عند مسلم وعن جابر عند أحمد والحاكم، واختلف في وصله وإرساله على الزهري. عن علي بن الحسين. وعن أبي سعيد عند الترمذي، وابن ماجه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه مطولاً. وعن سعد بن أبي وقاص عند ابن مردويه من رواية محمد بن الحسن عن أبي حنيفة، عن عبد العزيز بن ربيع، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: «سئل النبي ﷺ عن المقام المحمود فقال: هو الشفاعة». انتهى.

٨٧٨ - أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٣٨١/٦) - كتاب التفسير - (١١٢٩٤)، والحاكم في المستدرک (٣٦٣/٢ - ٣٦٤)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢٢٨/٢ - منحة) (٢٨٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٨/١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣١٩/٦) (٣١٧٤٤)، والبزار كما في كشف الأستار (١٦٧/٤) والبيهقي في البعث والنشور (ص ١٣٤/١١)، والطبري في تفسيره (١٣٢/٨) (٢٢٦٣١) كلهم من طرق عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان موقوفاً قال: يجمع الناس في صعيد واحد فلا تكلم نفس... وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة، إنما أخرج مسلم حديث أبي مالك الأشجعي عن ربعي بن خراش ليخرجن من النار فقط. ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع (٣٨٠/١٠): رواه البزار موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح.

وأخرجه الحاكم (٥٧٣/٤) من طريق ليث بن أبي سليم عن أبي إسحاق به مرفوعاً دون قول حذيفة: «فذلك المقام المحمود» وعزاه الهيثمي في المجمع (٣٨٠/١٠) للطبراني في الأوسط، وقال: وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وبقي رجاله ثقات. وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة =

﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَّاَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَّاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا

نَصِيْرًا﴾

قري: «مدخل ومخرج»: بالضم والفتح، بمعنى: المصدر، ومعنى الفتح: أدخلني فأدخل مدخل صدق، أي: أدخلني القبر مدخل صدق: إدخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً، ملقى بالكرامة، آمناً من السخط، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث، وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة - يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة -، وقيل: إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح، وإخراجه منها آمناً من المشركين، وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً، وقيل: إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر - وهو النبوة - وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط، وقيل: الطاعة، وقيل: هو عام في كل/ ٢٠٥ أ ما يدخل فيه ويلا بيه من أمر ومكان، ﴿سُلْطٰنًا﴾: حجة تنصرتني على من خالفني، أو ملكاً. وعزاً قوياً ناصراً للإسلام غلى الكفر مظهراً له عليه، فأجيب دعوته بقوله: ﴿وَاللّٰهُ يَعْصِيْكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْفٰزُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِيْنَ كٰلٰهُ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿ليستخلفهم في الأرض﴾ ووعد لينزعن ملك فارس والروم، فيجعله له، وعنه ﷺ: أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة، وقال: «انْطَلِقْ فَقَدْ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى أَهْلِ اللّٰهِ» ح، فكان شديداً على المريب، ليناً على المؤمن، وقال: «لَا وَاللّٰهِ، لَا أَعْلَمُ مُتَخَلِّفًا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقًا». فقال أهل مكة: يا رسول الله، لقد استعملت على

= (ص ٣٦٧ / رقم ٧٨٩) من طريق حماد بن سلمة عن عبد الله بن المختار عن أبي إسحاق به مرفوعاً.

قال ابن أبي حاتم في العلل (٢١٧/٢) سألت أبي عن حديث رواه حماد بن سلمة عن عبد الله بن المختار، عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، عن النبي فذكره. قال: قال أبي: لا يرفع هذا الحديث إلا عبد الله بن المختار، وموقفه أصح. قلت: قوله «لا يرفع هذا الحديث إلا عبد الله بن المختار» فيه نظر؛ لما تقدم من رواية ليث بن أبي سليم، فقد رفعه. وعزاه الحافظ في المطالب العالية (٣٨٦/٤ - ٣٨٧) لمسدد وابن أبي عمر، وأخرجه أيضاً ابن المنذر، وابن مردويه، والخطيب في المتفق، والمفتقر كما في الدر (٣٥٧/٤).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه النسائي، والحاكم، وابن أبي شيبه، والطبري، وأبو يعلى، والبخاري، وأبو نعيم في ترجمة حذيفة في الحلية؛ كلهم من طريق شعبة وإسرائيل، كلاهما عن أبي إسحاق سمعت عتبة بن زفر يقول: سمعت حذيفة يقول: «يجمع الناس» فذكره. انتهى.

أهل الله عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال ﷺ: «إِنِّي رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّأِثُ كَأَنَّ عِتَابَ بْنَ أُسَيْدٍ أَتَى بَابَ الْجَنَّةِ، فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ فَمَلَقَهَا فَمَلَقَهَا شَدِيداً حَتَّى فَتَحَ لَهُ فَدَخَلَهَا، فَأَعَزَّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ لِضُرَّتِهِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ يُرِيدُ ظَلْمَهُمْ؛ فَذَلِكَ السُّلْطَانُ النَّصِيرُ» (٨٧٩).

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً صنماً صنم كل قوم بحيالهم، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله - عز وجل - فقال: أي رب، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك فأوحى الله إلى البيت: «إني سأحدث لك نوبة جديدة، فأملأك خدوداً سجداً، يدفون إليك دفيف النور»^(١)، يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها، لهم عجيج حولك بالتلبية. ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل - عليه السلام - لرسول الله ﷺ: خذ مخضرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنماً صنماً، وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة، وكان من قوارير صفر، فقال: يا علي، ارم به، فحملة رسول الله ﷺ حتى صعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد ﷺ (٨٨٠) وشكاية البيت

٨٧٩ - عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٨٦) للثعلبي بإسناده إلى الكلبي، وابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي بإسناده عن الكلبي. قال: (سلطاناً مضيراً) عتاب ابن أسيد استعمله رسول الله ﷺ على أهل مكة، فذكره سواء، وأخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن خليفة الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. دون هذا الحديث. انتهى.

٨٨٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٨٧) غريب. وقال ابن حجر: لم أجده، قلت: وأخرج النسائي في الكبرى (٥/١٤٢) - كتاب الخصائص - (٨٥٠٧)، وأحمد في المسند (١/٨٤)، والحاكم في المستدرک (٢/٣٦٧)، وعزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه في مسنده؛ كلهم من طريق نعيم بن حكيم ثنا أبو مريم، علي - رضي الله عنه - قال: «انطلقت مع رسول الله ﷺ حتى أتينا الكعبة... فذكره. وليس فيه عند النسائي. أن ذلك كان في فتح مكة ولا تلاوة الآية. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله إسناده «صحيح والمتن منكراً» وأورده الهيثمي في المجمع (٦/٢٦) ونسبه لأحمد وابنه، وأبي يعلى، والبخاري. وقال: ورجال الجميع ثقات. قلت: وفي تصحيح الحاكم للحديث والذهبي للإسناد، نظر؛ فإن: نعيم بن حكيم: قال فيه النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن خراش: صدوق لا بأس به، ووثقه العجلي ويحيى بن معين في رواية. وقال ابن حجر في التهذيب: ونقل الساجي عن ابن معين تضعيفه، وقال الأزدي أحاديثه مناكير... لا يقوم حديثه (١٠/٤٥٨)، وقال ابن حجر في التقريب =

(١) قوله: «يدفون إليك دفيف النور» في الصحاح «الدفيف» الدبيب. وهو السير اللين، وفيه «العج» رفع الصوت، وقد عج يعج عجيجاً (ع).

والوحي إليه: تمثيل وتخيل، ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾: ذهب وهلك، من قولهم: زهقت نفسه، إذا خرجت، والحق: الإسلام، والباطل: الشرك، ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾: كان مضمحلًا غير ثابت في كل وقت.

﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢)

﴿وَنُزِّلَ﴾: قرئ بالتخفيف والتشديد، ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾: من للتبيين؛ كقوله: من الأوثان، أو للتبويض، أي: كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيمانًا، ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى، وعن النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِالْقُرْآنِ فَلَا شِفَاءَ لَهُ» (٨٨١)، ولا يزداد به الكافرون ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: نقصانًا؛ لتكذيبهم به وكفرهم؛ كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَفُوسًا﴾ (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾: بالصحة والسعة، ﴿أَعْرَضَ﴾: عن ذكر الله، كأنه مستغن عنه مستبد بنفسه، ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾: تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأي بالجانب: أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار؛ لأن ذلك من

= (٣٠٥/٢) صدوق له أوهام، وأما أبو مريم، وهو الثقي واسمه قيس المدائني: قال الدارقطني: مجهول؛ كما في التهذيب (٢٣٢/١٢ - ٢٣٣) وقال ابن حجر في التقریب (٤٧١/٢) أبو مريم الثقي اسمه قيس المدائني مجهول، ووثقه الذهبي في الكاشف (٣٧٦/٣) (ت ٣٧٩).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: قال لم أجده. وروى النسائي والحاكم من طريق ابن أبي مريم عن علي. قال: «انطلقت مع النبي ﷺ حتى أتينا الكعبة فقال لي: اجلس، فجلست. وصعد على منكبني فنهضت به فذكر الحديث» وليس فيه أن ذلك كان في فتح مكة. ولا تلاوة الآية وروى النسائي. انتهى.

٨٨١ - عزاه الزيلعي (٢٨٨/٢) وابن حجر في تخريج الكشاف للثعلبي. قلت: وذكره الهندي في كنز العمال (٩/١٠) (٢٨١٠٦) من حديث أبي هريرة، وعزاه للدارقطني في الأفراد، وله شاهد من حديث رجاء الغنوي عزاه الهندي في الكنز لابن القانع: وقال المناوي في فيض القدير (٤٩١/١) - رجاء الغنوي - واسمه منبه بن سعد بن قيس غيلان... وقد أشار الذهبي في تاريخ الصحابة إلى عدم صحة هذا الخبر. فقال في ترجمة رجاء هذا: له صحبة، نزل بالبصرة وله حديث لا يصح في فضل القرآن. أ.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من طريق أحمد بن الحرث الغساني. حدثنا ساكنة بنت الجعد، قالت: سمعت رجاء الغنوي يقول: قال رسول الله ﷺ. فذكره. انتهى.

عادة المستكبرين، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾: من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل، ﴿كَانَ يَتُوسَّ﴾: شديد اليأس من روح الله، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقرئ: «وناء بجانبه»: بتقديم اللام على العين؛ كقولهم: «راء» في: «رأى»، ويجوز أن يكون من «ناء» بمعنى: «نهض»، ﴿قُلْ كُلُّ﴾: أحد، ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، من قولهم: «طريق ذو شواكل»، وهي: الطرق التي تتشعب منه؛ والدليل عليه قوله: ﴿فَرَأَيْتُمْ أَكَلَمَ بَعْنٌ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: أسد مذهباً وطريقة.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان، سأله عن حقيقته، فأخبر أنه من أمر الله، أي: مما استأثر بعلمه، وعن ابن أبي بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعلم الروح (٨٨٢)، وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك، وقيل: جبريل - عليه السلام - وقيل: القرآن، و﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من وحيه وكلامه، ليس من كلام البشر، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح؛ فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين، وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة، فندموا على سؤالهم (٨٨٣)، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ﴾: -----

٨٨٢ - ذكره الواحدي في الوسيط (١٣٦/٣) وأبو الشيخ في العظمة (٨٦٧/٣) (٤٠٧) من طريق صالح بن حيان عن عبد الله بن بريدة - رضي الله عنه - قال: «ما تبلغ الجن والإنس والملائكة...» قلت وهذا إسناد ضعيف؛ فإن صالحاً هذا ضعيف كما في التقريب والحديث عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٦٢/٤) لابن أبي حاتم.

وقال الحافظ في تخرجه الكشف: ذكره الواحدي في الوسيط عن عبد الله بن بريدة بهذا في حديث لم يسبق لإسناده. انتهى.

٨٨٣ - أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٦٩/٢، ٢٧١) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثني رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس «أن مشركي قريش بعثوا...» وذكره ابن هشام في سيرته (٣٧٨/١) (٢٨٦) عن ابن إسحاق، وأورده القرطبي في تفسيره (٢٢٥/١٠) وكذا ابن كثير في البداية (٥٢/٣، ٥٣) قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة شيخ ابن إسحاق. والرواية الصحيحة في شأن سؤال النبي عن الروح ليس فيها ذكر لمشركي مكة.

أخرجها البخاري في صحيحه (١٩٤/١٥) - كتاب الاعتصام بالسنة (٩٦) - باب ما يكره من كثرة السؤال (٣) - حديث رقم (٧٢٩٧)، ومسلم (١٥٠/٩) - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) - باب سؤال اليهود النبي عن الروح (٤) - حديث رقم (٢٧٩٤)، والترمذي (٣٠٤/٥ - ٣٠٥) - كتاب تفسير القرآن (٤٨) - حديث رقم (٣١٤١) والنسائي في الكبرى (٣٨٣/٦) - كتاب التفسير -

باب قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (١١٢٩٩)؛ كلهم من طريق إبراهيم عن علقمة عن عبد =

الخطاب عام، وروي أن رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك، قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: بل نحن وأنتم لم تؤت من العلم إلا قليلاً، فقالوا: ما أعجب شأنك: ساعة تقول: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وساعة تقول هذا (٨٨٤)؛ فنزلت: (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) [لقمان: ٢٧]، وليس ما قالوه بلازم؛ لأن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة، فيوصف الشيء بالقلة مضافاً إلى ما فوقه، وبالكثرة مضافاً إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها؛ إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة، وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة، وقد تلوت: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فقل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله.

﴿وَلَيْنَ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَثِيرًا ﴿٨٧﴾

﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾: جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط، واللام الداخلة على إن موطئة للقسم، والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور/ ٢٠٥ ب والمصاحف، فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ﴾: بعد

= الله بن مسعود قال: ... فذكر الحديث.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجده هكذا. وذكره ابن هشام في السيرة عن زياد عن أبي إسحاق. وكذا أخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه: «أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث. فإذا عرفها فهو نبي: سلوه عن أقوام ذهبوا في الأرض فلم يدر ما صنعوا... القصة بطولها. انتهى.

٨٨٤ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٣/٨) (٢٢٦٨٧)، من طريق محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾... وأخرجه أيضاً (١٠/ ٢٢١) (٢٨١٤٨) من طريق ابن إسحاق قال: ثني رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ وأورده ابن كثير (٤٥١/٣) عن ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس به، وعزاه في الدر المنثور (٣٦١/٤) لابن مردويه في تفسيره، وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٩٠/٢) ذكره الثعلبي في سورة لقمان هكذا من غير سند.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

ذكره الثعلبي في تفسير «لقمان» بغير سند ولا راو، وروى ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة، لا أعلمه إلا عن ابن عباس. قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً. أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزل الله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر﴾.

الذهاب ﴿بِهِ﴾: من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مستوراً، ﴿إِلَّا يَكُنْ مِنْ رَبِّكَ﴾: إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع، بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به، وهذا امتنان من الله - تعالى - ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم ألا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما، وهما: منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ، وعن ابن مسعود: إن أول ما تفقدون من دينكم: الأمانة، وآخر ما تفقدون: الصلاة، وليصلين قوم ولا دين لهم، وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء، فقال رجل: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناءنا؟ فقال: يسرى عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب (٨٨٥).

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْآلِشُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾

﴿لَا يَأْتُونَ﴾: جواب قسم محذوف، ولولا اللام الموطئة؛ لجاز أن يكون جواباً للشرط؛ كقوله: [من البسيط]:

يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِيمٌ^(١)

لأن الشرط وقع ماضياً، أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله،

٨٨٥ - أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/٣٦٣) (٥٩٨١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/١٤٥) (٣٠١٩٣) - كتاب فضائل القرآن، وأخرجه أيضاً (٧/٥٠٥) (٣٧٥٨٥) - كتاب الفتن، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/١٥٣) (٨٧٠٠)، والواحدي في الوسيط (٣/١٢٦)، والحاكم في المستدرک (٤/٥٠٤) - كتاب الفتن؛ كلهم من طريق عبد العزيز بن رفيع عن شداد بن معقل قال: سمعت ابن مسعود يقول: «إن أول ما تفقدون...» وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٣٣٢ - ٣٣٣): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير شداد بن معقل وهو ثقة.

قال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني، وأخرجه ابن أبي شيبة وابن مردويه كلهم من طريق شداد بن معقل، عن عبد الله بن مسعود وزاد في آخره: ثم قرأ عبد الله: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾. انتهى.

والعجب من النوبات^(١) ومن زعمهم أن القرآن قديم^(٢) مع اعترافهم بأنه معجز^(٣)؛ وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة، فيقال: الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثاني القديم، فلا يقال للفاعل: قد عجز عنه، ولا هو معجز، ولو قيل ذلك، لجاز وصف الله بالعجز؛ لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال، إلا أن يكابروا فيقولوا: هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم^(٤): المكابرة وقلب الحقائق.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٨٩)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: رددنا وكررنا، ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾: من كل معنى، هو كالمثل في غرابته وحسنه، والكفور: الجحود.

فإن قلت: كيف جاز: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، ولم يجز: ضربت إلا زيدا؟ قلت: لأن أبى متاؤل بالنفي، كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورا.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ (٩٠) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ (٩٢) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣)

- (١) قوله: «النوبات» في الصحاح «النوبات من الأحداث» الأعمار. وفيه: رجل غمر: لم يجرب (ع).
- (٢) قال محمود: «والعجب من النوبات ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز... إلخ» قال أحمد: ومما يدل على حيد المصنف عن سنن المنصف أنه تدلس على الضعفة في مثل هذه المسألة التي طبقت طبق الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات الباري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضاً على أدلتها وهي هذه الكلمات الفصيحة والآي الكريمة قرآن، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول، لكنهم يتحزرون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم. والثاني: أن السلف الصالح كفوا عنه فافتقروا آثارهم واقتبسوا أنوارهم. وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بالزمه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.
- (٣) قوله: «ومن زعمهم أن القرآن قديم» يريد بهم أهل السنة حيث يقولون: إن القرآن قديم، لكن لا بمعنى اللفظ الذي يسمعه بعضنا من بعض، فإن هذا حادث بل بمعنى كلام الله الذي هو صفة له قائمة بذاته تعالى، فهذا هو القديم، كعلمه تعالى وإرادته (ع).
- (٤) قوله: «فإن رأس مالهم المكابرة» ليس كما قال غفر الله له، بل رأس مالهم التمسك بالكتاب والسنة، وتحري الحقائق (ع).

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبيّنات ولزمتهم الحجة وغلّبوا، أخذوا يتعلّلون باقتراح الآيات: فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة، فقالوا: لن نؤمن لك حتى.. وحتى ﴿تَفْجُرُ﴾: تفتح، وقرئ: «تفجر»: بالتخفيف، ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾: يعنون: أرض مكة، ﴿يَنْبُوءًا﴾: عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع، «يفعل»: من نبع الماء، كيعبوب من عب الماء، ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ يعنون: قول الله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩]. قرئ: «كسفاً»: يسكون السين جمع كسفة، كسدره وسدر، وبفتحه، ﴿قَبِيلًا﴾: كقبلاً بما تقول شاهداً بصحته، والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً، وبالملائكة قبيلاً؛ كقوله [من الطويل]:

..... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بِرِيًّا.....^(١)

[ومن الطويل]:

..... فَإِنِّي وَقِيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ^(٢)

أو مقابلاً، كالعشير بمعنى: المعاشرة ونحوه: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَكِيَّةَ أَوْ رَزَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢٩]، أو جماعة حالاً من الملائكة، ﴿مِن زُخْرٍ﴾: من ذهب، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: في معارج السماء، فحذف المضاف، يقال: رقى في السلم وفي الدرجة، ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾: ولن نؤمن لأجل رقيك، ﴿حَتَّىٰ تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾: من السماء فيه تصديقك، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال عبد الله بن أبي أمية: لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور، معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد

(١) رمانى بأمر كنت منه ووالدي برياً ومن جول الطوى رمانى

للفرزذق. يقول قذفني بأمر أنا بريء منه ووالدي، فكان: مجردة عن الماضي، وحذف خبر الوالد للدلالة عليه، والعطف من عطف الجمل. وبرياً: في نية التقديم، فلم يلزم تقدم شيء من المعطوف عليه على المعطوف: هذا رأي الجمهور. وأجاز بعضهم أن «والدي» عطف على اسم كان، فيكون «برياً» خبره، وخبر اسمها محذوفاً أو بالعكس، والعطف من عطف المفردات. ويجوز أن «برياً» خبر عنهما؛ لأن فعلاً يقال للواحد والمتعدد، لموازنته المصدر: كسهيل وضجيج ونحيب ونسيب، وإن كان استعماله كذلك بمعنى فاعل قليلاً. وجول الطوى - بالضم -: جانب البئر المطوي. والمعنى: أنه رمانى بأمر يرجع عليه هو، كأنه رمانى وهو في أسفل البئر بحجر فيرجع عليه، كناية عن مكافأته بأمر أعظم مما رماه به. ويجوز أن الأمر الذي رماه به متصف به الرامي، وهو أنسب بالتشبيه. ويروى من أجل الطوى. فليحرر.

ينظر: ديوانه (ص ١٨٧)، الدرر (٢/ ٦٢)، شرح أبيات سيويه (١/ ٢٤٩)، الكتاب (١/ ٧٥)، لسان العرب (حول).

(٢) تقدم.

واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا: هذا سحر؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧] ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: ١٤] وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه - بل هي أعظم - لم يكن إلى تبصرتهم سبيل، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ﴾، وقرئ: «قال سبحان ربي»، أي: قال الرسول، و (سبحان ربي): تعجب من اقتراحاتهم عليه، ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا رَسُولًا كَسَّاتِرَ الرِّسَالِ﴾، ﴿وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إلي؛ إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها علي.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾

﴿أن﴾ الأولى نصب مفعول ثانٍ لمنع، والثانية رفع فاعل له، و ﴿الهُدَىٰ﴾: الوحي، أي: وما منعهم الإيمان بالقرآن ونبوة محمد ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم، وهي: إنكارهم أن يرسل الله البشر، والهمزة في ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ﴾: للإنكار، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله؛ لأن قضية حكمته ألا يرسل ملك الوحي إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه: ﴿لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ﴾: على أقدامهم كما يمشي الإنسان ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء^(١)، فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه، ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: ساكتين في الأرض قازين، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾: يعلمهم الخير ويهديهم المرشد، فأما الإنسان فما هم بهذه المثابة؛ إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون بشراً وملكاً، منصوبين على الحال من رسولاً؟ قلت: وجه حسن، والمعنى له أجوب.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦)

﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ / ١٢٠٦: على أنني بلغت ما أرسلت به إليكم، وأنكم كذبتهم وعاندتم، ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ﴾: المنذرين والمنذرين، ﴿خَيْرًا﴾: عالماً بأحوالهم، فهو

(١) قال محمود: «معناه لو كانوا يمشون مشي الإنسان ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء... إلخ» قال أحمد: وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدر، وهو قول القائل: إن مجرد وجود الملائكة في الأرض يناسب إرسال الملك إليهم، فما فائدة هذه الزيادة؟ فيكون جوابه ما تقدم، والله الموفق.

مجازيهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة، وشهيداً: تمييز أو حال.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وِزْكَامًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْتًا أَهْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾: ومن يوفقه ويلطف به، ﴿يَهْدِ الْمُهْتَدِ﴾؛ لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه، ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾: ومن يخذل، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾: أنصاراً، ﴿عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ﴾؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ، قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ» (٨٨٦)، ﴿عُمِيًّا وَبِزْكَامًا وَصُمًّا﴾: كما كانوا في الدنيا، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك: لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم^(١)، ولا ينطقون بما يقبل منهم، ومن كان في هذه أعمى فهو في

٨٨٦ - أخرجه الترمذي (٣٠٥/٥) - كتاب تفسير القرآن (٤٨) - حديث رقم (٣١٤٢)، وأحمد في مسنده (٣٥٤/٢ - ٣٦٣)، والبيهقي في البعث والنشور (ص ٧٢/ ١١١) مختصراً. وعزاه الزليعي في تخريج الكشاف (٢٩٠/٢) لإسحاق بن راهويه والبخاري؛ كلهم من طريق علي بن زيد، عن أوس بن أوس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف...». وقال الترمذي: حديث حسن. قلت: «وليس كذلك؛ فإن فيه علي بن زيد وهو ابن جدهان ضعيف، ولكن لحديث شواهد، فأخرج البخاري في صحيحه (٤٣٧/٩) - كتاب التفسير (٦٥) - حديث رقم (٤٧٦٠)، ومسلم (١٦٣/٩) - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) - حديث رقم (٢٨٠٦) عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا، قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه الترمذي، وأحمد، وإسحاق، والبخاري من حديث أبي هريرة بهذا في حديث. وفيه علي بن مرثد وهو ضعيف. قال البخاري: لا نعلمه من حديث أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، ورواه ابن مردويه من رواية أبي داود نفع عن أنس مثله، وأصله في الصحيحين عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»

قوله «ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم» الذي في الصحاح: لذت الشيء - بالكسر -: وجدته لذيداً. انتهى.

(١) قوله: «ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم» الذي في الصحاح: لذت الشيء - بالكسر -: وجدته لذيداً (ع).

الآخرة أعمى، ويجوز أن يحشروا مؤفي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤون ويتكلمون، ﴿كَلِمًا خَبَتْ﴾: كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفتتها فسكن لهابها، بدلوا غيرها، فرجعت ملتبهة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيتها ثم يعيدها، لا يزالون على الإفناء والإعادة، ليزيد ذلك في تحسره على تكذيبهم البعث؛ ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد؛ وقد دل على ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٩٩)

فإن قلت: علام عطف قوله: (وجعل لهم أجلاً)؟

قلت: على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ لأن المعنى: قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم، كما قال: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ [النازعات: ٢٧] ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: وهو الموت أو القيامة، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحوداً.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

قَتُورًا﴾ (١٠٠)

(لو): حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء، فلا بد من فعل بعدها في: ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾، وتقديره: لو تملكون تملكون، فأضمر تملك إضماراً على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو: أنتم؛ لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فأنتم: فاعل الفعل المضمر، وتملكون: تفسيره، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان، فهو: أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ؛ ونحوه قول حاتم:

لَوْ ذَاتُ سَوَارٍ لَطَمْتَنِي

وقول المتلمس [من الطويل]:

وَلَوْ غَيْرُ أَخَوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي^(١)

.....

جمعت لهم فوق العرائن ميسما

بكف له أخرى عليه تقدما؟

(١) ولو غير إخواني أرادوا نقيصتي

وهل كنت إلا مثل قاطع كفه

للمتلص خال طرفة بن العبد، و«لو» من حروف الشرط، فمتى كان في حيزها فعل فهي أحق به، =

وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر، برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر، ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم، وقيل: هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها، ﴿قَتَرُوا﴾: ضيقاً بخيلاً.

فإن قلت: هل يقدر (لأمسكتكم): مفعول؟

قلت: لا؛ لأن معناه: لبخلتم، من قولك للبخيل: ممسك.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّ عَلَىٰ يَدَيْهِ إِسْرَءِيلُ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١١١﴾

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي تنقه على بني إسرائيل (٨٨٧)، وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات: مكان الحجر، والبحر، والطور (٨٨٨)، وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل محمد بن كعب، فذكر اللسان والطمس^(١)، فقال له عمر: كيف يكون الفقيه إلا هكذا، أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه، فإذا بيض مكسور بنصفين، وجوز مكسور، وفوم^(٢) وحمص وعدس، كلها حجارة، وعن صفوان بن عسال أن بعض اليهود سأل النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مُوسَى:»

٨٨٧ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٩٠/٢ - ٣٩١)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٥٥/٨) (٢٢٧٣٨)، من طرق عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله «تسع آيات بينات»... وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٧٠/٤) لـ «سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم». ٨٨٨ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٩١/٢)، ومن طريقه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٩١/٢).

= فغير إخواني فاعل لمحدوف يفسره المذكور، أي: ولو أراد غير إخواني. ويروى: أخوالي، نقيصتي: أي ظلمي، لو سميهم بالذل وسمياً ظاهراً، كأنه فوق الأنوف، وخصها لأنها لا تخفى. والميسم: آلة الوسم بالنار، والمراد أثره وهو السمة. وهل: استفهام إنكاري، أي: لو كافات إخواني لا أكون إلا مثل من قطع كفه بكفه الأخرى، والكف يذكر ويؤنث؛ فلذلك وصفه بأنه تقدم على الكف الآخر واعتدى عليه ووصفه بأخرى. والمقابلة بين الكفين تؤيد رواية إخواني بالنون.

وهو للمتلمس في ديوانه ص ٢٩، والأصمعيات ص ٢٤٥، وخزانة الأدب ٥٩/١٠ واللامات ص ١٢٨، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٤٩٠، ولسان العرب (نقص)، (وسم)، والمقتضب ٣/٧٧.

(١) قوله: «فذكر اللسان والطمس» لعله العقدة التي كانت بلسانه فحلها كما عده الخازن. وأما الطمس: فهو إجابة دعائه في قوله «ربنا اطمس على أموالهم» ويشير إلى ذلك ذكر ما في الجواب (ع).

(٢) قوله: «وفوم» في الصحاح «الفوم» الثوم. ويقال له: الحنطة (ع).

أَنْ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَسْخَرُوا، وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَمْشُوا بِبِرِّي إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلَا تَقْذِفُوا مُحَصَّنَةً، وَلَا تَفْرَؤْا مِنَ الزَّخْفِ، وَأَنْتُمْ يَا يَهُودَ خَاصَّةً لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ» (٨٨٩). ﴿فَسَتَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: فقلنا له: سل بني إسرائيل، أي: سلهم من فرعون^(١) وقل له: أرسل معي بني إسرائيل، أو: سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم، أو: سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك؛ وتدل عليه قراءة رسول الله ﷺ: «فسال بني إسرائيل»: على لفظ الماضي بغير همز، وهي لغة قريش، وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل، وهم: عبد الله بن سلام، وأصحابه عن الآيات؛ ليزدادوا يقيناً وطمأنينة قلب؛ لأن الأدلة إذا تظاهرت، كان ذلك أقوى وأثبت؛ كقول إبراهيم: (ولكن

٨٨٩ - أخرجه الترمذي (٣٠٥/٥) - كتاب التفسير (٤٨) - باب «ومن سورة بني إسرائيل» (٣١٤٤)، والنسائي (١١١/٧) - كتاب تحريم الدم (٣٧) - باب السحر (١٨) (٤٠٧٨)، وابن ماجه (٢/١٢٢١) - كتاب الأدب (٣٣) - باب الرجل يقبل يد الرجل (١٦) (٣٧٠٥)، مختصراً. وأحمد في مسنده (٢٣٩/٤ و ٢٤٠)، والحاكم في مستدركه (٩/١)، والطبراني في الكبير (٨٣/٨ - ٨٤/٧٣٩٦)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٥٦/٨ - ١٥٧) (٢٢٧٤٧) (٢٢٧٤٩) وأبو داود الطيالسي في مسنده (٦٩/٢ - ٧٠) (٢٢٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (٩٧/٥ - ٩٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٦٨/٦) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٨/٧) (٣٦٥٤٣)؛ كلهم من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن صفوان بن عسال: أن يهوديين قال: أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله... وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: حديث صحيح لا تعرف له علة بوجه من الوجوه، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. قلت: وهذا التصحيح فيه نظر؛ فإن «عبد الله بن سلمة» وهو المُرَادِي الكوفي أبو عالية؛ قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال أبو حاتم: تعرف وتُنكر، وقال الدارقطني في السنن (١٢١/٢) ضعيف، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وقال الذهبي في الكاشف. صويلح وقال العجلي تابعي ثقة، وقال ابن حجر في التقريب: صدوق تغير حفظه. والظاهر - والله أعلم - أن الحديث أعلى درجاته أنه حسن، والعلم عند الله تعالى. قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٩٣/٢)...

والحديث فيه إشكالات.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وأحمد، وإسحاق، وأبو يعلى، والطبراني: كلهم من رواية عبد الله بن سلام عن صفوان بن عسال أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله، فقال: لا تقل له نبي، فإن سمعتك صارت له أربعة أعين. فأتيا النبي ﷺ فسألاه. فذكر الحديث. ولم يقل أحد منهم «أوحى إلى موسى أن قل لبني إسرائيل» والباقي سواء. عبد الله بن سلام كبر، فسأه حفظه، وكان المسؤول عنه العشر كلمات؛ لأن عددها عشرة لا التسع آيات، لأن العشر وصايا كهذه، والتسع حجج على فرعون وقومه. انتهى.

(١) قوله: «سلهم من فرعون» يعني اطلبهم منه (ع).

ليطمئن قلبي).

فإن قلت: بم تعلق: ﴿إِذَا جَاءَهُمْ﴾؟

قلت: أما على الوجه الأول فبالقول المحذوف، أي: فقلنا لهم: سلمهم حين جاءهم، أو بسأل في القراءة الثانية، وأما على الأخير: فبأتينا، أو بإضمار اذكر، أو يخبروك، ومعنى (إذ جاءهم): إذ جاء آباءهم، ﴿مَسْحُورًا﴾: سحرت فخلوط عقلك.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (١٥٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرِفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٥٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنِّي إِسْرَءِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٥٤﴾

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾: يا فرعون، ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾: الآيات إلا الله، عز وجل، ﴿بَصَآئِرٍ﴾: بينات / ٢٠٦ ب مكشوفات، ولكنك معاند مكابر؛ ونحوه: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْأَلْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظَنًّا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقرئ: (علمت): بالضم، على معنى: إني لست بمسحور كما وصفتني، بل أنا عالم بصحة الأمر، وأن هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض، ثم قارع ظنه بظنه، كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك: ﴿مَثْبُورًا﴾: هالكاً، وظني أصح من ظنك؛ لأن له أمانة ظاهرة، وهي: إنكارك ما عرفت صحته؛ ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأما ظنك: فكذب بحت؛ لأن قولك مع علمك بصحة أمري: إني لأظنك مسحوراً: قول كذاب؛ وقال الفراء: (مثبوراً): مصروفاً عن الخير مطبوعاً على قلبك، من قولهم: ما تبرك عن هذا؟ أي: ما منعك وصرفك؟ وقرأ أبي بن كعب: «وإن إخالك يا فرعون لمثبوراً»: على: إن المخففة واللام الفارقة، ﴿فَأَرَادَ﴾: فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قطبه، ﴿أَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾: التي أراد فرعون أن يستفزكم منها، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: قيام الساعة، ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾: جمعاً مختلطين إياكم وإياهم، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقائكم، واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

﴿وَالْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقُّ نَزَّلٌ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٥٥)

﴿وَالْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقُّ نَزَّلٌ﴾: وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة؛ لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق، محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط

الشياطين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾: إلا لتبشرهم بالجنة، وتذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء، من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقْنَاهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٦١﴾﴾

﴿وَقَرَأْنَا﴾: منصوب بفعل يفسره ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾، وقراء أبي: «فرقناه»: بالتشديد، أي: جعلنا نزوله مفروقاً منجماً، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قرأ مشدداً وقال: لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة، يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب، ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾: بالفتح والضم: على مهل وتؤدة وثبت، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾: على حسب الحوادث.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٦٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٦٩﴾﴾

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾: أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، ألا يكثر بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه؛ وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل - وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع - قد آمنوا به وصدقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خروا سجداً وسبحوا الله؛ تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزل، وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا... وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين.

فإن قلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ تعليل لماذا؟

قلت: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله: ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾، وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ وتطبيب نفسه، كأنه قيل: تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأول: إن لم تؤمنوا به لقد آمن^(١) به من هو خير منكم.

فإن قلت: ما معنى الخرور للذنق؟

قلت: السقوط على الوجه؛ وإنما ذكر الذنق وهو مجتمع اللحيين؛ لأن الساجد أول

(١) قوله: «لقد آمن» لعله «فقد» (ع).

ما يلقي به الأرض من وجهه الذقن .

فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت: خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال [من الوافر]:

..... فخرّ صريعاً لليدين وللنم^(١)

قلت: معناه: جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به؛ لأن اللام للاختصاص.

فإن قلت: لم كّرر يخرون للأذقان؟

قلت: لاختلاف الحاليين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين .

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١١٠)

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمن، فقال: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر، وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الإسم؛ فنزلت، والدعاء بمعنى: التسمية، لا بمعنى: النداء، وهو يتعدى إلى مفعولين، تقول: دعوته زيدا، ثم يترك أحدهما؛ استغناء عنه فيقال: دعوت زيدا، والله والرحمن، المراد بهما: الإسم، لا المسمى، وأو للتخيير،

(١) فيوم الكلاب قد أزالتم رماحنا شرحبيل إذ ألى ألية مقسم
لينتزعن أرماحنا فأزاله أبو حنن عن ظهر شنقاء صلدم
تناوله بالرمح ثم انثنى له فخر صريعاً لليدين وللنم

لجابر الثعلبي. وقيل: البيت الثالث لشريح العبيسي. وقيل: لزهير. والكلاب بالضم اسم موضع الواقعة. وألى: أي حلف. والشنقاء: الطويلة من الخيل. والصلدم - بكسر المهملة -: القوية. ويروى: ثم انثنى له. وأصله: انثنى، فأدغمت النون بعد قلبها ثاء في الثاء. ولو قرئ: ثم انثنى، من أتاني وتمهل لجاز. ويروى: دلفت له بالرمح من تحت بزه. ويروى: شققت له بالرمح جيب قميصه. ولعل اختلاف الروايات لاختلاف القائل. والتناول: الأخذ، فالمعنى: لحقه فطعنه بالرمح، كأنه أخذه، ثم انثنى له: أي طعنه مرة أخرى، فسقط مطروحاً، وجعل ذلك ليديه وفمه؛ لأنها التي يستقبل بها الأرض أولاً حين سقوطه على وجهه، واللام هنا بمعنى على كما ذكره النحاة، وإن أنكره النحاس. ودلف دلفاً كتعب تعباً: إذا تقدم بسرعة وقارب بين خطاه. وجيب قميصه: كناية عن صدره؛ لأنه إذا شق طوق القميص بالرمح فقد شق الصدر.

وهو لجابر بن حني في شرح اختيارات المفضل ص ٩٥٥، وشرح شواهد المغني ٥٦٢/٢، وللأشعث الكندي في الأزهية ص ٢٨٨، ولربيع بن مكرم في الأغاني ٣٢/١٦، ولعصام بن المقشعر في معجم الشعراء ص ٢٧٠، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص ٥١١. والجنى الداني ص ١٠١ ورصف المباني ص ٢٢١، وشرح الأشموني ٢٩١/٢، ومغني اللبيب ٢١٢/١.

فمعنى: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾: سموا بهذا الإسم أو بهذا، واذكروا إما هذا وإما هذا، والتنوين في ﴿أَيَّ﴾: عوض من المضاف إليه، و﴿مَا﴾: صلة للإبهام المؤكد لما في أي، أي: أي هذين الإسمين سميتم وذكرتم، ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: والضمير في (فله): ليس براجع إلى أحد الإسمين المذكورين، ولكن إلى مساهما وهو ذاته تعالى؛ لأن التسمية للذات لا للإسم، والمعنى: أيًا ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه قوله: (فله الأسماء الحسنى)؛ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الإسمان؛ لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء، أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم، ﴿بصلاتك﴾: بقراءة صلاتك على حذف المضاف؛ لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر، والمخافتة: صفتان تعتقبان/٢٠٧ أ على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين، ﴿وَلَا تَخَافَتْ﴾: حتى لا تسمع من خلفك، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ﴾: الجهر والمخافتة، ﴿سَبِيلًا﴾: وسطاً، وروى أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته، ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر - رضي الله عنه - يرفع صوته ويقول: أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض (٨٩٠) قليلاً، وقيل: معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، وابتغ

٨٩٠ - ورد من حديث أبي قتادة، وأبي هريرة وعلي.

- أما حديث أبي قتادة:

فأخرجه أبو داود (٣٧/٢) - كتاب الصلاة - باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل حديث رقم (١٣٢٩)، والترمذي (٣٠٩/٢ - ٣١٠) - كتاب أبواب الصلاة - باب ما جاء في قراءة الليل - (٤٤٧)، والحاكم في مستدركه (٣١٠/١) - كتاب صلاة التطوع، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٨٩ - ١٩٠) (١١٦١)، وابن حبان في صحيحه (٦/٣ - ٧) (٧٣٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٥٢٨) (٢٦١٢) وقال هذا مرسل وقد روينا موصولاً من حديث أبي قتادة كلهم من طريق يحيى بن إسحاق السيلحيني قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة أن النبي ﷺ مر بأبي بكر وهو يصلي... وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حديث غريب، وإنما أسنده يحيى بن إسحاق عن حماد بن سلمة، وأكثر الناس إنما رَوَوْا هذا الحديث عن ثابت عن عبد الله بن رباح مرسلًا.

وقال ابن أبي حاتم في علله: سألت أبي عن حديث رواه يحيى بن إسحاق السيلحيني، عن حماد، عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة أن النبي - صلى العشاء... فذكر الحديث فقال أبي: أخطأ فيه السيلحيني، والصحيح، عن عبد الله بن رباح أن النبي ﷺ مرسلًا. قلت: ويحيى بن إسحاق البجلي أبو زكريا، ويقال: أبو بكر السيلحيني، قال أحمد بن حنبل: شيخ صالح ثقة، سمع من الشاميين ومن ابن لهيعة، وهو صدوق، وقال يحيى بن معين: صدوق المسكين، وقال الذهبي في الكاشف: ثقة، وقال ابن حجر في التقريب: صدوق.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة:

بين ذلك سبيلاً: بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار، وقيل: (بصلاتك): بدعائك، وذهب قوم إلى أن الآية منسوخة بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وابتغاء السبيل: مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرٌ﴾
تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

﴿وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾: ناصر من الذل ومانع له منه لاعترازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته.

فإن قلت: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد^(١)؟ قلت: لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد، وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية (٨٩١).

= أخرجه أبو داود في سننه (٣٧/٢ - ٣٨) (١٣٣٠) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ . . وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٢٨/٢) (٢٦١٢)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٦٩/٨) (٢٢٨٣٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٧٤/٤) لسعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد ابن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان إذا قرأ خفض . . . وله شاهد آخر من حديث علي - رضي الله عنه . .
أخرجه أحمد في المسند (١٠٩/١) ورجاله ثقات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم من رواية يحيى بن إسحاق السيلحيني عن حماد، عن ثابت، عن عبد الله بن رباح، عن أبي قتادة بمعناه. وليس فيه قوله «قد علم حاجتي» وفيه أن كلام كل منهما كان لما سأله النبي ﷺ عن ذلك؛ قال الترمذي: رواه أكثر الناس فلم يذكرأبا قتادة. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه لفظاً: فيه يحيى بن إسحاق، والصواب مرسلأ، وفي الباب عن علي أخرجه البيهقي في الشعب. وعن أبي هريرة أخرجه أبو داود من رواية محمد بن عمر. وعن أبي سلمة عنه مختصراً. وأخرجه الطبري من رواية محمد بن سيرين قال «نبئت أن أبا بكر فذكره» وقال فيه: أناجي ربي وقد علم حاجتي. انتهى.

٨٩١ - أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٣٤/٤) (٧٩٧٦) عن ابن عيينة، عن عبد الكريم أبي أمة. قال: =

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك . . الخ» قال أحمد: وقد لاحظ الزمخشري هنا ما أغفله عند قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم، بأن هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد ولا تناسيها، فإنك لو قلت ابتداء: الحمد لله الذي الذين كفروا به يعدلون، لم يكن مناسباً، والله أعلم.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَّقَ قَلْبُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْوَالِدَيْنِ كَانَ لَهُ قِنطَارٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالْقِنطَارُ: أَلْفُ أَوْقِيَّةٍ وَمِائَتَا أَوْقِيَّةٍ»، رزقنا الله بفضلہ العمیم وإحسانہ الجسیم (٨٩٢).

= كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام... وابن أبي شيبه في مصنفه (١٥٣/٦) - كتاب فضائل القرآن - باب في الصبيان متى يتعلمون القرآن - (٣٠٢٧٩) حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب قال: كان الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب علمه النبي ﷺ... وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - كما في الدر المنثور للسيوطي (٣٧٧/٤).

وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن أبي شيبه وعبد الرزاق. قالوا: أخبرنا ابن عيينة عن عبد الكريم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. انتهى.

٨٩٢ - تقدم برقم (٣٤٦).

سُورَةُ الْكَهْفِ

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا آيَةٌ ٣٨ وَمِنْ آيَةِ ٨٣ إِلَى غَايَةِ آيَةِ ١٠١ فَمَدَنِيَّةٌ]

وَأَيَاتُهَا ١١٠ [نَزَلَتْ بَعْدَ الْغَاشِيَةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَتَكَبِّرِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴿٥﴾﴾

لَقِنَ اللهُ عِبَادَهُ وَفَقَهُهُمْ كَيْفَ يَشْنُونَ عَلَيْهِ وَيَحْمَدُونَهُ عَلَى أَجْزَلِ نِعَمَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَهِيَ نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ نَجَاتِهِمْ وَفَوْزِهِمْ، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا﴾: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْعِوَجِ قَطْ، وَالْعِوَجُ فِي الْمَعَانِي: كَالْعِوَجِ فِي الْأَعْيَانِ، وَالْمُرَادُ: نَفْيُ الْإِخْتِلَافِ وَالتَّنَاقُضِ عَنْ مَعَانِيهِ، وَخُرُوجُ شَيْءٍ مِنْهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِصَابَةِ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمِ انتِصَبَ: ﴿قِيمًا﴾؟

قُلْتَ: الْأَحْسَنُ أَنْ يَنْتِصَبَ بِمُضْمَرٍ وَلَا يَجْعَلُ حَالًا مِنَ الْكِتَابِ؛ لِأَن قَوْلَهُ: (وَلَمْ يَجْعَلْ): مَعْطُوفٌ عَلَى «أَنْزَلَ»، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حَيْزِ الصَّلَةِ، فَجَاعَلَهُ حَالًا مِنَ الْكِتَابِ، فَاصِلٌ بَيْنَ الْحَالِ وَذِي الْحَالِ بِيَعُضِ الصَّلَةِ، وَتَقْدِيرُهُ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْضًا جَعَلَهُ قِيمًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا نَفَى عَنْهُ الْعِوَجَ فَقَدْ أَثْبَتَ لَهُ الْإِسْتِقَامَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ نَفْيِ الْعِوَجِ وَإِثْبَاتِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَفِي أَحَدِهِمَا غِنَى عَنِ الْآخَرِ؟

قُلْتَ: فَائِدَتُهُ: التَّأْكِيدُ، فَرُبَّ مُسْتَقِيمٍ مَشْهُودٍ لَهُ بِالْإِسْتِقَامَةِ وَلَا يَخْلُو مِنْ أَدْنَى عِوَجٍ عِنْدَ السَّبْرِ وَالتَّصَفُّحِ، وَقِيلَ: قِيمًا عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ: مُصَدِّقًا لَهَا، شَاهِدًا بِصِحَّتِهَا، وَقِيلَ: قِيمًا بِمُصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَا لَا بَدَ لَهُمْ مِنْهُ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَقُرِئَ «قِيمًا»، «أَنْذَرُ»: مُتَعَدِّ إِلَى

مفعولين؛ كقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠] فاقصر على أحدهما، وأصله: ﴿يُنْذِرُ﴾: الذين كفروا، ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾: والبأس من قوله: (بعذاب بئيس)، وقد بؤس العذاب، وبؤس الرجل بأساً وبأسه، ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾: صادراً من عنده، وقرئ: «من لدنه»: بسكون الدال مع إشماع الضمة وكسر النون، ﴿وَيَنْشُرُ﴾: بالتخفيف والتثقيل.

فإن قلت: لم اقتصر على أحد مفعولي أنذر؟

قلت: قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه، فوجب الاختصار عليه؛ والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله: ﴿وَيُنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: متعلقاً بالمنذرين من غير ذكر المنذر به، كما ذكر المبشر به في قوله: ﴿أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾: استغناء بتقدم ذكره، والأجر الحسن: الجنة، ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد أو باتخاذها، يعني: أن قولهم هذا لم يصدر عن علم، ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد اشتملته^(١) آباؤهم من الشيطان وتسويله.

فإن قلت: اتخاذ الله ولداً في نفسه محال، فكيف قيل: ما لهم به من علم^(٢)؟

قلت: معناه: ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصول إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به، قرئ: «كبرت كلمة»، وكلمة: بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ، وفيه معنى التعجب؛ كأنه قيل: ما أكبرها كلمة، و﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: صفة للكلمة تفيد استعظاماً لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتماثلون أن يتفوهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشوراً^(٣) من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ: «كبرت» بسكون الباء مع إشماع الضمة.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في كبرت؟

- (١) قوله: «وقد اشتملته» لعله: اشتملته، بإهمال السين وسكون الميم (ع).
(٢) قال محمود: «إن قلت اتخاذ الله ولداً في نفسه محال فكيف قيل لهم... إلخ» قال أحمد: قد مضى له في قوله تعالى ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ أن ذلك وارد على سبيل التهكم، وإلا فلا سلطان على الشرك حتى ينزل. ونظيره:

ولا يرى الضب بها ينجحر

وقد قدمت حينئذ أن الكلام وارد على سبيل الحقيقة والأصل، وأن نفي إنزال السلطان تارة يكون لاستحالة إنزاله وجوده، وتارة يكون، لأنه لم يقع وإن كان ممكناً، والله أعلم.

- (٣) قوله: «تشورا من إظهاره» أي تباعداً من إظهاره، كأنه عورة. وفي الصحاح «الشوار» الفرج. ومنه قيل: شور به، كأنه أبدى عورته (ع).

قلت: إلى قولهم: (اتخذ الله ولداً)، وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.

﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦)

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم / ٢٠٧ ب وتلهفاً على فراقهم، وقرئ: «باخع نفسك»: على الأصل، وعلى الإضافة: أي قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال فيمن قرأ: «إن لم يؤمنوا»، وللمضي فيمن قرأ: «أن لم يؤمنوا»، بمعنى: لأن لم يؤمنوا ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾: بالقرآن، ﴿أَسَفًا﴾: مفعول له، أي: لفرط الحزن، ويجوز أن يكون حالاً، والأسف: المبالغة في الحزن والغضب، يقال: رجل أسف وأسيف.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَسْبُلُوهَا أَمَّا أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١٠) ﴿فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِم فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١)

﴿مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ يعني: ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها، ﴿يَسْبُلُوهَا أَمَّا أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: وحسن العمل: الزهد فيها وترك الاغترار بها، ثم زهد في الميل إليها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾: من هذه الزينة، ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يعني: مثل أرض بيضاء لا نبات فيها، بعد أن كانت خضراء معشبة، في إزالة بهجته، وإماطة حسنة، وإبطال ما به كان زينة: من إماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار، ونحو ذلك ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق^(١) فوقها من الأجناس التي لا حصر لها، وإزالة ذلك كله كأن لم يكن، ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة، والكهف: الغار الواسع في الجبل، ﴿وَالرَّقِيمِ﴾: اسم كلبهم؛ قال أمية بن أبي الصلت [من الطويل]:

وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا الرَّقِيمُ مُجَاوِرًا وَصِيدُهُم وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ هُمْدٌ^(٢)

(١) قوله: «مما خلق» لعله بما «خلق» (ع).

(٢) لأمية بن أبي الصلت، والرقيم: كلب أصحاب الكهف. والوصيد: فناء البيت وبابه وعتبته، والبيت يحتملها. والهمد: جمع هامد، أي: راقد. والقوم: عطف على الرقيم. يقول: ليس في تلك الصحراء إلا الكلب حال كونه مجاوراً لفناء غارهم، وإلا لقوم حال كونهم رقاداً في الكهف: أي الغار.

وقيل: هو لوح من رصاص، رقت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف، وقيل: إن الناس رقموا حديثهم نقرأ في الجبل، وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، وقيل: الجبل، وقيل: قريتهم، وقيل: مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين، ﴿كَانُوا﴾: آية، ﴿عَجَبًا﴾: من آياتنا وصفاً بالمصدر، أو على: ذات عجب، ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك، وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء؛ ﴿وهي لنا من أمرنا﴾: الذي نحن عليه من مفارقة الكفار، ﴿رَشَدًا﴾: حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشداً كله؛ كقولك: رأيت منك أسداً، ﴿فَضَرَيْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع، يعني: أنماهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات، كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه، فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال: بنى على امرأته، يريدون: بنى عليها القبة، ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾: ذوات عدد، فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة؛ لأن الكثير قليل عنده؛ كقوله: ﴿لَمْ يَبْسُتُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال الزجاج: إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعد، وإذا كثر احتاج إلى أن يعد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ﴿١٢﴾

﴿أي﴾: يتضمن معنى الاستفهام، فعلق عنه ﴿لِنَعْلَمَ﴾: فلم يعمل فيه، وقرئ: «ليعلم»، وهو معلق عنه - أيضاً - لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد «يعلم» إليه، وفاعل «يعلم»: مضمون الجملة، كما أنه مفعول «نعلم»، ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾: المختلفين منهم في مدة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك؛ وذلك قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٤] وكان الذين قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم: هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم، و ﴿أَحْصَىٰ﴾: فعل ماض، أي: أيهم ضبط^(١)، ﴿أَمَدًا﴾: لأوقات لبثهم.

فإن قلت: فما تقول فيمن جعله من أفعال التفضيل؟

قلت: ليس بالوجه السديد؛ وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس؛ ونحو: «أعدى من الجرب»، و «أفلس من ابن المذلق»: شاذ، والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به؟ ولأن (أمدًا) لا يخلو: إما أن ينتصب بأفعل^(٢)، فأفعل لا يعمل،

(١) قال محمود: أحصى فعل ماض، أي: لتعلم أيهم ضبط أمدًا... إلخ قال أحمد: وقد جعل بعض النحاة بناء أفعل من المزيد فيه الهمز قياساً، وادعى ذلك مذهباً لسيبويه، وعلله بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة، وإنما هو تعويض همزة بهمزة.

(٢) عاد كلامه. قال: «وأيضاً فلو كان للتفضيل لم يخل انتصاب أمدًا إما بأفعل... إلخ» قال أحمد: =

وإما أن ينصب بلبثوا، فلا يسد عليه المعنى، فإن زعمت أني أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى؛ كما أضمر في قوله [من الطويل]:

..... وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا^(١)

على: نضرب القوانس، فقد أبعدت المتناول وهو قريب؛ حيث أبيت أن يكون أحصى فعلاً، ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره.

= ولقائل أن ينصبه على التمييز، كانتصاب العدد تمييزاً في قوله تعالى ﴿وَأَحْمَيَّ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ويعضد حمله على أفعال التفضيل وروده في نظير الواقعة واختلاف الأحزاب في مقدار اللبث، وذلك في قوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ أَتُمْلَّهُمْ طَرِيقَةً إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ فاملهم طريقة: هو أحصاهم لما لبثوا عدداً. وكلا الوجهين جائز، والله أعلم.

(١) فلم أر مثل الحي حياً مصباحاً ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمي للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور المذاكي والرماح المداعسا
إذا الخيل حالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا
للعباس بن مرداس السلمي، والحي بنو زبيد من اليمن. وأكر: أشد كراً. وأحمي: أشد حماية. والحقيقة: ما يستحق الذب عنه من عرض ومال. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى بيضة الفارس وأعلى رأس الفرس. والمذاكي: الخيل العناق العتاق التي أتى عليها بعد قروحها سنة، جمع المذاكي اسم مفعول. والمداعس: الرماح الصم التي يطعن بها. والدعس بالتحريك الأثر، والمداعسة المطاعنة. والمدعس: الرمح الأصم الذي يطعن به. ويروى: جالت، بدل حالت أي: مالت إلى جول بالجيم أي ناحية. وأما الحول بالحاء فهو التحول. والصريع: الطريق على الأرض، ونكرها: نرجعها. والعوايس: كالحات الوجوه من الجري في الغبار. وحيا مصباحاً، أي: مأتياً في الصباح مفعول. ومثل الحي: حال، على أن رأى بصرية. أو مفعول ثان، على أنها علمية، وأكر: بدل من حيا، ولا يصح جعله صفة أو مفعول ثان؛ لأنك لو قلت: ما رأيت مثل زيد رجلاً أفضل منه لم يستقم المعنى إلا على البدلية؛ لأن المماثلة تنافي المفاضلة، إلا أن تكون المماثلة في صفة والمفاضلة في أخرى، فلا مانع منه حينئذ. وأضرب: أفعال تفضيل، بدل من فوارس على ما تقدم، فهو لف ونشر مرتب. وأفعال التفضيل لا يعمل النصب في المفعول به، بل حكى الإجماع على ذلك، فالقوانص نصب بمحذوف، أي: يضرب القوانس أي الرؤوس، لكن قال محمد بن مسعود في كتابه البديع: غلط من قال: إن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به، واستشهد بهذا البيت وغيره. وبين مدح الفريقين بقوله: إذا شددنا عليهم مرة قابلونا بالخيل العتاق والرماح الجيدة، فهم شجعان. ويقول: إذا مالت خيلنا أو تحولت عن قتيل منا، نرجعها عليهم لأجل الثأر، فما ترجع إلا كوالح، فنحن أشجع منهم.

ينظر: ديوانه ص ٦٩، والأصمعيات ص ٢٠٥، وحماسة البحتري ص ٤٨، وخزانة الأدب ٨/ ٣١٩، ٣٢١، وشرح التصريح ٣٣٩/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٤٤١، ١٧٠٠، ولسان العرب (قنس)، ونوادير أبي زيد ص ٥٩، خزانة الأدب ٧/ ٢١٠، والأشياء والنظائر ١/ ٣٤٤، ٧٩/٤، وأمالى ابن الحاجب ١/ ٤٦٠، وشرح الأشموني ١/ ٢٩١، ومغني اللبيب ص ٢/ ٦١٨، الكشف ٤/ ٤٢٩، الدر المصون ١/ ١٨٠.

فإن قلت: كيف جعل الله - تعالى - العلم بإحصائهم المدة غرضاً في الضرب على أذانهم؟

قلت: الله - عز وجل - لم يزل عالماً بذلك؛ وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم، ليزدادوا إيماناً واعتباراً، ويكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفارهم.

﴿تَحْنُ نَفْصُ عَلَيْنِكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّمُمْ فِتْيَةُ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ وَرَبَّنَا عَلَي قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَهَاهُ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝١٤ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾

﴿وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾: بالتوفيق والتثبيت، ﴿وَرَبَّنَا عَلَي قُلُوبِهِمْ﴾: وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام، ﴿إِذْ قَامُوا﴾: بين يدي الجبار وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... شَطَطًا﴾: قولاً ذا شطط، وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط: إذا بعد، ومنه: أشط في السوم وفي غيره، ﴿هَؤُلَاءِ﴾: مبتدأ، و ﴿قَوْمُنَا﴾: عطف بيان، ﴿وَاتَّخَذُوا﴾: خبر، وهو إخبار في معنى: إنكار، ﴿لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ﴾: هلا يأتون على عبادتهم، فحذف المضاف، ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾: وهو تبكيث؛ لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد، وأنه/٢٠٨ أ لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت، ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: بنسبة الشريك إليه.

﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْهًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝١٦﴾

﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾: خطاب من بعضهم لبعض، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم، ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾: نصب، عطف على الضمير، يعني: وإذا اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم، ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾: يجوز أن يكون استثناء متصلًا، على ما روي: أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة، وأن يكون منقطعاً، وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله - تعالى - عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير الله، ﴿مَرْفَقًا﴾: قرئ بفتح الميم وكسرهما، وهو ما يرتفق به: أي ينتفع، إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم، لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم، وإما أن يخبرهم به نبي في عصرهم؛ وإما أن يكون بعضهم نبياً.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (٧)

﴿تَزَاوَرُ﴾ أي: تمايل، أصله: تتزاور، فبخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها، وقد قرئ بهما، وقرئ: تزور، وتزوار: بوزن تحمرّ وتحمار، وكلها من الزور وهو الميل؛ ومنه: زاره إذا مال إليه، والزور: الميل عن الصدق، ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾: جهة اليمين، وحقيقتها: الجهة المسماة باليمين، ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾: تقطعهم لا تقريبهم من معنى القطيعة والصرم؛ قال ذو الرمة [من الطويل]:

إِلَى ظُلْعِنٍ يَقْرِضُنْ أَقْوَارًا مُشْرِفٍ شِمَالًا وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾: وهم في متسع من الكهف، والمعنى: أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم، وقيل: في متفصح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار، ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ما صنعه الله بهم - من ازوار الشمس وقرصنها طالعة وغاربة - آية من آياته، يعني: أن ما كان في ذلك السميت تصيبه الشمس ولا تصيبهم؛ اختصاصاً لهم بالكرامة، وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش، فهم في مقناة^(٢) أبداً، ومعنى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾: أن شأنهم

(١) نظرت بجرعاء السبية نظرة ضحى وسواد العين في الماء شامس

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالاً وعن أيمانهن الفوارس

لذي الرمة. وجرعاء السبية: اسم موضع، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الفاعل. وضحى: ظرف، وسواد العين... إلخ. جملة حالية، في الماء، أي: الدمع شامس، أي كثير الحركة والاضطراب. يقال: شمس الفرس والرجل شمساً، إذا ساء خلقه، والظعينة: المرأة في الهودج أو المطية عليها امرأة أو لا، أو الهودج فيه امرأة أو لا. والجمع ظعن وظعن وأظعان وظعاني ويقرضن أي يقطعن. وأقواز مشرف: أعالي جبل مشرف. ويروى أجواز جمع جوز بمعنى المجاز والطريق، أي: يفصلنه عنهن، وشمالاً: جهة الشمال، والفوارس: اسم موضع، وجعله جمع فارس، كما قيل: تبعده المقابلة.

ينظر: ديوانه ص ١١٢، ولسان العرب (قوز)، (فرس)، (قرض) وكتاب العين ٥/٥٠، وتهذيب اللغة ٨/٣٤٢، وأساس البلاغة (قرض)، وتاج العروس (قوز)، (فرس)، ١٩/١٥، وتهذيب اللغة ٩/٢٣٨، المخصص ١٢/١١٤، وديوان الأدب: ٢/١٦٨.

(٢) قوله: «فهم في مقناة» في الصحاح: قال أبو عمرو «المقناة» والمقنوة الذي لا تطلع عليه الشمس. وقال: غير مقناة. ومقنوة. بغير همز: نقيض المضحاة (ع).

وحديثهم من آيات الله، ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾: ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوهمهم، فلفظ بهم وأعانهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح، واهتدى إلى السعادة، ومن تعرّض للخذلان، فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله.

﴿وَتَحَسَّبَهُمْ أَيْكَافًا وَهُمْ رُفُودٌ وَتَقَلَّبَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلَبَهُمْ بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۖ﴾

﴿وَتَحَسَّبَهُمْ﴾: بكسر السين وفتحها: خطاب لكل أحد، والأيقاظ: جمع يقظ، كأنكاد في نكد، قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً، وقيل: لكثرة تقلبهم، وقيل: لهم تقلبتان في السنة، وقيل: تقلبة واحدة في يوم عاشوراء، وقرئ: «ويقلبهم»: بالياء، والضمير لله تعالى، وقرئ: «وتقلبهم»: على المصدر منصوباً، وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه: ﴿وَتَحَسَّبَهُمْ أَيْكَافًا﴾؛ كأنه قيل: وترى وتشاهد تقلبهم، وقرأ جعفر الصادق: «وكالبهم»، أي: وصاحب كلبهم، ﴿بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ﴾: حكاية حال ماضية؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي، وإضافته إذا أضيف حقيقة معرفة؛ كغلام زيد، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية، والوصيد: الفناء، وقيل: العتبة، وقيل: الباب، وأنشد [من الطويل]:

بِأَرْضِ قُضَاءٍ لَا يُسَدُّ وَصِيدُهَا عَلَيَّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ^(١)

وقرئ: «ولمُلئت»: بتشديد اللام للمبالغة، وقرئ بتخفيف الهمزة وقلبها ياء، و ﴿رُغْبًا﴾: بالتخفيف والتثقيل، وهو الخوف الذي يرعب الصدر، أي: يملؤه؛ وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم، وقيل: لوحشة مكانهم، وعن معاوية أنه غزا الروم فمرّ بالكهف، فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس - رضي الله عنه -: ليس لك ذلك، قد منع الله - تعالى - منه من هو خير منك، فقال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث ناساً وقال لهم: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله

(١) لزهير. والوصيد: الفناء والباب والعتبة. يقول: نزلت في أرض خالية من البناء، تصلني فيها الضيفان والقفاة، ليس فيها بناء له وصيد. فيسد علي فتحجب عني الضيفان كأهل الحضر، فنفي السد كناية عن نفي الوصيد من أصله، وإحساني بها معروف لا ينكره أحد من الناس. ينظر: تاج العروس (فضل).

ينظر: في ديوانه ١٠٧ و الدرر ٢٤٤/٥، وشرح شواهد المغني ٣٨٤/١، ولسان العرب (رجم)، وشرح قطر الندى ص ٢٦٢، وجمع الهوامع ٩٢/٢، الخزائن ١٠/٣، الدر المصون ٤٩/١.

عليهم ريحاً فأحرقتهم (٨٩٣)، وقرئ: «لو اطلعت»: بضم الواو.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾: وكما أنماهم تلك النومة كذلك بعثناهم؛ إذكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً؛ ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله - تعالى - ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به، ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: جواب مبني على غالب الظن، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب، وأنه لا يكون كذباً وإن جاز أن يكون خطأ، ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾: إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدة لبثهم، كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بالهام من الله أن المدة متطاولة، وأن مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله، وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال، فظنوا أنهم في يومهم، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك.

فإن قلت: كيف وصلوا قولهم: ﴿فَابْعَثُوا﴾ بتذاكر حديث المدة؟

قلت/ ٢٠٨ب: كأنهم قالوا: ربكم أعلم بذلك؛ لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شيء آخر مما يهتمكم، والورق: الفضة، مضروبة كانت أو غير مضروبة، ومنه الحديث أن عرفة أصيب أنفه يوم الكلاب^(١) فاتخذ أنفاً من ورق فأتتن، فأمره رسول الله ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب (٨٩٤)، وقرئ: «بوزقكم»: بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة، وقرأ

٨٩٣ - أخرجه الواحدي في تفسيره (١٤٠/٣)، وذكره الحافظ ابن حجر في تخريجه على الكشاف، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وعبيد بن محمد، وأبو بكر بن أبي شيبة من رواية يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، وإسناده صحيح.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي حاتم، وعبيد بن محمد، وأبو بكر بن أبي شيبة من رواية يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وإسناده صحيح. انتهى.

٨٩٤ - أخرجه أبو داود (٩٢/٤): كتاب الخاتم: باب ما جاء في ربط الأسنان بالذهب، حديث (٤٢٣٣)، والترمذي (٢٤٠/٤): كتاب اللباس: باب ما جاء في شد الأسنان بالذهب، حديث (١٧٧٠)، =

(١) قوله: «يوم الكلاب» في وقعة الكلاب، وهو بالضم: اسم ماء كانت عنده الواقعة، أفاده الصحاح (ع).

ابن كثير: «بورقكم»: بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف، وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم، وهذا غير جائز؛ لالتقاء الساكنين لا على حده، وقيل: المدينة طرسوس، قالوا: وتزودهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم: دليل على أن حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأي المتوكلين على الله، دون المتكلمين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات؛ ومنه قول عائشة - رضي الله عنها - لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه -: «أوثق عليك نفقتك (٨٩٥)، وما حكى عن بعض صعاليك العلماء^(١) أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله، وتعلم منه ذلك، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم، فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده: ما لهذا السفر إلا شيآن: شدّ الهميان، والتوكل على الرحمن، «أيها» أي: أهلها، فحذف الأهل؛ كما في قوله: «وَسَلِّ الْفَرِيَّةَ» [يوسف: ٨٢]، «أَزْكَى طَعَامًا»: أحل وأطيب وأكثر وأرخص، «وَلَيْتَلَطَّفَ»: وليتكلف اللطف والنية^(٢) فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن، أو في أمر التخفي حتى لا يعرف، «وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا»: يعني: ولا يفعلن ما يؤدي من

= والنسائي (١٦٣/٨ - ١٦٤): كتاب الزينة: باب من أصيب أنفه هل يتخذ أنفًا من ذهب، وأحمد في مسنده (٢٣/٥)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢٣/٥). كلهم من طرق عن عبد الرحمن بن طرفة عن جده عرفجة بن أسعد فذكره.

قال الترمذي (٢٤١/٤): هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث عبد الرحمن بن طرفة، وقد روى سلم بن زبير عن عبد الرحمن بن طرفة، نحو حديث أبي الأشهب، وقد روى غير واحد من أهل العلم أنهم شدوا أسنانهم بالذهب، وفي هذا الحديث حجة لهم وقال عبد الرحمن بن مهدي: سلم بن زبير وهو وهم، وأبو سعيد الصنعاني اسمه محمد بن ميسر. وأخرجه أحمد (٢٣/٥) عن عبد الرحمن بن طرفة بن عرفجة عن أبيه عن جده فذكره. وأخرجه أبو داود (٩٢/٤): كتاب الخاتم: باب ما جاء في ربط الأسنان بالذهب، حديث (٤٢٣٢) وأحمد في مسنده (٣٤٢/٤)، (٢٣/٥) من طرق عن عبد الرحمن بن طرفة بن عرفجة بن أسعد أن جده عرفجة بن أسعد أصيب أنفه.. فذكره مرسلًا.

وأخرجه أبو داود (٩٢/٤): كتاب الخاتم: باب ما جاء في ربط الأسنان بالذهب، حديث (٤٢٣٤) عن عبد الرحمن بن طرفة بن عرفجة بن أسعد عن أبيه عن جده، فذكر معناه مرسلًا. قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أصحاب السنن من رواية عبد الرحمن بن طرفة. عن عرفجة. وفي رواية بعضهم «أن عرفجة».

٨٩٥ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب المناسك كما في تخريج الكشاف (٣٠٢/٢) وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عنهما بذلك. انتهى.

(١) قوله: «عن بعض صعاليك العلماء» أي فقرائهم (ع).

(٢) قوله: «والنية» أي: الإتيان (ع).

غير قصد منه إلى الشعور بنا، فسمى ذلك إشعاراً منه بهم؛ لأنه سبب فيه الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾: راجع إلى الأهل المقدر في (أيها): ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: يقتلوكم أخبث القتلة وهي الرجم، وكانت عادتهم، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾: أو يدخلوكم، ﴿فِي مَلَتِهِمْ﴾: بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها، والعود في معنى: الصيرورة أكثر شيء في كلامهم، يقولون: ما عدت أفعل كذا، يريدون ابتداء الفعل، ﴿وَلَنْ تَقْلِحُوا إِذَا أَبَدَا﴾: إن دخلتم في دينهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَأَيْنَاهُمْ أَكْلِمَ يَهُدَّ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: وكما أنماهم وبعثناهم، لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم، ﴿أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: وهو البعث؛ لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث، و ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ﴾: متعلق بأعثرنا، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح؛ ليرتفع الخلاف، وليتبين أنَّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت، ﴿فَقَالُوا﴾: حين توفى الله أصحاب الكهف، ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أي: على باب كهفهم؛ لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربتهم، ومحافضة عليها، كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة، ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾: من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم، ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾: على باب الكهف، ﴿مَسْجِدًا﴾: يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم، وقيل: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف، ويتكلمون في قصتهم وما أظهر الله من الآية فيهم، أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا، كيف يخفون مكانهم؟ وكيف يسدّون الطريق إليهم؟ فقالوا: ابنوا على باب كهفهم بنياناً، روي أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكروها على عبادتها، ومن شدد في ذلك دقيانوس، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه، فأنطقه الله فقال: ما تريدون مني، أنا أحب أحباء الله، فناموا وأنا أحرسكم، وقيل: مروا براع معه كلب فتبعهم^(١) على دينهم، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون

(١) قوله: «وقيل: مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم» لعل بعده سقطاً تقديره: وتبعهم الكلب، كما في الخازن (ع).

الله فيه، ثم ضرب الله على آذانهم، وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن، وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته، وأغلق بابه، ولبس مسحاً، وجلس على رماد، وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به فم الكهف؛ ليتخذ حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياح الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس: اتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً، ﴿رَبِّهِمْ أَعْلَمَ بِهِمْ﴾: من كلام/٢٠٩ أ المتنازعين؛ كأنهم تذكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ربهم أعلم بهم، أو هو من كلام الله - عز وجل - رد لقول الخائفين في حديثهم من أولئك المتنازعين، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ وَیَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

﴿سَيَقُولُونَ﴾: الضمير: لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين، سألوا رسول الله ﷺ عنهم فأخبر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم؛ فنزلت، إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم، وأن المصيب منهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم، قال ابن عباس - رضي الله عنه -: أنا من أولئك القليل، وروى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبياً: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطورياً: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين؛ وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ عن لسان جبريل - عليه السلام - وعن علي - رضي الله عنه -: هم سبعة نفر أسماؤهم: يملیخا، ومكشلیتیا، ومشلینیا: هؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش، ودبرنوش، وشادنوش، وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره، والسابع: الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس، واسم مدينتهم: أفسوس، واسم كلبهم: قطمير.

فإن قلت: لم جاء بسين الاستقبال في الأول دون الآخرين؟

قلت: فيه وجهان: أن تدخل الآخرين في حكم السين؛ كما تقول: قد أكرم وأنعم، تريد: معنى التوقع في الفعلين جميعاً؛ وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له، ﴿رَجِمًا بِالْغَيْبِ﴾: رميةً بالخبر الخفي وإتياناً به؛ كقوله: (ويَقْدُونَ بالغيب) [سبا: ٥٣] أي: يأتون به، أو وضع الرجم موضع الظن، فكأنه قيل: ظناً بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين؛ ألا ترى إلى قول زهير [من الطويل]:

وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ^(١)

أي: المظنون، وقرئ: «ثلاث رابعهم»: بإدغام التاء في تاء التأنيث، و ﴿ثَلَاثَةٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ثلاثة، وكذلك: ﴿خَمْسَةٌ﴾، و ﴿سَبْعَةٌ﴾، و ﴿رَبَاعَةٌ﴾: جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة؛ وكذلك: ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ ﴿وَتَأْمِنُهُ كَلْبُهُمْ﴾.

فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأولين^(٢)؟

(١) وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
لزهير من معلقته، ينهي عبساً وذبيان عن القتال. يقول: ليست الحرب إلا التي علمتموها وجربتموها، وشبهها بمطعموم مكروه على طريق الكناية والدوق تخيل، وما هو: أي الحديث عن الحرب، ولما كان الضمير عائداً على المصدر في المعنى صح تعلق المجرور به، ويبعد تعلقه بما بعده. والترجيم: الرمي بالرجام وهي الحجارة الصغار، استعير للإلقاء الكلام بلا روية ولا فكر على طريق التصريحية.

(٢) قال محمود: إن قلت «لم دخلت الواو في الجملة الأخيرة... إلخ»؟ قال أحمد: وهو الصواب، لا كمن يقول: إنها واو الثمانية فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم، ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بخلاف أبواب النار، فإنه قال فيها ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة. وهب أن في اللغة واواً تصحب الثمانية فتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو، وربما عدوا من ذلك ﴿وَالْكَاثِرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو الثامن من قوله (الثانيون) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة، لتربط بينها وبين الأولى التي هي الأمور بالمعروف، لما بينهما من التناسب والربط. ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرها ومواردهما، كقوله ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وكقوله ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَاءٌ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله ﴿تُيَنَّبِئُ وَأُنْكَرُ﴾ لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش، فإن هذه واو التقسيم، ولو ذهبت تحذفها فنقول: ثيبات أبكاراً، لم يستد الكلام، فقد وضع أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة واردة لغير ما زعمه هؤلاء، والله الموفق.

قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]، وفائدتها: تأكيد لصوق الصفة بالموصوف؛ والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم، وطمأنينة نفس، ولم يرمموا بالظن كما غيرهم، والدليل عليه أن الله - سبحانه - اتبع القولين الأولين قوله: ﴿رَبِّمًا بِالْغَيْبِ﴾، وأتبع القول الثالث قوله: (ما يعلمهم إلا قليل)، وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: حين وقعت الواو انقطعت العدة، أي: لم يبق بعدها عدة عادّ يلتفت إليها، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات، وقيل: إلا قليل من أهل الكتاب، والضمير في (سيقولون): على هذا لأهل الكتاب خاصة، أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم، وأكثرهم على ظنّ وتخمين، ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾: فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الردّ عليهم؛ كما قال: ﴿وَجَدِلْ لَهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾: ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً فتردّه عليه وتزيف ما عنده؛ لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد؛ لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾
 وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾: ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه، ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ﴾: الشيء، ﴿غَدًا﴾ أي: فيما يستقبل من الزمان، ولم يرد الغد خاصة، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: متعلق بالنهي لا بقوله: إني فاعل؛ لأنه لو قال: إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله، كان معناه: إلا أن تعترض مشيئة الله دون^(١) فعله؛ وذلك مما لا مدخل فيه للنهي، وتعلقه بالنهي على وجهين:

(١) قال محمود: «كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله... إلخ» قال أحمد: ولا بد من حمل الكلام على أحد الوجهين المذكورين، ولولا ذلك لكان المعنى على الظاهر ببادئ الرأي: ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول، وليس الغرض ذلك، وإنما الغرض النهي عن هذا القول إلا مقروناً بقول المشيئة، وليت شعري ما معنى قول الزمخشري في تفسير الآية، كأن المعنى: إلا أن تعترض المشيئة دونه، معتقداً أن مشيئة الله تعالى لا تعترض على فعل أحد، فكم شاء من الأفعال فتركت، وكما شاء من التروك ففعلت على زعم القدريّة، فلا معنى على =

أحدهما: ولا تقولن ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله، بأن يأذن لك فيه.

والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله، أي: إلا بمشيئة الله، وهو في موضع الحال، يعني: إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلًا: إن شاء الله، وفيه وجه ثالث، وهو: أن يكون (إن شاء الله)^(١) في معنى كلمة تأييد، كأنه قيل: ولا تقولنه أبداً؛ ونحوه قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله، وهذا نهى تأديب من الله لنبية حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف / ٢٠٩ ب، وذو القرنين، فسألوه، فقال: اتنوني غداً أخبركم ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبت قريش، ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ أي: مشيئة ربك، وقل: إن شاء الله، إذا فرط منك نسيان لذلك، والمعنى: إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبعت عليها فتدركها بالذكر^(٢)، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: ولو بعد سنة ما لم تحنث، وعن سعيد بن جبير: ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، وعن طاوس: هو على ثنيه^(٣) ما دام في مجلسه، وعن الحسن نحوه، وعن عطاء: يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة، وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً، ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس - رضي الله عنه - في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه: فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك؛ إنك لتأخذ البيعة بالإيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامه ورضي عنه (٨٩٦)، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر^(٤) ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء؛ تشديداً في البعث

٨٩٦ - أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠٣/٤) من حديث الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: ... فذكره، وقال الحاكم وكان الأعمش يأخذ بها، وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أ.هـ. وأخرجه الطبراني في معجمه الوسط كما في تخریج الکشاف للزبيعي (٣٠٣/٢).

= أصلهم الفاسد لتعليق الفعل بالمشيئة قولاً وهو غير متعلق بها وقوعاً، حتى أن قول القائل: لا أفعل كذا إلا أن يشاء الله أن أفعله: كذب وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل المباح، لأن الله تعالى لا يشاؤه على زعمهم الفاسد، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع فسحقاً سحقاً.

(١) قوله: «إن شاء الله» لعله أن يشاء الله (ع).

(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي كلمة الاستثناء ثم تنبعت لها، فتدركها بالذكر. وعن ابن عباس: ولو بعد سنة ما لم تحنث إلى قوله: وعند عامة الفقهاء... إلخ» قال أحمد: أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدراك المشيئة متى ذكرت ولو بعد الطول. وأما حلها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها، والله أعلم.

(٣) قوله: «هو على ثنيه» في الصحاح «الثنيه» بالضم: الاسم من الاستثناء (ع).

(٤) قال محمود: «يجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح... إلخ» قال أحمد: ويؤيد هذا التأويل =

على الاهتمام بها، وقيل: واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به؛ وقيل: واذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها، و ﴿هَذَا﴾: إشارة إلى نبي أصحاب الكهف، ومعناه: لعل الله يؤتيني من البينات والحجج على أنني نبي صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبي أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك؛ حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدل، والظاهر أن يكون المعنى: إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول: عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب منه، ﴿رَشَدًا﴾: وأدنى خيراً ومنفعة، ولعل النسيان كان خيرة؛ كقوله: ﴿أَوْ نُنْسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَمْ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٣١﴾

﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين﴾: يريد لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم هذه المدة، وهو بيان لما أجمل في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (٣١)، ومعنى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾: أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم، والحق ما أخبرك الله به، وعن قتادة: أنه حكاية لكلام أهل الكتاب، و ﴿قل الله أعلم﴾: رد عليهم، وقال في حرف عبد الله: وقالوا لبثوا، وسنين: عطف بيان لثلاثمائة، وقرئ: «ثلاثمائة سنين»: بالإضافة، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز؛ كقوله: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، وفي قراءة أبي: «ثلاثمائة سنة»، ﴿تِسْعًا﴾: تسع سنين؛ لأن ما قبله يدل عليه، وقرأ الحسن: «تسعاً»: بالفتح، ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها وأنه هو وحده العالم به، وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات؛ للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين؛ لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر، ﴿مَّا لَهُمْ﴾ الضمير: لأهل السموات والأرض، ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾: من متول لأموالهم، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾: في قضائه، ﴿أَحَدًا﴾: منهم، وقرأ الحسن: «ولا تشرك»: بالتاء والجزم على النهي.

بقوله تعالى أول القصة ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيِّمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (١) فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها وإنكار عده من عجائب آيات الله، ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد وأدخل في الآية والله أعلم.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ

مُلْتَحَدًا﴾

كانوا يقولون له: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، ف قيل له: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾: من القرآن ولا تسمع لما يهدون به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك، أي: لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها؛ إنما يقدر على ذلك هو وحده، ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل: ١٠]، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ

فُرْطًا﴾

وقال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نَحْ هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن، وهم: صهيب، وعمار، وخباب، وغيرهم من فقراء المسلمين، حتى نجالسك، كما قال قوم نوح: ﴿انْقُومُوا لَكُمْ وَاَتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]؛ فنزلت: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾: واحبسها معهم وثبتها؛ قال أبو ذؤيب [من الكامل]:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً تَرَسُّو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطْلُعُ^(١)

﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾: دائبين على الدعاء في كل وقت، وقيل: المراد: صلاة الفجر والعصر، وقرئ: «بالغدوة»، و «بالغداة»: أجود؛ لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال، وإدخال اللام على تأويل التنكير؛ كما قال [من الطويل]:

وَالزَّيْدُ زَيْدُ الْمَعَارِكِ^(٢)

(١) لأبي ذؤيب في مريثة بنيه، وصبرت: أي حبست نفساً عارفة لذلك البلاء، وضمن عارفة معنى صابرة فعدها باللام، جسرة: أي قوية صلبة. ويروى: حرة، بضم الحاء، أي جيدة. ترسو: تطمئن وتسكن، إذا تطلع نفس الجبان وتجنزع كأنها تريد الفرار وأصله تتطلع، حذف منه إحدى التاءين تخفيفاً.

نسب هذا البيت لعنترة ينظر: ديوانه (٤٩). وينظر: البحر المحيط ٢٢٥/٥ واللسان (صبر) وروح المعاني ٥٧/١٢، والتهذيب ٣٤٤/٢، والدر المصون ١٠٠/٤.

(٢) وقد كان منهم حاجب وابن أمه أبو جندل والزيد زيد المعارك دخلت «أل» المعرفة على «زيد» وهو علم لتأويله بالمسمى بزيد، ولذلك أضافه للمعارك، أي أمكنة الحروب. يقول: وقد كان من هؤلاء القوم حاجب بن لقيط بن زرارة وابن أمه، أي أخوه أبو جندل والمسمى يزيد، المعدل للحروب. وفيه إشارة إلى أنه يعرف بذلك فيما بين الناس.

ونحوه قليل في كلامهم، يقال: عداه إذا جاوزه ومنه قولهم، عدا طوره، وجاءني القوم عدا زيدا؛ وإنما عدى بعن؛ لتضمن عدا معنى نبا وعلا، في قولك: نبت عنه عينه وعلت عنه عينه: إذا اقتحمته ولم تعلق به.

فإن قلت: أي غرض في هذا التضمن؟ وهلا قيل: ولا تعدهم عينك، أو لا تعل عينك عنهم؟

قلت: الغرض فيه: إعطاء مجموع معنيين؛ وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ؛ ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عينك مجاوزتين إلى غيرهم؟ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، أي: ولا تضموها إليها آكلين لها، وقرئ: «ولا تعد عينك»، «ولا تعد عينك»^(١): من أعداه وعداه نقلاً بالهمزة وتثقيل الحشو؛ ومنه قوله [من البسيط]:

فَعَدُّ عَمَّا تَرَىٰ إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ

(١) قال السمين الحلبي: ورد عليهما الشيخ: بأنه لو كان تعديه في هاتين القراءتين بالهمزة، أو التضعيف لتعدي لاثنتين، لأنه قبل ذلك متعد لواحد بنفسه. وقد أقر الزمخشري بذلك، حيث قال: «يقال: عداه إذا جاوزه، وإنما عُدِّي بـ«عَنْ» لتضمنه معنى: غلا، ونَبَا، فحينئذ يكون «أَفْعَل، وَقَعْل» مما وافقا المجرد» وهو اعتراض حسن. قوله: «تُرِيدُ» جملة حالية، ويجوز أن يكون فاعل «تُرِيدُ» المخاطب، أي: تريد أنت، ويجوز أن يكون ضمير العينين، وإنما وُحِدَ، لأنهما متلازمان يجوز أن يخبر عنهما خبر الواحد.

قال الشيخ: وصاحب الحال أن قدر عينك، فكان يكون التركيب تريدان. «قُلْتُ: غَفَلَ عَنْ القاعدة، التي ذكرتُها من أن الشئين المتلازمين يجوز أن يخبر عنهما إخبار الواحد. ثم قال: وإن قدر الكاف فمجيء الحال من المجرور بالإضافة مثل هذا فيه الإشكال، لاختلاف العامل في الحال وذو الحال، وقد أجاز ذلك بعضهم إذا كان المضاف جزءاً أو كالجزاء، وحسن ذلك أن المقصود نَهْيُهُ هو - عليه السلام - وإنما جيء بقوله: «عينك» والمقصود هو، لأنهما بهما يكون المراعاة للشخص والملفت له. قُلْتُ: وقد ظهر لي وجه حسن لم أرَ غَيْرِي ذكره وهو: أن يكون «تَعَدُّ» مسنداً لضمير المخاطب ﷺ و«عَيْنَاكَ» بدل من الضمير بدل بعض من كل، و«تُرِيدُ» على وجهيها من كونها حالاً من «عَيْنَاكَ»، أو من الضمير في «تَعَدُّ»، إلا أن جعلها حالاً من الضمير في «لَا تَعُدُّ» ضَعْفٌ، من حيث إن مراعاة المبدل منه، بعد ذكر البدل قليل جدا، تقول: الجارية حُسْنُهَا فَاتِنٌ، ولا يجوز: فَاتِنَةٌ. انتهى. الدر المصون.

(٢) فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له وانم القتود على عيرانة أجد للناطقة الذباني. ونما ينمى نمياً: زاد وارتفع. ونماه ينميه نمياً: رفعه وزاده. ونما ينمو نمواً من باب دخل. ونماه ينمو نمواً أيضاً، لكن الواوي قليل. والقتود: جمع أقتاد، جمع قتد: وهي عيدان الرحل بلا أداة. والعيرانة: الشبيهة بالعر في سرعة السير. والأجد: الصلبة الموثقة الخلق. يقول: انصرف عما ترى من آثار الديار، أو عما تظن رجوعه؛ لأنه لا تدارك له أو لا رجوع له، وارفع عيدان الرحل على ناقة سريعة صلبة، كناية عن أمره بالسفر؛ لأن شد الرحال لا يكون إلا له. =

لأن معناه: فعد همك عما ترى، نهى رسول الله ﷺ أن يزدرى بفقراء المؤمنين، وأن تنبو عينه عن رثائه زيههم طموحاً إلى زِيِّ الأغنياء وحسن شارتهم^(١)، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: في موضع الحال، ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ / ٢١٠أ: من جعلنا قلبه غافلاً^(٢) عن الذكر بالخذلان^(٣)، أو وجدناه غافلاً عنه؛ كقولك: أجبنته وأفحمته^(٤) وأبخلته، إذا وجدته كذلك، أو من أغفل إبله إذا تركها^(٥) بغير سمة، أي: لم نسمة بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان وقد أبطل الله توهم المجبرة^(٦) بقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، وقرئ: «أغفلنا قلبه»، بإسناد الفعل إلى القلب على معنى: حسبنا قلبه غافلين؛ من أغفلته إذا وجدته غافلاً، ﴿فُرُطًا﴾: متقدماً للحق والصواب^(٧)، نابذاً له وراء ظهره من قولهم: «فرس فرط»: متقدم للخيل.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

- = ينظر: ديوانه ص (١٦)، ولسان العرب (قتد)، (نمى)، كتاب العين (٢/ ٢١٥)، مقاييس اللغة (١/ ٦٢) (٤/ ٢٥١)، تهذيب اللغة (١٥/ ٥١٧)، تاج العروس (قتد) (نمى)، الدر المصون (٤/ ٤٤٩).
- (١) قوله: «وحسن شارتهم» في الصحاح: الشوار والشارة: اللباس والهيئة (ع).
- (٢) قال محمود: «معناه جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر... إلخ» قال أحمد: هو يشمر للهرب من الحق، وهو أن المراد خلقتنا له، وجدير به أن يشمر في اتباع هواه، فإن حمل «أغفل» على بابه صرفه إلى الخذلان، وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعال للمصادفة، ولا يتجرأ على تفسير فعل أسنده الله إلى ذاته بالمصادفة إلى تفهيم وجدان الشيء بغته عن جهل سابق وعدم علم.
- (٣) قوله: «غافلاً عن الذكر بالخذلان» يتحاشى بذلك عن خلق الغفلة في قلبه؛ لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة، وأهل السنة على خلاف ذلك كما أشار إليه بقوله: توهم المجبرة. ثم إن اتباعه هواه لا ينافي خلق الله الغفلة في قلبه، لجواز أن يكون ذلك ناشئاً عن الغفلة (ع).
- (٤) قوله: «كقولك أجبنته وأفحمته» في الصحاح «أفحمته» وجدته مفحماً لا يقول الشعر (ع).
- (٥) عاد كلامه. قال: «وبجوز أن يكون المعنى من أغفل إبله إذا... إلخ» قال أحمد: وهذا التأويل فيه رقة حاشية ولطافة معنى، وغرضه منه الخلاص مما قدمناه، لأنه وإن أبى خلق الله للغفلة في القلب فلا يابى عدم كتب الإيمان، وإنما غرضنا التنبيه على أن مقصد الزمخشري الحيد عن القاعدة المتقدمة، والتأويل إنما يصار إليه إذا اعتاص الظاهر وهو عندنا ممكن، فوجب الاعتصام به، والله الموفق.
- (٦) عاد كلامه. قال: «وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله: واتبع هواه» قال أحمد: قد تقدم في غير ما موضع أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقاً له، وإلى العبد من حيث كونه مقروناً بقدرته واختياره، ولا تنافي بين الإضافتين، فبراهين السنة تتبعه أينما سلك وأية توجه، فلامحيص له عنها بوجه.
- (٧) قوله: «متقدماً للحق والصواب» أي سابق له ومجاوز له، وفي الصحاح: أمر فرط، أي مجاوز فيه الحد. ومنه قوله تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ فُرُطًا﴾.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾: الحق خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: جاء الحق وزاغت العلل^(١)، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك، وجيء بلفظ الأمر والتخيير؛ لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء، فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين، شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط، وببيت مسردق: ذو سرادق، وقيل: هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، وقيل: حائط من نار يطيف بهم^(٢)، ﴿يَعَاثُوا يَمَاءً كَأَمْهَلٍ﴾؛ كقوله [من الكامل]:

..... فَأَعْتَبُوا بِالصَّيْلَمِ^(٣)

وفيه تهكم، والمهل: ما أذيب من جواهر الأرض، وقيل: دردي الزيت، ﴿يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾: إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته، عن النبي ﷺ: «هُوَ كَعُكْرِ الزَّيْتِ» (٨٩٧)، فَإِذَا قَرَّبَ إِلَيْهِ سَقَطَتْ فَرْوَةٌ وَجْهِهِ، ﴿يَسْكُ الثَّرَابُ﴾: ذلك، ﴿وَسَاءَتْ﴾: النار،

٨٩٧ - أخرجه الترمذي (٧٠٤/٤ - ٧٠٥): كتاب صفة جهنم: باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، حديث (٢٥٨١)، و(٤٢٦/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة سأل سائل، حديث (٣٣٢٢)، من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري به. وقال الترمذي (٧٠٥/٤): هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد، ورشدين قد تكلم فيه. وقال أيضاً في (٤٢٦/٥): هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٥١٤/١٦ - ٥١٥) رقم (٧٤٧٣) والحاكم في «المستدرک»: (٢/٥٠١) كلهم من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أحمد (٧٠/٣ - ٧١)، وأبو يعلى (٥٢٠/٢ - ٥٢١) رقم (١٣٧٥/٤٠١) من طريق الحسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٠٠/٤) وزاد نسبته إلى سعيد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان. وفي الباب عن أبي أمامة:

أخرجه أحمد (٢٦٥/٥)، والترمذي (٧٠٥/٤ - ٧٠٦) كتاب صفة جهنم: باب ما جاء في صفة شراب أهل النار حديث (٢٥٨٣)، والطبراني في الكبير (١٠٦/٨) رقم (٧٤٦٠)، كلهم من طريق صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة به. قال الترمذي (٧٠٥/٤ - ٧٠٦): هذا =

(١) قوله: «والمعنى جاء الحق وزاغت العلل» في الصحاح «زاح الشيء» بعد وذهب. وأزاحت علته فزاحت (ع).

(٢) قوله: «يطيف بهم» الذي يفيد الصراح: طاف يطوف حول الشيء: دار حوله، وطاف يطيف بالشيء: جاءه وألم به، فتدبر.

(٣) تقدم.

﴿مُرْتَفَقًا﴾: متكأ من المرفق؛ وهذا لمشاكلة قوله: (وحسنت مرتفقا)، وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء، إلا أن يكون من قوله [من البسيط]:

إِنِّي أَرَقْتُ فَبِثُّ اللَّيْلِ مُرْتَفِقًا كَأَنَّ عَيْنِي فِيهَا الصَّابُ مَذْبُوحٌ^(١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿٣٠﴾ أَوْلَيْكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿٣١﴾

﴿أَوْلَيْكَ﴾: خبر إن، و ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾: اعتراض، ولك أن تجعل: (إنا لا نضيع)، و (أولئك): خبرين معاً، أو تجعل: (أولئك): كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم.

فإن قلت: إذا جعلت: (إنا لا نضيع): خبراً، فإين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، و ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: ينظمهما معنى واحد، فقام: (من أحسن): مقام الضمير، أو أردت: من أحسن عملاً منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم، من الأولى؛ للابتداء، والثانية: للتبيين، وتكثير: ﴿أَسَاوِرَ﴾؛ لإبهام أمرها في الحسن، وجمع بين السندس: وهو ما رق من الديباج، وبين الاستبرق: وهو

= حديث غريب، وهكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بسر، ولا نعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث. وقد روى صفوان بن عمرو عن عبد الله بن بسر صاحب النبي ﷺ غير هذا الحديث، وعبد الله بن بسر له أخ قد سمع من النبي ﷺ وأخته قد سمعت من النبي ﷺ، وعبيد الله بن بسر الذي روى عنه صفوان بن عمرو هذا الحديث، رجل آخر ليس بصاحب.

قال الحافظ في تخریج الکشاف: أخرجه الترمذي من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد واستغفره، وقال: لا يعرف إلا من حديث رشدين ابن سعد وتعقب قوله: بأن أحمد وأبا يعلى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج، وبأن ابن حبان والحاكم أخرجاه من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث. انتهى.

(١) لأبي ذؤيب الهذلي. ويروى بدل الشطر الأول: مقام الخلي وبث الليل مشتجراً. والارتفاق: الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد. والاشتجار: وضع اليد تحت الشجر وهو ما بين اللحيين والاتكاء عليها، وهي هيئة المتحزن المتحسر. والأرق؛ السهر. والصاب: نبت مر كالحنظل. والمذبوح: المشقوق. وهو كناية عن البكاء وانصباب الدموع.

ينظر: شرح أشعار الهذليين ص ١٢٠، ولسان العرب (صوب)، (شجر)، (حرف)، والتنبيه والإيضاح ١٠٦/١، وتاج العروس (شجر)، ومجمل اللغة ٢٥٤/٣، وتهذيب اللغة ٤٧١/٤، ٤٧٤، وأساس البلاغة (ذبح)، وللهذلي في تاج العروس (صوب)، وبلا نسبة في لسان العرب (ذبح)، ومقاييس اللغة ٢٤٧/٣، ٣٢٧، وديوان الأدب ٤٠٢/٢، وتاج العروس (ذبح).

الغليظ منه، جمعاً بين النوعين، وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرتهم.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا زَيْطَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۚ﴾ (٣٧) ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۚ﴾ (٣٨) ﴿وَكَانَ لَمْ تُرْمَرْ﴾ (٣٩) ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۚ﴾ (٤٠)

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا زَيْطَيْنِ﴾ أي: ومثل حال الكافرين والمؤمنين، بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل: أحدهما كافر اسمه: قطروس، والآخر مؤمن اسمه: يهوذا، وقيل: هما المذكوران في سورة «والصافات»، في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١)، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطراها، فاشتري الكافر أرضاً بألف، فقال المؤمن: اللهم، إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف، فتصدق به، ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم، إنني أشتري منك داراً في الجنة بألف، فتصدق به، ثم تزوج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم، إنني جعلت ألفاً صداقاً للحوار، ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهم، إنني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدق به، ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه، فمر به في حشمة، فتعرض له، فطرده ووبخه على التصديق بماله، وقيل: هما مثل لأخوين من بني مخزوم: مؤمن وهو: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد، وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ وكافر وهو: الأسود بن عبد الأشد، ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾: بستانين من كروم، ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾: وجعلنا النخل محيطاً بالجننتين، وهذا مما يؤثره الدهاقين^(١) في كرومهم: أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة، يقال: حفوه: إذا أطافوا به، وحففته بهم، أي: جعلتهم حافين حوله، وهو متعد إلى مفعول واحد، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً؛ كقولك: غشيه، وغشيته به، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾: جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما وهو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به، وهو السيح بالنهر الجاري فيها، والأكل: الثمر، وقرئ بضم الكاف، ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ﴾: ولم تنقص، وآت: حمل على اللفظ؛ لأن (كلتا) لفظه لفظ مفرد، ولو قيل: آتا على المعنى، لجاز. وقرئ: وفجرنا، على التخفيف. وقرأ عبد الله: كل الجنتين آتى أكله برد الضمير على كل، ﴿وَكَانَ لَمْ تُرْمَرْ﴾ أي:

(١) قوله: «الدهاقين» أحده دهقان (ع).

أنواع من المال، من ثمر ماله^(١) إذا كثر، وعن مجاهد: الذهب والفضة، أي: كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدثرة^(٢) من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه، متمكناً من عمارة الأرض كيف شاء، ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ يعني: أنصاراً وحشماً، وقيل: أولاداً ذكوراً؛ لأنهم ينفرون معه دون الإناث، يحاوره: يراجعه الكلام، من حار يحور إذا رجع، وسألته فما أحرار كلمة.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يَبَدَّ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

يعني: قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما ويفاخره بما ملك من المال دونه.

فإن قلت: فلم أفرد الجنة بعد التثنية؟

قلت / ٢١٠ ب: معناه: ودخل ما هو جنته ما له جنة غيرها، يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنين، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾: وهو معجب بما أوتي مفتخر به كافر لنعمة ربه، معرض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم، إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته؛ لطول أمله واستيلاء الحرص عليه، وتمادي غفلته، واغتراره بالمهلة، وإطراحه النظر في عواقب أمثاله، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن السنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه، ﴿وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾: إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير، وكما يزعم صاحبه، ليجدَنَّ في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا؛ تطمناً وتمنياً على الله، وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئثاله، وأنَّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه؛ كقوله: ﴿إِنِّي لِي عِنْدُكَ لِلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿لَأَوْتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، وقرئ: «خيراً منهما»؛ ردّاً على الجنتين، ﴿مُنْقَلَبًا﴾: مرجعاً وعاقبة، وانتصابه على التمييز، أي: منقلب تلك، خير من منقلب هذه؛ لأنها فانية وتلك باقية.

(١) قوله: «من ثمر ماله» الذي في الصحاح: أن الثمر جمع ثمار، ككتب وكتاب. وأن الثمر أيضاً: المال المثمر، ويخفف ويثقل. وأثمر الرجل: إذا كثر ماله، وثمر الله ماله، أي: كثره. وعبرة الخازن: وكان له ثمر. قرئ بالفتح جمع ثمرة، وقرئ بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما. وفي النسفي: له ثمر، وأحيط بثمره بفتح الميم والشاء، وبضم الثاء وسكون الميم، وبضمهما (ع).

(٢) قوله: «الأموال الدثرة» الكثيرة. أفاده الصحاح (ع).

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ

رَجُلًا ۖ﴾

﴿خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: خلق أصلك، لأن خلق أصله سبب في خلقه، فكان خلقه خلقاً له، ﴿سَوَّاهُ﴾: عدلك وكمالك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال، جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه؛ لشكه في البعث، كما يكون المكذب بالرسول ﷺ كافراً

﴿لَنَكْنَاهُ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ﴾

﴿لَنَكْنَاهُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أصله: لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن، فتلاقت النونان فكان الإدغام؛ ونحوه قول القائل [من الطويل]:

وَتَرْمِيَنِي بِالطَّرْفِ أَنِّي أَنْتَ مُذْنِبٌ وَتَقْلِيَنِي لَكِنْ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي^(١)

أي: لكن أنا لا أقليك وهو ضمير الشأن، والشأن الله ربي، والجملة خبر أنا، والراجع منها إليه: ياء الضمير، وقرأ ابن عامر بإثبات ألف أنا في الوصل والوقف جميعاً، وحسن ذلك وقوع الألف عوضاً من حذف الهمزة، وغيره لا يشبتها إلا في الوقف، وعن أبي عمرو أنه وقف بالهاء: لكنه، وقرئ: «لكن هو الله ربي»: بسكون النون وطرح أنا، وقرأ أبي بن كعب: «لكن أنا»: على الأصل، وفي قراءة عبد الله: لكن أنا لا إله إلا هو ربي.

فإن قلت: هو استدراك لماذا؟

قلت: لقوله: (أكفرت) قال لأخيه: أنت كافر بالله؛ لكنني مؤمن موحد، كما تقول: زيد غائب، لكن عمراً حاضر.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا

(١) يقول: وترميني يا محبوبة بطرفك، أي: تشيرين إلي به. فالرمي: استعارة مصرحة، لأنه شبه إطلاق البصر بإطلاق الحجر. ويجوز أن الباء للآلة، فالرمي محذوف فسر بقوله: أي أنت مذنب، فأني تفسيرية، يعني أن ما رمت به هو ادعاؤها أنه مذنب. وقلاه يقليه، وقليه يقلاه. وقد يقال: قلاه يقلاه بمعنى بغضه أشد البغض، ولكن أصله: ولكن أنا، فنقلت حركة الهمزة إلى النون ثم حذفت، ثم أدغمت النون في النون بعدها، وحذفت الألف الأخيرة في الرسم كاللفظ. ولو أجري الوصل مجرى الوقف لثبتت، وقدم المفعول وهو «إياك» لاهتمام ببراءتها من قلاء وتخصيصها بذلك دون غيرها من النساء.

ينظر: تذكرة النحاة ص ٢٣، والجنى الداني ص ٢٣٣، وجواهر الأدب ص ٢١٨، ٤١١، وخزانة الأدب ٢٥٥/١١، ٢٩٩، والدرر ٣١/٤، ١٢١/٥، وشرح شواهد المغني ٢٣٤/١، ٨٢٨/٢، وشرح المفصل لابن يعيش ١٤١/٨، ومغني اللبيب ٧٦/١، وجمع الهوامع ٢٤٨/١، ٧١/٢.

وَوَلَدًا ﴿٢٦﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُّؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٢٧﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لِمُ طَلَبًا ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: يجوز أن تكون (ما): موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: الأمر ما شاء الله، أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف، بمعنى: أي شيء شاء الله كان، ونظيرها في حذف الجواب (لو) في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾، والمعنى: هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر: ما شاء الله؛ اعترافاً بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، وأن أمرها بيده: إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها، وقلت: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى، وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب، فيدخل من شاء، وكان إذا دخله ردّد هذه الآية حتى يخرج، من قرأ (أقل): بالنصب، فقد جعل أنا فضلاً، ومن رفع جعله مبتدأ وأقله خبره، والجملة مفعولاً ثانياً لترني. وفي قوله: ﴿وَوَلَدًا﴾؛ نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله: (وأعز نفرا)، والمعنى: إن ترني أفقر منك فأننا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة، ﴿خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾: ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك، والحسبان: مصدر كالغفران والبطلان، بمعنى: الحساب، أي: مقداراً قدره الله وحسبه، وهو الحكم بتخريبها، وقال الزجاج: عذاب حسبان؛ وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك، وقيل: حسباناً مرامى الواحدة حسبانة وهي الصواعق، ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾: أرضاً بيضاء، يزلق عليها لملامستها زلقاً، و﴿غَوْرًا﴾: كلاهما وصف بالمصدر.

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَاصْبِرْ يَقْلِبْ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَيْنَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَّمْ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾

﴿وَأُحِيطَ﴾: به عبارة عن إهلاكه، وأصله: من أحاط به العدو؛ لأنه إذا أحاط به، فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]؛ ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، من أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعلاً عليهم، وتقلب الكفين: كناية عن الندم والتحسر؛ لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد، ولأنه في معنى الندم عدي تعديته بعلى، كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أي: أنفق في عمارتها، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يعني: أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم، قيل: أرسل الله

عليها ناراً فأكلتها، ﴿يَلَيِّنِي﴾: تذكر موعظة أخيه، فعلم أنه أتى من جهة شره وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه، ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً على ما كان منه، ودخولاً في الإيمان، وقرئ: (ولم يكن): بالياء والتاء، وحمل (ينصرونه): على المعنى دون/ ٢١١ ب اللفظ؛ كقوله: ﴿فَعَنَّا تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجُوا كَافِرًا بِرُؤُوسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣].

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؟

قلت: معناه: يقدرّون على نصرته من دون الله، أي: هو وحده القادر على نصرته، لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل، ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾: وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله.

﴿هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤)

﴿الْوَلَايَةُ﴾: بالفتح: النصرة والتولي، وبالكسر: السلطان والملك، وقد قرئ بهما. والمعنى هنالك، أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه؛ تقريراً لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فَنَّا يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣]، أو: هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه، أو: في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر، يعني: أن قوله: ﴿يَلَيِّنِي لَمْ أَشْرَكَ بِرَبِّ أَحَدًا﴾: كلمة ألجئ إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها، ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أوليائه المؤمنين على الكفرة ويتتقم لهم، ويشفي صدورهم من أعدائهم، يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدق قوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، ويعضده قوله: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه، وقيل: (هنالك): إشارة إلى الآخرة، أي: في تلك الدار الولاية لله؛ كقوله: ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ﴾، وقرئ: (الحق): بالرفع والجر صفة للولاية والله^(١)، وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد؛ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، وهي قراءة حسنة فصيحة، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم، وقرئ: (عقبا): بضم القاف

(١) قال محمود: «قرئ بالرفع والجر صفة للولاية والله تعالى... إلخ» قال أحمد: وقد تقدم الإنكار عليه في مثل هذا القول فإنه يوهم أن القراءات موكولة إلى رأي الفصحاء واجتهاد البلغاء، فتفاوتت في الفصاحة لتفاوتهم فيها، وهذا منكر شنيع. والحق: أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه متصلاً بفلق إليه ﷺ منزلاً كذلك من السماء، فلا وقع لفصاحة الفصح، وإنما هو ناقل كغيره، ولكن الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة ومعدن الفتنة، فإن عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدر وهلم جرا إلى سائر البدع الاعتزالية، فمن ثم أثنى عليه.

وسكونها، وعقبى على فعلى، وكلها بمعنى: العاقبة.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾: فالتفت بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضاً، وقيل: نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روى ورف^(١) رفيفاً؛ وكان حق اللفظ على هذا التفسير: فاختلط نبات الأرض، ووجه صحته: أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه، والهشيم: ما تهشم وتحطم، الواحدة هشيمة، وقرئ: «تذروه الريح»، وعن ابن عباس: «تذريه الرياح»: من أذرى: شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء؛ بحال النبات يكون أخضر وارفاً^(٢)، ثم يهيج، فتطيره الرياح كأن لم يكن، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾: من الإنشاء والإفناء: ﴿مُقْنَدًا﴾.

﴿الْعَمَلُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ﴾: أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان، وتغنى عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا، وقيل: هي الصلوات الخمس، وقيل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وعن قتادة: كل ما أريد به وجه الله، ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: ما يتعلق بها من الثواب، وما يتعلق بها من الأمل؛ لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله، ويصيبه في الآخرة.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قرئ: «تسير»: من سيرت، «ونسير»، من سيرنا، «وتسير»: من سارت، أي: تسير في الجو، أو يذهب بها، بأن تجعل هباء منبثاً، وقرئ: «وترى الأرض»: على البناء للمفعول، ﴿بَارِزَةً﴾: ليس عليها ما يسترها مما كان عليها، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾: وجمعناهم إلى الموقف، وقرئ: «فلم نغادر»: بالنون والياء، يقال: غادره وأغدره: إذا تركه، ومنه

(١) قوله: «ورف رفيفاً» في الصحاح: رف لونه رفا ورفيفاً: برق وتلألأ. وشجر رفيف: إذا تندت أوراقه (ع).

(٢) قوله: «بحال النبات يكون أخضر وارفاً» في الصحاح: ورف النبات، أي: اهتز من نضارته، فهو وارف، أي: ناضر رفاف شديد الخضرة (ع).

الغدر: ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السيل، وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان، ﴿صَفًّا﴾: مصطفين ظاهرين، يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً، ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي: قلنا لهم: لقد جئتمونا، وهذا المضمهر هو عامل النصب في يوم نسير، ويجوز أن ينصب بإضمار اذكر، والمعنى: لقد بعثناكم كما أنشأناكم، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقيل: جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أولاً؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى﴾ [الأنعام: ٩٤]. فإن قلت: لم جيء بحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى؟

قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال العظام، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك، ﴿مَوْعِدًا﴾: وقتاً لإنجاز ما وعدتم على السنة الأنبياء من البعث والنشور.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا أَلْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رِيكًا أَحَدًا﴾ (٤٩)

﴿أَلْكِتَابُ﴾: للجنس وهو صحف الأعمال، ﴿يُوتِلْنَا﴾: ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات، ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾: هنة صغيرة ولا كبيرة، وهي عبارة عن الإحاطة، يعني: لا يترك شيئاً من المعاصي إلا أحصاه، أي: أحصاها كلها، كما تقول: ما أعطاني قليلاً ولا كثيراً؛ لأن الأشياء إما صغار وإما كبار، ويجوز أن يريد: وإما كان عندهم صغائر وكبائر، وقيل: لم يجتنبوا الكبائر، فكتبت عليهم الصغائر وهي المناقشة، وعن ابن عباس: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة، وعن سعيد بن جبير: الصغيرة: المسيس، والكبيرة: الزنا، وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال: ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر، ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾: إلا ضبطها وحصرها، ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾: في الصحف: «عتيداً»، أو جزاء ما عملوا، ﴿وَلَا يَظِلُّ رِيكًا أَحَدًا﴾: فيكتب عليه ما لم يعمل، أو يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم، كما يزعم من ظلم الله^(١) في تعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَلَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِذَلِكَ نَبِّئُ الظَّالِمِينَ بَذَلًا ۖ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥١)

(١) قوله: «كما يزعم من ظلم الله» لعله بالتشديد، أي: نسب إليه الظلم (ع).

﴿كَانُوا﴾ / ٢١١ب: كلام مستأنف^(١)، جار مجرى التقليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأن قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ ف قيل: كان من الجن، ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾: والفاء للتسبيب - أيضاً - جعل كونه من الجن سبباً في فسقه؛ لأنه لو كان ملكاً كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله؛ لأن الملائكة معصومون البتة، لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس؛ كما قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [٧] ﴿[الأنبياء: ٢٧]، وهذا الكلام المعترض تعمد من الله - تعالى - لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم، فما أبعد البون بين ما تعمد الله، وبين قول من ضاده وزعم أنه كان ملكاً ورئيساً على الملائكة، فعصى، فلعن ومسح شيطاناً، ثم ورّكه^(٢) على ابن عباس، ومعنى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾: خرج عما أمره به ربه من السجود؛ قال [من الرجز]:

فَوَاسِقًا عَنْ قَضَاهَا جَوَائِرًا^(٣)

أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر ربه الذي هو قوله: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ﴾: الهمزة: للإنكار، والتعجب، كأنه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخذونه، ﴿وَدَرَيْتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾: وتستبدلونهم بي، بشئ البذل من الله إبليس لمن استبدله، فأطاعه بدل طاعته، ﴿ما أشهدتهم﴾، وقرئ: «ما أشهدناهم»، يعني: أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة؛ وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية، فنفي مشاركتهم في الإلهية بقوله: ﴿وَمَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: لأعتضد بهم في خلقها^(٤)، ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض؛ كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخَذِّلُ الْمُضِلِّينَ﴾ بمعنى: وما كنت متخذهم، ﴿عَضْدًا﴾ أي: أعوانا، فوضع المضلين موضع الضمير ذمّاً لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟ وقرئ: «وما كنت»: بالفتح: الخطاب لرسول الله ﷺ والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم، وقرأ علي - رضي الله عنه -: وما كنت متخذاً المضلين، بالتنوين على الأصل، وقرأ الحسن: «عضداً»: بسكون الضاد، ونقل ضمتها إلى العين، وقرئ: «عضداً»: بالفتح وسكون

(١) قال محمود: «قوله تعالى كان من الجن مستأنف تعليل لفسوقه... إلخ» قال أحمد: والحق معه في هذا الفصل غير أن قوله: «تعمد الله تعالى» لفظة لا تروق ولا تليق، فإن التعمد إنما يوصف به عرفاً من يفعل في بعض الأحيان خطأ وفي بعضها تعمداً، فاجتنابها في حق الله تعالى واجب، والله الموفق.

(٢) قوله: «ثم ورّكه» أي اتهمه به (ع).

(٣) تقدم.

(٤) قوله: «لأعتضد بهم في خلقها» أي لأستعين بهم (ع).

الضاد، «وعضداً»: بضمين، «وعضداً»: بفتحين: جمع عاضد، كخادم وخدم، وراصداً ورصد، من عضده: إذا قواه وأعانه.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿يَقُولُ﴾: بالياء والنون، وإضافة الشركاء إليه على زعمهم؛ توبيخاً لهم وأراد الجن، والموبق: المهلك، من وبق يبق وبوقاً، ووبق يوبق ويقاً: إذا هلك، وأوبقه غيره، ويجوز أن يكون مصدرأ كال مورد والموعد، يعني: وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً، وعن الحسن: (موبقاً): عداوة، والمعنى: عداوة هي في شدتها هلاك؛ كقوله: لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً، وقال الفراء: البين: الوصل، أي: وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة، ويجوز أن يريد: الملائكة، وعزيراً، وعيسى، ومريم، وبالموبق: البرزخ البعيد، أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً تهلك فيه الأشواط لفراط بعده؛ لأنهم في قعر جهنم، وهم في أعلى الجنان، ﴿فَظَنُّوا﴾: فأيقنوا، ﴿مُوَافِعُوهَا﴾: مخالطوها واقعون فيها، ﴿مَصْرِفًا﴾: معدلاً؛ قال [من الكامل]:

أَزْهِيرَ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفٍ^(١)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾: أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد؛ خصومة ومماراة بالباطل، وانتصاب: (جدلاً) على التمييز، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء، ونحوه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيصٌ مُبِينٌ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

(١) أزهير هل عن شيبه من مصرف أم لا خلود لبازل متكلف
 لأبي كبير الهذلي. والهمزة للنداء. وزهير ترخيم زهيرة اسم امرأة. والاستفهام إنكاري، أي: لا انصراف عن الشيب أو لا مهرب ولا مفر منه. وأم للإضراب الانتقالي والاستفهام الإنكاري، أي: بل لا ينتفي خلود الكريم البازل لما عنده المتكلف غير طاقته في قرى الضيفان؛ لأن البذل لا يمنع الخلود كأنها كانت لامته على البذل مع الشيب والعقر، فأجابها بذلك. وفيه دلالة على غاية الكرم. ينظر: شرح أشعار الهذليين ص (١٠٨٩)، ولسان العرب (٤٤/٩)، (صرف)، (٣٠٧/٩)، (كلف)، وتاج العروس (٢٣١/١٥) (عزز)، (١٣٢/٢٣) (حرف).

﴿أَنْ﴾: الأولى: نصب، والثانية: رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾: الإيمان والاستغفار، ﴿إِلَّا﴾: انتظار، ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: وهي الإهلاك، ﴿أَوْ﴾: انتظار أن ﴿يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: عذاب الآخرة، ﴿فَبَلَا﴾: عياناً، وقرئ: (قبلاً): أنواعاً^(١): جمع قبيل، و (قبلاً): بفتحيتين: مستقبلاً.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَالِيَتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ ﴿٥٦﴾

﴿لِيُدْحِضُوا﴾: ليزيلوا ويبطلوا، من إحاض القدم، وهو إزلاقها وإزالتها عن موطنها، ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾: يجوز أن تكون (ما): موصولة، ويكون الراجع من الصلة محذوفاً، أي: وما أُنذروهم من العذاب، أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم، وقرئ: «هزأ»: بالسكون، أي: اتخذوها موضع استهزاء، وجدالهم: قولهم للرسول، ﴿وما أنتم إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وما أشبه ذلك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ﴿٥٧﴾

﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾: بالقرآن؛ ولذلك رجع إليها الضمير مذكراً في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾: فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر، ﴿وَنَسِيَ﴾: عاقبة، ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: من الكفر والمعاصي، غير مفكر فيها ولا ناظر في أن المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء، ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، وجمع بعد الأفراد حملاً على لفظ من، ومعناه: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾: فلا يكون منهم اهتداء البتة، كأنه محال منهم لشدة تصميمهم، ﴿أَبَدًا﴾: مدة التكليف كلها، و ﴿إِذَا﴾: جزاء وجواب، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول، بمعنى: أنهم/ ٢١٢ أ جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: ما لي لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾ ﴿٥٨﴾

(١) قوله: «قبلاً عياناً». وقرئ قبلاً أنواعاً هذه القراءة بكسر ففتح. والثانية بضمين، كما يفيد الصراح (ع).

﴿الْفُؤْرُ﴾: البليغ المغفرة، ﴿ذُو الرِّحْمَةِ﴾: الموصوف بالرحمة، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذه أهل مكة عاجلاً من غير إمهال، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾: وهو يوم بدر، ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾: منجى ولا ملجأ، يقال: «وَأَلْ» إذا نجا، و «وَأَل إِلَيْهِ»: إذا لجأ إليه.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ ﴿٥٦﴾

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ يريد: قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم: أشار لهم إليها ليعتبروا، (تلك): مبتدأ، و (القرى): صفة؛ لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس، و ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: خبر، ويجوز أن يكون: (تلك القرى): نصباً بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير، والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهلكناهم، ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾: مثل ظلم أهل مكة، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾: وضرينا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر، والمهلك: الإهلاك ووقته، وقرئ: (لمهلكهم): بفتح الميم، واللام مفتوحة أو مكسورة، أي: لهلاكهم أو وقت هلاكهم، والموعِد: وقت، أو مصدر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِبُحُ حَقَّ أَبْلَغَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ
ءَاِنَّا غَدَاءٌ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْخُوتَ وَمَا أَنَسِيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا
نَبْعُ فَارْتَدَّا عَلَيْهِ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَايَتُهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

﴿لِفَتْنِهِ﴾: لعبده، وفي الحديث: ليقبل أحدكم: فتاي وفتاتي، ولا يقل: عبدي وأمتي (٨٩٨)، وقيل: هو يوشع ابن نون؛ وإنما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه ويتبعه،

٨٩٨ - أخرجه البخاري (٤٨٥/٥): كتاب العتق: باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي، حديث (٢٥٥٢)، ومسلم (٩/٨ - النووي) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، حديث (١٥/٢٢٤٩) وأبو داود (٢٩٤/٤): كتاب الأدب: باب لا يقول المملوك «ربي» و«رَبَّتِي»، حديث (٤٩٧٥)، والنسائي في «سننه الكبرى»: (٦٩/٦): كتاب عمل اليوم والليلة: باب النهي عن أن يقول الرجل لجارته أمتي ولغلامه عبدي، حديث (١٠٠٧٠)، وباب النهي عن أن يقول المملوك لمالكة: مولاي حديث (١٠٠٧١ - ١٠٠٧٢) كلهم من طرق مختلفة عن أبي هريرة .
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به وأتم منه . انتهى .

وقيل: كان يأخذ منه العلم.

فإن قلت: ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ إن كان بمعنى: لا أزل - من برح المكان - فقد دل على الإقامة لا على السفر، وإن كان بمعنى: لا أزال، فلا بد من الخبر.

قلت: هو بمعنى: لا أزال، وقد حذف الخبر؛ لأن الحال والكلام معاً يدلان عليه، أما الحال فلأنها كانت حال سفر، وأما الكلام فلأن قوله: ﴿حَتَّى أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ نهاية مضروبة تستدعي ما هي غاية له، فلا بد أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ، على أن حتى أبلغ هو الخبر، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم، وهو وجه لطيف، ويجوز أن يكون المعنى: لا أبرح ما أنا عليه، بمعنى: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ، كما تقول: لا أبرح المكان، ومجمع البحرين: المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر - عليهما السلام - وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق، وقيل: طنجة، وقيل: أفريقية، ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر؛ لأنهما كانا بحرين في العلم، وقرئ (مجمع): بكسر الميم، وهي في الشذوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل، ﴿أَوْ آمَضَى حُقْبًا﴾: أو أسير زماناً طويلاً، والحقب ثمانون سنة، وروي أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط، أمره الله أن يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال: إنه اصطفى نبيكم وكلمه، فقالوا له: قد علمنا هذا، فأبي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين وهو الخضر، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى - عليه السلام - وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى، وقيل: إن موسى سأل ربه: أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأبي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأبي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدل على هدى، أو ترده عن ردى، فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادللني عليه، قال: أعلم منك الخضر، قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، قال: يا رب، كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكمل، فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغذاء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنى بأرضنا السلام، فعرفه نفسه، فقال: يا موسى، أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، فلما ركبا السفينة

جاء عصفور فوق على حرفها فنقر في الماء، فقال الخضر: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر، ﴿نَسِيَا حُرُوتَهُمَا﴾ أي: نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمانة على الظفر بالطلبة، وقيل: نسي يوشع أن يقدمه، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة، وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكنل، فنزلاً ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت، وروي: أنهما أكلا منها، وقيل: توشع يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش، ووقع في الماء ﴿سَرَكَا﴾: أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه/ ٢١٢ب مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب^(١) معجزة لموسى أو للخضر، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾: الموعد، وهو: الصخرة؛ لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه، ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى في حياته ووقوعه في البحر، وقيل: سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقى على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد، ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه؛ وقوله: ﴿مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾: إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة.

فإن قلت: كيف نسي يوشع ذلك، ومثله لا ينسى^(٢)؛ لكونه أمانة لهما على الطلبة التي تناهضاً من أجلها، ولكونه معجزتين ثنتين، وهما: حياة السمكة المملوحة المأكول منها - وقيل: ما كانت إلا شق سمكة - وقياء الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذه في مثل السرب منه، ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد، وحتى طلب موسى - عليه السلام - الحوت؟

قلت: قد شغله الشيطان بوساوسه، فذهب بفكره كل مذهب، حتى اعتراه النسيان وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى - عليه السلام - من العجائب،

(١) قوله: «في مثل السرب» في الصحاح «السرب» بيت في الأرض. تقول منه. انسرب الوحش في سربه. وانسرب الثعلب في جحره (ع).

(٢) قال محمود: «إن قلت كيف نسي يوشع ذلك ومثله لا ينسى... إلخ؟» قال أحمد: وقد ورد في الحديث: أن موسى عليه السلام لم ينصب ولم يقل لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، إلا منذ جاوز الموضع الذي حده الله تعالى له، فلعل الحكمة في إنساء الله تعالى ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام لمنة الله تعالى على المسافرين في طاعة وطلب علم، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه، وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات: أن ييسرها ويحمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته بونا بيناً، والله أعلم. وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك، فالمطلوب لإيقاظ غيره من أمته، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام إذا قص عليهم القصة، فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس، ولكن ليشمر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها عاجلاً وآجلاً، والله أعلم.

واستأنس بإخوانه فأعان الإلف^(١) على قلة الاهتمام، ﴿أَرَأَيْتَ﴾ بمعنى: أخبرني.
فإن قلت: ما وجه التثام هذا الكلام؟ فإن كل واحد من: (أرأيت)، و ﴿إِذْ أَوَيْنَا﴾، و ﴿فَإِنِّي نَبِئْتُ الْحَوْتَ﴾: لا متعلق له؟

قلت: لما طلب موسى - عليه السلام - الحوت، ذكر يوشع ما رأى منه، وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش وطفق يسأل موسى - عليه السلام - عن سبب ذلك، كأنه قال: أرأيت ما دهاني إذ أويينا إلى الصخرة؟ فإني نسيته الحوت، فحذف ذلك، وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت، و ﴿أَنْ أَذْكُرُ﴾: بدل من الهاء في: (أنسانيه)، أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان، وفي قراءة عبد الله: «أَنْ أَذْكُرْكَ»، و ﴿عَجَبًا﴾: ثاني مفعولي اتخذ؛ مثل: (سربا)، يعني: واتخذ سبيله سبيلاً عجباً، وهو كونه شبيه السرب، أو قال: عجباً في آخر كلامه؛ تعجباً من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها أو مما رأى من المعجزتين، وقوله: ﴿وَمَا أَسْلَيْنِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرُ﴾: اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وقيل: إن (عجبا): حكاية لتعجب موسى - عليه السلام - وليس بذلك، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى اتخاذه سبيلاً، أي: ذلك الذي كنا نطلب؛ لأنه أماراة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر - عليه السلام - وقرئ ﴿نَجَّ﴾: بغير ياء في الوصل، وإثباتها أحسن؛ وهي قراءة أبي عمرو، وأما الوقف، فالأكثر فيه طرح الياء؛ اتباعاً لخط المصحف، ﴿فَارْتَدَّا﴾: فرجعا في أدراجهما^(٢)، ﴿قَصَصَا﴾: يقصان قصصاً، أي: يتبعان آثارهما اتباعاً، أو فارتدا مقتصين، ﴿رَحِمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: هي الوحي والنبوة، ﴿مِّنْ لَّدُنَّا﴾: مما يختص بنا من العلم، وهو الإخبار عن الغيوب.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَعْبُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّا عِزَّتِ رُشْدٌ﴾

﴿رُشْدًا﴾: قرئ بفتحيتين، وبضمة وسكون، أي: علماً ذا رشد، أرشد به في ديني.

فإن قلت: أما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه - كما قيل - موسى بن ميثا، لا موسى بن عمران؛ لأن النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين؟

قلت: لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبي مثله؛ وإنما بغض منه أن يأخذه ممن دونه، وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس: إن نوحاً ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر

(١) قوله: «فأعان الإلف على قلة الاهتمام» لعل المراد إلف يوشع، لرؤيته العجائب عند موسى (ع).

(٢) قوله: «فرجعا في أدراجهما» الدرج: الطريق، والجمع الأدراج. ومنه قولهم: رجعت أدراجي، أي: رجعت في الطريق الذي جئت منه، كذا في الصحاح (ع).

ليس بصاحب موسى، وأن موسى هو: موسى بن ميثا، فقال: كذب عدو الله (٨٩٩).

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨)

نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد^(١)، كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير، والرجل الصالح - فكيف إذا كان نبياً - لا يتمالك أن يشمئز ويتمعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار، و ﴿خُبْرًا﴾: تمييز، أي: لم يحط به خبرك بمعنى: لم تخبره، فنصبه نصب المصدر.

﴿قَالَ سَتَحِدِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩)

﴿ولا أعصي﴾: في محل نصب، عطف على: (صابراً)، أي: ستجدي صابراً وغير عاص، أولاً في محل؛ عطفاً على ستجدي، رجا موسى - عليه السلام - لحرصه على العلم وازدياده، أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله، علماً منه بشدة الأمر وصعوبته، وأن الحماية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه، بري من أن يباشر ما فيه غميرة في الدين، وأنه لا بد لما يستسج ظاهره من باطن حسن جميل، فكيف إذا لم يعلم.

﴿قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٧٠)

٨٩٩ - أخرجه البخاري (٩١/٧): كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث (٣٤٠١)، ومسلم (١٤٨/٨ - النووي) كتاب الفضائل: باب من فضائل الخضر عليه السلام حديث (٢٣٨٠/١٧٠)، والترمذي (٣٠٩/٥) كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الكهف، حديث (٣١٤٩) كلهم من طريق عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى... الحديث. وأخرجه محمد بن إسحاق في سيرته كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣٠٤/٢).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن الحسن بن عمار عن الحاكم عن سعيد بن جبير بهذا - وساق قصته كلها في الصحيحين بغير هذا اللفظ من رواية عمرو بن دينار عن سعيد. انتهى.

(١) قال محمود: «نفى الاستطاعة على وجه التأكيد... إلخ» قال أحمد: ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحق: أنه قال حين خرق السفينة: أخرقتها لتغرق أهلها، ولم يقل لتغرقنا، فنسي نفسه واشتغل بغيره، في الحالة التي كل أحد فيها يقول نفسي نفسي، لا يلوي على مال ولا ولد، وتلك حالة الغرق؛ فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرافة بهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قرئ ﴿فَلَا تَسْتَأْذِنِي﴾: بالنون الثقيلة، يعني: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً - وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت^(١)، وأنكرت في نفسك - ألا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه، حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من آداب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾
 قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَانْطَلَقَا﴾: على ساحل البحر يطلبان السفينة، فلما ركبا، قال أهلها: هما من اللصوص، وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء، وقيل: عرفوا / ٢١٣ | الخضر فحملوهما بغير نول؛ فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء، فجعل موسى يسد الخرق بشيابه ويقول: ﴿أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، وقرئ: «لتغرق»، بالتشديد، و«ليغرق أهلها»: من غرق وأهلها مرفوع، ﴿جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: أتيت شيئاً عظيماً، من أمر الأمر: إذا عظم؛ قال [من الرجز]:

دَاهِيَةً ذَهَبَ إِذَا إِمْرًا^(٢)

﴿قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿بِمَا نَسِيتُ﴾: بالذي نسيت، أو بشيء نسيت، أو بنسياني: أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذه على الناسي، أو أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذه بالنسيان، يوهمه أنه قد نسي ليبسط عذره في الإنكار، وهو من معارضة الكلام التي يتقى بها الكذب، مع التوصل إلى الغرض؛ كقول إبراهيم: هذه أختي، وإني سقيم، أو أراد بالنسيان: الترك، أي: لا تأخذني بما تركت من وصيتك أول مرة، يقال: رهقه إذا غشيه، وأرهقه إياه، أي: ولا تغشني، ﴿عُسْرًا﴾: من أمري، وهو اتباعه إياه، يعني: ولا تعسر عليّ متابعتك، ويسرها عليّ بالإغضاء وترك المناقشة، وقرئ: «عُسْرًا»: بضمين.

(١) قوله: «فحميت» في الصحاح «حميت عليه» بالكسر. غضبت (ع).

(٢) لقد لقي الأقوام مني نكرا داهية ذهب إذا إمرا

النكر: المنكر. والداهية: الحادثة المكروهة من شوائد الدهر. والذهاب: مبالغة في شدتها. والإد: المنكر كل الإنكار. والأمر: الشيء العظيم. يقال: إمر الشيء - بالكسر -: عظم، يصف نفسه بشدة النكاية للأعداء. ويجوز أن الكلام من قبيل التجريد.

ينظر: لسان العرب (٣٣/٤) (أمر)، وتاج العروس (٧٥/١٠) (أمر).

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤)

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥)

﴿فَقَتَلَهُ﴾ قيل: كان قتله قتل عنقه، وقيل: ضرب برأسه الحائط، وعن سعيد بن جبير: أضجعه ثم ذبحه بالسكين.

فإن قلت: لم قيل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ بغير فاء؟ و (حتى إذا لقيَا غلاماً فقتله): بالفاء؟

قلت: جعل خرقها جزاء الشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه، والجزاء: (قال أقتلت).

فإن قلت: فلم خولف بينهما؟

قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام، وقرئ: «زاكية»، و «زكية»، وهي الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده؛ لأنه لم يرها قد أذنبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني: لم تقتل نفساً فيقتص منها، وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل (٩٠٠) ﴿نُكْرًا﴾، وقرئ بضميتين، وهو المنكر، وقيل: النكر أقل من الإمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة، وقيل: معناه: جئت شيئاً أنكروا من الأول؛ لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسد، وهذا لا سبيل إلى تداركه.

فإن قلت: ما معنى زيادة: ﴿لَكَ﴾؟

قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.

٩٠٠ - أخرجه مسلم (١٤٤٤/٣ - ١٤٤٥) كتاب الجهاد: باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم حديث (١٨١٢ / ١٣٧) من طريق يزيد بن هرمز قال: كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن العبد والمرأة يحضران المغنم هل يقسم لهما... الحديث. قال الحافظ في تخريج الكشف:

أخرج أبو يعلى نحوه، وقال في آخره: «وكان لك ذلك» وفي رواية له: «فقلت ولكنك لا تعلم» فاجتنبهم وأصله في مسلم بغير هذا السياق. وأوله: كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن قتل الولدان - الحديث وفيه: «وسألني عن قتل الولدان، فإن رسول الله ﷺ لم يقتلهم إلا أن يعلم منهم ما علم صاحب موسى من الغلام الذي قتله. انتهى.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦)

﴿بَعْدَهَا﴾: بعد هذه الكرة أو المسألة، ﴿فَلَا تُصَحِّحْنِي﴾: فلا تقاريني، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك، وقرئ: (فلا تصحيني): فلا تكن صاحبي، وقرئ: (فلا تصحيني) أي: فلا تصحيني إياك ولا تجعلني صاحبك، ﴿مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾: قد أعذرت، وقرئ: «الدُّنْيَا»: بتخفيف النون، و«الدُّنْيَا»: بسكون الدال وكسر النون؛ كقولهم في عضد: عضد، وعن رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى اسْتَحْيَا فَقَالَ ذَلِكَ (٩٠١)، وَقَالَ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ أَعْجَبَ الْأَعَاجِبِ»^(١) (٩٠٢).

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧)

﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾: هي أنطاكية، وقيل: الأبله، وهي أبعد أرض الله من السماء، ﴿أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾، وقرئ: «يضيفوهما»، يقال: ضافه إذا كان له ضيفاً، وحقيقته: مال إليه، من ضاف السهم عن الغرض؛ ونظيره: زاره، من الإزورار، وأضافه وضيفه: أنزله وجعله ضيفه، وعن النبي ﷺ: «كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِشَامًا»^(٢) (٩٠٣). وقيل: شر القرى التي لا

٩٠١ - أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» كما في تخريج الكشاف (٣٠٥/٢) من طريق داود بن أبي هند عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .
قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن مردويه من رواية داود بن أبي هند، عن عبد الله بن عمير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فذكر القصة . وفيها: «رحمة الله علينا وعلى موسى استحيا عند ذلك . فقال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي - الآية﴾ . انتهى .

٩٠٢ - أخرجه أبو داود (٣٣/٤) كتاب الحروف والقراءات حديث (٣٩٨٤)، والترمذي (٤٦٣/٥) كتاب الدعاء: باب ما جاء أن الداعي يبدأ بنفسه حديث (٣٣٨٥) مختصراً، والنسائي في «التفسير» (٣٣٠)، وابن أبي شيبة (٢١٩/١٠) رقم (٩٢٧٥)، والطبري في «تفسيره» (١٨٦/١٥)، والحاكم (٥٧٤/٢) من طريق أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب به، وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٠/٤)، وزاد نسبه لابن مردويه .

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان ومن رواية حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي . في أثناء حديث وأصله من مسلم . انتهى .

٩٠٣ - ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣٠٧/٢)، وعزاه للنسائي، وتقدم في صحيح مسلم: فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية لثاماً فطافا في المجلس . .

يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه، ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾: استعيرت الإرادة للمدانة والمشاركة، كما استعير الهمّ والعزم لذلك؛ قال الراعي [من الكامل]:
 فِي مَهْمِهِ قَلِقْتُ بِهِ هَامَاتُهَا قَلَقَ الْفُؤُوسِ إِذَا أَرَدَنْ نُصُولاً^(١)
 وقال [من الوافر]:

يُرِيدُ الرَّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَغْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ^(٢)
 وقال حسان [من الخفيف]:

إِنْ ذَهَرَا يَلِفُ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزَمَانُ يَهُمُّ بِالْإِخْسَانِ^(٣)
 وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ، وطلب أن يطفأ، وإذا كان القول، والنطق، والشكاية، والصدق، والكذب، والسكوت، والتمرد، والإباء، والعزة، والطواعية، وغير ذلك، مستعارة للجماذ ولما لا يعقل، فما بال الإرادة؟ قال [من الرجز]:
 إِذْ قَالَتِ الْأَنْسَاءُ لِلْبَطْنِ الْحَقِّي^(٤)

 = قال الحافظ في تخريج الكشف: أخرجه النسائي من رواية إسرائيل عن ابن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَبُوا أَنْ يَضِيفُوهُمَا﴾ قال: «كانوا أهل قرية لثاماً» وهو في مسلم بلفظ: «فانطلقا حتى أتيا أهل قرية لثاماً». انتهى.

(١) للراعي يصف الإبل بأنها في مهمه: أي مفازة، قلق: أي تحركت فيه هاماتها: أي رؤوسها. قلق الفؤوس: أي كتحرك الفؤوس جمع فأس وهي آلة الحفر، إذا أردن: أي الفؤوس، نصولاً: أي قرن منه، فالأرد مجاز مرسل، ونصولها: خروج الحديد من المقبض. والنصول في كل شيء: الخروج، والإنصال: الإخراج، ولقد شبه رؤوس الإبل مع أعناقها بالفؤوس.
 ينظر: ديوانه ص (٢٢٢)، ولسان العرب (١٨٩/٣) (رود).

(٢) الإرادة هنا مجاز عن التوجه. ويجوز أن الإسناد مجاز، لأن المرید صاحب الرمح. والأوجه أنه شبه الرمح بإنسان على طريق المكنية، وإسناد الإرادة والعدول إليه تخييل، أي: يريد أن يشرب من صدر أبي براء، لا من دماء هؤلاء.
 ينظر: لسان العرب (١٨٩/٣) (رود).

(٣) لحسان بن ثابت، ولفقت الشيء: طويته وأدرجته، من باب رد. والشمل. المتفرق، ويطلق على المجتمع من الأمور. وجمل: اسم محبوبته. ويروى: بسعدى. يقول: إن الدهر الذي يجمع شملي بمحبوتي لدهر يهم بالإحسان ويريده، وهم من باب رد أيضاً، أي: دهر يريد الإحسان لا الإساءة كعادة الدهر، فشبه الزمان بإنسان يصح منه إرادة الإحسان على طريق المكنية، والهم تخييل. ويحتمل أن إسناد الهم له مجاز عقلي كإسناد اللف، وهما في الحقيقة لله.
 ينظر: لسان العرب (٢٩٣/٤) (دهر)، وتهذيب اللغة (١٩٢/٦)، وديوان الأدب (١٠٧/١)، وتاج العروس (٣٤٦/١١) (دهر).

(٤) تقدم.

[ومن الرجز]:

تَقُولُ سَيِّئِي لِلنُّوَاةِ طَنِّي

[ومن البسيط]:

لَا يَنْطِقُ اللَّهُ حَتَّى يَنْطِقَ الْعُودُ^(١)

[ومن الكامل]:

وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمَّحُمُ^(٢)

[ومن الطويل]:

فَإِنْ يَكُ ظَنِّي صَادِقاً وَهُوَ صَادِقِي^(٣)

(ولما سكت عن موسى الغضب) [من الطويل]:^(٤)

تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الْأَبْلَقُ^(٥)

ولبعضهم: [ومن الكامل]:

(١) فاستنطق العود قد طال السكوت به لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

لأبي نواس، شبه صوت العود على وجه الاستقامة والحسن بالنطق بالغناء على طريق التصريحية. أو شبه العود بإنسان على طريق المكنية والنطق تخييل، والسين والتاء للطلب، والسكوت ترشيح لذلك؛ لأنه ضد التكلف. والمراد بنطق اللهو زيادته وحسنه، فهو من باب المشاكلة، وهل هي حقيقة أو مجاز أو كناية أو قسم رابع؟ خلاف بين القوم بين في البيان.

(٢) فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي
لعنتر بن شداد من معلقته، يصف فرسه بأنه ازور أي مال من وقوع الرماح بلبانه، وهو موضع اللب من صدره، وشبهه بالعاقل على طريق المكنية والشكاية تخييل، والعبرة: البكاء. والحممة: صوت الصهيل يشبه الحنين، لو كان يعلم ما هي المحاورة والمخاطبة لاشتكى إلي وخاطبني حقيقة، وإنما يشكو إلي بالعبرة والتحمحم فقط. وفسره بقوله: ولكان مكلماً لي لو علم الكلام، وذلك مبالغة في شدة الحرب.

(٣) لهفي على القوم الذين تجمعوا يذي السيد لم يلقوا علياً ولا عمرا

فإن يك ظني صادقاً وهو صادقني
بشملة يجسهم بها محبساً وعرا
لكنز أم شملة بن برد المنقري، وذو السيد - بالكسر -: موضع المعركة، والسيد: الذئب. وقولها «وهو صادقني» اعتراض. وبشملة: متعلق بظني. تقول: يا تلهفي على القوم الذين اجتمعوا في ذلك الموضع ولم يلاقهم أحد هذين الفارسين، فقتلوا برداً أبا شملة. فإن يك ظني به صادقاً مع أن عادته يصدقني، يجسهم شملة في تلك المعركة حبساً صعباً فيأخذ ثأر أبيه. ويجوز أن محبساً ظرف يدل من بها. وشبهت الظن بمن يصح منه الصدق في الخبر على طريق الكناية، والصدق تخييل لذلك. أو المعنى: فإن يك ظني مطابقاً للواقع.

(٤) وقد قالت الزبا لحصن سموءل تمرد مارد وعز الأبلق

مارد: هو حصن دومة الجندل. والأبلق: حصن سموأل، قصدتهما الزبا ملكة الجزيرة فاستصعبا =

يَأْبَى عَلَى أَجْفَانِهِ إِغْفَاءَهُ هَمٌّ إِذَا انْقَادَ الْهُمُومُ تَمَرِّدًا^(١)
[ومن الكامل]:

أَبَتْ الرُّوَادِفُ وَالْثُدِي لِقُمْصِهَا مَسَّ الْبُطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورًا^(٢)
(قلنا أتينا طائعين): ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام الله - تعالى - ممن لا يعلم، كان يجعل الضمير للخصم؛ لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة، فتمحل ليرده إلى / ٢١٣ ب ما هو عنده أصح وأفصح، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز، وانقض: إذا أسرع سقوطه، من انقضاظ الطائر وهو يفعل، مطاوع قضضته، وقيل: افعل من النقض، كاحمر من الحمرة، وقرئ: «أن ينقض» من النقض، و «أن ينقاص»؛ من انقاصت السن إذا انشقت طولاً؛ قال ذو الرمة [من البسيط]:

= عليها، فقالت ذلك، وصار يضرب مثلاً. وقوله: لحصن سمول، أي: ولحصن دومة الجندل. تمرد: صار أملس ناعماً، ومرد مرداً ومرودة، إذا كان أملس لا شعر فيه والمكان لا نبات فيه، أو تمرد بمعنى تشيطن، وفعل أهله فعل المردة من الجن، فهو لا يستطيع أحد طلوعه. وعز إن كان مضارعه بضم العين كان متعدياً بمعنى غالب، وإن كان بكسرها كان لازماً بمعنى امتنع. والمعنى: أنها لم تقدر على بلوغ مرادها منهما لشجاعة أهلها.

(١) للزمخشري. والهم: ما يهتم به، وهو فاعل. والإغفاء: النوم الخفيف، وهو مفعول، وذلك مجاز عن تسبب الهم في منع النوم. وانقياد الهموم: مجاز عن سكوتها، وتمرد الهم مجاز عن تزايد وكثرة خطوره بالبال. أو شبه الهموم بحيوانات يصح منها الانقياد والتمرد على طريق المكنية، والتمرد ضد الانقياد، وهما تخيل.

(٢) أبَتْ الروادف والثدي لقمصها مس البطون وأن تمس ظهوراً
وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا

الإباء: المنع الاختياري فشبه الروادف والثدي لكبرها بمن يصح منه ذلك على طريق المكنية والإباء تخيل. والأقرب أنه مجاز مرسل، والمراد به مطلق المنع، والكلام بعد ذلك كناية عن نهود ثدييها وكبر ردييها وضمور خصرها. وفيه لف ونشر غير مرتب، لأن مس البطون يرجع للثدي، ومس الظهر يرجع للروادف. وعبر بالجمع عن غيره مجازاً. أو اعتبر الأجزاء، فالتجوز في مفرد الجمع. والثدي بالتشديد: جمع ثدي بالتخفيف. والقمص: جمع قميص. وتناوح الجبلان. تقابلاً، فالمراد بالتناوح: التقابل، بحيث يجيء بعض الرياح من أمامها وبعضه من خلفها، فتظهر روادفها ونهودها وتلتصق الثياب بخصرها فيظهر ضموره، فتنبه الحاسدة لها، ويهيج الغيور لكراهة ذلك من الرياح. وهاج الشيء: هام، وهاجه: هيمه، وهيجه: هيمه. وما هنا من الوسط. ويجوز أنه شبه على طريق المكنية. أو شبه أصواتها اللينة بالتناوح على طريق التصريحية، ثم جعل ذلك كناية عن تقابلها لأنها إنما يكون لها أصوات إذا تقابلت فاضطربت، ومع: بمعنى في.

البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة في الشعر المنسوب إليه (٤٩٢) وفي الحماسة (٩٣/٢) ورصف المباني ص (٤٣٢).

..... مِنْقَاصٌ وَمُنْكَشِبٌ^(١)

بالصاد غير معجمة، ﴿فَأَقَامَهُ﴾، قيل: أقامه بيده، وقيل: مسحه بيده فقام واستوى، وقيل: أقامه بعمود عمده به، وقيل: نقضه وبناه، وقيل: كان طول الجدار في السماء مائة ذراع، كانت الحال حال اضطراب وافتقار إلى المطعم، وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً؛ فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وطلبت على عملك جعلاً حتى نتعش ونستدفع به الضرورة، وقرئ: «لتخذت»، والتاء في «تخذ»: أصل كما في تبع، واتخذ افتعل منه، كاتبع من تبع، وليس من الأخذ في شيء.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

فإن قلت: ﴿هَذَا﴾: إشارة إلى ماذا؟

قلت: قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى - عليه السلام -: «إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه، كما تقول: هذا أخوك، فلا يكون «هذا»: إشارة إلى غير الأخ، ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث، أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل: هذا فراق بيني وبينك، وقد قرأ به ابن أبي عبلة، فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ

سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾

﴿لِمَسْكِينٍ﴾ قيل: كانت لعشرة إخوة، خمسة منهم زمني، وخمسة يعملون في البحر، ﴿وَرَاءَهُمْ﴾: أمامهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقيل: خلفهم، وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره، فأعلم الله به الخضر وهو: «جلندي»^(٢).

(١) يغشى الكناس بروقيه ويهدمه من هائل الرمل منقاص ومنكشِب

لذي الرمة يصف ثوراً وحشياً. والكناس: بيت الوحش. وروقه: قرناه. والمنقاص - كالمختار -: المتساقط من جانب طول الكناس. والمنكشِب - بالمثلثة -: المجتمع. وروي: منقاص، بالمعجمة. والمعنى واحد، أي: يحفر الكناس بقرنيه، ليستتر من المطر، ويهدمه المتساقط المجتمع من الرمل الرخو الهابل.

ينظر: ديوانه ص ٨٨، وأساس البلاغة (قيص)، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٥٧، وتاج العروس (قيص)، وبلا نسبة في كتاب العين ١٨٥/٥.

(٢) قوله: «وهو جلندي»: في الخازن: وكان اسمه الجلندي الأزدي، وكان كافراً. وقيل: كان اسمه حرد بن برد (ع).

فإن قلت: قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾: مسبب عن خوف الغضب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب^(١)، فلم قدم عليه؟

قلت: النية به التأخير، وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغضب ليس هو السبب وحده؛ ولكن مع كونها للمساكين، فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم، وقيل في قراءة أبي عبد الله: «كل سفينة صالحة».

﴿وَأَمَّا أَلْعَلَّمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٦) ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْ زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨٧) ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٨)

وقرأ الجحدري: «وكان أبواه مؤمنان»، على أن «كان»: فيه ضمير الشأن، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: فخشنا أن يغشى الوالدين المؤمنين؛ طغياناً عليهما، وكفراً؛ لنعمتهما بعقوبه وسوء صنيعه، ويلحق بهما شراً وبلاء، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعديهما بدائه ويضلها بضلاله، فيرتد بسببه، ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان، وإنما خشي الخضر منه ذلك؛ لأن الله - تعالى - أعلمه بحاله وأطلععه على سر أمره، وأمره إياه بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته، وفي قراءة أبي: «فخاف ربك»، والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره، ويجوز أن يكون قوله: (فخشينا): حكاية لقول الله تعالى، بمعنى: فكرهنا؛ كقوله: (لأهب لك)، وقرئ: «يبدلها»: بالتشديد، والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب، والرحم: الرحمة

(١) قال محمود: «إن قلت قوله ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ مسبب عن خوف الغضب عليها... إلخ» قال أحمد: وكأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين، ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب بذكر عادة الملك في غصب السفن، وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدماً والنية تأخيره، والله أعلم. ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي والمخالفة بينها في الأسلوب عجباً. ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ و﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا﴾ ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى، لأن المراد ثم عيب، فتأدب ثم نسب الإعابة إلى نفسه. وإما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك: أمرنا بكذا، أو دبرنا كذا، وإنما يعنون أمر الملك ودبر، ويدل على ذلك قوله في الثالثة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ولم تأت على نمط واحد مكرر يمجها السمع وينبئ عنها، ثم انفجرت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة، فسبحان اللطيف الخبير.

والعطف، وروي أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي، فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم، وقيل: ولدت سبعين نبياً، وقيل: أبدلها ابناً مؤمناً مثلهما، قيل: اسما الغلامين: أصرم، وصريم، والغلام المقتول: اسمه الحسين، واختلف في الكنز، فقيل: مال مدفون من ذهب وفضة (٩٠٤)، وقيل: لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله (٩٠٥)، وقيل: صحف فيها

٩٠٤ - أخرجه الترمذي (٣١٣/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة الكهف حديث (٣١٥٢)، والحاكم (٢/٣٦٩) من طريق يزيد بن يوسف عن يزيد بن يزيد بن جابر عن مكحول عن أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعاً وقال الترمذي: حديث غريب. وقال الحاكم: صحيح. وتعقبه الذهبي فقال: يزيد بن يوسف متروك، وإن كان حديثه أشبه ما روي في تفسير الكنز، والحديث ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣٠٧/٢) وعزاه أيضاً للطبراني في معجمه والبخاري، ونقل قول البخاري: إسناده حسن، ويزيد بن يوسف ليس به بأس، ومن قبله وبعده ثقات أ.هـ. قلت: وكلام البخاري - رحمه الله - فيه نظر؛ فالجمهور على تضعيف هذا الرجل، وقال الذهبي في «الكشاف» (٢٨٨/٣): واه، وقال في «ديوان الضعفاء» (٤٧٥٤): تركوه. وقال الحافظ في «التقريب» (٣٧٢/٢): ضعيف. وينظر «تهذيب التهذيب» (٣٧٣/١١).

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الترمذي، والحاكم، والبخاري، والطبراني، وابن عدي من طريق مكحول، عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، وفيه يزيد بن الصنعاني وهو ضعيف.

٩٠٥ - روي هذا مرفوعاً، وموقوفاً. أما المرفوع فأخرجه البخاري كما في «تخريج الكشاف» (٣٠٧/٢)، وقال: لا نعلمه يروي عن أبي ذر إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. وورد مرفوعاً أيضاً من حديث أنس بن مالك أخرجه الواحدي في «الوسيط» (١٦٢/٣) - بتحقيقنا - من طريق ضرار بن صرد ثنا محمد بن مروان ثنا أبان عن أنس به مرفوعاً. قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: وأبان والسدي الصغير متروكان. ومن طريق محمد بن مروان السدي أخرجه ابن شاهين في كتاب الجنائز؛ كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣٠٩/٢) وورد مرفوعاً أيضاً من حديث علي بن أبي طالب أخرجه ابن مردويه؛ كما في «تخريج الكشاف» (٣٠٨/٢) أما الموقوف:

فورد عن ابن عباس، أخرجه الطبراني في «الدعاء» كما في «تخريج الكشاف» (٣٠٨/٢) من طريق رشدين بن سعد عن أبي حازم عن ابن عباس موقوفاً، وله طريق آخر أخرجه الدارقطني في غرائب مالك. من طريق محمد بن صالح بن فيروز عن مالك عن نافع عن ابن عمر سئل ابن عباس به. وقال الدارقطني: هذا باطل عن مالك وجعفر بن محمد ومحمد بن صالح مجهولان.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه البخاري من رواية ابن حجرية عن أبي ذر مرفوعاً بهذا، وأنتم منه، وقال: لا نعلمه عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد. وروي الدارقطني في غرائب مالك من طريق محمد بن صالح بن فيروز، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال: «سئل ابن عباس عن الكنز. فذكره - وقال: هذا باطل عن مالك. وروي ابن عدي. من رواية أبي بن سفيان والطبراني في الدعاء، من رواية رشدين بن سعد =

علم، والظاهر لإطلاقه: أنه مال، وعن قتادة: أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا، وحُرِّمَت الغنيمة عليهم وأحلت لنا: أراد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾: اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما، وعن جعفر بن محمد الصادق: كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء، وعن الحسين بن علي - رضي الله تعالى عنهما - أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدِّي خير منه، فقال: قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون، ﴿رَحِمَهُ﴾: مفعول له، أو مصدر منصوب بأراد ربك؛ لأنه في معنى: رحمهما، ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ﴾: وما فعلت ما رأيت، ﴿عَنْ أَمْرِي﴾: عن اجتهادي ورأيي؛ وإنما فعلته بأمر الله.

﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآيَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۚ﴾ (٨٤) ﴿فَأَنْبَغُ سَبَبًا ۚ﴾ (٨٥) ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَلَذَا الْفُرَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۚ﴾ (٨٦) ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۚ﴾ (٨٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۚ﴾ (٨٨).

ذو القرنين: هو الإسكندر الذي ملك الدنيا، قيل: ملكها مؤمنان: ذو القرنين، وسليمان، وكافران: نمرود، وبختنصر (٩٠٦)، وكان بعد نمرود، واختلف فيه، فقيل: كان عبداً صالحاً، ملكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وألبسه الهيبة، وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه، وتحوطه الظلمة من ورائه، وقيل: نبياً، وقيل: ملكاً من الملائكة، وعن عمر - رضي الله عنه - أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهم، غفرأ ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة، وعن علي - رضي الله عنه -: سخر له السحاب، ومدت له الأسباب، وبسط له

= كلاهما عن أبي حازم عن ابن عباس نحوه، وعن علي مثل لفظ المصنف أخرجه البيهقي في الشعب من رواية جوير عن الضحاك، عن النزال بن سبرة عنه. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن علي مرفوعاً. ورواه ابن شاهين في الجنائز. والواحدي من رواية محمد بن مروان السدي الصغير: عن أبان عن أنس مرفوعاً أيضاً. وأبان والسدي الصغير متروكان. انتهى.
٩٠٦ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣٠٩/٢): رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الفضائل بسنده عن مجاهد.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن أبي شيبة من طريق مجاهد. قال: «لم يملك الأرض منها إلا أربعة: مؤمنان، وكافران فذكره». انتهى.

النور، وسئل عنه، فقال: أحبه الله فأحبه / ٢١٤ أ، وسأله ابن الكوا: ما ذو القرنين؟ أملك أم نبي؟ فقال: ليس بملك ولا نبي، ولكن كان عبداً صالحاً، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فسمي ذا القرنين وفيكم مثله، قيل: كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحبيه الله تعالى، وعن النبي ﷺ: «سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ طَافَ قَرْيَتِي الدُّنْيَا» (٩٠٧). يعني: جانبها شرقاً وجانبها غرباً، وقيل: كان له قرنان، أي: ضفيريّتان، وقيل: انقرض في وقته قرنان من الناس، وعن وهب: لأنه ملك الروم وفارس، وروى: الروم والترك، وعنه: كانت صفحتا رأسه من نحاس، وقيل: كان لتاجه قرنان، وقيل: كان على رأسه ما يشبه القرنين، ويجوز أن يلقب بذلك؛ لشجاعته، كما يسمى الشجاع: كبشاً؛ لأنه ينطح أقرانه، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره، والسائلون: هم اليهود، سألوه على جهة الامتحان، وقيل: سأله أبو جهل وأشياعه، والخطاب في: «عَلَيْكُمْ»: لأحد الفريقين، «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»: أي: من أسباب كل شيء، أرادته من أغراضه ومقاصده في ملكه، «سَبَّأً»: طريقاً موصلاً إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب، «فَأَتَيْعَ سَبَّأً» (٩٠٨): يوصله إليه حتى بلغ؛ وكذلك أراد المشرق، فأتبع سبباً، وأراد بلوغ السدّين فأتبع سبباً، وقرئ: «فأتبع»، قرئ: «حمئة»: من حمئت البئر: إذا صار فيها الحمأة، وحامية بمعنى: حارّة، وعن أبي ذر: كنت رديف رسول الله - ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت، فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَذَرِي أَيْنَ تَغْرُبُ هَذِهِ؟» فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ» ح (٩٠٨)، وهي قراءة ابن مسعود، وطلحة، وابن

٩٠٧ - قال الزيلعي (٣٠٩/٢): غريب. ورواه الدارقطني في كتاب «المؤتلف والمختلف» من قول الزهري، فقال: حدثنا مسلم بن عبد الله الحسيني ثنا الخضر بن داود ثنا الزبير بن بكار ثنا إبراهيم ابن المنذر ثنا عبد العزيز بن عمران عن سليمان بن أسيد عن الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها فسمي ذا القرنين. أ.هـ. وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجدّه مرفوعاً، وإنما رواه الدارقطني في المؤتلف. من رواية عبد العزيز بن عمران. عن سليمان ابن أسيد عن الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها. انتهى.

٩٠٨ - قال الحافظ بن حجر: كذا في نسخ الكشاف: على جمل، والذي في كتب الحديث على حمار ولم يصرح فيه بالإرداف. أ.هـ. والحديث أخرجه أبو داود (٣٧/٤) كتاب الحروف والقراءات: باب (١) حديث (٤٠٠٢) والحاكم (٢٤٤/٢) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

كذا في نسخ الكشاف «على جمل». والذي في كتب الحديث «على حمار» ولم يصرح فيه =

عمر، وابن عمرو، والحسن، وقرأ ابن عباس: «حمئة»، وكان ابن عباس عند معاوية، فقرأ معاوية: «حامية»، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار، كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة، وروي: في ثأط، فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل، فأشدد قول تبع [من الكامل]:

فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ مَآبِهَا فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَثَأُطٍ حَزَمَدٍ^(١)
أي: في عين ماء ذي طين وحمل أسود، ولا تنافي بين الحمئة والحامية، فجائز أن

===== بالإرداف. عن أبي داود، والحاكم من طريق الحكم بن عيينة عن إبراهيم التيمي عن أبيه، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «كنت مع رسول الله ﷺ وهو على حمار، والشمس عند غروبها فقال: هل تدري أين تغرب هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تغرب في عين حامية» زاد الحاكم: «غير مهموزة». ورواه ابن أبي شيبه، وأحمد وأبو يعلى، والبزار، وزاد: «وتنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش، فإذا كان خروجها أذن الله لها وإذا أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها، فيقول. اطلعي من حيث غربت. فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها» وقال تفرد به سفيان بن حسين عن الحاكم. ورواه الجماعة عن إبراهيم التيمي. وهو في الصحيحين دون قوله «تغرب في عين حامية» وأوله «كنت مع النبي ﷺ جالساً» الحديث. انتهى.

(١) قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتسجد
بلغ المغارب والمشارك يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغار الشمس عند مآبها في عين ذي خلب وثأط حرمد

لتبع الأكبر اليماني المذكور في القرآن، يفتخر بجده اسكندر ذي القرنين بن فيلسوف اليوناني. ويروي: مرءأ، بدل جدي. وتدين أي تنقاد. وروي بدله: «علا في الأرض غير مفند» أي غير مكذب، فلا عيب في القافية والخلب - بضم تين -: الحمأة وهي الطين. والثأط: الحمأة المختلطة بالماء، فتزيد رطوبة وتفسد. والحرمد: الطين الأسود. مدح ذا القرنين ثم قال: إنه بلغ مواضع غروب الشمس ومواضع شروقها، يبتغي من الله أسباباً توصله لمقصده، فرأى محلي غيار الشمس عند مآبها، أي رجوعها إليه. ويروي مآب الشمس عند مغيبها: أي غيوبتها. وفي عين: متعلق بغار. أو بمحذوف، أي: رآها تغرب في عين. ويجوز أنه حال من المغار؛ لأن العين أوسع منه، أي في عين ماء ذي طين أسود مختلط بماء، وهذا موافق لظاهر الآية. وأولها أبو علي الجبائي بأن ذلك على سبيل التخيل، كما أن من لم ير الشاطئ الغربي من البحر المتسع يرى الشمس تغرب فيه، وفي الحقيقة تغرب في ظلمة وراء الأبيض، لأن الأرض كروية.

وهو لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٢٦، ولسان العرب (حرمد)، (ثأط)، ومقاييس اللغة ١/ ١٥٤، وتهذيب اللغة ٤١٨/٧، وتاج العروس (أوب)، (حرمد)، (ثأط)، ولتبع في تاج العروس (خلب)، ولسان العرب (أوب)، (خلب)، (حرمد)، وكتاب العين ٤/ ٢٧٠، ٤١٧/٨، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٣٠، ٥/ ١٤، ٦٠٧/١٥، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٣٩٨، وجمهرة اللغة ص ١١٤٠.

تكون العين جامعة للوصفين جميعاً، كانوا كفرة فخير الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإسلام، فاختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم، فقال: أما من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك؛ فذلك هو المعذب في الدارين، ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ﴾: ما يقتضيه الإيمان، ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى﴾، وقيل: خيره بين القتل والأسر، وسماه إحساناً في مقابلة القتل، (فله جزاء الحسنى): فله أن يجازي المثوبة الحسنى، أو فله جزاء الفعل الحسنى التي هي كلمة الشهادة، وقرئ: «فله جزاء الحسنى»، أي: فله الفعل الحسنى جزاء، وعن قتادة: كان يطبخ من كفر في القدور، وهو العذاب النكر، ومن آمن أعطاه وكساه، ﴿مِنْ أَمْرًا يُسْرًا﴾ أي: لا نأمره بالصعب الشاق، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك، وتقديره: «ذا يسر»؛ كقوله: ﴿فَوَلَّا يَسُورًا﴾، وقرئ: «يسراً»: بضميتين.

﴿ثُمَّ أُنْعِمَ سُبُبًا ۝۸۹ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝۹۰﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

وقرئ: مطلع، بفتح اللام وهو مصدر، والمعنى: بلغ مكان مطلع الشمس؛ كقوله [من الطويل]:

كَأَنَّ مَجَرَ الرَّامِسَاتِ ذُبُولَهَا (١)

يريد: كأن آثار مجر الرامسات؛ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ قيل: هم الزنج، والستر: الأبنية؛ وعن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب؛ فإذا طلعت الشمس دخلوها، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معاشهم، وعن بعضهم: خرجت حتى جاوزت الصين، فسألت عن هؤلاء فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس

(١) كأن مجر الرامسات ذبولها عليه قضيم نمقته الصوانع للنابغة، والمجر ليس مكان الجر، وإنما هو مصدر بمعنى الجر، لأنه لو كان اسم مكان لما عمل النصب، ثم يجب تقدير مضاف ليصح الإخبار عنه بأنه قضيم أي موضع مجر، أي كان المحل الذي تجر الرياح الرامسات ذبولها عليه قضيم، أي جلد أبيض نمقته وحسته الصوانع للكتابة. وسميت الرياح رامسات من الرمس أي التغيب؛ لأنها تحمل التراب وتلقيه على الآثار فيدفعها. واستعار الذبول لما يلي الأرض من الرياح على طريق التصريح. ويجوز أن تشبه الرياح بنساء لثيابهن ذبول طويلة يحررنها على الأرض، والذبول تخيل.

ينظر: ديوانه ص ٣١، وجمهرة اللغة ص ٩٧٧، وخزانة الأدب ٤٥٣/٢، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٧٤، وشرح شواهد الشافية ص ١٠٦، وشرح المفصل لابن يعيش ١١٠/٦، ١١١، ولسان العرب، (ذيل)، (قضم)، وتاج العروس (نمق)، (ذيل)، (قضم)، وبلا نسبة في شرح شافية ابن الحاجب ١٦/٢، وشرح عمدة الحافظ ص ٧٣٣.

الأخرى، ومعني صاحب يعرف لسانهم، فقالوا له: جئتنا ننظر كيف تطلع الشمس؟ قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة^(١)، فغشى علي، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سرباً لهم، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم، وقيل: الستر: اللباس، وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين كذلك، أي: كما وصفناه تعظيماً لأمره، ﴿وَقَدْ أَحْطَأَ بِمَا لَدَيْهِ﴾: من الجنود والآلات وأسباب الملك، ﴿خُبْرًا﴾: تكثيراً لذلك، وقيل: لم نجعل لهم من دونها ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كل جنس، والثياب من كل صنف، وقيل: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك، أي: كما بلغ مغربها، وقيل: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم، يعني: أنهم كفره مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر، وإحسانه إلى من آمن منهم.

﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾: بين الجبلين، وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما، قرئ: بالضم والفتح، وقيل: ما كان من خلق الله - تعالى - فهو مضموم، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح؛ لأن السد بالضم فعل بمعنى: مفعول، أي: هو مما فعله الله تعالى وخلقه، والسد - بالفتح -: مصدر حدث يحدثه الناس، وانتصب (بين): على أنه مفعول به مبلوغ، كما انجز على الإضافة في قوله: (هذا فراق بيني وبينك)، وكما ارتفع في قوله: (لقد تقطع بينكم)؛ لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً، وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق، ﴿مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾: هم الترك ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾: لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة، ونحوها كما يفهم البكم، وقرئ: يفقهون، أي: لا يفهمون السامع / ٢١٤ ب كلامهم ولا يبينونه؛ لأن لغتهم غريبة مجهولة.

﴿قَالُوا يَنْذَا لَٱلْقَرْيَتَيْنِ ۖ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا عَلَىٰ أَن نَّجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

(١) قوله: «إذ سمعنا كهيئة الصلصلة» في الصحاح «الصلة» واحدة الصلال، وهي القطع من الأمطار المتفرقة يقع منها الشيء بعد الشيء، وصلصلة اللجام: صوته إذا ضوعف (ع).

﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: اسمان أعجميان؛ بدليل منع الصرف، وقرئنا: مهموزين، وقرأ رؤية: أجوج ومأجوج، وهما من ولد يافث، وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجيل والديلم^(١)، ﴿مُقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلاً وأذى شديداً، وعن النبي ﷺ في صفتهم: «لَا يَمُوتُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى أَلْفِ ذَكَرٍ مِنْ صَلْبِهِ، كُلُّهُمْ قَدْ حَمَلَ السَّلَاحَ» (٩٠٩). وقيل: هم على صنفين، طوال مفروطو الطول، وقصار مفراطو القصر، قرئ: «خرجا»، و «خراجا»، أي: جعلنا نخرجه من

٩٠٩ - أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٤/٦)، والواحد في «الوسيط» (١٦٦/٣) - بتحقيقنا)، والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٩/٨)، والطبري في «تفسيره» (٦٩/١٧)، وابن مردويه والثعلبي كما في «تخريج الكشاف» (٣١١/٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٠٦/١)، كلهم من طريق يحيى بن سعيد، عن محمد بن إسحاق عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة مرفوعاً، وقال ابن عدي: هذا حديث منكر موضوع، ومحمد بن إسحاق هذا ليس هو صاحب المغازي، وإنما هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن عكاشة بن محيصن الأسدي. وقال ابن الجوزي: ومحمد بن إسحاق هو العكاشي قال يحيى بن معين: كذاب. وقال الدارقطني: يضع الحديث.

قال الحافظ بن حجر في «تخريج الكشاف» وذكره ابن الجوزي من هذا الوجه في الموضوعات، فلم يصب؛ فإن له طريقاً أخرى في صحيح ابن حبان عن ابن مسعود. أ.هـ. أما الشاهد الذي ذكره الحافظ فأخرجه ابن حبان (١٩٠٧ - موارد) من طريق زيد بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود مرفوعاً. وله شاهد آخر من حديث أوس. أخرجه النسائي في «التفسير» (٣٥٣).

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن عدي، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والثعلبي وغيرهم من رواية يحيى بن سعيد، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة قال: «سألت النبي ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال: يأجوج أمة، ومأجوج أمة، كل أمة أربعة آلاف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح» قال ابن عدي: هذا موضوع. ومحمد بن إسحاق هذا ليس هو صاحب المغازي، وإنما هو العكاش وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه، فلم يصب، فإن له طريقاً أخرى؛ ففي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفاً» وفي النسائي عن عمرو بن أوس عن أبيه رفعه: «أن يأجوج ومأجوج يجامعون ما شأوا. ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً. وفي المستدرک عن عبد الله بن عمرو رفعه: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً» انتهى.

(١) قوله: «من الجيل والديلم» كذا عبارة النسفي أيضاً، ولعله «من جيل الديلم» وفي الصحاح: جيل من الناس، أي: صنف، الترك جيل، والروم جيل. وفيه: الديلم جيل من الناس (ع).

أموالنا؛ ونظيرهما: النول والنوال، وقرئ: «سدا»، و «سدا»: بالفتح والضم.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ﴾ (٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَقًّا إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفَخُوا حَقًّا إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ﴾ (٩٦) فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَفْسًا ۚ﴾ (٩٧)

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾: ما جعلني فيه مكيئا من كثرة المال واليسار، خير مما تبذلون لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه، كما قال سليمان، صلوات الله عليه: (فما آتاني الله خير مما آتاكم)، قرئ بالإدغام وبفكه، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾: بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل، وبالألات، ﴿رَدْمًا﴾: حاجزاً حصيناً موثقاً، والردم: أكبر من السد، من قولهم: ثوب مردم، رقاع فوق رقاع، قيل: حفر الأساس^(١) حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر. والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد، بينهما الحطب^(٢) والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار، صب النحاس المذاب على الحديد المحمي فاختلط والتصق ببعضه ببعض وصار جبلاً صلدأ، وقيل: بعد ما بين السدين مائة فرسخ، وقرئ: «سوى»، و «سووي»، وعن رسول الله ﷺ أَنَّ رجلاً أخبره به فقال: كيف رأيته؟ قال: «كَالْبُرْدِ^(٣) الْمُخْبِرِ طَرِيقَةَ سَوْدَاءَ وَطَرِيقَةَ حَمْرَاءَ». قال: «قد رأيته» (٩١٠) والصدفان - بفتحيتين -: جانباً الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أي: يتقابلان، وقرئ:

٩١٠ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨٥/٨) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به مرسلأ، وأخرجه أيضاً ابن مردويه، والطبراني في «مسند الشاميين»، والبزار كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣١٢ - ٣١٣).

(١) قوله: «قيل حفر الأساس» لعله: للأساس (ع).

(٢) قوله: «بينهما الحطب» لعله: بينها (ع).

(٣) أخرجه الطبري من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. قال «ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال انعته لي قال: كالبرد المخبر. طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته» ورواه ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة عن سعيد عن قتادة عن رجل من أهل المدينة. أنه قال للنبي ﷺ، رأيت الردم فذكر نحوه، ورواه الطبراني في مسند الشاميين. وابن مردويه عنه من رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن رجل عن أبي بكرة الثقفي «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فذكر نحوه، لكن قال «طريقة حمراء من نحاس: وطريقة سوداء من حديد» وأخرج البزار من وجه آخر عن يوسف بن أبي مريم الحنفي. قال «بينما أنا قاعد مع أبي بكرة إذ جاء رجل فسلم عليه. فقال له أبو بكرة من أنت؟ قال تعلم رجلاً أتى النبي ﷺ فأخبره أنه رأى الردم. فقال له أبو بكرة: وأنت هو؟ قال: نعم. قال: اجلس حدثنا. قال: انطلقت حتى أتيت أرضاً ليس لهم إلا الحديد يعلمونه». فذكر القصة والحديث. وقال: لا نعلم له رواية عن النبي ﷺ غير أبي بكرة.

«الصدفين»؛ بضمّتين، و «الصدفين»: بضمة وسكون، و «الصدفين»: بفتحة وضمة، والقطر: النحاس المذاب؛ لأنه يقطر، و ﴿قَطَرًا﴾: منصوب بأفرغ، وتقديره: آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً، فحذف الأول، لدلالة الثاني عليه، وقرئ: قال: اتنوني، أي: جيثوني، ﴿فَمَا أَطْلَعُوا﴾: بحذف التاء للخفة؛ لأن التاء قريبة المخرج من الطاء، وقرئ: «فما اصطاعوا»: بقلب السين صاداً، وأما من قرأ بإدغام التاء في الطاء، فملاق بين ساكنين على غير الحد، ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾: أن يعلوه، أي: لا حيلة لهم فيه من صعود، لارتفاعه وانملاسه، ولا نقب لصلابته وثخائته.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨)

﴿يَهَذَا﴾: إشارة إلى السد، أي: هذا السد نعمة من الله، و: ﴿رَحْمَةً﴾: على عباده، أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته، ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾: يعني: فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي جعل السد، ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: مذكوكاً مبسوطاً مسوّى بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك، ومنه: الجمل الأدك: المنبسط السنام، وقرئ: دكاء، بالمد، أي: أرضاً مستوية، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾: آخر حكاية قول ذي القرنين.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ (٩٩)

﴿وَتَرَكْنَا﴾: وجعلنا، ﴿بَعْضَهُمْ﴾: بعض الخلق، ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يضطربون ويختلطون-إنسهم وجنهم حيارى، ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد، وروي: يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس،

أخرجه الطبري من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. قال «ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال انعته لي قال، كالبرد المحبر. طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته، ورواه ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة عن سعيد عن قتادة عن رجل من أهل المدينة. أنه قال للنبي ﷺ، رأيت الردم فذكر نحوه، ورواه الطبراني في مسند الشاميين. وابن مردويه عنه من رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن رجل عن أبي بكرة الثقفي «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فذكر نحوه، لكن قال طريقة حمراء من نحاس: وطريقة سوداء من حديد» وأخرج البزار من وجه آخر عن يوسف بن أبي مريم الحنفي. قال «بينما أنا قاعد مع أبي بكرة إذ جاء رجل فسلم عليه. فقال له أبو بكرة من أنت «قال تعلم رجلاً أتى النبي ﷺ فأخبره أنه رأى الردم. فقال له أبو بكرة: وأنت هو؟ قال: نعم. قال: اجلس حدثنا. قال: انطلقت حتى أتيت أرضاً ليس لهم إلا الحديد يعلمونه. فذكر القصة والحديث. وقال: لا نعلم له رواية عن النبي ﷺ غير أبي بكرة. قوله «ثم يبعث الله نغفا في أفئدتهم» أي دوداً، أفاده الصحاح.

ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفاً في أقفائهم^(١) فيدخل في آذانهم فيموتون.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٢٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٢١﴾

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾: وبرزناها لهم فراوها وشاهدوها، ﴿عن ذكري﴾: عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها؛ ونحوه: صم بكم عمي، ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يعني: وكانوا صماً عنه، إلا أنه أبلغ؛ لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم^(٢)، فلا استطاعة بهم للسمع.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِيَاءِ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (١٢٢)

﴿عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِيَاءِ﴾: هم الملائكة، يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء؛ كما حكي عنهم: ﴿سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾، وقرأ ابن مسعود: أفطن الذين كفروا، وقراءة علي - رضي الله عنه -: «أفحسب الذين كفروا»، أي: أفكافيههم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر، أو على الفعل والفاعل؛ لأن اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل؛ كقولك: «أقائم الزيدان»، والمعنى: أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا، وهي قراءة محكمة جيدة، النزول: ما يقام للنزول وهو الضيف، ونحوه: ﴿فَنَبِّئْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢).

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٢٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٢٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٢٦﴾

﴿مَنْ لَّ سَعِيَّتِهِمْ﴾: ضاع وبطل وهم الرهبان، عن علي - رضي الله عنه - (٩١١) كقوله: ﴿عاملة ناصبة﴾ [الفاشية: ٣] وعن مجاهد: أهل الكتاب، وعن علي - رضي الله عنه -: أن

٩١١ - ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٥٦) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

- (١) قوله: «ثم يبعث الله نغفاً في أقفائهم» أي دوداً، أفاده الصحاح (ع).
(٢) قوله: «كأنهم أصميت أسماعهم» في الصحاح في مادة صمم: أصمه الله فصم. وفي مادة صما بالالف: أصميت الصيد إذا رميته فقتلته، فقوله: أصميت، لعله بمعنى أهلك بالمرة بحيث لا يمكن أن تسمع (ع).

ابن الكوا سأله عنهم؟ فقال: منهم أهل حروراء (٩١٢)، وعن أبي سعيد الخدري: يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً، ﴿فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾: فنزدرى بهم، ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار، وقيل: لا يقام لهم ميزان؛ لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين، وقرئ: «فلا يقيم»: بالياء.

فإن قلت: الذين ضل سعيهم في أي محل هو؟

قلت: الأوجه أن يكون في محل الرفع، على: هم الذين ضل سعيهم؛ لأنه جواب عن السؤال، ويجوز أن يكون نصباً على الذم، أو جراً على البدل، ﴿جَهَنَّمَ﴾: عطف بيان لقوله: (جزاؤهم)^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٨﴾﴾

الحول: التحول، يقال: حال من مكانه حولاً؛ كقولك: عادني حبها عوداً، يعني: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانهم، وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح للطرف إلى أرفع منه، ويجوز أن يراد نفي التحول وتأكيده الخلود.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثًّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٩﴾﴾

المداد: اسم ما تمد به الدواة من الحبر وما يمد به السراج من السليط، ويقال: السمد مداد الأرض، والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها، والمراد بالبحر: الجنس، ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ﴾: الكلمات، ﴿وَلَوْ جِثًّا﴾: بمثل البحر مداداً لنفد - أيضاً - والكلمات غير نافدة، و ﴿مَدَدًا﴾: تمييز؛ كقولك: لي مثله رجلاً، والمدد مثل المداد، وهو ما يمد به، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: بمثله مداداً، وقرأ الأعوج: «مِدَادًا»: بكسر الميم، جمع: مَدَّة، وهي: ما يستمده الكاتب فيكتب به، وقرئ:

٩١٢ - ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٥٦) وعزاه لابن مردويه.

(١) قوله: «عطف بيان لقوله جزاؤهم الحول» كذا في النسفي أيضاً، لكن المتجه أنه بيان لقوله (ذلك) الذي هو إشارة لما مر في قوله ﴿إِنَّا اعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ﴾ (ع).

«ينفد»: بالياء، وقيل: قال حيي بن أخطب: في كتابكم، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ثم تقرأون: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ فنزلت، يعني: أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٥)

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾: فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، وقد فسرنا اللقاء، أو: أضمن كان يخاف سوء لقائه، والمراد بالنهاي عن الإشراك بالعبادة: أن لا يراني بعمله وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره. وقيل: نزلت في جندب بن زهير قال للنبي ﷺ: «إني أعمل العمل، فإذا اطلع عليه سرتي، فقال: إن الله لا يقبل ما شورك فيه» (٩١٣). وروي أنه قال: «لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية» (٩١٤)، وذلك إذا قصد أن يقتدي به، وعنه ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء» (٩١٥). عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف من

٩١٣ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣١٣/٢) غريب. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٦٠٤).
٩١٤ - أخرجه الترمذي (٥٩٤/٤) كتاب الزهد: باب عمل البر حديث (٢٣٨٤) وابن ماجه (١٤١٢/٢) كتاب الزهد: باب الثناء الحسن حديث (٤٢٢٦) والطيالسي (٢٨/٢ - منحة) رقم (١٩٩٩) وابن حبان (٦٥٥ - موارد) وابن عدي في «الكامل» (١٢٠٠/٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وقد روى الأعمش وغيره عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن النبي ﷺ مرسلًا وأصحاب الأعمش لم يذكروا فيه عن أبي هريرة. أ.هـ. وصححه ابن حبان. وله شاهد من حديث أبي مسعود الأنصاري أخرجه الطبراني كما في «تخريج الكشاف» (٣١٤/٢). وشاهد آخر من حديث أبي ذر. أخرجه أبو نعيم في الحلية (١١٢/٧).
٩١٥ - أخرجه أحمد (٤٢٨/٥) من حديث محمود بن لبيد.

قال الزيلعي: رواه أبو القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب، من حديث أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه: ثنا دعلج بن أحمد، ثنا حامد بن محمد، ثنا سريج بن يونس، ثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. . . ذكره سواء. وبهذا الإسناد رواه الثعلبي في تفسيره سواء. ورواه ابن مردويه في تفسيره في سورة الرعد: ثنا دعلج بن أحمد به سنداً ومتناً، وكذلك رواه هذه السورة.

وروى أيضاً: حدثنا سليمان بن أحمد - هو الطبراني -: ثنا أحمد بن حماد بن رغبة، ثنا سعيد بن أبي مريم، ثنا ابن لهيعة، عن عمارة بن غزية، عن يعلى بن شداد بن أوس، عن أبيه قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر.

وروى الدارقطني في غرائب مالك، من حديث عبد الرحمن بن محمد بن سلام: ثنا إسحاق بن عيسى الطباع، عن مالك بن أنس، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا =

آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه . ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء» (٩١٩) وعنه عليه السلام: «من قرأ عند مضجعه (قل إنما أنا بشر مثلكم) كان له من مضجعه نور يتلألأ إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعه بمكة كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ» (٩١٧) / ١ / ٢١٥ أ والله أعلم.

= رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء». انتهى. ثم قال: غريب من حديث مالك، تفرد به إسحاق الطباع، وهو ثقة، ولا أعلم رواه عنه غير عبد الرحمن بن محمد بن سلام، وهو من الثقات. انتهى.

ورواه أحمد: ثنا يونس، ثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو به.
ورواه البيهقي في شعب الإيمان، في الباب الخامس والأربعين، من حديث ابن أبي مريم: ثنا ابن أبي الزناد، عن عمرو بن أبي عمرو به.

٩١٦ - أخرجه أحمد (٤٣٩/٣) من حديث معاذ بن أنس. وفي سنده ابن لهيعة.
وأخرجه أيضاً ابن السني في «عمل اليوم والليلة» والبخاري والطبراني والثعلبي وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣١٦/٢).

٩١٧ - أخرجه البزار (٣١٠٨ - كشف) من حديث عمر بن الخطاب. وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه والثعلبي وابن مردويه.